

الكافي

الاصول والروضة

لشيخ الاسلام ابي جعفر محمد بن يعقوب الكاظمي

وشرح جامع

للمولى محمد صالح المازندراني

المتوفى ١٠٨١ هـ ١٠٨٦ هـ

مع تعليقات عليه ، للعالم البتقر

الحاج الميرزا ابوالحسن الشيرازي دام ظله

من مذكرات

المكتب الاسلامي

طهران شارع بوذرجمهر

تلفن ٥٢١٩٦٦

الكافي

الاصول والروضة

لثقة الاسلام ابي جعفر محمد بن يعقوب الكليني

وشرح جامع

للمولى محمد صالح المازندراني

المتوفى ١٠٨١ هـ أو ١٠٨٦ هـ

مع تعليقات عليه ، للعالم المستبحر

الحاج الميرزا ابوالحسن الشيرازي دام ظله

عني بتصحيحه و تخريره علي أكبر الغفاري

من منشورات

المكتب الاسلامي

طهران - شارع البو جيهي (تلفن ٢١٩٦٦)

١٣٨٥ الهجري

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

نحمدك يا مروج عقول العارفين بمظاهر كمالك ليلاً و نهاراً ، و نشكرك
يا مفرّج قلوب السالكين بظواهر جلالك سرّاً و جهاراً ، و نشهد أن لا إله إلا أنت
شهادة توجب لنا في مقام قربك مستقراً و قراراً . و نصلي على سيد أنبيائك و أشرف
أوليائك صلاة دائمة مادامت الأرض ساكنة و الفلك دوّاراً (١).

و بعد فيقول المفتقر إلى رحمة ربه الغني حسام الدين محمد صالح بن أحمد
المازندراني : إنني قد رسمت على جميع أبواب الكافي تعليقات ، و رقمت على جميع
فنونه تحقيقات ، مع قلة البضاعة في هذه الصناعة و تشتت البال و تفرّق الحال
فلما أردت جمعها و تدوينها خطر ببالي أن أشرح جميع أحاديث هذا الكتاب شرحاً
متوسطاً بين الإيجاز و الاطناب لأنّ الأحاديث و إن كان بعضها ظاهر الدلالة على
المعنى المراد و اوضح الإشارة على المفهوم المستفاد ، لكن قد يوجد فيه من الفرائد
النفيسة و الفوائد الشريفة ما لا يدركه بدء النظر ، ولا يبلغه أوّل الفكر ، كم من
لثالي فريدة تؤخذ في الساحل لفيلة الواردين عنها ، و عدم التفات الطالبين إليها ،
فها أنا أشرع في المقصود بعون الله الملك المعبود مبتدئاً بشرح الخطبة لما فيها من
منافع الحكمة .

(١) هذا على اعتقاد أن الأرض ساكنة و عليه جل القدماء ، لكن في عصرنا هذا
لا نعرف من جزم بسكون الأرض بل أثبتوا لها حركة معورية تدور حول نفسها ، تحدث
منها الليل و النهار تسمى بالحركة الوضعية ، و حركة انتقالية تدور حول مركز الشمس
تحصل منها الفصول الأربعة .

((الأصل)):

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« الحمد لله المحمود لنعمته ، المعبود لقدرته ، المطاع في سلطانه ، المرغوب ،
 « لجلاله ، المرغوب إليه فيما عنده ، النافذ أمره في جميع خلقه . علا فاستعلى ،
 « ودنا فتعالى ، وارتفع فوق كل منظر ، الذي لا بدء لأوليته ، ولا غاية لأزليته ،
 « القائم قبل الأشياء ، والدائم الذي به قوامها ، والقاهر الذي لا يؤوده حفظها ،
 « والقادر الذي بعظمته تقرر بالملكوت ، وبقدرته توحّد بالجبروت ، وبحكمته ،
 « أظهر حججه على خلقه ، اخترع الأشياء إنشاء ، وابتدعها ابتداء (١) بقدرته ،
 « وحكمته لا من شيء ، فيبطل الاختراع ، ولا لعلّة فلا يصحّ الابتداء ، خلق ما شاء ،
 « كيف شاء متوحّداً بذلك لاظهار حكمته ، وحقيقة ربوبيته ، لاتضبطه العقول ،
 « ولا تبلغه الأهوام ، ولا تدركه الأبصار ، ولا يحيط به مقدار ، عجزت دونه العبارة ،
 « وكلمت دونه الأبصار ، وضلّ فيه تصاريف الصفات احتجب بغير حجاب محجوب ،
 « واستتر بغير ستر مستور ، عرف بغير روية ، ووصف بغير صورة ، ونعت بغير ،
 « جسم ، لا إله إلا الله الكبير المتعال . »

((الشرح)):

إبتدأ باسمه الجميد مقتدياً بالسلف و بالقرآن المجيد و معتمداً بما قاله
 سيّد البشر « كل أمر ذي بال لم يبدء فيه باسم الله فهو أبتر » و في ذكر الاسم إيماء
 إلى أن المراد بهذه الأسماء الشريفة المسميات و أن الاستعانة في الاستفاضة
 وقعت بأسمائها ، لأن لتلك الأسماء من الشرف والكمال ما لا يعرف قدره

(١) كذا في جميع النسخ و سيأتي في باب النهي عن الجسم و الصورة من كتاب
 التوحيد تحت رقم ٣ عن أبي الحسن الرضا «ع» هذه الجملة الى قوله «الكبير المتعال»
 و فيه هكذا «فاطر الاشياء انشاء و مبتدعها ابتداء» بالعين المهملة .

الغواصون في بحار آثارها والوصافون بشرح منافعها وأسرارها، على أن الاستعانة بالاسم تدل على الاستعانة بالمسمى قطعاً دون العكس، وإنما خص هذه الأسماء بالذكر لأنها أصل لأصول الفيض عاجلاً وآجلاً. ومبدئاً بحصول الرجاء ظاهراً وباطناً.

(الحمد لله) اختلفوا في تحديد الحمد والأحسن ما ذهب إليه بعض المحققين من الصوفية وما ذهب إليه المحقق الشريف العلامة الدواني، وهو أن الحمد إظهار صفات الكمال بالقول أو بالفعل، والثاني أقوى من الأول لأن الأفعال التي هي آثار السخاوة مثلاً تدل عليها دلالة عقلية قطعية لا يتصور فيها التخلف بخلاف الأقوال فإن دلالتها عليها وضعية وقد يتخلف عنها مدلولها، وعلى هذا كان حمده تعالى على ذاته حمداً على سبيل الحقيقة، بل هو من أفضل أفراده لأنه تعالى كشف عن صفات كماله ببسط بساط الوجود على ممكنات لا تحصى، ووضع عليها موائد كرمه التي لا تنهاى، إذ كل ذرة من ذرات الوجود تدل عليها، ولا يتصور في العبارات مثل هذه الدلالات. وما اشتهر من أن الحمد في اللغة الثناء باللسان على الجميل، وفي العرف أعم منه ومن عقد الجنان وفعل الأركان، فهو باعتبار أن هذه الأمور من الأفراد الشائعة لذلك المفهوم لا أن الحمد مختص بها كما فهمه الأكثر وحكموا بأن حمده تعالى على ذاته مجاز. واللام في «الحمد» للجنس أو الاستغراق وفي «الله» للاختصاص يعني أن جنس الحمد أو جميع أفراده مختص به سبحانه وبينهما تلازم، وصح ذلك لأنه تعالى مبدئ كل كمال ومرجع كل جلال.

(المحمود بنعمته) للحمد أركان أربعة: الحامد، والمحمود، والمحمود به والمحمود عليه. والأولان قد يتحدان بالذات كحمده تعالى على ذاته، وقد يتغايران كحمدنا له تعالى، وكذا الأخيران كحمده تعالى بالنعمة لأجلها. وحمده بالعلم لأجل إنعامه. إذا عرفت هذا فنقول: النعمة في قوله: «بنعمته»، إما محمود عليها إن كانت الباء سبباً للحمد، أو محمود بها إن كانت صلة له، ولا يلزم

من الحمد بها أن يكون الحمد لا جملها لجواز أن يكون لأجل غيرها ، كما إذا حمدت زيدا بالشجاعة لأجل سخاوته . و في بعض النسخ « لنعمته » باللام و هو يؤيد الأول كما يؤيده نظيره في القرينة الثالثة . لا يقال لا يصح جعل الحمد بالمنعمة علّة للحمد على ما يقتضيه قاعده التعليق بالوصف لأنّه من باب تعليل الشيء بنفسه لأننا نقول : على تقدير اطراد تلك القاعدة الحمد لأجل النعمة بمنزلة العلّة الغائيّة لجنس الحمد فيصح أن يجعل علّة له وإنما ابتدأ بعد التسمية بالحمد لحفظ ما أدرك من آلائه ، و جلب ما يترقب من نعمائه ، مع أنّه من أفضل الطاعات وأكمل العبادات إذا الحمد يلاحظ جماله وجلاله ويراعي إحسانه وإفضاله فيكون ذلك سبباً لمزيد امتنانه حالاً ورضوانه مآلاً .

(المعبود لقدرته) قدّم الحمد للنعمة على الحمد للقدرة مع أن القدرة من الصفات الذاتية التي هي أجدر بالشأن عليها لأن النعمة قد وصلت إلى الحامد بخلاف القدرة فإن الواصل إليه إنما هو أثرها ، فالنعمة أولى بالحمد لها بهذا الاعتبار ولقد أحسن في جعل النعمة سبباً لمحموديته والقدرة سبباً لمعبوديته ، لأن نعمته الواصلة إلى الغير توجب الحمد من حيث هو وقدرته على جميع الممكنات توجب العبادة والتدليل لله تعالى .

(المطاع في سلطانه) السلطان المسلط والقهر أو الحجّة و البرهان و قد فسّر بهما قوله تعالى : « فقد جعلنا لوليّه سلطاناً » والله سبحانه مطاع بالمعنيين لكونه قاهراً على جميع الممكنات فيطيعه كل ما كان في عنقه ربة الامكان و ينقاد له كل من احتجب عن الحس أو يشار إليه بالبنان ، لا يقدر شيء أن يتجاوز عن حدّه المقدّر و كماله المقرّ رباً لأمر المبرم والقضاء المحكم ، و غالباً على جميع المخلوقات بالحجج القاطعة والبراهين الساطعة فلا يمكن أحد أن يردّ حجته و برهانه و يمنع دليله و فرقانه ، و لفظ « في » إمّا المظرفيّة أو المسببيّة والثاني أولى بالنظر إلى السابق واللاحق ، و استعمالها فيه شائع حتى قيل : إنّها حقيقة فيه .

(المرهوب لجلاله) قال في المغرب رهبة : خافه رهبة ، والله مرهوب ، ومنه

« لبيك مرهوب ومرغوب إليك » ويفهم منه أن مرهوباً متعدي بنفسه ، والذي يفهم من كلام ابن الأثير في النهاية أنه متعدي بمن ، وعلى هذا حذف « من » للاقتصار كما هو المتعارف ، واللام للتعليل لأن من عرف عظمته وجلاله ولاحظ غناه عن الخلق وكماله و علم أن كل موجود بأسره مقهور تحت حكمه وأمره ، وهو يتصرف فيه ما يشاء كيف يشاء ، ويحكم ما يريد كيف يريد ، ولا يسئل ، حصلت له بذلك رهبة و خوف يتحير فيه العقول حيث رأى نفسه عارضة عن الاختيار في الرد والقبول كما هو المعروف من أحوال الأنبياء والصلحاء و به يظهر سر قول تعالى : « إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ » .

(المرغوب إليه فيما عنده) من النعم الدنيوية والأخروية جليتها وخفيتهما يقال : رغب فيه وإليه إذا أراد و طمع فيه و حرص عليه . والرغبة السؤال والطلب ، وإنما عقب بالرهبة الرغبة للتنبيه على وجوب مقارنتهما في التحقق ، إذ لا خير في رهبة بلا رغبة ، ولا في رغبة بلا رهبة ، بل وجب تقارنهما و تساويهما كما دل عليه بعض الأخبار و يرشد إليه قوله تعالى في وصف الأنبياء والأولياء « إِنَّهُمْ يَسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَ يَدْعُونَنا رَغْباً وَ رَهْباً وَ كَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ » و قوله تعالى : « وَ ادْعُوهُ خَوْفاً وَ طَمَعاً إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ » و إنما ترك سبب الرغبة للإشارة إلى أن ذاته بذاته هو الجواد المطلق ، فلا حاجة في بسط الرجاء إلى ملاحظة شيء آخر غير ذاته أولاً ندراج سببها تحت سبب الرهبة لأن جلالاته المطلقة كما يكون بالقهر والغلبة على ما عدها ممتن اتصف بسمة الامكان كذلك يكون بالرحمة واللفظ والاحسان إذ لولا الثاني لكانت عظمته وجلالاته مقيدة بوجه من الوجوه فحيث نقول من ملاحظة الأول تحصل الرهبة و من ملاحظة الثاني تحصل الرغبة ، ولا يجوز ملاحظة أحدهما وحده ، لأنه يستلزم القنوط أو الجرأة و كلاهما مذموم ، أو نقول في كل واحد من الأول والثاني تحصل الرهبة والرغبة جميعاً أمّا في الأول فلأن لطفه مستور في قهره فمن حيث القهر تحصل الرهبة و من حيث اللطف تحصل الرغبة ، و إليه يشير قوله تعالى : « وَ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مِنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهُهُ » و أمّا في الثاني

فلان قهره مستور في لطفه وإحسانه لاحتمال أن يكون ذلك على سبيل الاستدراج وإليه يشير قوله تعالى حكاية عن سليمان عليه السلام: «ليبلوني، أشكر أم أكفر» وقوله تعالى: «ولئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد» وبالجملة هو مرهوب ومرغوب إليه دائماً، والعبد راغب وراهب في جميع الأحوال وإليه يشير قول أمير المؤمنين عليه السلام «هو المأمول مع النقم والمرهوب مع النعم» (١).

(النافذ أمره في جميع خلقه) أي أمر التكوين، أو أمر الإفناء والاعدام، أو حكم القضاء، أو أمر التشريع بإرادة لازمة من الثواب والعقاب دون ظاهره بأذنه متعلق بالثقلين منهم من أطاعه ومنهم من عصاه.

(علا فاستعلى) الاستعلاء هنا لزيادة المبالغة أي علا في رتبته عن رتبة المخلوقين، فاستعلى عن التشبيه بصفاتهم، والتفريع ظاهر لأن الأول مستلزم للثاني، وإن أردت زيادة توضيح فتقول: العلو يطلق بالاشتراك على معان ثلاثة: الأول الحسني كالعلو بحسب المكان. الثاني التخيلي كعلو الملك على رعيته. والثالث العقلي كعلو السبب على المسبب، والأول محال في حقه تعالى لاستحالة كونه في المكان، وكذا الثاني لنزاهه عن الكمالات الخيالية إذ هي إضافية تتغير وتندرك بحسب الأشخاص والأوقات، ولا شيء من كماله كذلك فبقي أن يكون عقلياً مطلقاً بمعنى أنه لارتبة تساوي رتبته، بيان ذلك: أن أعلى مراتب الكمال العقلي هو مرتبة العلية ولما كان ذاته المقدسة هي مبدأ كل موجود حسني وعقلي وعلته التي لا يتصور فيها التقصان بوجه من الوجوه لاجرم كانت مرتبته أعلى المراتب العقلية على الإطلاق وله العلو في الوجود العاري عن الإضافة إلى شيء، وعن إمكان أن يكون في مرتبته أو فوق مرتبته شيء. ومن كان كذلك فهو منزّه عن التشبيه بصفات خلقه، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

(١) هذا الكلام مروي عنه «ع» في كتاب نهج البلاغة في خطبة له «ع» تحت

رقم ٦٢ أوله «الحمد لله الذي لم يسبق له حال حالاً» وفيه هكذا «المأمول مع النقم والمرجو من النعم».

(دنا فتعالى) أي قرب من كل شيء من كل وجه بحيث لا يكون شيء أقرب منه فتعالى أن يكون في مكان أو زمان أو مدركاً بالبصر أو غيره من الحواس ، والتفريع أيضاً ظاهر لأن الزماني والمكاني والمدرك بالحواس يمنع أن يكون قريباً من كل شيء. لظهور أن قربيه من أحد مستلزم لبعده عن الآخر ، ثم الدنو يطلق على معان ثلاثة ومقابلة لمعاني العلو ولا يجوز أن يراد هنا شيء منها ، و يطلق على معنى رابع في مثل قولك فلان أدنى إلى فلان إذا كان مطلقاً على أحواله أكثر من غيره وهو المراد هنا ، فدنوّه في قربيه إذن بحسب علمه الذي لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر ، فهو أدنى من كل دان ، و أقرب من كل قريب بهذا الاعتبار ، كما قال سبحانه :
« و نحن أقرب إليه من حبل الوريد » .

(و ارتفع فوق كل منظر) الظرف حال من فاعل « ارتفع » . و يجوز أن يراد بالمنظر العلة لأن نظر المعلول إليها ، يعني أنه فوق كل علة لأن إليه نظر جميع الكائنات وانتهاء سلسلة جميع الممكنات ، وأن يراد به المدرك بالعقل يعني أنه فوق كل ما أدرك العقل لأن كل ما أدركه العقل فهو صورة ومثال يمنع أن يقال : إنه هو ، و يحتمل أن يكون هذا الكلام على سبيل التمثيل والله أعلم .

(لا بد ، لا وليته) لاستحالة الحدوث عليه . (ولا غاية لأزليته) لاستحالة العدم عليه . (القائم قبل الأشياء) أي قبل كل واحد منها لأنه كان وام يكن معه شيء ، ثم أحدثه بمجرد حكمته فهو متفرد بالقدم ، وفيه رد على بعض الفلاسفة ، وليس المراد بالقبليّة القبليّة الزمانيّة حتّى يلزم أن يكون في زمان وأن لا يكون متقدماً عليه ، لأن القبليّة الزمانيّة إنّما يكون في الزمانيّات كما بيّن في موضعه والله سبحانه ليس بزماني .

(والدائم الذي به قوامها) قوام الشيء - بالكسر - : نظامه ، وتقديم الظرف للحصر ؛ وفيه رد على من أسند نظام هذا العالم إلى غيره كالدّهريّة والمبتدعة من

الفلاسفة وأضرابهم .

(والقاهر الذي لا يؤوده حفظها) آدني الحمل يؤودني أوداً ، أي أثقلني ، وأنا مؤود مثال مقول . يعني لا يثقله ولا يتعبه حفظه للأشياء مثل السماوات والأرضين وما فيهما وما بينهما لأن فعله سبحانه بمجرّد الإرادة والمشئة ولا يحتاج فيه إلى استعمال الآلات وتحريك الجوارح كما يحتاج إليهما أصحاب الصنایع فلا مدافع له في فعله أصلاً فلا يلحقه الانفعال ، ولا يعرض له النقل والتعب والكلال . تعالى عن ذلك علوّاً كبيراً .

(والقادر الذي بعظمته تفرّد بالملكوت ، وبقدرته توحّد بالجبروت) القادر من أسمائه تعالى ومعناه المتمكّن من جميع الأشياء بحيث لا تطيق شيء منها الامتناع عن مراده ولا يستطيع الإباء عن إصداره وإيراده وله في هذا النحو من التمكّن وصفان: الأول الكبرياء والعظمة ، والثاني القدرة التامة ، وه الملكوت فعلوت من الملك - بالكسر - وهو الموضع كالمملكة وخصّ بعد الزيادة بملك الله تعالى سواء كان من عالم المجرّدات والمفارقات أو من عالم الجسمانيّات والمقارنات ، ولو اجتمع الملك والملكوت كما في قولهم « يا ذا الملك والملكوت » يراد بالملك الجسمانيّات وبالملكوت المجرّدات . « والجبروت » من الجبر وهو إغناء رجل من فقر ونحوه أو إصلاح عظمه من كسر ونحوه ، ومنه الجبرّار من أسمائه تعالى لأنّه يغني من يشاء متى يشاء ويجبر مفاقر الخلق ويكفيهم أسباب المعاش والرزق ويصلح نقائص حقائق الممكنات بإفاضة الوجود وما يتبعه من الخيرات والكمالات وهو أيضاً خصّ بعد الزيادة بالله سبحانه . والمقصود أنّه تعالى شأنه بالوصف الأول تفرّد بمالكية جميع الأشياء من الممكنات المجرّدة والماديّة لأنّ العظمة المطلقة مقتضية لعدم المشاركة ، وأمّا المالك غيره فانّما هو مالك بالإضافة وله عظمة بالإضافة ، وهي عند ذاتها بذاتها ليست عظمة بل هي عجز وقصور وبالوصف الثاني تفرّد بإيجاد الممكنات وإصلاحها وتكميلها بإفاضة ما يليق بها من الكمالات وإفنائها متى يشاء ، من غير معارض ولا مدافع لأنّ القدرة الكاملة الإلهية توجب

عدم مشاركة الغير معه في شيء من ذلك فكل شيء مملوك له متقاد لأمره ، وكل كامل مستكمل به مفتقر إليه ، وهو الغني الحميد .

(و بحكمته أظهر حججه على خلقه) الحكمة العلم والاتقان ؛ والله سبحانه حكيم لأنه عالم بحقائق الأشياء متقن بخلقها بلطف التدبير وحسن التصوير والتقدير . و « الحجج » جمع الحجة والمراد بها هنا البرهان ، يعني أنه سبحانه بحكمته البالغة أظهر براهين وجوده و وحدته و قدرته و سائر كماله على خلقه بإيجاد الممكنات وتصوير المخلوقات على النظام المشاهد ، ويحتمل أن يراد بإظهار الحجج نصب الأنبياء والأوصياء ، إلا أنه يوجب التكرار فيما سيأتي .

(اخترع الأشياء إنشاءً وابتدعها ابتداءً بقدرته وحكمته) لأجد لأهل اللغة فرقاً بين الاختراع والابتداء . قال الجوهري : « ابتدعت الشيء اخترعته لأعلى مثال » ولا بين الإنشاء والابتداء قال : « أنشأ يفعل كذا ابتداءً » لكن الظاهر من كلام المصنف أن الاختراع هو الإيجاد لأمّن شيء ، والابتداء هو الإيجاد لا من علّة كما ستعرفه . و قيل : الإنشاء هو الإيجاد الذي لم يسبق غير الموجد إلى إيجاد مثله ، والابتداء هو الإيجاد الذي لم يوجد الموجد قبله مثله . و قوله : « إنشاء » و « ابتداء » مفعول مطلق من باب جلست قعوداً لنا كيد الفعلين . أو تمييزاً لنسبتهما إليه ، و قوله : « بقدرته وحكمته » متعلق بالفعلين على الترتيب المذكور أو بكل واحد منهما .

(لأمّن شيء فيبطل الاختراع) يعني اخترع الأشياء بقدرته لاعن أصل ومثال ، إذ لو أوجدها عن مثال لبطل الاختراع لأنه في إيجاد ذلك المثال يحتاج إلى مثال آخر وهكذا ، و بطلان الاختراع يستلزم عدم القدرة على وجه الكمال كما يشاهد في الكاتب المحتاج في كتابته إلى أصل منتسخ فانه بدون ذلك الأصل عاجز عن الكتابة .

(ولا لعلّة فلا يصحّ الابتداء) يعني ابتدع الأشياء لالعلّة ماديّة أولاً لعلّة فاعليّة متوسطة بينه وبينها وإلا لبطل معنى الابتداء ، لأننا ننقل الكلام إليهما .

فيتسلسل ، أولاً لعلّة غائيّة تعود إليه وإلّا لكان ناقصاً في ذاته وصفاته والناقص لا يبتدع شيئاً من غير حاجة إلى شيء أصلاً . وقيل : لالعلّة غائيّة (١) ، ويكون هذا إشارة إلى نفي الغرض والعلّة الغائيّة عن فعله تعالى بالكلية كما ذهب إليه طائفة وإلّا لكان ناقصاً في فاعليّته مستكملاً فيها بذلك الغرض والناقص لا يصلح للاختراع ، أمّا الشرطيّة فلأنّ الغرض يجب أن يكون أصلح للفاعل من عدمه إذ ما استوى وجوده وعدمه بالنظر إليه أو كان عدمه راجحاً لا يكون باعثاً على الفعل بالضرورة ، فكلّ ما كان غرضاً وجب أن يكون وجوده أصلح للفاعل وأليق به وهو معنى الكمال ، فإذن يكون الفاعل مستكملاً به ناقصاً بدوره .

أقول : الغرض عائد إلى الغير ووجوده وعدمه سواء بالنظر إليه سبحانه لتنزّهه عن عود المنفعة أو المضرّة إليه ، وعدم كونه حيثنّذاً باعثاً على الفعل ممنوع ، ودعوى الضرورة في محلّ النزاع لا يجدي نقراً ، والمسألة محلّها علم الكلام .
(خلق ماشاء كيف شاء) يعني أنّه خلق الأشياء على الوزن والتقدير والأحوال اللائقة بها لمشيئته وإرادته ، لا بالايجاب ، ولا بتحرك الآلة والجوارح ، ولا بتوسط اللفظ والصوت لأنّ ذلك من خواصّ الجسم والجسمانيات .

(متوحّداً بذلك) بالنصب على أنّه حال من فاعل خلق ، يعني خلق ماشاء حال كونه متوحّداً بالذات والصفات بخلقه وإيجاده ، غير مستعين أصلاً لا بذات آخر ولا بصفات زائدة عليه وإلّا لكان ناقصاً لاحتياجه في الإيجاد إلى الغير .

(لإظهار حكمته وحقائقه ربوبيّته) يعني خلق ماشاء على النظام العجيب والصنع الغريب الذي يتجسّر فيه عقول العقلاء وفحول العلماء لإظهار علمه وحكمته وحقائقه ربوبيّته التي كانت في مكن الخفاء كما قال : « كنت كنزاً مخفياً »

(١) لا يخفى أنّ الغرض في اصطلاح الحكماء شيء ، والعلّة الغائيّة شيء آخر وانهم نفوا الغرض في فعله تعالى ولم ينفوا العلّة الغائيّة والشارح رحمه الله خلط بينهما وزعم أنهما واحد وما يأتى من قوله « خلق ماشاء كيف شاء متوحّداً » بذلك لإظهار حكمته وحقائقه ربوبيّته يدل على أنّ غايته في فعله إظهار الحكمة فلا يناسبه نفي العلّة الغائيّة هنا مطلقاً ، فإنّ كمال ذاته غاية لأفعاله تعالى .

فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق لأعرف (١).

(لا تضبطه العقول) أي لا تضبط شرح حقيقة ذاته ولا ماله من كمال صفاته عقول العارفين ، لأنه تعالى في علو الذات وارتفاع الصفات إلى حيث يقف دون بلوغه عقول أهل العرفان و أذهان أهل الايقان ؛ وإنما يعرفونه بنحو خاص من المعرفة اليقينية التي هي غاية الوسع للعقول البشرية ، ولأنه لا أحد لحقيقته لأنه بريء ، عن أنحاء التركيب الخارجية والعقلية فهي منزلة (٢) عن اطلاع العقول عليها ، ولانهاية لصفاته يقف عندها تقدر بها ، فلا يكون العقول محيطة ضابطة إياها . (ولا تبلغه إلا وهام) لأنه تعالى ليس بمحسوس والوهم لا ينال إلا المحسوسات . (ولا تدركه إلا بصار) لأن البصر إنما يدرك اللون والضوء ، وما تتبعها من الجسمانيات والله سبحانه منزّه عن الجسميّة ولواحقها .

(ولا يحيط به مقدار) لأن المقدار من لواحق الجسميّة وأيضاً ما يقبله يقبل التحيز والقسمه والزّيادة والنقصان ولا يجري شيء من ذلك عليه سبحانه . (عجزت دونه العبارة ، وكلّت دونه الأبصار) « دون » ظرف تقيض « فوق » وهو يقصر عن الغاية ، والكلال الأعباء يقال : كلّت العين إذا أعيت عن الإدراك و عجزت عنه ، و « الأبصار » بالفتح جمع البصر يعني عجزت قبل بلوغ صفاته عبارة الواصفين ، وأعيت قبل بلوغ ذاته أبصار الناظرين ، كما أشار إليهما في الصحيفة السجّادية على صاحبها أفضل الصلوات وأكمل التحيّات « الذي قصرت عن رؤيته أبصار الناظرين ، وعجزت عن نعته أوهام الواصفين » .

(و ضلّ فيه تصاريف الصفات) ضلّ الشيء يضلّ : ضاع ، و الضلال ضد الرّشاد ، والمعنى ضلّ في طريق صفاته الحقّة تصاريف صفات الواصفين ، و أنحاء تعبيرات العارفين ، يعني أنهم وإن بالغوا في التوصيف (٣) وانتقلوا من صفة إلى (١) هذا بنافي ماسبق من كون أفعاله تعالى غير معللة بالعلة النامية مطلقاً وكونها

معللة باغراض تعود إلى الغير كمالات يخفى .

(٢) الضمير راجع إلى « حقيقة » .

(٣) لم يجيء في اللغة وصفه من باب التفعيل . والظاهر أنه غلط مشهور .

ما هو أشرف وأعظم عندهم ، لم يصفوه بما هو وصفه ، ولم ينعته بما هو حقه ، ولم ينالوا حقيقة صفاته على وجه يليق بذاته . وذلك لأن تصارييف الصفات والنقل من بعضها إلى بعض إنما هو من خواص الممكنات التي يتصور فيها الزيادة والنقصان والله سبحانه منزّه عنها . وأيضاً لسان التعبير إنما يخبر عما في الضمير ، وكل ما هو في الضمير مخلوق مثله كما دلّ عليه قوله : « كلما ميّزتموه بأوهامكم في أدقّ معانيه مصنوع مثلكم مردود إليكم » ، وقال بعض العارفين :

هر چه پیش تو بیش از آن ره نیست غایت و هم تو است الله نیست
لا يقال: إذا كان الأمر كذلك لم يكن ثناؤه مقدوراً لنا فكيف وقع التكليف به ؟ لأننا نقول : لم يقع التكليف بمعرفة كنه الصفات الكمالية والثناء بها لأن ذلك محال بل التكليف إنما وقع بالثناء عليها بمفهومات كلبية حاصلة في الذهن صادقة عليها ، فتلک الصفات الكمالية إنما هي معقولة بعنوانات هي مفهوماتها و معبر عنها بهذه المفهومات والعنوانات لا بالكنه ، وإدراكها بالكنه مختص به سبحانه . ولذلك قال عليه السلام : « لا أحصي ثناء عليك أذنت كما أثبتت على نفسك (١) » ، أو المعنى ضل في الوصول إلى منتهى بساط ثناءه وإحصائه أقدام تصارييف صفات الواصفين لأنها كلما بلغت مرتبة من مراتب المدح والتكريم كان وراءها أطوار من استحقاق الثناء والتعظيم . وانطبق الحديث المذكور عليه ظاهر .

(احتجب بغير حجاب محجوب واستتر بغير ستر مستور) أي احتجب عن العقول واستتر عن الأبصار والحجب لغة : المنع ، ومنه حاجب العين لأنه يمنعها من الأذى ، وحاجب الملك لأنه يمنع من الناس والخلق ممنوعون من إدراك ذاته سبحانه عيناً وعقلاً ، ويسمى ذلك المنع حجاباً وسترأ ، ثم الحجاب والستر بهذا المعنى ليسا وصفين لأمر حائل بين العقول والأبصار وبين ذات الباري لأن ذلك الحائل إما حسّي كالأجسام الحائلة بين الرائي والمرئي أو عقلي كالعوائق الواسطة بين الصور العقلية والعقول ، والحجب الحسية إنما تحجب الجسم و

الجسمانيات المحدودة المستترة بها ، والحجب العقلية إنما تحجب الصور ؛ والله تعالى شأنه ليس بجسم ولا جسماني ولا صورة ، و إلى نفي هذين النوعين من الحجاب أشار بقوله « بغير حجاب محجوب » ، و « بغير ستر مستور » لدفع توهم أن الاحتجاب والاستتار هنا كما في أكثر الموجودات بالحجاب والساتر ، وهذا التركيب يحتمل وجهين : الأول أن يكون « محجوب » خبر مبتدأ محذوف والجار والمجرور متعلق به أي هو محجوب بغير حجاب بالمعنى المتعارف في أكثر الموجودات ، والجملة مستأنفة لدفع ذلك التوهم الناشئ من قوله : « احتجب » . الثاني أن يكون مضافاً إليه والاضافة بتقدير اللام والتقي راجع إلى الحجاب والمقصود أن حجابها ليس بالمعنى المتعارف بل لتعالیه عن إدراك القوة البشرية إيّاه وهذا الاحتمال بعيد جداً ، ويخطر بالبال أيضاً معنى آخر لهذا الكلام وظني أنه أولى بالارادة منه و هو أنه لما قال : « احتجب » توهم منه أن حجابها غليظ ثخين كثيف مانع من إدراك وجوده وصفاته تعالى شأنه بالكلفة فدفع ذلك التوهم بقوله : « بغير حجاب محجوب » صفة لحجاب والمقصود أن احتجابها ليس بحجاب محجوب بحجاب آخر بأن يكون غليظاً أو يكون بعضه فوق بعض آخر مانعاً من مشاهدته نظير ذلك قوله تعالى : « حجاباً مستوراً » قال الجوهري في تفسيره أي حجاباً على حجاب ، والأول مستور بالناني يراد بذلك كثافة الحجاب . وهذا المعنى رقمته في سالف الزمان و رأيت الآن حين التحرير أنه سبقتني إليه سيد الحكماء الإلهيين (١) حيث قال : هذا من باب « حجاباً مستوراً » أي حجاباً على حجاب .

(عرف بغير رويّة) « عرف » مبني للمفعول ، الرّويّة - بفتح الراء و كسر الواو و شدّ الياء - التفكير والنظر يعني عرف وجوده من غير نظر و استدلال لأنّه بديهي كما صرح به بعض المحققين ، أو لأنّ الاستدلال لا يفيد معرفته بخصوصه لأنّ اللّمي غير ممكن ، أو ليس له علّة والآنّي لا يفيد لأنّه استدلال من الأثر و الأثر لا يفيد إلاّ مؤثراً ما على وجه كلّی لا مؤثراً معيّناً ، فمعرفته بالحقيقة ليست إلاّ

بالمشاهدة الحضورية كما هي لبعض الكاملين . وفي بعض النسخ « رؤية » بضم
الراء والهمزة الساكنة يعني عرف بغير إبصار كما قال سبحانه : « لا تدركه الأبصار »
وهو تأكيد للسابق .

(ووصف بغير صورة) أي وصف بغير صفة فأنه وصف بأنه قادر بغير قدرة قائمة
بذاته و كذلك وصف بأنه سميع بصير عالم حكيم لطيف خبير إلى غير ذلك ، وليس
هناك صورة و صفات زائدة على الذات و إطلاق الصورة على الصفة شائع أو وصف
بغير حد ، إذ كل ما وصف بحد لا بد أن يكون له مهية كلية مركبة من جنس و
فصل و إذ ليس له تعالى شأنه شيء ، من أنحاء التركيب لا يجوز أن يوصف بالحد .
(و نعت بغير جسم) أي نعت بأنه مغاير بجسم و جسماني أي بأمر مغاير
لهما بحدوثهما و تحيزهما و هو منزّه عنهما ، ولما ذكر حمده تعالى على وجه
يشعر بالاختصاص و كان ذلك مفيداً لتفردّه بالالهية و ذكر أيضاً تفردّه بالملكوت
والجبروت و بخلق الأشياء إلى غير ذلك من صفات المدح و التكريم المفيدة
لتفردّه بالثناء و التعظيم أراد أن يوضح بالمقصود أنه كالنتيجة لما مر فقال :

(لا إله إلا الله الكبير المتعال) أي العظيم لا بالكم و المقدار ، بل بالرتبة
والرفعة ، لأن ذاته المقدسة مبدء كل موجود ، و منتهى كل مقصود ، المتعال
عن التشابه بالخلق . هذه الكلمة الطيبة أشرف كلمة و حدّ بها الخالق عز اسمه
وهي منطبقة على جميع مراتب التوحيد ، و قد سميت فاتحة الاسلام . و نقل
عن بعض العلماء أن الله سبحانه جعل عذابه نوعين أحدهما السيف في يد المسلمين
والثاني عذاب الآخرة ، فالسيف في غلاف يرى والنار في غلاف لا يرى فقال تعالى
لرسوله ﷺ : « من أخرج لسانه من الغلاف المرئي و هو الفم فقال « لا إله إلا الله »
أدخلنا السيف في الغمد المرئي ، و من أخرج لسان قلبه من الغلاف الذي لا يرى
وهو غلاف الشرك فقال : « لا إله إلا الله » أدخلنا سيف عذاب الآخرة في غمد الرحمة
واحدة بواحدة جزاء ، ولا ظلم اليوم .

((الاصل)):

« ضلّت الأوهام عن بلوغ كنهه ، و ذهلت العقول أن تبلغ غاية نهايته ،
 « لا يبلغه حدّ وهم ، ولا يدركه نفاذ بصر ، وهو السميع العليم ، احتج على خلقه ،
 « برسله ، و أوضح الأمور بدلائله ، و ابعث الرسل مبشرين ومنذرين ، ليهلك من
 « هلك عن بينة و يحيى من حي عن بينة ، و ليعقل العباد عن ربّهم ما جهلوه ،
 « فيعرفوه برؤس بيّته بعدما أنكروه ، ويوحّدوه بالالهية بعد ما أضدّوه ، أحمدوه حمداً ،
 « يشفي النفوس ؛ و يبلغ رضاه ، و يؤدي شكر ما وصل إلينا من سوابغ النعماء ، و جزيل
 « الآلاء ، و جميل البلاء » .

((الشرح)):

(ضلّت الأوهام عن بلوغ كنهه) إشارة إلى نفي الحدّ عنه لا أنّه تعالى ليس
 بمر كّب و كلّ ما ليس بمر كّب لا يمكن إدراك كنه حقيقته بالحدّ أمّا الصغرى
 فلأنّ كلّ مر كّب محتاج إلى الجزاء الذي هو غيره ، و كل محتاج إلى الغير
 ممكن لأنّ ذاته بذاته من دون ملاحظة الغير لا يكون كافياً في وجوده وإن لم يكن
 فاعلاله خارجاً عنه ، و أمّا الكبرى فلأنّ إدراك كنه الحقيقة إنّما يكون من
 الحدّ المؤلف من أجزائها كما بيّن في موضعه و الله سبحانه منزه عن أن يكون
 لكنّه أجزاء .

(و ذهلت العقول أن تبلغ غاية نهايته) يمكن أن يراد بالغاية المسافة ونهاية
 الشيء آخره ، فالإضافة لامية و يمكن أن يراد بها النهاية . قال الجوهري : « النهاية :
 الغاية » فالإضافة بيانية . و إنّما لا تبلغ العقول غاية نهايته لأنّه لا نهاية له ،
 إذ ليس له طبيعة امتدادية تنتهي إلى حدّ و نهاية ، و أيضاً لا يطرأ عليه العدم ، فهذا
 الكلام مثل قول العرب « لا يرى بها ضبّ ينجحر » أي ليس بها ضبّ فضلا عن أنّه
 ينجحر ، لا يقال : ذهول العقول عن البلوغ أي نسيانها عنه يشعر بإمكان البلوغ في
 نفسه لأنّنا نقول : الذّهول عن الشيء ، يستلزم عدم حصول ذلك الشيء ، و المراد هنا

هذا اللازم على سبيل الكناية على أن ذلك الاشعار ممنوع ألا ترى أن غفلتنا عن وجود شريك الباري، لا يستلزم وجوده .

(ولا يبلغ حد وهم) أي منتهاه لان كل ما بلغه الوهم فهو ممكن ولا سبيل للإمكان في ساحة جنابه ، وأيضاً الوهم إنما يلحق بالمادي ويتعلق بأشياء محسوسة ذات صور وأحيان حتى أنه لا يقدر نفسه ولا يدركها إلا ذات مقدار وجسم ، والله سبحانه منزّه عن المادة .

(ولا يدركه نفاذ بصر) قال الجوهرى : « نفذ السهم من الرمية (١) و نفذ الكتاب إلى فلان ، و رجل نافذ في أمره أي ماض ، و نفاذ البصر بكل واحد من هذه المعاني محال على الله سبحانه ، أمّا الأول فلأن شعاع البصر إنما ينفذ في جسم شفاف ، وهو سبحانه ليس بجسم ولا شفاف ، وأمّا الأخيران فلاستحالة أن يدرك سبحانه بحاسة البصر لأنه غير ذي وضع و كل غير ذي وضع يمتنع رؤيته ، والمقدمة الأولى استدلالية والثانية ضرورية ، وربما استدلل عليها والمسألة مستقصاة في علم الكلام ، ثم الظاهر من هذه المعاني هو الأول لأن الأخيرين قد ذكرهما سابقاً .

(وهو السميع العليم) يعني أنه السميع لا بآلة السمع ، والعليم لا بعلم زائد عليه ، لأنهما من صفات خلقه ، بل هما عبارتان عن عدم خفاء المسموعات والمعلومات وإن كانت خفية دقيقة عند ذاته بذاته حتى يعلم كفر من كفر وإيمان من آمن . (و هو عليم بذات الصدور) و الجمع بين الوصفين لاشتمال الأمرين على القول والاعتقاد .

(احتج على خلقه برسله) ليهدوهم إلى معرفة ذاته و صفاته ، و حشره و نشره و ثوابه و عقابه و ربوبيته ، و معرفة ما به يتم نظامهم في الدين و كمالهم في النشاطين ؛ ويجذبوهم عن مقتضيات نفوسهم من اتباع الشهوات الباطلة واقتفاء اللذات الزائلة بتذكيرهم لما في الدار الباقية و تنفيرهم عن خسائس هذه الدار

القانية لتلايكون لهم على الله حجة بعد الرسل .

(وأوضح الأمور بدلائله) أي أوضح أمور الرسل وحقيقة رسالتهم وشرائعهم بالدلائل الظاهرة والمعجزات الباهرة لتقريب الخلق إلى التصديق وتبعيدهم عن التكذيب أو أوضح الشرائع بالرسل وأوصيائهم عليهم السلام أو أوضح وجود ذاته وكمال صفاته مثل العلم والقدرة وغيرهما بنصب سماء ذات أبراج وأرض ذات مهاد إلى غير ذلك من الآثار الدالة على صدورهما من العزيز الجبار ، ولما كان الرسل علماء وحكماء يحملون الخلق على الطريقة الإلهية من معرفة أحوال المبدء أو المعاد وما يتبعهما من الأعمال الصالحة والأخلاق الفاضلة على حسب ما يقتضيه الحكمة ، وذلك قديكون بالتذكير والتنبيه كما أشرنا إليه ، وقد يكون بالتمشير والتهديد وهذا مما يحتاج إليه أكثر الناس لأن طبائعهم مثل طبائع الأطفال في الميل إلى الظاهر من الحياة الدنيا وزهراتها فيحتاجون في الميل إلى الخيرات والزجر عن المنهيات إلى الوعد والوعيد ، أشار إليهما بقوله :

(وابتعث الرسل « بعثهم » وابتعثهم بمعنى أرسلهم (مبشرين) للخلق بما أعد الله للمطيعين من الثواب العظيم (ومنذرين) لهم بما أعد الله للعاصي من العذاب الأليم وبذلك يجذبونهم عن طريق الغواية ويرشدونهم إلى سبيل الهداية ، وأما من أخذت يده العناية الأزلية وتوّر قلبه من المشكاة النبوية فإنه يعلم أنه لولا الثواب والعقاب لاستحق سبحانه التوصل إليه بذاته والتذلل له طلباً لمرضاته (ليهلك من هلك عن بيئته ويحيى من حيى عن بيئته) تضمين للآية الكريمة وإشارة إلى غاية الاحتجاج والابتعاث قال القاضي (١) : والمعنى ليموت من يموت عن بيئته عاينها ويعيش من يعيش عن حجة شاهدها لتلايكون له حجة ومعذرة . فان الاحتجاج بالرسل وابتعاثهم وتصديقهم بالمعجزات من البيّنات الواضحة ، أو ليصدر كفر من كفر وإيمان من آمن عن وضوح بيئته ، على استعارة الهلاك والحياة للكفر والاسلام ، والمراد بمن هلك ومن حيى المشارف للهلاك والحياة أو من هذا

حاله في علم الله وقضائه ، وقيل : يحتمل أن يكون هذا من باب المجاز المرسل لأن الكفر سبب للهلكة الحقيقة الأخرى ، والإيمان سبب للحياة الحقيقة الأبدية فأطلق المسبب على السبب مجازاً .

(و ليعقل العباد عن ربهم) بتذكير الرسل و تعليمهم (ما جهلوه) من أحوال المبدء و المعاد (فيعرفوه برؤيته بعد ما أنكروه) لغفلتهم عن العهود الإلهية والمواثيق الربانية و نبذ طاعته و ترك عبادته كأن لم يكن شيئاً مذكوراً .

(ويوحده بالالهية بعد ما أضدوه) بالتشريك و عباده الأصنام . للوساوس الشيطانية و تخیلات الأوهام ، توضيح ذلك أن المعرفة هي إدراك الشيء ، ثانياً بعد توسط الجهل ، والعباد قد أقرّوا له بالربوبية وهم في صورة الذر حين قال : «أست برّبكم قالوا بلى» لشهادة عقولهم الخالصة عليها ثم جهلوا ذلك و أنكروه لتعلقهم بالعلائق الجسمانية ، وتشبّثهم بالتسويلات النفسانية ، وتمسكهم بالتخیلات الشيطانية ؛ فبعث الله تعالى رسلاً رحمة منه و تفضلاً لتعليمهم و تذكيرهم ، فمن ضلّ بعد ذلك فقد غوى ومن آمن فقد اهتدى ، ولما حمد سابقاً ذاته تعالى لأجل نعمته و قدرته و غيرهما من الصفات المذكورة أراد أن يحمده ثانياً على نعمائه المتجددة أنا فآناً على سبيل الاستمرار التجدي فأتى بالجملة الفعلية رعاية للتناسب فقال : (أحمده) أي أحمده أنا فآناً وساعة فساعة ، ولما كان الحمد من أجل الطاعات وأكمل العبادات إذا الحمد يلاحظ جلالاً وجمالاً ومنعماً ، والطاعة دواء الأمراض النفسانية على حسب تفاوت مراتبها في الاخلاص كما قال سبحانه : «إن الحسنات يذهبن السيئات» والدافعة لجميع الأمراض هي المرتبة القصوى من مراتب الاخلاص قيده بقوله : (حمداً يشفى النفوس) طلباً لتلك المرتبة ورجاء لحصولها ، ثم لما كان شفاء النفس من جميع الأمراض سبباً لرضاه حالاً ومآلاً لعقبه بقوله (ويبلغ رضاه) الموجب لمزيد إمتنانه في الدنيا ورضوانه في الآخرة ، ثم مفهوم الحمد وإن كان مغايراً لمفهوم الشكر لكنهما قد يصدقان على فرد ما ، فوصف الحمد بقوله : (و يؤدّي شكر ما وصل إلينا) حصراً للحمد هنا في ذلك الفرد لأنه أفضل أفراد و

أكملها ثم يبين الموصول بقوله : (من سوابغ النعماء ، وجزيل الآلاء وجميل البلاء) هذه التراكيب من باب جرد قطيفة ، و المراد بسوابغ النعماء : النعماء الكاملة الوافية الواسعة ؛ قال الجوهرى : « شيء سابع أي كامل واف و سبقت النعمة تسبغ بالضم سبوغاً اتسعت وأسبغ الله عليه النعمة أي أتمها » والجزيل : الكثير العظيم . والآلاء بالمد النعم واحداثها والآلاء بالفتح ويجوز القراءة هنا بالجمع والافراد والبلاء الاختبار بالخير والشر ، يقال : بلوته بلواً جرّ به و اختبرته ، ولا يبعد أن يراد بالفقرة الاولى النعم الباطنة كالعقل والحواس المستورة و ملائمتها ، و بالثانية النعم الظاهرة ، و بالثالثة الاحتجاج بالرسل و ابتعائهم لأن أعظم الاختبار هو الاختبار بما جاء به الرسل ﷺ و هذه و إن كانت من النعم الظاهرة المندرجة فى الثانية لكن خصّها بالذكراشدة الاهتمام بها ؛ ثم لما كان أفضل افراد الحمد هو الشهادة بالتوحيد و برسالة رسولنا بخصوصه ﷺ إذ هي أصل للبواقي أشار إليهما بقوله :

(وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، فوحده ، تأكيد للحصر وتقرير له و حال بتأويل منفرداً (إلهاً واحداً) دلّ الأول على جميع صفات الكمال والثانى على جميع صفات الجلال إذا الواحد الحقيقية منزّه عن أنحاء التركيب الخارجية والذّهنية والتعدد وعمّا يستلزم أحدهما كالجسمية والتحيّز وأمثالهما (صمداً) الصمد السيد لأنّه يصمد إليه فى الحوائج من صمد إذا قصّد ، والله سبحانه هو الموصوف به على الاطلاق لاستغنائه عن غيره مطلقاً و احتياج غيره إليه من جميع الجهات (لم يتخذ صاحبة الاستحالة الشهوة والحركة عنه تعالى ، ولأنّ اتّخاذها يقتضى المجانسة بينه وبينها ولايجانسه أحد (ولاولداً) لأن الولد يجانس الوالد ولايجانسه شيء ، و لأنّه تعالى لا يلدّ بشيء ، لأنّ اللذة من لواحق الجسمية ولا يفقر إلى ما يعينه أو يخلّف عنه لامتناع الحاجة والفناء عليه .) (وأشهد أن محمداً ﷺ عبداً أنجبته) أي اخناره واصطفاه و إنّما قرنت هذه الكلمة بكلمة التوحيد لأنّ كلمة التوحيد يعتبر فيها الاخلاص ولا يحصل الا خلاص إلا بسلوك مراتبه و درجاته و لا يحصل ذلك إلا بمعرفة كيفية السلوك ولا تحصل تلك المعرفة إلا بالبيان النبوي

فكانت الشهادة بصدق النبيين أجل كلمة بعد كلمة الاخلاص وأنها بمنزلة الباب لها فلذلك قرنت بها و صار تاكلمتين مقارنتين لا يصح انفكاك إحداهما عن الأخرى (و رسول ابتعثه) و ارشاد العباد و هدايتهم ، و في تقديم العبودية على الرسالة إشارة إلى تقدمها في التحقيق (١) كما دل عليه بعض الاخبار (على حين فترة من الرسل) الفترة الضعف والانكسار و ما بين الرسولين من رسل الله تعالى ، يعني ابتعثه على حين فتور من الارسل و انقطاع من الوحي . و ذلك الابتعاث نعمة عظيمة لا يدانيها شيء من النعماء لظهور أن خلوق الزمان عن رسول فيه يستلزم وجود الشرور بمقتضى النفوس البشرية و وقوع الهرج والمرج . و تلك أحوال مذمومة يلحق ذلك الزمان بها من الذم بمقدار ما يلحق زمان وجود الرسول من المدح ، و لذلك ذكر من خبث أحوال ذلك الزمان و ذم الخلائق فيه ما يدل على عظمة نعمة بعثته ﷺ و ما استلزمته من الخيرات ليعتبروا و يعرفوا قدر تلك النعمة و يحصل لهم التوجه إلى الله و يشكروا له .

(و طول هجعة من الأمم) الهجع و الهجعة و الهجيع بالفتح في الجميع طائفة من الليل ، و الهجوع النوم ليلاً كذا في النهاية . و قال الجوهري : « أتيت بعد هجعة من الليل أى بعد نومة خفيفة » و هي ههنا كناية عن غفلة الأمم في ظلمات الجهالة عن أمر المبدء و المعاد و سائر المصالح التي ينبغي التوجه إليها (و انبساط من الجهل) أي انتشاره في الربع المسكون و إحاطته بالأمم أجمعين لفقدهم من يهديهم إلى المعارف الالهية و المصالح الدينية و الدنيوية (و اعتراض من الفتنة) أي عروضها في الأقاليم و إحاطتها بأهلها طولاً و عرضاً ، أو وقوعها على غير قانون شرعي و مشيها في غير طريق عقلي و نقلي ، من اعتراض الشيء صاعداً كالأشعة المعترضة في عرض النهر ، و الفرس الماشي في عرض الطريق من غير استقامة بتشبيهها بالفرس المتصّف بهذه الصفة و استعارة لفظ

١- قيل : ولها تقدم في الرتبة والشرف أيضاً إذا العبودية حقيقة التفات الى الحق

و انتقال اليه و الرسالة بالعكس فانه انتقال الى عالم الخلق .

فكانت الشهادة بصدق النبيين أجل كلمة بعد كلمة الاخلاص وأنها بمنزلة الباب لها فلذلك قرنت بها و صار تاكلمتين مقارنتين لا يصح انفكاك إحداهما عن الأخرى (و رسول ابتعته) وارشاد العباد وهدايتهم ، و في تقديم العبودية على الرسالة إشارة إلى تقدمها في التحقيق (١) كما دل عليه بعض الاخبار (على حين فترة من الرسل) الفترة الضعف والانكسار و ما بين الرسولين من رسل الله تعالى ، يعني ابتعته على حين فتور من الارسال و انقطاع من الوحي . و ذلك الابتعاث نعمة عظيمة لا يدانيها شيء من النعماء لظهور أن خلوع الزمان عن رسول فيه يستلزم وجود الشرور بمقتضى النفوس البشرية و وقوع الهرج والمرج . و تلك أحوال مذمومة يلحق ذلك الزمان بها من الذم بمقدار ما يلحق زمان وجود الرسول من المدح ، و لذلك ذكر من خبث أحوال ذلك الزمان و ذم الخلائق فيه ما يدل على عظمة نعمة بعثته ﷺ و ما استلزمته من الخيرات ليعتبروا و يعرفوا قدر تلك النعمة ويحصل لهم التوجه إلى الله و يشكروا له .

(و طول هجعة من الأمم) الهجع والهجة والهجيع بالفتح في الجميع طائفة من الليل ، والهجوع النوم ليلاً كذا في النهاية . و قال الجوهري : « أتيت بعد هجعة من الليل أي بعد نومة خفيفة » وهي ههنا كناية عن غفلة الأمم في ظلمات الجهالة عن أمر المبدء والمعاد و سائر المصالح التي ينبغي التوجه إليها (و انبساط من الجهل) أي انتشاره في الربع المسكون و إحاطته بالأمم أجمعين لفقدهم من يهديهم إلى المعارف الالهية والمصالح الدينية والدنيوية (و اعتراض من الفتنة) أي عروضها في الأقاليم و إحاطتها بأهلها طولاً وعرضاً ، أو وقوعها على غير قانون شرعي و مشيها في غير طريق عقلي و نقلي ، من اعتراض الشيء صاعداً كالأشعة المعترضة في عرض النهر ، والفرس الماشي في عرض الطريق من غير استقامة بتشبيهها بالفرس المتصّف بهذه الصفة و استعارة لفظ

١- قيل : ولها تقدم في الرتبة والشرف أيضاً اذا العبودية حقيقة التفات الى الحق

و انتقال اليه والرسالة بالمعكس فانه انتقال الى عالم الخلق .

الاعتراض لها.

(وانتقاص من المبرم) المبرم المحكم من أبرمت الشيء، أحكمته والمراد به نظام أحوالهم وإبرام أمورهم أي استحكامها بالشرائع السالفة، والمراد بانتقاضه انقطاع ذلك النظام وانهدام بناء ذلك الاستحكام بتغيير تلك الشرائع وفسادها، فإن الخلائق كلهم في زمان الفترة حرّفوا الطريقة الربّانية، وخرجوا عن الشريعة الإلهية وأرقدتهم نعمات وسوس الشياطين في مهاد المراقدة الطبيعية إلا من عصمه الله بلطفه الخفي وقليل ما هم.

(وعنى عن الحق) العمى يطلق على معنيين أحدهما عدم البصر وثانيها عدم البصيرة وهو المراد هنا والحق هو الأُمور الثابتة بالشرائع السابقة من التوحيد وصفات الكمال والجلال وغير ذلك من الأُمور المتعلقة بصالح النشأتين، والعمى عن الحق عبارة عن بطلان بصيرتهم القلبية باستيلاء الأمراض النفسانية عن إدراك هذه الأمور. (واعتساف من الجور) العسف الأخذ على غير الطريق وكذلك التعسف والاعتساف، والجور الميل عن طريق الحق، والظلم؛ قال في المغرب: جازع طريق مال وجار ظلم، والمعنى الثاني أنسب يعني ابتعنه ~~كل ما~~ حين مالوا عن طريق الهداية وسلكوا طريق الغواية وظلموا بذلك أنفسهم، فبعضهم كانوا من عبدة الأوثان (١) وبعضهم كانوا من عبدة النيران، وبعضهم كانوا من عبدة الشمس والقمر، وبعضهم كانوا من عبدة الشجر والبقر، وبعضهم قالوا عزير ابن الله، وبعضهم قالوا: المسيح ابن الله، وبعضهم قالوا: الملائكة بنات الله، وبعضهم قالوا: الله جسم، وبعضهم قالوا: هو نور مثل سائر الأنوار، وبعضهم قالوا: يجوز رؤيته - إلى غير ذلك من الملل الفاسدة والمذاهب الباطلة.

(و امتحاق من الدين) محقه أبطله ومجاه وتمحق الشيء، و امتحق أي بطل. والدين في اللغة: الطاعة والجزاء. وفي العرف: الشرائع الصادرة بواسطة الرسل. وبطلانه كناية عن تركهم العمل بما فيه من صلاح معاشهم ومعادهم فإنهم غيروا وبدّلوا وشرّ عوالمهم ما سوأت لهم أنفسهم فحلّلوا حراماً وحرّموا حلالاً فبعثه الله الرّؤف الرّحيم ليهديهم إلى الصراط المستقيم.

((الاصل)):

« و أنزل إليه الكتاب فيه البيان والتبيان، قرآناً عربياً غير ذي عوج لعلمهم »
 « يتتقون، قد بينه للناس و نهجه بعلم قد فصله، و دين قد أوضحه، و فرائض »
 « قد أوجبها و أمور قد كشفها لخلقها و أعلنها، فيها دلالة إلى النجاة و معالم »
 « تدعو إلى هداه، فبلغ عليه السلام ما أرسل به، و صدع بما أمر، و أدّى ما حمل من »
 « أثقال النبوة، و صبر لربه، و جاهد في سبيله، و نصح لأمته. و دعاهم إلى »
 « النجاة، و حثهم على الذكر، و دلّهم على سبيل الهدى من بعده بمناهج و »
 « دواع، أسّس للعباد أساسها، و منائر رفع لهم أعلامها، لكيلا يضلّوا من بعده و »
 « كان بهم رؤوفاً رحيماً ».

((الشرح)):

(وأنزل إليه الكتاب) الكتاب في الأصل الفرض والحكم والقدر كما يظهر من
 الصحاح والمغرب؛ ثم المتبادر منه عند الإطلاق هو القرآن العزيز لاشتماله على
 هذه الأمور على الوجه الأتم والأكمل (فيه البيان والتبيان) أي بيان كل شيء، وتبيان
 وهو البيان مع البرهان، وقدّم الظرف للحصر أو لقرب المرجع أو الاهتمام لاشتماله
 على ضمير «الكتاب» أو لربط الحال على صاحبها ابتداءً.

(قرآناً) حال بعد حال عن «الكتاب» (عربياً) صفة للتخصيص أو
 للمدح و اشتماله على غير العربي نادرٌ على تقدير ثبوته لا يقدح في عربيته (غير
 ذي عوج) لا اختلال ولا اختلاف ولا شك فيه أصلاً لامن جهة المباني ولامن جهة
 المعاني (لعلمهم يتقون) من العقوبات الأخروية والمشتبهات الدنيوية، باتّباع
 أوامره و نصايحه و استماع زواجره و مواعظه.

(قد بينه للناس) ضمير المفعول للقرآن وضمير الفاعل لله تعالى أو المرسل
عليه السلام، و كذا الفاعل في الأفعال الآتية والأول أولى و أرجح (ونهجه) بالتخفيف
 أي أوضحه و أبانه من نهجت الطريق إذا أبنته و أوضحته، أو سلّكه من نهجت

الطريق إذا سلكته (بعلم قد فصله ، و دين قد أوضحه، و فرائض قد أوجبها وأمر قد كشفها لخلقها وأعلنها) الظاهر أن القرائن الأربعة أحوال متعاقبة للقرآن ، يعني أوضحه حال كونه متلبساً بعلم عظيم من التأويل والتفسير والمحكم والمتشابه والعام والخاص و غير ذلك قد فصله الله تعالى لرسوله ﷺ أو الرسول للناس ، و بدين يعني بشرايع نبوية و نواميس إلهية قد أوضحه لهم ، و بفرائض مثل الصلاة والصوم والزكاة والحج والجهاد ونحوها قد أوجبها عليهم ، و بأمور من أحوال الأمم الماضية والقرون السالفة قد كشفها وأعلنها لهم ، و بالجملة في القرآن علم ما كان وما يكون وما هو كائن وما يحتاج إليه الخلائق وقد بينه الله تعالى لرسوله و بينه الرسول لأُمَّته و هو مخزون عند أهله.

(فيها دلالة إلى النجاة) أي في الأمور المذكورة دلالة إلى نجات الخلق من الخزي والنكال عاجلاً ، و من الحرمان عن الثواب والخذلان بالعقاب آجلاً . (و معالم تدعوا إلى هداة) معالم جمع معلم و هو ما جعل علامة للطرق والحدود ، والمراد بها هنا مواضع العلوم و مرابطها من الكلمات الرائقة و العبارات الراشقة والدلائل الواضحة ، وهي بالرفع عطف على « دلالة » ، و بالجر عطف على « النجاة » ، والجملة الفعلية صفة لها ، والضمير المجرور بالاضافة يعود إلى الله أو إلى الرسول أو إلى الكتاب ، والهدى ضد الضلالة و إضافته من باب إضافة المصدر إلى الفاعل و مفعول « تدعو » محذوف وهو الخلق و قيل : الهدى المهتدى به و هو الدين والكتاب والرسول . والاضافة على تقدير رجوع الضمير إلى الله لامية ، وعلى الاحتمالين الأخيرين بيانية . و قيل : الهاء في « هداة » ساكنة زائدة للموقف كما في كتابيه وياربنا ويا سيّدا . وفيه نظر يعرف بالتأمل .

(فبلغ ﷺ ما أُرسل به) من أحوال المبدء و المعاد و جميع ما يحتاج إليه الأمة إلى يوم القيامة (و صدع بما أمر) أي أجهر به من صدع بالحجة إذا تكلم بها جهاراً أو أظهره من صدعه إذا أظهره و بينه أو فرق به بين الحق والباطل من صدعه إذا شقه على سبيل الاستعارة و تشبيه الفرق بينهما بصدع الزجاجة و

نحوها في عدم الالتيام من باب تشبيه المعقول بالمحسوس لزيادة الايضاح ، والباء على الأخيرين زائدة أول المتعدية بها على طريق التجوز ، وهاء مصدرية أو موصولة أو موصوفة ، والعائد محذوف أي بما أمر به (و أدى ما حمل من أثقال النبوة) ①

الأثقال إما جمع ثقل وهو ضد الخفة أو جمع ثقل بالتحريك وهو مناع البيت والمسافر على سبيل الاستعارة ، وقد أدى كلها عند الامامية إلى أمير المؤمنين عليه السلام ولم يكن أحد غيره حاملا بجميعها باتفاق الأمة وقالت العامة لم يخص الله به أحدا من الأمة بجميعها وإنما أدى جميعها إلى جميع الأمة بأن أخذ كل واحد منهم ما يليق بفهمه ، ثم أدى إلى التابعين كذلك ، وهكذا إلى انقراض العالم و أنت تعلم ما في هذا القول ولكن من أضلله الله فلا هادي له .

(و صبر لربه) أي صبر لرضا ربه و طلب التقرب منه في تبليغ الرسالة و أداء أثقال النبوة على تحمل المشاق و أذى المعاندين و طعن الطاعنين من كفره قريش و فسقة العرب (و جاهد في سبيله) الذي هو التوحيد و دين الحق مع قلة العدد وضعف العدد (١) (و نصح لأمته) النصح في اللغة الخلوص ، يقال : نصحه و نصحه له ، فتعديته إلى المنصوح إما بنفسه أو بالأم ، والمراد بنصحه لهم إرشادهم إلى مصالح دينهم و دنياهم و تعليمهم إياها و عونهم عليها والذب عنهم وعن أعراضهم ، و بالجملة جلب خير الدنيا والآخرة إليهم خالصا مخلصا لوجه الله ، و من ثم قيل : النصيحة في وجازة لفظها و جمع معانيها كلفظ « الفلاح » الجامع لخير الدنيا والآخرة (و دعاهم إلى النجاة) النجاة مصدر نجوت من كذا إذا تخلصت منه و تنجيت عنه ، يعني دعاهم بالحكمة والموعظة الحسنة إلى نجاتهم من العقوبات و الشدايد أو إلى ما به نجاتهم من المصالح و خلوص العقائد (و حشهم على الذكركر) حش يتعدى بعلى ، يقال : حشته على كذا إذا حضه عليه ، و تعديته هنا بالي إما باعتبار أن حروف الجر قديجي . بعضها في موضع بعض أو بتضمن معنى الدعاء و نحوه ، والمراد بالذكر ذكر الله تعالى ، بالقلب واللسان في جميع الأحوال وله

شرف عظيم قال الله تعالى « و اذكر ربك في نفسك تضرعاً وخيفة » وقال « يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً وسبحوه بكرة وأصيلاً » وقال « اذكروني اذكركم » وقال الصادق عليه السلام : « قال الله تعالى من ذكرني في ملاء من الناس ذكرته في ملاء من الملائكة » (١) المراد به ذكر آلاء الله ونعمائه أو الصلاة والدعاء لأنهما نوعان كاملان من الذكر والقرآن العزيز .

(و دلّهم على سبيل الهدى من بعده بمنهج و دواع أسّس للعباد أساسها)
 المنهج جمع المنهج وهو الطريق الواضح الذي لا يضلّ سالكه . والدواعي جمع داعية التي تدعوهم إلى اتباع سبيل الهدى . والأساس جمع أسّ بالضم وهو أصل الحائط و ضمير التأنيث يعود إلى المنهج والدواعي ، والمراد بتأسيس الأساس : وضعها وإحكامها ، و بسبيل الهدى : الطريقة الشرعية ، و بالمنهج : الأوصياء الطاهرين . و يجوز أن يراد بالأول الأوصياء وبالأخير الأدلة الدالة على خلافتهم (و منائر رفع لهم أعلامها) عطف على « سبيل الهدى » والمنائر جمع المنارة على القياس لأنّ وزنها مفعلة إذ أصلها منورة موضع النور وهي ما يوضع فوقه السراج و قياسها في الجمع مفاعل كمناور و منائر بقلب الواو همزة تشبيهاً للأصليّ بالزائد كما قالوا مصائب في مصاب . و في بعض النسخ « منار » وهي جمع منارة أيضاً على غير القياس ، ثم استعير للأوصياء ^{عليهم السلام} لأنّهم محالّ للأنوار العقلية ، و بهم يستبين حقائق الدين و يستنير قلوب العارفين كما أنّ المشبه به للأنوار الحسية ، و رفع الأعلام عبارة عن نصب الأدلة الدالة على خلافتهم و إمامتهم ^{عليهم السلام} (لكيلا يضلّوا من بعده) أي دلّهم على كذا وكذا لكيلا يضلّوا من بعده على طريق الحقّ بالاعتداء بآثارهم والاهتداء بأنوارهم (و كان بهم رؤفاً رحيماً) الرأفة أشدّ الرحمة والوالوال للعطف على الأفعال المتقدمة ، أولّ الحال عن المستكن فيها أو عن البارز في « يضلّوا » .

(١) رواه الكليني في كتاب الدعاء من الكافي باب ما يجب من ذكر الله في كل مجلس .

((الاصول)):

« فلما انتقضت مدته ، واستكملت أيامه ، توفاه الله و قبضه إليه ، وهو »
 « عند الله مرضي عمله ، و افر حظّه ، عظيم خطره ، فمضى ﷺ و خلف في أمته »
 « كتاب الله و وصيته أمير المؤمنين و إمام المتقين صلوات الله عليه ، صاحبين »
 « مؤتلفين ، يشهد كل واحد منهما لصاحبه بالتصديق ، ينطق الامام عن الله في الكتاب »
 « بما أوجب الله فيه على العباد من طاعته ، و طاعة الامام و ولايته ، و واجب حقه »
 « الذي أراد من استكمال دينه ، و إظهار أمره ، و الاحتجاج بحججه ، و الاستضاءء »
 « بنوره في معادن أهل صفوته و مصطفى أهل خيرته ، فوضح الله بأئمة الهدى من »
 « أهل بيت نبينا ﷺ عن دينه و أبلغ بهم عن سبيل مناهجه و فتح بهم عن باطن »
 « ينابيع علمه ، و جعلهم مسالك لمعرفة و معالم لدينه و حجاً بآيينه و بين خلقه »
 « و الباب المؤدى إلى معرفة حقه ، و أطلعهم على الممكنون من غيب سره »

((الشرح)):

(فلما انتقضت مدته و استكملت أيامه توفاه الله و قبضه إليه) تفصيل
 لقوله : « ودلهم - إلى آخره - » و العطف للتفسير ، قال الجوهرى : « توفاه الله أي
 قبض روحه ، و الوفاة الموت » (وهو عند الله مرضي عمله و افر حظّه عظيم خطره)
 أي قدره و منزلته ، و الواو للحال عن مفعول « توفاه » (فمضى ﷺ و خلف في
 أمته كتاب الله و وصيته أمير المؤمنين و إمام المتقين صلوات الله عليه) تصريح
 لما علم سابقاً و لذلك صحّ التفريع ، قال الجوهرى : « خلف فلان فلاناً إذا كان
 خليفته في قومه و منه قوله تعالى : « هرون اخلفني في قومي » وقال المطرزي
 في المغرب : « خلفته خلافة كنت خليفته » وقال القاضى : الخليفة من يخلف غيره و
 ينوب منابه ، و الهاء للمبالغة ، و الأنسب بالنظر إلى هذه المعاني أن مفعول خلف محذوف
 و هو الضمير العائد إليه ﷺ و الواو للحال بتقدير « قد » و « كتاب الله » و ما عطف
 عليه فاعله ، و يجوز أن يقرأ « خلف » بتشديد اللام و يجعل الواو المعطف أي و جعلهما
 خليفته في أمته ليقطع أعداءهم في ترك دين الحق و رفض العمل بما فيه يفقدون من

يرجعون إليه من التوقيف على الأسرار الشرعية ، فإن المرجع إذا كان موجوداً بينهم بعده عليه السلام لم يبق لهم معذرة لاتّباع الأهواء الباطلة ، واقتفاء الأراء الفاسدة . (صاحبين مؤتلفين) حال عن الكتاب والوصي ، أي لا يفارق أحدهما الآخر أصلاً ، والائتلاف مطاوع التأليف : يقال : ألفت بين الشيئين تأليفاً فتألفاً وائتلفا ، وفيه إشارة إلى قوله عليه السلام : «إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي الحديث» (يشهد كل واحد لصاحبه بالتصديق) أي بسبب تصديق كل واحد ما يقول و ينطق ؛ فالقرآن يصدقه عليه السلام في كل ما يقول باعتبار اشتماله عليه ومن جملة ما يقوله عليه السلام : «إنما وليكم الله» تقدمه في خلافته ، و وجوب إطاعته ، والقرآن يشهد له بقوله : «إنما وليكم الله» الآية ، ويقول : «أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم» إلى غير ذلك وهو عليه السلام يصدق القرآن فيما ينادي من اشتماله على كل ما كان وما يكون وما يحتاج إليه الأمة إلى يوم القيامة لأنّه عالم بظاهره و باطنه و مفهومه ومنطوقه و عامّه و خاصّه و ناسخه و منسوخه و أسرارّه كما يرشد إليه قوله تعالى «ومن عنده علم الكتاب» و قوله تعالى «فاسئلو أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون» . (ينطق الامام عن الله في كتاب الله بما أوجب الله فيه على العباد من طاعته) خلق الله تعالى عباده للطاعة والانتقياد له في كل ما أمر به ونهى عنه في الكتاب ، و ظاهر أن كل أحد لا يقدر على استنباط المقصود منه لكونه ظاهراً و باطناً ، و رمزاً وإشارة و مجملاً و مفصلاً ، و محكماً و متشابهاً ، و عاماً و خاصاً ، و مطلقاً و مقيداً ، و مفهوماً و منطوقاً ، و ناسخاً و منسوخاً ؛ فلذلك وجب في الحكمة ثبوت إمام ينطق عن الله بما أوجب عليهم و ما يحتاجون إليه لئلا يضلّوا ، ولا يبقى لهم حجة ولا معذرة و هو لسان الحق والناطق عن كتابه والمبين لخطابه ووجب عليهم الانتقياد له و اتباع آثاره ، و استماع أخباره ، واقتفاء أفعاله و أطواره (و طاعة الامام و ولايته) لدلالة الآيات القرآنية والبيّنات الربّانية على ثبوت الامامة والولاية لأمر المؤمنين عليهم السلام وبعدها ولادة الطاهرين . وبيّنوا الرسول وأهل الذكر عليهم السلام وعيّنوها و عيّنوا مواضعها و كيفية دلالتها والمنكرون لفضل آل محمد صلوات الله

عليهم أجعين أو لوها بما سوّلت لهم أنفسهم فضّلوا وأضلّوا كثيراً وأوردوهم النار و بنّست مصيراً . (و واجب حقّه) ليس عطفاً «على ولايته» والضمير للامام، بل على الموصول أو على طاعته والضمير لله تعالى و إدراج الواجب على الأخير للمبالغة والاضافة على التقديرين من باب جرد قطيعة . (الذي أراد) أي أراد من الامام أو العباد والموصول مع صلته صفة لحقّه . (من استكمال دينه) بالعلم والعمل (و إظهار أمره) لحفظ الطريقة الالهية عن الانطباع والعلوم النبوية عن الانداس سيما عند ظهور البدعة وبروز الخدعة فإنّه يجب على العالم حينئذ إبطالها بإظهار الحق ومن ثمّ وجب وجود معصوم في كلّ عصر ليكون منفزعا في كلّ مصيبة وملجأ في كلّ بليّة .

(والاحتجاج بحججه) إذ لكلّ حقّ حقيقة ، ولكلّ حقيقة دليل و حجة من الله سبحانه فوجب على العاقل التمسك في إثباتها بتلك الحجة لا بما سوّلت له نفسه فإنّ إيصاله إلى المفسد أولى من إيصاله إلى المقاصد و يجوز أن يراد بالحجج الأئمة المعصومين إذ من حق الله تعالى على العباد أن يحتجّوا في العلوم الدينية والمعارف اليقينية بقولهم عَلَيْهِمُ السَّلَامُ لأنهم حفظة لسرّه و خزنة علمه والاستضاء بنوره) الذي أودعه في معادن أهل صفوته المراد بالنور العلم على سبيل الاستعارة و تشبيه المعقول بالمحسوس اجماع عقليّ و هو الايصال إلى المطلوب إذ بالعلم يدرك الحقّ و يفرق بينه و بين الباطل كما أنّ بالنور يدرك المحسوس و يفصل بين الأشياء المرئية ، والاستيضاء ترشيح ، و صفوة الشيء خالصه ، و نبينا عَلَيْهِمُ السَّلَامُ و عمرته الطاهرين عَلَيْهِمُ السَّلَامُ صفوة الله من خلقه ، والاضافة الاولى بيانية أولامية إن أريد بالمعادن القلوب والثانية بيانية والثالثة لامية ، و تتابع الاضافات لا يوجب ثقلاً مخلاً بالفصاحة (ومصطفى أهل خيرته) عطف على المعادن ، والاصطفاء الاختيار يقال : اصطفيته أي اخترته ، والمصطفى بصيغة الافراد أو الجمع باسقاط النون للاضافة ، والاضافة إما بيانية أو بتقدير «من» والخيرة مثال العنبة والسيرة إما بمعنى المختار أو بمعنى الاختيار وقد استعملت فيهما كما في قولهم عَلَيْهِمُ السَّلَامُ خيرة

الله وقوله تعالى : دما كان لهم الخيرة .

(فأوضح الله بأئمة الهدى من أهل بيت نبينا) حال عن الائمة أو بيان لها .
(عن دينه) الذي هو عبارة عن مجموع ما جاء به نبينا من القوانين . والايضاح الاظهار والابانة . يقال : وضع الشيء ، أي ظهر وبان ؛ وأوضحته أي أظهرته و تعديته بعن للمبالغة (وأبلغ بهم عن سبيل مناهجه) بلغ الصبح يبلغ بالضم بلوجاً إذا أشرقوا أضاء . وكذا الحق إذا اتضح ، وأبلجه إذا أظهره وأوضحه و «عن» زائدة للمبالغة في الربط والايصال و مناهجه كل ما يتقرب به إليه سبحانه من العلوم الكاملة والأعمال الصالحة والأخلاق الفاضلة ، و سبيلها دلائلها ، يعني أضاء بأنوار أئمة الهدى وإشراقاتهم تنبئ هذه الأمور الموصلة إلى جناب الحق الموجبة للتقرب به ، وأوضح دلائلها (و فتح بهم عن باطن ينابيع علمه) الينابيع جمع ينبوع وهي عين الماء ، و هذا الكلام إما على سبيل الاستعارة المكنية والتخييلية . بتشبيه العلم بالماء ، و إثبات الينابيع له ، أو من قبيل اجن الماء ، و في لفظ الباطن إشارة إلى علمهم بالاسرار الالهية والعلوم الغيبية الدنيوية المشار إليها بقوله تعالى : « عالم الغيب والشهادة فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول » أو إلى علمهم بباطن القرآن ومتشابهاته على أن يكون المراد بالينابيع الآيات القرآنية .

(وجعلهم مسالك لمعرفة) لكل مطلوب طريق ومسلك من سلكه وصل إليه وهم عليه السلام طرق معرفة الله بما يليق به و مسالكها بأمر الله عز شأنه و من رجع إليهم يتنور ذهنه بنور المعرفة وضوء الايمان ومن أعرض عنهم يتحير قلبه في تيه الجهالة وظلمة الكفران . (ومعالم لدينه) الناس بتعليمهم يعلمون أطوار الطريقة و بتفهمهم يفهمون أرار الشريعة (وحجاً بآ بينه وبين خلقه) الحجاب بالضم والتشديد جمع حاجب السلطان وهو الذي يمنع من شاء من الدخول عليه ويأذن من شاء ولا يمكن الوصول إلا بالرجوع إليه والتمسك به وهم عليه السلام كذلك بالنسبة إلى السلطان الأعظم جل شأنه (والباب المؤدّي إلى معرفة حقه) الباب جنس يصدق على الكثير و بهذا الاعتبار صحّ حمله على الجمع ، و توضيح المرام في هذا المقام

أنَّ حقوق الله على عباده كثيرة وهي مدينة ليس فيها إلا الحق ولا يدخلها إلا أهل الحق ، و تلك الحقوق أشرف و أعظم من أن ينالها العقول البشرية بذاتها ويدركها باستقلالها لخفاء طرقها و دقة مسالكها فربما يقع في الخيال مثلاً التماثل بينه تعالى و بين المخلوقات و يجري عليه أحكام الأجسام والجسمانيات كما ترى في كثير من المبتدعة و لذلك جعل الله تعالى نبيه ﷺ مدينة تلك الحقوق و علياً و أوصياه ﷺ بابها كما يدل عليه « أنا مدينة العلم و علي بابها » و هو في الحقيقة باب الجنة و باب الرحمة و باب السعادة ، فمن عكف على سدنته فقد رشد، ومن أعرض عنه فقد هلك وقد فسد.

(أطلعهم على المكنون من غيب سرّه) أطلعهم إماماً بتخفيف الطاء من قولك أطلعتك على سرّي إذا أظهرته له و وقفته عليه، وإماماً بتشديد المعجمة من قولك اطلعت على باطن أمره بمعنى أشرفت عليه ، فلا يناسب المقام لأنّه لازم والمقصود أنّهم ﷺ لم يكونوا مقصورين على العلم بظاهر الشريعة بل أطلعهم الله سبحانه على أسرار مكنونه في لوح التصوير مكتوبة بقلم التقدير ، غايبة عن بصائر الخاليق، مستورة عن ضمائر أرباب العلائق والعوائق وهم قد كانوا يظهرن بعضها لبعض إن وجدوه أهلاً ويخفونها عن غير أهله إذ كانوا أطباء النفوس يتكلمون الناس بقدر عقولهم و من ثم قال سيّد الوصيّين أمير المؤمنين ﷺ وقد أشار بيده إلى صدره « إن ههنا علوماً جمّة لو وجدت لها أهلاً ».

((الأصل)) :

« كلما مضى منهم إمام نصب لخلق من عقبه إماماً بيتاً ، و هادياً نيراً . و
« إماماً قيماً ، يهدين بالحقّ وبه يعدلون ، حجج الله و دعاته و رعاته على خلقه ،
« يدين بهديهم العباد ، ويستهلّ بنورهم البلاد ، و جعلهم الله حياة للإنام ومصاييح
« للظلام و مفاتيح للكلام و دعائم للإسلام و جعل نظام طاعته و تمام فرضه التسليم ،
« لهم فيما علم والردّ إليهم فيما جهل ، و حظر على غيرهم النهج على القول بما »

« يجهلون و منهم جحدا لا يعلمون ، لما أراد تبارك و تعالى من استنقاذ من شاء ،
« من خلقه ، من ملأّت الظلم و مغشيات البهم و صلى الله على محمد و أهل بيته الأختيار ،
« الذين أذهب الله عنهم الرجس [أهل البيت] و طهرهم تطهيراً » .

((الشرح)):

(كلما مضى منهم إمام نصب) فاعله ضمير يعود إلى الله أو إلى الامام ولا تفاوت في المعنى لأن الإمامة عهد من الله و رسوله لرجل بعد رجل حتى ينتهي الأمر إلى صاحبه (لخلق من عقبه إماماً) « من » جارة أو موصولة « و إماماً » على الأول مفعول «نصب» وعلى الثاني حال عن الموصول وذلك لاستحالة خلوق الأرض من حجة وإلا لساخت بأهلها (بيتاً) في العلم و الحلم والامامة لظهور الآيات والكرامات منه مقروناً بدعوى الإمامة (و هادياً) للقرن الذي هو فيهم إلى الدين القويم والصراط المستقيم (نيراً) كالشمس الطالعة المجللة بنورها للعالم إذ بنوره يضيء قلوب المؤمنين و يرتفع عنها ظلمة الجهالة والغواية ، كما أن بنور الشمس يضيء وجوه الأرضين و يرتفع عن الأبصار ظلمة الغطاء والغشاوة (و إماماً فيماً) أي مستقيماً في أفعاله و أعماله وسائر الحالات الكاملة المطلوبة من الإنسان من قومت الشيء ، فهو قويم أي مستقيم أوقيماً بأمر الإمامة من قام بأمر كذا (يهدون بالحق) « يهدون » حال عن الأئمة و « بالحق » ظرف مستقر حال عن ضمير الجمع أي يهدون الناس حال كونهم متلبسين بالحق ، أو ظرف لغو أي يهدونهم بكلمة الحق و يدلونهم على الاستقامة ويرشدونهم إليها (و به يعدلون) بينهم في الأحكام .

(حجج الله) أي هم حجج الله على خلقه والجملة حال عن ضمير الجمع (و دعائه و دعائه) جمع الداعي والراعي وهو إماماً من رعى الأمير رعيته رعاية إذا حفظهم عن المكاره أو من رعى الأغنام أرعاها رعيّاً إذا أرسلتها إلى المرعى ، و كفلت مصالحها بتشبيهه الخلق بالأغنام لأنهم قبل الاستكمال بالشرعية بمنزاتها في الحيرة و عدم علمهم بمصالحهم و مضارهم أَوْ لاحتياجهم إلى من يحبسهم على

مرعى الشريعة و يمنعهم عن الخروج عنها ، كما أن الأغنام تحتاج إلى من يجسبها على مرعاهها و ما فيه مصالحها (على خلقه) متعلق بالثلاثة المذكورة على سبيل التنازع إذ بهم يحتج الله على خلقه في استكمال الدين فلا يكون لهم عليه حجة و هم دعائه على خلقه يدعوهم إلى معرفة ذاته و صفاته و شريعته، ورعاته عليهم يحفظونهم عن المكار و المقابح و يرشدونهم إلى المحاسن و المصالح (يدين بهديهم العباد) أي العباد يطيعون الله و رسوله في الأمر و النهي و غيرهما مما يجب التقرب و الرضوان بسبب هدايتهم و إرشادهم ولو لذلك لهلكوا جميعاً (و يستهل بنورهم البلاد) أي يستضيء بعلمهم البلاد أو أهلها على سبيل الاستعارة بتشبيه العلم بالنور في الهداية (جعلهم الله حيوة للانام) أي سبباً لحيوتهم و بقائهم في الدنيا إلى أجل معدود إذ لو لا وجودهم لمات الخليق دفعة واحدة. و يحتمل أن يراد بالحيوة الايمان بالله و باليوم الآخر و التصديق بما جاء به الشرع من باب تسمية السبب باسم المسبب لأن هذه الأمور سبب للحيوة الأبدية (و مصابيح للظلام) شبه البدعة و الجهالة بالظلمة في المنع من الاهتداء للطريق و استعمل في المشبه لفظ المشبه به و لزم من ذلك تشبيههم عليهم السلام بالمصابيح إذ بنورهم يرتفع غشاوة البدعة و الجهالة عن بصائر المؤمنين فيهتدون إلى سبيل الحق و يجتنبون عن طريق المفساد كما أن بنور المصباح يرتفع غشاوة الظلمة عن أبصار الناظرين فيبصرون المطالب و يرشدون إلى المقاصد .

(و مفاتيح الكلام) تشبيه الكلام بالبيت المخزون فيها الجواهر استعارة مكنية و إثبات المفاتيح له تخيلية و المراد بالكلام الكلام الحق مطلقاً أو القرآن العزيز و لا يفتح باب حقايقه و أسرارها على قلوب العارفين و لا يشاهدها بصائر الطالبين إلا بتفسيرهم و تعليمهم عليهم السلام (ودعائم الاسلام) تشبيه الاسلام بالبيت مكنية و إثبات الدعائم له تخيلية فكما أن بقاء البيت يحتاج إلى دعائم متناوبة يقوم الآخر مقام الاول عند زواله كذلك بقاء الاسلام و عدم اندراسه بتوارد صواعق المحن و تواتر سيول الفتن يحتاج إلى ناصر و معين يقوم واحد بعد واحد إلى قيام الساعة.

(وجعل نظام طاعته) أي ما ينتظم به طاعته. والنظام - بالكسر - الخيط الذي ينتظم به الأولو في الكلام استعارة مكنية و تخيلية (وتمام فرضه) على العباد من غير أن يكون فيه نقص و عيب (التسليم لهم فيما علم) أي فيما علمه العبد أو فيما هو معلوم و معنى التسليم الاخبات والخضوع ، و تصديق قولهم فيما أسروا و ما أعلنوا سواء علمت المصلحة أولم تعلم . ومن التسليم نقل حديثهم كما سمعوه من غير زيادة و نقصان كما دل عليه رواية أبي بصير عن الصادق عليه السلام (١) (والرد إليهم فيما جهل) أي فيما جهله العبد أو فيما هو مجهول يعنى الرجوع إليهم في استعلام المجهولات لا إلى غيرهم قال الله تعالى « فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون » وبالجمله أوجب الله تعالى علينا التسليم لهم في كل ما علمناه من تعليمهم والرجوع إليهم في كل ما جهلناه لأنهم أستاذنا و هادينا (٢) في ظلمات الطبايع البشرية .

(و حظر على غيرهم التهجم على القول بما يجهلون) الحظر المنع و منه قوله تعالى : « و ما كان عطاء ربك محظوراً » و كثيراً ما يرد في الحديث ذكر المحظور و يراد به الحرام ، و قد حظرت الشيء إذا حرمته و هو راجع إلى المنع ، والهجوم الاتيان بغتة والدخول من غير استئذان من باب طلب يعني حرم على غيرهم الدخول على القول بما يجهلون و منعهم عن الاقدام عليه بمجرّد الظن والرأي والقياس بقوله تعالى « ولا تقف ما ليس لك به علم » و قوله تعالى « ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لا يقولوا على الله إلا الحق » و مثله ما روي عن أبي جعفر عليه السلام قال : « حق الله على العباد أن يقولوا ما يعلمون و يققوا عند ما لا يعلمون » (٣) وما روي عنه عليه السلام أيضاً قال لسدير : « يا سدير أفأريكم الصادقين عن دين الله ثم

(١) سيأتي في باب التسليم وفضل المسلمين تحت رقم ٨ حديث عن أحمد بن مهران عن عبد المظيم الحنفي عن علي بن اسباط عن علي بن عتبة عن الحكم بن أيمن عن أبي بصير قال سألت أبا عبد الله «ع» عن قول الله عز وجل «الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه الى آخر الآية» قال : «هم المسلمون لآل محمد الذين اذا سمعوا الحديث لم يزيدوا فيه و لم ينقصوا منه جأوا به كما سمعوه» . (٢) كذا في جميع النسخ التي كانت عندنا . (٣) سيأتي في باب النهي عن القول بغير علم تحت رقم ٧ من كتاب فرض العلم .

نظر إلى أبي حنيفة وسفيان الثوري وهم حلق في المسجد يعني في مسجد الحرام فقال هؤلاء الصادقون عن دين الله بلا هدى من الله ولا كتاب مبين ، إن هؤلاء الأخابث لو جلسوا في بيوتهم فجال الناس فلم يجدوا أحداً يخبرهم عن الله تبارك وتعالى وعن رسوله حتى يأتونا فنخبرهم عن الله تبارك وتعالى وعن رسوله ﷺ» (١).

(و منهم جحد ما لا يعلمون) لأن عدم العلم بالشيء ليس علماً بعدمه ولا مستلزماً له فانكاره لا يجوز عقلاً ولا نقلاً لقوله تعالى: « فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم والله يعلم وأنتم لا تعلمون » وقوله تعالى « بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه و لما يأتهم تأويله » (لما أراد تبارك وتعالى من استنقاذ من شاء من خلقه من ملومات الظلم ومغشيات البهم) (٢) اللام لتعليل ما تقدم في حقهم ﷺ من لطف الله تعالى بهم وإكرامه عليهم ومأموصولة والعائد إليه محذوف والمملات جمع الملمة وهي النازلة من نوازل الدنيا وحوادثها، والظلم جمع الظلمة والمراد بها البدعة والفتنة على سبيل الاستعارة و ملومات الظلم من باب جرد قطيفة والغشاة الغطاء و الاغشاء التغطية منه قوله تعالى « فأغشيناهم فهم لا يبصرون » و البهم جمع البهمة بالضم وهي ما يوقع في الحيرة لعدم معرفة وجهه من قولهم كلام مبهم إذا لم يعرف له وجه والتركيب أيضاً من باب جرد قطيفة يعني فعل الله تعالى في شأن الأئمة ما فعل وأكرمهم بما ذكر وجعلهم هادي الأمة لما أراد الله تبارك وتعالى من استنقاذ من شاء من خلقه برحمته ورأفته و نجاتهم بسبب هداية الأئمة وإشراقات أنوارهم من ظلمات البدع والفتن إذا نزلت بهم ومن البهم الموجبة لحيرة عقولهم المغطية لبصائر قلوبهم إذا وردت عليهم ولما حمد الله تعالى على صفاته الذاتية والفعلية التي من جملتها بعث الرسول ونصب الخلفاء ، أراد أن يدعوهم استعانة بأرواحهم المقدسة المطهرة فيما هو بصدده و امتثالاً لقوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه ».

(١) رواه الكليني في كتاب الحجة باب أن الواجب على الناس بعد ما يقضون مناسكهم أن يأتوا الإمام .

(٢) المراد بالمغشيات هنا الشبهات من باب الاستعارة كما أن الغطاء والغشاء مانع من رؤية ما وراء كذلك الشبهات حاجب عن رؤية الحق والطريق المحقق من مرضات الله .

فقال (وصلى الله) عطف على قوله « الحمد لله » لأنه في قوة الجملة الفعلية
أوعلى قوله « أحمد » (على محمد وأهل بيته) الطاهرين المعصومين جميعاً وإن كان أهل
البيت يطلق تارة على علي و فاطمة والحسن والحسين (الاخيار) جمع الخير
بالتشديد إذ الخير بالتخفيف اسم تفضيل لا يثنى ولا يجمع كما بيثن في موضعه (الذين
أذهب الله عنهم الرجس) اللام اما للجنس او للاستغراق (و طهرهم تطهيراً) اقتباس
لقوله تعالى « إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً ».

((الاصول)):

« أما بعد فقد فهمت يا أخي ما شكوت من اصطلاح أهل دهرنا على الجهالة »
« و توازرهم وسعيتهم في عمارة طرقها و مباينتهم العلم و أهله ، حتى كاد العلم »
« معهم أن يارز كله وينقطع مواده ؛ لما قدرضوا أن يستندوا إلى الجهل ويضيّعوا »
« العلم و أهله . و سألت : هل يسع الناس المقام على الجهالة والتدين بغير علم »
« إذ كانوا داخلين في الدين مقرّين بجميع أموره على جهة الاستحسان والنشوء »
« عليه والتقليد للآباء ، والأسلاف والكبراء ، والاتكال على عقولهم في دقيق الأشياء »
« و جليلها ؟ فاعلم يا أخي رحمك الله إن الله تبارك وتعالى خلق عباده خلقة متفصلة من »
« البهائم في الفطن والعقول المر كبة فيهم ، محتملة للأمر والنهي و جعلهم جل »
« ذكره صنفين : صنفاً منهم أهل الصحة والسلامة وصنفاً منهم أهل الضرر والزمانة ، »
« فخصّ أهل الصحة والسلامة بالأمر والنهي بعد ما أكمل لهم آلة التكليف و »
« وضع التكليف عن أهل الزمانة والضرر إذ قد خلقهم خلقة غير محتملة للأدب »
« والتعليم و جعل عزّ وجلّ سبب بقائهم أهل الصحة والسلامة و جعل بقاء أهل »
« الصحة والسلامة بالأدب والتعليم ، فلو كانت الجهالة جائزة لأهل الصحة و »
« السلامة لجاز وضع التكليف عنهم و في جواز ذلك بطلان الكتب والرسول والآداب »
« وفي رفع الكتب والرسول والآداب فساد التدبير والرجوع إلى قول أهل الدهر »
« فوجب في عدل الله عزّ وجلّ و حكمته أن يحضّ من خلق من خلقه خلقة »

«محتملة للأمر والنهي لئلا يكونوا سدى مهملين ، وليعظموه ويوحّدوه ويقرّوا»
 «له بالربوبية وليعلموا أنّه خالقهم ورازقهم ، إذ شواهد ربوبيته دالة ظاهرة و»
 «حججه نيّرة واضحة وأعلامه لائحة ، تدعوهم إلى توحيد الله عزّ وجلّ وتشهد»
 «على أنفسهم لصانعها بالربوبية والالهيّة، لما فيها من آثار صنعه وعجائب تدبيره»
 «فندبهم إلى معرفته لئلاّ يبيح لهم أن يجهلوه ويجهلوا دينه وأحكامه لأنّ الحكيم»
 «لا يبيح الجهل به والانكار لدينه ، فقال جلّ ثناؤه : «ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب»
 «ألاّ يقولوا على الله إلّاّ الحقّ» وقال «بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه» فكانوا»
 «محصورين بالأمر والنهي ، مأمورين بقول الحقّ ، غير مرخص لهم في المقام»
 «على الجهل ، أمرهم بالسؤال والتفقّه في الدّين فقال «فلولا نفر من كلّ فرقة»
 «منهم طائفة ليتفقّوها في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم» وقال «فاسألوا»
 «أهل الذكر إن كنتم لاتعلمون» فلو كان يسع أهل الصّحّة والسّلامة المقام»
 «على الجهل، لما أمرهم بالسؤال ولم يكن يحتاج إلى بعثة الرسل بالكتب والآداب»
 «وكادوا يكونون عند ذلك بمنزلة البهائم ومنزلة أهل الضرر والزمانه ولو كانوا»
 «كذلك لما بقوا طرفة عين ، فلمّا لم يجز بقاؤهم إلّاّ بالأدب والتعليم وجب»
 «أنّه لابدّ لكلّ صحيح الخلقة كامل الآلة ، من مؤدّب ودليل ومشير وأمرؤنا»
 «و أدب و تعليم و سؤال و مسألة».

((الشرح)):

ولما فرغ عن التّحميد والصّلاة أراد أن يشير إلى سبب تأليف هذا الكتاب.
 وسببه بطريق الإجمال أنّ رجلاً من المؤمنين شكى إليه الخاليق بسوء عقايدهم و
 أفعالهم من اتّفاقهم على الجهل بأمر الدّين و تعظيمهم لأهله أعلّه ينزعه عن شكايته
 و يزيله عمّا يشكوه و سأله هل يسعهم المقام على الجهل والتقليد بالآباء والأسلاف
 أم لا، فأجاب بأنّ الناس على صنفين صنف أهل الضرر والزمانه ، وصنف أهل الصّحّة
 والسّلامة وهذا الصنف لا يجوز لهم المقام على الجهل بل يجب عليهم التعلّم والتعليم

وبيّنه في كلام طويل ، ثمّ أمّا علم السائل وجوب التعلّم على هذا الصنف شكى إليه اختلاف الروايات وأنّه ليس بحضرته من يسأله ويعتمد بقوله ، و سأله أن يصنّف له كتاباً جامعاً للروايات الواردة في أصول الدّين وفروعه فأجاب سؤاله ، و صنّف هذا الكتاب ليكون مرجعاً له و لسائر المؤمنين إلي يوم الدّين فأشار إلى ما ذكرناه إجمالاً بقوله :

(أما بعد فقد فهمت يا أخى ماشكوت من اصطلاح أهل دهرنا على الجهالة أي من تراضيههم و توافق آرائهم عليها و محبتهم لأهلها و اجتماع كلمتهم فيها و استحسانهم إيّاها لأنّ كلّ حزب بما لديهم فرحون والاصطلاح من الصّلاح وهو اسم بمعنى المصالحة والتّصالح خلاف المخاصمة والتّخاصم (وتوازرهم) أي تعاونهم من الأزر و هو القوّة يقال : آرزت فلاناً أي عاونته والعامة تقول وآزرت (وسعيهم في عمارة طرقها) بتزيينها وتحسينها وترويج آثارها من اكتساب الخطيئات واقتراف السيئات و مودة الاندال و معاشرة الأردال لأنّ كلّ ذلك سبب لشهرتها واتّضاح أمرها و ميل أهل الطّبع إليها (و مباينتهم العلم و أهلها) في لفظ المباينة إشعار بأنّ الفعل من الطرفين و ذلك لأنّ العلم ضدّ الجهل فمن اتّصف بأحدهما وحسنه لنفسه يجتنب عن الآخر و أهلها ، فكما أنّ الجاهل يستنكف عن التحلّي بـ العلم والاستكمال بصحبة العلماء و مجالستهم كذلك العالم يستنكف عن التدنّس بالجهل والاستردال بصحبة الجهّال و مجالستهم و ممّا ينبهك على ذلك و إن لم يكن من هذا الباب حكاية الخضر و موسى على نبيّنا وآله عليهما الصّلاة والسلام فاذا كان الحال بين النبيّين المقرّبين الكاملين في القوّة العلميّة والعملية ماقد تعلم فالحال بين غيرهما أظهر و لزوم الافتراق أبين و أجدر (حتّى كاد العلم معهم) أي مع سوء معاملتهم و قبح أفعالهم و شدة معاندتهم (أن يأرز كلّ) بتقديم الرّاء المهملة على المنقوطة أي يجتمع كلّ في زاوية النسيان من أرزت الحيّة إلى جحرها إذا انضمت إليها و اجتمع بعضها إلى بعض فيها ، أو يتقبّض و يهزل من الهمّ و الغمّ من أرز فلان يأرز أرزاً فهو أرز إذا تقبّض من بخله ولم ينبسط للمعروف

و على التقديرين في الكلام استعارة تبعية ، و يأزر بتقديم المنقوطة على المهمة بمعنى يضعف غير بعيد ، والأزر مشترك بين الضدين أي القوة والضعف (و ينقطع مادة) بالكسبة وهي الأخبار والآثار المروية عن المعصوم عليه السلام (لما قدر ضوأن يستندوا) في أعمالهم وعقائدهم (إلى الجهل) ويعتمدوا عليه و يركنوا إليه وهو إشارة إلى الاصطلاح و التوازر المذكورين كما أن قوله (و يضيعوا العلم و أهله) إشارة إلى المباينة المذكورة لأنهم بسبب تلك المباينة يلبسون الحق بالباطل وهم عن الحق معرضون و يدرسون كتاب الجهل وهم به موقنون و يروون مسائله و هم بذلك مبتهجون ، ويتبعون آثاره من الخطيئات و هم على ذلك مفرطون ، و يمدحون الدنيا و أهلها و هم إليهم متقربون ، و يذمون العلم و أهله و هم عنهم يجتنبون ، و يوحون إلى أقرانهم زخرف القول في ذم العلماء ، و هم بذلك مستبشرون ، و يكرهون مجالسة الحكماء الذين هم ورثة الأنبياء ، و هم بهم مستهزؤون ، كذلك طبع الله على قلوبهم و هم عن إدراك الحق مبعدون ، فلذلك كاد العلم أن يارز و ينقطع موادّه و ينهزم عن عساكر الجهل لفقده من ينصره إلا قليلاً من المؤمنين .

(و سألت هل يسع الناس المقام) بنصب الأول على المفعولية و رفع الثاني على الفاعلية (على الجهالة) في المعارف الحقيقية والأموال الشرعية . « يسع » من وسعة المكان إذا لم يضيق عليه ويستعمل كثيراً في معنى الجواز يقال : يسعه أن يفعل كذا أي يجوز لأن الجائز موسّع غير مضيق والمقام بفتح الميم و ضمها لأنّه إن كان من قام يقوم فمفتوح و إن كان من أقام يقيم فمضموم ، و هو على التقديرين قديكون مصداً بمعنى القيام أو الإقامة ، وقديكون إسماء لموضع القيام و يجوز حملها هنا على كلا المعنيين لأن الأول يناسب الوسع بمعنى الجواز والثاني يناسبه بمعنى الضيق (والتدين بغير العلم) يستند إلى معصوم شفاهاً أو بواسطة رواة ثقات (إذ كانوا داخلين في الدين ، مقرّين بجميع أموره على جهة الاستحسان) من غير حجة و برهان ، والظرف متعلق بالدخول والاقرار على سبيل التنازع .

(والنشوء عليه) نشأ الصبي " ينشأ نشأ على فعل يتسكين العين و نشوء على فعول بضمين و همز اللام : إذا كبر وشب " ولم يتكامل ، قيل : في بعض النسخ « والنشق » قال الجوهري : « يقال رجل نشق إذا كان يدخل في أمور لا يكاد يتخلص منها » (والتقليد) القلادة هي التي في العنق وقلدت المرأة فتقلدت هي ، ومنه التقليد في الدين و تقليد الولاية الأعمال و تقليد الهدى و هو أن يعلق في عنقه شيء ، ليعلم أنه هدى " (للآباء والأسلاف والكبراء) فقبلوا ما قبلوه ورد و اماردوه من غير أن يتمسكوا في ذلك بتمسك صحيح و مستند صريح كما هو المشاهد في أكثر هذه الأمة ولو سئلتهم عن وجه ذلك لسكتوا بل قالوا إننا وجدنا آباءنا على أمة وإننا على آثارهم مهتدون (والاتكال على عقولهم في دقيق الأشياء و جليلها) يعني في أصول العقائد وفروعها كما هو شأن بعض الحكماء والمتكلمين و تابعيهما و بعض الفقهاء المتمسكين بالأدلة العقلية مثل الاستحسان والاستصحاب والمفهومات و غيرها .

(فاعلم يا أخي) شرع في الجواب عما سئله السائل بقوله : « هل يسع الناس » و ما أشكاه عن شكايته لم يأت بما يزيلها لأن تلك الخصال الذميمة قد صارت في أكثر الناس كالطبيعة الثانية فلا بد للعاقل اللبيب من أن يتجرع كأس الفصص و يصبر صبراً جميلاً (إن الله تبارك و تعالى خلق عباده خلقة) بكسر الخاء للنوع والحالة (منفصلة) أي متميزة (عن البهائم في الفطن) جمع الفطنة وهي الفهم والذكاء رجل فطن و فطن ذكي فهم ، وفي بعض النسخ « في الفطر » بالراء جمع الفطرة وهي الخلقة من الفطر بمعنى الإيجاد كالخلقة من الخلق في أنها اسم للحالة ثم جعلت اسماً للخلقة القابلة لدين الحق على الخصوص ، و عليه الحديث المشهور « كل مولود يولد على الفطرة » اسماً لملة الاسلام نفسها لأنها حالة من أحوال صاحبها و عليه قوله ﷺ « قص الأظفار من الفطرة » كذا في المغرب ، وقد يرجح هذا على ما في الأصل بأن الكلام في أصل الخلقة والفطنة من الأمور العارضة (والعقول المركبة فيهم) بالجر عطف على الفطن ويحتمل الرفع بالابتداء .

قال الجوهري: «تقول في تركيب الفص في الخاتم والنصل في السهم ركبته فتر ككب فهو مركب» (محتملة) بالنصب حال عن العقول على الأول وبالرفع خبر لها على الثاني (للأمر والنهي) بخلاف البهائم، إذ ليست لها فطانة وذكاء ولا عقول بل يتعلّق بها نفوس حيوانية لحفظ التركيب والاعتناء والنمو وتوليد المثل والاحساس والحركات الإرادية.

(وجعلهم) بعد اشتراكهم في الفطن والعقول (صنفين صنفاً منهم) بدل أو عطف بيان للمفعول الأول (أهل الصحة والسلامة) مفعول ثان، ومن قال: إن «صنفاً منهم» منصوب على أنه بدل عن مفعول ثان لجعل وأورد على قوله «أهل الصحة والسلامة» بأنه لا محل له من الأعراب فقد أخطأ (و صنفاً منهم أهل الضرر) الضرر خلاف البقع والاسم الضرر وهو المشقة والضرير ذاهب البصر (والزمانة) هي آفة في الحيوانات ورجلٌ ز من أي مبتلى بين الزمانه قيل: المراد أنهم ضراير وزمانه في الجوهر الباطني والأول إشارة إلى قصور القوة النظرية التي يقال لها العقل النظري والثاني إلى اختلال القوة العملية التي يقال لها العقل العملي، أقول الأولى حملهما على كل ما يمنع من توجه خطاب التكليف بالأدب والتعليم لأن المقصود بيان من يجوز له التقليد ومن لا يجوز. وأهل الضرر في العقل النظري وأهل الزمانه في العقل العملي قد لا يكونون من أهل التقليد أيضاً، ولا يشبه حالهم على أحد فلا يكون في التقسيم كثير فائدة. وههنا سؤال مشهور هو أنه لم يخلقهم سواء؟ وماً الباعث على هذا التفاوت وما المصلحة فيه؟ فأجاب عنه الأشاعرة بأنه فاعل مختار يفعل في ملكه ما يشاء ويحكم ما يريد، لا يسأل عما يفعل وهم يسألون وأجاب بعض الحكماء بأن هذا التفاوت للمتفاوت في القابلية، والقابلية شرط في الإفاضة، وهذا إلى الإيجاب أقرب ومن ظاهر الشريعة أبعد. وأجاب بعض آخر منهم بأنه لمصلحة نظام الكل الذي لا نظام أكمل منه لأنه لو خلق كل فرد على الوجه الأكمل بالنسبة إليه وحده لغات نظام الكل من حيث هو كل بل فئات نظام كل فرد أيضاً، مثلاً لو جعل كل فرد فاضلاً عاملاً لما انتظم المصالح الجزئية التي

لا بد في مزاولتها خسة . والحق أن لهذا التفاوت بواطن ومصالح جمّة والعقول الناقصة قاصرة عن معرفة تفاصيلها .

وقد سأل المفضل بن عمر في توحيده عن الصادق عليه السلام حين ذكر عليه السلام منافع ما في الإنسان من العقل والقوى الظاهرة والباطنة وغير ذلك من الأعضاء وذكر مضارّ عدمها ، فقال المفضل : قلت فلم صار بعض الناس يفقد شيئاً من هذه الجوارح فينال في ذلك مثل ما وصفته يا مولاي؟ قال عليه السلام : ذلك للتأديب والموعظة لمن يحل ذلك به ولغيره بسببه ، كما قد يؤدّب الملوك الناس للتنكيل والموعظة فلا ينكر ذلك عليهم بل يحمد من رأيهم ويصوب من تدبيرهم ، ثم إن الذين تنزل بهم هذه البلايا من الثواب بعد الموت أن شكروا وأنابوا ما يستصغرون معه ما ينالهم منها حتى أنهم لو خيروا بعد الموت لاختاروا أن يردوا إلى البلايا ليزدادوا من الثواب . (فخص أهل الصحة والسلامة) القابلة عقولهم للأدب والتعليم . وخص بالخاء المعجمة والصاد المهملة (بالأمر والنهي) في المعارف الإلهية والفروع الشرعية وطلب منهم معرفة ذلك بالاستدلال على الوجه المعتبر و تعليمهم لغيرهم كما يشعر به قوله تعالى « فلو لا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون » (بعدما أكمل لهم آلة التكليف) يعني القوى الباطنة والظاهرة مع صحتها عن الآفات و خلوها عن الموانع (ووضع التكليف عن أهل الضرر والزمانة إذ خلقهم خلقة غير محتملة للأدب والتعليم) في المعارف اليقينية والقوانين الشرعية بالنظر والاستدلال . ولبعض ههنا كلام لا يخلوا من مناقشة لأنه فسّر آلة التكليف بالعقل الذي لم يعرضه الجنون والإغماء . و شبههما و فسّر الضرر والزمانة بالاختلال في العقل وهذا صريح بقريضة المقابلة في أن إوضع التكليف عن أهلها عنده لفقد العقل بالجنون ونحوه ، ثم خص الأدب والتعليم بالمعارف الإلهية حيث قال أي غير محتملة للتأديب والآداب العقلية والنسك الإلهية والتعلم بالعلوم الحقيقية والمعارف اليقينية العلمية وإلا فالقسمان مكلفان بالأوامر والنواهي الشرعية والأعمال من الصلاة والطواف والزكاة و

الصيام وغيرها من الأعمال البدنية هذه عبارته وفيه أن القسم الثاني إذا فقد العقل كيف يكون مكلفاً بهذه الأمور فتأمل.

(و جعل عز وجل سبب بقائهم) في الدنيا (أهل الصحة والسلامة وجعل بقاء أهل الصحة والسلامة بالأدب والتعليم) إذ لولا الأدب والتعليم لكانوا كلهم بمنزلة البهائم ولغات الغرض من الإيجاد ولو كانوا كذلك لما بقوا طرفة عين لأن الله تعالى لا يدع الأرض بغير عالم يعرف به الحق من الباطل (فلو كانت الجهالة جائزة) الظاهر أن الغاء للتعليل (لأهل الصحة والسلامة) ولم يجب عليهم الأدب والتعليم كما لم يجب على أهل الضرر والزمانة (لجاز وضع التكليف عنهم) كما جاز وضعه عن أهل الضرر والزمانة (و في جواز ذلك بطلان الكتب والرسائل والآداب) لأن الغرض من إنزال الكتب وإرسال الرسائل و تقرير الآداب هو التلقّي بما تضمنه الأول والتصديق بما جاء به الثاني وتزيين النفس وتكميلها بالثالث ليحصل لهم بذلك نظام الدنيا وكمال الآخرة وإذا لم يجب عليهم ذلك بطل الغرض من هذه الأمور وإذا بطل الغرض بطل هذه الأمور ولزم العبث (و في رفع الكتب والرسائل والآداب) والقول ببطلانها وفسادها (فساد التدبير) أي القول بأن ليس لهذا العالم صانع عالم مدبّر يصنعه بتقدير و تدبير و علم بعواقب الأمور من تدبير الأمر إذا نظر في إداره أي في عواقبه (والرّجوع إلى قول أهل الدهر) المنكرين للمحشر والنشر وبعث الأنبياء ، والقائلين بأن وجود هذا العالم وأجزائه من فعل الطبيعة باهمال لا بعلم ولا تدبير ، ولا صنعة فيه ولا تقدير بل الأشياء تتكون من ذاتها وكانت الدنيا لم تزل ولا تزال ويقولون « إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر » وإن شئت أن تعرف جملة من تقديرات ربك و تدبيرات إلهك فعليك بمطالعة توحيد المفضل المنقول عن الصادق جعفر بن محمد عليه السلام وقد سمعت عن أثق به أن السيد الجليل ابن طاووس رضي الله عنه أوصى إلى بعض أحبائه وأمره أن يطالعه ويمارسه (١) والحق أنه مع قلة

(١) قد أوصى السيد - رحمه الله - ولده وثيرة مبهجته «محمد» بقراءة هذا الكتاب في

حججه كتاب يظهر لمن مارسه من العلم بالحكم الالهية والتدبيرات الربوبية ما يكل اللسان عن وصفه و يعجز البيان عن شرحه .

(فوجب في عدل الله و حكمته أن يحض) بالحاء المهملة والصاد المعجمة أو

بالخاء المعجمة والصاد المهملة و قيل : في بعض النسخ « أن يحصر » بالحاء

والصاد المهملتين والراء أخيراً أى يضيق ويحبس ، ويؤيد الأخيرين قوله فيما بعد

« فكانوا محصورين بالأمر والنهي » (من خلق من خلقه خلقة محتملة للأمر

والنهي) وهو من كان من أهل الصحة والسلامة كاملاً فيه آلة التكليف

(بالأمر والنهي) في الأحكام و المعارف و الظرف متعلق بـيحض (لئلا

يكونوا سدى) السدى بضم السين وقد يفتح و كلاهما للواحد و الجمع بمعنى

المهمل يقال إبل سدى أى مهمة ، وأسديتها أى أهملتها و ذلك إذا أرسلتها ترعى

ليلاً ونهاراً بلاراع ، فقوله (مهملين) بدل أو بيان أو صفة للتوضيح والتفسير وفي

إهمالهم والتخلية بينهم و بين نفوسهم غير ما ذكر من المفسد ما لا يخفى (وليعظموه)

بتحميد و تمجيد و توصيفه بما يليق به من صفات الكمال ونعوت الجلال (ويوحده)

بنفي الشريك والتجزية ذهنياً و خارجاً (و يقرؤا له بالربوبية) أي بأنه رب

كل شيء ، و مالكة و مدبره ولارب سواه والرب من أسمائه تعالى ولا يطلق على

غيره إلا بالاضافة (و ليعلموا أنه خالقهم) منه بدء وجودهم و بقاؤهم (ورازقهم)

في كل ما ينتفعون به و يحتاجون إليه في العيش والبقاء ، والرزق في اللغة ما

ينتفع به و عند الأشاعرة كل ما ينتفع به خي ، غذاء ، كان أو غيره ، مباحاً كان أو

حراماً ، و خصه بعضهم بالأغذية والأشربة و عند المعتزلة هو كل ما صح انتفاع

الحيوان به بالتغذي وغيره وليس لأحد المنع منه فليس الحرام رزقاً عندهم .

(إذ شواهد ربوبيته دالة ظاهرة و حججه نيرة واضحة و أعلامه لائحة)

العطف فيهما للتفسير و يحتمل أن يراد بالشواهد طبائع الممكنات القابلة للتربية

الموصلة لها إلى كمالاتها ، وبالحجج نفس تلك الكمالات ، وبالأعلام مجموع ذلك

من حيث المجموع أو وضع كل ممكن في حده و مرتبته التي يليق به (تدعوهم

الى توحيد الله عز وجل) و علمه وقدرته وتدبيره و سائر صفاته وكمالاته و تبعثهم على التصديق بذلك ، والجملة في محل النصب على أنها حال من فاعل الأخبار المذكورة و إنما وضع الظاهر موضع الضمير للتبرك بذكر الله و الإشارة إجمالاً إلى دلالة الأمور المذكورة على جميع كمالاته أيضاً كما أشرنا إليه (وتشهد) أي تلك الشواهد والحجج والأعلام (على أنفسها لصانعها بالربوبية والالهية لما فيها من آثار صنعه وعجائب تدبيره) فان من نظر بقلب سليم وعقل صحيح إلى أحوال هذا العالم و كيفية نضدها ومنافعها وأحوال الأفلاك و كيفية حر كرتها حول الأرض من شرق إلى غرب و من غرب إلى شرق و أحوال الشمس في طلوعها و غروبها وانتقالها من برج إلى برج لإقامة دور السنة و الفصول ومنافعها التي من جملتها نشو النبات ونموها و إدراك الثمار والغلات و ضبط الاوقات للديون و المعاملات وأحوال القمر في إنارته ونقصانه وزيادته وحر كته في منازلها ومنافع هذه الأمور وأحوال المتحيرة في اختلاف حر كاتها كماً وكيفاً وجهة وانتقالاتها واقتتراناتها و استقامتها ووقوفها ، ورجوعها و ما يترتب على هذه الأمور من المنافع وأحوال السفليات مثل الأرض والماء والنار والهواء والسحاب المسخريين الأرض والسماء وانتقاله من موضع إلى موضع ، وإفاضة الماء في وقت و في محل دون وقت ومحل آخر وأحوال المعدنيات مثل الذهب والفضة والياقوت والزبرجد والزمرد الفيروزج والحديد والنحاس والرصاص والزرنيخ والكبريت والقار والموميا ، و غيرها مما يشتد حاجة الناس إليه وتكثر منفعه ، و أحوال الحيوانات ومنافعها وفوائدها وخواصها واهتدائها إلى مصالحها في معاشها وبقائها وفرارها عما يضرها وميلها إلى ما ينفعها ، و من جملتها الذرة الحقيرة وهي مع حقارتها وصغر ها يجتمعن في جمع القوت وإعداده بالمعاونة في نقله إلى بيوتهن ثم يعمدن ويقطعن الحب لكيلا ينبت ولا يفسد ، ومنها الزنبور فأنه يعمل بيوتات مسدسات ومخمسات متجاورات من غير فرجة وقد يعجز عن مثلها المهرة من أرباب الهندسة و أحوال الانسان وما فيه من القوى والحواس والأعضاء والجوارح والعروق الساكنة والمتحركة

والنفوس القابلة للعروج إلى أعلى علمين و النزول إلى أسفل السافلين و أحوال
الجنين واحتجابه في ظلمات ثلاث ظلمة البطن وظلمة الرحم وظلمة المشيمة حيث
لا حيلة له في طلب الغذاء ولا دفع الضرر ولا جلب النفع كيف يجري إليه في تلك
الأحوال جميع ما يحتاج إليه و كيف يجعل له ثدي الأم بمنزلة الأذنين وكيف يجعل
له الدم ليناً خالصاً وكيف يحرّك هو شفتيه طلباً لغذائه عرف أن كل هذه الأمور
و غير ها متما لا يعدّ ولا يحصى بأمر صانع عليم خبير قدير مدبّر وأوجد كل
ذرة من ذرات هذا العالم بعلم و قدرة و تدبير لا إله إلا هو تعالى الله عما يقوله
الظالمون علواً كبيراً .

(و ندبهم) أي دعاهم إلى معرفته أي معرفة ذاته وصفاته و شرايعه وأحكامه
كما يرشد إليه قوله (لئلا يبيح لهم أن يجهلوه و يجهلوا دينه) الذي شرعه لنظام
أحوالهم و انقيادهم بالعبودية (و أحكامه) الخمسة المعروفة (لأن الحكيم لا يبيح
الجهل به والانكار لدينه) لأرباب الاستعداد وأهل الصحة والسلامة و لعل المراد
بالانكار الجهل بناء على أن إنكار الشيء مستلزم للجهل به ، فيطبق الدليل على
المدعى (فقال جل ثناؤه) الفاء تفصيل لقوله « ندبهم » أو تعليل له ، أو لقوله
« الحكيم لا يبيح الجهل والانكار لدينه » (ألم يؤخذ عليهم) إنكار للنفي أي أخذ
حسب أهل الكتاب (ميثاق الكتاب) أي الميثاق المذكور في الكتاب وهو التوراة، والميثاق
العهد (أن لا يقولوا على الله إلا الحق) و هو القول باشتراط التوبة في غفران
الذنوب حتماً ، و فيه أن ما ذهب إليه اليهود من إثبات المغفرة بغير توبة والبت
عليها نقض لميثاق الكتاب و افتراء على الله و تقول عليه بما ليس بحق « و أن
لا يقولوا عطف بيان للميثاق أو متعلق به أي بأن لا يقولوا ، وقيل المراد بميثاق الكتاب
قوله تعالى في التوراة « من ارتكب ذنباً عظيماً فإنه لا يغفر إلا بالتوبة » وحيث قد قوله
« أن لا يقولوا » مفعول له ومعناه لئلا يقولوا ، ثم الآية و إن نزلت لسبب مخصوص
كما ذكره المفسرون إلا أننا قد بينا في الأصول أن خصوص السبب لا يخص عموم
الحكم و على هذا دللت الآية على أنه يجب على هذه الأمة أيضاً أن يقولوا الحق

و يحرم عليهم أن يقولوا في صفاته و أفعاله و أحكامه و شرائعه ما ليس بحق ، و أن يشبّوا له ما هو منزّه عنه من الولد و الصاحبة و التجسّم و التحديد و التشبيه و غير ذلك .

(وقال بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه) قال القاضي و صاحب الكشف: بل سارعوا إلى التكذيب بالقرآن أوّل ما سمعوه و في بديهة السّماع قبل أن يفقهوا ويتدبّروا آياته و يعلموا كنه أمره و يفقهوا على تأويله و معانيه ، و ذلك لفرط نفورهم على مخالفة دينهم و مفارقة دين آبائهم كالناشي على التقليد إذا أحسّ بكلمة لا توافق ما نشأ عليه و ألفه و إن كانت أضواء من الشمس في ظهور الصحة و بيان الاستقامة أنكرها أوّل وهلة و اشمئزّ منها قبل أن يحسن إدراكها بحاسة سمعهم غير فكر في صحة أو فساد لأنّه لم يشعر قلبه إلاّ بصحة مذهبه و فساد ما عداه من المذاهب ، ففي هاتين الآيتين دلالة واضحة على النّصب إلى معرفة الحقّ و انقول به و ذمّ الجهل و المنكرين لدين الحقّ (فكانوا) أي أهل الصحة و السلامة (محصورين بالأمر و النهي) في المعارف و الأحكام أي محبوسين بهما لا يجوز لهم التفارق عنهما أو أنّهما يتوجّهان إليهم لا إلى غيرهم من أهل الضرر و الزّمانة (مأمورين بقول الحقّ) فيهما ، و الاضافة بيانية أو من إضافة المصدر إلى المفعول (غير مرخص لهم) بفتح الخاء و الظرف قائم مقام الفاعل أو بكسرها و الفاعل هو الله تعالى (في المقام بالفتح و الضمّ) مصدر (على الجهل) بدين الحقّ و أحكامه (أمرهم بالسؤال و التفقّه في الدين) بمنزلة التعليل لما مرّ فلذلك ترك العاطف (فقال فلولا نفر من كلّ فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين و لينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم) قال القاضي و صاحب الكشف : فهلاّ نفر من كلّ جماعة كثيرة كقبيلة و أهل بلدة جماعة قليلة ليتكلّفوا الفقه في الدين ، و يتجشّموا المشاقّ في أخذها و تحصيلها ، و ليجعلوا غرضهم و مرمى همّهم في التفقّه إرشاد القوم و إنذارهم و النصيحة لهم ؛ و تخصيصه بالذكر لأنّه أهمّ ، و فيه دليل على أنّه ينبغي أن يكون غرض المتعلّم فيه أن يستقيم في نفسه و يقيم غيره ، لا الترفّع على الناس و التبسّط في البلاد و

التشبه بالظلمة في ملاسهم و مراكبهم كما هو شأن بعض المتفقهين.
و أورد عليهما بعض الأفاضل و تبعه بعض آخر بأنهما جعللا الانذار والنصيحة
آخر القصد و مرعى الهمة في التفقه و لم ينظنا بأنهم مما لا يساعده اللفظ لوجود العاطف
في التعليل فيكون «لينذروا» عطفاً على «لينتفخوا» باعادة لام العلة و لو لم يكن الواو
كان لما ذكره وجه.

أقول : نسبة عدم التفطن بالعاطف إلى مثلها سيما إلى صاحب الكشف
المبرز في علم العرب بية والمقنن لقوانينها في غاية البعد و إنما نشأ ذلك من عدم
التفطن بمقصودهما لأن مقصودهما أن مجموع التفقه في الدين وتعلم الأحكام
و أصول القواعد على اليقين و إنذار القوم و إرشادهم إليهما و إن كان غاية السعي
والنفر لكن الظاهر أن الانذار غاية النفر بواسطة التفقه إذ لا يمكن حصوله بدونه
فهو بحسب الحقيقة والمعنى غاية التفقه و إن كان في العبارة بظاهر العطف غاية
النفر فهما جعللا الانذار غاية التفقه رعاية لجانب المعنى و تنبيهاً على ما ذكرنا .
(و قال فاسئلوا أهل الذكر إن كنتم لاتعلمون) أمرهم بالسؤال على تقدير
عدم العلم و لم يجوز لهم البقاء على الجهالة والمقدم هنا جزاء للشرط عند من جوز
تقديمه عليه ، و دليل على جزاء محذوف بعده عند طائفة ، والشرط حال لا يحتاج
إلى جزاء عند آخرين (فلو كان يسع أهل الصحة والسلامة المقام على الجهل لما
أمرهم بالسؤال) فيه دلالة على أن الأمر للوجوب إذ استجواب السؤال لا ينافي جواز
المقام على الجهل (ولم يكن يحتاج إلى بعثة الرسل بالكتب والآداب) لأن البعثة
على هذا التقدير عبث إذا الغرض منها تكميل الخلق وتهذيبهم فإذا لم يجب عليهم قبول
ذلك و جاز لهم المقام على الجهل بطل الغرض ، وإذا بطل الغرض لزم العبث وإذا لزم العبث
لزم عدم الاحتياج إلى ما ذكر ولكن عدم الاحتياج باطل إما لما مر من نقي التدبير
والرجوع إلى قول أهل الدهر ، و إما لما أشار إليه بقوله (فكانوا) أي أهل
السلامة (يكونون عند ذلك) أي عدم بعثة الرسل بالكتب والآداب (بمنزلة البهائم
و بمنزلة أهل الضرر والزمانة) في عدم الفرق بين الحق والباطل وعدم التمييز بين

المعارف وغيرها ، و قيل : إلا أن بين الفريقين فرقاً لأن أهل الصحة والسلامة لهم عذاب أليم في القيامة لأنهم أبطلوا استعدادهم و أفسدوا قوة مرآة بصيرتهم -م دون الطائفة الأخيرة لأنهم مخنوم على قلوبهم في الأزل و فيه نظراً أن المفروض عدم وقوع التكليف بشيء أصلاً فكيف يكونون معذبين في القيامة والعذاب إنما يكون بترك التكليف (ولو كانوا كذلك) أي بمنزلة البهائم و أهل الضرر والزمانة (لما بقوا طرفة عين) و هلكوا دفعة واحدة من غير مهلة لأن حكمة الله تعالى تقتضى عدم بقاء الأرض و من عليها بدون أهل شريعة و دين و أصحاب معرفة و يقين .

(فلمّا لم يجز بقاؤهم إلا بالآداب والتعليم وجب أنه لابد لكل صاحب الخلقة كامل الآلة من مؤدّب و دليل ومشير) ليحصل التأدّب بالآداب باعانة و إرفاده والاهتداء إلى الحق بدلالته و إرشاده (و أمر و ناه) ليسلك سبيل الخيرات بزواجر أمره و يسدّ سبيل المنهيات بزواجر نهيّه (و أدب و تعليم) ليكتسب الذّهن من نورهما جلاء و يقترب العقل من ضوئيهما صفاء (و سؤال و مسألة) ليرفع عن وجه القلب نقاب الجهالة و يزيل عن ساحة العقل حجاب الضلالة ، لأن شفاء العي هو السؤال ، كل ذلك ليستكمل القوة النظرية والعملية على مراتبهما وتتخلّى النفس عن الرذائل وتتخلّى بالفضائل ، وتخرج إلى حد الكمال من حد النقصان ؛ و تشاهد الصور الإدراكية مشاهدة العيان ، و تدرك جلال الحق في مرآة ذاته ، ولا تغفل طرفة عين عن أفعاله ، وصفاته ؛ ففي كل وقت يحصل لها الشوق والسرور ، والله وليّها يخرجها من الظلمات إلى النور .

((الأصل)) :

« فأحقّ ما اقتبسه العاقل و التمسّه المتدبّر الفطن و سعى له الموفق »
 « المصيب العلم بالدين و معرفة ما استعبد الله به خلقه : من توحيده و شرايعه و »
 « أحكامه و أمره و نهيّه و زواجره و آدابه ، إذ كانت الحجّة ثابتة و التكليف »
 « لازماً و العمر يسيراً و التسويف غير مقبول و الشرط من الله جلّ ذكره فيما »
 شرح اصول الكافي - ٣ -

« استعبد به خلقه أن يؤدّوا جميع فرائضه بعلم و يقين و بصيرة ليكون المؤدّي ،
 « لها محموداً عند ربّه مستوجباً لثوابه و عظيم جزائه ، لأنّ الذي يؤدّي بغير ،
 « علم و بصيرة لا يدري ما يؤدّي ولا يدري إلى من يؤدّي . و إذا كان جاهلاً ،
 « لم يكن على ثقة مما أدّى ، ولا مصداقاً . لأنّ المصدق لا يكون مصداقاً حتّى ،
 « يكون عارفاً بما صدّق به من غير شكّ ولا شبهة ، لأنّ الشاكّ لا يكون له ،
 « من الرّغبة و الرّهبة والخضوع والتقرّب مثل ما يكون من العالم المستيقن ،
 « و قد قال الله عزّ و جلّ : « إلّا من شهد بالحقّ وهم يعلمون » فصارت الشهادة ،
 « مقبولة لعلّة العلم بالشهادة ، ولولا العلم بالشهادة لم تكن الشهادة مقبولة ، والأمر ،
 « في الشاكّ المؤدّي بغير علم و بصيرة إلى الله جلّ ذكره إن شاء تطوّل عليه ،
 « فقبل عمله وإن شاء ردّ عليه ، لأنّ الشرط عليه من الله أن يؤدّي المفروض بعلم و
 « بصيرة و يقين كيلا يكونوا ممّن وصفه الله فقال تبارك و تعالى : « ومن الناس ،
 « من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأنّ به وإن أصابته فتنة انقلب على
 « وجهه خسر الدنيا والآخرة ، ذلك هو الخسران المبين » لأنّه كان داخلاً ،
 « فيه بغير علم ولا يقين فلذلك صار خروجه بغير علم ولا يقين وقد قال العالم عليه السلام :
 « « من دخل في الايمان بعلم ، ثبت فيه و نفعه إيمانه ، ومن دخل فيه بغير علم ،
 « خرج منه كما دخل فيه » . و قال عليه السلام : « من أخذ دينه من كتاب الله و سنّة ،
 « نبيّه عليه السلام زالت الجبال قبل أن يزول ، و من أخذ دينه من أفواه الرّجال ،
 « ردّته الرّجال » . وقال عليه السلام : « من لم يعرف أمرنا من القرآن لم يتكسّب الفتن . »

((الشرح)):

(فأحقّ ما اقتبس) العاقل من المؤدّب والدليل ، يقال : اقتبست منه علماً
 أى استفدته (والتمسه) أي طلبه بالمسئلة و السؤال (المتدبّر الفطن و سعى له
 الموفق المصيب العلم بالدين و معرفة ما استعبد الله به خلقه) إذ بهذين العلمين
 يخرج الخلق من ظلمات الجهالة و يعلمون كيفية الخروج عن غشاوة الغواية و

الضلالة ، و بذلك يحصل لهم إصابة قرب رب العالمين و رفاقة من أنعم الله عليهم من الانبياء والملائكة المقرين وحسن اولئك رفيقاً (من توحيده) بيان للدين أي العلم بالدين هو التصديق بوحدا نيته وصفاته اللآيقه به و يندرج فيه التصديق بملائكته و كتبه و رسله و أوصياء رسله ، وبما أخبر به الرسل من أحوال الآخرة مثل الحشر والنشر والحساب والميزان والصراط والجنة والنار وغير ذلك من أحوال القيمة (و شرايعه و أحكامه و أمره و نهيّه و زواجره و آدابه) بيان لما استعبد الله به خلقه (إذ كانت الحجّة ثابتة) على صحيح الخلقة كامل الآلة وهذا مع ما عطف عليه دليل على أن العلم بالدين ومعرفة ما استعبد الله به خلقه أحق بالاعتباس وأولى بالالتماس (والتكليف لازماً) لما عرفت من الدلائل (والعمر يسيراً) مع ما فيه من الضروريات التي لا يمكن بقاء بدونه كالنوم وتحصيل الغذاء واللباس ونحوها فلا يسع العمر إلا للأهم والأحقّ وهو الأمور المذكورة (والتسوية غير مقبول) لأنّ العمر لا يفي بذلك ولأنّ التكليف ثابت في وقت التسوية أيضاً (والشرط من الله جلّ ذكره فيما استعبد به خلقه أن يؤدّ واجميع فرائضه بعلم و يقين و بصيرة) لقوله تعالى « ولا تقف ما ليس لك به علم » وقوله « فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لاتعلمون » وقوله « فلم تحاجّون فيما ليس لكم به علم » وقوله « فلو لا نفر الآية-ه إلى غير ذلك من الآيات الدالة على اشتراط العلم والبصيرة في العمل . (ليكون المودّي لها محموداً عندربه) من ألطافه الخفيّة و عناياته الجلّية أنّه تعالى مع كمال استغنائه عن الخلق يقابل حمدهم بالحمد و شكرهم بالشكر و ذكرهم بالذكر كما قال : « اذكروني أذكركم » وفي الحديث « قال الله تعالى من ذكرني في ملاء من الناس ذكرته في ملاء خير من ملائه (١) » (مستوجباً لثوابه و عظيم جزائه) لأنّ الثواب والجزاء إنّما يترتب على فعل المأمور به و ترك المنهي عنه ولا يتصور ذلك إلا بالعلم والبصيرة بهما (لأنّ الذي يؤدّي بغير علم و بصيرة لا يدري ما يؤدّي ولا يدري إلى من يؤدّي) لظهور أنّ من لم يعرف

ربه ولم يعلم أو امره و نواهيه لا يدري ما يفعل ، ولا لمن يفعل ، ولا من يتقرب إليه فلو فعل شيئاً لم يكن ذلك عبادة لأن العلم أصل العبادة والتقرب روحه فإذا لم يتحققا لم يتحقق العبادة (و إذا كان جاهلاً لم يكن على ثقة مما أدّى ولا مصداقاً) بأن ما أدّاه هو المطلوب منه و يترتب عليه الثواب و الجزاء (لأن المصدق لا يكون مصداقاً حتى يكون عارفاً بما صدّق به من غير شك ولا شبهة) إن لم يكن للطالب بعد الشعور بالمطلوب رجحان بأحد طرفيه كان له شك فلا يكون عارفاً و مصداقاً به و إن كان له رجحان فإن لم يكن ذلك الرجحان مستنداً إلى دليل كان له تقليد و إن كان مستنداً إلى دليل فإن كان ذلك الدليل ظنياً كان له ظن و هذان قد اشتركا في أن تصديقهما قابل للشبهة فليس تصديقهما في الحقيقة تصديقاً لزواله بسهولة عند توارد الشبهات ، فلا يكون لهما معرفة و تصديق بحسب الحقيقة ، و إن كان ذلك الدليل برهاناً مفيداً لليقين كان له تصديق قطعي و علم يقيني غير قابل للشبهة و هو مصدق بحسب الحقيقة و عارف بما صدّق به ، و هذا التصديق هو المطلوب في دين الحق و معارفه (لأن الشاك) بدين الحق الغير الثابت الذي يمكن زوال معرفته بتوارد الشبهات (لا يكون له من الرغبة والرغبة والخضوع والتقرب مثل ما يكون من العالم المستيقن) بالله و صفاته و بدينه الذي شرعه للتقرب إليه و لصالح الخلق عاجلاً و آجلاً كما قال عز شأنه « إنمّا يخشى الله من عباده العلماء » وقال : « هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنمّا يتذكر أو أو الألباب » . (وقد قال الله عز وجل « إلا من شهد بالحق وهم يعلمون ») قيد الشهادة بالعلم وهو يفيد اشتراط قبولها (فصارت الشهادة مقبولة لعلّة العلم بالشهادة) أي بالأمر المشهود ولو لا العلم بالشهادة (لم يكن الشهادة مقبولة ضرورة انتفاء المشروط بانتفاء شرطه ولا شبهة في أن الشهادة بالأمر الدنيّة والمعارف اليقينيّة داخلّة تحت هذا الحكم بل هي من أعظم الشهادات فهي مشروطة بالعلم قطعاً (والأمر في الشاك) الظاهر أن المراد بالشاك من ليس له رجحان وتصديق أصلاً ومن كان له رجحان مستند إلى تقليد أو إلى دليل ظني بقرينة تقييد العلم فيما سيأتي باليقين ، إذ يفهم

مند أن الشاك يشمل الأخيرين لقبول رجحانهما تشكيكاً وشبهة (المؤدّي) لفرائض الله تعالى (بغير علم وبصيرة) فلبية بتلك الفرائض (إلى الله جلّ ذكره) أي إلى مشيئته من غير أن يكون قبوله واجباً عليه كما هو الواجب في صورة العلم (إن شاء تطوّل عليه فقبل عمله و إن شاء ردّ عليه) هذا إن اتفق إصابته في العمل. إن قلت : أصحاب التقليد مع تحقق الإصابة مؤمنون من أهل الجنة، غايته أن إيمانهم دون إيمان أصحاب اليقين من أزباب المكاشفة والبراهين و درجاتهم دون درجاتهم فكيف يصحّ الردّ عليهم ؟

قلت : أولاً كون اعتقادهم إيماناً يوجب ترتّب القبول والثواب و الجزاء عليه غير معلوم ، وثانياً أن الإيمان التقليديّ قابل للزوال بطريان أدنى شبهة خصوصاً عند حضور الموت واضطراب النفس وإلقاء الشياطين شبهات متكاثرة فربّما ينهدم اعتقاده بتلك الشبهات لعدم ابتناؤه على أصل ثابت و أساس قائم ، ولقد سمعت من أثق به أنّه قال : كانت لعجوزة دعوى على أحد بمال جزيل فمرضت مرضاً شديداً و حضرتها في حال الإخصار و كرّرت الشهادتين عليها وهي لم تتكلّم بهما ، فلمّا بالغت في ذلك قالت : إن هذا الذي حاضر يقول لا تتكلّمي بهما فإنّهما تمنعانك من أخذ حقوقك من فلان فماتت ، و ربّما يظهر عنده خلاف بعض عقائده و بطلانه فيصير ذلك سبباً لعدم وثوقه بساير اعتقاداته فيتردّد ، و ربّما يميل قلبه إلى حبّ زهرات الدّنيا و شهواتها فيشتغل بها و يغفل عن أمور الآخر لعدم كونه واثقاً بها ثابته عليها فيزهد و هو على تلك الحالة مسلوب الإيمان نعوذ بالله من هذه المفساد و هذا هو المراد بقوله « إن شاء تطوّل عليه فقبل عمله و إن شاء ردّ عليه » يعني أن مشيئة الله تعالى في شأنه لكونه متزلزلاً غير ثابت غير معلومة لنا إن شاء أبقاه على ما كان عليه بفضلّه و إن شاء وكاه إلى نفسه وهذا بخلاف العالم الثابت المنوّر قلبه بنور ربّه فإنّه لما كان مستيقناً مشاهداً لما في عالم الملك و الملكوت بعين البصيرة عارفاً بالمطالب عالمياً بالمفساد و بحقارة الدّنيا و زينتها كان له قدرة له تامّة على أن يدفع عن نفسه جميع هذه المفساد بعون الله تبارك و تعالى ، وقد نقل عن بعض المشايخ العارف

الكامل: أنه قال في حال الاحتضار حضرني ذلك اللعين وألقى عليّ شبهات كثيرة وأنا أجبت عن كل واحدة واحدة منها براهين قاطعة فأفحم فعلمت أن علمي تنفعني في الدنيا والآخرة، والله الموفق والمعين. وإلى ما ذكرناه أشار بقوله: (لأن الشرط عليه من الله أن يؤدي المفروض بعلم وبصيرة ويقين كيلا يكون ممن وصفه الله فقال تبارك و تعالی: «و من الناس من يعبد الله على حرف») قال القاضي أي على طرف من الدين لا ثبات له فيه كالذي يكون على طرف الجيش فإن أحس بظفر قرء وإلا فرف («فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه») قال أيضاً، روي أنها نزلت في أعاريب قدموا إلى المدينة فكان أحدهم إذا صح بدنه و نتجت فرسه مهرأسياً وولدت امرأته غلاماً سوياً وكثر ماله وماشيته قال ما أصبت منذ دخلت في ديني هذا إلا خيراً واطمأن به وإن كان الأمر بخلافه قال: ما أصبت إلا شراً وانقلب، وعن أبي سعيد أن يهودياً أسلم فأصابته مصايب فتشأم بالإسلام فأتى النبي ﷺ فقال أقلني فقال: إن الإسلام لا يقال. فنزلت (خسر الدنيا و الآخرة) أمّا خسران الدنيا فلا يتلأه بالمصايب والفتن و ذهاب الأموال والأولاد و أمّا خسران الآخرة فلذهاب عصمته وحبوط عمله و فساد دينه بالارتداد (ذلك هو الخسران المبين) لفوات رأس ماله الذي هو حياته في الدنيا و حياته في الآخرة ولا خسران أظهر من ذلك وإنما كان شأنه ذلك.

(لأنه كان داخلاً فيه) أي في الدين (بغير علم ولا يقين فلذلك صار خروجه بغير علم ولا يقين) فخرج منه كما دخل فيه (وقد قال العالم ﷺ) المراد به هنا موسى بن جعفر ﷺ، وقيل: هو المراد من العالم إذا أطلق، ويقال له الكاظم وأبو الحسن على الإطلاق وأبو الحسن الأول والعبد الصالح وأبو إبراهيم، ويقال أبو الحسن الثاني للرضا ﷺ. وأبو الحسن الثالث للهادي ﷺ. وأبو عبد الله المصطفى ﷺ. وأبو جعفر على الإطلاق وأبو جعفر الأول للباقر ﷺ. وأبو جعفر الثاني للجواد ﷺ والماضي وأبو محمد للعسكري ﷺ (من دخل في الإيمان بعلم ثبت فيه و نفعه إيمانه، ومن دخل فيه بغير علم خرج منه كما دخل فيه) أي خرج منه

بغير علم إما لشبهة أو لغرض من أغراض نفسانية وفيه إيماء إلى تساوي الإيمان و
عدمه عنده فليس استقراره فيه أولى من خروجه عنه.

(وقال عليه السلام من أخذ دينه) أي فرائضه أو طريقه و سبيله إلى الحق و ثوابه
(من كتاب الله و سنة نبيه ﷺ) بفهم و بصيرة (زالت الجبال قبل أن يزول)
الضمير المستكن راجع إلى «من» أو إلى «دينه» وفيه على التقديرين مبالغة في استقراره
على الدين و عدم اهتزازه بصرصر الشبهات و هبوب رياح الأغراض و البليات ،
لحصول اعتقاده بعلم و يقين و ابتناؤه على أصل متين (و من أخذ دينه من أفواه
الزجال) تقليد ألهم و اتباعاً لا ثارهم و اقتفاء لأفعالهم و أطوارهم (ردته الزجال)
عنه باللقاء أدنى الشبهات. و أضعف التدليسات لعدم تمسكه بمستند شديد و أصل سديد فهو
كنيات يابس تكسره حوادث الزمان و تقلبه رياح الفتن و فيه إيماء لطيف إلى أن
المقلد لا بد من أن ينقلب من حال إلى حال لأن متابعته للأول ليس بأولى من متابعته
لآخر ، فإذا اختلفا يبقى هو متردداً في قبول قول أحدهما دون صاحبه فيرجع من
الظن إلى الشك (وقال عليه السلام من لم يعرف أمرنا) أي شأننا في الإمامة و رتبنا في الخلافة
و الورثة (من القرآن) بل أخذه بمجرّد التقليد أو الاستحسان (لم يتكسب الفتن)
تنكسبها تجسبها و تباعد عنها ، يعني لا يقدر على العدول عنها و لا يأت من الوقوع فيها
لأن فتنة الشبهة والشكوك قد تزيله عن عقائده ، وفيه دلالة على وجوب الاستدلال
في الأصول .

((الأصل)) :

« ولهذه العلة انبثقت على أهل دهرنا بثوق هذه الأديان الفاسدة ، والمذاهب »
« المستشعنة التي قد استوفت شرائط الكفر والشرك كلّها وذلك بتوفيق الله تعالى و خذلانه »
« فمن أراد الله توفيقه وأن يكون إيمانه ثابتاً مستقراً ، سبب له الأسباب التي تؤدّيه »
« إلى أن يأخذ دينه من كتاب الله و سنة نبيه ﷺ صلوات الله عليه وآله بعلم و يقين و »
« بصيرة ، فذاك أثبت في دينه من الجبال الرواسي ، و من أراد الله خذلانه و أن »
« يكون دينه معاراً مستودعاً - نعوذ بالله منه - سبب له أسباب الاستحسان والتقليد »

« والتأويل من غير علم و بصيرة . فذاك في المشيئة إن شاء الله تبارك و تعالى أتم »
 « إيمانه و إن شاء سلبه إياه و لا يؤمن عليه أن يصبح مؤمناً و يمسي كافراً ، أو يمسي مؤمناً و يصبح كافراً ، لأنه كلما رأى كبيراً من الكبراء مال معه و كلما رأى شيئاً استحسّن ظاهره قبله ، و قد قال العالم عليه السلام : إن الله عز وجل خلق النبيين على النبوة فلا يكونون إلا أنبياء ، و خلق الأوصياء على الوصية فلا يكونون إلا أوصياء ، و أعار قوماً إيماناً فان شاء تمّمه لهم و إن شاء سلبهم إياه . قال : وفيهم جري قوله : « فمستقر ومستودع » .

« و ذكرت أن أموراً قد أشكلت عليك ، لا تعرف حقائقها لاختلاف الرواية »
 « فيها و أنك تعلم أن اختلاف الرواية فيها لاختلاف عللها وأسبابها و أنك لا تجد »
 « بحضرتك من تذاكره و تفاوضه ممّن تثق بعلمه فيها و قلت إنك تحب أن يكون »
 « عندك كتاب كاف يجمع [فيه] من جميع فنون علم الدين ما يكتفي به المتعلّم »
 « و يرجع إليه المسترشد ، و يأخذ منه من يريد علم الدين والعمل به بالآثار »
 « الصحيحة عن الصادقين عليهم السلام والسنن القائمة التي عليها العمل ، و بها يؤدي فرض »
 « الله عز وجل و سنة نبيه صلى الله عليه وآله و قلت : لو كان ذلك رجوت أن يكون ذلك »
 « سبباً يتدارك الله تعالى - بمعونته و توفيقه - إخواننا و أهل ملتنا و يقبل بهم »
 « إلى مرآشدهم » .

((الشرح)) :

(و لهذه العلة) بعينها وهي أن من أخذ دينه من أفواه الرّجال ردّه الرّجال و من لم يعرف أمرنا من القرآن يقع في الفتنة (انبثقت على أهل دهرنا) أي جرت عليهم . وفي النهاية انبثق الماء انفجر و جرى . وفي المغرب بثق الماء بثقاً : فتحه بأن خرق الشطّ أو السكر و انبثق هو إذا جرى بنفسه من غير فجر . و انبثق بالفتح و الكسر الاسم . (بثوق هذه الأديان الفاسدة) فاعل انبثقت شبه الأديان الفاسدة بالسيول و أثبت لها البثوق أي الشقوق جمع البثق بمعنى الشقّ ففيه استعارة مكنية و تخيلية و أقحم البثوق وأسند الفعل إليها مع أن إسناده إلى هذه الأديان

الشبهة بالسيول أولى للتنبيه على أن هذه الأديان قد أحدثت في دين الحق ثلماً متكررة وخللاً متفاحشة متعددة لا يمكن تداركها وإصلاحها، وفي بعض النسخ «انسق» بالسين المهملة ومعناه طالت عليهم فروع هذه الأديان وأغصانها من انسق النخل إذا طالت باسقاتها وبواسقها وفيه أيضاً استعارة مكنية وتخييلية وما في الأصل أحسن وأتقن (والمذاهب المستشعنة) وهي اثنان وسبعون لقوله ﷺ «ستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة الناجية منها واحدة» (التي قد استوفت شرائط الكفر والشرك كلها) لأن أصحاب هذه المذاهب مخلدون في النار كما يقتضيه الحديث المذكور وغيره ولا معنى للكفر والشرك إلا ما يوجب الخلود فيها (وذلك) المذكور يعني أخذ الدين من كتاب الله تعالى وسنة نبيه وأخذه من أفواه الرجال (بتوفيق الله عز وجل وخذلانه) التوفيق توجيه الأسباب نحو المطلوب الخير وهو يرجع إلى نصره الطالب وإعانه على طلبته ولا بد من وقوع ذلك لكل من تمسك بذيل رحمته لقوله تعالى «والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سلبنا وإن الله لمع المحسنين» والخذلان عدم الإعانة لمن أعرض عنه والحاصل أنه تعالى هدى عباده أجمعين طريق الخير وطريق الشر فمن اختار طريق الخير أعانه عليه ومن اختار طريق الشر وكله إلى نفسه فلا جبر ولا ظلم والله ليس بظلام للعبيد (فمن أراد الله توفيقه وأن يكون إيمانه ثابتاً مستقراً) في لفظ الاستقرار إيمان إلى أن أفعل العبد مدخلاً في ثبوت إيمانه (سبب له الأسباب التي تؤديه إلى أن يأخذ دينه من كتاب الله) وضع الظاهر موضع الضمير لزياده التعظيم والتكريم (وسنة نبيه ﷺ بعلمه ويقين وبصيرة) قلبية بها يسلك سبيل المعارف ويشاهد كمال الله وجماله وجلاله (فذاك أثبت في دينه من الجبال الرواسي) أي الثوابت لأن زوال الاعتقادات إنما يكون بتطرق الشبهات وتصادم التدليسات ولا سبيل لها إليه .

(ومن أراد الله خذلانه وأن يكون دينه معاراً مستودعاً - نعوذ بالله منه - سبب له أسباب الاستحسان) أي خلا بينه وبينها ويعمل بعقله مارآه حسناً مثل القياس و

أعمال البراعة و مفهوم اللقب و مفهوم الصفة (١) إلى غير ذلك من المحسنات العقلية في أصول العقائد و فروعها (والتقليد للآباء) و الكبراء (و التأويل) في المجمل و المتشابه و غيرهما بمجرد رأيه (من غير علم و بصيرة) ناشية من الكتاب و السنة ، و قول أهل البيت عليهم السلام (فذاك في المشيئة إن شاء الله تبارك و تعالى أتم إيمانه) و وفقه لسلوك سبيل النجاة (وإن شاء سلبه إيماء) و وكله إلى نفسه ، و النفس أمارة بالسوء فتورده موارد الهلكات (و لا يؤمن عليه أن يصبح مؤمناً و يمسي كافراً أو يمسي مؤمناً و يصبح كافراً) مثله كمثل المسافر لا بصيرة له و قد صادفه طريقان أحدهما يوصله إلى المطلوب و الآخر يبعده عنه فان سلك الأول فقد اهتدى و إن سلك الآخر فقد ضل ، أو كمثل مسافر سلك طريقاً مخوفاً قد كثر فيه السباع و قطاع الطريق فان سلم منهم فقد رشد و إلا فقد هلك (لأنّه كلما رأى كبيراً من الكبراء مال معه) من غير علم بأن ذلك حق أو باطل و قد ذمهم سبحانه بقوله « و إذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً و لا يهتدون » و حكى عنهم بقوله « يوم تقلب وجوههم في النار يقولون ياليتنا أطعنا الله و أطعنا الرسول » و قالوا ربنا إننا أطعنا ساداتنا و كبراءنا فاضلونا السبيل » ربنا آتتهم ضعفين من العذاب و العنهم لعناً كبيراً » (و كلما رأى شيئاً استحسن ظاهره قبله) لاستيناس قلبه بظواهر المحسوسات و استيحاش عقله عن بواطن المعقولات إذا المعقولات إنما تدرك بعلوم برهانية و أنوار ربانية وهي مفقودة فيه « و من لم يجعل الله له نوراً فما له من نور » فلذلك أفلس قلبه عن معرفة الأشياء على ماهي عليه و عن معرفة الأحكام و أحوال الآخرة التي بها قوام الإيمان و ثباته (و قد قال العالم عليه السلام : إن الله عز وجل خلق النبيين على النبوة

(١) ليس هذه الامور مما يوجب الغفلان غير القياس و التفصيل في علم اصول

الفقه ولكن الشارح جارى مع معاصريه من الاخباريين . و الظاهر من حاشيته على المعالم و شرحه الزبدة انه ناهج منهج اهل الاجتهاد و يتبع الدليل في الاصول و المفاهيم و غيرها. (ش)

فلا يكونون إلا أنبياء) ولا يتزايلون عن وصف النبوة أصلاً (وخلق الأوصياء على الوصية فلا يكونون إلا أوصياء) ولا يتفارقون عن معنى الوصاية والخلافة أبداً (وأعار قوماً إيماناً فإن شاء تمّمه لهم وإن شاء سلبهم إياه، قال : وفيهم جرى قوله فمستقر ومستودع) مستقر بفتح القاف أو كسرهما على اختلاف القراءة جار في النبي والوصي بفتح الفتح اسم مفعول يعنى مثبت في الإيمان أو اسم مكان يعنى له موضع استقرار وثبات فيه وبالكسر اسم فاعل يعنى مستقر ثابت فيه. ومستودع بفتح الدال اسم مفعول أو اسم مكان جار في المعمار، واعلم أن الإيمان والكفر طريقان متقابلان ولكل منهما سالك والسالك على طبقات متفاوتة فالطبقة الأولى للإيمان من وضع القوانين الشرعية بأمر الله تعالى وهم الأنبياء الذين أيدهم الله بروح النبوة وروح القدس والثانية أوصياؤهم الذين أيدهم الله بروح الامامة وإذا قبض الأنبياء انتقل روح القدس إلى أوصيائهم وهو لا ينام ولا يغفل ولا يلهو ولا يزهو، و به يعرفون ما تحت العرش إلى ما تحت الثرى، و يشاهدون ما كان وما هو كائن و ما يكون في الدنيا والآخرة والثالثة التابعون لهم في الأقوال والأعمال والعقائد والمسلمون لهم في جميع ما أمروا به ونهوا عنه. والرابعة أصحاب التقليد والاستحسان الذين ينظرون إلى ظواهر الأشياء ويأخذون مارأوه حسناً و يتركون ماعدوه قبيحاً. والطبقة الأولى للكفر من وضع القوانين الفاسدة لشبهات شيطانية وتسويلات نفسانية كواضعي الدين من الملاحدة والمجسمة ونحوهما من الأديان الفاسدة، والثانية المتعلمون لتلك الشبهات بتعليمهم والمروجون لتلك الأديان بأمرهم و تفهيمهم و هم بمنزلة أوصيائهم مقابل أوصياء الأنبياء عليهم السلام. والثالثة التابعون لهم وأهل التسليم لعقائدهم وأفعالهم وأعمالهم. والرابعة أصحاب التقليد والاستحسان وحال الكل في الهداية والضلالة والرأسوخ وعدمه ظاهرة إلا أصحاب التقليد والاستحسان من الفريقين فإن الإيمان والكفر فيهما معاران مستودعان فإن شاء الله تمّمها لهم وإن شاء سلبهم إياهما ومن ههنا ترى المؤمن قد يرتد فيصير كافراً بعد ما كان مؤمناً أو الكافر يرجع و يصير مؤمناً بعد ما كان كافراً، نعوذ بالله من سوء العاقبة .

(و ذكرت أن أموراً قد أشكلت عليك لا تعرف حقايقها لاختلاف الرواية فيها)
 اختلافاً فأيوجب الأخذ ببعضها طرح البواقي لعدم إمكان الجمع بينها بوجه (وإنك تعلم
 أن اختلاف الرواية فيها لاختلاف علمها وأسبابها) من جملتها أغراض نفسانية
 وتقرُّبات سلطانية وتخيلات شيطانية لقوم سولت لهم أنفسهم فوضعوا الأحاديث
 لخبث عقائدهم على وفق مقاصدهم كما حكى أن غياث بن إبراهيم دخل على المهدي
 العباسي و كان المهدي يحب المسابقة بالحمام فروى عن النبي ﷺ أنه قال
 لاسبق إلا في خف أو حافر أو نصل أو جناح فأمر له المهدي بعشرة آلاف درهم فلمّا
 خرج قال المهدي أشهد أن قفاه قفا كذاب على رسول الله ، ما قال رسول الله
 ﷺ أو جناح ولكن هذا أراد أن يتقرب إلينا وأمر بذبح الحمام وقال : أنا
 حملته على ذلك وقد وضع المنافقون والزنادقة والغلات والخوارج أحاديث كثيرة،
 و حكى أن بعضهم كان يقول بعد ما رجع عن ضلالاته : انظروا إلى هذه الأحاديث
 عمّن تأخذونها فأنّا كنّا إذا رأينا رأياً وضعنا له حديثاً ، ومنها توهّم الراوي
 فرّبما سمع حديثاً ولم يحفظه على وجهه ووهّم فيه فلم يتعمّد كذباً و هو في يده
 يقول ويعمل به ولو علم أنّه وهمه لرفضه ولو علم المسلمون أنّه وهم لرفضوه ،
 ومنها التقيّة إذ كثيراً ما كانوا ﷺ يفتنون على سبيل التقيّة والخوف من النهب و
 القتل ومنها عدم علم الراوي بالناسخ فربما سمع الأمر بالشئ ثمّ نهوا عنه و
 هو لا يعلم ، أو سمع النهي عن الشئ ثمّ أمروا به و هو لا يعلم فعلم المنسوخ
 ولم يعلم الناسخ فيروي المنسوخ ويعمل به ، و لو علم هو أو المسلمون أنّه
 منسوخ لرفضوه .

(و ذكرت أنك لاتجد بحضرتك) حضرة الرّجل قر بهو فنأؤه (من تذاكره
 و تفاوضه) فإوضه في الأمر أي جاره و مفاوضة العلماء أن يعطي كلّ واحد منهم
 ما عنده من العلم صاحبه و يأخذ ما عند صاحبه وهي المساواة والمشاركة مفاعلة
 من التفويض وهو ردّ الأمور إلى الغير (ممّن تنق بعلمه فيها) أي في الروايات
 حتّى يكشف لك عن وجهها حجاب الاختلاف (و قلت : إنك تحب أن يكون

عندك كتاب كاف يجمع [فيه] من جميع فنون علم الدين، الفنون الأنواع والأفانين الأساليب وهي أجناس الكلام وطرقه، المراد بها هنا أصول المعارف وفروعها على اختلاف أنواعها (ما يكتفى به المتعلم ويرجع إليه المسترشد و يأخذ منه من يريد علم الدين والعمل به) ليكون تبصرة للطالبين و تذكرة للعالمين و تكملة للعاملين (بالآثار الصحيحة) متعلق بجمع أوبياخذ أو بعلم الدين أو ظرف مستقر حال عن «كتاب» (عن الصادق عليه السلام والسنن القائمة) المراد بالسنة هنا الطريقة النبوية الشاملة للمندوبات والمفروضات وغيرها، والمراد بقيامها دوامها واستمرارها و اتصال العمل بها إلى يوم القيمة (التي عليها العمل و بها يؤدي فرض الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم) تقديم الظرف في الموضعين للمحصر، والمراد بالسنة هنا خلاف الفرض بقريضة المقابلة أو الأعم من النذب والفرض بتخصيص الفرض المذكور بما ثبت بالقرآن فقد طلب منه كتاباً يكون العامل به مؤدياً لجميع ما عليه من معرفة أحوال المبدء والمعاد ومعرفة الفروع كلها.

(و قلت لو كان ذلك) أي لو وجد الكتاب المذكور (رجوت أن يكون ذلك سبباً يتدارك الله) استدركت ما فات و تداركته بمعنى، وفيه إشارة إلى مامر صريحاً من اضمحلال أهل الملة المستقيمة وتفرق نظامهم و تشتت أحوالهم (بمعونته و توفيقه) المعونة والاعانة بمعنى و في بعض النسخ «بمعرفته» والمصدران مضافان إلى الفاعل والضمير عايد إلى قوله «سبباً» وإرجاعه إلى الله تعالى يوجب خلو الجملة الوصفية عن ضمير الموصوف (إخواننا و أهل ملتنا) من الفرقة الامامية فينظم به أحوالهم بعد تشتتها ويجمع كلمتهم بعد تفرقها (و يقبل بهم) أي يجعلهم مقبلين (إلى مرادهم) الرشد خلاف الغي والمراد بالطرق الموصلة إلى الحق لأنها محال الرشد والهداية .

((الأصل)):

« فاعلم يا أخي أرشدك الله أنه لا يسع أحداً تمييز شيء، مما اختلف الرواية فيه عن العلماء عليه السلام برأيه إلا على ما أطلقه العالم بقوله عليه السلام : اعرضوها علي »

« كتاب الله فما وافق كتاب الله عز وجل فخذوه ، و ما خالف كتاب الله فردوه ، »
« وقوله ﷺ دعوا ما وافق القوم فإن الرشد في خلافهم . وقوله ﷺ خذوا بالمجمع ، »
« عليه ، فإن المجمع عليه لا ريب فيه . و نحن لا نعرف من جميع ذلك إلا أقله ، »
« ولا نجد شيئاً أحوط ولا أوسع من رد علم ذلك كله إلى العالم [ﷺ] وقبول ما وسع ، »
« من الأهر فيه بقوله ﷺ بأيّما أخذتم من الباب التسليم وسعكم وقد يستر الله وله ، »
« الحمد تأليف ما سألت وأرجو أن يكون بحيث توخيت فمهما كان فيه من تقصير فلم ، »
« تقصر نيّتنا في إهداء النصيحة إذ كانت واجبة لاخواننا وأهل ملتنا مع ما رجونا أن نكون ، »
« مشاركين لكل من اقتبس منه وعمل بما فيه في دهرنا هذا وفي غابره إلى انقضاء ، »
« الدنيا إذ الرب جل وعز واحد والرسول محمد خاتم النبيّين - صلوات الله وسلامه ، »
« عليه وآله - واحد والشرعة واحدة وحلال محمد حلال وحرامه حرام إلى يوم ، »
« القيامة . ووسعنا قليلاً كتاب الحجة وإن لم نكمل على استحقاقه لأننا كرهنا ، »
« أن نبخس حظوظه كلها وأرجو أن يسهل الله جل وعز إمضاء ما قد منا من النيّة ، »
« إن تأخر الأجل صنعنا كتاباً أوسع وأكمل منه نوفيّه حقوقه كلها إن شاء ، »
« الله تعالى وبه الحول والقوة وإليه الرغبة في الزيادة في المعونة والتوفيق . و ، »
« الصلاة على سيّدنا محمد النبي صلى الله عليه وآله الطاهرين الأخيار . وأول ما أبدأ به و ، »
« أفتح به كتابي هذا كتاب العقل و فضائل العلم و ارتفاع درجة أهله و علو قدرهم ، »
« و نقص الجهل و خساسة أهله و سقوط منزلتهم ، إذ كان العقل هو القطب الذي ، »
« عليه المدار ، وبه يحتج وله الثواب و عليه العقاب والله الموفق .

((الشرح)):

(فاعلم يا أخي أرشدك الله أنّه لا يسع أحداً تمييز شيء) أي لا يجوز من وسعه الشيء إذا جاز له أن يفعله ولم يضق عنه (ممّا اختلفت الرواية فيه عن العلماء ﷺ) « فيه » متعلق بالاختلاف ، « و عن » بالرواية ، والمراد بالاختلاف ما ذكرنا من الاختلاف التام الذي يوجب عليه العمل ببعضها طرح البواقي و حملة على مطلق

الاختلاف بين الروايات التي يصلح أن يكون بعضها مفسراً لبعض بعيد جداً (برأيه) متعلق بالتمييز أي لا يجوز التمييز بما يقتضيه رأيه بنحو من أنحاء الاستحسان لأن دين الله لا يدرك بالرأي والقياس (إلا على ما أطلقه العالم) أي أحله وجوزه من الطلق بالكسر وهو الحلال (بقوله ﷺ اعرضوها) أي الروايات المختلفة (على كتاب الله عز وجل) فما وافق كتاب الله جل وعز فخذوه وما خالف كتاب الله فردوه (لأن كل حكم من الأحكام وكل حق من الحقوق موجود في الكتاب كما قال سبحانه « ولا حبة » ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين» (١) فما لم يوجد فيه ليس بحكم ولا حق وكل ما ليس بحكم ولا حق فهو مردود.

(و قوله ﷺ دعوا) من الروايات المختلفة بعد موافقة الجميع كتاب الله (ما وافق القوم) يعني العامة فإن الرشد أي الهداية إلى الحق (في خلافهم) لأنهم سالكون مسالك الطبايع راغبون عن مرشد الشرايع غالباً وهذه قرينة واضحة على أن الحق في خلافهم (و قوله ﷺ خذوا) من الروايات المختلفة (بالمجمع عليه) عند العصابة المحقة (فإن المجمع عليه) عندهم (لاريب فيه) وقد يستدل بهذا على حجية الإجماع و سنتكم عليه إن شاء الله تعالى (و نحن لانعرف من جميع ذلك إلا أقله) أي أقل ذلك الجميع يعني إننا لانعرف من أفراد التمييز الحاصل من جهة تلك القوانين المذكورة إلا الأقل أو إننا لانعرف من جميع ذلك المذكور من القوانين الثلاثة إلا الأقل فإن ذلك متوقف على معرفة الأحكام الجزئية واستنباطها من الكتاب ومعرفة مذاهب العامة فيها ومعرفة إجماع الفرق الناجية عليها، وتحصيل هذه المعارف متعسر جداً، وقيل: المقصود أننا لانعرف للاعتماد والتعويل لكل أحد من المتعلمين من جميع ما ذكرنا إلا ما هو أقله إتعاباً و

(١) قوله « في كتاب مبين » ليس المراد بكتاب مبين هنا القرآن لكن ورد هذا المضمون في آي كثيرة مثل « تبياننا لكل شيء » « ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء » إلى غير ذلك. (ش)

أسهله عليهم مأخذاً ، وهو المفسر بقوله « ولانجد » وهذا مستبعد جداً لعدم فهمه من العبارة (ولانجد شيئاً أحوط ولاوسع من رد علم ذلك كله إلى العالم) من أهل بيت نبينا ﷺ فان فيه التحرز عن القول في الدين بغير علم و التخلص عن التعب والتجنب من عذاب الآخرة كما قال العالم عليه السلام « إذا كان ذلك فأرجه حتى تلقى إمامك فان الوقوف عند الشبهات خير من الاقتحام في الهلكات » وقيل : يجوز أن يراد بالعالم العالم من علماء الامامية الذي علم أصول المذهب وفروعه ببصيرة وبرهان ، وهذا بعيد أمّا أو لا فلا أن المفهوم من كلام المصنف أنه كلما أطلق العالم أراد به المعصوم عليه السلام و أمّا ثانياً فلو جود « عليه السلام » بعد العالم في بعض النسخ ، و أمّا ثالثاً فلا أنه لا يناسب العبارات الآتية إلا بتكلف كما ستعرفه (و قبول ما وسع من الأمر فيه) أي فيما اختلفت الرواية فيه عنهم عليه السلام و فاعل « وسع » بالتشديد ضمير العالم (بقوله) متعلق بوسع (بأيما أخذتم من باب التسليم) للعالم والانتقياد له (وسعكم) أي جاز لكم وفيه دلالة على أن المكلف مخير في العمل بالروايات المختلفة في زمان الغيبة كما هو مذهب أرباب أصول الفقه و على ما جوزه ذلك القائل لا يرتبط هذا الكلام بما قبله إلا بتكلف و هو أن يجعل قوله : « بقوله » متعلقاً بالقبول ، و معناه قبول ما وسع ذلك العالم من علماء الامامية و صح له من التحقيق والتوفيق بين الروايات المختلفة بقوله أي بمجرد قوله و رأيه للاعتماد عليه فيما صححه أورده من الروايات والفناوي والأحكام ويجعل قوله « بأيما أخذتم » إلى آخره - مبتدأ وخبر أعلى سبيل الاستيناف لامقول القول ، يعني أيما أخذتم به من أقوال ذلك العالم تسليماً له و قبولاً لقوله جاز لكم العمل به ، و هذا التكلف بعينه من غير تفاوت أشار إليه ذلك القائل و هو أعلم بما قال و بما حداه على ذلك .

(وقد يستر الله وله الحمد تأليف ما سألت) من الكتاب الكافي الشامل لجميع فنون علم الدين (و أرجو أن يكون بحيث توخيت) أي تحرييت و قصدت (فمهما كان فيه من تقصير في الجمع والتأليف و ذكر ما يحتاج إليه) فلم تقصر نيئنا

في إهداء النصيحة (التقصير في الأمر التواني فيه وعدم الاتيان به على وجه الكمال والاهداء الابلاغ والارسال . والنصيحة فعل شيء الذي به الصلاح كإرشاد الجاهل و تنبيه الغافل والاعانة على مصالح الدنيا والدين يعنى لو كان فيه تقصير ما لم يكن ذلك لقصور في النية و توانيها بل بالغت في إبلاغ النصيحة بقدر الوسع والطاقة (إذ كانت) أي النصيحة (واجبة لآخواننا أهل ملتنا) لقول رسول الله ﷺ « لينصح الرجل أخاه كنصيحة لنفسه » (١) وقول الصادق عليه السلام : « يجب للمؤمن على المؤمن النصيحة » (٢) (مع ما رجونا) « ما مصدرية والظرف حال عن فاعل أرجو يعنى أن ذلك الرجل جاء مقرون مع رجاء (أن نكون مشاركين لكل من اقتبس منه) أي استفاد منه علماً و هداية (وعمل بما فيه) من الأحكام (في دهرنا) متعلق باقتبس وعمل أو حال عن فاعلها (وفي غايه) الغابر الماضي والمستقبل و هو من الأضداد والمراد هنا الثاني (إلى انقضاء الدنيا) متعلق بالغابر و غاية للاقتباس والعمل فلا ينافي رجاء مشاركة الثواب في الآخرة ولم يذكره لأنه تابع لذلك الرجاء ؛ ثم علل بقاء الاقتباس والعمل إلى انقضاء الدنيا بثلاثة أمور الأول ما أشار إليه بقوله (إذ الرب عز وجل واحد) لا شريك له فلا يتطرق التغير في تدبيره من جهة الشرية والتنازع ، والثاني ما أشار إليه بقوله (والرسول محمد خاتم النبيين ﷺ واحد) لا شريك له في تبليغ الرسالة فلا يتصور فساد الدين من جهة الشرية في الرسالة أيضاً والثالث ما أشار إليه بقوله (والشرية واحدة) إذ لا نبي بعده ولا شريعة بعد شريعته فلا يتصور زوال الدين من جهة النسخ أيضاً بالجملة زوال الدين إما من جهة التنازع التابع للشرية في الرب أو في الرسول أو من جهة النسخ وإذا انتفت هذه الأمور بقي الدين إلى قيام الساعة كما أشار بقوله (وحلال محمد حلال ، و حرامه حرام إلى يوم القيمة) فاذن كان

(١) ورواه الكليني - رحمه الله - في باب نصيحة المؤمن من كتاب الإيمان والكفر

من الكافي تحت رقم ٤ .

(٢) رواه الكليني - رحمه الله - أيضاً في الباب المذكور تحت رقم ٣ .

الاقتباس والعمل بما في هذا الكتاب المشتمل على حلاله و حرامه باقياً إلى يوم القيمة (ووسعنا قليلاً) التوسيع خلاف التضييق، تقول وسعت الشيء، فاتسع أي صار واسعاً و«قليلاً» منصوب على المصدر أي توسيعاً قليلاً (كتاب الحجّة) وهو الكتاب الثالث (٣) من كتب الكافي سمّي به لاشتماله على بيان لزوم الحجّة وعدم خلوّ الارض منها مادامت السموات والأرض (وإن لم نكمّلها) أي كتاب الحجّة (على استحقاقه) لأننا لم نذكر جميع ما يتعلق به الأحاديث والأخبار (لأننا كرهنا) تعليل للتوسيع في الحجّة (أن نبخس) أي ننقص و نترك (حظوظه كلها) الحظوظ جمع كثرة للحظ وهو النصيب (وأرجو أن يسهّل الله جلّ وعزّ أمضاء ما قدّمنا من النية) أي القصد إلى تأليف كتاب الكافي أو إلى توسيع كتاب الحجّة قليلاً هذا إن كان وضع الخطبة قبل التأليف وإلا فالمراد بالنية القصد إلى توسيع كتاب الحجّة منفرداً على وجه الكمال و ذكر جميع ما يتعلق به من الأخبار كما أشار إليه بقوله (إن تأخّر الأجل) أي الوقت المضروب المحدود من العمر (صنعنا) من الصنع أو من التصنيف (كتاباً) في الحجّة (أوسع وأكمل منه) أي من كتاب الحجّة الذي ذكرناه في هذا الكتاب (نوفيه حقوقه كلها) إن شاء الله تعالى (أوفاه حقّه و وقّاه بمضى أي أعطاه وافيّاً كاملاً غير ناقص، والجملة حال عن فاعل «صنعناه» (و به الحول والقوّة) الحول الحركة يقال: حال الشخص يحول إذا تحرك، والقوّة الطاقة، يقال: قوي على الأمر إذا طاقه، أي به الحركة إلى المقاصد و المطالب مطلقاً والقوّة على تحصيلها ولطاقة، على تحمّلها أو به الحركات الفكرية والأنظار العقلية مطلقاً أو في تأليف هذا الكتاب و القوّة عليها. و تقديم الجار للاختصاص مع الاهتمام و مراعات قرب المرجع (و إليه الرغبة في الزيادة في المعونة) أي في الإعانة على الخيرات مطلقاً أو على تأليف هذا الكتاب (والتوفيق) أي تكميل الأسباب لتحصيل المطالب (والصلاة) أي الرحمة التامة الربانية

(٣) هذا سهو من الشارح أو تصحيف من النساخ فإن كتاب الحجّة هو الكتاب

بمعنى إفاضة الإحسان دائماً (على سيدنا محمد النبي) أي المرتفع على جميع الخلائق من النبوة وهي الارتفاع أو المخبر عن الله من النبأ وهو الخبر (و آله الطيبين الأخيار).

(و أول ما أبد به و أفتتح به كتابي هذا كتاب العقل والجهل و فضائل العلم و ارتفاع درجة أهله و علو قدرهم) في الدنيا الآخرة (و نقص الجهل و خساسة أهله و سقوط منزلتهم) عند رب العالمين والملائكة المقربين والأنبياء المرسلين وعباد الله الصالحين ، ثم أشار إلى وجه تقديم كتاب العقل على سائر الكتب بقوله (إذا كان العقل هو القطب الذي عليه المدار) أي مدار التكليف و الحكم بين الحق والباطل من الأفكار و بين الصحيح والسقيم من الأنظار و سائر القوى تابعة له منقادة لأمره و نهيه و هو الحاكم على جميعها ، و قطب الرحي بحر كات القاف والضم أشهر : الحديد المر كبة في وسط حجر الرحي السفلى التي تدور حولها العليا ، و قطب القوم سيدهم الذي يدور عليه أمرهم كصاحب الجيش و نحوه (و به يحتج) على العباد في تصويب أعمالهم و تخطئة أفعالهم (وله الثواب و عليه العقاب) اللام في «له» إمّا للمنغليل أي لا جله أو للاختصاص و حصر الثواب والعقاب باعتبار أنه منشأ و أهل لهما سواء حصل له عند تجرّده عن البدن كما في البرزخ أو عند اقترانه به كما في الآخرة.

((الاصـل)) :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

كتاب العقل والجهل

١- «أخبرنا أبو جعفر محمد بن يعقوب قال : حدّثني عدّة من أصحابنا منهم محمد بن يحيى العطار ، عن أحمد بن محمد ، عن الحسن بن محبوب ، عن العلاء بن رزّين ، عن محمد بن مسلم ، عن أبي جعفر عليه السلام قال : لما خلق الله العقل استنطقه ثم قال « له : أقبل فأقبل ثم قال له أدبر فأدبر ثم قال وعزّي و جلالي ما خلقت خلقاً هو « أحبّ إليّ منك ولا أكملنك إلاّ فيمن أحبّ ، أما أنتي إياك أمر و إياك أنهي « و إياك أعاقب و إياك أثيب » .

((الشرح)) :

الغرض من الفصل بين أنواع المسائل بالترجمة بالكتاب و بين مسائل النوع بالفصول والأبواب هو التسهيل على الناظر و تنشيط المتعلّم فإنّ المتعلّم إذا ختم كتاباً اعتقد أنّه كاف في ذلك النوع فينشط إلى قراءة غيره بخلاف ما لو كان التصنيف كلّه جملة واحدة و الأولى بالقاري أن يصرّح بالترجمة و يقول مثلاً كتاب كذا لأنّها جزء من التصنيف ، و كتاب العقل والجهل اسم لجملة من الأحاديث المتضمنة لأحكامها .

(أخبرنا أبو جعفر محمد بن يعقوب) كان هذا كلام الرواة عنه أو كلامه بلسانهم أو إخبار عن نفسه بطريق الغيبة (قال حدّثني عدّة من أصحابنا) قال المصنّف رحمه الله في هذا الكتاب في كثير من الأخبار « عدّة من أصحابنا » قال العلامة و غيره أنّه رحمه الله قال : « كلّ ما قلت في هذا الكتاب عدّة من أصحابنا عن أحمد بن محمد بن عيسى فهم محمد بن يحيى العطار ، و عليّ بن موسى الكميذاني

و داود بن كورة و أحمد بن إدريس و علي بن إبراهيم بن هاشم . و كل ما قلت فيه عدة من أصحابنا عن أحمد بن محمد بن خالد فهم علي بن إبراهيم ، وعلي بن محمد بن عبد الله بن أذينة ، وأحمد بن عبد الله بن أذينة ، وعلي بن الحسن . و كل ما ذكرت فيه عدة من أصحابنا عن سهل بن زياد فهم علي بن محمد بن علان ، ومحمد بن أبي عبد الله ، ومحمد بن الحسن ، و محمد بن عقيل الكليني إنتهى ، والظاهر أن محمد بن أبي عبد الله هو محمد بن جعفر الأسدي الثقة ، والعدة على هذا في جميع الموارد مشتملة على العدول و الثقات فهذا الحديث صحيح لأن بواقي الرجال ثقات و عدول.

(منهم محمد بن يحيى العطار عن أحمد بن محمد عن الحسن بن محبوب عن العلاء ابن زرير عن محمد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام قال لما خلق الله العقل ^(١) أي النفس الناطقة وهي الجوهر المجرد عن المادة في ذاته دون فعله في الأبدان بالتصرف والتدبير وهذا الجوهر يسمى نفساً باعتبار تعلقه بالبدن وعقلاً باعتبار تجرّده ونسبته إلى عالم القدس إذ هو بهذا الاعتبار يعقل نفسه أي يحبسها و يمنعها عما يقتضيه الاعتبار الأول من الشرور و المفسدات المانعة من الرجوع إلى هذا العالم و له مراتب متفاوتة و حالات مختلفة في القوة و الضعف وهي ستة أوّلها حالة الاستعداد الصرف للمكالمات (١). و ثانيهما حالة بها يشاهد الأوليات (٢). وثالثها حالة بها يشاهد النظريات من مرآت الأوليات (٣). ورابعها حالة بها يشاهد تلك

(١) قوله « الاستعداد الصرف » وهذه الحالة تسمى عند الفلاسفة بالعقل الأولاني (ش).

(٢) قوله : « الأوليات » أراد بذلك البديهيات لأنه جعلها مقابلة النظريات ، و البديهيات أعم من الأوليات والمشاهدات والمتواترات والحدسيات والتجربيات وقضايا قياساتها معها ، وهذه المرتبة تسمى عند الحكماء بالعقل بالملكة (ش).

(٣) قوله : « من مرآة الأوليات » القوة التي بها تدرك الأوليات مرآة لأدراك النظريات أيضا إذ ينتقل الذهن منها إليها و أدراك النظريات على وجهين : الأول ما يدركها بالبرهان والاستدلال لأول مرة وهي العقل بالفعل في اصطلاحهم ، والثاني أن يكون بحيث يراجعها بعد الغفلة عنها لكونها حاضرة في الحافظة فيرجع إليه مهما أراد وهذا هو العقل المستفاد في اصطلاحهم وهي الحالة الرابعة (ش) .

النظريات بعدزوالها من هذه المرأة و اختزانها من غير كسب جديد و هذه الحالة حالة علم اليقين وهي حالة بها يشاهد الصور العلمية والمطالب اليقينية في ذاته، وخامسها حالة عين اليقين وهي حالة بها يشاهد تلك الصور والمطالب في ذات المفيض (١) وسادسها حالة حق اليقين وهي حالة بها يتصل بالمفيض اتصالاً معنوياً وتلاقي به تلاقياً روحانياً (٢) وهذه الحالة هي أعظم الحالات للقوة البشرية، وقد تسمى هذه الحالات التي للنفس فيها عقلاً أيضاً. ومن ههنا ظهر وجه تفاوت العقول في البشر ووجه قبولها للكمال والنقصان وقد يطلق العقل على الجوهر المفارق عن المادة في ذاته وفعله (٣)

(١) قوله : « في ذات المفيض » وهذا المفيض هو العقل الفعال في اصطلاح الحكماء اذ لا بد لزيادة الصور في أذهان المتفكرين من علة فاعلة ولا بد أن تكون العلة الفاعلة للمعقولات عاقلة تدرك الكليات اذ لا يكون الموجد للشيء فاعداً له ولا بد أن يكون جوهرراً مجرداً، ثم إن ملاحظة الصور في العقل الفعال أعلى وأكمل من ملاحظتها في النفس فان ما في العقل الفعال برئية عن شوائب الوهم و محفوظة عن الخطأ، مصونة عن الغلط بخلاف ما يأخذه النفس عن العقل فيدركه في لوح نفسه فانه يحتمل اختلاطه بمدرجات الوهم والحواس فيدخل فيه الخطأ، و اذا وصل النفس الى مقام يدرك عين الصور الحاصلة في العقل الفعال و تحقق لديه أنه ادركها فيه لافى نفسه، فهذه الحالة الخامسة التي تكون مدرجات الانسان عين الحق ولا تحصل الا للكمال من الاولياء (ش).

(٢) قوله : « روحانياً » هذا نحو من الاتحاد حققه الحكماء الالهيون والعرفاء الشامخون و للتفصيل فيه محل آخر و هو آخر سير البشر في السلوك الى الله و عند بعض العرفاء اللطائف سبعة، « وللناس فيما يشقون مذاهب » (ش).

(٣) قوله : « في ذاته و فعله » هذا تعريف للعقل المجرد في اصطلاح الحكماء وقال المشاؤون: ان العقول عشرة أى نعلم هذا العدد ولا تنكر الزيادة، وقال الاشراقيون: ان عدتهم لا تحصى كثرة و يقال ان العقل أول خلق من الروحانيين، وقد ورد في الحديث كما يأتي ان شاء الله وقال الحكماء: انه أول صادر عن المبدء كما ورد في الحديث وذلك لان الاشرف مقدم في الوجود ولا ريب أن الموجود العاقل بذاته اشرف من الجماد والحيوان الذي لا عقل له. واعلم ان المجلسي رحمه الله جعل في كتاب الاربعين وغيره من كتبه القول بوجود

و يقال إنه أول خلق من الروحانيين ، وإنه كثير العدد كثرة لا مثل كثرة الأشخاص
 المندرجة تحت نوع واحد ، ولا مثل كثرة الأنواع المندرجة تحت جنس واحد
 لأن تلك الكثرة من توابع المادة (١) والعالم القدسي منزّه عنها بل هي مراتب
 وجودية نورانية بسيطة مختلفة في الشدة والضعف في النورية متفاوتة في الكمال
 والقرب إلى نور الأنوار ، وأنه روح النفس الناطقة وحالة لها و متعلق بها كمتعلق
 النفس بالبدن و باضاءاته وإشراقاته تضيء النفس و تشرق و تبصر ما في عالم الملك
 والملكوت و تعرف منافعها و مضارها فتطلب الأول و تجنب عن الثاني ، وأنه
 لا بعد في ذلك التعلق لأنه إذا جاز تعلق النفس بالبدن مع المباينة بينهما في
 التجرد والمادية جاز تعلق ذلك الجوهر بالنفس (٢) مع المناسبة بينهما في التجرد
 بالطريق الأولى . والحق أن وجود ذلك الجوهر أمر ممكن دل عليه ظاهر
 كثير من الروايات لكن لأعلى الوجه الذي ذهب إليه طائفة من الفلاسفة من أنه

العقل المجرد مستلزماً لانكار كثير من ضروريات الدين و أنكر وجود مجرد سوى الله
 تعالى (ش) .

(١) قوله: « لان الكثرة من توابع المادة » الكثرة للعدد و يتكرر الشيء اما
 بالماهية كالحديد فانه غير الذهب ماهية ، و اما بالتشخص مثل هذا الحديد في المسحاة و
 ذلك الحديد في القدوم و كلاهما حديد متحدتا الماهية . وليس تكثر العقول مثل هذا ولا
 مثل ذاك بل جميعها متحدة الحقيقة كالنور و ذومراتب مثله ، والعقول في اعتقاد بعضهم مختلفة
 الماهية ولا يشترك نوعاً ولا جنساً وللبحث في ذلك محل آخر (ش) .

(٢) قوله: « تعلق ذلك الجوهر بالنفس » تعلق العقل بالنفوس المجردة الانسانية نظير
 تعلق النفس بالبدن و بالجملة العقل الفعال له اشراقات على النفوس و بتلك الاشراقات
 متحد بالنفس فمثل العقل الفعال والنفوس مثل الشمس واشعتها . والمجلس رحمه الله عد
 اكثر ما حققه الشارح هنا واعترف بإمكانه و صحته مخالفاً لضروريات الدين (ش) .

موجد للأفلاك (١) و ما فيها و ما تحتها من الأجسام و العناصر و غيرها فان وجوده على هذا الوجه غير ثابت لاعقلاً ولا نقلاً، بل باطل بالنظر إلى الآيات و الروايات الدالة على أن موجد ما ذكر ليس إلا الله جل شأنه وأن تكثره وتعلقه بالنفس على الوجه المذكور أيضاً أمر ممكن، وأن انتساب الحالات و المراتب المذكورة للنفس إليه باعتبار تفاوت إشراقاته عليها أيضاً جائز، و أن انتساب الثواب والعقاب إليه غير بعيد إذ كما أن ثواب البدن وعقابه باعتبار متعلقه و روحه الذي هو النفس كذلك يجوز أن يكون ثواب النفس و عقابها باعتبار متعلقها و روحها الذي هو ذلك الجوهر، إذ عرفت هذا فلا يبعد أن يراد بالعقل في الروايات الدالة على أنه أول خلق من الروحانيين و أنه حالة من أحوال النفس كما في حديث الجنود و غيره ذلك الجوهر (٢) ثم معاني العقل على تباينها يجمعها أمر واحد

(١) قوله: « موجد للأفلاك » و حاصل كلام الشارح اثبات وجود العقل المجرد الذي يقول به الحكماء و اختار في ذلك مذهب صدر المتألهين صاحب الاسفار الاربعة و اعترف بإمكان اتحاد العقول الجزئية بالعقل الفعال و بأن الوجود حقيقة واحدة ذات مراتب و غير ذلك من دقائق هذا العلم، و اما ما نسب الى طائفة من الفلاسفة فكما اراد المتفلسفين الجاهلين الذين غاية همهم حفظ الاصطلاحات و ساهم الفارابي الفيلسوف البهرج والا فان تأثير العقل نظير تأثير الدواء في دفع المرض و تأثير الرياح في اثاره السحاب في قوله تعالى « يرسل الرياح فتثير سحابا » فكما أن الاعتقاد بتأثير هذا باذن الله ليس كفراً كذلك الاعتقاد بتأثير العقول باذن الله ليس كفراً و تأثيرهم نظير تأثير الملائكة الموكلين بل العقول هم الملائكة والفرق بالاصطلاح (ش).

(٢) قوله: « ذلك الجوهر » اي العقل المفارق هو الذي خلقه تعالى اولا ومع ذلك يعد حالة من حالات النفس باعتبار اشراقاته و اضاءاته و جنوده التي في النفوس وهذا عين مذهب الفلاسفة الآن الشارح تبرأ من طائفة منهم حتى لا يوهم انه يقلد الفلاسفة تقليداً أعمى فلو كان صرح بأن مذهب الفلاسفة هنا حق لذهب الاوهام الى تجويز تقليد ملاحظتهم و صاد سبباً لضلال جماعة عظيمة ولكن صرح بالمعنى و تبرأ من اللفظ، والحق أن أقرب الأقوال الى قول الملاحدة الماديين قول المجسمة فانهم لا يعترفون بوجود شيء غير جسم ولا جسماني حتى أن الله تعالى عندهم جسم، وبعد ذلك قول من لا يعترف بوجوده

يشارك الكل فيه و هو أنه ليس بجسم ولا جسماني و لهذا صح أن يجعل موضوعاً
لفن واحد كما في هذا الكتاب و يبحث عن العوارض الذاتية له ولاقسامه و
للمرأي الصائب أن يحمله في كل حديث على ما يناسبه من المعاني المذكورة.
و إذا عرفت العقل فاعرف الجهل بالمقابلة فهو إما النفس باعتبار تعلّقها
بالبدن والحالات المقابلة للحالات المذكورة لأن ذلك التعلّق و تلك الحالات
منشأ لظلمة النفس وانكشافها وميلها إلى الشرور، أو أمر مقابل لذلك الجوهر
النوراني متعلّق بالنفس و روح خبيث لها يدعو إلى الشر والفساد، ولا يبعد أن
يكون ما في بعض الروايات «من أن المؤمن مؤيد بروح الإيمان» (١) و «أن لكل قلب
أذن على أحدهما ملك يهديه وعلى الآخر شيطان بضله» (٢) إشارة إلى العقل والجهل
بهذا المعنى والله أعلم بحقائق الأمور (استنطقه) ناطقه واستنطقه أي كلمه وفي استنطقه
إخراج له عن الوحشة وتأنيس له بالقربة و تكريم له بالعزة كما يقع مثل ذلك
كثيراً ما بين المحب والمحبوب و من هذا القبيل قوله تعالى « و ما تلك
بميمينك يا موسى » مع علمه تعالى بخفيات الأمور (ثم قال له: أقبل فأقبل ثم قال
له أدبر فأدبر) كأن المراد إقباله إلى ما يصلح أن يؤمر به من الطاعة وإدباره
عما ينهى عنه من المعصية أو إقباله إلى المقامات العالية والدرجات الرفيعة التي
يمكنه الوصول إليها، وإدباره عن تلك المقامات ونزوله في منازل الطبيعة الجسمانية
و هبوطه إلى مواطن الظلمة البشرية ، و لعل الغرض من الأمر بالاقبال إراءه
مقاماته و إظهار درجاته ليستيقظ في العالم السفلي من نوم الجهالة وسنة البطالة و
يتذكّر بأن له سوى هذه النشأة الدنيّة نشأة أخرى أحسن و أفضل منها بل لا

بمجرد سوى الله تعالى وأبعد الأقوال عنهم قول من أنكر الوجود المستقل الممكن وجعل وجوده
كالعنى الحرفي، وبعد ذلك من أنكر وجود الجسم وجعله مركباً من قوى متحركة كما
ذهب إليه أكثر أهل عصرنا و بعدهم من اعترف بوجود الجسم والموجودات المجردة
معاً (ش) .

(١) و (٢) رواهما الكليني في كتاب الإيمان والكفر من الكافي ج ٢ ص ٢٦٨ و ٢٦٦ .

نسبة بينهما ، أو إقباله إلى الدنيا و إدباره عنها و عدم ركونه إليها ، و قيل : المراد بالأمر بالإقبال والادبار هو الأمر التكويني الإيجادي لا التكليفي والإقبال والادبار التزييد والتقص في كل مرتبة من مراتب القوة العاملة بالقياس إلى العلوم والأخلاق كمّا و كيفاً بحسب كل من الاستعداد الأولي الجبلي في الفطرة الأولى والاستعداد الثاني المكتسب في الفطرة الثانية ، فإن بالإعمال والتعطيل في الفطرة الثانية يربو ويطف ما في الفطرة الأولى والذي من لوازم الذات هو القدر المشترك السيّال بين حدّي الربو والطفافة وهو متحفّظ غير متبدّل مادامت الذات في مراتب التزييد والتقص ، وفيه أن تكوينه على قبول الزيادة والنقصان إنّما هو في مرتبة تكوين ذاته لا بعده كما يشعر به لفظة «ثم» (ثم قال وعزّتي) أي وغلبتي على جميع الممكنات يقال : عزّه عزّته بالفتح عزّاً إذا غلبه والاسم العزّة ومنه العزيز من أسمائه تعالى بمعنى القويّ الغالب الذي لا يغلب و بمعنى الملك مثل قول إخوة يوسف « يا أيّها العزيز » (و جلاله) أي وعظمة شأنه و ارتفاع قدره و مكاني ، ومنه الجليل من أسمائه تعالى بمعنى العظيم المطلق ، و الواو للقسم و ما بعدها مبتدأ و خبره محذوف و هو قسمي (ما خلقت خلقاً هو أحبُّ إليّ منك) دلّ على أن العقل ليس هو أوّل المجهولات (١) كما زعم ، قيل : المحبّة ميل القلب إلى ما يوافقه وهي بين الطرفين لما روي عن الصادق عليه السلام حين سأله رجل عن رجل يقول : أودّك فكيف أعلم أنّه يودّني فقال : امتحن قلبك فإن كنت تودّه فإنّه يودّك (٢) سيّما إذا أخبر أحدهما الآخر بحبّه له فإنّه يوجب حبّ الآخر للمخبر أيضاً كما ورد في بعض الأخبار ، و من ههنا يعلم أن العقل كما كان أحبّ المخلوقات إلى الله سبحانه كذلك كان سبحانه أحبّ الموجودات إلى العقل وسبب محبّة الشيء إمّا كونه حسناً في ذاته ، أو في الحسن كالصور الجميلة . أو في العقل كمحبّة الصالحين ، أو كونه محسناً يجلب نفعاً أو يدفع ضرراً ، و ثمرة

(١) قوله « ليس هو أوّل المجهولات » سيحىء تحقيقه عند قوله (ع) « هو أوّل خلق

من الروحانيين » ان شاء الله تعالى (ش). (٢) الكافي كتاب العشرة باب نادر ج ٢ .

محبة الله لخلقه إرادة الخير له وإفاضة رحمته عليه والاحسان إليه بكشف الحجاب عنه و تمكينه من أن يسطر بساط قربه و ثمرة محبة الخلق له تعالى وقوفه عند حدوده و حبه لمن أحبه و بغضه لمن أبغضه و استيناسه و استيحاشه عما سواه ، و تجافيه عن دار الغرور و ترقيه إلى عالم النور ، و كأن من أنكر المحبة بينه و بين خلقه و زعم أن ذلك يوجب نقصاً في ذاته تعالى أنكر المحبة بمعنى الميل لأن الله تعالى منزّه عن أن يميل أو يمال إليه وليس هذا المعنى مراداً هنا بل المراد هنا هي الغايات والثمرات المذكورة لأن ما نسب إليه تعالى مما يمتنع أخذه باعتبار المبادي والحقائق و جب أخذه باعتبار الغايات وقد شاع أمثال ذلك في القرآن العزيز على أنه قديقال محبة الخلق له بمعنى ميل العقل ليس بممتنع لأن الميل العقلي إدراك ولا يمتنع ذلك كما لا يمتنع العلم به ، وإنما الممتنع هو الميل الحسي لاستلزامه أن يكون في جهة والوجه العقلي في كونه أحب المخلوقات إليه أن الطاعة والانقياد مع القدرة على المخالفة أشد من الطاعة بدونها وأدخل في التقرب و استفاضة الرحمة والاحسان منه تعالى ، و قيل الوجه فيه أن المحبة تابعة لإدراك الوجود لأنه خير محض ، فكل ما كان وجوده أتم كانت خيريته أعظم والإدراك المتعلق به أقوى والابتهاج به أشد فأجل مبهتهج بذاته هو الحق الأول ، لأن إدراكه لذاته أشد إدراكاً لأعظم مدرك له الشرف الأكمل والنور الأنور والجلال الأرفع ، فذاته سبحانه أحب الأشياء إليه و هو أشد مبهتهج به . و محبته لعباده راجعة إلى محبته لذاته لأن كل من أحب شخصاً أحب جميع حركاته وأفعاله و آثاره لأجل ذلك المحبوب ؛ فكل ما هو أقرب إليه فهو أحب إليه و جميع الممكنات على مراتبها آثار الحق و أفعاله فالله يحبها لأجل ذاته و أقرب المفعولات إليه هو العقل ، فثبت أنه أحب المخلوقات إليه . ومن المتكلمين من أنكر محبة الله لعباده زعماء منهم أن ذلك يوجب نقصاً في ذاته ولم يعلموا أن محبة الله لخلقه راجعة إلى محبته لذاته إنتهى . وفيه نظر من وجوه أمّا أولاً فلا قوله « المحبة تابعة لإدراك الوجود ، ممنوع وما ذكره لإثباته من أن الوجود

خير محض مدخول (١) والبحث عنه مشهور مذكور في موضعه ، و أمّا ثانياً فلأنّ كون العقل المبحوث عنه أقرب المجعولات كلّها إليه سبحانه ممنوع (٢) و أمّا ثالثاً فلأنّ المحبّة والبغض متقابلان و قد نسب البغض لبعض المخلوقات إليه سبحانه ولا شكّ أنّ بغضه له ليس لأجل أنه من آثاره بل لأجل شيء آخر فلم لا يجوز أن لا يكون محبته لخلقه لا لأجل أنّه من آثاره بل لأجل شيء آخر (٣) و أمّا رابعاً فلأنّ قوله تعالى «إن الله يحب المحسنين» «إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين» صريح في أنّ محبته لهم لأجل إحسانهم وتوبتهم و طهارتهم لا لأجل أنهم من آثاره ، ولو أريد أنّ الاحسان والتوبة والطهارة من فعله وآثاره لرجع هذا إلى قول الأشاعرة و يتسع دائرة المناقشة فليتمل.

(ولا أكملتكم إلا فيمن أحب) دلّ على أنّ كمال العقل كأصله حباء من الله جلّ شأنه و لكن لكسب العبد و عنايته مدخل فيه كما يدلّ عليه قول موسى بن جعفر عليه السلام: «من أراد الغنى بلا مال، وراحة القلب من الحسد، والسلامة في الدين

(١) قوله: «خير محض مدخول» هذا شيء مبني على التسبّع والاستقراء فاننا لا نجد شيئاً يسمى شراً إلا لان الدم دخل فيه بوجه وحق ذلك نصير الدين الطوسي في موضعه (ش).
(٢) قوله: «ممنوع» لا ريب أنّ الله تعالى عالم بكل شيء، والعلم كمال لا كمال فوقه و كل موجود يكون علمه أكمل من غيره فهو أقرب إلى الله تعالى، ولا يتصور أن يعتقد أحد أن الجاهل أقرب إليه من عالم ومنه الشارح هنا في غير محله نعم جعل بعضهم رتبة الإنسان الكامل فوق العقل لانه جامع بين كمال العقل وكمالات أخرى يختص به ولذلك قال العقل المبحوث عنه أي الذي هو بشرط لا عن كمال غيره (ش).

(٣) قوله: «لأجل شيء آخر» لا ينكر أحد محبة الله لأوليائه لأجل عبادتهم وتقربهم إليه و لكن له تعالى محبة عامة لجميع خلقه بالرحمة الرحمانية، و محبة خاصة لخصوص المؤمنين بالرحمة الرحيمية واثبات شيء لا ينفي غيره كما أنّ غضبه تعالى على الكفار لأجل كفرهم لا ينافي شمول الرحمة العامة لهم في الدنيا بسعة الرزق والدولة وسائر النعم وبهذا يدفع المناقشة المذكور بقوله رابعاً (ش).

فليتضرع إلى الله عز وجل في مسئلته بأن يكمل عقله (١) ، ويرشد إليه التجربة فإن من نشأ في التعلم و طهارة النفس و صرف القوة العلمية والعملية في تحصيل العلوم والأعمال والأخلاق المرضية ازداد عقله ضوءاً و نفسه نوراً يكاد يبصر ما تحت العرش وما تحت الثرى، و تلك العناية التي هي من التوفيقات الربانية إنما يتوقف على وجود أصل العقل لأعلى كماله فلا يلزم الدور.

(أما إنني إيتاك أمر و إيتاك أنهى و إيتاك أعاقب و إيتاك أئيب) « أما » حرف تنبيه يصدربها الكلام الذي لمضمونه خطر وعناية لتنبيه المخاطب وإيقاظه طلباً لأصغائه ، وتقديم المفعول للاختصاص فإن العقل و إن استشعر من الأمر بالاقبال والإدبار أنه مخلوق يتوجه إليه الأمر والنهي لكنه استشعر أيضاً بأنه مقارن مع مخلوق آخر فكأنه غفل عن ذلك لشدة شغفه بمخاطبة ربه جل ذكره و توهم أن الأمر والنهي والثواب والعقاب يتوجه إليه مع مشاركة الغير أو يتوجه إلى الغير وحده لا إليه ، فأتى الله سبحانه بحرف التنبيه إيقاظاً له عن تلك الغفلة وإظهاراً بأن الكامل لا بد من أن لا يصير مغروراً بكماله بل هو دائماً يحتاج إلى تنبيه وتذكير وبطريق الحصر دفعاً لما عرض له من التوهم وإشعاراً بأن القابل للخطاب هو دون غيره و حصر الثواب والعقاب فيه باعتبار أنه بذاته، أو بواسطة قوة و روية فيه منشأ للطاعة والعرفان و مبدء للمعصية والطغيان في مواد الإنسان و مستحق لهما في ضمن تلك المواد. فلا يدل الحديث على ثبوتها له مجرداً عنها أصلاً فضلاً عن أن يدل على نفي المعاد الجسماني وانطباق معنى الحديث على العقل بالمعنى الأول و هو النفس باعتبار التجرد ظاهر، وبالمعنى الثاني و هو حالة النفس وقوتها الداعية إلى الخيرات في المراتب المذكورة يحتاج في قوله « إيتاك أعاقب وإيتاك أئيب » إلى تكلف بأن يقال معناه بك أعاقب و بك أئيب على سبيل التوسّع ، لأن المعاقب والمثاب هو النفس ، أو يقال لما كانت تلك القوة منشأ تكليف النفس نسب الثواب والعقاب إليها على سبيل التجوز

و بالمعنى الأخير و هو الجوهر النوراني المفارق عن المادة في ذاته و فعله يحتاج في هذا القول وفي قوله: «ولا أكملتك إلا فيمن أحب» إلى تكلف بأن يقال المراد بأكماله أكمال إشراقاته على النفس و بشوابه و عقابه ثواب النفس و عقابها باعتبار الاستضاءة من مشكوته و عدمها ، و قيل المراد بالعقل هنا العقل النبوي و الحقيقة المحمدية و هو الروح الأعظم المشار إليه بقوله تعالى «قل الروح من أمر ربي» و أحب الخلق إليه استنطقه الله تعالى بعد ما خلقه و جعله ذائق و كلام يليق بذلك المقام ثم قال له : أقبل إلى الدنيا و اهبط إلى الأرض رحمة للعالمين فأقبل فكان روحه مع كل نبي باطناً و مع شخصه المبعوث ظاهراً ، ثم قال له : أدبر يعني أدبر عن الدنيا و ارجع إلى ربك ، فأدبر عنها و رجع إليه ليلة المعراج وعند المفارقة عن دار الدنيا ثم أعلمه تشریفاً و تكريماً له بأنه أحب الخلق إليه و أكد ذلك بالقسم ، ثم قال : «إنيك أمر و إنيك أنهي وإنيك أعاقب وإنيك أثبت» والمراد بك أمرو بك أنهي وبك أعاقب من حجبني وحجبتك من الأولين والآخرين و بك أثبت من عرفني و عرفك منهم كل ذلك لأنك سبب للايجاد ولولاك لما خلقت الأفلاك أو المراد إنيك أمر و إنيك أنهي لأنك ملاك التكليف و إنيك أعاقب بحبسك في الدنيا مدة و دخولك في المنزل الرفيع من الجنة و إنيك أثبت باعتبار غاية كمالك و كمال قربك و منزلتك لدينا ، ولدينا مزيد و الله أعلم بحقيقته كلامه .

((الأصل)) :

- ٢- «علي بن محمد ، عن سهل بن زياد ، عن عمرو بن عثمان ، عن مفضل بن صالح ، عن سعد بن طريف ، عن الأصمغ بن نباته ، عن علي بن أبي طالب قال : هبط «جبرئيل عليه السلام» على آدم عليه السلام فقال : يا آدم إني أمرت أن أخيرك واحدة من «ثلاث فاخترها ودع اثنتين فقال له آدم : يا جبرئيل وما الثلاث ؟ فقال : العقل «والحياة والدين ، فقال آدم عليه السلام إني قد اخترت العقل فقال جبرئيل للحياة و «

«الدين: انصرفا ودعاه فقالا: يا جبرئيل إننا أمرنا أن نكون مع العقل حيث كان قال: «فشأنكما وارج».

((الشرح)):

(علي بن محمد) يروي المصنف في هذا الكتاب كثيراً عن علي بن محمد وهو علي بن محمد بن إبراهيم بن أبان الرازي الكليني المعروف بعلاء ثقة عين (عن سهل ابن زياد) ضعيف في الحديث (عن عمر بن عثمان) كوفي ثقة نقي الحديث (عن مفضل بن صالح) ضعيف كذاب (عن سعد بن طريف) قيل: هو صحيح الحديث ونقل العلامة عن النجاشي أنه يعرف وينكر، وعن ابن الغضائري أنه ضعيف وقال الكشي عن حمدويه أنه كان ناو وسيقاً وقف على أبي عبد الله عليه السلام (عن الأصبغ ابن نباته) بضم النون قال العلامة والنجاشي والشيخ في فهرست: إنه كان من خاصة أمير المؤمنين عليه السلام وقال العلامة: إنه مشكور.

(عن علي عليه السلام قال هبط جبرئيل عليه السلام على آدم عليه السلام) الظاهر أن ذلك كان بعد هبوط آدم من الجنة وبعد قبول توبته (فقال يا آدم إنني أمرت أن أخيرك واحدة من ثلاث أي خصلة واحدة من ثلاث خصال) فاخترها ودع اثنين فقال: آدم يا جبرئيل وما الثلاث) الظاهر أن الواو لمجرد حسن الاتباط وزيادة الاتصال لا للمعطف (فقال: العقل الحياء والدين) العقل هنا قوة نفسانية وحالة نورانية بها يدرك الانسان حقائق الأشياء و يميز بين الخير والشر وبين الحق والباطل ، ويعرف أحوال المبدء والمعاد وبالجملة هو نور إذا لمع في آفاق النفوس يكشف عنها غواشي الحجب فتتجلى فيها صور المعقولات كما يتجلى في العين صور المحسوسات والحياء خلق يمنع من ارتكاب القبيح وتقدير في الحقوق ، وقال الزمخشري هو تغيير و انكسار يلحق من فعل ما يمدح به أو ترك ما يذم به وهو غريزة وقد يتخلق به من يجبل عليه فيلتزم منه ما يوافق الشرع وسيجيء تحقيقه وتحقيق أن ما في بعض الانسان من الكيفية المانعة له عن القيام بحقوق الله تعالى من الحياء

إن شاء الله تعالى. والدين هو الصراط المستقيم الذي يكون سالكه قريباً من الخيرات بعيداً عن المنهيات (١) وهو عبارة عن معرفة مجموع ما يوجب القرب من الرب و العمل بما يتعلق به الأمر ومعرفة مجموع ما يوجب البعد عنه وترك العمل بما يتعلق به النهي (فقال آدم إنني اخترت العقل) لا يقال: اختياره للعقل لم يكن إلا لملاحظة أن حسن عواقب أموره في الدارين يتوقف عليه و إن نظام أحواله في الشأين لا ينم إلا به ولا يكون ذلك إلا لكونه عاقلاً متفكراً متأملاً فيما ينفعه عاجلاً و آجلاً، لا نأقول: المراد بهذا العقل العقل الكامل الذي يكون للأنبيا والأوصياء و اختياره يتوقف على عقل سابق يكون درجته دون هذا و للعقل درجات ومراتب وقد يقال هذه الأمور الثلاثة كانت حاصلة له ﷺ على وجه الكمال والتخير فيها لا ينافي حصولها والغرض منه إظهار قدر نعمة العقل والحث على الشكر عليها (فقال جبرئيل للحياء والدين انصرفا و دعاه) أي انصرفا عن آدم و دعاه مع العقل معه (فقال يا جبرئيل) الظاهر أن هذا القول حقيقة بلسان المقال بحياة خلقها الله تعالى فيهما ولا يبعد ذلك عن القدرة الكاملة وقد ثبت نطق اليد والرجل على صاحبهما ونطق الكعبة والحجر وغيرهما . ويحتمل أن يكون ذلك مجازاً بلسان الحال أو يخلق الله سبحانه فيهما كلاماً أسمع جبرئيل و آدم ﷺ كما قد خلق ذلك في بعض الأجسام الجمادية وأسمعه من شاء من خلقه (إننا أمرنا أن نكون مع العقل حيث كان) أي حيث وجد أو حيث كان موجوداً ، بفهم منه أن العقل مستلزم لهما وهما تابعان له، والأمر كذلك لأن العقل يعرف الله سبحانه وجلاله وجماله وكماله وتنزهه عن النقايس وإحسانه وإنعامه وقهره و غلبته بحيث يرى كل جلال و جمال و كمال وإحسان وإنعام وقهر و غلبة مقهوراً تحت قدرته مغلوباً تحت قهره و غلبته بل لا يرى في الوجود إلا هو فيحصل له بذلك خوف و خشية يرتعد به جوانحه كما قال سبحانه: « إنما يخشى الله من عباده العلماء » ويحصل له بذلك قوة وملكة تمنعه عن مخالفته طريقة عين وهذه القوة هي المسماة

بالحياء ، ثم بتلك القوة يسلك الصراط المستقيم وهو الدين القويم ، ومن ههنا ظهر أن الحياء مستلزم للدين والدين تابع له ، ثم جبرئيل عليه السلام إن كان عالماً بكونهما مأمورين بذلك كان قوله : « انصرفا ودعاه » محمولاً على نوع من الامتحان لاظهار شرف العقل و نباهة قدره و إن لم يكن عالماً كان ذلك القول محمولاً على الطلب (قال فشأنكما و عرج) الشأن بالهمزة الأمر والحال والقصد أي فشأنكما معكما أو ألزما شأنكما ، وهذا الحديث و إن كان ضعيفاً بحسب السند لكن صحيح المضمون ، وكذا الحديث الآتي مع ضعفه بالارسال أيضاً لاعتماده بالبرهان العقلي و كذلك كثير من الأحاديث الواردة في الأحكام العقلية من أصول المعارف ومسائل التوحيد.

((الاصل))

٣- « أحمد بن إدريس ، عن محمد بن عبد الجبار ، عن بعض أصحابنا رفعه إلى أبي عبد الله عليه السلام قال ، قلت له : ما العقل ؟ قال : « ما عبد به الرحمن و اكتسب به الجنان ، قال : قلت : فالذي كان في معاوية ، فقال : تلك النكراء تلك الشيطنة » وهي شبيهة بالعقل و ليست بالعقل »

((الشرح))

(أحمد بن إدريس ، عن محمد بن عبد الجبار ، عن بعض أصحابنا رفعه إلى أبي عبد الله عليه السلام قال قلت له : ما العقل قال ما عبد به الرحمن و اكتسب به الجنان) . سأل سائل عن معرفة العقل مطلقاً سواء كان حقيقياً أو رسمياً اولفظياً أو عن حقيقة وأجاب عليه السلام ببعض خواصه و أغراضه المقصودة منه للتنبيه على أن معرفة هذا هو الأهم والأسهل له دون معرفة حقيقته وإشعاراً بأن عرفان حقيقته متعسر جداً فلا يحصل له بسهولة ، ولهذا اختلف العلماء فيها وتحيّرت عقول الحكماء في تحديدها وهذا التعريف إشارة إلى القوة النظرية المسمّاة بالعقل النظري شرح اصول الكافي - ٥ -

وإلى القوة العملية المسمّاة بالعقل العملي إذ بالأولى يعلم المعارف الإلهية والأحكام الشرعية والأخلاق الحسنة النفسانية، وبالثانية يعمل بها ويهذب الظاهر والباطن وبالعلم والعمل يتم نظام عبادة الرحمن واكتساب الجنان، ويمكن أن يكون إشارة إلى العقل بالمعنى الأول والأخير أيضاً أن مقتضى النفس من حيث التجرد وعدم معارضة الأهام وسائر القوى البدنية ومقتضى الجوهر النوراني المجرد عن شوائب المادة من جهة إشرافاته على النفس عبادة الرحمن واكتساب الجنان كما يشهد به الذوق السليم؛ ولما كان هذا الجواب من الخواص الشاملة للعقل من شأنها عدم تخلفها عما هي خاصة له وقد تخلفت ههنا عما في بعض الأشخاص مثل معوية من مناط التدبير والتصرف في الأمور الدينية الموجبة لبعده عن عبادة الرحمن واكتساب الجنان، والناس يسمّونه عقلاً وصاحبه عاقلاً، سأل ثانياً حيث (قال: قلت: فالتدني كان في معوية) الموصول مبتدأ خبره محذوف وهو ما هو (فقال) كشفاً لغمته وتوضيحاً لمسئلته (تلك النكراء) النكراء بالفتح والسكون والنكر بالضم وضممتين: المنكر والأمر الشديد وكل ما قبّحه وكرهه العقل أو الشرع فهو منكر أي تلك القوة التي كانت في معوية وكانت سبباً لتحصيله المصالح الدينية واكتساب الأمور الشرعية، وانحرافه عن الله وعن أمر الآخرة قوة منكورة شنيعة قبيحة (تلك الشيطنة) فيعلة من شطن عند إذا بعد، ومنه الشيطان لبعده عن رحمة الله سبحانه والمراد بهارونية نفسانية تكتسب بها أعمال الجاهلين وملكة شيطانية يقترب بها أفعال الشياطين، وقوة داعية إلى الأغراض الفاسدة والشور وتحويل المطالب بالحيل والمكر وقول الزور (وهي شبيهة بالعقل) في أنها حالة للنفس وقوة محرّكة لها إلى منافعها كما أن العقل كذلك، توضيح ذلك أن العقل نورانية شريفة الذات نقي الجوهر يدعو إلى ملازمة العلم والعمل واكتساب المنافع الأخروية الموجبة للسعادة الأبدية وكلمة زاد العلم والعمل زادت نورانيته وصفائه حتى يصير نوراً محضاً وضوءاً صرفاً يضيئ به سماء القلوب وأرض النفوس، والشيطنة قوة ظلمانية خسيسة الذات مكدر الجوهر تدعو إلى

ملازمة الشرور و اكتساب المنافع الدنيوية الموجبة للشقاوة السرمديّة واقتراف
 زهراتها الزائلة الفانية بالمكر والحيل والوساوس الشيطانيّة و كلّما زادت تلك
 الشرور والمنافع زادت ظلمتها وكثرت كدورتها حتّى تصير ظلمة صرفة و شيطنة
 محضة ، ولكن لما كان التمايز بينهما و منافع العقل من الأمور المعنويّة و
 منافع الشيطنة و رويّتها من الأمور الحسيّة صارت الشيطنة شبيهة بالعقل بل عقلاً
 عند الجهّال (وليست بالعقل) ولا شبيهة به عند أهل الفضل والكمال ،
 فالجهّال لفقدان بصيرتهم عن تلك القوّة النورانيّة و عميان سريرتهم
 عن مشاهدة تلك الرّويّة الربّانيّة مع سماعهم بأنّ للانسان عقلاً هو مبدء الفطنة
 والرّويّة يغضبون اسم العقل عن موضعه ويسمّون هذه الرّويّة النكراء وهذه الفطنة
 الغمياء عقلاً ويعدّون معوية من جملة العقلاء ، وأمّا أهل الفضل والكمال فانّهم يعرفون
 بنور البصيرة أنّ بين تينك القوتين تمايزاً بحسب الذات و الصفات لأنّ احديهما
 نور والأخرى ظلمة ، وبين الحرّكتين تغايراً في الجهات لأنّ جهة إحداهما التقرب
 بالحقّ والتّنعّم وجهة الأخرى التّقرّب بالشيطان والدخول في الجحيم و بين المفرضين
 تفاوتاً في الحالات لأنّ غرض إحداهما التلذّذ باللذّة الرّوحانيّة وغرض الأخرى
 التلذّذ باللذّة الجسمانيّة ، ويمكن أن يقال : العقل على أيّ معنى كان يقع الاشتباه بينه
 و بين الشيطنة عند الجهلة لأنّ في كلّ واحد منهما جودة الرّوية وسرعة التّفطّن
 بما ينفع و يضرّ و عزم الانتقال إلى النافع والاجتناب عن الضارّ سواء كان متعلّقاً
 بأمر الدّنيا أو بأمر الآخرة تحقيق ذلك أنّ للعقل على الإطلاق بداءة و نهاية و
 كلتاها تسمّيان عقلاً أمّا الأولى فهي جوهر مبدء للعلوم والأعمال والخيرات
 كلّها و منشأ للرّوية والتّفطّن بها والتميز بينها و بين غيرها من أضدادها و أمّا
 الثانية فهي العلوم والمعارف التي بها يعبد الرحمن و يكتسب الجنان وهي ثمرة
 الأولى فاذا استعمل ذلك الجوهر مع ما فيه من الرّوية والتّفطّن فيما خلق لأجله
 من اتّخاذ الزاد ليوم المعاد و اقتباس العلم والحكمة إلى غير ذلك ممّا هو نافع
 في الآخرة زادت رويّته و تفتّنه وعظمت قوّتهما ، وتسمّى تلك القوّة أيضاً عقلاً

إمّا حقيقة أومجازاً، و تنفاوت بحسب التفاوت في القوة والضعف و كثرة جنود العقل و قوتها و شدة معارضة الأوهام والقوى و عدمها وإن ترك مهملًا ولم يستعمل فيما ذكر، بل استعمل في أضداده و صرف رويته و فطنته بجميع أنحاء الحيل و المكر إلى جمع متفرقات الدنيا وزهراتها و تحصيل جزئياتها وضبط مزخرفاتها حتى يكون أبدأ في الحزن والأسف على فوات مافات وفي الخوف من ذهاب ما حصل و في الحرص على جمع ما لم يحصل، وعاونته جنود الجهل صارت قوة تلك الروية والفطنة شيطنة وروية من الشيطان وهو عقل عند الجهل دون الكلمة كما عرفت.

((الأصل)) :

٤- «تحدثني يحيى، عن أحمد بن محمد بن عيسى، عن ابن فضال، عن الحسن بن «
«الجهنم قال : سمعت الرضا عليه السلام يقول : صديق كل امرء عقله وعدوه جهله»

((الشرح)) :

(تحدثني يحيى، عن أحمد بن محمد بن عيسى، عن ابن فضال) وهو الحسن بن علي ابن فضال من أصحاب الرضا عليه السلام وكان خصيصاً به . وكان جليل القدر عظيم المنزلة ورعاً ثقة و كان فطحياً يقول بإمامة عبدالله بن جعفر في جميع عمره حتى حضره الموت فرجع إلى الحق (جش) (عن الحسن بن الجهم قال : سمعت الرضا عليه السلام يقول: صديق كل امرء عقله وعدوه جهله) كما أن صديق كل رجل يجلب له الخير، و يدفع عنه الشر و عدوه بالعكس كذلك عقله يجلب له المنافع و يدفع عنه المضار، و جهله بالعكس إذ بالعقل يعرف الحلال والحرام و أحوال المبدء و المعاد، ويسلك سبيل الهداية والرشاد، ويميز بين الحق والباطل، ويعبد الرحمن و يكتسب الجنان فهو أجدر باطلاق الصديق عليه و أولى إذ كل صديق غيره لا ينفع بدونه و بالجهل يغفل عن جميع ذلك و يسلك سبيل الغي والجهالة و يسعى في طريق الشر والضلالة و يعبد الشيطان و يكتسب غضب الرحمن فهو أليق باطلاق

العدو عليه وأخرى إذ كل عدو غيره لا يضره بدونه، وفيه إيماء إلى أنه ينبغي أن لا يتخذ الجاهل صديقاً والعاقل عدواً لأن الجاهل إذا كان عدواً لنفسه فكيف يكون صديقاً لغيره والعاقل كما يكون صديقاً لنفسه يكون صديقاً لأخيه و يعينه فيما يعنيه فمن اتخذه عدواً كان أثر عداوته خزيًا بين يديه و مانعاً من وصول الخير إليه و لذلك كثر الأمر في الأحاديث بملازمة العالم و مفارقة الجاهل و كما أن صداقة الأصدقاء و عداوة الأعداء متفاوتة في الناس كذلك صداقة العقل و عداوة الجهل متفاوتة بحسب تفاوت مراتب العقل و الجهل في الشدة و الضعف لكثرة جنودهما و قلّتها على ما سيأتي تفصيل ذلك في الحديث المتضمن لذكر الجنود إن شاء الله تعالى .

((الاصول)):

٥- « و عنه ، عن أحمد بن محمد ، عن ابن فضال ، عن الحسن بن الجهم ، قال : قلت لأبي الحسن عليه السلام : إن عندنا قوماً لهم محبة و ليست لهم تلك ، العزيمة يقولون بهذا القول ؟ فقال : ليس أولئك ممن عاتب الله إنما قال الله : « فاعتبروا يا أولى الأبصار » .

((الشرح)):

(وعنه) أي. عن محمد بن يحيى (عن أحمد بن محمد) الظاهر أنه أحمد بن محمد بن عيسى الأشعري ويحتمل أحمد بن محمد بن خالد البرقي لأن محمد بن يحيى يروي عنهما إلا أن روايته عن الأول أكثر ورواية الأول عن ابن فضال أشهر وكلاهما عدلان ثقتان (عن ابن فضال عن الحسن بن الجهم قال : قلت لأبي الحسن عليه السلام) الظاهر أنه أبو الحسن الرضا عليه السلام ويحتمل أبا الحسن موسى بن جعفر عليه السلام لأن الحسن بن الجهم يروي عنهما (إن عندنا قوماً) من الشيعة و التنكير للتكثير (لهم محبة) لكم أهل البيت و التنكير للتحقير (و ليست لهم تلك العزيمة) الواو للعطف أو للحال والعزم إرادة

الفعل والقطع عليه والجدّ فيه يعني ليس لهم القطع واليقين بمحببتكم كما يكون لخلّص شيعتكم و ذلك لعدم كمالهم في العقل والتمييز وعدم تمسّكهم في الدّين بالبرهان ! يقولون بهذا القول (بمجرّد التقليد والنشوء عليه لا بالبصيرة والبرهان و هو تأكيد للسابق و لذا ترك العاطف) فقال ليس أولئك ممّن عاتب الله (للتقليد وترك الاستدلال لأنّ الاستدلال منوّقف على إدراك مقدمات مناسبة للمطلوب و اعتبار الحدود فيها و ترتيبها على نهج الصواب واعتبار الشرايط المعتبرة في الانتاج و قوّة الانتقال منها ولا يتصور ذلك إلّا فيمن له قوّة استعدادية و بصيرة عقلية و مكنة ذهنية (١) وليس أولئك بهذه الصفة فلا يتعلّق بهم الخطاب بالاستدلال والعتاب بتركه (إنّما قال الله فاعتبروا يا أولى الابصار) خص الأمر بالاعتبار بأولى الابصار والحثّ على الاستدلال بذوي الأفكار إذ لهم أذهان ثاقبة و عقول كاملة و بصائر نافذة تمكّنوا بها من معرفة غوامض الأمور من مبادئها ، فأولئك مكلفون بمعرفتنا والتصديق بولايتنا والاقرار بامامتنا والبلوغ إلى أعلى مراتب محبّتنا بمناهج البرهان و معارج التبيان ، فان فعلوا اتّصفوا بحقايق الايمان و صاروا رفقاءنا في الجنان وإن أهملوا تمسّكوا بعروة الكفران و استحقّقوا عذاب النيران و مذلة الخذلان و هذا الحديث كما ترى صريح في أنّ التكليف عاجلاً و تحصيل كمال الرّضا و القرب عاجلاً و آجلاً متوجّه إلى العاقل الكامل ، وأنّ الضعفاء من الشيعة غير مؤاخذين بالتقليد في أصول الدين ، وأنّ هذا الصنف دون الصنف الأوّل في الثواب والعقاب كما قال سبحانه «ورفع بعضهم فوق بعض درجات».

((الاصل))

٦- « أحمد بن إدريس ، عن محمد بن حسان ، عن أبي عبد الرّازي ، عن سيف ابن عميرة ، عن إسحاق بن عمّار قال : قال أبو عبد الله عليه السلام : من كان عاقلاً كان له دين ، و من كان له دين دخل الجنة ».

((الشرح)):

(أحمد بن إدريس ، عن محمد بن حسان) ضعيف (عن أبي محمد الرازي) قيل هو جعفر بن محمد بن يحيى القاضي بالرّي ويحمل أحمد بن إسحاق الرّازي (عن سيف بن عميرة) بفتح العين ثقة عند الأكثر ، وقال محمد بن شهر آشوب : هو واقفي ، وقال الشهيد في شرح الإرشاد- في نكاح الأئمة باذن المولى :- و ربّما ضعف بعضهم سيّفاً والصحيح أنّه ثقة (عن إسحاق بن عمّار) ثقة عند الكلّ شيخ من أصحابنا عند بعض و فطحى عند بعض ، وقال العلامة : الأولى عندي التوقف فيما ينقرد به .

(قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: من كان عاقلاً كان له دين و من كان له دين دخل الجنة) هذا ضرب أول من الشكّن الأول (١) مر كّب من متّصلين والنتيجة من كان عاقلاً دخل الجنة؛ أمّا بيان الصغرى فاما مرّ في حديث عقل آدم عليه السلام من أنّ الدّين لازم للعقل و ذلك لأنّ العاقل يعرف أحوال المبدء و المعاد و ما هو خير له في الدّنيا والآخرة فيحصل له بذلك قوّة تمنعه من الخروج عن الصراط المستقيم، والدّين عبارة عنه، و بعبارة أخرى العاقل من كان له علم بالمصالح و عمل بها إذ لو لم يكن الأول كان جاهلاً و لوام يكن الثاني كان سفيهاً و هو أيضاً جاهلاً ، و هذا المعنى هو الذي أشار إليه عليه السلام في الحديث السابق من أنّ العقل ما يعبد به الرّحمن و يكتسب به الجنان « فثبت أنّ من كان له عقل كان له دين و أمّا الكبرى فلاّنّ الدّين كما عرفت عبارة عن الصراط المستقيم و هو طريق الجنة ، فمن سلّكه كان لامحالة غاية دخول الجنة ولأنّ سالكه استحق دخولها و محال على فضل الله و إحسانه أن يمنعه من دخولها مع الاستحقاق ، و يلزم من مفهوم الشرط أنّ من كان جاهلاً لا دين له ولا يدخل الجنة ولكن لا بدّ من القول بأنّ هذا المفهوم غير معتبر لأنّ الجاهل قد يكون له دين وإن كان ضعيفاً و قد يدخل الجنة بالتفضّل ، أو القول بأنّ المراد بدخول العاقل الدخول بلا

(١) الضرب الاول ان يكون الصغرى والكبرى موجبتين كليتين (ش)•

تعذيب بعذاب يوم القيمة أو بلا حساب لأن العاقل يؤدي حسابه في دار الدنيا و يلزم أيضاً من قاعدة انتفاء الملزوم عند انتفاء اللازم أن لا يكون أحد من فرق الكفار والمخالفين عاقلاً ، و أن لا يكون ما فيهم من قوة التصرف و التفكير والتدبير عقلاً وقد مر أنها شيطنة ونكراء .

((الاصل))

٧ - « عدة من أصحابنا ، عن أحمد بن محمد بن خالد ، عن الحسن بن علي بن « علي بن يقطين ، عن محمد بن سنان ، عن أبي الجارود ، عن أبي جعفر عليه السلام قال : « إنما يداق الله العباد في الحساب يوم القيامة على قدر ما آتاهم من العقول « في الدنيا » .



((الشرح))

(عدة من أصحابنا عن أحمد بن محمد بن خالد) ثقة (عن الحسن بن علي بن يقطين) ثقة فقيه متكلم (عن محمد بن سنان) ثقة عند المفيد ضعيف عند الشيخ الطوسي و النجاشي وابن الغضائري ، ممدوح بمدح عظيم عند الكشي ولاجل ذلك قال العلامة والوجه عندي التوقف فيما يرويه (عن أبي الجارود) اسمه زياد بن المنذر زيدي أعمى مغموم بدم عظيم (عن أبي جعفر عليه السلام قال : إنما يداق الله العباد في الحساب) المداقة مفاعلة من الدقة يعنى أن مناقشتهم في الحساب وأخذهم على جليله و دقيقه (يوم القيمة على قدر ما آتاهم من العقول في الدنيا) للعقل مراتب متفاوتة في القوة والضعف والكمال والنقصان المرتبة العليا للأنبيا والأوصياء والمرتبة السفلى لمن يتميز به عن سائر الحيوانات الخارجة عن رتبة التكليف و المتوسطات على كثرتها متوسطات والمداقة في الحساب بحسب تلك المراتب فحساب من في الدرجة الثانية أشق وأدق من حساب من في الدرجة الأولى و أخف من حساب من في الدرجة الثالثة وهكذا وذلك لأن الحساب على حسب التكليف والتكاليف

متفاوتة على حسب تفاوت العقول إذا الأقوى عقلاً أشدّ تكليفاً من الأضعف هذا، و قال سيد الحكماء الالهيين (١): «إنما يداف الله العباد» بالدال المهملة والفاء المشددة و يروى بالدال المعجمة . و في بعض النسخ «يدافي» بابدال إحدى الفأين ياء . يقال : دف عليه دفيماً أي وفد وقدم ، ورافقت الرجل مدافّة و دفاً أجهزت عليه وفي النهاية الأثرية في حديث ابن مسعود «أنه داف أبا جهل يوم بدر» أي أجهز عليه وجز رقبتة، و يضاف بالدال المعجمة بمعنى يداف، وأما يداق بالقاف فنصحيح تحريفي و تحريف تسقيمي هذا ملخص كلامه . و إنما كلامه مطوّل مبسوط كلّه لبيان معنى هذا اللفظ بحسب اللغة كما هو دأبه في تصحيح اللغات و أسماء الرجال ولا أدري ما الباعث له على الحكم بتحريف «يداق» بالقاف و تسقيمه و ترجيح يداف بالفاء عليه .

((الاصل))

٨- « علي بن محمد بن عبد الله ، عن إبراهيم بن إسحاق الأحمر ، عن محمد بن سليمان الديلمي ، عن أبيه قال : قلت لأبي عبد الله عليه السلام : فلان من عبادته و دينه ، و فضله ؟ فقال : كيف عقله ؟ قلت : لأدري ، فقال : إن الثواب على قدر العقل ، « إن رجلاً من بني إسرائيل كان يعبد الله في جزيرة من جزائر البحر خضراء نضرة كثيرة » الشجر ظاهرة الماء و إن ملكاً من الملائكة مرّ به فقال : يا رب أرني ثواب عبدك هذا فأراه الله تعالى ذلك ، فاستقله الملك فأوحى الله تعالى إليه : أن اصحبه » « فأتاه الملك في صورة إنسي فقال له : من أنت ؟ قال : أنا رجل عابد بلغني » « مكانك و عبادتك في هذا المكان فأتينك لأعبد الله معك فكان معه يومه ذلك ، فلما أصبح » « قال له الملك : إن مكانك لنزه وما يصلح إلا للعبادة فقال له العابد : إن لمكاننا » « هذا عيباً فقال له : وما هو ؟ قال : ليس لربنا بهيمة فلو كان له حمار رعيناه » « في هذا الموضع فان هذا الحشيش يضيع ، فقال له [ذلك] الملك : وما لربك » « حمار ، فقال : لو كان له حمار ما كان يضيع مثل هذا الحشيش فأوحى الله إلى الملك »

« إنما أثبته على قدر عقله. »

((الشرح))

(علي بن محمد بن عبدالله) (١) أبو الحسن القزويني وجه من أصحابنا ثقة في الحديث (عن إبراهيم بن إسحاق الأحمر) النهاوندي ضعيف في حديثه متهم في دينه، وفي مذهبه إرتفاع وأمره مختلط لأعتمد على شيء مما يرويه (صه) (٢) (عن محمد بن سليمان الديلمي، عن أبيه) سليمان بن زكريا الديلمي كذاب غال كذا نقل عن ابن الغضائري، وكذا ابنه ضعيف في حديثه مرتفع في مذهبه (صه) والحديث معتبر لأن الكذب قد يصدق (قال قلت لأبي عبدالله عليه السلام) (فلان) بمكان رفيع (من عبادته ودينه وفضله؟ فقال: كيف عقله) في القوة والضعف (قلت: لأدري) حال عقله فيهما (فقال: إن الثواب) المترتب على العبادة والدن والفضل (على قدر العقل) فإن كان كاملاً كان الثواب كاملاً وإن كان ناقصاً كان الثواب ناقصاً لأن زيادة الثواب بكمال العبادة وكمال العبادة بمعرفة المعبود وصفاته واستحقاقه للعبادة دون غيره، وبمعرفة حقيقة العبادة وأحكامها وشرائطها وكيفية فعلها، وبصدورها على الخوف والخشية ولا يحصل ذلك إلا بزيادة العقل والعلم فإن زيادة الثواب على قدر العقل كما أن زيادة العقاب على قدره لقول الصادق

(١) قال الفيض القاشاني - رحمه الله -: كأنه ابن اذينة الذي هو من مشايخ الكليني

ويحتمل ابن عمران البرقي انتهى. أقول: كونه القاضي القزويني في غاية البعد لأنه كما نص عليه النجاشي قدم بغداد سنة ست وخمسين وثلاثمائة وتوفي الكليني ٣٢٨ والمشهور أنه رتب الكافي في عشرين سنة و لازم ذلك أن يكون علي بن محمد بن عبدالله أبو الحسن القزويني أجاز الكليني قبل خمسين عام وهذا بعيد جداً، والظاهر أنه ابن بندار أو علي بن محمد ابن عبدالله القمي كما أن الظاهر اتحاد الرجلين .

(٢) رمز لخلاصة الأقوال للعلامة الحلي قدس سره .

«يغفر للجاهل سبعون ذنباً قبل أن يغفر للعالم ذنب واحد (١)» ولا يقال :
مجاهدة قليل العقل مع نفسه و دفعه للمخاطر الشيطانية و اللذات النفسانية
أشقّ و أعظم لضعف الآلة من مجاهدة العاقل الكامل العالم الماهر فينبغي أن يكون
ثواب عبادته أكثر و أعظم كما ورد « أن الذي يعالج القرآن بمشقة و قلّة حفظه
له اجران (٢) » لأننا نقول: ذلك ممنوع بل الظاهر الحقّ الذي لا ريب فيه أن
مجاهدة العاقل العالم أعظم لأنّ اللذات النفسانية مشتركة والمخاطر الشيطانية
فيه أكثر و أعظم ، و سيره في طرق تفاصيل المقامات العالية الدقيقة و تركه
لأضدادها مع كثرة قطاع الطريق والمختلس فيها أشدّ و أشقّ بخلاف قليل العقل
فانه إنّما يسمع أنّ هناك طرقاً و مقامات وهي معارك النفوس ولم يقع فيها ولم
يرمشقتها ولا صولة الأعداى فيها ، و أمّا تضعيف أجر من له قلّة حفظ على أجر
من له قوّة حفظ فأنّما هو بعد تساويهما في العلم بالقراءة و أحكامها فليس هذا من
قبيل ما نحن فيه . (إنّ رجلاً من بني إسرائيل كان يعبد الله في جزيرة من جزاير
البحر) قال المطرزي في المغرب : الجزر انقطاع المدّ ، و يقال جزر الماء إذا
انفرج عن الأرض أي انكشف حين غار و نقص ، منه الجزيرة . و قال الجوهرى :
الجزيرة واحدة جزاير البحر سميت بذلك لانقطاعها عن معظم الأرض (خضراء)
بفتح الخاء و سكون الصاد أي فيها الفواكه والتفاح والكمثرى وغيرها أو البقول
كالكرّاث والكرفس والسداب و نحوها أو النبات والكلاء الأخضر أو جميع
ذلك (نضرة) صفة بعد صفة ، والنضرة الحسن والرونق ، وقد نضر وجهه أي حسن
و نضره الله يتعدّى ولا يتعدّى (كثيرة الشجر، ظاهرة الماء) بالطاء المعجمة يعنى
أنّ ماءها كان جارياً على وجه الأرض وقد يقرأ بالطاء المهملة، وكان طهارة
مائها كناية عن صفائه ولطافته وخلوّه عمّا يغيّر لونه أو طعمه ، والظاهر «ظاهر

(١) سيأتى فى كتاب فضل العلم باب لزوم الحجة على العالم تحت رقم ١ .

(٢) رواه الكليني فى كتاب فضل القرآن باب من يتعلم القرآن بمشقة تحت

الماء بلاثناء ، لأن الوصف بحال المتعلق في التأنيث والتذكير تابع لفاعله دون الموصوف والفاعل هنا مذكّر (وإن ملكاً من الملائكة مرّ به فقال : يا رب أرني ثواب عبدك هذا) دلّ هذا وغيره من الأخبار على أن الملائكة لا يعلمون ثواب أعمال العباد كمّا وكيفاً بل لا يعلمون نفس الأعمال أيضاً إلا ما شاء الله (فأراد الله تعالى ذلك فاستقله الملك) أي عدّة قليلاً بالنظر إلى عبادته (فأوحى الله تعالى إليه أن اصحبه فاتاه الملك في صورة إنسي) تلبس الملائكة والشياطين والأجنّة الذين هم أجسام شفّافة بل الأعراض أيضاً كالأعمال والعقائد بالصور الجسمانية الكثيفة ممّا لا ينكره العقل وقد ثبت ذلك من طرق العامّة و الخاصّة بأخبار معتبرة متكرّرة ، ولا يستلزم ذلك تبدل الحقائق ولا عبرة بانكار بعض أهل الظواهر (١) إذ الحقيقة الواحدة يختلف صورها باختلاف المواطن فيتجلّى في كلّ موطن بحلية ويتزيّناً في كلّ نشأة بزيّ ، وهو مذهب الخواصّ من أهل التحقيق و توضيحه ما أشار إليه الشيخ في الأربعين من أن سنخ الشيء وأصله أمر مغاير لصورته التي يتجلّى بها على المشاعر الظاهرة ويلبسها لدى المدارك الباطنة وأنّه يختلف في تلك الصور بحسب المواطن والنشآت فيلبس في كلّ موطن لباساً و يتجلّب في كلّ نشأة بجلباب كما قالوا : إن لون الماء لون إنائه وأمّا الأصل الذي يتوارد عليه هذه الصور ويعبرون عنه تارة بالسنخ وتارة بالوجه ومرّة بالروح فلا يعلمه إلاّ علام الغيوب ، فلا بعد في كونه متلبساً في موطن بالصورة الملكية أو العرضية و في آخر بالصورة الانسانية أو الجوهرية ، و أيّده بمؤيّدات

(١) « بانكار بعض أهل الظواهر » هذا الكلام من الشارح تصريح بعدم كون

ما يرى من الملائكة في الصورة الجسمانية عين صورتهم بل يتلبسون بها وكذلك تصريح بتجسم الاعمال ، وقال الفاضل العلامة المجلسي رحمه الله في حق اليقين ما معناه ان بعضهم قائمون بتجسم الاعمال و يقولون يجوز تبدل الصور باختلاف النشآت والعوالم كما يتمثل العلم في الرّؤيا باللبن او الماء و هذا شيء بعيد في العقل ولا يوافق المعاد الذي يعتقده المسلمون - الى آخر ما قال - والحق ما قاله الشارح ، انه ليس بعيداً في العقل (ش).

لا يليق المقام ذكرها وإنما أتاه بصورة إنسي لا بصورة ملكية ليعرف ذلك العابد أنه من جنسه ولا يعلم أنه ملك لأنه أدخل في الامتحان أو لعدم استعداد العابد لرؤية الملك بصورته الأصلية أو لعدم قدرته على تحمّل هيبة الصورة الملكية ، وفيه دلالة على تحقق المكاشفة وظهور الأشياء الملكوتية والآثار الربوبية التي حجبها الشواغل الجسميّة والعوايق البدنيّة والعلائق البشريّة من مشاهدتها على بعض النفوس العارضة عن هذه الشواغل ، الخالية عن تلك المواضع ، المرتاضة بأنحاء الرياضة ، الممتازة بأنواع العبادة . والشواهد عليها من القرآن والخبار كثيرة فلا عبرة بانكار المنكرين (فقال) أي العابد (له) أي للملك (من أنت ؟ قال : أنا رجل عابد) لم يرد أنه رجل بحسب الحقيقة حتّى يلزم انقلاب المهية بل أراد أنه رجل بحسب الصورة و يصدق عليه مفهومه بحسب الرؤية و فائدة الاخبار باعتبار الوصف (بلغني مكانك) أي نزاهة مكانك أو منزلتك أو موضعك (و عبادتك في هذا المكان فأتيتك لأعبد الله معك) فيه ترغيب في الميل إلى الصالحين والرّفاقة معهم في العبادة (فكان معه يومه ذلك فلما أصبح قال له الملك : إن مكانك لنزه) بالغ في التأكيد (١) مع أن نزاهة المكان أمر محسوس غير قابل للإنكار لأنه رأى العابد مشغولاً بعبادة ربه معرضاً عما سواه بحيث لا يخطر بباله المكان والمكانيات أصلاً بل كأنه ينكر وجود غيره بالكليّة فهو بهذا الاعتبار صار منكراً مصراً فناسب الخطاب معه تأكيداً بليغاً (و ما يصلح إلا للعبادة) دلّ على أن مكان العبادة ينبغي أن يكون طاهراً نزهاً لأنه يوجب نشاط النفس وسرورها و يدفع عنها انقباضها وكل ذلك يعدّها للحركة إلى المقامات العالية الموجبة لتحمّل مشاق العبادة ورياضاتها (فقال له العابد : إن لمكاننا هذا عيباً فقال له : وما هو ؟ قال : ليس لرّبنا بهيمة) أي في الوجود أو في هذا الموضع والأول أولى و أنسب وإنما عدّ هذا عيباً للمكان باعتبار أنه سبب لعبه وهو ضياع حشيشه كما أشار إليه بقوله (فلو

(١) يعني «أن» و«اللام» في قوله «إن مكانك لنزه» مشتمل على التأكيد وإنما يؤكد

الكلام إذا كان المخاطب منكراً مع كون النزاهة محسوسة لا يقبل الإنكار فاجاب المشرح (ش)

كان له حمارٌ رعيناه في هذا الموضع ، فإن هذا الحشيش يضيع (بيان للملازمة
 (فقال له ذلك الملك: وما لربك حمارٌ) «ما» للاستفهام ويحتمل أن يكون للتعني أيضاً
 أي ليس لربك حمارٌ لأنه أجلٌ و أرفع من أن يكون له حمارٌ وفيه أن النبي
 على تقدير صحته لا يناسب قوله (فقال: لو كان له حمار ما كان يضيع مثل هذا
 الحشيش) هذا قياس استثنائي أنتج برفع التالي رفع المقدّم والملازمة ممنوعة
 لأن خلق كل حشيش لا يجب أن يكون للحمار و نحوه إذ له منافع كثيرة و
 مصالح جمّة لا يعلمها إلا هو، فهذا الكلام من جملة ما دلّ على قلة عقله (فأوحى
 الله إلى الملك إنّمّا أُنشبه على قدر عقله) فكما كان عقله قليلاً كان ثواب عمله
 أيضاً قليلاً ، و أمّا عقله فلعدم علمه بأنّه ما يفعل ربّه بالحمار و أي احتياجه له
 إليه وأن العيب الذي نسبّه إلى المكان راجع بزعمه إلى عيب ربّه واعتراض عليه
 بضعف تدبيره لخلق الحشيش عبثاً بلا منفعة ولا مصلحة، و أن خلق كل حشيش
 لا يجب أن يكون لأجل حمار وأن لكل شيء منافع و أغراضاً لا يعلمها إلا هو
 أن ليس لأحد أن يقول لربّه : لم خلقت هذا؟ ولم تخلق ذاك ، و أن المقامات
 العلية والدرجات الرفيعة إنّما هي للعابدين المعرضين عمّا سواه حتّى علّق قلبه
 بأخس المخلوقات وصرف همّته إلى أن يكون راعياً لثلاث نباتات.

و فيه دلالة على أن أمثال هذه الاعتقادات الفاسدة والاعتراضات الباطلة و
 الاقتراحات الكاسدة لا يضرّ في أصل الإيمان ولا في الإثابة على الأعمال الصالحة
 إذا كانت مستندة إلى قلة العقل و ضعف البصيرة كيف وقد دلّ الأحاديث الكثيرة
 على أن أكثر أهل الجنة النساء و ضعفاء العقول ، لا يقال: ترتّب الثواب على العبادة
 مشروط بصحتها و صحّتها مشروطة بنية التقرب إلى الله تعالى و نية التقرب إليه
 متوقّفة على معرفته و معرفته بهذا النحو و هو أنّه خالق الأشياء عبثاً بلا مصلحة
 ولا منفعة ليست بمعرفة حقيقة فكيف يترتب الثواب على عبادة هذا الرجل في
 الآخرة؟ لأنّه يقال: أدنى المعرفة مع نبي الشريك يكفي في ترتّب أدنى الثواب
 على العمل وذلك لأنّ العبد إذا عرف ربّه بقدر عقله و وسعه ولم يعتقد الشريك

له ولا مشابهيته لخلق في الجسمية والمقدار وما يتبعهما كان قابلاً لرحمته الواسعة مع رجحان الرحمة فإذا ضم معها عبادة عارية من الكبر والعجب والرياء وغيرها من الآفات والمفسدات للعبادة صار جانب الرحمة أرجح واستحقاق الثواب أقوى فوجب تحقق الثواب ولو كان حصول أصل الثواب موقوفاً على كمال المعرفة فظاهر أن ذلك لا يتيسر إلا للمعقل الكامل الذي هو فريد في العقل والكمال لزم أن لا يكون من هو دونه من الضعفاء من أهل الرحمة . وهو خلاف ما نطقت به الرّوايات ودلت عليه الآيات والظاهر أنه لم يذهب إليه أحد أيضاً .

((الاصل))

٩- « علي بن إبراهيم ، عن أبيه ، عن النوفلي ، عن السكوني ، عن « أبي عبد الله عليه السلام قال : « قال رسول الله ﷺ : إذا بلغكم عن رجل حسن حال » فانظروا في حسن عقله ، فأنما يجازى بعقله . »

((الشرح))

(علي بن إبراهيم) ثقة معتمد صحيح المذهب له كتب (عن أبيه) إبراهيم ابن هاشم أبي إسحاق القمي ولم يصرحوا بجرحه و تعديله والأرجح قبول قوله (عن النوفلي) الحسين بن يزيد بن محمد بن عبد الملك وكان شاعراً أديباً وقال قوم من الكوفيين إنه غلا في آخر عمره (عن السكوني) إسماعيل بن أبي زياد الشعيري له كتاب و كان عامياً (عن أبي عبد الله عليه السلام قال : قال رسول الله ﷺ) صرح عليه السلام بهذه النسبة مع أن جميع ما روي عنه أخذ من مشكاة النبوة للتشريف بذكره عليه السلام وللتأكيد والمبالغة في قبول مضمون الحديث ولاحتتمال أن يكون السامع عامياً لا يقبل منه بدون ذلك (إذا بلغكم عن رجل حسن حال) من فعل الصلاة والزكاة والصيام والحج والصدقات وغيرها من الأعمال الدينية والدنيوية (فانظروا في حسن عقله) فان وجدتم عقله على وجه الكمال فاعلموا أن أعماله أيضاً على

وجه الكمال وأن الثواب المترتب عليها على وجه الكمال . وإن وجدتم عقله ناقصاً فاعلموا أن جميع ذلك ناقص فلا تغترّوا بحسن أعماله وأفعاله واستقامة أحواله ظاهراً ولا تحكموا بمجرد ذلك على صحة عقيدته وسلامة قلبه وكمال عمله و ثوابه بل انظروا أولاً في حسن عقله و كمال جوهره (فانما يجازى بعقله) أي بقدر عقله و للعقل مراتب متفاوتة تفاوتاً فاحشاً وهو أصل العبادة و أساسها كما قال الصادق عليه السلام : «العبادة حسن النية من الوجوه التي يطاع الله منها» (١) و ظاهر أن ذلك لا يحصل بدون العقل ففضل العبادة و كمال ثوابها بقدر فضل العقل و كماله ، و فيه دلالة على أن ثواب العالم أفضل من ثواب الجاهل و إن كان الجاهل أعبد منه ، و على اختبار حال الشاهد والراوي و كل مخبر و إن كانت أحوالهم حسنة بحسب الظاهر .

((الاصل))

١٠- « محمد بن يحيى ، عن أحمد بن محمد ، عن ابن محبوب ، عن عبدالله بن سنان قال : ذكرت لأبي عبدالله عليه السلام رجلاً مبتلى بالوضوء والصلاة و قلت : هو » رجل عاقل ، فقال : أبو عبدالله عليه السلام : « وأي عقل له و هو يطيع الشيطان ؟ فقلت : له : و كيف يطيع الشيطان ؟ فقال : سله هذا الذي يأتيه من أي شيء ، هو ، فإنه يقول : « لك : من عمل الشيطان » .

((الشرح))

(محمد بن يحيى ، عن أحمد بن محمد ، عن ابن محبوب ، عن عبدالله بن سنان قال : ذكرت لأبي عبدالله عليه السلام رجلاً مبتلى بالوضوء والصلاة) أي بالوسواس في نيتهما أو في فعلهما أو بالمخاطرات التي تشغل القلب عنها (و قلت هو رجل عاقل) التنكير للتعظيم والتفخيم (فقال أبو عبدالله عليه السلام : وأي عقل له وهو يطيع الشيطان)

إنكار لذلك القول على سبيل المبالغة ، فإن من يطيع الشيطان كأنه لا عقل له فضلاً عن أن يكون عقله كاملاً و يحتمل أن يكون نفياً لعقله حين الطاعة فيكون رداً لذلك القول على أن يكون قضية دائمة ، و اعلم أن للشيطان تصرفاً عجيباً في الانسان و عملاً غريباً معه . فإنه إذا يئس من كفر من صح إيمانه قصده بالسوسة ليشتغل سره بحديث النفس يكرر عليه أفعاله و يؤذيه فربما يتصرف فيه بأمر النية وهي القصد إلى الفعل المأمور به تقرّباً إلى الله تعالى فيقول له : إنك لم تقصد قصداً معتبراً و يقول الملك الموكل بقلبه لتسديده إنك قصدت و يقع بينهما تعارض يوجب تردده فعند ذلك يقول له الشيطان : كيف قصدت مع هذا التردد فيبطله ويستأنف ، و هكذا دائماً وقد يقول له : لا يكفيك هذا القصد الاجمالي بل يجب عليك القصد إلى ما ينحل به تفصيلاً ، فيشرع في تفصيل معنى القصد و الفعل والأمر والقربة وغير ذلك ، وكلما خطر معنى من هذه المعاني بالبال غفل عن الآخر لأن مشرب القلب ضيق فيقول له حينئذ لا بد لك من تدارك ذلك الآخر فيأمره بذلك دائماً فيبقى متردداً بحيث لا يدري ما يفعل فيصير ذلك سبباً لقلقه و اضطرابه حتى كأنهم مجنون ، وقد نقل عن ابن الباقلاني أنه قال يجب على المصلي في نية الصلاة أن يستحضر العلم بالصانع و ما يجب له و ما يستحيل عليه و ما يجوز له من بعثة الرسل و تأييدهم بالمعجزات و وجه دلالتها على صدقهم و يستحضر مع ذلك الطرق التي وصل بها التكليف ، و يستحضر حدوث العالم و ما يتوقف عليه العلم بحدوثه من إثبات الأعراض و استحالة خلوه الجوهر عنها و إبطال حوادث لا أول لها و يستحضر الصلاة بجميع أجزائها و أفعالها و شرائطها . و قال المازري : إنني أردت اتباع ابن الباقلاني في ذلك القول فرأيت في منامي كأنني أخوض بحراً من ظلام فقلت : هذه والله قول ابن الباقلاني . و ربما يتصرف في قلبه و يشغله عن ذكر ربه وعن أفعال العبادة و أجزائها ويقول له : اذكر كذا و كذا و افعل كذا و كذا إلى غير ذلك من المخاطر الرديئة ، فيصير بحيث لا يعلم ما فعل و كم صلى و قد قيل إن رجلاً شكاً إلى بعض أهل العلم أنه خبأ شيئاً

شرح اصول الكافي - ٦ -

فلم يدر أين هو فأمر أن يصلي ركعتين و يجتهد أن لا يحدث فيهما نفسه ففعل فجاءه الخبيث فدكره أين خبأه ، ولا يخفى أن سرعة قبول القلب لتلك المخاطرات و تأثره بتلك النصرات إنما هو لضعف العقل ، فإن العاقل اللبيب يعلم أن العبادة و مقدماتها معراج العارفين و كلما يمنعه و يشغله عن التذكر فهو من تدليسات ذلك اللعين فيسد طرق تصرفاته بالبصيرة واليقين و أن النية إنما هي القصد بالشيء ، ولا معنى لإنكاره بعد حصوله وأن التردد إنما ينشأ من العدو المبين وأن ملاحظة تفاصيلها وتمييز بعضها عن بعض خارجة عن الدين و أن امثال أمر الله سبحانه كامثال العبد أمر سيده و أن تعظيمه كتعظيمه فلو أمره سيده بفعل معين في وقت معين فقام امثالاً لأمره و فعله في ذلك الوقت كان ممثلاً لأمره عرفاً و شرعاً ولو شرع في القيام وقال : أقوم امثالاً لأمر مولاي قياماً مقارناً لتعظيمه وأمشى إلى ذلك المكان مشياً مطلوباً له و أفعل فيه في وقت كذا الفعل الذي أجزأه كذا وكذا ، ويكرر ذلك لينتقش في قلبه صور هذه المعاني لعدو ضعيفاً في عقله وسخيفاً في رأيه لأن هذه الصور مخطورة بالنال مندرجة تحت الامثال على سبيل الإجمال كاندراج أجزاء العالم وعلة حدوثها في قولك : «العالم حادث» فكما أن القصد إلى الأجزاء مثل الأرض والسما إلى غير ذلك مما لا يحيطه العد والإحصاء خارج عن إفادة هذا القول بل زائد كذلك القصد إلى الصور المذكورة فيما نحن فيه (فقلت له وكيف يطيع الشيطان) مع اشتغاله بالعبادة واهتمامه بها و «كيف» للاستفهام عن وجه ذلك لا للإنكار (فقال سله هذا الذي يأتيه) من الوسواس في الوضوء والصلاة والابتلاء بهما (من أي شيء هو) إنما أحال البيان إليه للتنبيه على أن كون ذلك من الشيطان أمر بين يعرفه كل أحد حتى صاحبه وذلك لأن كل أحد يعلم أن الزيادة في الدين إنما هو من عمل الشيطان اللعين (فإنه يقول لك من عمل الشيطان) لعلمه بأنه الباعث لهذا العمل دون الشرع أو العقل وتصديقه بذلك لا يوجب كونه عاقلاً كاملاً كشارب الخمر والزاني والسارق وإنما العاقل من ترك عمل الشيطان ولم يعمل بقوله ، و قيل قوله « من عمل الشيطان »

قول بلسانه ولم يؤمن به قلبه إذ لو عرف أنه من عمل الشيطان لكان عاقلاً ولا موصوفاً
وإنما يقول ذلك تقليداً أو اضطراراً وذلك مثل ما حكى الله سبحانه عن الكفار بقوله
«وَلئن سئلتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله» فإن قولهم بأفواههم
ولم تؤمن به قلوبهم إذ لو علموا ذلك لم يكونوا كفاراً وإنما قالوا ذلك تقليداً أو
سماعاً من الناس على الرسم والعادة لا تحقيقاً و عرفاناً فلذلك لا ينفعهم في الدنيا
والآخرة . وفيه نظراً لنا لانسلم أن علمه بأن ذلك من عمل الشيطان يستلزم أن
يكون عاقلاً لما عرفت ، ولانسلم به أن علم الكفار بأن الله تعالى خلق السموات
والأرض يستلزم عدم كفرهم لجواز أن يكون كفرهم مع علمهم بذلك لأجل أمر
آخر كاعتقادهم باستحقاق الأصنام للمعبادة و نحوه فليتأمل .

((الاصل)) :

١١- «عدة من أصحابنا عن أحمد بن محمد بن خالد ، عن بعض أصحابه »
«رفعه قال : قال رسول الله ﷺ : ما قسم الله للعباد شيئاً أفضل من العقل ، فنوم»
«العقل أفضل من سهر الجاهل ، وإقامة العاقل أفضل من شخوص الجاهل ولا بعث»
«الله نبياً ولا رسولا حتى يستكمل العقل و يكون عقله أفضل من جميع عقول»
«أُمته وما يضمّر النبي ﷺ في نفسه أفضل من اجتهاد المجتهدين ، وما أدي»
«العبد فرائض الله حتى عقل عنه ولا بلغ جميع العابدين في فضل عبادتهم»
«ما بلغ العاقل ، والعقلاء هم أولو الأبواب ، الذين قال الله تعالى : «و ما يتذكر»
«إلا أولو الأبواب» .

((الشرح))

(عدة من أصحابنا ، عن أحمد بن محمد بن خالد ، عن بعض أصحابه رفعه قال :
قال رسول الله ﷺ : ما قسم الله للعباد شيئاً أفضل من العقل) كما قال بالفارسية الهي
آنرا كه عقل دادي چه ندادي و آنرا كه عقل ندادي چه دادي ؟ والمقصد أن

العقل أفضل من جميع ما قسمه الله تعالى للعباد وهذا المعنى يفهم من هذه العبارة بحسب العرف فإن المقصود من قولنا ليس في البلد أفضل من زيدهو أن زيدا أفضل من غيره وسرّ ذلك أن العقل مناط لجميع الفيوضات الدنيوية والأخروية وليس شئ من الأغيار بهذه المثابة، والجهل بحكم المقابلة أخس من جميع الأشياء فيظهر وجه التفريع في قوله (فنوم العاقل أفضل من سهر الجاهل) يعنى للعبادة وذلك لأن حقيقة السهر وإن كان أفضل من حقيقة النوم إلا أن النوم المقارن للعقل أفضل وأشرف من السهر المقارن للجهل بحكم المقابلة للملايسة والمجاورة ففيه زيادة مبالغه على شرافة العقل وخساسة الجهل أو لأن العاقل لا ينام إلا بطهارة و دعاء والملائكة يستغفرون له و يكتبون له الصلاة مادام نائماً ، كما نطقت به الأخبار و ظاهر أن استغفار الملائكة والصلاة المكتوبة له أفضل من عبادة الجاهل أو لأن نوم العاقل قلماً ينفك عن رؤيا صالحة وهي جزء من ستة و أربعين جزء من النبوة كما دلّت عليه الروايات ، فنوم العاقل في الحقيقة معراج له بخلاف سهر الجاهل أو لأن العاقل لا ينام إلا بقدر الضرورة ويجعل نومه وسيلة إلى عبادة أخرى ولا شك أن نومه على هذا الوجه عبادة مستندة إلى العقل وسهر الجاهل لأجل العبادة وعبادته غير مستندة إليه وظاهر أن العبادة المستندة إلى العقل أفضل من العبادة الغير المستندة إليه ، وقد سمع أمير المؤمنين (عليه السلام) رجلاً من الحرورية أي الخوارج ينهجد و يقرء فقال: «نوم على يقين خير من صلاة في شك» (١) والوجه فيه ظاهر لأن صلاة الشاك فيما يجب الاعتقاد فيه لا ينفعه ونوم المؤمن له فوائد كثيرة (و إقامة العاقل أفضل من شخوص الجاهل) أي انتقاله من بلد إلى بلد في طاعة الله تعالى كالحج والجهاد و نحوهما مع أن في الشخوص مشقة زائدة على الإقامة وذلك لأن عقل العاقل وإن كان جسمه مقيماً سائر في المقامات العالية التي لا تخطر ببال الجاهل أبداً وله في كل آن سفر روحاني وشهود رباني، ولا شبهة في أن سير الروح في معارج العرفان

(١) أورده الشريف الرضى - رحمه الله - في النهج باب المختار من حكم أمير -

المؤمنين (ع) تحت رقم ٩٧ .

مع سكون الجسم أفضل من سير الجسم في البلدان مع سكون الروح أولاً ، إقامة العاقل و سكونه عبادة كشخص الجاهل ولا ريب في أن عبادة العاقل أشرف من عبادة الجاهل أولاً روح الطاعة و اعتبارها هو النية و قصد القربة ولا يحصل ذلك إلا بالمعرفة واليقين والجاهل بمعزل عنهما (ولا بعث الله نبياً ولا رسولا) من باب ذكر الخاص بعد العام لأن النبي أعم من الرسول كما سيجيء في الباب الثالث من كتاب الحجّة (حتّى يستكمل العقل ويكون عقله أفضل من جميع عقول أمته) لأنه واسطة بينهم وبين الله تعالى فيستحيل أن يكون في أمته من هو أفضل منه عقلاً أو مساوياً له لاستحالة ترجيح المفضل على الأقل و ترجيح أحد المساويين على الآخر و فيه مدح عظيم للعقل والعقلاء حيث حكم بأن التفاضل في الدرجة والتشريف بشرف النبوة والرسالة إنّما حصل به و لذلك صار خاتم المرسلين أشرف المخلوقات أجمعين و لولاه لما خلق الله السموات والأرضين ولا الملائكة المقرّبين لأن عقله نور رب العالمين به أخذ النور كل نبي وكل رصي في ديجور الإمكان كما أن الكواكب تستضيء بنور الشمس في ظلمة الليالي وإن كانت غائبة في الحس ، فإذا طلعت قهر نورها على أنوار الكواكب و منه يظهر سر نسخ شريعته الغرّة ، لشرائع الأنبياء (وما يضمّر النبي ﷺ في نفسه أفضل من اجتهد المجتهدين) لكون عقله أفضل و أرفع من عقولهم لأن عقله لشدة اتّصاله بنور الحق جل شأنه كمال محض لا نقص فيه قطعاً و نور صرف لا يشوبه ظلمة أصلاً وذلك الاتّصال بمنزلة اتّصال الحديد بالنار وتأثيره منها بحيث يصير ناراً صرفاً يحوّه ويؤثره حتّى يؤثر في غيره مثل تأثيرها ، و به يشعر قوله تعالى ليلة المعراج خطاباً له ﷺ و ما ينقرب عبدي إليّ بشيء أحبّ ممّا افترضت عليه ، وإنه لينقرب إليّ بالنوافل حتّى أحبّه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، و بصره الذي يبصر به ، و لسانه الذي ينطق به ، و يده التي يبطش بها إن دعاني أحببته ، وإن سألتني أعطيتني (١) ولا جل ذلك الاتّصال التام يظن من ليس له معرفة وتمييز

(٢) رواه الكليني في كتاب الإيمان والكفر باب من اذى المسلمين واحتقرهم

أنهما متجددان و أمّا أرباب المعرفة فيعرفون أن بينهما مغايرة و أن هذا مخلوق
اتصل بكمالات الخالق كما أن ذلك حديد اتصف بصفات النار ، وهذه المرتبة
هي المرتبة العظمى والدرجة العليا من مراتب العقل و درجاته وهي مرتبة حق
اليقين ، و هو فيما دون تلك المرتبة أعني مرتبة علم اليقين ، وفي مرتبة عين اليقين يشاهد
المعقولات كلها مشاهدة عيان بحيث لا يعزب عنه شيء ، إلا ما شاء الله ، هذا حال عقله
ﷺ و عقل أوصيائه ﷺ إلا أن بين عقله و عقلهم تفاوتاً دقيقاً لا يعرفه إلا الله
سبحانه ، و أمّا عقل غيرهم ممن تمسك بذيل عصمتهم فهو و إن كان كما لا ونوراً
في حد ذاته لكنه استعداد محض ، وظلمة صرف بالنظر إلى عقلهم إذ غاية جهده
و نهاية سعيه تحصيل تلك المعقولات على قدر الوسع من مبادئها بالاجتهاد وهو في
هذه المرتبة بمنزلة من استدل على وجود النار بمشاهدة الدخان ، و بين هاتين
المرتبتين مسافة بعيدة كما لا يخفى على العارفين و إذا كان عقله ﷺ أكمل و
أفضل من عقول المجتهدين كان إدراكاته و تعقلاته أفضل و أتم من اجتهادات
المجتهدين و تعقلاتهم و لهذا يحكم بأن عقل الأعلم و إدراكاته أتم و أفضل من
عقل العالم و إدراكاته ، و كذا عقل العالم و إدراكاته أتم و أفضل من عقل الجاهل
و إدراكاته ، بل لانسبة هنا ، و يرشد إلى التفاوت المذكور قول الصادق عليه السلام
« اعرفوا منازل الناس على قدر رواياتهم عنا » (٣) « و ما أدنى العبد فرائض الله
حتى عقل عنه) أي عقل عن الله و عرفه حق معرفته و علم ما يصح عنه و ما يمتنع
عليه و حق أمره فيما أراده من الفرائض و الأحكام و ذلك ظاهر لأن أداء الفرائض
لا يتصور بدون معرفتها المتوقفة على معرفته تعالى و معرفته لا يتصور بدون العقل
هو الأصل لجميع ذلك (و لا يبلغ جميع العابدين) أي مجموعهم من حيث المجموع
أو كل واحد منهم (في فضل عبادتهم ما بلغ العاقل) أي في فضل عبادته أو في
عقله عن الله و أحكامه و علمه بهما لأن العقل أصل للعبادة و روح لها إذ به يحصل
الخوف والخشية والخضوع الموجبة لصعودها إلى محل القبول ، و

انحطاط الفرع عن الأصل وعدم صعود العبادة الفاقدة لروحها بيّن لاسترة فيه (و
العتلاء هم أولو الألباب) في تعريف الخبر باللام وتوسيطه بضمير الفصل تنبيه على
التخصيص والتأكيد أي على قصر المسند على المسند إليه كما هو الشائع في مثل
زيد هو الأمير، أو على قصر المسند إليه على المسند، فإنه قديجي، لهذا المعنى
أيضاً كما في قولهم: الكرم هو النقيض أي لا كرم إلا التقوى، وهذا أنسب
بالمقام لأن الظاهر أن المقصود حصر العقلاء بأنهم ليسوا إلا أولو الألباب الذين
مدحهم الله تعالى في الكتاب، و يحتمل أن يكون المراد بيان اتحاد المفهومين
يعني إذا حصلت مفهوم أولو الألباب وتقرر ذلك في ذهنك و تصوّرته حقّ تصوّره فقد
عرفت مفهوم العقلاء و حقيقتهم، فإنه لمفهوم لهم وراء ذلك فليس هناك حمل
بحسب المعنى ولا قصر، وقد صرّح أئمة العربية بجواز إرادة هذا المعنى في مثل
هذا التركيب منهم الشيخ في دلائل الإعجاز. (الذين قال الله تعالى) في مدحهم
والجملة صفة لأولي الألباب أو للعقلاء (وما يتذكر إلا أولو الألباب) وهم
الذين اتصفوا بنور البصائر وجودة الأذهان وشاهدوا المعارف مشاهدة العيان و
اهتدوا إليها لتجرّد عقولهم عن غواشي الحواس و علايق الأبدان و صعدوا السلامة
عقولهم معارج اليقين فصاروا أهل الذكر ومنبع العرفان الذين فرض الله سبحانه
رجوع العباد إليهم بقوله: « فاسئلوا أهل الذكر إن كنتم لاتعلمون » فالمتمسكون
بهم متمسكون بحبل الله وهم مهتدون.

((الأصل))

١٢- « أبو عبد الله الأشعري » عن بعض أصحابنا، رفعه عن هشام بن الحكم
« قال: قال لي أبو الحسن موسى بن جعفر عليه السلام: يا هشام إن الله تبارك وتعالى
« بشر أهل العقل والفهم في كتابه فقال: « فبشر عباد » الذين يستمعون القول
« فيتتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب » .
« يا هشام: إن الله تبارك وتعالى أكمل للناس الحجج بالعقول، ونصر النبيين »

« بالبيان و دلّهم على ربوبيّته بالأدلة فقال : « وإلّهم إله واحد لا إله إلا هو »
 « الرحمن الرحيم » إن في خلق السموات والأرض و اختلاف الليل و النهار و
 « الفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس ، و ما أنزل الله من السماء من ماء ،
 « فأحيى به الأرض بعد موتها و بثّ فيها من كل دابة و تصريف الرّيح و السحاب ،
 « المسخر بين السماء و الأرض ، آيات لقوم يعقلون » .

« يا هشام قد جعل الله ذلك دليلاً على معرفته بأنّ لهم مدبراً ، فقال : « و »
 « سخر لكم الليل و النهار و الشمس و القمر و النجوم مسخرات بأمره إن في ذلك »
 « آيات لقوم يعقلون » و قال : « هو الذي خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من »
 « علقة ثم يخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا أشدّكم ثم لتكونوا شيوخاً و منكم من »
 « يتوفى من قبل و لتبلغوا أجلاً مسمى و لعلكم تعقلون » و قال : « إن في »
 « اختلاف الليل و النهار و ما أنزل الله من السماء من رزق فأحيى به الأرض بعد »
 « موتها و تصريف الرّيح [و السحاب المسخر بين السماء و الأرض] آيات لقوم »
 « يعقلون » و قال : « يحيى الأرض بعد موتها ، قد بينّا لكم الآيات لعلكم تعقلون »
 « و قال : « و جنّات من أعناب و زرع و نخيل ، صنوان و غير صنوان يسقى بماء »
 « واحد و نفضل بعضها على بعض في الأكل ، إن في ذلك آيات لقوم يعقلون »
 « و قال : « و من آياته يريكم البرق خوفاً و طمعاً و ينزل من السماء ماءً فيحيى به »
 « الأرض بعد موتها إن في ذلك آيات لقوم يعقلون » و قال : « قل تعالوا أتلّما »
 « حرّم ربكم عليكم ألاّ تشركوا به شيئاً و بالوالدين إحساناً و لاتقتلوا أولادكم »
 « من إملاق ، نحن نرزقكم وإيّاهم و لاتقربوا الفواحش ما ظهر منها و ما بطن و لا »
 « تقتلوا النفس التي حرّم الله إلاّ بالحق ، ذلكم وصيّكم به لعلكم تعقلون . و »
 « قال : « هل لكم من ما ملكت أيما نكم من شركاء فيما رزقناكم فأنتم فيه سواء ، »
 « تخافونهم كخيفتكم أنفسكم كذلك فصل الآيات لقوم يعقلون » .

« يا هشام : ثم وعظ أهل العقل و رغّبهم في الآخرة فقال : « و ما الحياة الدنيا »
 « إلاّ لعب و لهو و للدار الآخرة للذين يتّقون أفلا تعقلون » .

« يا هشام : ثم خوف الذين لا يعقلون عقابه فقال تعالى : « ثم دمّرنا »
 « الآخرين و إنكم لتمرّون عليهم مصبحين وبالليل أفلا تعقلون » . وقال : « إننا »
 « منزلون على أهل هذه القرية رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون ولقد تر كناه »
 « منها آية بيّنة لقوم يعقلون » .

« يا هشام : إن العقل مع العلم فقال : « وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون » .

« يا هشام ثم ذم الذين لا يعقلون فقال : « وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله »
 « قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أو آباؤنا كان آباءهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون » وقال : «
 « مثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاءً ونداءً صمّ بكم عمي فهم »
 « لا يعقلون » . وقال : « ومنهم من يستمع إليك أفأنت تسمع الصم ولو كانوا »
 « لا يعقلون » . وقال : « أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا »
 « كالأنعام بل هم أضلّ سبيلاً » . وقال : « لا يقاتلونكم جميعاً إلا في قرى »
 « محصنة أو من وراء جدر بأسهم بينهم شديد تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى ذلك »
 « بأنهم قوم لا يعقلون » . وقال : « وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب »
 « أفلا تعقلون » .

« يا هشام : ثم ذم الله الكثرة فقال : « وإن تطع أكثر من في الأرض »
 « يضلّوك عن سبيل الله » وقال : « ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن »
 « الله قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون » . وقال : « ولئن سألتهم من نزل »
 « من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولن الله قل الحمد لله بل »
 « أكثرهم لا يعقلون » .

« يا هشام ثم مدح القلة فقال : « وقليل من عبادي الشكور » وقال : « و »
 « قليل ما هم » . وقال : « وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه أتقتلون »
 « رجلاً أن يقول ربّي الله » . وقال : « ومن آمن وما آمن معه إلا قليل » . و »
 « قال : « ولكن أكثرهم لا يعلمون » . وقال : « وأكثرهم لا يعقلون » . وقال : «

« و أكثرهم لا يشعرون » .

« يا هشام ثم ذكر أولي الأبواب بأحسن الذكر و حلالهم بأحسن الحلية »
 « فقال : « يؤتي الحكمة من يشاء و من يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً و ما »
 « يتذكر إلا أولوا الأبواب » . و قال : « الراسخون في العلم يقولون آمنا به »
 « كل من عند ربنا و ما يتذكر إلا أولوا الأبواب » . و قال : « إن في خلق السموات »
 « و الأرض و اختلاف الليل و النهار آيات لأولي الأبواب » . و قال : « أفمن يعلم »
 « أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى إنما يتذكر أولوا الأبواب » .
 « و قال : « أمّن هو قانت آناء الليل ساجداً و قائماً يحذر الآخرة و يرجو رحمة »
 « ربّه ، قل هل يستوي الذين يعلمون و الذين لا يعلمون إنما يتذكر أولوا الأبواب » .
 « و قال ، « كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدّبروا آياته و ليتذكر أولوا الأبواب » .
 « و قال : « لقد آتينا موسى الهدى ، و أورثنا بني إسرائيل الكتاب هدى و ذكرى »
 « لأولي الأبواب » . و قال : « و ذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين » .
 « يا هشام إن الله تعالى يقول في كتابه : « إن في ذلك لذكرى لمن »
 « كان له قلب » يعنى : عقل : و قال : « و لقد آتينا لقمان الحكمة » . قال :
 « الفهم و العقل » .

((الشرح))

(بعض أصحابنا رفعه) النسخ هنا مختلفة ففي بعضها هذا و في بعضها « أبو
 عبد الله الأشعري ، عن بعض أصحابنا رفعه » و اسمه الحسين بن محمد و في بعضها
 « أبو عبد الله الأشعري » رفعه ، و في بعضها « أبو علي الأشعري » رفعه (١) وضعف الخبر

(١) وفي بعضها « أبو علي الأشعري » عن بعض أصحابنا رفعه ، و الأصح « أبو عبد الله
 الأشعري » عن بعض أصحابنا رفعه ، و هو الحسين بن محمد بن عمران بن أبي بكر الأشعري
 القمي المعروف بابن عامر و هو ثقة له كتاب يروى عنه الكليني بلا واسطة كما نص عليه
 النجاشي و غيره .

بحسب الاسناد لا يضرُ بصحة مضمونه لاشتماله على علوم عقلية ، و حكم برهانية و آثار إلهية ، ودلائل وحدانية و شواهد ربوبية ، و مواظ لقمانية ، هي مناهج الايمان ، ومعارج العرفان ؛ كما سيظهر ذلك من مطالع البيان و مشارق التبيان (عن هشام بن الحكم) يروي عن أبي عبدالله و أبي الحسن موسى عليهما السلام و كان ثقة محققاً متكلماً حاضر الجواب وله مدائح كثيرة جليلة عنهما عليهما السلام و سيجي في كتاب الحجّة بعض مدايحه ومهارته في صناعة الكلام و ماروي في ذمه أجابوا عنه في موضعه ، و قال العلامة هو عندي عظيم الشأن رفيع المنزلة (قال قال لي أبو الحسن موسى بن جعفر عليهما السلام : يا هشام إن الله تعالى بشر أهل العقل والفهم في كتابه) لما كان الغرض من خلق الانسان معرفته تعالى والعبادة كما قال : « كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق لأعرف ، وقال : « ما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون » و ذلك الغرض لا يتصور حصوله إلا باستعمال العقل والفهم خص الله سبحانه أهلها بالبشارة تعظيماً و تكريماً لهم و أمّا غيرهم فلكونهم بمنزلة همج رعاع غير قابلين للبشارة والخطاب لأنهم من أهل الضرر والزمانة كما مر في صدر الكتاب (فقال فبشر عبادتة الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه) في إضافة العباد إليه سبحانه تشريف لهم بشرف الاختصاص والتكريم ، وفي عدم ذكر المبشر به دلالة على التفضيم والتعظيم ، و فيه مدح المسالكين في منهج الصواب التابعين للحق في كل باب وقد سأل أبو بصير أبا عبدالله عليه السلام عن هذه الآية فقال عليه السلام : « هم المسلمون لآل محمد الذين إذا سمعوا الحديث لم يزدوا فيه ولم ينقصوا منه جاؤا به كما سمعوه (١) » ويمكن التعميم بحيث يندرج فيه المترددون بين الفريقين والناصحون بين المتخاصمين يسمعون من أحد الطرفين أقوالاً ينقلون إلى الآخر أحسنها يرفع التخالف عنهم ويوقع التوافق بينهم ، ويندرج فيه الناظرون إلى جمال الحقائق بنور البصر والطامحون إلى قعر المعارف بغوص الفكر والمجتهدون في سبيل الحق بالاستدلال والنظر فإن كل قول صدق و عقد حق له ضد ومعاند ، فإن

القول بأن الله تعالى موجود ، عالم قادر حكيم مثلاً ضد أنه ليس بموجود كما يقول الملاحدة ، وأنه ليس بعالم على الإطلاق كما يقوله من نفى عنه العلم بالجزئيات وأنه ليس بقادر على إعادة الأجسام كما يقوله من نفى المعاد الجسماني أو أنه ليس بحكيم كما يقوله من نفى التدبير عنه ، و قس عليه غير ذلك مما يتعلق بالأصول والفروع ، ومن البين أن التمييز بين الصحيح والسقيم من هذه الأمور غيرها لا يمكن بمجرد الاستماع وإلا لما وقع الخلاف فيها وإنما يمكن بما هو حجة الله تعالى على عباده وهو العقل الصحيح السليم عن غواشي الأجسام ولو ايس الأوهام وذلك التمييز يتصور بوجهين أحدهما أن العقل الصحيح إذا لاحظ الضدين يجد منهما ما هو أحسن كما هو شأن المجردين من لواحق الأبدان مثل الأنبياء والأولياء ، وثانيهما أن يدرك الأحسن من المبادي المتعلقة به كما هو شأن المجتهدين والبشارة تشمل الجميع (أولئك الذين هداهم الله) يعني أولئك الموصوفون بالصفة المذكورة هداهم الله إلى خير الدنيا والآخرة من أجل تلك الصفة، ويحتمل أن يكون جواب سؤال عن سبب تبشيرهم دون غيرهم كأنه قيل: ما لهؤلاء العباد الموصوفين بالصفة المذكورة اتصفوا بالتبشير لهم دون غيرهم؟ فأجيب بأن السبب هو اختصاصهم بالهداية واللفظ والتوفيق لسلوك سبيل الخيرات من الله سبحانه، وعلى التقديرين لا محل لهذه الجملة من الأعراب. وفيه دلالة على أن الهداية أمر حادث من الله تعالى للعقول القابلة المستعدة لها (وأولئك هم أولوالالباب) أي ذوو العقول السليمة عن التأثير بخباياث العلائق ومفاسد العادات ، و أمّا غيرهم ممن لم يفرّق بين الأقوال والعقائد الحسنة والقبیحة أفرّق واتّبع القبیحة بحكم النفس الأمّارة فهو من أهل الضلالة والجهالة بحكم المقابلة وإن كان له ما يحيل به في اقتناص الدنيا وزهراتها فان ذلك عقل عند الجهلاء، وشيطنة عند العقلاء (يا هشام إن الله تبارك وتعالى أكمل للناس الحجج بالعقول) الحجج القصدومنه الحجّة أي البرهان وولاية أمر الله سبحانه لانهما يقصدان ويعتمدان بهما يقصد الحق المطلوب . وقد تطلق على العقل أيضاً كما في بعض الروايات : الله على

الناس حجتان إحداهما العقل وأخرهما الرسول (١) . ولا يجوز إرادته هنا بخلاف الأولين ، فإنه يجوز إرادة الأول على أن يكون الباء المسببية بمعنى أكمل للناس براهين وجوده ووجوبه وقدرته إلى غير ذلك من الصفات بسبب العقول وخلقها وتركيبها فيهم و يجوز إرادة الثاني على أن يكون الباء للمتعدية أو للمسببية أيضاً يعني أكمل للناس حججه من الانبياء والأوصياء المرضيين بعقولهم الصافية وأذهانهم الناقبة أو بسبب أن منحهم عقولاً زكية عارية عن شوائب النقصان مدركة لشواهد الربوبية بحقايق الايمان (ونصر النبيين بالبيان) البيان الفصاحة لان نبي كل قوم أفصح منهم لساناً و يجوز أن يراد به ما يثبت به الشيء من الكلام والآيات وغيرهما يعني نصرهم بالكلمات الفائقة والمعجزات الظاهرة والآيات الباهرة الدالة على ثبوت نبوتهم ليكمل بهم أحوال عباده وينور بهدايتهم أطراف بلاده و يخرج الناس من ظلمة الجهالة والغواية وينجيهم من حيرة الندامة والضلالة (و دلهم على) طريق (ربوبيته) عود ضمير الجمع إلى النبيين قريب وإلى الناس بعيد (بالادلة) الدالة على وجود ذاته ، والآيات الكاشفة عن جمال صفاته و تلك الأدلة من آثاره العجيبة وأفعاله الغريبة لأن معرفة الشيء إما بمشاهدته و حضوره عند العارف كمعرفة هذا الرجل وهذا الجبل وإما بمعرفة علته و هذا الطريق يقال له برهان لمي وإما بمعرفة معلوله ويقال له: برهان إنسي. ولا طريق للمعرفة غير هذه الثلاثة لأن ما لا يكون نفس الشيء ولا علته ولا معلوله لا تعلق له بذلك الشيء فلا دخل له في معرفته، ثم الطريق الأول لا يتيسر الوصول إليه إلا للمقرئين المخصوصين بزيادة اللطف والتوفيق وهم الذين أخذت أيديهم العناية الأزلية و أرالت عنهم الهويات البشرية و قطعت عنهم العوائق البدنية و أنزلتهم في أعلى منازل القدس وأرفع مقامات الأنس، فصاروا بحيث يشاهدونه بالاحجاب ويكالمونه بالأسوال والاجواب ، كما هو وصف نبينا وأوصيائنا عليهم السلام . والطريق الثاني لا أثر له في ساحة قدسه جل شأنه لأنه بسيط صرف لا تركيب فيه أصلاً لأذهناً ولا خارجاً، واجب

لذاته مبدء لجميع ماسواه و إليه ينتهي الآثار كلها فلا فاعل له خارجاً عن ذاته ولا سبب له داخلاً في ذاته تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ، والطريق الثالث يشترك فيه الكل فلذا خصّه بالذكر و هو طريق يسلكه كل من له عقل سليم وطبع مستقيم ولكن سلوكهم و وصولهم و إيمانهم و إيقانهم على حسب تفاوت مراتب عقولهم أما ترى أنك تستدل بملكوت السماوات و حركات الكواكب و بزوغها و أفولها على وجود صانعها و مدبرها كما استدلت بها خليل الرحمن و إن كان استدلاله بها للتعليم وقد حصل لك علم ضعيف شبيه بالجهل حتى لو وقعت في أدنى بليّة تلوذ بكل من زعمت أنه يتجيك منها ، و حصل له علم ثابت و يقين جازم حتى قال له الروح الأمين حين رمي بالمنجنيق وكان في الهواء ما يلا إلى النار: ألك حاجة؟ قال: أمّا إليك فلا. فأعراضه عنه في تلك الحالة والتجأؤه إلى ربه ليس إلا لأنه رأى أن كل ماسواه محتاج إليه خاشع لديه خاضع بين يديه مقهور لعزته مغلوب لقدرته بل لم يرموجوداً - واه و ملجأً إلا آتاه ، ولوعاد ضمير الجمع في «دلهم» إلى الناس أمكن أن يراد بالأداة معصومون المطهرون عليهم السلام

(فقال وإلهكم إله واحد) أي مستحق العبادة منكم واحد لا شريك له يصلح أن يعبد و يسمى إلهاً . قيل : وحدة الشيء ما يوجب عدم انقسامه من جهة اتصافه بها ، فكل موجود متّصف بها فإن الواحد مثلاً يستحيل أن ينقسم إلى رجلين وإن أمكن أن ينقسم من وجوه آخر وقيل : هي وجوده الخاص الذي به يوجد ، و وحدته تعالى لما لم تكن مقيدة بجهة دون أخرى بل هو متصف بها من جميع الجهات كانت وحدته راجعة إلى أنه بسيط في الذات يعني أن ذاته غير مؤلفة من الأجزاء أصلاً ؛ وإلى أنه فرد لا شريك له في الوجوب الذاتي و الالهية ، و إلى أنه واحد في أفعاله لا شريك له في المبدئية و في انتساب جميع الكائنات إليه إمّا بلا واسطة أو بواسطة ، وإلى أنه واحد في صفاته لأن صفاته عين ذاته ، وبالجمله عالم الالهية والوجوب الذاتي يتأبى عن تحقق الكثرة فيه ذاتاً وصفة والشركة والكثرة إنما يتحقق في عالم الامكان فمن قال بوقوع الكثرة في ذلك العالم كان ذلك

لتصور بصيرته وعدم تمييزه بين عالم الامكان و عالم الوجوب (لا إله إلا هو) قال القاضي و غيره: هذا تقرير للوحدانية وإن أحداً لا يتوهم أن في الوجود إلهاً ولكن لا يستحق منهم العبادة ، وتوضيحه أنه لما قال « وإلهكم إله واحد » ومعناه أن مستحق العبادة منكم واحد أمكن أن يتوهم أحد ويقول : إلهنا إله واحد يستحق العبادة منّا فلعل في الوجود إلهاً غير إلهنا لا يستحق العبادة منّا ، فأزال هذا الوهم ببيان التوحيد المطلق حيث نفى مهية الاله و أثبت فرداً منها فعلم أنه لا وجود لها إلا في هذا الفرد وهو التوحيد التام (الرحمن الرحيم) أي المعطي لجميع النعم الدينية والأخروية ، فهذا كالبرهان لما مر من أنه يستحق العبادة دون غيره لأنه لما كان هو المعطي للنعم كلها أصولها وفروعها في الدنيا والآخرة وما سواه إما نعمة أو منعم كانت الالهية و استحقاق العبادة منحصرة فيه لا توجد في غيره أصلاً. قيل: كان للمشركين حول الكعبة ثلاثمائة وستون صنماً فلمّا سمعوا بهذه الآية تعجبوا و قالوا إن كنت صادقاً فأت بآية نعرف بها صدقك فنزلت (إن في خلق السموات) على مقادير متفاوتة و أبعاد مشاهدة في البعد البعيد لما في قربها من تحيّر الأبصار بمشاهدة شعاع الكواكب و سرعة دورانها كما يشاهد ذلك من البروق المتوالية المضطربة في الجو ومن المصابيح المتكثرة التي تدور حول أحد دوراناً حيثما فاتها تحيّر بصره حتى يتحيّر لوجهه ، و على إدارتها مثل الدوّلاب مع ما فيها من الشمس والقمر والنجوم الثوابت والسيارات على بسيط الأرض دائماً بهذا التقدير المشهود والتأثير المعلوم لصالح الأرض ومن عليها، من غير انثلام ولا انكسار مع كمال لطافتها و انشفافها وعلى حركات مختلفة في الكم والكيف والجهة فبعضها سريع و بعضها بطيء و بعضها شرقي و بعضها غربي وبعضها ذاتي و بعضها عرضي وعلى تجزئتها بممثلات و متممات وحوامل، وخوارج المراكز والتداوير كل ذلك على أنحاء مخصوصة و أوضاع معلومة لأغراض مقصودة بعضها جلي و بعضها خفي (والأرض) على حجمها و ثقلها و رسوبها في الماء و انكشاف بعضها ليكون مسكناً للحيوانات البرية و على سعتها و سكونها و توسطها بين

الصلابة والرّخاوة لتكون مأوى أنواع الوحوش و مسكن أصناف الناس ومزارعهم
و منابت أخشابهم و أحطابهم ولا يكونوا بمنزلة المتحصّنين في حصار ضيق . و
ليتمكنوا من السعي فيها في مآربهم والجلوس فيها والنوم عليها والالتقان لأعمالهم
فإنّها لو كانت متحركة رجراجة (١) لم يتمكنوا من التعيش فيها. كما يشاهد ذلك
فيما يصيبهم حين الزلزال على قلّة مكثها ، و ليتمكنوا من الزرع فيها و البناء
عليها والمشي فيها و سهل خروج النبات والأشجار . فإنّها لو كانت شديدة الصلابة
مثل الحجر أو شديدة الرّخاوة مثل الماء لما أمكن شيء من ذلك ، و على ما فيها
و ما عليها من المياه والجبال والمعادن مثل الياقوت والزبرجد والفيروزج والذهب
والنحاس والحديد و غيرها كل ذلك لمنافع الخلق التي يعجز الوصفون عن
توصيفها و تحديدها و على كبريائها الموجبة لاختلاف الآفاق والطوالع والمطالع
والتعديلات والطلوع والغروب مستوياً ومعكوساً واختلاف أهوية الأقاليم الموجبة
لاختلاف أمزجة سكّانها واختلاف أحوالهم وأخلاقهم وألوانهم، وقيل: إنّما جمع السماء
و أفرد الأرض لأنّ كلّ سماء جنس آخر بخلاف الأرض فإنّها جنس واحد .
(واختلاف الليل والنهار) أي تعاقبهما على هذا النظام المشاهد من الخلقة
بالكسر وهي أن يذهب أحدهما و يجيء الآخر خلفه و به فسّر قوله تعالى «وهو
الذي جعل الليل والنهار خلفاً» و منه قولهم : و اختلفا ضربة أي ضرب كلّ
واحد منهما صاحبه على التعاقب ، أو اختلفا في النور والظلمة ، أو في الزيادة
والنقصان و دخول أحدهما في الآخر على سبيل التدرّج حتّى يبلغ كلّ واحد
منهما منتهاه في الزيادة والنقصان وهي خمس عشر ساعة تقريباً أو في الطول والقصر
والحرّ والبرد باعتبار العروض وأهويتها فإنّ العروض الشماليّة كلّما كانت أكثر
كان قوس النهار أطول و قوس الليل أقصر فيكون النهار أطول من الليل بقدر ضعف
تعميد النهار ، والعروض الجنوبيّة بعكس ذلك و اختلاف كلّ واحد منهما بحسب
الأمكنة فإنّ الأرض لما كانت كروية فأيّة ساعة فرضت من النهار فهي صبح

لموضع وظهر لآخر و عصر لثالث و مغرب لرابع ، وقس على هذا ولاختلافهما فوائد و منافع للخلق فإنه لو كان الليل أو النهار سمرمداً إلى يوم القيمة أو كان مقدار النهار مائة ساعة أو مائتي ساعة أو أكثر كما في عرض تسعين - فإن هناك مدة كل منهما ستة أشهر - كان في ذلك بوار كل ما في الأرض من حيوان و نبات ولو كان دخول أحدهما في الآخر دفعياً لأضر ذلك بالأبدان وأسقمها كما يضر الخروج من الحمام إلى موضع بارد دفعة ولو كانت العروض متساوية في الحر والبر والهوية لضاق الأمر على العباد بخلاف ما إذا كانت متفاوتة فإنه ينتقل منهم من أراد من موضع إلى موضع وجده موافقاً لمزاجه فهي كالخوان الموضوع بين يدي جماعة فيه ألوان مختلفة من الأطعمة والأشربة في الكمية والكيفية يأكل منها كل واحد منهم ما أراد ووافق مزاجه ، وبالجمللة آثار صنع الله تعالى وحسن تدبيره في اختلافهما و مصالحه و منافعه أعظم من أن يحيط بها علم الانسان أو يكتب في الدفاتر و يذكر باللسان و لذلك ذكره الله تعالى في القرآن المجيد في مواضع عديدة و موارد كثيرة تنبيهاً لهم عن الغفلة و تذكيراً لهم بالحكمة.

(والفلك التي تجري في البحر) الفلك بضم الفاء و سكون اللام واحد و جمع فاذا كان واحداً فالضمة بمنزلة ضمة قفل ، و إذا كان جمعاً فالضمة بمنزلة أسد ، فالضمتان متفقتان لفظاً و مختلفتان معنى أما الجمع فكما في قوله تعالى « حتى إذا كنتم في الفلك و جرين بهم » و أما الواحد فقد يأتي للمذكّر بمعنى المركب كما في قوله تعالى « في الفلك المشحون » وقد يأتي للمؤنث بمعنى السفينة كما في قوله تعالى « والفلك التي تجري في البحر » ويحتمل أن يكون فيه جمعاً (بما ينفع الناس) « ما » إما مصدرية أي ينفعهم ، أو موصولة أي بالتذي ينفعهم من المحمولات والمجلوبات و غوص الآلى ، و ضمير « ينفع » على الأول يعود إلى « الفلك » بمعنى المركب فقيه استخدام أو إلى الجرى أو البحر ، وعلى الثاني إلى الموصول و في موضع هذا المركوب المشكل بالشكل المخصوص الداخل فيه الهواء و حملة للأمتعة الكثيرة و أصناف من الحيوان و جريه في الماء بسياق شرح اصول الكافي - ٧ -

الرياح ، و عدم رسوبه فيه و تقوية القلوب على ركوبه ، وجعل البحر متوسطاً بين الكثيف و اللطيف القابل لجريانه من لطايف الصنع و حسن التدبير في مصالح الناس و معاشهم مالا يخفى على ذوي البصائر الثاقبة ، ومن جملتها أنه لولا هذا المر كوب اعطيت التجارات التي تجلب من البلاد البعيدة مثل ما يجلب من الصين إلى العراق و من العراق إلى الصين و بقيت الأمتعة في بلدانها في أيدي صاحبها لأن أجر حملها على ظهور الدواب كان يجاوز أثمانها فلا يتعرض أحد لحملها على أن بعض المسافات كالبحر مما لا يمكن قطعه بالدواب ، فتفقد أشياء كثيرة تعظم الحاجة إليها فيقطع المعاش ويتضيّق طرقه على الناس ، فلأجل هذه الحكمة جعل الفلك بحيث يحمل مالا يحصى من الحمولة و الأفراس و الأفيال و هي تجري بعنايته في موج كالجبال و جعل الرّيح سايقها و محرّكها و لولا الرّيح لركدت كما قال سبحانه « و من آياته الجوار في البحر كالأعلام إن يشأ يسكن الرّيح فيظللن رواكد على ظهره إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور » و من حملتها أنه لو جعل البحر لطيفاً محضاً مثل الهواء لما استقرّ الفلك على ظهره بل غاص فيه ، ولو جعله كثيفاً محضاً مثل الأرض لما أمكن من قطعه وشقه فجعل متوسطاً بينهما لتكميل مصالحهم ، قال القاضي : القصد من هذه الآية إلى الاستدلال بالبحر و أحواله و تخصيص الفلك لأنه سبب الخوض فيه والاطلاع على عجائبه و لذلك قدّمه على ذكر المطر والسحاب لأن منشأهما البحر في غالب الأمر ، و قيل : الحكمة في عدم رسوب السفينة إلى الماء و إن كان بعض أجزائه أو كلّها أثقل منه كالحديد هي أن الأجسام الممدخلة بعضها في بعض بمنزلة جسم واحد والمعتبر في الرسوب في الماء و عدمه ثقل المجموع بالقياس إليه و عدمه و لذلك لو كثرت الحمولة و قل الهواء الدّاخل بحيث يكون المجموع أثقل من الماء لرسب فيه وغرق أهلها ، والضابطة فيه أنه إذا فرض مع الماء جسم آخر فإن كان نسبة حجمه إلى حجم الماء كنسبة ثقله إلى ثقل الماء فلا يرسب فيه أصلاً بل يكون سطحه العالي مساوياً لسطح الماء في العلو والسفل و إن كانت نسبة حجمه إلى حجم الماء أقلّ

منها فيرسب فيه البتة و بقدر تفاوت ثقله يكون سرعة حركته و بطؤها في النزول إلى القعر، و إن كانت أكثر فلا يرسب على الطريق الأولى لكن يخرج منه شيء من الماء ثم بقدر أكثرية هذه النسبة يكون خروج أبعاضه حتى يستوفي جميع النسبة التي يتصور بينهما وإن لم يبق بينهما نسبة أصلاً وذلك بأن لا يكون لذلك الشيء ثقل و ميل إلى المركز أصلاً و عند ذلك يكون مماساً له بنقطة إن كان كرة أو بخط أو سطح إن كان غيرهما من الاشكال كل ذلك إذا كان غير طالب للمعلو و إلا فيرفع منفصلاً على الماء ذلك تقدير العزيز العليم.

(و ما أنزل الله من السماء من ماء) «من» الأولى للابتداء والثانية للبيان و السماء يحتمل الفلك والسحاب المعلق وهذه من آيات وجوده سبحانه و قدرته و حكمته و حسن تدبيره من جهة كيفية نزول المطر و مبدئ نزوله و فوائده . أمّا الأول فإنه ينزل متقاطراً متعاقباً ولو نزل متصلاً دفعة واحدة مثل البحر لأضر كل ما تصيبه وينزل في وقت دون وقت آخر على التعاقب بينه و بين الصحو لما في دوام أحدهما من فساد العالم و بطلان نظامه ، إذ لو دام المطر عفنت البقول و النباتات و استرخت أبدان الانسان وسائر الحيوانات و حسر الهواء فأحدث ضرراً من الأمراض والوباء و أفسد الطرق والمسالك والبلاد و أخرج البناء إلى غير ذلك من المفاسد التي لا يحيط بها العد والاحصاء ، و لو دام الصحو جفّت الأرض و احترق النبات و غيض ماء العيون والأودية و غلب اليبس و حدث القحط والجذب و ضروب من الأمراض ، و فيه هلاك الأرض و من عليها و ما فيها جميعاً ، ففي هذا التعاقب على النحو المشاهد الذي يوجب اعتدال الهواء و نظام الأشياء و صلاحها و استقامتها و دفع كل منهما عادية الآخر دلالة على اللطيف الخبير ، و أمّا الثاني فقال بعض الطبيعيين أن الشمس وغيرهما إذا أثرت في الأرض يخرج منها أبخرة متصاعدة إلى الطبقة الزهريرية التي لا يصل إليها أثر شعاع الشمس المنعكس من وجه الأرض وهي منشأ السحب والصواعق والرعد والبرق، فإذا وصلت تلك الأبخرة إلى هذه الطبقة تتكاثف بالبرد و تصير سحاباً ، فإمّا أن لا يكون البرد قوياً فيتقاطر وهو

المطر أو يكون قوياً بأن أثّر في الأجزاء المائية قبل اجتماعها يحصل الثلج وإن أثّر بعده يحصل البرد ، و روي عن أمير المؤمنين عليه السلام « أن تحت العرش بحر فإذا أراد الله أن ينبت به ما يشاء أوحى إليه فمطر ما شاء من سماء إلى سماء حتى يصير إلى السماء الدنيا فيلقيه إلى السحاب والسحاب بمنزلة الغربال فيمطر على النحو الذي أمر به ، وليس من قطرة تقطر إلاّ و معها ملك حتى يضعها موضعها » (١) والحديث طويل نقلنا بعض مضمونه و يؤيده ما روي عنه عليه السلام قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله عز وجل جعل السحاب غرابيل للمطر حتى يذيب البرد حتى يصير ماء كيلا يضر شيئاً يصيبه » (٢) وهذا وإن كان مما يستبعد الغافلون لكن وجب قبوله و إذعانه إذا أخبر به المخبر الصادق كما في سائر الأسرار الإلهية (٣) وروي عنه عليه السلام أيضاً أنه سئل عن السحاب أين يكون قال : « يكون على شجر على كثيب (٤) على شاطئ البحر يأوي إليه فإذا أراد الله عز وجل أن يرسله أرسل ريحاً و أتارته و و كّل به ملائكة يضربونه بالمخاريق و هو البرق ويرتفع ثم قرأ هذه الآية « هو الذي يرسل الرياح فتثير سحاباً فسقاه إلى بلد ميث » والملك اسمه رعد (٥) »

(١) كلاهما في حديث واحد رواه الكليني في كتاب الروضة تحت رقم ٣٢٦ .

(٢) بمعنى يجب التصديق بظاهره و تفويض معناه إلى الله تعالى ، لأن ظاهر الآية الكريمة

أن المطر يخرج من خلال السحاب كما نقله الشارح عن بعض الطبائمين ففي سورة النور « ألم تر أن الله يزجى سحاباً - إلى أن قال - فترى الودق يخرج من خلاله » فالمراد بالسماء في الآية الآخر أيضاً السحاب ، نعم ورد في القرآن أن كل شيء نزل من السماء أي العالم الروحاني إلى هذا العالم كما قال « وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد » وقال : « أنزلنا لكم من الأنعام ثمانية أزواج » (ش) .

(٤) الكثيب الرمل المستطيل ، التل .

(٥) رواه الكليني في كتاب الروضة تحت رقم ٢٦٨ - والمخاريق كما في النهاية الأنبرية

جمع مغراق وهو في الأصل ثوب يلف به الصبيان بعضهم بعضاً و في حديث علي « ع » البرق مخاريق الملائكة أراد أنها آلة تزجر بها الملائكة السحاب وتسوقه .

و فيه دلالة على أن السحاب تحمل الماء من بحار الأرض و يتصاعد بأمر الله تعالى و يمطر في كل مكان تعلق به إرادته و مشيئته ويدل عليه أيضاً ظاهر ما نقله العامة والخاصة كما صرح به الشيخ في مفتاح الفلاح من أن المأمون خرج يوماً من بغداد فأرسل صقره فارتفع في الهواء ولم يسقط على الأرض حتى رجع وفي منقاره سمكة فتعجب المأمون من ذلك فلما رجع إلى بغداد رأى في بعض طريقة محمد بن علي بن موسى الرضا عليه السلام و له في ذلك الوقت إحدى عشرة سنة و قيل عشرة فتقدم إليه المأمون و هو ضام كفه على السمكة و قال له قل أي شيء في يدي فقال عليه السلام : إن الغيم حين يأخذ من ماء البحر يداخله سمك صغار فتسقط منه فيصيدها صقور الملك فيمتحنون بها سلامة النبوة ، فأدهش ذلك المأمون فنزل عن فرسه وقبل رأسه و تذلل له ثم زوجه ابنته (١) و الظاهر أن جميع ذلك حق لأن الشيء الواحد قد يكون له أسباب متعددة و في جميع ذلك دلالة على الحكيم القدير المدبر للأشياء على أحسن ما ينبغي .

فان قال قائل : إنما ينزل المطر من السحاب بطبعه لأنه ثقل فأي دلالة فيه على ما ذكرتم ؟ قلنا : أولاً هذا الطبع له ليس من قبل نفسه بالضرورة فمن أعطاه إياه دون غيره من الأجسام الخفيفة مع اشتراكهما في الجسمية ؟ و من أسكنه في جو السماء و كبدا السحاب بحيث ينزل تارة دون أخرى مع اقتضاء طبعه نزوله و عدم استقراره ؟ و من ساقه من جو إلى جو مع اقتضاء طبعه الحركة إلى المركز ؟ و ثانياً أنه إذا نزل بطبعه لثقله فلم يتصاعد إلى أعالي الشجر والأوراق والنباتات من المسامات الضيقة والعروق الدقيقة ليصل منافعه إلى كل جزء من أجزائها ؟ ولو قال : صعوده لجذب قواها الجاذبة إياه ، قلنا له : من أعطاه تلك القوى التي تقسره إلى الصعود المخالف لمقتضى طبعه فيرجع الكلام بالآخرة إلى وجود واجب الوجود الذي بأمره و تدبيره يتحرك الماء فيما بين الأرض و السماء ، من شرق إلى غرب و من غرب إلى شرق ، و من شمال إلى جنوب و من

جنوب إلى شمال ، ومن علو* إلى سفلى ، ومن سفلى إلى علو* ، ذلك تقدير العزيز العليم ، و أمّا الثالث فهو أشار إليه سبحانه بقوله (فأحيا به الأرض بعد موتها) أى بسبب ما يتبعه من النباتات والحيوانات والكلام هنا فى ثلاثة أمور الأول فى كون النبات و الحيوان حيوة الأرض ، و مجمل القول فيه أن نسبة النبات و الحيوان إلى الأرض كنسبة النفس إلى الحيوان فكما أن الحيوان بالانفس ميّت عديم المنفعة ، كذلك الأرض بالانبات ولاحيوان ، و من ثم قيل : الأرض بما فيها من النبات و الحيوان بمنزلة حيوان واحد تموت عند الجذب والشتاء و يحيى عند الخصب والرّبيع ، والثانى فى أن الماء سبب حيوة النبات و الحيوان وهما يحتاجان إليه احتياجاً شديداً ، ووجهه ظاهر لأن القوى النباتية و الحيوانية فى جذب الغذاء والالصاق و التنمية تحتاج إلى ماء . يرطب ذلك الغذاء و يعدّه للمنفوذ فى المنافذ الضيقة و يعين تلك القوى فى أعمالها ، وإذا فقد الماء بطلت أعمالها و إذا بطلت أعمالها عدم الحيوان و النبات و بالجملة الانسان و سائر الحيوانات و الزروع و سائر النبات يحتاجون إليه فى الوجود والنمو والبقاء احتياجاً شديداً . و قال صاحب العدة روى أن بعض الوعاظ دخل على هارون الرشيد فقال له هارون عظمي، فقال: أراك لو منعت شربة ماء عند عطشك بهم كنت تشتريها؟ قال: بنصف ملكي، قال: أتراها لو حبست عنك عند خروجها بهم كنت تشتريها؟ قال: بالنصف الباقي ، قال : لا يفرّئك ملك قيمته شربة ماء ، و الثالث فى دلالة إحياء الأرض بالمطر على وجود الصانع المدبّر للعالم و ذلك أن البرد فى الشتاء يوجب كثافة الهواء و الأرض و الشجر و يبس ظاهرها فتعود القوى النباتية و الحرارة الغريزية فى الشجر و النبات ، و تستقرّ فى بطونها و أصولها و تهيم . فهما مواد الثمار و تولد الأمثال فإذا نزل الماء وقت الربيع الذي هو وقت بروز ما فى البطون و ظهور ما فى الكمون انتفخت الأرض و اهتزّت و تحرّكت القوى و الحرارة وتتولد المواد الكامنة فى الشتاء فيطلع النبات و يتنوّر الأشجار والأزهار ويخرج أصناف مختلفة مونة رايقة من الثمار التي يتمتع بها الانسان وغيره من أنواع الحيوان

كما قال سبحانه : «و ترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت و أنبتت من كل زوج بهيج» وقال : «وأنزلنا من المعصرات ماءً ثجاجاً لنخرج به حباً ونباتاً وحبثات ألفافاً» فالعقل اللبيب إذا نظر في هذه الحركات والانتقالات و في صنوف مختلفة من النباتات والأشجار والأزهار والثمار من حب و عنب وقضب و زيتون و نخل و رمثان و فواكه كثيرة على اختلاف أنواعها وأصنافها - مختلفة الاشكال والألوان والطعوم والروائح - يوجب بفضل بعضها على بعض في الأكل والمنافع مع أن جميعها يخرج من أرض واحدة و يسقى من ماء واحد ، و تفكر ما في النباتات من ضروب المنافع وصنوف المآرب فالثمار للغذاء والنبات للعلف والحطب للوقود والخشب لكل شيء من أنواع التجارة وغيرها واللحاء والورق والأصول والعروق والصموغ وغيرها لضروب من المنافع فبعضها يقوى و بعضها يغذى ، و بعضها يقتل و بعضها يحمى ، و بعضها يسخن و بعضها يبرد ، و بعضها يدفع السوداء و بعضها يسهل للمصفر ، و بعضها يدفع البلغم إلى غير ذلك من الفوائد الغير المحصورة ، ورأى ما في الأوراق من شبه العروق المبثوثة في جرمها أجمع فمنها غلاظ ممتدة في طولها وعرضها لئلا يسهل عليها التلف و التمزق و الاضطراب و لا يصل الماء إلى أطرافها بمنزلة الجداول و منها دقاق تتخلل تلك الغلاظ لايصال الماء والغذاء إلى كل جزء من أجزائها بمنزلة العروق المبثوثة في البدن . علم أن جميع ذلك من فاعل قادر مختار عليم حكيم بوجود الأشياء بمجرد إرادته لمصالح أو منافع غير محصورة (و بث) عطف على أنزل فهو صلة عليها لموصول مقدرة بحكم العطف ويجوز عطفه على «أحياء» لأن الحيوان أيضاً ينمو بالماء و يعيش بالخصب والحب (فيهما من كل دابة) مختلفة في الطباع والأخلاق والأشكال والادراك و الحواس والحركات و المنافع والاهتداء إلى طرق المعاش فمنها ما يمشي على بطنه كالحيات و منها ما يمشي على رجلين كالإنسان و منها ما يمشي على أربع كالفرس و منها ما يمشي على أكثر كـ بعض الحشرات و منها ما يمشي تارة و يطير أخرى كالطيور و منها ما يدخر قوته بحيلة و تدبير كالذرة و العنكبوت ، و منها ما يطلب قوته عند الحاجة كالطيور

فإنه يروح جايحاً ويرجع شبعاناً ، ومنها ما في خلقه صنعة عجيبة كالبعوضة فإنها مع صغرها على هيئة القبل مع زيادة الجناحين تطير بهما . ومنها ما لا يحتاج إلى بيت بل يبيت حيث كان من الأرض ، ومنها ما يحتاج إليه و يبنيه على شكل عجيب غريب لا يهندي إليه المهرة من المهندسين كالنحل ؛ و كل ذلك وغيره مما يتعذر عدّه و إحصاؤه دلّ على أن في الوجود موجوداً عالماً حكيماً يفعل ما يشاء كيف يشاء ، و إليه ينتهي الموجودات على تفاوت طبائعهم و مراتبهم التي أرفعها و أعلاها و أشرفها و أسناها المرتبة الانسانية لأنّ الإنسان على تفاوت الطبقات في العقل والإدراك خلّق له أكثر هذه الموجودات فبعضها لمأكله و مشربه و سائر منافع و بعضها يستدلّ به على وجود صانعه و قدرته و علمه و حكمته بل لولم يكن في هذا العالم موجود سواه و تأمّل في مبدئه نشؤه و صورته و أعضائه و منافع قواه الظاهرة و الباطنة و في أحوال نفسه و عقله و علمه بالمعلومات الكلية و الجزئية و إحاطته بالمدرجات العقلية و الحسية علم أنّه مخلوق مغلوب مقهور له خالق غالب قاهر مصوّر عليم حكيم ، فإنّه إذا اعتبر مثلاً حاله حين كونه نقطة في الرحم و صيرورته جنيناً حيث لا تراه عين و لا تناوله يد مع اشتماله على جميع ما فيه قوامه و صلاحه من الأحشاء و الجوارح و سائر الأعضاء من العظام و اللحم و الشحم و المنخ و العصب و العروق و الغضروف و هو محجوب في ظلمات ثلاث ظلمة البطن و ظلمة الرحم و ظلمة المشيمة و لا حيلة له في طلب غذائه ، و لا دفع أذاه ، و لا استجلاب منفعته ، و لا دفع مضرته ، و قد جرى إليه من دم الحيض ما يغذوه كما يغذو الماء النبات فلا يزال ذلك غذاه حتّى إذا كمل خلقته و استحکم بدنه و قوي أديمه على مباشرة الهواء و بصره على ملاقات الضياء حاج الطلق (١) بأُمّه فأزعجه أشدّ إزعاج و اعنفه حتّى يولد ، وإذا ولد صرف ذلك الدّم الذي كان يغذوه في الرحم إلى ثديي أُمّه و انتقل الطعم واللّون إلى ضرب آخر من الغذاء وهو أشدّ موافقة له من الدّم فيوافيه في وقت حاجة إليه و حين تولد قد تلمظ و حرّك شفثيه طلباً للغذاء.

فلا يزال يغتذي باللبن مادام رطب البدن دقيق الامعاء لين الاعضاء حتى إذا تحرك واحتاج إلى غذاء فيه صلابة ليشد ويقوى بدنه طلعت له الطواحين من الأسنان والأضراس ليمضغ بها الطعام فيلين عليه ويسهل له إساغته ، فلا يزال كذلك حتى يدرك فإذا أدرك وكان ذكراً طلع الشعر في وجهه فكان ذلك علامة الذكر وعزه الذي يخرج به من حد الصبي وشبه النساء ، وإن كانت أنثى يبقى وجهها نقياً من الشعر ليبقى لها البهجة والنضارة التي تحرك الرجال لما فيه دوام النسل وبقاؤه ، واعتبر أنه لو لم يجر إليه ذلك الدم وهو في الرحم لزوى وجف كما يجف النبات إذا فقد الماء ولو لم يزعه المخاض عند استحكامه لبقى في الرحم كالموؤد في الأرض ؛ وفي ذلك هلاكه وهلاك أمه ، ولو لم يوافق اللبن بعد الولادة لمات جوعاً ، ولو لم يطلع عليه الأسنان في وقتها لامتنع عليه مضغ الطعام وإساغته أو يقيم على الرضاع فلا يشتد بدنه ولا يصلح للعمل مع أن ذلك يمنع أمه عن تربية غيره من الأولاد بل عن أمورهما مطلقاً ، ولو لم يخرج الشعر من وجهه في وقته لبقى شبيهاً بالصبيان والنساء فلم يكن له جلالة ولا وقار ، وكذا إذا اعتبر في وصول الغذاء إلى البدن وما فيه من التدبير ، وفكر في أن الطعام يصير إلى المعدة فتطحنه وتبعث بصفوه إلى الكبد منه في عروق دقاق قد جعلت كالصفاء للغذاء لكيلا يصل إلى الكبد منه شيء فينكأها (١) وذلك أن الكبد رقيقة لا يحتمل العنف ثم إن الكبد تقبله فيستحيل بلطف التدبير دماً وينفذ إلى البدن كله في مجاري مهية لذلك بمنزلة المجاري التي للماء حتى يطرد في الأرض كلها ، وينفذ ما يخرج منه من الخبث والفضول إلى مفايض قد أعدت لذلك ، فما كان منه من جنس المرة الصفراء جرى إلى المرارة ، وما كان من جنس السوداء جرى إلى الطحال ، وما كان من البلة والرطوبة جرى إلى المثانة ، وتأمل في حكمة التدبير في تركيب البدن ، ووضع هذه الأعضاء منه في مواضعها ، وإعداد هذه الأوعية فيه لتحمل الفضول لئلا تنتشر في البدن فتسقمه وتنهكه ، وفكر في

أعضاء البدن أجمع و تدبير كل منها للارب والحاجة ، فاليدان للعلاج ، والرجلان للسعي ، والعينان للاهتداء ، والفم للاغتذاء ، واللسان للتكلم . والحنجرة لتقطيع الصوت و تحصيل الحروف ، والمعدة للهضم ، والكبد للتخليص و المنافذ لتنفيذ الفضول ، والأوعية لحملها ، والفرج لإقامة النسل ، وفكر في سائر الأعضاء والقوى و منافعها و أعمال فكره فيها ووجد كل شيء قد قدر لشيء على صواب و حكمة و تقدير و تدبير يعجز العقل عن معرفة تفاصيلها علم أن له خالقاً عالماً قديراً عليمًا حكيمًا يوجد الأشياء بمجرد إرادته بلا كلام ولا حركة ولا آلة لأغراض و مصالح لا يعرف تفاصيلها إلا هو و هو اللطيف الخبير .

(وتصريف الرياح) الرّيح جمع كثرة للرّيح وهي الهواء المتموج المتحرك بسبب مقدّر من الله العزيز العليم ، والعين فيهما واو قلبت ياء لكسرة ما قبلها و جمع القلّة أرواح بالواو إذ لم يوجد فيه ما يوجب الإعلال ، والمراد بتصريفها في مهابتها صباء و دبوراً وشمالاً وجنوباً ، أو في أحوالها حارّة وباردة وعاصفة ولينة و عقمًا ولواقح ، أو جعلها تارة للرّحمة يرحم بها من أطاعه و تارة للعذاب يعذب بها من عصاه و لكل واحدة من الرياح الأربع المذكورة ملك يهيئها ويحرّكها بأمر الله سبحانه كما ورد في الرّواية الصحيحة عن أبي جعفر عليه السلام (١) وإن الرّيح الأربع الشمال والجنوب والصبا والدبور إنما هي أسماء الملائكة الموكّلين بها فإذا أراد الله أن يهب شمالاً أمر الملك الذي اسمه الشمال فهبط على البيت الحرام فقام على الرّكن الشامي ف ضرب بجناحه فتفرّقت ريح الشمال حيث يريد الله من البرّ والبحر ، وإذا أراد الله أن يبعث جنوباً أمر الملك الذي اسمه الجنوب فهبط على البيت الحرام فقام على الرّكن الشامي ف ضرب بجناحه فتفرّقت ريح الجنوب في البرّ والبحر حيث يريد الله ، فإذا أراد الله أن يبعث ريح الصبا أمر الملك الذي اسمه

(١) رواه الكليني في الكافي ج ٨ (كتاب الروضة) رقم ٦٣ في حديث بهذا الاسناد

محمد بن يحيى ، عن أحمد بن محمد ، عن محمد بن عيسى ، عن الحسن بن محبوب ، عن علي ابن رمّان ، عن أبي بصير عن أبي جعفر (ع) .

الصبا فهبط على البيت الحرام فقام على الرُّكن الشامي ف ضرب بجناحه فتفرقت
ريح الصبا حيث يريد الله في البرِّ والبحر، وإذا أراد الله أن يبعث دبوراً أمر الملك
الذي اسمه دبور فهبط على البيت الحرام فقام على الرُّكن الشامي ف ضرب بجناحه
فتفرقت ريح الدُّبور حيث يريد الله من البرِّ والبحر، ثم قال ﷺ: أما تسمع
لقوله (١) ريح الشمال . و ريح الجنوب ؛ و ريح الدُّبور ، و ريح الصبا . إنما
تضاف إلى الملائكة : الموكلين بها .

إذا عرفت هذا فنقول: في تصريف الرِّياح و منافعها دلالة واضحة على أن مُبدعها
حكيم قادرٌ عليمٌ بمصالح العباد أمّا الأُولُ فلأنَّ حركة الهواء إلى الجوانب المختلفة
إرادية بالضرورة ولا طبيعية لأنَّ الحركة الطبيعية إلى جهة واحدة هي العلو والسفل .
و حركة الهواء إلى جهات متعددة فينبغي أن يكون لها من خارج فان كان ذلك الخارج إرادة
الواجب بالذات ثبت المطلوب وإن كان غيرها فنقل الكلام إلى ذلك الغير فيرجع
بالآخرة إلى المطلوب ، و أمّا الثاني فلأنَّ الرِّيح تحيي الأبدان و تمسكها من
داخل بما تستنشق منها و من خارج بما تباشر بها من روحها و تبلغ الأصوات و
تؤدِّيها إلى المسامع من البعد البعيد ولولا ذلك لبطل نظام العالم وتحمل الأرياح
التي تقوِّي القلب والدماغ من موضع إلى موضع ، ألا ترى كيف تأتيك الرِّائحة
من حيث تهبَّ الرِّيح وتروح عن الأجسام وتدخل في فرجها و تصير مادة لنشوء
النباتات التي يحتاج إليها جميع الحيوانات في الاعتذاء والدواء و غيرها فلولوا
الرياح لتعفنت و فسدت و تعفنتها و فسادها يؤدِّي إلى فساد الحيوان و الإنسان
جميعاً ، و تزجي السحاب من موضع إلى من موضع ليعمَّ نفعه ثم تعصره حتى
يستكثف فيمطر ثم تنفضه حتى يتخلخل و يستخف فيتفشَّى و ينتشر ، و تلقح
الشجر، و تسيِّر السفن، و ترخي الأطعمة، و تبرد الماء و تشب النار ، و تجفِّف
الأشياء النديّة ، و تعين في تصفية الغلات ولور كدت دائماً لفاتت هذه المصالح
الجليلة والمنافع العظيمة ، و حدث الكرب في النفوس ، و مرض الأصحاء و

نهك المرضى (١) وفسد الثمار ، و غفت البقول ، وحدث الوباء في الأبدان ، و الآفة في الغلات ، و ركبت السفن ، و تحيّر التجار ، و بالجملة بطل نظام العالم بالكلمية ، ففيها من تدبير الحكيم و مصالح الخلق ما لا يحصىه اللسان ولا يحيط به العبارة والبيان ، و كلُّ هذا شواهد صادقة و آيات ناطقة بلسان حالها ، مفصحة عن جلالة باريها و قدرته ، و معربة عن كمال صانعها و حكمته.

(و السحاب المستخر بين السماء و الأرض) و هو يحمل مع ما فيه من الصواعق الصاعدة والبروق اللامعة والرعود القارعة ثقل الماء و كثرة مستقلاً في الهواء و يجمع بعد تفرقه و ينفجر بعد تمسكه ويرفع مرّة و يدنو أخرى فتصفقه الرياح و تسوقه و تفرقه بأمر مدبره و خالقه فيما بين الأرض و السماء ، إلى البلدان النائية فيخرج الودق من خلاله بقدر معلوم لمعاش و رزق مقسوم ، ويرسل قطرة بعد قطرة و شيئاً بعد شيء على رسله حتى يغمر البرك و يملأ الفجاج ، و يعتلي الأودية و تحيي به الأرض الميتة فتصبح مخضرة بعد أن كانت مغبرة : و تعود معشبة بعد أن كانت مجدبة و تكسو ألواناً من نبات ناضرة زاهرة مزينة معاشاً للناس والأنعام ولو احتبس عن أزمنته و تخلف عن وقته هلكت الخليقة و يبست الحديقة ، ثم إذا صب ما فيه أقلع و تفرق و ذهب حتى لا يعاين ولا يتدري أين يتوارى ، فعرف العاقل حين تفكّر في ذلك أن له مدبراً حكيماً عالماً حياً قيّوماً و أن السحاب لو تحرك بنفسه و صب ما فيه بمقتضى طبعه لما مضى به ألف فرسخ و أكثر و أقرب من ذلك و أبعد ليرسل قطرة بعد قطرة بلاهدم ولافساد ولا سارية إلى بلدة متجاوزاً عن الأخرى (لآيات لقوم يعقلون) أي في كل واحد من الأمور الثمانية آية ظاهرة و دلالة واضحة على وجود الصانع و قدرته و حكمته و وحدته و استحقاقه للعبادة لقوم ينظرون إليه بعبون عقولهم الصحيحة و يعتبرونه ببصائر أذهانهم السليمة . أو في كل واحد منها آيات كثيرة كما يظهر لمن تأمل فيها تأملاً عارياً عن الأوهام الفاسدة وقد يوجه بأن كل واحد منها يدل

(١) نهك الحمى فلاناً : أضنته و هزلته وجهده .

من حيث وجوده على وجود الصانع ، ومن حيث حدوثه في وقت معين على إرادته وعلمه بالجزئيات ، و من حيث منافعه على حكمته و اتقان صنعه و حسن تدبيره ، و من حيث ارتباط بعضه ببعض على وجه الانتظام والتعاون على وحدانيته.

و قال القاضي دلالة هذه الآيات على وجود الاله و وحدته من وجوه كثيرة يطول شرحها مفصلاً ، والكلام المجمل أنها أمور ممكنة وجد كل منها بوجه مخصوص من وجوه محتملة مثلاً إذا كان من الجائز أن لا تنحرك السموات أو بعضها كالأرض و أن تنحرك بعكس حركاتها و بحيث تصير المنطقة دائرة مارة بالقطبين ، و أن لا يكون لها أوج و حضيض أصلاً و على هذا الوجه لبساطتها و تساوي أجزائها فلا بد لها من موجد قادر حكيم يوجدها على ما يستدعيه حكمته و تقتضيه مشيئته متعالياً عن معارضة غيره ، إذ لو كان معه إله يقدر على ما يقدر عليه فان توافقت إرادتهما فالفعل إن كان لهما لزم اجتماع مؤثرين على أثر واحد و إن كان لأحدهما لزم ترجيح الفاعل بلا مرجح و عجز الآخر المنافي لآلهيته و إن اختلفت لزم التمانع والتطارد كما أشار إليه بقوله تعالى «قل لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا» و في الآية تنبيه على شرف علم الكلام و أهله و حث على البحث والنظر فيه . اهـ . وقيل : الحق بذلك هو العلم الذي فوق الطبيعة وهو الحكمة الالهية الحقّة .

(يا هشام قد جعل الله ذلك) أي المذكور من الآيات و مثلها أو مضمونها فان مضمونها مذكور تفصيلاً في الآيات الآتية (دليلاً على معرفته بأن لهم مدبراً) لأنهم إذا تأملوا فيها و نظروا إليها بعين البصائر و اعتبار الضمائر علموا أن لهم خالقاً خبيراً و صانعاً بصيراً خلقهم بعمد و تقدير ، وصنعهم بقصد و تدبير ، و خلق لهم جميع ما يصلح لانتفاعهم و ينفعهم في وجودهم و بقائهم كما يظهر بعض ذلك ممّا ذكرناه آنفاً (فقال : و سخر لكم الليل والنهار) بأن قدرهما لمنافعكم وهما مخصصاً لمصالحكم ، و جزء الزمان بهما لصالح بالكم و نظام حالكم فصارا يتعاقبان تعاقباً مخصوصاً و يتبادلان تبادلًا معلوماً ، لتسكنوا فيه و لتبتغوا

من فضله ، و متى نظر فيه اللبيب البصير دلّه إلى وجود الصانع العليم الخبير .
و قيل : وجه دلالتهما عليه أنّهما أجزاء الزمان الواحد المتصل والزمان مقدار
حركة دورية غير مستقيمة ، فالحافظ لها لا بدّ أن يكون جسماً كروياً إبداعياً و
هو السماء فدلّ وجودهما على وجود السماء والسماء دلّ على وجود خالق الأشياء .
لأنّ السماء ممكنة مفتقرة إلى العلّة وعلتها ليست مادّتها ولا صورتها ولا نفسها ولا
جسم آخر حاوياً أو محوياً فتتعيّن أن يكون خارجاً عن الكون والمكان و هو
المطلوب ، و فيه أنّ هذا على تقدير تمامه مبنيّ على مقدّمات كثيرة كلاميّة و
ليس هذا المقام موضع ذكر أمثال هذا الكلام (والشمس والقمر) سخر الشمس بأن
جعلها ضياءً و أمرها بالارتفاع والانحطاط والسير في البروج لاقامة الفصول وتربية
البقول و تنمية الحيوان والأشجار و تقوية الفواكه والأثمار إلى غير ذلك من
المنافع التي يعجز عن ذكرها القلم واللسان ولا يحيط بها الوصف والبيان ولوسارت
دائماً على مدار واحد لا حرقّت ما تحته و ما يليه وفات أثرها فيما لا يدانيه ، و لم
يتحقّق الفصول الأربعة ، و منافعها المذكورة في الكتب مع أنّ المذكور منها
ليس إلّا قليل من كثير . و سخر القمر بأن جعله نوراً يستضيء به المسافرون في
قطع المفاز ، و يستعين به العاملون في حرث الزرع و ضرب اللبن وقطع الخشب
و نحو ذلك . و سائر أفي منازل المعروفة ليكون أثره في أقطار الأرض و فيضه
على أهاليها على السواء و لغير ذلك من المنافع الغير المحصورة و مختلفاً في
أحواله من الزيادة والنقصان والمحق والخسوف والوجود غالباً في بعض الليال دون
بعض ليعلموا به عدد الشهور والسنين والحساب و لئلا ينسبوا في العمل والسير
لشدّة الشره والحرص مثل انبساطهم بالنهار و يمتنعوا من الهدء و القرار فيهلكهم
ذلك ، و لغير ذلك من المنافع التي يعلمها أرباب البصائر الثاقبة و أصحاب الضمائر
النافذة ، و يحكمون بأنّها من لدن حكيم خبير فسبحان من نورّ بهما الظلم ، و
أوضح بهما البهم ، و جعلهما آيتين من آيات ملكه ، و علامتين من علامات سلطانه
(والنجوم مسخرات بأمره) قرأهما حفص بالرّفع على الابتداء و الخبر فيكون

تعميماً للحكم بعد تخصيصه، و نصب ما قبلهما على المفعولية . و قرئ، « الشمس والقمر » بالرفع أيضاً و نصب الليل والنهار وحدهما ، و القراءة المشهورة عند الأكثر : نصب جميع الأسماء الستة ، و أورد على هذه القراءة بأنه ما الحاجة إلى مسخرات بعد قوله « وسخر لكم » وأجيب عنه بأن نصب الأخيرين بفعل مقدر يعني و جعل النجوم مسخرات بأمره خلقها و دبّر لها كيف شاء ، أو نصب « مسخرات » على الحالية للمفاعيل الخمسة على أن سخر بمعنى صيّر يعني صيّر هذه الأشياء الخمسة نافعة لكم ، و نفعمكم بها حال كونها مسخرات بأمره لما خلقن له أو على المصدرية يعني سخرها لكم أنواعاً من التسخير على أن يكون مسخر بمعنى تسخير ، كما في قولك سخره مسخر أمثل سرّحه مسرّحاً فجمع لاختلاف الأنواع و تلك التسخيرات في النجوم اختلاف أشكالها و صورها و نورها و مقاديرها و مواقعها و حركتها كمّاً و كيفاً و جهة و تقارناتها و تنافقها و تثلثها و تربيعها و تسديسها و استقامتها و رجعتها و وقوفها و ظهور بعضها دائماً و خفاء بعضها كذلك و ظهور بعضها في بعض السنة و احتجابها في بعضها (١) كل ذلك لمصالح كثيرة بعضها معلوم بالضرورة و بعضها بالنظر الصادق، و بعضها لا يعلمه إلا هو . أما ترى أن الثريّا و الجوزا ، والشعريين والسهيل كل ذلك يطلع حيناً و يغيب حيناً لمصالح معروفة و منافع مشهورة و فوائد مذكورة ولو كانت بأسرها تظهر في وقت لم يكن لواحد منها على حياله دلالات يعرفها الناس و يهتدون بها لبعض أمورهم كمعرفتهم بما يكون من طلوع الثريّا والجوزا إذا طلعتا ومن احتجابها إذا احتجبتا فصار ظهور

(١) التسديس هو أن يكون بين الكوكبين سدس الدور برجان، والتربيع أن يكون بينهما ربع الدور ثلاثة بروج ، والثلث ثلث الدور أربعة بروج ، و الاستقامة أن يسير الكوكب من المغرب الى المشرق أى على التوالي ، والرجعة ان يسير من المشرق الى المغرب على خلاف التوالي وهي خاصة للخمس المتعيرة، والوقوف أن يتوقف في موضع لا يتحرك منه أياماً ، وخفاؤها لكونها قريبة من الشمس مخفية بضوئها وظهورها لبعدها عن الشمس فيظهر ليلاً. (ش)

كل واحد منهما في وقت واحتجابه في وقت آخر لينفع الناس بما يدل كل واحد منهما عليه و كما جعلت الثرى وأشباهها تظهر حيناً و تحجب حيناً لضرب من المصلحة ، كذلك جعلت نبات النعش ظاهرة لا يغيب لضرب آخر من المصلحة فإنها بمنزلة الأعلام التي يهتدي بها الناس في البر و البحر للطرق المجهولة و ذلك أنها لا تغيب أبداً فهم ينظرون إليها متى أرادوا أن يهتدوا بها إلى حيث توجهوا و صار الأمران جميعاً على اختلافهما موجبهين نحو الأرب والمصلحة و فيهما مآرب أخرى مع ما في تردددها في كبد السماء مقبلة ومدبرة و مشرقة و مغربة من العبرة لأولى الأبواب ، وبالأجملة خلق الله جل شأنه الإنسان لمعرفته و عبادته وخلق لهم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم كلها بل هذا العالم كله ، وقد قال إمامنا و مولانا الصادق جعفر بن محمد عليه السلام في كتاب التوحيد للمفضل: أول العبرو الأدلة على الباري جل قدسه تهيئة هذا العالم و تأليف أجزائها و نظمها على ما هي عليه ، فانك إذا تأملت بفكرك و ميزته بعقلك وجدته كالبيت المبني المعد فيه جميع ما يحتاج إليه عباده ، فالسماء مرفوعة كالسقف والأرض ممدودة كالسطح والنجوم منضودة كالمصابيح والجواهر مخزونة كالدخائر و كل شيء فيها لشأنه معد والإنسان كالمملك ذلك البيت ، والمحوّل فيه وضروب النبات مهيئة لمآربه و صنوف الحيوان مصروفة في مصالحه و منافعه ففي هذا دلالة واضحة على أن العالم مخلوق بتقدير و حكمة و نظام و ملائمة ، وأن الخالق له واحد وهو الذي ألقه و نظمه بعضاً إلى بعض جل قدسه و تعالى جده و كرم وجهه ولا إله غيره تعالى عما يقول الجاحدون و جل و عظم عما ينتحلونه الملحدون لقصور أفهامهم عن تأمل الصواب والحكمة فيما ذراه الباري فخرجوا بقصر علومهم إلى الجحود و بضعف بصائرهم إلى التكذيب والعمود حتى أنكروا خلق الأشياء و ادعوا أن كونها بالاهمال لاصنعة فيها ولا تقدير ولا حكمة من مدبر ولا صانع تعالى الله عما يصفون و قاتلهم الله أنى يؤفكون (إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون) تأمل أيها اللبيب كيف جعل الله سبحانه هذه الأمور أدلة على معرفته و دل العقلاء الراسخين في

علم على ربوبيته و مدحهم بذلك الفضل والروية ، ومنحهم بذلك النعمة والعطية فأولئك هم المقرَّبون يوم التناد ، وأولئك هم المقصودون من الغرض في اليجاد (و قال : هو الذي خلقكم من تراب) نسب خلق هذا النوع إلى التراب لأنَّ خلق أول أفرادِه منه، ويحتمل أن يراد بالتراب الغذاء الذي يتكوَّن منه المني (ثم من نطفة) النطفة الماء القليل ومنه سمِّي نطفة لقلته وجمعها نطف (ثم من علقه) هي قطعة جامدة منعقدة من الدَّم يتغير بالتدريج إلى أن تصير مضغَّة هي قطعة من اللحم قدر ما يمضغ وهي تنتهي بالتدريج إلى العظام المكسوة باللحم المنتهية بالتدريج إلى خلق آخر و هو صورة البدن المشتملة على القوى والروح الإنساني و لم يذكر بعض هذه المراتب هنا لذكره قبل ذلك في مواضع أخرى، و للإنسان في انتقالاته و استحالاته إلى أوان خروجه من بطن الأمِّ الذي هو العالم الأول و العالم الأصغر منازل غير محصورة والمعروف منها هذه الستة التي أولها التراب يعني الغذاء، وثانيها العلقه، و رابعها المضغَّة، وخامسها العظام الكاسية باللحم (١) و سادسها الصورة الانسانية التي فيها الروح والقوى ، ثمَّ له بعد خروجه منه و دخوله في بطن الأمِّ الكبرى الذي هو العالم الأوسط إلى دخوله في العالم الأكبر و هو عالم الآخرة و عالم لقاء الله تعالى أيضاً مراحل غير معدودة إلا أن المعروف منها أولها منزل الصبا والطفولية ، و ثانيها منزل تمام النمو و كمال القوة و هو

(١) جعل العظم واللحم في منزل واحد لا يتقدم العظم على اللحم زماناً بان يكون الجنين في وقت عظاما غير مكسوة باللحم ثم تكسى به كما يتوهم من ظاهر قوله تعالى: «ثم كسونا العظام لحماً» بل تقدم العظام تقدم طبعي اذ يحتاج اللحم في قوامه الى العظم واللحم موخر عن العظم بهذا الاعتبار كتأخر الكل عن الجزء والمشروط عن الشرط وان اتحدا زماناً، فان قيل ظاهر التقدم والتأخر هو الزمانيان قلنا: نعم ولكن الظاهر معتبر حيث لا يكون قرينة على خلافه وهنا نعلم يقيناً بالقرينة العقلية ان الجنين لا يكون في زمان عظاما مجرداً ثم يكسى لاحقاً في زمان آخر بعده ومثاله في العرف تحرك المفتاح بعد تحرك اليد. (ش)

منزل الشباب ، وثالثها منزل الشيخوخة ، فأشار جلّ شأنه إلى الأول من هذه الثلاثة بقوله (ثم يخرجكم طفلاً) أي أطفالاً وإنّما أفرد لإرادة الجنس والجنس يصدق على الكثير ؛ أو على تأويل ويخرج كل واحد منكم ، أو لأنّه في الأصل مصدر وهو في هذا المنزل في التزايد والنموّ قوة وكماً ، فيكمل قواه ويزيد مقداره شيئاً فشيئاً بحسبما يقتضيه الطبيعة فيلقى الأشياء بذهن ضعيف ومعرفة ناقصة ثم لا يزال يتزايد في المعرفة قليلاً قليلاً و شيئاً بعد شيء حتّى يألف الأشياء و يتمرّن عليها و يصل إلى غايته و يخرج من حدّ الحيرة فيها إلى التصرف في المعاش بعقله و إلى الاعتبار والطاعة والسّهو والمعصية و ذلك من تدبير الحكيم العليم ، إذ لو كان النموّ دائماً لعظمت الأبدان و اشتبهت المقادير حتّى لا يكون شيء منها حدّ يعرف ، ولو ولد فهماً عاقلاً كاملاً لا نكر العالم عند ولادته ولبقي حيران تائه العقل إذ رأى ما لم يعرف و ورد عليه ما لم ير مثله ولم يأنس به من اختلاف صور العالم والطيور والبهائم إلى غير ذلك ممّا يشاهد ساعة بعد ساعة يوماً بعد يوم ولوجد في نفسه غضاظة إذا رأى نفسه محمولاً مرضعاً معصباً بالخرق مسجّى في المهد ، لأنّه لا يستغني عن هذا كلّ لرقّة بدنه ورطوبته حين يولد ولذهبت حلاوة تربيته والأدلاب والآثم وما يوجب التربيّة من البرّ والعطف ولفات ألفة بين الأبوين والأولاد لأنهم يستغنون عن تربيتهم فيتفرّقون عنهم قريباً من الولادة ، فلا يعرف الرّجل أباه و أمّه ، ولا يمنع من نكاح أمّه وأخته و ذوات المحارم إذ كان لا يعرفهن ولأنّه يرى و يعقل حين الولادة من أمّه ما لا يحلّ له أن يراه ، فمن تفكّر في هذه الأمور و غيرها علم أنّ ذلك من تدبير اللّطيف الخبير التّذي أقام كلّ شيء من الخلقة على غاية الصواب و أشار إلى الثاني بقوله (ثم لتبلغوا) قيل : متعلّق بمحذوف أي ثم يبيّحكم لتبلغوا (أشدكم) أي كمالكم في القوّة و العقل ، جمع الشدّة كالأ نعم جمع النعمة و هو حدّ التكليف ووقت الشباب و كمال النشو الذي يكون القوى فيه أقوى من سائر أوقات العمر و يستمر إلى أوان شروع تلك القوى في الانحطاط وأشار إلى الثالث بقوله (ثم لتكونوا شيوخاً)

و هو حد ينتهي إليه الشباب ويتوجه الباطن بسبب حدوث قوة أخرى من نوع آخر فيه إلى عالم الآخرة فيظهر أثر من آثار الضعف فيه و يتزايد على التدرج إلى أوان الفراغ من هذه الدار الغانية (ومنكم من يتوقى من قبل) أي من قبل الشيخوخة أو الأشد ، و منشأ الموت عند الأطباء والطبيين أن الحرارة الغريزية التي هي آلة للطبيعة في أفعالها كالجذب والدفع والهضم وغير ذلك ، و لذلك قيل: إنها كدخلاء البدن تفنى الرطوبة الغريزية شيئاً فشيئاً ثم تفنى هي بفناء الرطوبة كما أن النار تفنى الدهن ، ثم تنطفئ بانتفائه . و قيل : منشأ أن النطفة التي هي مادة البدن جسم مركب ذو نضج تام إذ وقع هضمه في خمس مراتب : أربعة منها لأن يصير الغذاء جزء من بدن المتغذي (١) والخامسة لأن يصير مادة لتكون المثل فإن المادة المنويّة فضلة الهضم الرابع ، وإذا وقعت في أوعية التوليد كالخصية

(١) للهضم عند الأطباء مراتب أربع: الأول الهضم في المعدة فيصير الاغذية به كيلوساً أي مادة شبيهة بباء الكشك الخجين . والهضم الثاني في الكبد وبه ينتقل الكيلوس من طريق وريد الباب والعروق الماسار يقاوية إلى الكبد فينطبخ فيه ويصير كيلوساً . والهضم الثالث في الاوردة لان الدم الحامل للغذاء اذا خرج من الكبد الى الوريد المسمى بالاوجوف و انشعب الى العروق الصفار والرواضع والعروق الشعرية ينطبخ فيها و يتبدل ماهيته بخروج مالا يناسب التغذية منه . والهضم الرابع في نفس الاعضاء لان الدم له طبيعة واحدة يجرى الى كل عضو من لحم وعظم وشحم وعصب ويحمل اليها غذائها فيتصرف كل عضو في هذا الدم و يغيره الى صورته وطبيعته فيصير الدم في العظم عظماً وفي اللحم لحماً الى غير ذلك وكل هضم من هذه الهضوم الاربعة فضلات يضر وجوده في بدن الانسان فوكل الله تعالى بعظيم حكمته قوة دافعة تخرجها عنفا فتخرج فضلة الهضم الاول من طريق الامعاء و فضلة الهضم الثاني من طريق الكلى والمثانة بالبول والمرارة والطحال و فضلة الهضمين الثالث والرابع من طريق مسام البدن بالعرق والالوساخ و بالتنفس و مثل ذلك والنطفة من فضلات الهضم الرابع الا انها ليست مما يضر اجتماعه في البدن بل يمكن ان تحتبس في وعائه وتنجذب في البدن ولا يتضرر البدن بها بخلاف البول مثلاً. (ش)

استحالت نطفة بهضم خامس، ثم يزيد مقدارها بمرور الغذاء عليها بدلاً مما يتحلل منها، وليس حكم هذا الوارد في الاعتدال والنضج حكم ما ينقص منها بالتحليل، فمادام شيء منها باقياً في البدن كانت الحياة باقية و نسبة القوة والضعف على نسبة ما بقي منها زيادة و نقصاناً و إذا تحللت بالكلية تحقق الموت، وهذا قريب مما قيل من أن الموت طبيعي ومعناه أن الإنسان عند نشأة منه تعالى يتوجه بحسب الغريزة الفطرية والأشواق الإلهية نحو النشأة الآخرة و يسلك سبيله تعالى ليرجع إليه كما نزل منه فهو متحرك دائماً على منازل و مراحل من طور إلى طور في دار البلية ودار الفراق إلى أن يبلغ تلك النشأة التي هي منتهى حركته في هذه الدار، فإذا بلغها انتقل إليها وأوائلها القبر والبرزخ والحشر والنشر والعرض والحساب إلى غير ذلك، ثم بعد ذلك يرجع إلى النعيم مقيم أو إلى عذاب أليم يفعل الله ما يشاء ويحكم ما يريد (و لتبلغوا) متعلق بمحذوف أي يفعل ذلك لتبلغوا (أجلاً مسمى) قيل: هو وقت الموت أو يوم القيمة، و قيل: يحتمل أن يراد به وقت لقاء الله تعالى في الجنة الذي هو الغاية الأخيرة لخلق الإنسان (ولعلكم تعقلون) ما في هذه الأحوال العجيبة والأطوار الغريبة من العبر والحجج الدالة على أنه سبحانه هو الذي خلقكم على أطوار مختلفة و خلق مادّكم و أصولكم من الأشياء المذكورة و أودع الحياة فيها وأبدعها، ثم أبقاكم إلى أجل مقدّر و إن من كان قادراً على ذلك فهو قادرٌ على جميع تلك المواد و إحيائها ثانياً فالآية الكريمة دليل على التوحيد و البعث جميعاً. و قيل: معناه لعلكم تصيرون بعد هذه الأحوال عاقلاً كاملاً بالفعل فيكون إشارة إلى أن غاية الخلقة و آخر النشأة والأطوار هي صيرورة الإنسان جوهرأ عقلياً (١) والحاصل أنه إشارة إلى أن غاية هذه الأكوان وجود العقل و ذات العاقل مع قطع النظر عن تعقله (و قال إن في اختلاف الليل

(١) قوله «جوهراً عقلياً» هذا تصديق منه بوجود العقل الجوهري كما سبق منه

أيضاً و أنه غاية الإنسان ولا ينافيه ما مر منه آنفاً بأن غايته أن يرجع إلى نعيم مقيم أو عذاب أليم. (ش)

والنهار وما أنزل الله من السماء من رزق (أي من ماء و إطلاق الرزق على الماء من باب الحقيقة بالنظر إلى تفسيره لغة وعرفاً قال الجوهري : الرزق ما ينتفع به . وقالت الأشاعرة : هو كل ما ينتفع به حي غذاء كان أو غيره حالاً كان أو حراماً ومنهم من خصه بالأغذية والأشربة فيخرج نحو الملباس والهواء الذي ينتفع به المتنفس . وقالت المعتزلة : هو كل ما صح أن ينتفع به حي بالتغذي وغيره وليس لأحد منعه منه فيخرج الحرام فالماء رزق على هذه التفاسير لأنه مما ينتفع به ويحتمل أن يكون من باب المجاز تسمية السبب باسم المسبب ، ويؤيده قول الجوهري وقد يسمى المطر رزقاً ، وذلك قوله عز وجل : « وما أنزل لكم من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها » « وفي السماء رزقكم » وهو اتساع في اللغة كما يقال : التمر في قعر القلب يعني به سقى النخل (فأحيا به الأرض بعد موتها) الظاهر أن المراد بالأرض والرزق معاً الحقيقي ويحتمل أن يراد بالأرض القلب لأشترأهما في قبول الحياة والرزق العلم لأشترأهما في السببية للحياة . قال ابن الأثير في النهاية : الأوراق نوعان ظاهرة للأبدان كالأقوات و باطنة للنفوس والقلوب كالمعارف والعلوم وقد شاع في القرآن العزيز و كلام الحكماء نسبة الحياة بالعلم والموت بالجهل إلى القلب (وتصريف الرياح [والسحاب المسخرين السما والأرض] (١) آيات لقوم يعقلون) أي يفهمون تلك الآيات بعقولهم الصافية ويستدلون بها على وجوده جل شأنه ووحدته وعلمه وقدرته وحكمته ، وقد ذكرنا سابقاً ما يناسب هذا المقام وقال : « يحيى الأرض بعد موتها قد يسألكم الآيات لعلكم تعقلون » (وقال و جنات) جمع جنة وهي البستان سمى بها لاجتنانه و استتاره بالأشجار والأغصان والأوراق وهذا التركيب دل على الاستتار ومنه الجن لاستتاره من الانس والجنون لأنه يستر العقل والجنين لأنه مستور في الرحم والمجنة والجنة بمعنى الترس لأنه يستر صاحبه وهي بالرفع عطف على « قطع » في

قوله تعالى « و في الأرض قطع متجاورات » أي بعضها طيبة و بعضها سبخة و بعضها رخوة و بعضها صلبة و بعضها حجر و بعضها رمل و بعضها أبيض و بعضها أسود و بعضها أحمر و بعضها أصفر و بعضها معدن للجواهر المختلفة مثل الياقوت والعقيق والزبرجد والفيروزج والزمررد والذهب والفضة والنحاس والرصاص والحديد و غيرها مما يستعمله الناس في مآربهم و في هذا أيضاً دلالة على المطلوب لأن انقسام الأرض إلى هذه الأقسام و اتصافها بهذه الأوصاف مع اتحاد الطبيعة الأرضية في تلك الأقسام وتساوي الأجرام العلوية وأوضاعها بالنسبة إليها دل على وجود قادر مختار يوجد الأشياء الممكنة على وجه دون وجه (١) بلا ضد ولا ند له وحده لا شريك له (من أعناب وزرع و نخيل) أفرد الزرع لأنه في الأصل مصدر و

(١) قوله «على وجه دون وجه» من تدبر في خلق العالم والحكم والمصالح فيه و اتقان الصنع في كل شيء يراه من هذه المواليد علم أن الأمر ليس على ما يظنه المعطلة والملاحدة و أصحاب الطبائع و ليس هذا الأحكام والاتقان في الصنع حاصل بالبحث والاتفاق كما كان عليه ديمقراطيس من القدماء و كثير من الافرنج والمتفرنجة في عصرنا فان هذه المواد والعناصر التي يتركب منها الانسان والحيوان والنبات وسائر الاجسام ذوات الخواص يمكن أن تتركب على أنواع كثيرة يلحق بغير المتناهي لكثرتها والمفيد الموجود منها واحد من آلاف الملايين، مثلاً كل واحد من اللحم والعظم في كل عضو من بدن الانسان والحيوان مركب من عناصر خاصة على نسبة خاصة لا يحصل لمن أقل منها ولا من أكثر وليس اختيار واحد من انحاء التراكيب الغير المتناهية الا من فاعل حكيم عالم بكل شيء لو ادعى صاحب مطبعة أراد طبع كتاب من الحروف المصنوعة أنه ملأ بيتاً معيناً من ألف ألف حرف من الهمزة الى الياء غير مرتبة بل ممزوجة مختلفة و أمر عاملاً أعنى و دخل البيت و جمع من الحروف و رتبها كما يريد صاحب المطبعة و طبع كتاباً خاصاً فقبول دعواه مع كونه محالاً أسهل من قبول دعوى الفيلسوف الطبيعي الذي يرى تركيب أعضاء حيوان من الطبقة السفلى كالخراطين و البراغيث من عناصر كيف اتفق بيد طبيعة عمياء فكيف بسائر المواليد والانسان خاصة ولا يلزم من ذلك القول بالارادة الجزئية الحادثة في ذات المبدء بتأثير العمل الممكنة كما يدعيه قدماء المتكلمين و للبحث في ذلك محل آخر (ش).

النخيل اسم جمع وهما إما مرفوعان معطوفان « على جنات » أي في الأرض قطع متجاورات و جنات من أنواع الاعناب و فيها زروع ونخيل. أو مجروران معطوفان على « أعناب » أي في الأرض بساتين مشتملة على أنواع الاعناب والزروع و النخيل و (صنوان) أي نخلات أصلها واحد ، جمع صنو و هو أن تطلع نخلتان من عرق واحد و منه الصنو بمعنى المثل كما في قولهم عم الرجل صنو أبيه أي مثله لأنهما خرجا من أصل واحد (و غير صنوان) أي نخلات متفرقات مختلفة أصولها وعروقها، وقرأ حفص بضم الصاد فيهما وهي لغة تنميم (يسقى بماء واحد) في الطبيعة و الصورة والغرض من ذلك دفع توهم اسناد هذا الأمور و الاختلاف إلى الماء و يسقى بالتذكير في قراءة عاصم و يعقوب وابن عامر على تأويل ما ذكر (ونفضل) بالنون في القراءة المشهورة و بالياء في قراءة حمزة و الكسائي (بعضها على بعض في الأكن) أي في الثمر شكلاً و قدراً و رائحة و طعماً كما هو المشاهد (إن في ذلك) المذكور (لآيات لقوم يعقلون) أي يستعملون عقولهم السليمة عن شوائب النقص بالتفكر فيها و يستدلون بها على وجود الصانع الحكيم القادر المختار ، فإن من تفكر في تلك الأشجار المختلفة في الهيئة والمقدار و خروجها من الأرض و اغذائها من أجزاء أرضية و نموها و في أوراقها المشتملة على العروق الصغار والكبار لاستقامة الحجم و وصول الغذاء إلى جميع الأجزاء و في أثمارها حين كونها بمنزلة الجنة في بطونها ثم خروجها بعد استكمال المواد واستقرارها على رؤس الأنصان و انضفاف ما ينميها آنفاً فآنفاً إليها من المنافع الضيقة إلى وقت بلوغها حد الكمال لمنافع الناس و غيرهم و في اختلاف أنواعها و أصنافها و أشكالها و أقدارها و روائحها و طعومها و في أن الطبيعة الأرضية مع اتحادها و عدم شعورها لا يمكن اسناد هذه الأمور إليها و كذا الطبيعة المائية ، و في الأوضاع الفلكية والاتصالات الكوكبية و تأثيرات الأجرام السماوية نسبتها إليها متساوية متشابهة سيما القطعات المتجاورات علم أن ذلك من تدبير عليم بصير و قدير حكيم خبير يتعلق قدرته بجميع الممكنات و يحيط علمه بكيفية

نظام جميع الكائنات فيوجب كلاً منها على أحسن وجه وأكملها على حسب الإرادة والاختيار (وقال ومن آياته يريكم البرق) الفعل مصدر بتقديره «أن» أوصفة لمحذوف أي آية يريكم بها البرق (خوفاً) من الصاعقة أو تخريب المنازل و الزُّرُوع أو من المسافرة ونحوها (وطمئناً) في الغيث والنبات وسقي الزُّرُوع وغير ذلك و نصبهما على العلة لفعل لازم للفعل المذكور فإن ادانتهم يستلزم رؤيتهم أو لفعل مذكور بتقدير مضاف أي إرادة خوف و طمع أو بتأويل الخوف والطمع بالآخافاة والاطماع ، و على التقادير يتحد فاعلهما و فاعل عاملهما أو على الحال مثل كلمته شفاهاً . وأما البرق آية من آياته فإمّا لأنّ البخار الممتزج مع الدخان إذا وصل إلى الكرة الزمهريرية يحتبس فيما بين السحاب فيميل إلى السفلى للثقل وغلبة البرد أو إلى العلوّ لبقاء سخونته وزيادة لطافته فيمزق السحاب تمزيقاً عنيفاً فيحصل الرعدو يشتعل الدخان بالتسخين الحاصل من المصاكة العنيفة فإن كان لطيفاً ينطفي سريعاً و هو البرق و إن كان كثيفاً لا ينطفي حتّى يصل إلى الأرض و هو الصاعقة . أو لأنّ السحاب فيه كثافة و لطافة بالنسبة إلى الهواء و الماء و إذا هبت ريح قويّة تخرقه بعنف فيحدث صوت الرعد و يخرج منه النار للمصادمة بينهما كما تخرج من ضرب الحديد على الحجر ولاخفاء في أن خروج البرق الذي هو نار محرقة من السحاب الرطب المشتمل على الماء لأيّ سبب كان دلّ على وجود الصانع الذي رتب المسببات على أسبابها و آياته من آياته و نقل عن العترة الطاهرة « أن الرعد صوت ملك يزجر السحاب ويسوقه والبرق نار تحدث من حركة سوطه (١) » و قال بعض العارفين : من سمع هذا الصوت و رأى هذه النار و كان له رؤية قلبية و بصيرة ذهنيّة علم أنّ ما نقل عنهم عليه السلام حق و صدق (٢) (و ينزل) قرى . بالتشديد (من السماء ماء فيحيى به الأرض بعد

(١) راجع بحار الانوار ج ١٤ ص ٢٧٥ الى ٢٨٠ .

(٢) « قوله حق و صدق » ويقول اهل عصرنا ان الرعد والبرق من القوة الكهربائية في طبقات السحاب والشارح جمع بين السبب المادى والعلّة الفاعلية الروحانية اذ

موتها) بأنواع النباتات والحيوانات (إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون) أي يفهمونها
و يتدبرون بها في استنباط أسبابها و تكونها ، و كيفية ربطها بذلك الأسباب
ليظهر لهم كمال قدرة الصانع و حكمته و علمه بحقائق الأمور خفيها و جليها .
و قال (قل تعالوا) أمر من تعالون قال القاضي و صاحب الكشف : هو من الخاص
الذي صار عاماً فإن أصله أن يقوله من كان في مكان عال لمن هو أسفل منه ثم
اتسع فيه بالتعميم (أتلى) مجزوم بشرط مقدر بعد الأمر (ما حرّم ربكم) منصوب
بأتل «و ما» إما موصولة والعائد محذوف أو مصدرية ويحتمل أن يكون استفهامية
منصوبة بحرّم بمعنى أتلى أي شيء حرّم (عليكم) متعلق بأتل أو حرّم على سبيل
التنازع (أن لا تشرّكوا به شيئاً) «أن» ناصبة «ولا» للنفي والجملة خبرية لفظاً و
إنشائية معنى بدلاً من «ما حرّم» أو من العائد المحذوف ، و يحتمل أن يكون مفسّرة
لما حرّم ولا للنهي (و بالوالدين إحساناً) أي و أن تحسنوا بمعنى أحسنوا أو
أحسنوا بالوالدين إحساناً ، فالجملتان المتعاطفتان إنشائيتان معنى فقط ، أو لفظاً
و معنى جميعاً ، أو الأولى معنى فقط والثانية لفظاً و معنى ، أو بالعكس ويكونان
في بعض الوجوه مثل قوله تعالى « و إذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل لا تعبدون إلا
الله و بالوالدين إحساناً و ذي القربى واليتامى والمساكين و قولوا للناس حسناً »
فإن لا تعبدون بمعنى لا تعبدوا و بالوالدين بتقدير و تحسنون بهما بمعنى أحسنوا
أو بتقدير و أحسنوا بهما . وفي جعلها خبريتين لفظاً و إنشائيتين معنى فائدة
لطيفة وهي المبالغة باعتبار أن المخاطب كأنه شرع في الامتثال وهو يخبر عنه ورد صاحب
الكشاف أن يكون «أن» ناصبة «ولا» للنفي بأنه وجب أن يكون « لا تشرّكوا »
نهيًا لعطف الأمر عليه و هو قوله تعالى « و بالوالدين إحساناً » لأن التقدير و

لا يخالف أحدهما الآخر والسبب المادي ، عند نظير تأثير الحرارة في ذوب الحديد والعلة
الفاعلية هو الله تعالى والملائكة المقربون مأمورون بنظر الصانع الماهر الذي يصنع من الحديد
المذاب بالحرارة آلات الصنعة والمكانين و غيرها والحرارة علة معدة والفاعل للآلات
هو الصانع (ش)

أحسنوا بالوالدين إحساناً. والجواب عنه يظهر بالتأمل فيما ذكرناه ، بقي ههنا شيء وهو «أن لا تشركوا» وما عطف عليه لا يصح أن يجعل تفسيراً لما حرم لأن كلاً من ترك الشرك والاحسان بالوالدين واجب لا محرم ، والجواب أن إيجاب ترك الشرك مستلزم لتحريم الشرك وإيجاب الاحسان بالوالدين مستلزم لتحريم الإساءة إليهما مع ما فيه الإشارة إلى أن ترك إساءتهما غير كاف بل لابد من الاحسان بهما والتفسير باعتبار اللازم . وفي ذكر الاحسان بهما عقيب النهي عن الشرك بالله دلالة واضحة على جلاله حق الوالدين على الولد لأن أعظم النعم على الإنسان نعمة الإيجاد ونعمة التربية و للوالدين مدخل في كل واحد منهما كما يقتضيان عدم الشرك بالله كذلك يقتضيان عدم إساءتهما والاحسان بهما و لذلك قال الله سبحانه وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً. الآية ، (ولا تقتلوا أولادكم من إِملاق) أي من أجل فقر (نحن نرزقكم وإياهم) فوجب على الوالدين تربية الأولاد و تربيتهم والاتكال في رزقهم على الله ، لا يقال : يلزم جواز قتلهم عند عدم خوف الفقر لما تقرّر من أن النفي والاثبات في الكلام راجعان إلى القيد لأننا نقول إذا لم يجز مع الفقر فعدم جوازه بدونه أولى فهذا من قبيل التنبيه بالأدنى على الأعلى على أن للتقييد فائدة أخرى هي زجرهم عما كانوا عليه من الخصلة الذميمة (ولا تقربوا الفواحش) في النهي عن قربها مبالغة في المنع منها (ما ظهر منها وما بطن) بدل من الفواحش ، قيل : المراد بها الزنى سرّاً وعلانية : وقيل الكبائر مطلقاً (ولا تقتلوا النفس التي حرم الله) لما نهى أولاً عن قتل الأولاد لعلّ المذكورة نهى ههنا عن القتل مطلقاً دفعاً لتوهم الاختصاص إن قلت : قتل النفس المحرمة داخل تحت الفواحش على تقدير عمومها فما الفائدة في ذكره على حدة ؟ قلت : الفائدة هي الإشارة إلى تعظيمه وزيادة فظاعة عقوبته كما قال سبحانه «و من قتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها» (إلا بالحق) كالقود و قتل المرتد و رجم المحصن وغيرها مما ثبت جوازه بدليل منفصل ، والاستثناء متصل إن كان عن القتل المطلق و منقطع إن كان عن القتل المقيد بالتحريم ، هذا وقال سيد الحكماء

لعلّ معناه : ولا تميّتوا النفس المجردة التي حرّم الله موت ذاتها بالجهل .
وهو أعظم داهية من موت بدنّها بهلاك الرّوح الحيواني إماتة الجهالة والغواية
والاضلال و الابتعاد عن سمت الرّشد و سبيل القدس ، ولا تخرجوها عن حياة
جوهرها الحقيقية بالعلم والمعرفة إلّا بحقّ سوء استعدادها الفطري ونقص جبلتها
الغريزي (ذلكم) إشارة إلى ما مرّ ذكره مفصلاً (وصيّكم به) أي بحفظه و رعايته
ولا يخفى ما في التعبير عن التكليف بالنوصية من اللّطف المقرب إلى القبول
(لعلكم تعقلون) فوايد هذه التكاليف و تبصرون بعيون البصائر منافعها المترتبة
عليها في الدّنيا والآخرة ، فانظروا أيّها اللبيب كيف مدح الله سبحانه العقل والعقلاء
الذين هم الغايات الذاتية للايجاد بما لهم من الحكمة النظرية (١) التي هي إدراك
السموات والأرض و ما بينهما من الأمور المذكورة والتّصديق بأحوالها والانتقال
منها إلى مبدعها ، وفي هذه الآية بما لهم من الحكمة العملية التي هي العلم
بأصول الشرايع وقوانينها والعمل بها للإشارة إلى أن كمال الانسان إنّما يحصل
بتكميل القوّة النظرية بصور الحقائق وتخليها بنور العرفان وتكميل القوّة
العملية بمعرفة الشرايع وتخليها عن الرّذائل والنقصان ليحصل له بذلك البهجة
والسرور الدّنيويّة والفوز بالسعادات الأبدية الأخرويّة (وقال: هل لكم) هذا

(١) الحكمة هي العلم بأحوال الوجود بقدر الطّاقة البشرية وقسموها الى ما يبحث

عن الموجودات التي ليست بقدرتنا واختيارنا، وإلى ما يبحث عن الموجودات التي هي
بقدرتنا وهي أعمالنا والاولى هي الحكمة النظرية والثانية الحكمة العملية . والحكمة
النظرية تنقسم الى الرياضى والطبيعى والالهى ، والرياضى آلة أو مقدمة لساير العلوم
والعملية تنقسم الى الاخلاق و تدبير المنزل و سياسة المدن ، والوجه الذي يرغب به في
تعلم العلوم الطبيعية التوسل بها الى معرفة الله تعالى فالطبيعى أيضاً مقدمة للعلم الالهى و
بالجملة فالطبيعى ينقسم الى سماع الكبان و علم العناصر والمواليد الثلاثة و كائنات الجو
وعلم الافلاك و علم النفس وأشار الى جميعها فيما مر من الايات الكريمة وان الحكمة علم
مرغوب فيه ونبه عليه الشارح - رحمه الله - «ش»

بعض آية صدرها «ضرب لكم مثلاً من أنفسكم هل لكم» أي منتزعاً ذلك المثل من أحوال أنفسكم التي هي أقرب الأمور إليكم فالاعتبار بحالها أولى وأقرب من الاعتبار بحال غيرها وإنما لم يذكره ^{لأن} ما ذكره لكونه مثلاً لا يحتاج إليه ويتم المقصود بدونه وفيه دلالة على جواز الاستشهاد ببعض آية أو بعض حديث إذا كان تام الفائدة والمطلوب نفى شريك الباري، وهو كما يثبت بدلائل عقلية ونقلية توجب انتقال النفس من معقول صرف إلى معقول وإذ عانها بها كما مر من الآيات والبيانات الظاهرة . كذلك يثبت بالأمثال الجزئية المحسوسة لأنها تكشف الممثل له وترفع الحجاب عنه وتبرزه في صورة المشاهد المحسوس ليساعد فيه الوهم والعقل ويتفقا عليه فإن المعنى الصرف إنما يدركه العقل مع منازعة الوهم لأن الوهم من طبعه الميل إلى المحسوس وحكاية المعقول به، ولذلك شاعت الأمثال في الكتب الالهية وفشت في عبارات البلغاء وإشارات الحكماء وكتب المصنفين مشحونة بذكر الأمثلة الجزئية لأن أكثر الافهام قاصرة عن إدراك حقيقة الشيء إلا في مادة مخصوصة محسوسة (مما ملكت إيمانكم) يعني عبیدکم و إيمانکم (من شركاء) «من» زائدة لتأكيد الاستفهام الجاري مجرى النفي (فيما رزقناكم) من الأموال (فأنتم فيه سواء) متفرع على الشركة وحمله على الاستفهام الإنكاري محتمل أيضاً (تخافونهم كخيفتكم أنفسكم) حال عن «أنتم» أو عن ضمير المخاطبين في «رزقناكم» أي وال حال أنكم تخافون من شركة مما لي بكم في أموالكم واستبدادهم بالتصرف فيها كما يخاف الأحرار بعضها من بعض في ذلك، والاستفهام ليس محمولاً على الحقيقة لأنه على الله سبحانه محال فوجب صرفه إلى المجاز وهو إما إنكار أن يكون مما لي بكم شر كأوهم في ملكهم لينتقلوا من ذلك إلى أنه لا ينبغي أن يكون مملوكه سبحانه شريكاً له بالطريق الأولى أو تقريرهم وحملهم على الإقرار بما يعرفونه من عدم شركة الممالك لأن الاستفهام عن أمر معلوم للمخاطب يستلزم حمله على الإقرار بما هو معلوم له أو استبعاد أن يكون مما لي بكم شر كأوهم لأن الاستفهام عن الشيء يستلزم به وهو يناسب استبعاد وقوعه لأن ما هو قريب الوقوع شأنه أن

يكون معلوماً و المقصود على التقادير كلها هو أنه إذا لم يكن مماليتكم مع نقصانكم و شدة حاجتكم شركاءكم فيما لكم من أموالكم مع أنهم مثلكم في الصورة والسيرة و قابلية التصرف لا يكون مماليتك الحقّ جلّ شأنه مع شدة ضعفهم و كمال نقصهم شركاءه في الالهية واستحقاق العبادة مع كمال قدرته و نهاية عظّمته و عدم المشابهة بينه و بينهم بالطريق الأولى (كذلك) أي مثل ذلك التفصيل التمثيل الذي يرفع الحجاب و يكشف المعاني و يوضحها (نفصل الآيات) الدالة على وحدة الصانع و استحقاقه للعبادة دون غيره (لقوم يعقلون) أي يستعملون عقولهم الصحيحة في تدبّر الأمثال ومعرفة حسن موقعها و مضربها والانتقال منها إلى المقصود ، و فيه دلالة واضحة على شرف العقل وتعظيم العقلاء حيث جعل العقل باعناً لتفصيل الآيات في الكتاب والعقل مقصوداً من التكلم والخطاب لأنّه يستفيع به دون غيره فلو لم يكن عقل ولا عاقل لم يكن تفصيل ولا خطاب بل لم يكن كون و لا مكان ولا إيجاد ولا زمان .

(يا هشام ثمّ وعظ أهل العقل) و زهدهم عن الدنيا (ورغبهم في الآخرة) بعد دلالتهم على توحيد الذات والصفات بالآيات والبيّنات (فقال: وما الحياة الدنيا إلاّ لعبٌ ولهو) شبه القلب في الدنيا والأعمال المختصة بها باللعب واللهو ساعة قليلة لا شترأ كهما في الإتعاب بالامتنعة و في المنع عما يورث منفعة أبدية ولذة حقيقية من الأعمال للآخرة (وللدار الآخرة) خيرٌ من الدار الدنيا لعدم زوالها ودوام منافعها ولذاتها بخلاف الدنيا وذلك لأنّ الحقيق الدائم خيرٌ من العظيم المنقطع فكيف إذا كان الأمر بالعكس (للذين يتّقون) من الشرك والمعاصي ، أو من الدنيا وزهرتها و أعمالها الشبيهة باللهو واللعب (أفلا تعقلون) التفاوت بين الدنيا والآخرة ولا تعلمون أنّ الآخرة خيرٌ من الأولى أو التفاوت بين أعمالها ولا تعلمون أنّ أعمال الأولى بمنزلة اللهو تعب بالامتنعة ، و أعمال الثانية تورث منفعة دائمة غير منقطعة، و الهمة للإنكار وإنكار النقي إثبات والمعنى أنتم تعقلون هذا التفاوت فوجب عليكم أن لا تستبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير والغرض من الآية ذكر فضيلة

(٦) أى عدة المدعى لابن فهد الحلبي - رحمه الله - .

عليه و دلّ عليه أيضاً روايات أخر، ثم التقوى خصلة عظيمة أوصى الله سبحانه بها الأولين والآخرين كما قال «ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإيّاكم أن اتّقوا الله» و أثنى عليها كما قال : «و إن تصبروا و تتّقوا فإنّ ذلك من عزم الأمور» وهي توجب حفظ النفس والمال من الأعداء كما قال : «و إن تصبروا و تتّقوا لا يضرّكم كيدهم شيئاً» وتوجب النصر من الله تعالى كما قال : «إن الله مع المتّقين» و توجب محبته كما قال : «إن الله يحب المتّقين» و توجب إكرامه كما قال : «إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم» و توجب إصلاح العمل كما قال : «يا أيّها الذين آمنوا اتّقوا الله و قولوا قولا سديداً يصلح لكم أعمالكم» و توجب قبول العبادة كما قال : «إنّما يتقبل الله من المتّقين» و توجب البشارة عند الموت كما قال «الذين آمنوا و كانوا يتّقون لهم البشري في الحياة الدّنيا و في الآخرة» و توجب النجاة من شدايد الدّنيا و الرزق الحلال كما قال : «ومن يتّق الله يجعل له مخرجاً و يرزقه من حيث لا يحتسب» و توجب تيسير الحساب كما قال : «و ما على الذين يتّقون من حسابهم من شيء» و توجب النجاة من النار كما قال : «ثمّ ننجيّ الذين اتّقوا» و توجب الخلود في الجنة كما قال : «أعدت للمتّقين» و بالجملة هي حكمة عمليّة مركبة من العلم و العدل و توجب محبة صاحبها الله تعالى و محبة الله تعالى لصاحبها و لا تحصل إلّا بمعرفة مصالح الجوارح و الأعضاء و مفاسدها و اكتساب الأوّل و ترك الثاني و ذلك بأن يعرف مثلاً مصالح القلب و مفاسدها و يكتسب العقائد الصحيحة و يجتنب عن العقائد الذميمة و يعرف مصالح النّسان و مفاسده و يكتسب الأقوال الصحيحة و يجتنب عن الأقوال الباطلة و على هذا القياس في سائر الأعضاء و لا يكفي العمل بدون العلم لأنّه يوجب الخطأ و البعد عن الحقّ كثيراً ممّا؛ و لا العلم بدون عمل فإنّ من به داء و علم أنّ هذا الدّواء ينفعه و ذلك يضرّه و استعمل الثاني و ترك الأوّل لا ينفعه علمه بل يصير سبباً لزمّه و لو لمه عرفاً و شرعاً بل اللّوم عليه أشدّ و أعظم من لوم الجاهل بمنافع الدّواء و مضاره ، كما يرشد إليه قول مولانا الصادق عليه السلام : يغفر للجاهل سبعون ذنباً قبل أن يغفر للعالم

ذنب واحد (٢).

إذا عرفت هذا فانظر إلى العقل كيف فضله الله تعالى وشرّفه حيث جعله حاكماً على أفعال جميع الجوارح والأعضاء يميز بين صحيحها و سقيمها و حسنها و قبيحها ، يقبل الصحيح والحسن ويردّ السقيم والقبيح حتى يحصل له بذلك السلطنة العظمى والفضيلة الكبرى وهي الوصول إلى غاية مدارج الزهد و نهاية مناهج التقوى ، فيمشي على بساط الحق في الآخرة والأولى . وإلى العاقل كيف عظّمه و كرّمه حيث جعله مخاطباً بهذا الوعظ الشريف والخطاب المنيف تنبيهاً على تمامه و كماله و إنافه رتبته وحاله و على أنه يمتنع به دون غيره ممن صار لقوّة جهله و ضعف عقله ذليلاً و في عدم صلاحية الخطاب كالأنعام بل هو أضل سبيلاً .

(يا هشام ثمّ خوف التّدين لا يعقلون) أى خوف التّدين لا يستعملون عقولهم في الاتعاظ بأحوال الماضين والاعتبار من استيصالهم للشرك وارتكاب المعاصي والقبايح ولا يتبعون الرّسول فيما جاء به من التوحيد والصفات وغيرهما من المعارف و الشرايع (عقابه) بتدمير أمثالهم و إنزال الرّجز عليهم من السّماء ليمنّوا عن الأعمال الشنيعة والأفعال القبيحة (فقال عز وجل ثمّ دمرنا الآخرين) بعد تنجية لوط وأهله إلا أمرأته فإنّها كانت من الغابرين ، وكيفية تدميرهم أنّه اقتلع جبرئيل عليهم السلام قريتهم لسوء صنيعتهم بجناحه من سبع أرضين ومعه من الملائكة ميكائيل وإسرافيل و كروبيل ثمّ رفعها حتى سمع أهل السماء الدّنيا نباح الكلاب و صياح الديكة ، ثمّ قلبها و أمطر عليها وعلى من حولها حجارة من سجيل (وإنّكم) يا أهل مكّة أو أهل الضلالة (لتمرون) في مناجرتكم و مسافرتكم إلى الشام (عليهم) أى على منازلهم فإنّ قريتهم وهي سدوم بفتح السين في طريقه بين القدس والكرك (مصبحين) أي داخلين في الصباح (وبالليل) أي بالمساء . يعنى داخلين في هذا الوقت أو نهاراً وليلاً . قال القاضي وغيره : لعلّها وقعت قريب منزل يمرّ بها المرتحل عنه صباحاً والقاصد لها مساءً (أفلا تعقلون) أي أفليس لكم عقل تعتبرون

به و تعلمون أن تدميرهم و إهلاكهم لمعصية ربهم و مخالفة رسولهم لكي تطيعوا ربكم و تتبّعوا رسولكم فيما جاء به من التوحيد والشرائع و تتركوا الشرك و المعصية و تنجوا من وبال الدنيا و نكال الآخرة، والآنكار للتوبيخ على عدم استعمالهم العقول في الاعتبار والاستبصار بمثل هذه الآية الجليلة الدالة على وخامة حال أهل المعصية (وقال إنا منزلون) من الانزال على القراءة المشهورة وقرأ ابن عامر بالتشديد (على أهل هذه القرية) هي سدوم قرية قوم لوط عليه السلام وهذا خطاب الملائكة معه بدليل قوله تعالى قبله ولما أن جاءت رسلنا لوطاسي، بهم وضاق بهم ذرعاً و قالوا لانخف ولا تحزن إنا منجّوك و أهلك إلا امرأتك كانت من الغابرين و إنما قدم التنجية على التعذيب لوجوه سنحت لي: الأول أن التنجية من آثار الرحمة والتعذيب من آثار الغضب وقد سبقت رحمته غضبه. الثاني أن بشارته أحد بالنفع العايد إليه أدخل في السرور من بشارته بالضرر العايد إلى عدوه. الثالث أن في التنجية إشارة إجمالية إلى العذاب فإذا وقع العذاب بعده وقع بعد الطلب والواقع بعد الطلب أهم وأوقع في النفس وأدخل في التعظيم. الرابع أن لا يتطرق الحزن إلى خاطره عليه السلام إذ لو قدم تعذيب أهل القرية على تنجية المؤمنين كان ذلك موهماً ابتداء لتعميم العذاب و شموله كل من فيها (رجزاً من السماء) أي عذاباً و اختلفوا فيه فقل: هو حجارة من سجيل، وقيل: هونار، وقيل: هو قلب الأرض وجعل عاليها سافلها والمراد بانزاله إنزال مبدئه والقضاء به من السماء لأعينه (بما كانوا يفسقون) أي بسبب فسقهم و فيه دلالة على استمرارهم فيه و عدم انزجارهم عنه أصلاً، و إنما علل التعذيب بالفسق دون التنجية بالإيمان و نحوه لأن الرحمة بالذات فلا يحتاج إلى التعليل بخلاف الغضب فإنه أمر عرضي نشأ لعلّة (ولقد تركنا منها) أي من القرية (آية بيّنة) دالة على سوء عاقبة الفاسقين، قيل: هي حكايتها الشائعة، وقيل: هي آثار الديار الخربة، وقيل: هي الحجارة الممطورة بعد قلب الأرض فأنها كانت باقية بعده، وقيل: هي الماء الأسود فأن أنهارها

صارت مسودة (لقوم يعقلون) أي لقوم لهم عقل و بصيرة فيستبصرون و يعتبرون أن الفسق يوجب خراب الدنيا و عقوبة الدنيا والآخرة .

(يا هشام إنَّ العقل مع العلم) المراد بالعقل هنا نور يعرف به حقائق الأشياء على ما هي عليه في نفس الأمر وهو العقل بال فعل أو العقل المستفاد ، والعلم هو هذه المعرفة و لا خفاء في التلازم بينهما و عدم انفكاك أحدهما عن الآخر و إنما أكد مع ظهوره دفعاً لتوهم ما هو المتعارف عند الجمهور و حيث يقولون لمن له رؤية و كياسة في أمور الدنيا أنه عاقل فإن تلك الرؤية ليست بعقل بل هي شيطنة و نكراء و ما هو المتعارف عندهم أيضاً حيث يطلقون العقل على الغريزة التي يتميز بها الإنسان به عن البهائم فإن ذلك يتحقق في الصبيان و الجهال مع أنهم معزولون عن المدح و الكمال بل المراد به ذلك النور الذي لا يفارق العلم و العرفان و العقلاء هم العلماء الربانيون و الحكماء الإلهيون (١) الذين قال الله تعالى في شأنهم و يؤتي الحكمة من يشاء و من يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً (فقال و تلك الأمثال) أما مثل سبحانه حال الذين اتخذوا من دون الله أولياء و اتكلموا عليهم و اعتمدوا بهم بحال العنكبوت اتخذت بيتاً في الزهر و الضعف فكما أن الثاني لا يقي الحر و البرد و ينهدم بورود أدنى شيء عليه كذلك الأول لا يدفع حرَّ العذاب عنهم يوم القيمة و لا يقيهم شرَّ ذلك اليوم و لا ينهدم أساسه بالكلية بورود صرصر غضب الله عليهم عقبيه بقوله و تلك الأمثال إشارة إلى المثل المذكور و نظائره من الأمثال المذكورة في القرآن المجيد (نضربها للناس) تقريباً لما بعد من أفهامهم و تفهيماً لما شرد

(١) قوله : (و الحكماء الإلهيون) مدح الحكماء و تعظيم الحكمة لا ينافي ما تقدم منه و ما يأتي في بعض عباراته من تخطئة الفلاسفة لأن الغرض من ذم الفلاسفة المقلدة منهم كما ذكرنا لا الذين يستمعون القول و يتبعون أحسنه . و الحكماء أنفسهم يتبرمون ممن يتناول الحكمة و ليس له باهل و ليس له هم الاحتفاظ الاصطلاح و سباهم الفارابي الفيلسوف البهرج . (ش)

عن أذهانهم إذا المثل يبرز المعقول بصورة المحسوس و ذلك أسهل في التفهيم وأجدر في التعليم لمن ألفت طبعه بالمحسوسات و اشمأز عقله عن المعقولات و لذلك قال سيد المرسلين ونحن معاشر الأنبياء، أمرنا أن نكلم الناس على قدر عقولهم (١) (وما يعقلها إلا العالمون) لأنهم يعرفون بنور بصيرتهم و ضياء سريرتهم حسن مبانيها و لطف معانيها و كيفية ارتباطها بالمقصود و طريق دلالاتها على المطلوب و ينتقلون من ظاهرها إلى باطنها و من محسوسها إلى معقولها بل يجدون عالم المحسوس كله مثلاً لعالم المعقول و يعلمون أن كل صورة محسوسة في هذا العالم لها صورة حقيقية و حقيقة عقلية في العالم المعقول يرشد إلى ذلك ما نقل عن أبي جعفر عليه السلام حين سأله النصراني فقال له : أخبرني عن أهل الجنة كيف صاروا يأكلون ولا يتغوطون أعطني مثلهم في الدنيا فقال عليه السلام : « هذا الجنين في بطن أمه يأكل مما تأكل أمه ولا يتغوط » (٢) وما نقل عن بعض أئمتنا عليه السلام حين سئل عن الأجساد المعادة يوم القيمة هل هي عين الأولى أو غيره قال : لأعينه ولا غيره ، فقبل : أخبرني عن مثله في الدنيا فقال مثل اللبنة المضروبة بقلب مخصوصة فإنها إذا كسرت و ضربت تارة أخرى بذلك القلب ليست عين الأولى ولا غيرها (٣) وبالجملية ما من صورة في الدنيا إلا وله حقيقة في عالم العقول والآخرة (٤) و ما من معنى حقيقي فيهما

(١) الكافي كتاب العقل والجهل - ح ١٥ .

(٢) رواه الراوندي في الخرائج والجرائح ص ١٩٧ في حديث طويل .

(٣) راجع بحار الأنوار المجلد الثالث باب اثبات الحشر و كيفية ص ١٩٠ إلى ٢٠٠ .

(٤) قوله « في عالم العقول والآخرة » ما في عالم العقول و عالم الآخرة حقيقة و ما في الدنيا صورة لها و تلك الحكم والمصالح والجمال التي نراها في الموجودات الدنيوية ليست الا ظلال لوجود حقايقها في ذلك العالم الا ترى أن الخاتم اذا كانت كتابته حسنة جيدة كان النقش الذي يرسم به على القرطاس خطأ حسناً وظل الجسم مثله في الشكل كذلك كل موجود في الدنيا كالنقش في القرطاس من خاتم روحاني ولا يعرف ذلك الا الراسخون في

إلا وله مثال وصورة في الدنيا ولا يعلم ذلك إلا العلماء الراسخون في العلم الناظرون إليها بنور العقل، وأما الجهال فهم الغافلون عن ذلك ولا يعلمون إلا ما هو ظاهر محسوس بل لا يدركون من الظواهر إلا ما يدركه سائر البهائم فأولئك كالأنعام بل هم أضل سبيلاً .

(يا هشام ثم الذين لا يعقلون) مدارك أصول العقائد ولا يفهمون ما نطقت به الشريعة من فروع القواعد (فقال: إذا قيل لهم) الضمير للناس في قوله تعالى: «يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالاً طيباً ولا تتبعوا خطوات الشيطان» على سبيل الالتفات من الخطاب إلى الغيبة للتنبيه على بعدهم عن رتبة الخطاب بسبب سلكهم

في العلم وسائر الناس يملكون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون و أين الطبيعة من نقش ألوان ريش الطاووس لولا أن ذلك عكس ما كس جميل روحاني بدا صورته فيه كشف الغانم و لذلك نقول لا فيج ولا شر في الوجود كما مر، ويتبادر إلى الذهن من هذه العبارة أن عالم المقول وعالم الآخرة واحد في مقابل الدنيا وأن حقيقة واحدة تكون في الدنيا مثلاً وصورة، وفي الآخرة أو عالم المقول معنى حقيقياً وربما يتوهم الجاهل من أمثال هذه العبارات أن فانيها معتقد للمعاد الروحاني فقط دون الجسماني إذ جعل عالم الآخرة عالم عقلياً وأن عالم الأجسام هو الدنيا دون الآخرة وليس مرادهم نفى المعاد الجسماني قطعاً بل الشارح و انرايه قائلون بتجسم الاعمال و المعاني الجردة والاعتقادات في الآخرة كما مر النصريح به منه و سيصرح به أيضاً و تعبيراتهم هنا مبنية على ذلك فأجسام عالم الآخرة باعتبار أن منشأ وجودها هو الاعمال الصالحة و الملكات الحسنة أمر حقيقي معنوي و باعتبار أنفسها أجسام اخروية أيضاً و الأجسام الدنيوية تحفظ حقيقتها و ماهيتها في الآخرة و تبطل عنها صورتها و مثالها الدنيوي كما مثل بالمبنة المضروبة بفالب فإنها إذا كسرت بطلت عنها صورتها الأولى و يبقى حقيقتها و هي الطين فيضرب بصورة أخرى غير الصورة الدنيوية (ش) .

طريق التقليد الذي هو خارج عن منهج الصواب وإنما عقَّب الآية المذكورة بهذا الذم
 للتنبيه على التقليد من جملة خطوات الشيطان (اتبعوا ما أنزل الله) قبل المأمورون
 بالاتباع هم المشركون فالوصول حينئذ عبارة عن القرآن وما اشتمل عليه من
 أصول الشرايع و فروعها ومواعظها و نصائحها مما ينظم به نظام الدنيا والآخرة
 وقيل : هم طائفة من اليهود دعاهم رسول الله ﷺ إلى الإسلام فالوصول على هذا
 يشمل التوراة أيضاً لأن التوراة أيضاً تدعو إلى الإسلام والإقرار بنبيتنا ﷺ و
 بما أنزل الله سبحانه إليه (قالوا : بل نتبع ما ألفينا) أي ما وجدنا (عليه آباؤنا)
 قدم الظرف على المفعول به لقرب المرجع أو لقصد الحصر أو للاهتمام لاشتماله
 على ضمير دينهم الذي هو مستحسن عندهم (أولو كان آباؤهم) الهمة لانكار فعل
 مقدر والتعجب منه والواو للمحال و معناه أيتبعون آباءهم والحال أن آباءهم
 (لا يعقلون شيئاً) من الحق مثل صفات الواجب وأفعاله و كتبه و رسله و ما جاء
 به رسله مما يكمل به نظام الخلق عاجلاً و آجلاً (ولا يهتدون) إليه لعميان
 بصيرتهم و فقدان ضياء سريتهم ويجوز أن يكون الواو للمعطى تلي ذلك المقدر
 و جزاء الشرط محذوف و معناه لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون لاتبعوه
 والآية تدل على وجوب النظر والمنع من التقليد أعني الرجوع إلى الغير والاخذ
 منه بغير بصيرة مطلقاً خرجت الفروع بالإجماع كما قيل فبقيت الأصول مندرجة
 تحت المنع هذا إذالم يعلم ذلك الغير صادقاً محققاً وإما إذا علم كالأنبيا و
 الأوصياء فاتبعه واجب ولا يسمى ذلك تقليداً في العرف بل هو اتباع لما أنزل
 الله ، قيل : وجوب النظر شرعاً محال لأنه لو وجب النظر فأما على العارف وهو
 تحصيل الحاصل أو على غيره و هو دور لتوقف وجوب النظر على معرفة إيجاب الله
 إياه وهي متوقفة على معرفة ذاته وهي متوقفة على معرفة وجوب النظر وأجيب
 بأن معرفة إيجابه متوقفة على معرفة ذاته باعتبار ما وبوجه من الوجوه والمتوقف
 على وجوب النظر هو معرفة ذاته بوجه أتم أقول : هذا لو تم فإنما يتم في وجوب
 النظر على صفاته و أفعاله وآثاره وأما على أصل وجوده فلا ، لأن معرفة إيجابه

متوقفة على معرفة ذاته والتصديق بوجوده كما لا يخفى والأحسن أن يقال معرفة ذاته لا يتوقف على وجوب النظر لجواز حصولها بالنظر وإن لم يجب ومنهم من أوجب التقليد في الأصول و حرم النظر لأن الشبهات في الأنظار كثيرة والنظر مظنة الوقوع (١) في الضلالة وهي في الأصول كفر بخلاف التقليد فإنه أسلم لعدم مشاهدة المقلد تلك الشبهات فوجب لوجوب الاحتراز عن مظنة الضلالة إتفاقاً والجواب أنه إن أريد بالتقليد تقليد أهل العصمة عليهم السلام فلا ينبغي النزاع فيه إلا أن ذلك لا يسمى تقليداً ولكن لامشاحة في الاصطلاح وإن أريد به مطلقاً ففيه أن المظنة

(١) قوله: «مظنة الوقوع في الضلالة» قال العلامة المجلسي في كتاب حق اليقين ما معناه «اختلفوا في أنه يشترط في الإيمان اليقين أو يكفي الظن القوي وأيضاً في أنه يجب أن يكون بالدليل أو يجوز فيه التقليد وهذان الخلافان متقاربان و ظاهر كلام العلامة و أكثر العلماء أنه يجب تحصيل اليقين بالبرهان وبعضهم ادعى الإجماع عليه إلى أن قال في صدر الإسلام كانوا يكلفون الناس بإظهار العقائد و بأمرهم بالطاعات والعبادات ولا يعرضون عليهم دليل الدور والنسب لانه مادة التشكيك ولذلك يرى بعض العباد والزهاد الذين لم يمارسوا تلك العلوم يقينهم أكمل من أكثر المدققين من العلماء الذين صرفوا أكثر عمرهم في الشكوك والشبهات» إلى آخر ما قال. أقول: ولا ريب أن الصحيح ما ذكره المشرح مع أننا لم نر أحداً نقل في كتاب حديث أو تاريخ أو سيرة أن رجلاً من المسلمين في صدر الإسلام اكتفى في إيمان الكافر بالظن على ما ادعاه المجلسي رحمه الله و شعار المسلمين أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله و لفظ أشهد يدل على اليقين ولو قال الكافر اظن ظننا قويا أن الله واحد و اظن أن محمداً (ص) نبي لم يعد مسلماً في عهد و وقت، فالإجماع على وجوب تحصيل اليقين حق والناس مفلطونون على بطلان الدور و التسلسل وإن لم يعرفوا اسمهما ولم يقدرُوا على تقرير دليل بطلانهما لفظاً وإن قال رجل ولدني ابني ضحك منه الناس لأنهم يبطلون الدور ولو قال أنا أملك الأطعمة كلا من الآخر من غير أن يكون لي ملح ضحكوا منه أيضاً والعالم الذي إيمانه أضعف من العوام ليس عالماً البتة بل هو حافظ للاصطلاحات من غير أن يفهم معناها وقد بين المشرح ذلك في شرح المقدمة أتم بيان (فليراجع صفحة ٥٢ وما بعدها) (ش).

أي مظنة الضلالة تجري في التقليد أيضاً لأن المقلد إما يقلد ناظراً أو مقلداً آخر فعلى الأول يلزم المحذور المذكور وهو الوقوع في الضلالة مع زيادة وهي احتمال كذب الناظر في صدور النظر منه ، وعلى الثاني فأمّا أن لا ينتهي سلسلة التقليد إلى ناظر فيلزم التسلسل وهو باطل أو ينتهي فيلزم ذلك المحذور مع احتمال كذب ذلك الناظر بخلاف ما إذا كان هو ناظراً بنفسه فإنه لا يجري فيه هذا الاحتمال لأن الانسان عالم بما أدى إليه نظره فالتقليد أولى وأجدر بأن يكون حراماً (وقال مثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء) هذه الآية في القرآن متصلة بالآية السابقة ولما ذم الكفرة في الآية السابقة بسبب التقليد لأبائهم وعدم متابعتهم لما أنزل الله وعدم التدبر والنظر فيه ضرب لهم مثلاً منضمّاً لتشبيههم بالبهائم في عدم فهم المقصود من الخطاب توضيحاً لسوء حالهم ، فان قلت : الذين كفروا هم المدعوون إلى دين الحق والذي ينعق هو الداعي للبهائم فلا مطابقة بين المشبه والمشبّه به ؟ قلت : للناظرين في هذه الآية اختلاف في تفسيرها وحملها ، فمنهم من قد رضافاً ومنهم من حملها على ظاهرها ، فأما الذين قد روافاً فمفهمهم من قدره في جانب المشبه وقال تقديره ومثل داعي الذين كفروا وهو الرسول ومن يحد وحذوه في إلقاء الخطاب إليهم وعدم فهمهم لما هو المقصود منه وعدم استبصارهم به لانهما كهم في التقليد واستحسانهم دين آبائهم كمثل داعي البهائم الذي ينعق بها وهي لا تسمع إلا دعاءه ونداءه الذي هو تصويت بها ولا تنقف على شيء آخر فقد شبه الكفرة المقلدين في عدم فهمهم لما يسمعون من الرسول بالبهائم التي تسمع الصوت من الراعي ولا تفهم معناه ، ومنهم من قدره في جانب المشبه به وقال : تقديره كمثل بهائم الذي ينعق ، ومعناه مثل الذين كفروا في عدم فهم ما ألقى إليهم من الخطاب كمثل بهائم الراعي الذي يتصوّت بها فتسمع الصوت ولا تعرف مغزاه ، وتحس النداء ولا تفهم معناه والمعنيان متقاربان أو معناه ومثلهم في اتباعهم آبائهم والتقليد لهم على ظاهر حالهم وعدم فهمهم أهم على حق أم على باطل كمثل بهائم الراعي التي لا تسمع إلا ظاهر الصوت ولا تفهم ما تحته .

و أمّا الذين حملوها على ظاهرها ففيل : معناها مثل الذين كفروا في دعائهم أصنامهم التي لا شعور لها بدعائهم وخطابهم كمثل الراعي الذي ينصوت بالبهائم التي لا تسمع إلاّ دعاء ونداء ؛ فقد شبه الأصنام بالبهائم في عدم الفهم المتحقق في الطرفين ؛ وتحققه فيهما و إن لم يكن متوقفاً على قوله إلاّ دعاء و نداء ، لكن الغرض من ذكره زيادة المبالغة في التوبيخ والذم إذ لا شبهة في أن من دعى بهيمة لا تسمع إلاّ دعاء و نداء عن جاهلاً ضعيف العقل سخييف الرأي ، فمن دعا صنماً لا يسمع شيئاً كان أولى بالذم والسخافة و بما قرّرنا ظهر اندفاع ما أورده القاضي وصاحب الكشاف من أن هذا التفسير لا يساعده قوله إلاّ دعاء و نداء لأن الأصنام لا تسمع شيئاً و أجاب عنه القاضي بأن التشبيه من باب التمثيل المركّب و التشبيه غير معتبر في مفرداته و هذا مدفوع بأن التشبيه و إن كان مركّباً لكن المذكور في الجانبين لا بد أن يكون له مدخل في التشبيه و إن يكون ما اعتبر في أحد الجانبين ممّا له مناسبة في الجانب الآخر ، وقيل : معناها مثل الذين كفروا في قلة عقلهم و ضعف حالهم في عبادة الأصنام كمثل الراعي الذي ينطق بالبهائم فكما أن هذا يقضى على الراعي بقلة العقل فكذا ذاك ، فوجه التشبيه قلة العقل و قيل : معناها مثلهم في اتباعهم آباءهم والرّسوخ في دينهم بالتقليد لهم كمثل الراعي الذي ينطق بالبهائم فكما أن الكلام مع البهائم عديم الفائدة كذلك التقليد ، ثمّ بالغ في ذمّهم على التقليد و عدم النظر فيما أنزل الله إليهم .

بقوله (صمّ بكم عمي) رفع على الذم من باب التشبيه البليغ أي هم بمنزلة الصمّ حيث تركوا العمل بما سمعوه فكأنّهم لم يسمعوه لفوات الغرض الأصلي منه و هذا كما يقال لعالم لم يعمل بعلمه : إنّه ليس بعالم ، و بمنزلة البكم حيث لم يتكلّموا بالحقّ ولم يستجيبوا لما دعوا إليه و قالوا : « بل نتبع ما ألقىنا عليه آباءنا » و بمنزلة العمى حيث أعرضوا عن الدلائل الساطعة و البراهين القاطعة فكأنّهم لم يشاهدوها وبالجملة لمافات منهم الغرض من السماع والتكلّم والإبصار

فكأنه فقد عنهم تلك الآلات، و يمكن حمل الكلام على الحقيقة و ذلك لأنه كما يكون للإنسان مؤمناً كان أو كافراً سمعٌ ظاهريٌّ به يدرك المسموعات و نطقٌ ظاهريٌّ به يتكلم بالكلمات و بصراً ظاهريٌّ به يدرك المبصرات كذلك يكون للمؤمن قوة باطنية بها يفرق بين الحق والباطل وهي من حيث أنها الحاكمة في المسموعات فارقة بين صحيحها و سقيمها تسمى سمعاً عقلياً و من حيث أنها فارقة بين الأقوال الصادقة والكاذبة تسمى نطقاً عقلياً، و من حيث أنها فارقة بين المبصرات تسمى بصراً عقلياً، وقد يطلق البصيرة على قوة بها تدرك النفس صور الحقائق الكلية بلا آلة و أمّا الذين كفروا، و اتبعوا أقوال آبائهم، و تركوا ما سمعوه من كلام داعي الحق و لم ينظروا فيما شاهدوه من الدلائل فهم فاقدون لتلك القوة العقلية فهم صمٌ بكمٌ عميٌ حقيقة حيث لم يكن لهم سمع و نطق و بصيرة عقلية أصلاً، و نسبة العمى إلى القلب أولى من نسبته إلى العين كما يشعر به قوله تعالى « لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور » (فهم لا يعقلون) أي لا يعقلون فرقاً بين الحق والباطل ولا يتفكرون فيما أنزل الله ولا ينظرون إليه بعيون عقولهم ليعلموا أنه الحق من ربهم.

(و قال : و منهم) أي ومن المكذِّبين الذين سارعوا إلى تكذيب القرآن و ما اشتمل عليه من الحشر والنشر والثواب والعقاب، و سائر ما يخالف دينهم و دين آبائهم قبل أن يقفوا على معانيه وينظروا إلى مبانيه حتى يتبين لهم أنه صدق (من يستمع إليك) إذا قرأت القرآن و علمت الشرايع ولكن لا يقبلون كالأصم الذي لا يسمع أصلاً لغلبة الشقاوة عليهم وإحاطة الغواية بهم بسبب التقليد والالاف بالباطل و معارضة الوهم (أفأنت تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون) أي أفأنت تقدر على إسماعهم ولو انضم إلى صممهم عدم تعقلهم شيئاً من الحق لقساوة قلوبهم و جمود طبائعهم و خمود أذهانهم حتى صاروا بمنزلة البهائم، فيه تنبيه على أن الإعراض عن نصيح أمثالهم أولى لأن من شرائط النصيحة أن يكون للمنصوح قوة سامعة و بصيرة قلبية فاذا انتفت إحداها أو كلاهما فالإعراض عنها حريٌّ ولذلك

ترى الطبيب الحاذق إذا علم استيلاء المرض و عدم قبوله للعلاج يعرض عنه، قيل: هذه الآية تدلّ على أن السَّمْع أفضل من البصر لأنّه قرن ذهاب العقل بذهاب السمع لا بذهاب البصر فالسَّمْع أفضل و يرشد إليه تقديمه فيما قبل أيضاً و يدلّ عليه أيضاً قوله تعالى: « إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع » فجعل السمع قريناً للقلب، والمراد به العقل دلّ على أنّه أفضل، وقوله تعالى: « لو كنّا نسمع أو نعقل ما كنّا في أصحاب السعير » فأنهم جعلوا السمع مثل العقل سبباً للمخلاص عن السعير، و قيل: البصر أفضل من السمع لأنّ آلة القوّة الباصرة هي النور وآلة القوّة السامعة هي الهواء، والنور أشرف من الهواء فالبصر أفضل من السمع، و لأنّ البصر يرى ما فوق سبع سماوات والسمع لا يدرك ما بعد عنه على فرسخ فكان البصر أقوى، ولأنّ محلّه الوجه وهو أشرف الأعضاء و للطرفين مؤيّدات و تزئيفات لا يناسب المقام ذكرها .

(و قال أم تحسب) « أم » حرف عطف في الاستفهام و لها موضعان أحدهما أن يكون متّصلة بما قبلها وهي تقع دائماً معادلة لآل الاستفهام ولا تستعمل بدونها تقول: أزيد في الدار أم عمرو و تعلم أن الكائن فيها أحدهما و تطلب التعيّن والمعنى أيّهما فيها، و شرطها أن يكون أحد المستويين يليها والآخر يلي الهمزة بلا فصل والثاني أن يكون منقطعة عمّا قبلها خبراً كان أو استفهاماً تقول في الخبر أنّها لابل أم شاة يافتى، و ذلك إذا نظرت إلى شخص فتوهمته إبلاً فقلت ما سبق إلى وهبك، ثم أدركك الظنّ أنّه شاة فانصرفت عن الأوّل و قلت أم شاة بمعنى بل أشاة إلّا أن ما يقع بعد « بل » يقين، و ما بعد « أم » مظنون، و تقول في الاستفهام: هل زيد منطلق أم عمرو يافتى، إنّما أضربت عن سؤالك عن انطلاق زيد وجعلته عن عمرو والمعنى بل عمرو منطلق، إذا عرفت هذا فنقول: « أم تحسب » عطف على قوله تعالى « أفأنت » في الآية المتّصلة به في القرآن العزيز و هي قوله تعالى: « أرايت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلاً » والاستفهام الأوّل للمقريّر والتعجيب، والثاني لانكار الفاعل، والثالث لانكار الفعل و « أم » ههنا

ليست متصلة لانقضاء الشرط المذكور ، بل هي منفصلة إضراب عن الأول إلى ما هو أشد مذمة منه حتى ، حق بالأضراب عنه إليه ، والمعنى بل أتجسب (أن أكثرهم يسمعون) آيات القرآن و الحجج المنزلة للمنحدرين بها (أو يعقلون) معانيها الدقيقة و لطائفها الخفية و حقايقها الجليلة و فيه قطع لاهتمامه بشأنهم و طمعه بإيمانهم و خص الأكر بالذكرك لأن منهم من عرف الحق و آمن به ، و منهم من عرفه و أنكره عناداً أو استكباراً أو خوفاً على فوات الرياسة (إن هم إلا كالأنعام) و في عدم انتفاعهم بما يقرع آذانهم من الآيات و عدم تدبرهم فيما شاهدوا من الدلائل والمعجزات وفيه تنبيه على أن تمييز الإنسان في الحقيقة عن غيره من الحيوانات ليس بحسب الصورة المحسوسة بل بحسب الحقيقة الإنسانية التي بها يدرك المعقولات المفصلة و يميز بين الحق والباطل فإذا فسدت تلك الحقيقة وبطل فعلها ارتفع التمييز وحصل التشابه (بل أضل سبيلاً) من الأنعام لأنها تنقاد لصاحبها و تميز المحسن إليها من المسيء ، و تطلب ما ينفعها و تجتنب عما يضرها وهؤلاء لا يتقادون لربهم ، ولا يميزون إحسانه من إساءة الشيطان ولا يطلبون ثوابه الذي هو أعظم المصافع ، ولا يجنبون عن عذابه الذي هو أشد المضار ولا أنها لم تعتقد حقاً ولم تكتسب خيراً ولم تعتقد باطلاً ولم تكتسب شراً بخلاف هؤلاء فانهم اعتقدوا باطلاً و اكتسبوا شراً ، ولأن جهالتها لاتضر بأحد و جهالة هؤلاء تهيج الفتن و تصد الناس عن الحق ، ولأنها تتخلص بالموت و نفوسهم الشريرة باقية أبداً منالمة محزونة منكوسة إلى أسفل السافلين ، ولأنها غير متمكنة من طلب الكمال فلا تقصير منها ولا ذم و هؤلاء مقصرون مستحقون للبعد عن حضرة القدس .

و توضيح ذلك أن للأنعام صورة ظاهريّة محسوسة و حقيقة باطنيّة معدة لأفعال مخصوصة و آثار معلومة و تلك الصورة دائماً مطابقة لهذه الحقيقة لاتعدّها إلى غيرها ، مثلاً الأسد أسد بحسب الصورة و بحسب الحقيقة الباطنيّة السبعيّة ، والذئب ذئب بحسب الصورة و بحسب الحقيقة الباطنيّة الضاريّة ، والحمار حمار

بحسب الصورة و بحسب الحقيقة الباطنية الناهقية ، وتلك الحقيقة لا تقدر أن تبطل آثارها و خواصها بخلاف الإنسان فإنه إنسان بحسب الصورة والحقيقة الروحانية والقلبية وهي مستعدة لاكتساب الضدين اكتساب الخير والشر وقابلة للتخلّي بالفضائل والتدنّس بالرذائل ، فإذا اعتقد شيئاً أو فعل فعلاً واستمر فيه صار ذلك ملكة يصدر منها الأفعال بسهولة وتلك الملكة صورة باطنية فإن كانت ملكة الفضائل طابقت الصورة الظاهرة تلك الصورة الباطنة ويتّرفق بذلك الإنسان إلى أن يتصل بملاء الروحانيين ويصير من أصحاب اليمين ويعدّ من السابقين ، وإن كانت ملكة الرذائل والكفر والزندقة خالفت الصورة الظاهرة تلك الصورة الباطنة ويتنزّل الإنسان بذلك إلى أسفل السافلين ويصير من أصحاب الشمال ويعدّ من الخاسرين ، فصورته الظاهرة صورة إنسان و صورته الباطنة صورة كلب أو خنزير أو سبع أو شيطان أو أخسّ منها ولكن لا ترى هذه الصورة في الدار الدنيا لكونها دار التباس و دار تدليس و دار تكليف إلاّ من منحه الله سبحانه و تعالى بزيادة بصيرة قلبية بمجاهدات نفسانية و رياضات جسمانية و مكاشفات روحانية ، فإنه قد يظهر له هذه الصورة على ما هي عليه في نفس الأمر لكن لا من حيث أنّه في هذا العالم بل كأنّه في عالم آخر بين العالمين (١) ولقد رأى بعض الصالحين ممّن أصدّقهم في عقائده و أعماله جماعة من الناس في جنب كلّ واحد منهم كلبٌ بحقيقة الكلبية وصورته ، له ذنب و أذن و عينان و رأس و فم و شعر مثل الكلب المشاهد . وأمّا دار الآخرة فلمّا كان موطن بروز الحقائق بصورها الذاتية بالالتباس يحشر بعض الناس على صورة القرود والخنزير أو الكلاب أو الذرّ ، فأولئك لعدم المطابقة بين ظاهرهم و باطنهم و إبطالهم الحقيقة الإنسانية وإفسادهم قوة الاستعداد للسعادة الأخروية أضلّ من الأنعام بالمطابقة بين ظاهرها و باطنها و عدم إبطالها الحقيقة الحيوانية و

(١) وهو عالم البرزخ المتوسط بين العالم المادى المحسوس وعالم الآخرة وصور عالم البرزخ ذات مقدار مجرد عن المادة بخلاف صور هذا العالم فإنها مادية وبخلاف صور العالم الروحاني المجرد عن كل شيء (ش).

و القوة الاستعدادية.

(و قال لا يقاتلونكم) ضمير الخطاب للرّسول و من معه من المؤمنين و ضمير الغائب لليهود والمنافقين إذ وعد المنافقون اليهود بالنصرة على قتال المؤمنين (جميعاً) أي مجتمعين في محاربتهكم (إلا في قرى محصنة) بالحصون والقلاع و الدروب والخنادق (أو من وراء جدر) لشدة رهبتهم منكم، وأما تهوّم منه أن يكون ذلك لضعف حالهم و قلة عدّتهم و عدّتهم دفعه على سبيل التكميل بقوله (بأسهم بينهم شديد) يعني ليس ذلك لضعف حالهم و قلة شوكتهم إذ يشدّ بأسهم إذا حارب بعضهم بعضاً بل لأنّ الله تعالى قذف الرّعب في قلوبهم و الرّعبة فـي صدورهم (تحسبهم جميعاً) أي مجتمعين في المحاربة متفقين على الألفة والمحبة (وقلوبهم شتى) أي متفرقة غير متفقة في الأمر لاختلاف عقائدهم و افتراق مقاصدهم ، و ذلك يوجب اختلافهم في الأمور وفيه تقوية للمؤمنين وتحريضهم على القتال (ذلك) أي تشتت قلوبهم و هذا وإن كان معنى غير محسوس لكن لظهور آثاره أعني تباين كلماتهم و افتراق شملهم صادر بمنزلة المحسوس فاستحق الإشارة إليه (بأنهم) أي بسبب أنّهم (قوم لا يعقلون) إذاً العقلاء متوافقون في أمر ظاهراً و باطناً و قلوبهم غير متفرقة فيه لأنّ دينهم واحد بخلاف الجهلاء ، لأنّ طرق الجهل متعددة فلا جرم قلوبهم متفرقة متفاوتة بحسب تفاوت أغراضهم ، و لذلك قيل : العقل فنّ واحد والجنون فنون ، ويحتمل أن يكون المراد أنّهم قوم لا يفقهون ما فيه صلاحهم وبقاء شملهم وإنّ تشتت قلوبهم يوجب وهنهم و افتراقهم ، ففي الأوّل إشارة إلى علّة التشتت و في الثاني إلى عدم علمهم بغايته ، و لك أن تجعل ذلك إشارة إلى شدة بأسهم بينهم واختيارهم قرى محصنة خوفاً من المؤمنين يعني أنّ كلّ ذلك لعدم عقلهم إذاً العقلاء لا بأس بينهم بل هم كنفس واحدة ولا يخافون إلا الله ولا يرهبون إلاّ منه ، وهؤلاء أشدّ رهبة في صدور المؤمنين من الله عزّ شأنه.

(و قال وتنسون أنفسكم) الواو للمعطف على تأمرون في قوله تعالى : أتأمرون الناس بالبرّ أو للحال عن ضمير الجمع والهمزة للتنبيه على الضلال أو للانكار و

والتوبيخ بمعنى لا ينبغي أن يكون ذلك أول للتعجب أو للنكير والتثبيت، والبرّ الصّلاح. وقيل الخير، وقيل التوسع في الخير من البرّ وهو الفضاء الواسع، وبالجملة هو يتناول كلّ خير والآية نزلت في جماعة كانوا يأمرّون الناس بطاعة الله تعالى وهم كانوا يتركونها ويقدمون على المعاصي، وقيل: كانوا يأمرّونهم بالصّلاة والزّكاة وهم كانوا يتركونها، وقيل: نزلت في أحبار اليهود كانوا يأمرّون من نصحوه في السرّ من الأقارب وغيرهم باتّباع محمد ﷺ وهم لا يتبعونه، وقيل: كانوا يأمرّون الناس قبل بعثة الرّسول باتّباعه فلمّا بعث أنكره، وعلى التقادير لا يختصّ الذّم بمن نزلت الآية فيهم بل يجري فيمن يقتفى أثرهم إلى يوم القيمة لأنّنا قد بيّنا في أصول الفقه أنّ خصوص السبب لا يختصّ بالحكم، والمعنى أأمرّون النّاس بما فيه صلاحهم في الدّنيا والآخرة وتتركون أنفسكم منه كالمنسيات وتفعلون ما فيه فسادها فيهما (وأنتم تتلون الكتاب) أي القرآن على أن يكون الخطاب لطائفة من المسلمين فإنّ فيه وعيداً على ترك البرّ والصّلاح ومخالفة القول للعمل مثل قوله تعالى: «يا أيّها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون» كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون» أو التورية على تقدير أن يكون الخطاب لأحبار اليهود فإنّ الوعيد المذكور موجود في التورية أيضاً إذ الكتب الإلهيّة كلّها نازلة لتكميل الخلق ومشمّلة على ما فيه صلاحهم في الدارين وأمّا تعميم الكتاب بحيث يشتمل الكتب المدوّنة في الأحكام كما زعم فغير مناسب إذ لم يعهد في القرآن إطلاق الكتاب عليها (أفلا تعقلون) أي أتصنعون ذلك فلا تعقلون قبحه وشناعته حتى يمنعكم عنه فكأنّه لا عقل لكم إذا عقل يمنع عن الإقدام به ولقبح ذلك وجوه الأوّل أنّ من ارتكب ذلك كان قوله مناقضاً لفعله وهو مستقبح من العاقل الثاني أنّ الغرض من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إرشاد الغير والاحسان إليه والاحسان إلى نفسه أولى من الاحسان إلى الغير فمن أمر ولم يأمر ونهى ولم ينه فقد ترك ما هو الأحسن بالنسبة إليه ولا يليق ذلك بالعاقل، الثالث الغرض من الأمر والنهي ترويح الدّين وهو بفعله يريد عدم ترويجه فقد جمع بين المتناقضين

و هو غير واقع من العاقل ، الرابع الأمر لامحالة يريد نفاذ أمره في القلوب و فعله يوجب عدم نفاذه لأنه ينقر القلوب عن القبول فقد نقض مراده بفعله والعاقل لا يفعل ذلك و لذلك ورد «أنّ العالم إذا لم يعمل بعلمه زالت موعظته عن القلوب كما يزل المطر عن الصفا (١)». الخامس أنّه إذا أمر بشيء أظهر للناس علمه بذلك الشيء فإذا تركه كان لومهم به أشدّ و ذمهم به أبلغ من لوم من تركه تجاهلاً أو بلا علم ، و لذلك ورد أنّ عقوبة العالم إذا لم يعمل أعظم من عقوبة الجاهل (٢).

السادس أنّه بقوله يقول لهم افعلوا و بفعله يقول لهم لاتفعلوا فقد أتى بالمتناقضين والعقل يأباه . ثمّ المراد بالآية حثّ الواعظ على تركية نفسه و تهذيبها والاقبال عليها بتقديسها و تكميلها ليقيمها أولاً ثمّ يقيم غيره و لذلك كان بعث الأنبياء بعد تكميل نفوسهم القدسية ، لamenع الفاسق عن الوعظ كما زعم لأنّه مأمور بشيئين أحدهما ترك المعصية و الثاني منع الغير منها و الاخلال بأحد التكليفين لا يوجب الاخلال بالآخر ، ودلالة الآية على النهي عن الجمع بينهما و تحريره غير مسلمة لجواز أن يكون النهي راجعاً إلى نسيان النفس مطلقاً لا إلى نسيانها منضمّاً إلى الأمر بالمعروف ويشعر بذلك قوله تعالى «و تنسون أنفسكم» حيث رتب الذم عليه ولم يذكر صدر الآية . وفيه دلالة أيضاً على جواز الاستشهاد ببعض الآية إذا كان تامّ الفائدة فيفهم جواز ذلك في الحديث بالطريق الأولى.

(يا هشام ثمّ ذمّ الله الكثرة فقال : وإن طمع أكثر من في الأرض) في عقايدهم و أقوالهم و أعمالهم (يضلوك عن سبيل الله) إذ الحق له سبيل واحد لا يسلكه إلاّ العارف العالم الراسخ في علمه و ورعه وهو قليل جداً و أمّا الباطل فله طرق متكثرة يسلكها أكثر من في الأرض على مطايا الغواية والجهالة ومراكب الغباوة والضلالة و يدعون إليها من اقتفى آثارهم و تتبع أطوارهم ولا يأمرونه إلاّ بما

(١) - يأتي في كتاب العلم باب استعمال العلم تحت رقم ٣ .

(٢) راجع باب « لزوم الحجة على العالم و تشديد الأمر عليه » فيما يأتي من كتاب العلم .

فيه هواهم ولا يرددونه إلا إلى مقاصدهم ومناهم، كما دل عليه قوله تعالى: «كل حزب بما لديهم فرحون»، والآية كما دلّت على أن إطاعة الأَكْثَر سبب للضلالة كذلك دلّت على أن مخالفتهم سبب للهداية وعلى هذا لا يجوز متابعة الأَكْثَر إلا إذا كان هناك دليل على حقيقتهم فالمتبّع حينئذ هو الدليل دون الكثرة من حيث هي ولا يجوز التمسك في الأحكام بمجرّد الشهرة وكثرة القائلين بها ولا تأييدها به والله أعلم.

(وقال ولئن سألتهم) أي الذين يعبدون غير الله سبحانه (من خلق السموات والأرض ليقولن الله، أي ليقولن خلقهن الله فحذف المسند بقرينة سؤال محقق و الدليل على أن المرفوع فاعل والمحذوف فعله أنه جاء عند عدم الحذف في مثل هذا الكلام كذلك كقوله تعالى: «و لئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم» وقوله تعالى «قال من يحيى العظام وهي رميم قل يحييها الذي أنشأها أول مرة» ويحتمل أن يكون المرفوع مبتدأ والمحذوف خبره أي الله خلقهن ليطابق السؤال في التسمية ولأن السؤال عن الفاعل لا عن الفعل وتقديم المسؤول عنه أولى وأعم، وإقرارهم بذلك على سبيل الإلجاء والاضطرار لوضوح الدليل المانع من اسناد خلقهن إلى غير الله تعالى (قل الحمد لله) على إلزامهم وإلجائهم إلى الاعتراف بما يوجب بطلان عقائدهم وأعمالهم في باب الشريك أو على حفظك وعصمتك من مثل هذه الضلالة (بل أكثرهم لا يعلمون) أي لا يعلمون أن ذلك يلزمهم، أولا يعلمون ما اعترفوا به ببرهان عقلي و دليل قطعي لأن كونه تعالى خالق السماوات والأرض نظري لا يعلم إلا بالبرهان وهم معزولون عن العلم به وإنما اعترفوا به اضطراراً و كل من ادعى علماً نظرياً بلا نظر استحق أن يلام بالسفاهة و يذم بالجهالة، أولا يعلمون ما تريد بتحميدك عند مقاتلتهم، أولا يعلمون أنهم يتناقضون حيث يقرّون بأنه خالق السموات والأرض ثم يشركون به غيره، أولا علم لهم أصلاً حتّى يقرّوا بالتوحيد بعد ما أقرّوا بما يوجب، وفيه ذمٌ عظيم للجهلة الذين انصرفوا عن طريق الحق و سلكوا طريق الضلالة، و مدح بليغ للعلماء الذين يميّزون بين الحق و الباطل و يسلكون

سبيل الهداية وإرشاد إلى كيفية الاستدلال على التوحيد.

(و قال : ولئن سئلهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها ليتوان الله قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعقلون) هذا مثل السابق فيما ذكرناه وفيه دلالة على شرف العقل و عظم قدر الإيمان و وجوب معرفة المنعم و أداء حقوقه و أن أكثر الناس معزولون عن هذه الأمور لا يعقلون أن المنعم الحقيقي هو الله تعالى شأنه ولا يعرفون أن الحمد على النعمة لا يستحقه إلا هو.

(يا هشام ثم مدح القلة) يعنى أن الممدوح من الناس وهو المؤمن الحقيقي العالم العامل المهدب للظاهر والباطن قليل نادر جداً وقد دللت على قلته الآيات المتكثرة والآيات المعبرة المتواترة كما يظهر ذلك لمن تأمل في أحاديث الكفر والإيمان و دللت عليه التجربة أيضاً (فقال و قليل من عبادي الشكور) قيل: الشكر في اللغة فعل ينمى، عن تعظيم المنعم بسبب إنعامه ، و في العرف صرف العبد جميع ما أنعم الله عليه فيما أنعمه لأجله . أقول : الظاهر أن النسبة بينهما عموم من وجه لتحقيق الأول في صرف اللسان وحده مثلاً في مقابلة النعمة دون الثاني إذ قد اعتبر فيه صرف جميع الجوارح ، و تحقيق الثاني في صرف الجميع لا في مقابلة النعمة بل لأجل كمالاته الذاتية وتحقيقهما جميعاً في صرف الجميع بازاء النعمة ولكن القوم صرحوا بأن الأول أعم مطلقاً من الثاني لأنه كلما يتحقق صرف الجميع بازاء النعمة يتحقق صرف واحد بازاؤها أيضاً من غير عكس ، وأورد عليه بأن هذه النسبة إنما يتم لو اعتبر في الثاني كونه في مقابل النعمة ولا إشعار به في التعريف : و أجيب عنه تارة بأن هذا انقيد يستنبط من تعليق الحكم بوصف الانعام الصالح للعلية، ورد ذلك بأنه يلزم منه أن لا يكون الخالص شاكرين ولا واسطة بين الشكر والكفران، وتارة بأن المراد بكونه في مقابل النعمة أن يكون بازاؤها وإن لم تكن ملحوظة للمشاعر ومحصلة أن إنعامه هنا عريضة لاحقيقية، ويمكن دفعه أيضاً بأن مفهوم التعريف مطلق والإيراد المذكور وارد بالنظر إلى ظاهره ، إذا عرفت هذا فنقول : الشكر بكلا المعنيين منزلة عظيمة ومرتبة جليلة

والمانع فيه قليلٌ جداً ، و بالمعنى الثاني أعظم لأن حصوله يتوقف على العلم بالله و صفاته و أفعاله والتصديق بالرّسول و خواصّه و كمالاته و بجميع ما جاء به من الشرايع والآداب مع العمل بها وتهذيب الظاهر والباطن عن الأخلاق الرذيلة ورداها ، و مجاهدة النفس الأمّارة بدفع متمنّياتها و هواها ، وقال الشريف في حاشية المطالع قيل : وبهذا المعنى يعنى بالمعنى الثاني ورد قوله تعالى هو قابل من عبادي الشكور » و قال بعض المحقّقين : بل الظاهر أنّّه بالمعنى الأوّل و تكون القلّة ناشئة عن المبالغة المستفادة من الشكور كما هو المعروف من أنّ النفي والاثبات في الكلام راجعان إلى القيد ، و أمّا المعنى الثاني فلا يتصور فيه المبالغة ، لأنّ المراد به صرف الجميع في الجميع فيكون الشكور بهذا المعنى ممتنع الوجود لقليلاً ، ولو سلّم استقامة حمله على هذا المعنى فلا يتعيّن لجواز حمله على المعنى الأوّل أيضاً ، و أجاب عن المحقّق الدّواني بأنّ صرف الجميع في الجميع ينفاتون بحسب استغراق الأوقات و عدمه و تحقّق المبالغة في استغراق الأوقات بأنّ يتحقّق صرف الجميع في الجميع في أكثر الأوقات أو في جميعها ، ثمّ أورد على نفسه بأنّ صرف الجميع في الجميع في أكثر الأوقات أو في جميعها ممّا لا يتصوّر ضرورة أنّه لا يمكن صرف جارحة اللسان مثلاً في وقت من الأوقات في جميع ما خلق لأجله كالذّكر والنصيحة و إنذار الأعمى من البئر إلى غيرها ، و أجاب بأنّ جميع ما خلق لأجله هو جميع ما كلّف به و في ذلك الوقت فهم شاكرٌ بالمعنى الثاني وإذا استمرّ على ذلك الوصف في جميع الأوقات أو في أكثرها فهو شكور ، و أجاب عن المنع المذكور بأنّ المعنى اللّغوي غير محتمل لأنّ المبالغة فيه ليس قليلاً لصدور البسمة و الشهادتين و غيرها من الأفعال والأقوال المنبئة عن تعظيمه سبحانه عن كثير من العباد. أقول: كما أنّ صرف الجميع في الجميع ينفاتون بحسب استغراق الأوقات و عدمه كذلك صرف البعض فيتحقّق المبالغة فيه أيضاً بأنّ يصرف البعض في أكثر الأوقات أو في جميعها ولا شبهة في أنّ الصّارف بهذا الوصف قليلٌ بالنسبة

إلى المصارف في وقت ما ؛ نعم هو كثير في حد ذاته و بالنسبة إلى صارف الجميع في الجميع في معظم الأوقات ولا يقدح شيء من ذلك كونه قليلاً بالنسبة إلى الصارف في وقت ما فكما يجوز إرادة المعنى الثاني في الآية يجوز إرادة المعنى الأول أيضاً فليتأمل (وقال : و قليل ما هم) الضمير راجع إلى الموصول في قوله تعالى : « إلا الذين آمنوا و عملوا الصالحات » أي المؤمنون العاملون للصالحات قليلون جداً ، و « ما » مزيدة للإبهام والتعجب من قلتهم وسبب القلة أن الله سبحانه خلق أعضاء الإنسان على مقتضى حكمته البالغة بحيث تصلح أن تناول الخير والشر فإن اليد تتناول الضرب والبطش والاعطاء والمنع وغيرها من الأفعال الصادرة منها ، و الرجل يتناول المشى إلى سبيل الحق والباطل ، والبصر يقدر أن يدرك المصنوعات العجيبة والمبدعات الغريبة التي دلّت على وجود صانعها وقدرته و حكمته . وأن يدرك المحرّمات من الصور وغيرها والسمع يصلح أن يسمع الآيات والبيّنات المحرّكة للسير إلى الله تعالى ، و أن يسمع الهزل واللغو والأقوال الكاذبة الموجهة للبعد منه ومن رحمته ، وفس عليها البواقي و جعل النفس واسطة بين القوة الشهوانية والغضبية وغيرهما من القوى الطبيعية الحيوانية وبين القوة العاقلة والملكية ، و هي بالأولى تحرص على تناول اللذات البهيمية الفانية كالقهر والغلبة والشره والشبق (١) و العداوة ، والتهجم على الغير بالضرب والشتم وتستعمل الأعضاء و الجوارح في وجوه الشر والضلالة و إذا استمرت على ذلك صارت شيطانياً ولحقت بزمرة الشياطين و ترجع إلى أسفل السافلين ، و بالثانية تتناول اللذات الملكية الباقية مثل العلوم الحقيقية والخصال الحميدة المؤدية إلى السعادات الأبدية و تستعمل الأعضاء والجوارح في وجوه الخير و تستكمل السّياسة البدنية و إذا استمرت على ذلك شاركت الملائكة المقرّبين في فضائلهم ، و زاحمت الأنبياء و المرسلين في منازلهم ، و تستحق أن تخاطب بآياتها النفس مطمئنة إرجعى إلى ربك راضية مرضية - وإلى هذين الطريقتين أشار سبحانه بقوله « و هديناه النجدين »

و بقوله «إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً» ولكن النفس بالذات لما كانت مائلة إلى اللذات آنسة بالمحسوسات، واللذات الفانية الدنيوية لذات حاضرة محسوسة ظاهرة واللذات الأخروية لذات غائبة عقلية مخفية صارت النفوس كلها مائلة إلى الدنيا وزخارفها باغواء الشياطين وغلبة الشقاوة والهوى عليها حتى خرجوا عن الدين، و اندرجوا في سلك الشياطين، و اتصفوا بالخسران الممين، أو خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً، و صاروا من المذنبين إلا من عصمه الله وأخذت بيده العناية الأزلية و نور قلبه بنور الحكمة والايمان و أفاض عليه مياه الكرامة والاحسان وطهر ظاهره بالأعمال الصالحة وحلّى باطنه بالأخلاق الفاضلة وهذا القليل الوجود جداً كما أشار إليه مولانا الصادق عليه السلام بقوله : «المؤمن أعز من المؤمن وأعز من المؤمن أعز من الكبريت الأحمر، فمن رأى منكم الكبريت الأحمر» (١).

(قال : وقال رجل مؤمن من آل فرعون) من أفاربه ، قيل : هو ابن عمه ، و قيل : كان قبطياً من قومه ، و قيل : كان من بني إسرائيل ويرجع الأول لفظ الآل لأنه يطلق على القريب كما قال سبحانه : «إلا آل لوط نجيتناهم بسحر» وهو صفة ثانية لرجل ، و قيل : هو متعلق بقوله (يكنتم إيماناً) هذا صفة ثالثة على ما قلنا ، و صفة ثانية على ما قيل ، و هذا القول بعيد لأنّه يلزم الفصل بين الصفة والموصوف بأجنبي ، اللهم إلا أن يجعل «يكنتم إيماناً» حالاً و هو بعيد جداً . و لأنه لو كان كذلك لكانت تأخيرته أولى إذ لا وجه لتقديمه إلا الحصر و هو غير مناسب للمقام و لأن كنمان الايمان دل على ثبوت الايمان مثل مؤمن ، فكان الأنسب أن يذكر بعده بالفصل ، فان قلت : فعلى هذا لو كان صفة كان الأنسب أيضاً تأخيرها عن الصفة الثالثة ، قلت : نعم ولكن في تأخيرها إخلال ببيان المعنى المقصود لأنه يتوهم حينئذ أنهم صلة «يكنتم» فلم يفهم أن ذلك الرجل كان من آل فرعون فقدم لدفع هذا التوهم على أن تقديمه أهم لأن إيمانه مع كونه من آل

فرعون كان مستبعداً (أتقتلون رجلاً) وهو موسى عليه السلام والهزيمة للانكار إما المتوبيخ أو المتعجب و حملها على حقيقة الاستفهام بعيد (أن يقول) أي لأن يقول أو وقت أن يقول (ربّي الله) وحده لا شريك له وهو يفيد قصر الرّبوبة على الله ردّاً لقول فرعون أنا ربكم الأعلى « فهو من قبيل صديقي زيد والغرض من ذكر الآية الكريمة أن الله سبحانه وصف رجلين من بين كثيرين لا يعلم عددهم إلا هو بالايمان و مدحهما به (وقال ومن آمن) عطف على أهلك في قوله تعالى « قلنا حمل فيها من كل زوجين اثنين و أهلك إلا من سبق عليه القول » ولما أوحى إلى نوح عليه السلام أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن و أمره بعمل السفينة و أخبره بأهلك قومه بالغرق شرع عليه السلام في عمل السفينة ، فلما تم عمله و جاء أمر الله تعالى و فارتدّوا أمره بأن يحمل معه في السفينة من كل نوع من الحيوان ذكرًا و أنثى و أهله إلا ابنه كنعان و أمّه و أن يحمل فيها المؤمنين فحمل عليه السلام فيها زوجين من كل حيوان و كل من آمن (وما آمن معه إلا قليل) قيل : كانوا ثمانين مقاتلاً و في ناحية الموصل قرية يقال لها قرية الثمانين سميت بها لأن هؤلاء لما خرجوا من السفينة بنوها و هذا القول بعيد و قال في الكشف روي عن النبي صلى الله عليه و آله قال : كانوا ثمانية نوح و أهله و بنوه الثلاث و نساؤهم ، و عن محمد بن إسحق كانوا عشرة خمسة رجال و خمسة نسوة و قيل : كانوا اثنين و سبعين رجلاً و امرأة و اولاد نوح سام و حام و يافث و نساءهم وجميع ثمانية و سبعون نصفهم رجال و نصفهم نساء و قال :

(ولكن أكثرهم لا يعلمون) أي لا يوجد لهم حقيقة العلم ولا يعلمون استقامة هذا الدّين لعدم تدبّرهم فيه حتّى يحصل لهم العلم باستقامته و بما يتبعها من نظام أحوالهم في الدّنيا والآخرة (وقال أكثرهم لا يعقلون) أي ليس لهم فضيلة العقل أو لا يعقلون الحلال و الحرام وما جاء به رسالهم من المصالح و الأحكام ليهتدوا بظاهرهم و باطنهم و يتصفوا بكمال الانسان و يتركوا ما سوّلت لهم أنفسهم و زينته

لهم الشيطان (وقال أكثرهم لا يشعرون (١)) بما فيه صلاحهم في الدارين وكمالهم في النشأتين وهذه الآيات الثلاث يستلزم مدح القليل وهو المقصود في هذا المقام. واعلم أن الآيات والآيات والآيات الدالة على ذم الكثير ومدح القليل أكثر من أن تحصى ، والغرض من ذكر بعضها هنا أمران : أحدهما بيان أن الضلالة والطغيان صارتا كالطبيعة الثانية للإنسان إلا من عصمه الله من سلوك سبيل الشيطان و نور قلبه بنور المعرفة والایمان وهذا الصنف قليل جداً بل ينحصر في بعض الأعصار في فرد كما قيل في تفسير قوله تعالى «إن إبراهيم كان أمّة» إنه كان وحده مؤمناً و كان سائر الناس كفّاراً ، الثاني التنبيه على أن ما وقع بعد نبينا عليه السلام من ارتداد أكثر الناس و خروجهم عن الدين و بقاء قليل منهم مثل عمّار و سلمان و أبي ذر و أضرابهم غير مستبعد (يا هشام ثم ذكر أُولى الأبواب) أي ذوي العقول الخالصة عن لواحق الوهم و الفشل ، الكاملة بفضيلتى العلم و العمل (بأحسن الذّكر) الذّكر نقیض النیسان و يطلق أيضاً على الصیت والثناء والشرف كما في قوله تعالى «والقرآن ذي الذّكر» أي ذي الشرف (وحلّاهم بأحسن الحلیة) أي زینتهم بأحسن الزینة ، أو وصفهم بأحسن الصفة، والحلیة بكسر الحاء المهملة و سکون اللام تطلق على الصّفة مثل العلم والشجاعة والسخاوة ونحوها و على الزینة من ذهب أو فضة أو لؤلؤ أو نحوها وفي النزیر «وتستخرجون حلّية تلبسونها» ومن حلّی بضم الحاء وكسر اللام وشدّ الیاء جمع حلّی بفتح الحاء وسکون اللام وهي ما يتحلّى به المرأة، جمع الحلیة حلّی مثل اللّحیة ولحی وربّما ضمّ (فقال یؤتی الحکمة) قال أبو عبد الله جعفر بن محمد الصادق عليه السلام : «هي طاعة الله ومعرفة الامام» (٢) وهذا القول منه عليه السلام إشارة إلى الحکمة النظرية والعملية (٣) وهما خروج النفس من القوّة الاستعدادیّة إلى

(١) ليس في القرآن بلفظ لا يشعرون ولعله مصحف. (٢) راجع تفسير البرهان ذیل الاية.

(٣) هذه الحکمة هي التي آتانا الله لقمان ولم يكن لقمان نبياً ولم ينزل اليه وحى بل كان يعرف الامور بعقله وروى أنه لم يقبل الوحي والنبوة واختار الحکمة و ليست الحکمة أيضاً أخذ علوم الشريعة من نقل رواية الاحكام عن النبي المعصوم إذ لم يختص ذلك بلقمان بل هو حاصل لكل أحد «ومن يؤت الحکمة فقد اوتى خيراً كثيراً» خاص ببعض عباد الله «ش»

حقيقة العلم والعمل لأن معرفة الامام إشارة اجمالية إلى معرفته على ما ينبغي ومعرفة الرسول وما جاء به ومعرفة الله وما يليق به، وهذه المعارف عبارة عن الحكمة النظرية. وطاعة الله إشارة إلى تخلية الظاهر والباطن عن الرذائل وتحليلتها بالفضائل وهذه هي الحكمة العملية ويرجع إلى هذا التفسير قول القاضي: هي تحقيق العلم والعمل. وقول صاحب الكشاف: هي العلم والعمل به والحكيم عند الله هو العالم العامل. وقول المازري: هي العلم النافع المصحوب بنار البصيرة وتهذيب النفس. وقول ابن دريد: هي كل ما يؤدي إلى مكرمة ويمنع من قبيح. وقال شيخ العارفين بها، الملة والدين: هي ما يتضمن صلاح النشأتين أو صلاح النشأة الأخرى من العلوم والمعارف وأما ما تضمن صلاح الحال في الدنيا فقط فليس من الحكمة في شيء. وقال مالك: الحكمة هي الفقه في الدين (١) وهذا التعريفان لا يصدقان على الحكمة العملية كما لا يصدق تعريف من قال: هي الإصابة في القول ومن قال: هي طاعة الله تعالى على الحكمة النظرية. (من يشاء) مفعول أول أخير للاهتمام بالمفعول الثاني وللدلالة على تعظيمه في أول الأمر (ومن يؤت الحكمة) بفتح التاء في القراءة المشهورة على البناء للمفعول لأن المقصود بيان حال المفعولين بخلاف الأول لأن المقصود هنا تعلق الفاعل بالفاعل أيضاً ليتبين أن الحكمة فضيلة الهيبة وموهبة ربانية.

(١) بعض مسائل الفقه يتضمن صلاح الحال في الدنيا فقط ودواعي فيه المصالح الدنيوية كالقضاء بالشاهد واليمين فإنه لا يحرم حلال الله ولا يحل حرامه بل المصلحة فيه قطع النزاع ومثله التمسك باصالة الصحة والسلامة وعدم الغفلة في العقود والمعاوضات والانتكحة فإنه لا يغير الأحكام فإذا أوقع البيع والنكاح غافلاً عن معناه أو سهواً ونسياناً لم يحل به شيء واقعاً ويحكم بصحة المعاملة ظاهراً، ومنه الحدود والتعزيرات للمصالح الدنيوية ولذلك إذا أسر المعصية لم يكن عليه حد وكذلك الصلاة وأنواع العبادات، فإن الفقيه يحكم بصحتها ونظره إلى إسقاط القضاء وهو أمر دنيوي والمتكلم نظره إلى ترتيب الثواب عليه وهو أمر أخروي وهكذا وبين ذلك الغزالي في الاحياء اتم بيان «ش»

للسفوس المستعدة لها ولا تحصل بمجرّد الاكتساب وإن كان للاكتساب مدخل فيها (فقد اوتى خيراً كثيراً) التنكير للتعظيم والتكثير جميعاً والوصف بالكثرة للمبالغة والتأكيد و كثرته باعتبار اشتماله على خير الدنيا والآخرة، وفيه دلالة على كمال العلم و علو منزلته و عموم فوائده . لا يقال هذا ينافي قوله تعالى: « ما أوتيتم من العلم إلا قليلاً » لأن قلته بالإضافة إلى علم الواجب لا ينافي كثرته بالنظر إلى ذاته و مدة بقائه وبقاء السعادة اللازمة له (وما يذكّر) أي وما يعلم الحكمه التي أعطاها للسفوس القابلة ولا يعرف قدر تلك النعمة ، أو وما يتفكر في القرآن و ما فيه من حقائق العلوم و دقائقها (إلا أولو الأبواب) أي ذوو العقول الكاملة المائلة عن الدنيا وزهراتها، الآمنة من مكاييد النفس و متمنيات بها، وقد نقل في هذا الكتاب عن الرضا عليه السلام في فضل الامام و صفاته في حديث طويل : « إن الأنبياء عليهم السلام يوفّقهم الله ويؤتيتهم من مخزون علمه و حكمته ما لا يؤتيه غيرهم فيكون علمهم فوق علم أهل زمانهم ثم قرأ هذه الآية (١) (وقال: والراسخون في العلم) رسخ الشيء رسوخاً ثبت و كل ثابت راسخ ومنه الراسخون في العلم أي الذين ثبتوا فيه و استقرّوا بحيث لا يؤزّهم شيء من مكاييد الشيطان و متمنيات النفوس و زهرات الدنيا على الخروج عن سبيل الحق بوجه من الوجوه (يقولون آمنا به) أي بالكتاب الذي منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات أو بالمتشابه و هو كلام يحتمل وجوهاً متعددة لا يتضح المقصود منه لأجمال أو مخالفة ظاهر إلا بالفحص الشديد والنظر الدقيق. والمحكم كلام لا يحتمل إلا وجهاً واحداً (كل من عند ربنا) أي كل واحد من المحكم والمتشابه نزل من عند ربنا وهذا كالتأكيد للسابق فلذا فصل عنه (وما يذكّر إلا أولو الأبواب) أي وما يعلم المتشابه إلا الكاملون في العقول وهم الراسخون في العلم أو و ما يعلم الراسخين في العلم وهم النبي صلى الله عليه وآله والأئمة الطاهرون عليهم السلام وما يذكّر أحوالهم إلا أولو الأبواب الذين هم شيعتهم. روى أبو بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: « نحن الراسخون في

العلم ونحن نعلم تأويله» (١) وروى عبد الله بن بكير عنه عليه السلام قال: «الراسخون في العلم أمير المؤمنين والأئمة عليهم السلام» (٢) وروى بر يدين معوية عن أحدهما عليه السلام: «أن رسول الله ﷺ أفضل الراسخين في العلم قد علمه الله جميع ما أنزله عليه من التنزيل والتأويل وما كان لينزل عليه شيئاً لم يعلمه تأويله وأوصياؤه من بعده يعلمونه كله الحديث» (٣) روى جابر عن أبي جعفر عليه السلام في قول الله تعالى «هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولوا الألباب» قال أبو جعفر عليه السلام: «إنما نحن الذين يعلمون والذين لا يعلمون عدونا وشيعتنا أولوا الألباب» (٤).

(و قال إنّ في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات)
أي لعلامات ظاهرة وأدلة واضحة على وجود الصانع ووحدته وقدرته وحكمته وتدبيره (لأولى الألباب) أي لذوى العقول الثاقبة والبصائر النافذة لأنهم لصفاء ضمائرهم ونور بصائرهم هم القادرون على التفكير في خلق السماوات وما فيها من الثوابت والسيارات وحر كاتها شرقاً وغرباً جنوباً وشمالاً إجتماعاً وافتراقاً إلى غير ذلك من أحوال السماء والسماويات وما يترتب عليها من المنافع والمصالح ، وفي خلق الأرض وما فيها وما عليها من أنواع المعادن والنباتات والحيوانات و منافعها وفي اختلاف الليل والنهار وتعاقبهما وتفاوتهما في الزيادة والنقصان وفوايدها وعلى الاستدلال بهذه الأمور وأمثالها ممّا لا يحصى على أن لها صناعات لطيفاً عليماً خبيراً حكيماً قادراً موجداً لها بمجرد إرادته ومشيتته بلا مشاركة ولا معاونة وأمّا غيرهم ممّن ضعف ضمائرهم وعمت بصائرهم فهم إنّما ينظرون إليها نظر البهائم ويدركون منها ما يدركه المخلوقة والسوائم ، ذاهلين عمّا فيها من عجائب الفطر ولطائف التقدير وغرائب الصنع وبدايع التدبير . قال القاضي : ولعلّ الاقتصار على هذه الثلاثة في هذه الآية لأنّ مناط الاستدلال هو التغيّر ، والتغيّر إما أن يكون في ذات

(١ و ٢ و ٣) الكافي كتاب الحجّة باب أن الراسخين في العلم هم الأئمة

عليهم السلام .

(٤) رواه البرقي في المحاسن ص ١٦٩ . وسيأتي في كتاب الحجّة باب من وصفه الله بالعلم .

الشيء كتنغير الليل والنهار ، أو في جزئه كتنغير العناصر بتبدل صورها ، أو في الخارج عنه كتنغير الأفلاك بتبدل أوضاعها ، و قال بعض أهل الإشارة : وخلق السماوات (١) إشارة إلى خلق الأرواح و أطوارها العالية و خلق الأرض إشارة إلى خلق النفوس البشرية و قرارها و تسفلها في مراكز الأبدان ، و اختلاف الليل والنهار إشارة إلى اختلاف ظلمة النفوس البشرية والأنوار الروحية فإن هذه الأمور أدلة واضحة على وجود الصانع لأولى الألباب ، و هم الذين عبروا بقدم الذكور والفكر عن قشر الوجود الظلما نى الفانى إلى لب الوجود الروحاني الباقي فشهدوا بعيون البصائر و نواظر الضمائر أن لهم إلهاً قيوماً قادراً حياً عليمًا سميعاً بصيراً متكلماً حكيماً له الأسماء الحسنى والصفات العليا (و قال : أفمن يعلم أن ما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى) لما ضرب الله سبحانه مثلاً للذين استجابوا لربهم استجابة حسنة وهم المؤمنون العاملون والذين لم يستجيبوا له وهم الكافرون والجاهلون تارة بالماء وزبدته وهو وضره ودرنه ، و تارة بالفلزات كالذهب والفضة والحديد والنحاس و زبدتها وهو خبثها و رديتها و أوضح الفرق بين الفريقين بأن الأول بمنزلة الماء والفلزات الخالصة التي تبقى في الأرض و ينتفع بها انتفاعاً عظيماً والثاني بمنزلة زبدتها و درنها يرمى به الماء والفلزات المذابة الخالصة أنكر على من زعم التساوي بينهما بعد ضرب المثل و الايضاح و بين أنه لامساواة بين من يعلم أن ما أنزل إليك من ربك وهو القرآن و ما اشتمل عليه من التوحيد و صفات الواجب والأحكام و أحوال الحشر والنشر و الثواب والعقاب والأمثال و غيرها حق و صدق و يذعن به إزعاناً جازماً ثابتاً ، و بين من هو أعمى القلب فاقد البصيرة لا يهتدي إلى الحق منكراً له أو جاهلاً به بل بينهما مباينة تامة و بعد مفرط كبعد ما بين الماء والزبد والفلزات الخالصة و أخبائها (إنما يتذكر) أي ما يعلم ذلك أولاً يتفكر فيه إلا (أولوا الألباب) و

(١) السماء قد يطلق على العالم الروحاني والمجردات في القرآن والاعباد كما

أما الكفرة والجهلة الفاقدون للبصائر الذّهنية والأنوار العقلية و السّالكون سبيل الغي والضلالة فهم بمنزلة البهائم، بل هم أضلّ فطمع التذكّر والتفكّر منهم في المطالب العالية كطمعه من البهائم.

(وقال أمّن هو قانت) أي قائم بوظائف الطاعات من القنوت و هي الطاعة والدّعاء والقيام في قوله تعالى : «أفضل الصلوة طول القنوت (١)» والمشهور والدّعاء، و قولهم دعاء القنوت إضافة بيان كذا في المغرب، وقال الجوهري : « القنوت الطاعة هذا هو الأصل ! و منه قوله تعالى « والقانتين والقانتات » ثمّ سمّي القيام في الصلاة قنوتاً و في الحديث «أفضل الصلوة طول القنوت» ومنه قنوت الوتر . وقال ابن الأثير في النهاية : « قد تكرر ذكر القنوت في الحديث و يرد بمعان متعدّدة كاطاعة و الخشوع و الصلاة و الدّعاء و العبادة و القيام و طول القيام و السكوت فيصرف في كلّ واحد من هذه المعاني إلى ما يحتمله لفظ الحديث الوارد فيه . قرأ حمزة « أمّن » بتخفيف الميم بمعنى أمّن هو قانت كمن هو ليس بقانت ، و المقصود نفي المساواة بينهما وإثبات الفضل للأوّل ، وقرأ الباقر بتشديد الميم أصله أمّن ادغمت الميم في الميم و«أم» متصلة معطوفة على محذوف دخل عليه حرف الاستفهام تقديره أتارك القنوت خير أمّن هو قانت مثل قولك أزيد أم أفضل أم عمر وأومقطعة بمعنى بل والمعنى بل أمّن هو قانت كمن ليس كذلك قيل : فيه دلالة على أنّ العمل الذي يتصف بسببه الإنسان بالكمال هو ما كان الإنسان مواظباً عليه ، فإن القنوت عبارة عن كون الرّجل قائماً عليه من الطاعات فما لا مواظبة فيه من الأعمال ليس فيه كثير فائدة (آناء اللّيل) أي ساعاته خصّها بالذكّر مع أنّ العبادة في كلّ وقت فضيلة يتقرّب بها العبد إلى الله تعالى ، و يتميز بها عن غيره لوجوه أوّلها أنّ القلب في اللّيل فارغ عن المحسوسات المانعة عن السّير إلى الله سبحانه، فيتوجّه إلى ذكره مشاهداً له و لصفاته الذّاتية والفعلية ، و كمال قدرته و غلبته على جميع الممكنات فيحصل له بذلك خوف وخشية بحيث لا يغفل عنه طرفة عين وهذه

الحالة أفضل الحالات والطاعة الواقعة فيها أفضل الطاعات لأن التفاوت في مراتب الطاعات بحسب تفاوت مراتب القلب في القرب والبعد ، وثانيها أن الليل وقت النوم والاستراحة فيكون القيام أشق فيكون الطاعة فيه أفضل وقد دل على هذين الوجهين قوله تعالى : « إن ناشئة الليل هي أشد وطأ وأقوم قيلاً » وثالثها أن القيام في الليل لكونه أقرب من الخلوص وأبعد من الرياء أفضل من القيام في النهار و رابعها أن النهوض في الليل للعبادة لما كان غير مدافع بطلب المعاش ونحوه كان أكمل من النهوض في النهار وأفضل (ساجداً وقائماً) حالان من فاعل « فانت » ونقل أيضاً قراءتهما بالرفع والخبرية وتعدد الخبر بدون العطف جائز والواو للجمع بين الصفتين ، و تقديم السجود على القيام للاهتمام به لأن السجود أرفع منازل العارفين وأعلى مدارج العابدين كما نطق به الأخبار عن الأئمة الطاهرين (يحذروا الآخرة) أي عذابها (ويرجو رحمة ربّه) استينافاً للتعليل كأنه قيل ما سبب قنوته وسجوده وقيامه فأجيب ببيان سببها أوفي موضع النصب على الحال ولا بد من نكتة في إيراد بعض الأحوال مفرداً وبعضها جملة فعلية ولعل النكتة فيه هو التنبيه على اعتبار استمرار الحذر والرجاء ووجود كل واحد منهما في زمان وجود الأخرى بخلاف السجود والقيام وإنهما أثر الحذر على الخوف مع أن الخوف في مقابل الرجاء على ما هو المتعارف لأن الحذر أبلغ من الخوف لأنه خوف مع الاحتراز عن المعاصي وإنهما أضاف الحذر إلى الآخرة لا إلى عذابه وأضاف الرجاء إلى رحمة الله للتنبيه على أن الرجاء أفضل وبحضرة الربوبية أليق ولذلك أيضاً أضاف الرحمة إلى الرب والرب إلى الضمير مع ما فيه من الدلالة على الاستعطف والاختصاص ورجحان الرحمة على العذاب (قل هل يستوي الذين يعلمون) وهم القانتون الموصوفون بالصفات المحمودة المذكورة (والذين لا يعلمون) وهم التاركون للقنوت ، وهذه الآية على هذا التفسير بيان للسابق وإشارة إلى أن منشأ تلك الصفات هو العلم ومنشأ عدمها هو الجهل وتنبيه على شرف العلم والفضيلة وفضل العلماء على الجهال ونقي الاستواء الفريقين باعتبار القوة العلمية كما أن

السابق نفى لاستوائهما باعتبار القوة العملية للأشعار بأن الحقيقة الإنسانية إنما تنقسم بالنباهة والجلال وتنصف بالفضيلة والكمال باعتبار العلم والعمل فمن لم يتصف بهما ليس له من وصف الإنسانية إلا اسم ولا من حقيقتها إلا اسم، وإنما أخصر العلم عن العمل مع أن العمل تابع له، منوقف عليه للتنبيه على أن العمل هو الغرض الأصلي من العلم حتى أن العالم إذا لم يعمل بعلمه كانت الحجّة عليه أعظم والحسرة عليه أدوم، أولدلالة باختلاف الآثار الظاهرة أعني العبادة وعدمها على اختلاف مبادئها الباطنة أعني العلم والجهل فكان من قبيل اثبات معقول بمحسوس، وقيل: وجه الترتيب بين الأوصاف المذكورة أن الإنسان عند قيامه بوظائف الطاعات ومواظبته عليها ينكشف له في أول الأمر مقام القهر المقتضى للخوف والحدّ ثم ينكشف له بعده مقام الرحمة الباعث للرجاء ثم يحصل له بعده أنواع العلوم والمكاشفات فالعلم على هذا تابع للأوصاف المتقدمة ولذلك أخره عنها (إنما يتذكر أولو الألباب) يعني أن هذا التفاوت العظيم بين العالم والجاهل وبين القانت وغيره لا يمرّ إلا ذو والعقول الكاملة الخالصة عن غواشي الأوهام لأنهم القادرون على التمييز بين الحق والباطل بما لهم من بصيرة عقلية وقوة روحانية دون غيرهم ممن كان على بصائر عقولهم غشاوة وفي صفحات قلوبهم قساوة وقد روي عن الباقر عليه السلام أنه قال في تفسير هذه الآية: «نحن الذين يعلمون وعدونا الذين لا يعلمون وشيعتنا أولو الألباب» (١) وعن الصادق عليه السلام «أن الآية نزلت في وصف علي عليه السلام وذم أبي الفصيل (٢)» يعني أن علياً عليه السلام لكونه قانتاً بالأوصاف المذكورة وعالمًا بأن عمداً عليه السلام رسول الله ليس مثله، وهو لا يقتت ولا يعلم ذلك ويقول باطناً أنه ساحر كذاب وما نقلناه معنى الحديث والحديث المذكور في كتاب الروضة قبل حديث الصيحة.

(١) رواه البرقي في المحاسن كما تقدم.

(٢) روضة الكافي تحت رقم ٢٤٦.

(وقال : كتاب أنزلناه إليك مبارك) مبارك بالرفع على القراءة المشهورة صفة للكتاب أو خبر بعد خبر ، و بالنصب على الحالية في بعض القراءة ومعناه نفع من البركة وهي في الأصل الزيادة والنمو (ليتبروا آياته) فيعرفوا ما فيه من الشرايع والأحكام والمواعظ والنصائح والعبر التي بها يتم نظامهم في الدارين و يصلح حالهم في النشأتين (و ليتذكروا أولو الأبواب) أي و ليعلم ما فيه من الأسرار الالهية التي لا يهتدي إليها إلا ذو العقول الكاملة و الأذهان الثاقبة وهم أهل العصمة عليهم السلام فإن علوم الكتاب بعضها ظاهر سهل المأخذ يعرفه أكثر العلماء بالتدبر والتأمل فيه ، وبعضها خفي لا يصل إليه إلا أولو الأبواب و ذوو العقول الكاملة العارية عن شوائب النقصان ، و قيل : الكتب الالهية بيان لما لا يعرف إلا بالشرع و إرشاد إلى ما يستقل به العقل والتدبر للأول والتذكر للثاني ، و قيل : الكتاب مشتمل على أسرار عظيمة و معارف لطيفة و فائدة إنزاله أن يتدبر المتدبرون ويتفكروا المتفكرون آياته ، والغرض الأصلي من التدبر والتفكير وهو النظر والتأمل أن يحصل لهم التذكر أي المعرفة اليقينية بتلك الأسرار والمعارف ، والتدبر لا يستلزم التفكير إذ ربّ متفكر لا ينتهي بفكره إلى المطلوب فالتدبر غير مختص بأولي الأبواب ، بل يعمهم وغيرهم بخلاف التذكر فإنه مختص بهم ، فقد ثبت أن غاية إنزاله ليس إلا التذكر المختص بأولي الأبواب ، وهذا غاية المدح والتعظيم لهم ، وفيه أن ظاهر العطف يقتضي أن كلا من التدبر والتذكر غاية مستقلة لانزاله (قال : ولقد آتينا موسى الهدى) أي الدلالة على الدين أو ما يهتدي به إليه من المعجزات والصّحف والشرايع (و أورثنا بني إسرائيل الكتاب) أي التوراة يعني تركناه بعده عليهم يتوارثونه و يأخذونه بعضهم من بعض و يحملونه و يحفظون ألفاظه و مدلولاته اللفظية و معانيه الأولية و أحكامه الظاهرية (هدى و ذكرى) مفعول له لقوله أورثنا أو حال عن فاعله أو عن الكتاب أي أورثناه لأجل الهداية والتذكير أو هادياً ومذكراً (لأولي الأبواب) أي لنوحي العقول الصحيحة السليمة وهم الراسخون في العلم العارفون بالله و صفاته و أفعاله العالمون بأحوال المبدء و المعاد المشاهدون لها بعين البصائر

المهذبون لأخلاقهم الظاهرة والباطنة وملخصه أن غير أولى الألباب من أهل الكتاب بمنزلة الخدمة لهم يحفظون الكتاب أثلاً يندرس بطول الأزمنة فيبقى محفوظاً لهؤلاء الكاملين في العقول وهم أوصياء موسى عليه السلام وعلماء أُمَّته فهم الممدوحون غاية المدح والتعظيم المقصودون من الثناء والتكريم ، وفيه تنبيه على أنه سبحانه أُوْرث القرآن في هذه الأمة بعد نبينا ﷺ هدى وذكرى لأولي الألباب وهم العلماء الراسخون من أُمَّته والأوصياء المرضيُّون من عترته لا يفارقهم القرآن ولا يفارقونه حتّى يردوا عليه يوم القيمة كما قال ﷺ : « إنّي تارك فيكم الثقلين كتاب الله عزّ وجلّ وعترتي أهل بيتي ألا وهما الخليفتان من بعدي ولن يفترقا حتّى يردا عليّ الحوض (١) ».

(وقال و ذكر) لما أمر الله سبحانه نبيّه محمداً ﷺ بالتولي والاعراض عن مجادلة المشركين المنكرين لنبوته المصّرّين على إنكار دعوته إلى ما فيه صلاحهم في الدارين وبيّن أنّه ليس بملوم على ذلك الإعراض لبذل جهده في التبليغ بقوله « فنولّ عنهم فما أنت بملوم » وأمره ثانياً بالتذكير والتعليم تسليّة وبشارة له بقوله « ذكر » يعني لا تدع التذكير والموعظة الحسنة (فإنّ الذكرى تنفع المؤمنين) أي الذين يؤمنون بك ممّن هو في أصلاب الآباء وأرحام الأمّهات إلى يوم القيمة ، أو الذين آمنوا بك فأنّها تنفعهم وتزيد بصيرتهم وتحبّي أرواحهم وتنور قلوبهم وتصلّ إذهابهم كما أنّ المطر في الأرض القابلة توجب حيوتها ، وفي ذكر هذه الآية في مقام مدح أولى الألباب إشارة إلى أنّهم هم المؤمنون بالآيمان الحقيقي وهذا غاية المدح والتعظيم لهم .

(يا هشام إنّ الله تعالى يقول في كتابه : إنّ في ذلك) أي فيما ذكر من

(١) أما من طريق العامة أخرجه مسلم ج ٧ ص ١٢٢ والدارمي ج ٢ ص ٤٣٢ و

مسندك الحاكم ج ٣ ص ١٠٩ : ومصابيح النسائي ص ٣٠ ومسنّد أحمد ج ٣ ص ١٤ و ١٧ و

و ٢٦ و ٥٩ و ج ٤ ص ٣٥٦ و ٣٨١ بالفاظ مختلفة وأما من طريق الخاصة فمرور

بطرق متعددة .

خلق السماء و بنائها بلا عمد و تزيينها بالكواكب و مد الأرض و إلقاء الجبال الرّواسي فيها و إنبات أنواع النباتات الحسنة المبهجة و تنزير الأمطار و إنبات الزّروع والأشجار والجنّات الرائقات والنخيل الباسقات و إحياء البلاد و إهلاك بعض القرون السابقة بسبب تكذيب رسلهم مثل قوم نوح و أصحاب الرسّ و ثمود و عاد و فرعون و إخوان لوط و أصحاب الايكة و قوم تبّع إلى غير ذلك من الأمور المذكورة في سورة ق (لذكرى) أي لندكرة (لمن كان له قلب) أي عقل و إطلاق القلب على العقل شائع لغة و عرفاً و بذلك فسّر القراء أيضاً في هذه الآية و من قال: قلب واع يتفكّر في الحقائق. أراد به ما قلنا لأنّ التفكّر من صفات العقل (١) دون العضو المخصوص المتشكّل بشكل مخصوص صنوبري لأنّ ذلك موجود في الصبيان والمجانين مع عدم تحقّق التذكّر لهم وفيه دلالة واضحة على أنّ غاية إيجاد هذه العالم وإنزال المواعظ الرّبّانية والنصائح القرآنيّة ليست إلّا أصحاب العقول الرّاسخة و هذا كمال المدح والتعظيم لهم.

(و قال و لقد آتينا لقمن الحكمة قال الفهم و العقل) الفهم العلم تقول : فهمت الشيء إذا علمته والعقل الجوهر المجرد (٢) الذي يدرك المعاني الكلّيّة والحقائق المعنويّة من عقل البعير عقلاً إذا شدّ بالعقال سمّي به لأنّه يمنع صاحبه عن ارتكاب ما لا ينبغي مثل العقال وإطلاق الحكمة عليهما إن كانت عبارة عمّا يمنع

(١) قال الحكماء القوة المتخيّلة أو المتصرفّة إن كان تصرفهما بتدبير العقل سميت مفكرة و إن كان بتدبير الوهم سميت متخيّلة فالتفكير و إن كان قوة من القوى الجسمانيّة لكن لا يكون تفكيراً إلا بالعقل (ش).

(٢) العقل: الجوهر البجرد هو الذي يقول به الحكماء و الشارح قائل به كما صرح مراداً و اما ما يفهم من بعض عباراته من عدم الدليل على وجود العقل الذي يقول به الحكماء فالمراد به بعض ما يلتزم به المشاؤون من كون عدد العقول عشرة و إن كل عقل صدر منه فلك عقل وما يتوهمه الجاهل من تفويض الواجب فله و قدرته الى العقل وغير ذلك (ش) .

من الجهل كما صرّح به في المغرب أو ما يمنع من قبيح ويؤدّي إلى مكربة كما صرّح به ابن دريد ظاهر لأنّهما يمنعان صاحبهما عن الجهل و القبيح و إطلاقها على الفهم إن كانت عبارة عن العلم مطلقاً كما صرّح به بعض أرباب اللغة أو عن العلم بالدين كما صرّح به بعض العلماء أو عن معرفة حقائق الأشياء و أحوالها و التخلّق بالأخلاق الحسنة على قدر الطاقة البشرية كما هو المعروف أيضاً ظاهر و على العقل يعني العقل بالفعل من قبيل إطلاق الحال على المجلّ أو إطلاق الأثر على المبدء والمؤثر أو على اعتبارات اتحاد بين العقل والمعقول (١) وقال القاضي: هو ابن أخت أيّوب أو خالنه و عاش حتّى أدرك داود و أخذ منه العلم وكان يفني قبل مبعثه ، و قال بعض الأفاضل ناقلاً عن كتاب عين المعاني : إنّه تولّد في عشر سنين من سلطنة داود عليه السلام وعاش إلى أن أدرك يوسف عليه السلام وقيل : إنّه عاش ألف سنة ، واختلف في نبوته فأكثر العلماء على أنّه لم يكن نبياً ، و قيل : كان حبشياً أسود اللون غليظ الشفتين وقيل : ذكر السجاوندي نقلاً عن أهل السير أنّه كان في بيته وقت القيلولة إذ دخل جمع من الملائكة وسلّموا عليه فأجابهم ولا يرى أشخاصهم ، فقالوا : يا لقمان نحن ملائكة الله نزلنا إليك لنجعلك خليفة في الأرض لنحكم بين الناس بالحق قال إن كان هذا أمرأحتمياً فالسمع والطاعة وأرجو منه أن بوفيتني و يسدّدني وإن جعلني مخيراً فأبني أريد العافية لا التعرّض للفتنة فاستحسنه الملائكة وأحبّه الله و زاده في الحكمة والمعرفة (٢) و من حكمته أنّه

(١) يعني إطلاق الحكمة على العقل لا يخلو عن تجوز بوجه لأن الحكمة هي المعقولات و اما العقل فهو آلة درك الحكمة لانفس الحكمة الا ان يقال باتحاد الماقل والمعقول فيصح حقيقة فان المعقولات نفس العقل حينئذ والاتحاد مذهب صدر المتألهين قدس سره و الشارح يرتضى آرائه غالباً و يختارها في هذا الشرح و يعرض عما يحتاج اثباته الى دفع المناقشات و تزييف الاعتراضات . (ش)

(٢) هذا صريح في ان الحكمة التي اوتيتها لقمان لم يكن من النبوة و لا علوم الشريعة المبينة على التعبد بالمنقول فانها لا تختص برجل دون رجل بل كل أحد يستأهلها

صحب داود شهوراً وكان يسرد الدرع فلم يسأله عنها فلمّا أتمّها لبسها وقال : نعم لبوس الحرب أنت ، و قال : الصمت حكمة و قليل فاعله و إنّ داود قال له يوماً : كيف أصبحت فقال : أصبحت في يدي غيري مرتهاً بعملتي ، و أنّه أمره بذبح شاة و أن يأتي بأطيب مضغتين منها فأتى باللسان والقلب ثمّ بعد أيام امر بأن يأتي بأخبث مضغتين فأتى بهما أيضاً فسأله عن ذلك فقال : هما أطيب شيء إذا طابا وأخبث شيء إذا خبنا .

((الأصل)) :

« يا هشام إنّ لقمان قال : لابنه : تواضع للحقّ تكن أعقل الناس و إنّ »
 « الكيس لدى الحقّ يسير ، يا بنيّ إنّ الدنيا بحر عميق ، قد غرق فيها عالم كثير . »
 « فلتكن سفينةك فيها تقوى الله وحشوها الايمان و شرعها النوكّل و قيمها العقل ، »
 « و دليلها العلم و سكانها الصبر . »
 « يا هشام إنّ لكلّ شيء دليلاً و دليل العقل التفكير ، و دليل التفكير »
 « الصمت ، و لكلّ شيء مطيعة و مطيعة العقل النواضع و كفى بك جهلاً أن تتركب »
 « ما نهيت عنه . »
 « يا هشام ما بعث الله أنبياءه و رسله إلى عباده إلّا ليقبلوا عن الله فأحسنهم »

بيأن يوتيه الله علم الشريعة المنقولة بالسمع و الحفظ و في سورة لقمان حجة فاطمة على من ينفر عن النظر والحجة والادلة العقلية و علم الكلام والحكمة رأيت لهما وربما يتعسف متعسف و يأول الحكمة المدحوخة في القرآن بعلم الشريعة نقلاً وقد ذكرنا في حواشي منهج الصادقين أن مجلة لقمان العاوية لبعض حكمه كانت معروفة عند العرب و كانت عند سويد بن صامت نسخة منها أراها رسول الله «ص» نقل: عندي أحسن منه وقرأ عليه أشياء من القرآن. و قلنا هناك أيضاً ان لقمان في رواية كان مصرياً و نقل الطنطاوي أسامي جماعة من حكماء مصر القدماء كشفوا أسماءهم و صحفهم في هذه المصوّر واحد منهم اسمه قافه والله أعلم «ش» .

«استجابة أحسنهم معرفة ، وأعلمهم بأمر الله أحسنهم عقلاً ، وأكملهم عقلاً أرفعهم ،
«درجة في الدنيا والآخرة».

«يا هشام إن الله على الناس حجتين : حجة ظاهرة و حجة باطنة ، فأما
«الظاهرة فالرسل والأنبياء والأئمة عليهم السلام ، وأما الباطنة فالعقول».

«يا هشام إن العاقل الذي لا يشغل الحلال شكره ولا يغلب الحرام صبره».

«يا هشام من سلط ثلاثاً على ثلاث فكأنما أعان على هدم عقله : من أظلم»

«نور تفكره بطول أمهه و محاط رائف حكمته بفضول كلامه و أطعم نور عبرته»

«بشهوات نفسه فكأنما أعان هواه على هدم عقله ، ومن هدم عقله أفسد عليه دينه»

«و دنياه» .

«يا هشام كيف يزكو عند الله عملك و أنت قد شغلت قلبك عن أمر ربك»

«وأطعت هواك على غلبة عقلك».

«يا هشام الصبر على الوحدة علامة قوة العقل ، فمن عقل عن الله اعتزل»

«أهل الدنيا والراغبين فيها و رغب فيما عند الله ، و كان الله أنسه في الوحشة و»

«صاحبه في الوحدة و غناه في العيلة و معزاه من غير عشيرة»

«يا هشام نصب الحق لطاعة الله ، ولا نجاة إلا بالطاعة ، والطاعة بالعلم ،»

«و العلم بالتعلم ، و التعلم بالعقل يعتقد ولا علم إلا من عالم رباني ، و معرفة»

«العلم بالعقل».

«يا هشام قليل العمل من العالم مقبول مضاعف و كثير العمل من أهل»

«الهمى والجهل مردود».

«يا هشام إن العاقل رضي بالدون من الدنيا مع الحكمة ، ولم يرض»

«بالدون من الحكمة مع الدنيا ، فلذلك ربحت تجارتهم» .

«يا هشام إن العقلاء تركوا فضول الدنيا فكيف الذنوب و ترك الدنيا»

«من الفضل و ترك الذنوب من القرض».

«يا هشام إن العاقل نظر إلى الدنيا و إلى أهلها فعلم أنها لا تنال إلا»

« بالمشقة ونظر إلى الآخرة فعلم أنها لا تنال إلا بالمشقة فطلب بالمشقة أبقاهما »
 « يا هشام إن العقلاء زهدوا في الدنيا و رغبوا في الآخرة ، لأنهم علموا »
 « أن الدنيا طالبة مطلوبة والآخرة طالبة ومطلوبة ، فمن طلب الآخرة طلبته »
 « الدنيا حتى يستوفي منها رزقه و من طلب الدنيا طلبته الآخرة فيأتيه الموت »
 فيفسد عليه دنياه و آخرته .

« يا هشام من أراد الغنى بلا مال و راحة القلب من الحسد و السلامة في »
 « الدين ، فليتضرع إلى الله عز وجل في مسئلته بأن يكمل عقله ، فمن عقل »
 « قنع بما يكفيه و من قنع بما يكفيه استغنى و من لم يقنع بما يكفيه لم يدرك »
 « الغنى أبداً »

((الشرح)):

(يا هشام إن لقمان قال لابنه : تواضع للحق تكن أعقل الناس) التواضع
 التذلل من الوضع و هو خلاف الرفع و يحصل ذلك بالاجتناب عن التكبر والافتخار
 و سائر المنهيات والاتباع بالأوامر والمصالح و سائر الخيرات والتمسك بحول
 الله و قوته في الحركات والسكنات ولا ريب في أن هذه خصلة عظيمة دللت على
 أن صاحبها من أعقل الناس لأن العقل هو الداعي إليها و يمكن أن يكون المراد
 أن تواضعك سببُ اصبرورتك من أعقل الناس ، و يؤيده ظاهر الشرط المقدر و
 توجيه ذلك أن العقل من أفضل النعماء و شكرها التواضع و شكر النعمة يجلب
 الزيادة كما قال سبحانه « و لكن شكرتم لأزيدنكم » فالتواضع سبب لزيادة العقل
 و كماله (و إن الكيس لدى الحق يسير) الكيس - بمنح الكاف وتشديد الياء
 مع كسرهما - من دان نفسه و عمل لما بعد الموت أي العاقل الذكي المتأنّي في
 الأمور و حسن عاقبتها ، وقد كاس يكيس كياساً و كياسة يعني أن العاقل الذي
 يعمل بمقتضى عقله و يطلب ثواب الله و رضاه بتسديد قوتي العلم والعمل عند الحق
 قليل لظهور أن أكثر الناس تابع للنفس و هوها مشغول بلذات الدنيا و مقتضاها

كما نطق به الكتاب العزيز في مواضع عديدة والسنة النبوية في مواطن كثيرة ، و هذا الحكم وإن كان ظاهراً لكن أمّا كان خلافه أولى صار بهذا الاعتبار محالاً .
 للإنكار ، فلذا أكّده ، ثم لا يبعد أن يكون الغرض من هذه الأخبار هو التنبيه على أن الاعتزال عن أكثر الناس أولى وأهم والفرار عنهم أخرى وأسلم ، ويحتمل أن يكون الكيس - بفتح الكاف وسكون الياء - وهو العقل والذكاء و حسن النائي في الأمور . واليسير أيضاً بمعنى التقليل يعني أن عقل الرجل وذكاء و حسن تأنيبه و تدبره عند ظهور الحق و موافاته قليل كما هو المشاهد في أكثر الناس والمعلوم بالنظر إلى أحوالهم . قيل : اليسير ضد العسير و معناه أن كياسة الإنسان و هي عقله و فطنته سهل هيّن عند الحق لا قدر له و إنّما الذي له قدر عند الله تعالى هو النواضع والمسكّة والخضوع والعجز والافتقار ، فكلّ علم و كمال لا يؤدي بصاحبه إلى مزيد فقر و حاجة إليه سبحانه يصير وبالاً عليه و كان الجهل و النقيصة أولى به ولذلك قيل غاية مجهود العابدين تصحيح جهة الإمكان والفقر إليه تعالى فكلّ عالم كيس [زعم] أن له وجوداً و كمالاً غير ما هو رشح من رشحات بحر وجوده وتفضّله (١) فهو في عطاء شديد وحجاب عظيم عن درك الحقيقة .
 (يا بني إنّ الدنيا بحر عميق) هذا تشبيه بليغ بحذف الأداة وحمل المشبه به على المشبه للمبالغة في الاتحاد ووجه التشبيه تغييرها وانقلابها واضرابها وعدم ثبات ما فيها من صور الكائنات كتغيير البحر و انقلابه و اضطرابه بالأموال المتعاقبة أو إهلاك من دخل فيها و ركن إليها و مشى عليها بتقديم الضلالة والطغيان و أخذها بيد الجهالة والعصيان و هذا الوجه أظهر و لما كان وجوده في الأصل

(١) حقه صدر المتألهين في أكثر كتبه و عليه مبنى حكمته فوجود الممكن ليس وجوداً في نفسه و بنفسه ولنفسه بل هو نظير المعنى الحرفي الذي لا استقلال له ولا يمكن أن يتصور وحده من غير أن يتصور معه اسم أو فعل و أصل الوجود و حقيقته هو الله تعالى و ما سواه ليس بشيء و من لم يعرف ذلك فلم يعرف شيئاً على ما ذكره الشارح (ش).

ظاهراً محسوساً بخلاف وجوده في الفرع أوضحه بقوله (قد غرق) أي هلك (فيها عالم كثير) لانهما كهم في لذاتها و انغمارهم في زهراتها و اشتغالهم بشهواتها و إغماض بصيرتهم عن الآخرة و أحوالها و تركهم ما يوجب النجاة عن عقباتها و الخلاص من عقوباتها و جعلهم قوله تعالى «ولا تغرؤنكم الحياة الدنيا ولا يغرؤنكم بالله الغرور» من وراء ظهورهم ورضائهم باللذات الحاضرة الهالكة والمنافع المغوية الباطلة بغرورهم فكأنهم لم يسمعوأ قوله سبحانه «وعدا الله لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون» فيعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم الآخرة هم غافلون، وإنما خص العالم بالذكر لأن هلاكه محل التعجب و أمّا الجاهل فلا اعتناء به لعدم انصافه بالحقيقة الإنسانية والمطيفة الروحانية، أولان حكمه يعلم بالأولوية وفي الكلام استعارة تبعية لأن شبه الهلاك بالغرق و اشتق منه فعل فوقع التشبيه في المشتق بتبعية المصدر وهي تأكيد لتشبيه الدنيا بالبحر باعتبار أنه أثبت المشبه ما هو من خواص المشبه به، ثم في تشبيه الدنيا بالبحر إيماء لطيف إلى أنه يجب لأهلها أن لا يقصدوا الإقامة فيها والركون إليها، بل يجب لهم أن يقصدوا المرور منها إلى ساحلها أعني دار الآخرة كما أن راكب البحر لا يقصد الإقامة فيه والركون إليه بل غرضه المرور إلى ساحله، و أمّا شبه الدنيا بالبحر وكان سائر البحر يحتاج إلى آلات للنجاة منه و الوصول إلى الساحل سالماً غانماً كان السائر في الدنيا أيضاً محتاجاً في المرور منها والوصول إلى جناب الحق و نعيم الأبد إلى أمور للنجاة منها، و قد بينت هذه الأمور و شبهتها بتلك الآلات في كونها أسباباً للنجاة بقوله (فلتكن سفينتك فيها تقوى الله) وهي ملكة التجنب عن المعاصي والتزُّه عمّا يشغل السرّ عن الحق و إنما شبهتها بالسفينة لأن من اتصف بالتقوى و جلس فيها يطفوا الدنيا ويأمن من الرّسوب فيها كما أن جالس السفينة يطفوا البحر و يأمن من الرّسوب فيه (وحشوها الإيمان) بالله و بصفاته و أفعاله و بجميع ما أنزله إلى رسوله و إنما شبه الإيمان بما في السفينة من المتاع و أنواع ما يتجر به لأنّه حافظ للتقوى عن الانقلاب والاضطراب مثل ما

في السفينة أولاته ينفع بعد الخروج من الدنيا ، كما أن ما في السفينة ينفع جالسها بعد الخروج من البحر إذ لو خلت سفينة التقوى عن الايمان بقي صاحبها بعد خروجه من الدنيا فقيراً مضطراً متحيراً في أمره مستحقاً للمعذاب (وشرائعها التوكّل) شرع السفينة بالفارسية بآربان كذا في المغرب والشين مكسورة ، والتوكّل إظهار العجز والاعتماد على الله والثوق به في جميع الأمور و تفويضها إليه وهو درجة عليّة للعارفين و منزلة رفيعة للمساكين ، من وصل إليها بطلت عنه قيود الغموم ، و تقشّعت عنه سحائب الغموم ، و ارتفعت بواعث الاضطراب ، و انقطعت عنه دواعي الاكتساب ، و سبحت عليه مزن الأمن والايمان ، و جلس على موائد الرحمة والرّضوان وارتوى من حياض الفيوضات الرّبّانية و شبع من موائد الكرامات الرّحمانيّة و إنّما شبهه بالشرع لأنّ سفينة التقوى المحشوّة بالايمان لا تسير بدونه ، إذ من لم يعتقد أنّ الأمور كلّها يجري بأمر الله والأرزاق كلّها بيد الله و أنّه المتكفّل لها يعتقد بأسبابها و يشتغل بتحصيل تلك الأسباب فيمنعه ذلك عن السير إلى المقامات العالية و طلب الوصول إليها بالطاعات و يضعف اعتقاده بالمبدء كما أنّ غير المتوكّل من المسافرين في هذه الدنيا يشتغل بتحصيل الأسباب و ينتظر وجود القوافل والرّقيق حذراً عن عدم القوت و خوفاً عن قاطع الطريق فيبقى مقيماً في آونة من الزّمان منتظراً في مدّة لحصول الأسباب و اجتماع الإخوان (وقيّمها العقل) العقل (١) جوهر قلبي قابل لمعرفة الصانع و ما يتعلّق به ، أي معرفة الآخرة و ما يتعلّق بها ، وهو مبدء التقوى و به ضبطها و حفظها وسيرها و نقل صاحبها إلى ساحة حضرة القدس و قرب الحقّ فهو بمنزلة قيّم السفينة و ربّانها (٢) في إصلاحها و ضبطها و حفظها من المفساد والخلل الواردة عليها فكما

(١) العقل عند العامة عرض من العوارض النفسانية و عند الحكماء جوهر مستقل وهو الذي اختاره الشارح و أمور الآخرة تدرك بالعقل كما أنّ المبدء أيضاً يعرف به و لذلك لم يكلف الحيوان و ان قوى حواسه المدركة للجسمانيات بمعرفة المبدء و المبادئ (ش).

(٢) ربّان - كرمان - من يجرى السفينة .

أنه لو لم يكن للسفينة قيم لفست أمورها و بطلت أوضاعها و تعطلت أحوالها بحيث لا تصلح لقطع البحر الزاخر و يصير أهلها مشرفاً بالهلاك كذلك لو لم يكن للمتقى عقل ينهدم أساس تقواه إذ لم يتميز عنده الحق من الباطل ، والصحيح من الفاسد ، و مخاطرات الشيطان من إلهامات الرحمن (و دليلها العلم) الدليل ما يهديك إلى شيء ، سمى العلم دليلاً لأنه يدل العقل على الطريق المستقيم ويهديه إلى المنهج القويم كما أن دليل المسافرين يهدهم إلى سوا السبيل والكواكب دليل قيم السفينة و به يهتدي إلى الطريق بل النسبة بين العلم والعقل آكد من النسبة بين الكواكب والقيم إذ العقل لا ينفك عن العلم فإن نسبته إلى العقل كنسبة النور إلى السراج و نسبة الرؤية إلى البصر (و سكانها الصبر) السكان ذنب السفينة لأنها بدتقوم وتسكن ؛ و الصبر في الأصل الحبس يقال : صبرت نفسي على كذا أي حبستها ؛ و يطلق على حبسها على الطاعة بأن يربطها عليها ليلاً و نهاراً و يقدم عليها سرّاً و جهاراً ، و على المصيبة بأن لا يجزع ولا يشكو ، و على الفاقة والمسكنة بأن يرضى بها ولا يسأل غير الله سبحانه أصلاً ، و على الغنى بأن لا يغتر به ولا يتكبر و يؤدّي الحقوق المالية و على المجاهدات الطويلة و الرّياضات الشديدة بأن يقوم عليها طلباً للوصول إلى المقامات العالية و على الأمراض والبلايا بأن يرضى بها ولا يشكوها وإنما شبهه بالسكان لأنه كما يتوقف سير السفينة و تقويمها و تسديدها و تسكينها و ثباتها بالسكان يعرف ذلك ربانها و قيمها بعلمه و تدبيره كذلك يتوقف سير سفينة التقوى إلى حضرة القدس و قرب الحق في تقويمها و تسديدها و تسكينها و ثباتها بالصبر على الأمور المذكور لظهور أن ارتقاء النفس من حدّ النقص إلى حدّ الكمال ومن المنازل البشرية إلى المنازل الإلهية لا يتحقق إلا بتحوّلات كثيرة (١) وانتقالات عديدة و انقلابات شديدة و مجاهدات عظيمة في مدة طويلة مع النفس المائلة إلى الراحة فيحتاج إلى صبر كامل وعزم ثابت

(١) تعبير قريب التناول قابل لفهم أكثر الناس عن الحركة الجوهرية التي حققها صدر المتألهين وهي أحد أركان حكمته (ش).

ولذلك أمر الله سبحانه أشرف الكاملين الصديقين الراسخين بقوله «فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل» وتلك الأمور ستة ضرورية (١) المنجاة من العقوبة الدنيوية والأخروية، والفوز بالسعادة الدائمة الأبدية.

(يا هشام إن لكل شيء) و هو يطلق على الموجودات أو على المعدومات أيضاً عند المحققين (دليلاً) و هو الموجودات عبارة عما يقتضي وجودها أو العلم بها من الأسباب والشرائط والآثار ، وإنما سمي هذا دليلاً لأن الأشياء بسببه تنتقل من العدم إلى الوجود كما أن المسافر بالدليل ينتقل من بلد إلى بلد ، وأما المعدومات فدليلها (٢) عدمي أعني عدم ما يقتضي وجودها فإنه سبب لنقل العدم من آن إلى آن آخر ، و من زمان إلى زمان آخر (و دليل العقل التفكير) في أبواب المعارف وأحوال المبدء والمعاد وما يتبعهما وإنما صار التفكير دليل العقل لأن العقل بسببه ينتقل من عالم الجهالة والسفالة الذي هو منزل الإدبار والمسوخ عند أصحاب القلوب النورانية إلى العلم الحقيقي والعالم العلوي فيستريح عن اللواحق المأسوتية ويتجلى بالفضائل اللاهوتية وهذا المعبر عنه بالإقبال كما في بعض الأحاديث (و دليل التفكير الصمت) أي السكوت عما لا يعني لأن التفكير أعني حركة الروح النورانية القابلة للمطالب العالية من المبادي إلى تلك المطالب إذا أخذت في الاستدلال أو إدراكها معاً إذا كانت لها رتبة المكاشفة يتوقف على سد طرق الحواس و يحتاج إلى المنع من دخول الأغيار

(١) السنة الضرورية عند الأطباء هي الهواء والطعام الشامل للمشروب والنوم واليقظة والحركة والسكون والاستفراغ والاحتباس والأعراض الفسائية وهي ضرورات الحياة الجسدانية والتحول والانتقال والانتقال والمجاهدة مع الصبر والعزم ستة ضرورية للحياة العقلانية (ش)

(٢) الدليل سبب لا يقال النعم إلى المدلول وبهذا الاعتبار يسمى دليلاً والعدم الصرف لا يمكن أن يتصور فلا ينتقل إليه الذهن إذ التصور نحو من الوجود والعدم إذا تصور و دل عليه فله نحو من الوجود (ش).

في القلب أمّا على الأول فلأنّ مشرب القلب على ذلك التقدير ضيق جداً فلا يرد فيه من لطايف المعاني إلاّ واحد بعد واحد فاذا دخل الغير من طرق الحواسّ يمنع ورودها فيه قطعاً ، و أمّا على الثاني فلأنّ القلب لغاية صفائه و نهاية ضيائه يتأثّر سريعاً من أنفاس تلك الأغيار و أ كدارها فلا ينطبع فيه صور هذه المطالب و من جملة الحواس اللسان و هو أعظمها فانه يتناول كل موجود و معدوم و معلوم و موهوم و يتعرّض له بنفي و إثبات و هذه الحالة لا توجد في غيره فانّ اليد لا تصل إلى غير الأجسام والأذن لا تصل إلى غير الأصوات و كذا القياس في البواقي فلذلك خصّ الصمّت بالذكر تنبيهاً على اعتبار حال سائر الحواسّ أيضاً فانّ الصمّت ممّا يتوقف عليه التفكير و هو دليله في انتقاله من القوة إلى الفعل.

(و لكل شيء مطيئة ومطيئة العقل التواضع) المطيئة الدابة التي تمطوفي سيرها أي تجدد وتسرع والجمع المطايا والمطي والامطاء ، و في النهاية هي الناقة التي يركب مطاها . أي ظهرها يعني لكل شيء في انتقاله من العدم إلى الوجود أو من القوة إلى الفعل أو من حالة أنقى وأدنى إلى حالة أرفع وأعلى سبب هو كالمطيئة له وسبب انتقال العقل من القوة الذاتية الفطرية إلى العقل بالفعل ومن عالم الغواشي الجسمانية إلى عالم المجردات (١) هو التواضع لله سبحانه والتذلل له عند الوقوف على معارفه والعكوف على نواحيه وأوامره فمن ورد في مكان المعارف والأحكام و لم يتواضع له تعالى فقد فقد مطيئته للمحرّكة إليه والنزول بين يديه فيبقى تائهاً متحيراً في ذلك المكان أو يرجع مدبراً بتناول الأعادي و إغواء الشيطان . و قيل تحقيق هذا الكلام أنّ لكل شيء طبيعة متوجّهة إلى ذاتها و له مادة حاملة لقوّتها و استعدادها نحو كمال هي بمنزلة الراحلة (٢) له ومادة

(١) أشار إلى ما حققه الحكماء من أن لنفس الإنسان أربع مراتب من العقل

اللهي ولاني إلى العقل بالفعل و من التجسم إلى التجرد و ان النفس في هذه المرتبة مجردة (ش).

(٢) الممكن قسمان أحدهما ما يتغير عن حاله و يطلب كمالاً آخر كالبدن يصير

العقل هي النفس و كل مادة تستعد لكل صورة كمالية فاما تستعد لها لكونها في نفسها خالية عن الفعلية والوجود الذي من جنسها و إلا لم تكن قابلة فكذلك النفس ما لم تصر موصوفة بصفة التواضع والفقر لم تصر مطيئة للعقل الذي هو الصورة الكمالية التي بها تصير الأشياء معقولة للانسان فليتأمل وفي صدر هذا الكلام استعارة مصرحة و في آخره تشبيه بليغ (و كفى بك جهلاً أن تتركب ما نهيت عنه) ارتكاب المنهي عنه من آثار الجهل و علاماتة وقد شبهه بالمر كوب لأن الانسان بسببه يتقلب في عالم اللذات الجسمية و ينتقل إلى أسفل السافلين كما أنه بالتواضع لله و انقياد أحكامه والعمل بها يتقلب في عالم المجردات و يرتقى إلى أعلى عليين، ففي الكلام استعارة مصرحة و ذكر المر كوب ترشيح وقيل في بيان هذا الكلام أن جميع المناهي أمور محسوسة و لذات جسمانية و اشتغال النفس بها يوجب تقييدها بالصورة الجسمية فيحجب العقل عن إدراك الصور العقلية لأنها تضاد تلك الصور ، و ينبغي أن يعلم أن العقل إما مستقيم أو راجع أو مقیم والاستقامة بأن يسير إلى أعلى عليين و مر كبه التواضع ، و الرجوع بأن يسير إلى أسفل السافلين و مر كبه المناهي ، والاقامة بأن يقف في هذا العالم و يشغل بالمباحات، و هذا و إن كان مذموماً من حيث أنه مفوت للمقصود و لكمه غير مذموم من حيث أنه لم يشغل بالمناهي و غير ممدوح من حيث أنه لم يتصف بالتواضع فلذا لم يذكره ~~الكتاب~~ و اقتصر على الأولين لأن المدح والذم إنما يتعلقان بهما و ينبغي أن يعلم أيضاً أن الجهل عند العترة ~~الكتاب~~ هو ارتكاب المناهي و إن كان المرتكب لها عالمًا بل هو عندهم في الحقيقة أجهل و الذم المتعلق به أشنع و أكمل فمن ادعى كونه عالمًا عاقلاً و اخار الدنيا و شهواتها و أثر الزهرات الفانية و لذاتها فهو

بنباتا ، والثاني مالا يتخير وجميع ما يمكن له من الكمال حاصل من اول خلقته والفسم الاول يحتاج الى مادة بها يستعد لقبول الكمال كما ثبت في الحكمة و الانسان قابل للكمال فله مادة و مادته النفس الهيولانية وهي جسمانية اذا المراد به النفس المنطبعة لا النفس المجردة والنفس المنطبعة نقل بالقوة لا بالفعل . (ش)

مفتون بالضلالة وملتبس بلباس الجهالة .

(يا هشام ما بعث الله أنبياءه ورسله إلى عباده إلا ليعقلوا عن الله) أي ليعرف العباد و يعلموا بتعليم الرسل وتفهيمهم من الله ما لا يعلمون من عند أنفسهم أوليؤدّي الرسل عند ما لزمه من هداية عباده و إرشادهم إلى دين الحق من عقلت عن فلان إذا أدّيت عنه ما لزمه (فأحسنهم استجابة) أي أحسن العباد أو أحسن الرسل استجابة لله تعالى بالطاعة والاجتهاد والصبر والانقياد وكذا ضمير الجمع في الفقرات الآتية يحتمل الأمرين إذ كما أن درجات العباد متفاوتة كذلك درجات الرسل كما نطقت به الآيات والرؤايات الكثيرة (أحسنهم معرفة) بالله و آياته وغيرها من مصالح الدنيا والآخرة ، و ذلك لأنّ حسن الاستجابة تابع لحسن المعرفة فكلما زاد حسن الأصل زاد حسن الفرع (و أعلمهم بأمر الله) يعني أحسنهم معرفة بأحكامه و شرايعه (أحسنهم عقلاً) لأنّ حسن العلم والمعرفة تابع لحسن العقل (و أكملهم عقلاً) يعني أحسنهم عقلاً و إنّما عبّر عنه بذلك للتفخّن وللتنبية على أنّ حسن العقل بكماله في العلم بالموجودات والاحاطة بالمعقولات (أرفعهم درجة في الدنيا والآخرة) لأنّ تفاوت الدرجات فيهما غاية أخيرة للأُمور المذكورة و تفاوت الغاية في الكمال والنقصان باعتبار تفاوت ذي الغاية فيهما وهذا الحديث على ما قررناه من باب القياس المفصول النتائج ينتج أنّ أحسنهم استجابة أرفعهم درجة في الدنيا والآخرة (١) و فيه مدح عظيم للعقل حيث جعله أصلاً لجميع الخيرات و مبدء للفاضل في الدرجات كما يظهر ذلك بالتأمل الصادق لأنّه جعل كمال الدرجات في الدنيا والآخرة الاستجابة كما يقتضيه مضمون النتيجة ، و جعل كمال الاستجابة تابعاً لكمال المعرفة و كمال المعرفة تابعاً لكمال العقل فيفهم منه أنّ العقل أصل لجميع الكمالات و مبدء للفاضل في الدرجات .

(يا هشام إنّ الله على النّاس حجّتين) أي دليلين (حجة ظاهرة) مشاهدة (و حجة باطنة) مسنورة (فأما الظاهرة فالرسل و الأنبياء والأئمة عليهم السلام ، و أمّا الباطنة

فالعقول (لما خلق الله جل شأنه النفوس البشرية واسطة بين المتجدين ، مستعدة لسلوك الطريقين طريق الخير وطريق الشر . قابلة للضدين من الصفات الشريفة والسمات الرذيلة مايلة إلى اكتساب الحسنات متشوقة إلى اقتراف السيئات لما فيها من المذلة الحاضرة والمنفعة الظاهرة وأيدها بالقوى الشهوية والغضبية وغيرها من القوى الطبيعية الداعية إلى الشر الناهية عن الخير كانت النفوس لذلك ولما يوحى إليها إبليس وجنوده من الشر أقرب ومن الخير أبعد فآله سبحانه أخذ بأهم برحمته في تيه الضلالة بنبيين المنهج وتعين الحجج ، فجعل عليهم حجتين إحداهما ظاهرة والأخرى باطنة ، أمّا الظاهرة فهم الأنبياء والرسل والأئمة عليهم السلام لأنهم أنوار ساطعة في بلاده وبراكين ظاهرة في عبادته يدعونهم إلى سبيل النجاة ويخرجونهم من غياهب الظلمات (١) ويحرّكونهم من حضيض النقص والوبال إلى أوج الفضل والكمال ، فمن تبعهم فقد اهتدى ومن تخلف عنهم فقد غوى ، وأمّا الباطنة فهي العقول لأن بها تميز الحق من الباطل والصواب من الخطأ والسعادة من الشقاوة ، والحسن من القبيح والخير من الشر وتأمّرهم في كل ذلك باتّباع أشرف المناهج وأقوم السبل واستماع ما يتلو عليهم الأنبياء والرسل ؛ ويحكم بأن في ذلك حسن عاقبتهم وسعادة خاتمتهم كل ذلك ليحيى من حي عن بيّنة ويهلك من هلك عن بيّنة .

(يا هشام إن العاقل النّدي لا يشغل) من شغل لامن أشغل فأنه لغة رديّة و الموصول خبر « إن » (الحلال) وهو كل ما يجوز التصرف فيه والانتفاع به شرعاً وعقلاً من الأموال والأزواج وغيرها (شكره) أي صرف اللسان في مدح المنعم والثناء عليه ، و صرف جميع الجوارح فيما خلقن لأجله كصرف اللسان في الثناء والتعظيم و صرف البصر في مطالعة المصنوعات ليستدل به على وجود الصانع و وحدته وقدرته وحكمته وتدبيره و صرف القلب في التفكير في ذاته وصفاته ودقائق حكمته و آثار قدرته ، وبالجملّة العاقل من لا يمنعه كثرة نعم الله عليه ووفور أياديه لديه

(٢) الغيب - كزيبق - الظلمة ، الشدبة السواد من الخيل والليل . جمعه غياهب .

عن ذكر الله في جميع الأحوال والأزمان ، و عن الاقرار له بالعظمة والجود و الاحسان ، وعن التذلل له والتخشع لديه و جلب المزيد منه ، والتضرع إليه كما قال سبحانه « يا أيها الذين آمنوا لاتلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله و من يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون » (ولا يغلب الحرام) وهو كل ما لا يجوز التصرف فيه شرعاً أو عقلاً (صبره) في الفاقة والجوع والشدايد ، ولا يخرج به التمكن من اكتساب الحرام عن سنن الشرائع و اصول القواعد ولا يقطع عنان اضطباره شמוש النفس و جموح (١) الطبيعة بل يقمع نفسه بالمواعظ الحسنة و مقامع النصيحة ويرجو في ذلك أجر الصابر الحزين و محبة رب العالمين كما قال سبحانه « إن الله يحب الصابرين » .

(يا هشام من سلط ثلاثاً على ثلاث فكما أنما أعان على هدم عقله) كأنما أصله أن دخلت عليه كاف التشبيه وألحقت به مما انكافة فلذلك وقع بعده الفعل . والهدم مصدر ، هدم البناء أي نقضه و كسره ، ففيه استعاره تمثيلية لشبيه الصورة المعقولة بالصورة المحسوسة لزيادة الايضاح و التقرير أو استعارة مكنية لتشبيه العقل بالبيت في أنه يكن صاحبه و يصونه من المكاره و استعارة تخيلية باثبات الهدم له ، وإنما أدرج لفظ كأن وأعان ولم يقل : فقد هدم عقله التنبيه على أن تسلط الثلاث على الثلاثة إنما يوجب هدم المسلط عليه حقيقة إلا أن المسلط عليه لما كان من خصال العقل كما ستعرفه في التفصيل فكان هدم ذلك هدمه و يحتمل أن يكون كان ههنا مستعملاً للمعلم بثبوت الخبر من غير قصد إلى التشبيه و يؤيده قوله في آخر النصيل « ومن هدم عقله أفسد عليه دينه و دنياه » (من أظلم نور تفكيره) في أحوال المبدئ والمعاد ، والاضافة من باب لجين الماء ، لأن التفكير يشبه النور ففي الاصل إلى المطلوب أو بتقدير اللام والمراد بالنور العلوم الحاصلة من التفكير (بطول أملة) فيما لا ينبغي من المقتنيات الثمانية المورثة لنسيان الآخرة و خمود التفكير و هو معنى الاظلام و ذلك لأن طول توقع الأمور المحبوبة الدنيوية يوجب دوام

(١) الشמוש و الجموح بضم الشين والجيم مصدران لهما بفتحهما و زان جموش و بمعناه .

ملاحظتها الموجب لدوام إعراض النفس عن ملاحظة أحوال الآخرة وهو يجب انحاء ما تصور في العقل من تلك الأحوال وذلك معنى النسيان وخمود نور التفكير ولذلك قيل : الدنيا والآخرة ضربان لأنَّ محبة إحديهما (١) توجب الاضرار بالآخرى (و محاطا رايك حكمته) عن لوح العقل ، قال بعض الحكماء : الحكمة شيء يجعله الله تعالى للقلب فينوره حتى يدرك به المشروعات والمحظورات ويعلم المعقولات والمستحبات ، كما أنَّ البصر شيء يرى به المحسوسات ، وسمي ذلك الشيء المنور للقلب حكمة تشبيهه بحكمة اللجام وهي الحديدية المعترضة في فم الفرس في منع صاحبه من الخروج عن طريق الصواب. والطرائف جمع طريف وهو كل شيء مستحدث يعجبك ، والاضافة إمَّا ببيانية أو من باب جرد قطيفة أو لامية بأن يراد بالطرائف العلوم والأدراكات النابعة لذلك النور (بفضول كلامه) الفضل الزيادة وقد غلب جمعه على ما الأخير فيه حتى قيل : شعر فضول ، وقيل : لمن يشتغل بما لا يعينه : فضولي ، والتكلم بما لا يعني سبب لمحو الحكمة وطرائفها لأنَّ اللسان ينبوع القلب فإذا اعتاد المتكلم باللعغو تقاطر منه ذلك أفاض ذلك على القلب وهو يغسل الحكمة عنه ويمحوها. ولأنَّ مشرب القلب ضيق كلما دخل فيه شيء يخرج منه ضده ولولم يخرج به بقي شيء مختلط من الحق والباطل وهذا ليس بحكمة كما أنَّ قليلاً من الماء إذا خالطه دم كثير لا يسمى هذا المختلط ماء ، وأكثر الشبهات مبدؤها ذلك المختلط ، وأيضاً من أكثر الكلام في مجلس العوام يجد لنفسه في تأثير قلوبهم حلاوة ولذة فإذا دام على ذلك يميل طبعه الخسيس إلى كل كلام مزخرف يروّجونه وإن كان باطلاً ويتنفر عن كل كلام يستقلونه وإن كان حكمة فيصرف همته إلى ما تحرك قلوبهم لمعظم منزاته عندهم فلامحالة ينمحي طرائف الحكمة عن قلبه لأنَّ الذي يؤثر في قلوبهم ليس إلا ما فهموه

(١) ان التوجه الى الامور الدنيوية يوجب انحاء ما تصور في العقل من احوال

الآخرة. فالدنيا ضرة للآخرة والضرر ان امرأتان تحت زوج واحد اذا اقبل على احديهما اعرض عن الاخرى ، والعقل يناسب الآخرة والحس يناسب الدنيا فان الامور الاخرية لاتدرك هنا الا بالعقل والحس خاص بادراك ما في الدنيا (ش) .

وما فهموه ليس من الحكمة في شيء (وأطفأ نور عبيرته بشهوات نفسه العبرة هي ملاحظة
أحوال الماضين والاتعاظ بما كانوا فيها من نعيم الدنيا و لذاتها والمباهات بكثرة
العشيرة والاولاد والافتخار بكثرة أسبابها ومقتنياتها ، ثم مفارقتهم لاذك كله
بالموت الذي هو هادم اللذات و كاسر الفقرات و بقاء الحسرة والندامة لهم حجباً
حائلة بينهم وبين الرحمة الالهية؛ وكل من اتصف بالعبرة و مارسها حتى صارت
ملكة يحصل في قلبه نور يهديه إلى الآخرة و ما يوجب تعميرها من الأعمال
الصالحة والصفات الفاضلة و من تبع النفس الأمارة بالسوء و شهواتها و ارتع في
مرعى ضلالها و لذاتها حصل في قلبه ظامة شديدة و غشاوة عظيمة مانعة عن دخول نور
الاعتبار و نور الاستبصار ، و من سلط هذه الخصال الثلاث التي بناء الهوى والجهل عليها
أعني طول الأمل و فضول الكلام و الشهوات النفسانية على الخصال الثلاث التي
بناء العقل عليها أعني نور التفكير و طرايف الحكمة و نور العبرة (فكأنما
أعان هواه) و هو ميل النفس الأمارة بالسوء إلى ما يقتضي طباعها من اللذات
الدنيوية الفانية إلى حدٍّ يخرج من حدود الشريعة (على هدم عقله) وهو نور
يسلك به الانسان طريق الجنان و عبادة الرحمن فيصل إلى السعادة النائمة الكبرى
وهي مشاهدة الحضرة الربوبية و مجاورة الملاء الأعلى في مقعد صدق عند مليك
مقتدر ، و ذلك لظهور أن أتباع النفس الأمارة بالسوء لميولها الطبيعية و
سيرها في سبيل هواها و اشتغالها باستيفاء مقتضاها أشد صدمة على العقل و أقوى
ظلمة في طمس نوره ، و أكمل جاذب له عن طريق الحق ، و أظهر ساد له عن قصد
الكمالات والترقي في ملكوت السموات كما نقل عن سيد المرسلين عليه السلام ثلاث
مهلكات شح مطاع و هوى متبع و إعجاب المـ ، بنفسه (١) ، (ومن أفسد عليه عقله أفسد
عليه دينه و دنياه) أمّا إفساد الدين فلان استقامته إنما هي بإدراك أحوال المبدء
والمعاد والتصديق بهاد العمل بما ينبغي أن يعمل والانزجار عما ينبغي أن يترك، و
المدرك لهذه الأمور والدليل عليها و الحاكم بحقيقتها إنما هو العقل فاذا فسد

العقل فسد الدين، وأما إفساد الدنيا مع أمه روي عن علي بن الحسين عن أبيه عن جده عليه السلام قال: «وكل الرزق بالحق، و وكل الحرمان بالعقل (١)» وروي عن أبي عبد الله عليه السلام «أن العقل ما عبد الرحمن واكتسب به الجنان (٢)» وأما الذي يتوصل به إلى الأغراض الدنيوية بالمكر والحيل مثل ما في معوية وأضربه فتلك شيطنة ونكراء وهي شبيهة بالعقل وليست بالعقل فوجه أمران الأول أن الدنيا المعبرة عند أهل البيت عليهم السلام هي النبي تكون معبرة يعبر بها إلى الآخرة كما دل عليه قولهم: «الدنيا مزرعة الآخرة (٣)» فالدنيا عندهم ما يهبط به المؤمن أمر آخرته ويجعله وسيلة إلى تحصيل فوائدها وذريعة إلى تكميل عوائدها، و ظاهر أن هذه الدنيا لا يمكن استقامتها ولا يتيسر استفادتها بدون العقل، إذ غير العاقل لا يأمن وقوعه في الشبهات ووروده على المحرمات واستقراره في المهلكات، الثاني أن كثرة الرزق وحصول الدنيا وإن كان منوطاً بالبطالة والحمالة ومربوطاً بالسفاهة والجهالة لكن الأحق لا يأمن وقوعه في أشنع الممالك وسلوكه في أفبح المسالك وتورطه في أعظم الشدائد والمكائد الموجبة لهلاكه وفساد دنياه كما يشهد به المشاهدة.

(يا هشام كيف يزكو) أي كيف يظهر عن أعراض الدنيا وشوائب النقصان أو كيف يزيد وينمو عند الله (عملك وقد شغلت قلبك عن أمر ربك وأطعت هواك على غلبة عقلك) بالتسليط المذكور في الكلام المتقدم يعني لا يكون عملك طاهر أو مطهراً أو نامياً زاكياً عند الله تعالى وأنت على هذه الصفة لأنك إذا قمت بين يديه ولا يكون قلبك متوجهاً إليه بل يكون شاغلاً عن أمر الله وفارغاً عن ذكر الله وغافلاً عن عظمة الله وتاركاً لأحكام العقل ومقتضاها وتابعاً للفساد الأمارة وهواها كنت تعبد

(١) رواه الكليني في كتاب الروضة تحت رقم ٢٧٧ وزاد «و وكل البلاء بالصبر».

(٢) الكافي كتاب العقل والجهل تحت رقم ٣.

(٣) أخرجه الديلمي في مسند الفردوس كما في كنوز الحقايق للشيخ عبد الرؤف

بحسب الظاهر إلهاً و بحسب الحقيقة إلهاً آخر لأن أصل العبادة هو الطاعة و الانقياد و لذلك جعل الله سبحانه اتباع الهوى و الانقياد له عبادة فقال جل شأنه «أفرأيت من اتخذ إلهه هواه» و جعل طاعة الشيطان عبادة له فقال : «ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان» و في بعض الروايات «إن طاعة أهل المعاصي عبادة لهم (١)» «وإن من أصغى إلى ناطق فقد عبده فإن كان الناطق يؤدّي عن الله فقد عبده الله وإن كان يؤدّي عن الشيطان فقد عبده الشيطان» (٢) وهذا هو الشرك الخفي عند العارفين وائمن نزلنا عن ذلك فلاشبهة في أنه يفوتك حينئذ حقيقة العبادة و روحها الذي به تصعد العبادة إلى الدرجة العليا والمرتبة العظمى من الشرف و القبول فلا يكون عبادتك مأمونة عن طرء البطلان ولامصونة عن شوائب النقصان ولا قابلة للزيادة والنماء. عند ما يأخذ العابد بواحدة عشرة أمثالها أو مازاد في يوم الجزاء. فلا بد لك أيها العاقل أن تقتل هواك بسيف عقلك وتوجه قلبك إلى أمر ربك و تعبه كائنك تراه ، و هذه المرتبة مقام المشاهدة وهي أعلى منازل العابدين ولولم يكن لك هذه المرتبة فلاأقلّ تعبه و في قلبك أنه يراك و هذه المرتبة مقام المراقبة وهي أوسط منازل المقر بين و مع ذلك تكون خائفاً خاشعاً متضرعاً راجياً إلى رحمته ، لعلمك تكون من المفلحين ، وفي هذا الكلام دلالة واضحة على أن قبول الأعمال وصلاحها و كمالها و طهارتها و نموّها إنّما هو بالعقل البكامل المتأمل في عظمة الله و قدرته و سطوته و سلطنته و غلبته على جميع الممكنات ، و أمّا الجاهل المغرور المطيع للنفس و هواها الغافل عن أو امر ربّه و مقتضاها فهو عبد لثيم ، و عمله ساقط هابط سقيم ، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

(١) روى الكليني في الكافي كتاب الايمان و الكفر باب الشرك تحت رقم ٨ عن

أبي عبدالله «ع» « من أطاع رجلاً في معصية الله فقد عبده » .

(٢) رواه الحسن بن علي بن شعبة في تحف العقول ص ٤٥٦ عن أبي جعفر الثاني «ع»

وفيه «ابليس» مكان «الشيطان» في الموضمين .

(يا هشام الصبر على الوحدة علامة قوة العقل) لأن الإنسان مدني بالطبع وله ميل إلى بني نوعه في التأليف والنود والاستيناس بهم والمشاركة معهم في طلب المعاش وسائر ما يحتاج إليه فإذا ترك ذلك كله لعلمه بأنه يوجب منقصة في دينه وضعفاً في يقينه وآثر الوحدة على الكثرة ورجح الفرقة على الألفة للنحرز عن مشاركتهم في أفعالهم الشنيعة وأطوارهم الدنيئة علم أنه قوي في العقل والتدبير في الأمور الآخرة لأن ذلك من آثار العقول الكاملة (فمن عقل عن الله) أي فمن عرف الله وعرف ذاته وصفاته وما يجوز له وما يمتنع عليه وأحكامه وشرايعه وأحوال الآخرة وشدة فاقة الناس وكثرة احتياجهم إليه يوم القيمة الذي يشتمل فيه الأبرار بأنفسهم فضلاً عن الأشرار (اعتزل عن أهل الدنيا والراغبين فيها) وهم الذين يؤثرون الدنيا وزهراتها ويبدلون الجهد في اقتنائها وأدخال ثمراتها كما هو المشاهد من أبناء الزمان الذين يجيبون رواعي النفس في منازل الطغيان ويقنقون آثارها ويسمعون وساوس إبليس في مراحل العيان ويطأون أدبارها كما هو المعلوم من أرباب الفسوق والكفران، وفيه دلالة على شيئين أحدهما أن الاعتزال إنما للمعاقلة العالم بمعالم دينه وأمم الجاهل فالأليق بحاله أن يخالط الناس ويشغل بطلب العلم فإن أمكنه في بلده وإلا فليطلبه في بلد آخر كما قيل: «اطلبوا العلم ولو بالصين» (١) الثاني أن الاعتزال مطلوب عن أهل الدنيا وأهل العصيان لأن أهل الآخرة، فانهم أولياء الله وأنصاره في دينه، والتوصل بهم يوجب الاستنارة بنورهم والاستضاءة بضوئهم (ورغب فيما عند الله) من الخيرات والأنوار الإلهية والاشراقات العقلية والابتهاجات الذوقية والترقيات الروحية، إلى غير ذلك مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، ولا بأس أن نشير إلى العزلة وأقسامها وشي من فوائدها ومنافعها إذ ذكر جميع فوائدها متعذراً لأنها ذوقية حاصلة لأرباب

(١) ظاهر كلام المؤلف أنه من كلام غير المعصوم لكن رواه العقيلي في الضعفاء

و ابن عدي في الكامل والبيهقي في الشعب من حديث عائشة، وابن عبد البر وفي الملم من حديث أنس عن النبي صلى الله عليه وآله.

العزلة بعد الممارسة في مدة طويلة لمجاهدات شديدة فتقول :

العزلة من الناس أقسام :

الأول وهو أدناها أن يكون بينهم ولا يكون معهم بل يكون وحيداً غريباً مستوحشاً منهم ولا يجالسهم وإن جالسهم أبعضهم كما روى عن الصادق عليه السلام قال : « إذا ابتليت بأهل النصب ومجالستهم فكن كأنك على الرضف » (١) حتى تقوم فإن الله يمقتهم ويلمعنهم فإذا رأيتهم يخوضون في ذكر إمام من الأئمة فقم فإن سخط الله ينزل هناك عليهم (٢) .

الثاني وهو أوسطها أن يسكن في بيته ولا يخرج إليهم أصلاً ولا يركن إلى مجالستهم ومقاولتهم كما روى عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال « يا أيها الناس طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس فطوبى لمن لزم بيته ، و أكل قوته ، و اشتغل بطاعة ربه ، و بكى على خطيئة (٣) » و كما روى عن رسول الله صلى الله عليه وآله حين سأله عن عقبة بن عامر الجهني عن طريق النجاة أنه قال له : « ليسعك بيتك وأمسك عليك دينك وابك على خطيئتك (٤) » .

الثالث أن يخرج إلى الصحاري وقلل الجبال و شعبها و يعبد الله ربه حتى يأتيه اليقين كما قيل له عليه السلام أي الناس أفضل : فقال : « رجل في شعب من الشعاب يعبد ربه ويدع الناس من شره » (٥) و قال عليه السلام : « إن الله يحب العبد التقي النقي »

(١) الرضف: الحجارة المحيطة على النار.

(٢) الكافي كتاب الايمان والكفر باب مجالسة اهل المعاصي تحت رقم ١٣ .

(٣) اورده الشريف الرضي في النهج في خطبه عليه السلام تحت رقم ١٧٤ أوله « انتفعوا

ببيان الله » و قال بعض الشراح في هذا الكلام ترغب في العزلة عن ائادة الفتن واجتناب الفساد و ليس ترغيباً في الكسالة و ترك العامة و شأنهم فقد حث أمير المؤمنين عليه السلام « دعه » في غير هذا الموضع - على مقاومة المفسد والامر بالمعروف والنهي عن المنكر .

(٤) رواه الترمذي ج ٩ ص ٢٤٧ و حسنه ، و احمد ج ٤ ص ١٤٨ .

(٥) تمام الخبر كما رواه احمد في مسنده ج ٣ ص ٤٧٧ باسناده عن كرز بن علقمة

الغزاعي قال أتى النبي صلى الله عليه وآله « أعرابي فقال يا رسول الله هل لهذا الامر من منتهى ، قال :

الخفي (١) والاختبار الدالة على مدح المعتزلين من طرقاً وطرق العامة أكثر من أن تحصى و فوائد كثيرة منها الفراغ لعبادة الله تعالى والذكر لدوا الاستيناس بمناجاته والاستكشاف لأسراره في أمور الدنيا والآخرة من ملكوت السموات والأرض وذلك كان رسول الله ﷺ يتعبد بجبل حراء و يعتزل به حتى أنه النبوة

و منها الإخلاص في العبادة وتبعيدها عن تطرُّق احتمال السمعة والرِّياء كما روي عن الباقر عليه السلام: «لا يكون العبد عابداً لله حقَّ عبادته حتى ينقطع عن الخلق كلهم إليه فحينئذ يقول: هذا خالصٌ أي فيقبله بكرمه (٢)».

و منها صرف القلب عن غير الله و هي نعمة عظيمة و فائدة جلية كما قال الصادق عليه السلام «ما أنعم الله عز وجل من أن لا يكون في قلبه مع الله عز وجل غيره».

و منها الأمان من نزول العذاب عليه عند نزوله بساحة الظالمين كما روي عن أبي الحسن موسى بن جعفر عليه السلام أن أبا عبد الله عليه السلام من أصحابه عن مجالسة خالد وهو من أهل الضلال فقال: أي شيء عليّ منه إذا لم أقل ما يقول؟ فقال عليه السلام: أما تخاف أن تنزل به نقمة فتصيبكم جميعاً، أما سمعت بالذي كان من أصحاب موسى وكان أبوه من أصحاب فرعون، فلما لحقت خيل فرعون موسى تخلف عنه ليعط أباه فيلحقه بموسى فمضى أبوه و هو يراغمه حتى بلغا طرفاً من البحر ففرقا جميعاً؛ فأتى موسى الخبر فقال عوفى: رحمه الله ولكن النقمة إذا نزلت لم يكن لها عمن.

«نعم فمن أراد الله به خيراً من أعجم أو عرب أدخله عليهم ثم تقع فتن كالظلم يعودون فيها أسود صبا يضرب بعضكم رقاب بعض و أفضل الناس يومئذ مؤمن معتزل في شعب من الشعاب يتقى ربه تعالى و يدع الناس من شره» و رواه البخاري ج ٤ ص ١٨ و ابن ماجه تحت رقم ٣٩٧٨ كما في المتن.

(١) أخرجه أحمد في مسنده من حديث سعد بن أبي وقاص بسند صحيح كما في الجامع الصغير.

(٢) نقله ابن فهد الحلبي في عدة الداعي في مبحث الاعتزال عن الناس.

قارب المذنب دفاع (١)».

و منها الاتقاء عن مواضع النهممة والرغبة كما روي عن الصادق عليه السلام قال: «لا تصحبوا أهل البدع ولا تجالسوهم فتصيروا عند الناس كواحد منهم» قال رسول الله صلى الله عليه وآله: المرء على دين خليله وقرينه (٢) و عنه عليه السلام قال: قال «أمير المؤمنين عليه السلام»: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يقوم مكان رغبة (٣)».

و منها التخلص عن المعاصي إذ الخاطئة لا يخلو عنها غالباً كالغيبة والكذب والسب والسكوت عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ونحوها.

و منها الخلاص من شرهم فإنهم كثيراً ما يؤذون جلسهم بالاستهزاء والغيبة والنهممة والبهتان وافتراء الأقوال والأعمال عليه

و منها النجاة من خبث مشاهدة الثقلاء والحمقاء و قبح ملاحظة أطوارهم و أخلاقهم فقد قيل للأعشى: لم أعشت عينك؟ قال: من النظر إليك ومن النظر إلى الثقلاء ولهذا الوجوه من الأدلة والفوائد ذهب جماعة من المحققين والعارفين إلى أن العزلة أفضل من المخالطة وذهب طائفة إلى العكس لقوله تعالى «وأتف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً» و قوله تعالى: «ولأنكونوا كالذين تفرقوا و اختلفوا» و معلوم أن العزلة تنفي تألف القلوب و توجب تفرقها و لقوله صلى الله عليه وآله: «من فارق الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه» (٤) و قوله صلى الله عليه وآله: «لا هجرة فوق ثلاث» (٥) و قول الصادق عليه السلام «ولا خير في المهاجرة» (٦) إلى غير ذلك من الأخبار الدالة

(١) الكافي كتاب الايمان والكفر باب مجالسة أهل المعاصي تحت رقم ٢ .

(٢) الكافي كتاب العشرة باب من يكره مجالسته ومرافقته تحت رقم ١٠ .

(٣) الكافي كتاب الايمان والكفر باب مجالسة أهل المعاصي تحت رقم ١ .

(٤) أخرجه احمد في مسنده كما في كنوز الحقائق للشيخ عبدالرؤف المناوي .

(٥) رواه الكليني في الكافي كتاب الايمان و الكفر باب الهجرة عن أبي عبدالله

«ع» عن النبي «ص» ، و روى البغاري في صحيحه ج ٨ ص ٢٣ من حديث أنس بن مالك

«لا يجعل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام» .

(٦) رواه الكليني في الكافي كتاب الايمان والكفر باب الهجرة تحت رقم ٤ .

على الأمر بالنصاف والتعاق والتعاشر والاجتماع ، و على النهي عن المهاجرة و قطع الرحم والتباعد والافتراق ولكثرة منافع الخلطة و فوائد ها التي لا توجد في العزلة مثل التعليم والتعلم والتأديب والتأديب والرفع والانتفاع والإمداد في المهمات و فضيلة الجماعة والجماعة والزّيارة والتبرّك برؤية العلماء والصلحاء والعبرة بمشاهدة الأحوال و كسب الأخلاق المرضيّة من أهلها و ثواب التأهل والنكاح و تكثير الأولاد إلى غير ذلك من المنافع الدنيويّة والأخرويّة ، و ينبغي أن يعلم أن كلا الاحتجاجين صحيحٌ ولكن ليست العزلة أفضل من المخالطة مطلقاً ولا المخالطة أفضل من العزلة مطلقاً ، بل كلّ في حقّ بعض الناس و في بعض الأوقات بحسب المصالح ، إذ لكلّ منهما مصالح و شرائط متفاوتة بحسب تفاوت الأشخاص والأوقات وقد مرّ أن من شرائط الاعتزال أن يبلغ الإنسان رتبة الكمال في القوة النظرية والعملية ويستغني عن مخالطة كثير من الناس و أن يعتزل المنهمكين في الدنيا الراغبين في حطامها السالكين سبيل العصيان التابعين لوساوس الشيطان فلولم يبلغ المعتزل تلك المرتبة أو لم تكن الجماعة موصوفين بالصفات المذكورة كانت المخالطة أفضل والاجتماع لنحصيل المحبّة والألفة أجدر و أكمل ، وبالجملّة النبي ﷺ ومن يقوم مقامه علماء حكماء وقد بيّنوا ما فيه صلاح الناس عاجلاً وآجلاً جليلاً وخفياً ولا ينافي تفاوته في أفرادهم كما أمروا بالنكاح تارة ونهوا عنه تارة وأباحوه تارة لتفاوت ذلك في أفراد البشر و من أراد أن يعرف مقاصدهم من أوامرهم ونواهيهم وتدبيراتهم وتقديراتهم ينبغي أن يعلم طرفاً من قوانين الأطباء و مقاصدهم من العبارات المطلقة ، فإنّه كما أن الأطباء معالجون للأبدان بأنواع الأدوية والعلاجات لغاية بقائها على صلاحها أو رجوعها إلى العافية من الأمراض البدنيّة كذلك النبي ﷺ و من يقوم مقامه أطباء النفوس و هم مبعوثون لعلاجها من الأمراض النفسانيّة كالجهل والحقد والحسد والرياء و سائر رذائل الأخلاق بأنواع الكلام من الآداب والنصائح والمواعظ والأوامر والنواهي والضرب والقتل والاعتزال والاختلاط ، و كما أن الطبيب قديقول إن الدواء الغلاني نافع من المرض

الفلاحي ولا يعني به في كل الأمزجة وفي كل الأوقات وفي كل البلاد بل في بعضها ، كذلك النبي ﷺ والقائمون مقامه إذا أطلقوا القول في شيء أنه نافع كالعزلة مثلاً فإنهم لا يريدون أنه نافع لكل إنسان وفي كل زمان (١) وكما أن الطبيب قد يصف لمريض دواء ويصف شفاء فيه و يرى أن ذلك الدواء بعينه لمريض آخر كالسم القاتل و يعالجه بغيره ، كذلك النبي ﷺ والقائمون مقامه قد يرون أن بعض الأمور دواء لبعض النفوس فيقتضون عليه و يأمرون به كالعزلة وقد يرون أن ذلك مضرّاً لغير تلك النفس فيأمرّون بضد ذلك مثل المخالطة وإن أردت أوضح من ذلك فنقول : إمّا أن لا يكون في الخلطة خير أصلاً أو يكون فيها خير والخير إمّا للطرفين أولاً أحدهما ، فهذه أربعة أقسام ، ثم الخير إمّا خير في الدنيا فقط ، أو في الآخرة فقط ، أو فيهما ، فينبعث منها أقسام يرجع في بعضها الخلطة و في بعضها العزلة و يتساوي في بعضها الأمران ، فللمعاقل العظام المتدرب أن يختار منها ما يقتضيه عقله و تدبيره والله أعلم بحقايق الأمور (٢) .

(١) فإن قيل إن الإطلاق يفيد التعميم فمن أين يفهم التخصيص ويعرف المورد الذي يخصص الحكم به؟ قلنا جميع ما ورد من هذه الأمور مقرون بقرائن و مبین بأسباب و معلل بعلم يظهر منها المراد مثلاً ورد في مدح العزلة «يهد ربه و يدع الناس من شره» و يعلم منه أن حسن العزلة للعبادة و سلامة الناس من شر المعتزل و يعرف من ذلك أن المعاشرة إذا كانت عبادة كتعلم الدين و القرآن أو تعليمهم أو كسب الرزق المعال للانفاق في سبيل الخير مع الأمن من أضرار الناس و إذا هم فلا يرجح العزلة عليها و كذلك المعاشرة والصحة مظنة الوقوع في المعاصي والحسد والغيبة و طول الآمال وبعث الشهوات الدنية والرغبة في حطام الدنيا و إعانة أهل الظلم والمعصية و تحسين أفعالهم السيئة والتسامح معهم بترك النهي عن المنكر وإذا لم تكن مستلزمة لهذه الأمور وأمثالها فلا ومثل ذلك الترغيب في كسب المال و مدح الفئاعة باليسير كلاهما معلل بعلم منها وجه كل منهما «ش» .

(٢) راجع تفصيل الكلام في مدح العزلة و ذمها و فوائدها و غوائلها و كشف الحق فيها المحجة البيضاء في تهذيب الأحياء كتاب العزلة.

(وكان الله أنسه في الوحشة) الأنس مصدر قولك آنست به أنساً من باب حسب أو من باب ضرب وهو ضد الوحشة، والمشهور فيه ضم الهمزة و سكون النون وقد جاء بكسرة الهمزة قليلاً و بفتح الهمزة والنون جميعاً، والحمل على سبيل المبالغة أو الأنس بمعنى الأنيس و يؤيد أنه نقله صاحب العدة بلفظ الأنيس و يحتمل أن يقرأ آنسه على وزن الفاعل و أصله آنساً به أضيف إلى الضمير بعد حذف الجار من باب الحذف والايصال، و صح إطلاق الأنس عليه سبحانه كما قال أمير المؤمنين عليه السلام في دعائه: «اللهم إنيك أنس الأنسين بأوليائك»، والوحشة بمعنى الخلوة أو بمعنى الهم والحزن الحاصلين له بسبب فقد الألفة بينه وبين بني نوعه وعشيرته أو بسبب الغربة والانفراد من جهة العزلة خصوصاً في مبادئها أو بسبب عدم تعاوده لذلك المكان إذ غير المألوف من المكان يوجب الوحشة كما يحكم به التجربة، و محصل معناه أن المعتزل لو حصلت له وحشة ما لأجل تركه صحبة بني نوعه وعشيرته و سلوكه طريق الحق بالمحبة الراسخة والنية الصادقة و الرغبة الكاملة كان الله أنيسه الذي يرفع وحشته و يدفع عنه حزنه و كربته و يصرف وجه قلبه إلى شطر كعبة وجوده و يسره بمطالعة أنوار كبريائه و مشاهدة إضافات جوده حتى يرى كل خير حاضراً و كل كمال ظاهراً، فهو بكرمه يألف، وبفضله يستزيد، وبرحمته يستفيض كل ما يريد (و صاحبه في الوحده) والله سبحانه و إن كان صاحب الكل في كل الأوقات كما قال الله تعالى: «ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أين ما كانوا» لكن المقصود هنا إفادة الاختصاص كما يفيد الإضافة ووجه ذلك أن الرّجل إذا ترك متاع الدنيا وأبناءها، و أعرض عن الاستماع به و اقتنائه، و اختار الوحدة والانفراد، و تمرّن على الطاعة والانقياد، وأقبل بحسن الطوية إليها و حبس نفسه بزم مام المشيئة عليها وفك عنه أغلال المآذات الدنيوية و قطع عنه أنواع العلاقات النفسانية والهيئات البدنية بحيث لا يبقى معه شيء إلا التفكير في ذاته وصفاته تعالى و ما يوجب قرب به يستقبله حينئذ نور الحق كمال قال: «من

تقرب إليّ بذراع تقرّبت إليه بباع (١) «وينزله على بساط العزّ والمصاحبة ويشرّفه بشرف
الأنس والمكالمة ويكرمه بأنواع التعظيم والمخاطبة حتّى إذا ناداه أجا به بلبّيك وإذا سكت
ناداه يا عبدي أنا مشتاقٌ إليك لم سكت عن عرض الحالات والمقالات بعد الترخّص
لك بالأجوبة والسؤالات وعند ذلك ينكشف عنه الحجاب ويسكن فيه عروق
الاضطراب، ويزول عنه لواحق الوحشة والاضطراب، فيقول: لا إله إلاّ أنا ولا أشرك
بك أحداً، وتسيل عليه الكرامات الإلهيّة والسّعادات الرّبّانيّة والكمالات النفسانيّة
مالم يكن يخطر بباله أبداً (٢) (وغناه في العيلة) الغناء بالفتح والمدّ النفع، و
قيل: الكفاية وبالكسر والقصر اليسار والحمل على سبيل المبالغة والمصدر بناوِيل
الفاعل، والعيلة بالفتح الفقر والفاقة يعني أنّه سبحانه نفس غناه أو مغنيه في وقت
حاجته وفقره لا غيره إذ عين افتقاره حينئذ لا تنفتح إلاّ إليه ويد اضطرابه لا تنحرك
إلاّ بين يديه ولا مارجاً له سواء حتّى يكله عليه، واعلم أنّه يحتمل أن يراد بالفقر
والغناء ما هو المعروف بين النّاس وهو أن يجد من متاع الدّنيا ما يعيش به و
يسدّ خلله و يقيم أمره و يكمل نظامه و يرضون وجهه و أن يفقد ذلك و يحتمل أن
يراد بهما الغنى والفقر الأخرويين وقد شاع إطلاقهما عليهما قال أمير المؤمنين عليه السلام:
«الغنى والفقر بعد العرض على الله سبحانه» (٣) يعني هما يتبيّنان يوم القيمة ويتحقّقان بعد
العرض على الله سبحانه وبعد الفراغ من الحساب والفقر في ذلك اليوم من تحيّر
في خسارة نفسه و حرم من كرامة ربّه والغنى من تحلّى نفسه بالأخلاق والكمالات

١- الباع ضعف الذراع والخبر رواه البخارى فى صحيحه ج ٩ ص ١٩٢.

٢- وقد روى عن عمران بن الحصين وهو من اصحاب رسول الله «ص» أنه قال: كان يسلم
على معنى الملائكة كانوا يسلمون عليه فى خلواته فاكتويت يعنى عالج نفسه فى مرض
طرى عليه بالكى وانقطع السلام منهم لكراهة العلاج بالكى. ثم منع الراوى ان يروى
حديثه مادام حيا لانه خشى ان بهجم عليه الناس للتبرك به فيؤذوه او يتوقعوا منه شيئا
لا يقدر عليه و عمران هذا كان ممن رجع الى امير المؤمنين وكان يندر على من قال براه
فى المتعة و كشف الامور المكونية لا يحصل الا لمن يعتزل الناس ويانس بالوحدة (ش)
(٣) النهج أبواب الحكم تحت رقم ٤٥٢.

و استحقّ الفوز بالسعادات والكرامات و نظر إليه ربّه بعين الرّحمة و الغفران و أنزله أعلى درجات الفردوس و أشرف منازل الجنان ، و هذا الاحتمال أقرب من الأوّل لأنّ الفقر بمعنى الإفلاس في الدّنيا سهل لأنّه يتقطع شدائده بموت بخلاف الفقر والإفلاس في الآخرة فإنّه يوجب الهلاك الدائم والشقاء الأبدي (و معزّه من غير عشيرة) المعزّ من العزّ خلاف الذّل أو خلاف الضعف بمعنى القوة والشدّة ، والمعنى وكان الله معزّه في الآخرة بالثواب الجزيل أو في الدّنيا بالذكر الجميل والمدح الجليل و بإفاضات الأسرار الغيبية وكشف الحقائق العينية، والثاني أنسب بقوله «من غير عشيرة» لأنّ العشيرة و هي القبيلة المتأكّدة بينهم العشيرة والصحبة توجب العزّ في الدّنيا .

(يا هشام نصب الحقّ لطاعة الله) نصب إمّا على البناء للمفعول أي أقيم الحقّ يعني الدّين بإرسال الرّسل و إنزال الكتب لأجل طاعة الله في أوامره و نواهيه، ولو تركت الطاعة صار الحقّ موضوعاً والدّين مخفوضاً و هو يوجب زواله بالكليّة و إمّا على البناء للمفاعل لكن بحذف الفاعل أو استتاره أي أقام الله تعالى الحقّ يعني الدّين لطاعته، وهذا قريب ممّا ذكر بحسب المعنى أو بحذف المفعول ، والمراد بالحقّ هو الله تعالى أي أقام الله تعالى خلقاً أو ديناً لطاعته في الأوامر والنّواهي و إمّا على المصدر و المراد بالحقّ الدّين كما في الأوّل أي إقامة الدّين الحقّ بتحقيق طاعة الله بفعل ما أمره وترك ما نهاه (و لانيّة) (بالطاعة) أي لانيّة من الشدايد الأبدية والعقوبات الأخروية على سبيل الحتم والجزم إلّا بطاعة الله و اتقياده و أوامره و نواهيه أو الحصر إضافي بالنسبة إلى المعصية ، و على التقديرين لا ينافي ذلك حصول النجاة في بعض الأحيان بالعفو والغفران كما دلّ عليه بعض الأخبار و آيات القرآن ، و يحتمل أن يراد أنّه لانيّة للإنسان من الظلمات البشريّة والهويّات النّاسوتية في عالم الأجسام وعالم الأشباح ولا يحصل لهم الترقّي إلى مشاهدة الأنوار الرّبوبية والأسرار اللاهوتية في عالم المجرّيات ، و عالم الأرواح إلّا بالطاعة إذ هي مرعاة للإنسان في البلوغ إلى غاية

مرامهم والوصول إلى نهاية مهامهم وهي التشبه بالرّوحانيين والدّخول في زمرة المقرّبين . و اعلم أنّ الغرض من هاتين الفقرتين بيان أنّ الطاعة أصل عظيم إذ بها يتحقّق إقامة الدّين والنّجاة من العذاب المهيّن كما عرفت ثمّ بين أنّها متوقّفة على العقل بثلاث مقدّمات آتية على سبيل القياس المفصول النتائج ليظهر لكشرافة العقل و أصالته بالنّسبة إلى جميع المقاصد وهذا غاية المدح والتعظيم له و لمن اتّصف به (والطاعة بالعلم) أي الطاعة متوقّفة على العلم إذ هي عبارة عن فعل المأمور به و ترك المنهيّ عنه و كسب الأخلاق المرضيّة والأطوار الحسنة للتقرّب بالحقّ فلا بدّ من العلم بهذه الأمور و بصفات الحقّ ممّا يجوز له و ما يمنع عليه و بأحوال المعاد (والعلم بالتعلّم) أي العلم بالأموال المذكورة موقوف على التعلّم إمّا بلا واسطة بشر كالأنبياء والرّسل و معلّمهم هو الله سبحانه أو بواسطة بشر كما للأئمّة فإنّ معلّمهم هم الأنبياء والرّسل عليهم السلام بالإرشاد والهداية ، وأمّا مفيض العلوم والصور فليس إلّا هو و يحتمل أن يراد بالعلم معناه على الإطلاق تصوّريّاً كان أو تصديقيّاً ، ضروريّاً كان أو نظريّاً دينيّاً كان أو غيره ، فإنّ حصول كلّها للبشر متوقّف على التعلّم من المعلّم الحقيقي و هو الله سبحانه بالأفاضة أو الإلهام أو التعليم بواسطة أودونها (والتعلّم بالعقل يعتدّ) من اعتقاد الشيء إذا اشتدّ و صلب أو من عقدت الحبل فاعتقد والزيادة للمبالغة ، و في بعض النسخ «يعتقل» باللام من اعتقل الرّجل أي حبس ومنع والظرف متعلّق ب«يعتقد» قدم المحصر ، أو للاهتمام يعني تعلّم الأحكام والمعارف معقود بالعقل و محكم به ، أو محبوس عليه ملازم له لا يحصل بدونه لأنّ العقل هو القابل لجميع العلوم فلولم يكن للمتعلم عقل منفعل بالقوّة قابل لفيضاتها من المعلّم العالم بها بالفعل كان تعلّمه بلا فائدة وسعيه بالأثر كالراقم على الماء .

(و لا علم إلّا من عالم ربّانيّ) في النهاية الرّبّانيّ منسوب إلى الرّبّ بزيادة الألف والنون للمبالغة و قيل : هو من الرّبّ بمعنى التربية كانوا يرثون المتعلّمين بصغار العلوم قبل كبارها ، والرّبّانيّ العالم الرّاسخ في الدّين أو الدّني يطلب

بعلمه وجه الله و قيل : العامل المعلم و في الصّحاح و القاموس الربّاني المئالة العارف بالله تعالى و في الكشف الربّاني هو شديد التمسك بدين الله تعالى و طاعته و في مجمع البيان هو الذي يربّ أسر الناس بتدبيره له و إصلاحه إيّاه و هذه الجملة اعتراضية وقعت بين كلامين متّصلين معنى لنكتة وهي التنبيه على أنّه يجب على المتعلّم أن يأخذ العلم من العالم الربّاني دون غيره أو يقال لأنّه وقع حقيقة في آخر الكلام لافادة نكتة يتمّ أصل المعنى بدونها وهي زيادة المبالغة و التأكيد لما يستفاد من قوله والعلم بالتعلّم فأنّه يفهم منه أن حصول العلم موقوف على التعلّم من العالم الربّاني إذ المراد بالعلم العلم الالهي فظاهر أن العلم الالهي إنّما يستفاد من العالم الربّاني، و إنّما قلنا حقيقة لأنّ ما بعدها نتيجة للسابق فكان الكلام قد انتهى وتمّ قبل ذكره من غير حاجة إليه.

(و معرفة العلم بالعقل) هذا في الحقيقة نتيجة للكلام السابق وهو قوله : والعلم بالتعلّم والتعلّم بالعقل فقد ثبت ممّا ذكر أن العلم والطاعة مع كونهما أصلين للوصول إلى الدرجة العظمى والبلوغ إلى المرتبة القصوى يتوقّفان على العقل و فيه غاية التعظيم للعقل و نهاية التكريم لأهله، و من العجائب أن أمة من السفهاء وزمرة من الحمقاء في عصرنا هذا (١) يعتقدون أنّهم الغاية الكبرى من الابداء والتكوين ويجالسون العلماء والعقلاء بصفة المنافيين وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنّنا معكم إنّما نحن مستهزؤون ثم الله يستهزئ بهم و يمدّهم في طغيانهم بعمهون.

١- كأنه يريد بهم المتظاهرين بالنصوف من اهل الدنيا من غير أن يكون لهم بصيرة في الدين و معرفة بالله ولا يملكون الاصطلاحات المتداولة عند العرفاء فضلا عن المعاني وذلك لان الدولة في ذلك العصر كانت للصوفية، والسلطان منهم و كل من كان يريد التقرب اليهم يتظاهر بالنصوف حتى يفوز بالمقامات والمناصب من غير أن يعرف شيئا منه و هكذا كل علم يكون وسيلة لنيل الجاه والمال في زمان كالطب والفقّه يكثر المتشبهون بالعلماء فيه وما لا يكون وسيلة اليهم الا يدعى به العلم الا المحقون به ولا يتشبه الجاهل به عالم لا يكون علمه طريقا إلى تحصيل الدنيا. (ش)

(يا هشام قليل العمل من العالم مقبول مضاعف) لأنَّ العالم بعرف ربِّه وما يليق به وما يليق وما صنع من إكرامه وإنعامه الذي يعجز عن ذكره اللسان ولا يحيط على وصفه البيان وما شرع من الأوامر والنواهي والأعمال والعبادات وشرائطها ومحسناتها وما يتخلَّص به العبد عن مخالفته و كَيْفِيَّة التخلُّص منها، وبالجملة يعرف حقيقة العمل ومصلحه وشرائطه وفوائده ومفاسده ويكون لأنوار تلك المعارف قلبه تقيّاً تقيّاً زكياً صافياً طاهراً مضيقاً . ويكون عمله وإن كان قليلاً خالصاً كاملاً مشتملاً على جميع الأمور المعتبرة في قوامه و كماله واعتباره و قبوله و تصاعده و تضاعفه فيكون مقبولاً مضاعفاً لأنَّ الله سبحانه حكيمٌ كريمٌ لا يردُّ عملاً صالحاً وإن كان قليلاً إذ الكثرة ليست من شرائط القبول كيف وقد مدحه في القرآن العزيز في مواضع عديدة و وعد الوفاء به مع الزيادة كما قال: «فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره» وقال: «من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها» (و كثير العمل من أهل الهوى والجهل مردودٌ) لأنَّ الجاهل لا علم له بشي من الأمور المذكورة بل ينظر إليها بعين عمياء فيخبط في كثير منها خبط عشواء وذلك لأنَّ إصلاح العمل طريقاً واحداً لا يعرفه إلا ذو فطنة ثاقبة وبصيرة كاملة، ولفساده طرق متكثرة فمن أراد أن يسلك طريق العمل الصالح بلا بصيرة ولا دليل مع مرافقة الجهل والهوى النفسانية والوساوس الشيطانية ضلَّ عنه وسلك أحد هذه الطرق المضلّة، ثمَّ كلَّما بالغ فيه وأكثر صار أبعد من الحقِّ وأقرب من الباطل وأفسد عليه سعيه وعمله فيكون عمله مردوداً عند الله تعالى إذ لا يصعد إليه إلا العمل الصالح، ولو فرض أنَّ عمله مشتمل على جميع الأمور المعتبرة في صلاحه نادراً كان ذلك مثل الكثير لأنَّ الاتِّفاقيات من الأعمال غير معتبرة بل لا بدُّ من وقوعها على إيقان وتصديق هذا وللبعض الناظرين في هذا الكلام كلام طويل في تفسيره و ظنّني أنَّ المقصود منه ليس ما ذكره وهو أعرف بما قال، وحاصله بعد حذف الزوائد (١) أنَّ العلوم الحقيقية والمعارف الإلهية تطلب لذاتها لا للعمل ثمَّ هي

(١) لخصه أيضاً صاحب الوافي بلفظ أجمع واخصر قال: قليل العمل من العالم

تصلح القلب و تصقله لأنّه ينكشف جلال الله و عظمته في ذاته و صفاته و أفعاله و الأعمال لما كانت وسيلة إليها . معينة لها ، حافظة إيتاها تطلب لأجلها ، ففضيلة كلّ عمل إنّما هي بقدر تأثيره في صفاء القلب و إزاله الحجاب عنه فكلّ عمل كان تأثيره أكمل من غيره فهو أفضل ، و مراتب الانسان في ذلك مختلفة ، فربّ إنسان يكفيه قليل العمل في تأثير قلبه للطاقة طبعه ورقة حجابيه وربّ إنسان بخلافه لغلظة طبعه و كثافة حجابيه فربّما يؤثّر كثير العمل فيه تأثيراً قليلاً ، و بعد تقرير هذا يتبيّن معنى قوله (عليه السلام) «قليل العمل من العالم مقبول مضاعف» لأنّ معنى كونه مقبولاً أنّه مؤثّر في صفاء قلبه و إزاله الحجاب عنه ومعنى كونه مضاعفاً أنّ تأثيره في قلبه أضعاف تأثيره في قلب غيره ، و ذلك لأنّ ارتفاع أكثر الحجب عنه بممارسة العلوم فإنّ كلّ مسألة يحقّقها العالم تجلّي قلبه و تصقله ، فإذا ترادفت المسائل والعلوم يبلغ قلبه في الصفاء إلى حدّ لا يحتاج إلى كثير عمل لكن مادام الانسان في دار الغرور لا يستغنى بالكفاية عن عمل و كسب لالأجل إنشاء أصل التصقيل الذي قد فعل بل للمحافظة عليه و حرارته من الآفات و هي ممّا يكفيه

مقبول لانه يؤثّر في صفاء قلبه و ارتفاع الحجاب عنه ما لا يؤثّر أضماؤه في قلوب اهل الهوى والجهل لممارسة العلوم والافكار المجلية لقلبه والمصقلة له عن الرين والنين المعدة له لاستفاضة النور عليه بسبب قليل من العمل وقسوة قلوب اهل الهوى والجهل وغلظ حجبهم و جرمانية نفوسهم و بعدها عن قبول النصفية فلا يؤثّر فيها كثير العمل انتهى . وهذا معنى لطيف وتفسير معقول يصح أن يحمل عليه عبارة الحديث ولا موجب لظن الشارح أن مراد الحديث غيره وما ذكره الشارح من التفسير أيضاً لا بأس به مع نقصه وحاصله ان عمل أهل الهوى باطل غير جامع لشرائط الصحة و لذلك يرد و أما عمل أهل العلم فصحيح جامع لشرائط الصحة و لذلك يقبل، وهذا بين وجه كون عمل العالم مقبولا ولا بين وجه كونه مضاعفاً والعق أن عملاً واحداً جامعاً لشرائط الصحة يكون ثوابه للعالم افضل و اكثر من غير العالم ولا بد لتصور معنى التضاعف ان يكون للمعمل ثواب غير مضاعف للعامل ما وهذا العامل ليس هو العالم لان ثوابه مضاعف فهو جاهل غير معاند ولا تابع لمعاند (ش).

القليل من الأعمال و معنى قوله **عَلَيْهَا** و كثير العمل من أهل الهوى و الجهل - ل مردودٌ أنه لا يؤثر الأعمال الكثيرة في تلطيف قلوبهم و إزالة الحجاب والغشاوة عنها لأن قلوبهم قاسية و نفوسهم جرمانيّة و سدّهم شديد.

(يا هشام إن العاقل رضي بالدُّون من الدُّنيا مع الحكمة) النفس حيوتان و موتان بازاء كلّ حياة موت ، الحياة الاولى للنفس تعلّقها بهذا البدن و تصرّفها بهذا النحو من التعلّق و التصرف المعلومين ، و موتها انتقالها من هذا البدن و انقطاع تعلّقها و تصرّفها فيه. الحياة الثانية ابتهاجها بكمالاتها و صفاتها و أعمالها و أخلاقها المرضيّة الموجبة لقرب الحقّ جلّ شأنه ، و موتها فقدّها لنلك الكمالات والأعمال والأخلاق و تحيّرُها في ظلمات أضدادها ، والعاقل يعلم قطعاً أنّ الحياة الاولى حياة مجازيّة لسرعة انتقال النفس عن البدن وقلّة مدّتها ، و أنّ الاحتياج إلى زهرات الدُّنيا التي هي سبب لهذه الحياة إنّما هو يقدر بقائها في تلك المدة القليلة و إنّ الزائد على ذلك وبال عليه و تضييع العمر فيما لا يحتاج إليه ، و يعلم أنّ الحياة الثانية حياة حقيقيّة أبدية لعدم انصرافها أبد الآبدين و إنّ سبب هذه الحياة هي الحكمة و قد عرفت تفسيرها آنفاً فيرضى مع الحكمة الموجبة للحياة الأبدية بالدُّون من الدُّنيا والقليل منها الذي هو سبب للحياة المجازيّة (ولم يرض بالدُّون من الحكمة) و قليل من العلم والمعرفة (مع الدُّنيا الكثيرة) الزائدة التي لا يحتاج إليها في بقاء الحياة الدُّنيويّة ، فأولئك اشتروا الأشرف بالأخس والأعلى بالأدنى حيث استبدلوا الحكمة التي قال الله تعالى في وصفها «و من يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً» بما لا يحتاجون إليه من فضل الدُّنيا و اختاروها عليه (فلذلك ربحت تجارتهم) ضمير الجمع باعتبار إرادة الجماعة من الجنس و إسناد الربح و هو الفضل على رأس المال إلى التجارة وهي طلب الربح بالبيع والشرى إسناد مجازي لأنّ الربح حقيقة للتاجر إلّا أنّ التجارة لما كانت متعلّقة بالتاجر و متلبّسة به و سبباً للربح أسند الربح إليها اتساعاً . وفيه حتّ بليغ على الزّهد في الدُّنيا و زهراتها إلّا القدر الذي له مدخل في البلغة والحياة فإنّ زهراتها مع عدم الاحتياج إليها شاغلة للفكر مانعة للقلب عن التوجّه إلى حضرة القدس ، باعثة لشدة الحساب ؛ مقرّبة إلى العقاب ، محرّكة للأمال ، منسئة

لآجال ، مذهباً للعبادة وحلاً وتهاداعية للنفس الأمارة إلى شقاوتها ، وحضٌ عظيم على طلب الحكمة (١) فإن السعادة في الدارين والفاضل في النشأتين إنما تحصل بها بل هي عين السعادة العظمى والغاية القصوى والفضيلة الكبرى ، بها يتم نظام الدين ؛ و يحصل قرب رب العالمين ، والوصول إلى أعلى منازل المقرّبين ، و لذلك أمر الله سبحانه حبّيه و صفيّه بعد تشرّفه بشرف الرّسالة و تحليه بلباس الكرامة فقال : عزّ شأنه و جلّ برهانه « قل ربّ زدني علماً ، ولو كان شيء أعظم من العلم لأمره بطلب زيادته .

(يا هشام إنّ العقلاء تر كوا فضول الدّنيا) وهي المباحات (فكيف الذنوب) الموبقة المورثة لخزي الوبال و شدايد النكال ، فانّهم تر كوها بالطريق الأولى وأعلم أنّ أمور الدّنيا على تكثيرها مندرجة تحت الأحكام الخمسة ، لأنّها إمّا حرام أو حلال ، والحلال إمّا واجب أو مندوب أو مكروه أو مباح ، والمراد بالفضول هو الأخيران ، وبالذنوب هو الأول و إمّا الواجب وهو تحصيل القدر الضروري الذي لا يمكن النعيش والبقاء بدونه ، والمندوب وهو الزّائد على ذلك ممّا يتوسّع به الرّجل على نفسه و عياله على حدّ القانون الشرعي الذي يسمّونه كفافاً فليس بمذموم بل هو واجب أو مستحسن عقلاً و نقلاً ، إذا تبين ذلك فنقول : العقلاء تر كوا فضول الدّنيا لأنّها مذمومة إذ لا دّم فيها بل اغاية تنزّههم ونهاية تقدّسهم و كمال حراستهم صرف العمر فيما يشغل القلب عن ذكر الله تعالى ومشاهدة عظمته و جلاله و مخافة أن ينجرّ ذلك إلى الحرام كما قال ﷺ : « لا يكون الرّجل من

(١) سبق أن الحكمة - وهي العلم باحوال الوجود على ما هو عليه بقدر الطاقة البشرية -

علم مرغوب فيه شرعاً وهي تشمل الحكمة النظرية من الطبيعي و الرياضي والالهي و الحكمة العملية كل ذلك بالدليل و اما التقليد وهو أخذ الشيء من غير دليل من غير المعصوم فمذموم والضلال يحصل من ترك التمسك بالتقليد فقط فكماضيل بعض الفلاسفة لتلك الملة فقدضل اقوام لم تكونوا عازفين بالحكمة اصلاً (ش)

المتقين حتى يدع ما لا بأس به مخافة ما به بأس ، و ذلك مثل الاجتناب عن التحدث بأحوال الناس لمخافة أن ينجر ذلك إلى الغيبة ، و إذا تركوا الفضول لهذه الأمور تركوا الذنوب الموجبة للعذاب المهيئ ، والبعد عن رحمة رب العالمين ، المحركة للنفس إلى أسفل السافلين ، والدأعية لها إلى الخسران المبين أو ترك الدنيا من الفضل وترك الذنوب من الفرض (الجملة حالية وهي كائنات كيد للسابق والدليل عليه ، لأن ترك فضول الدنيا إذا كان من باب الفضل والكمال دون الفرض وترك الذنوب والاجتناب عنها من باب الفرض الذي يطلب به النجاة عن عقوبات الدنيا والآخرة فهم إذا ارتكبوا ما ليس بفرض ارتكبوا ما هو فرض قطعاً وإنما قال : و ترك الدنيا ، ولم يقل : و ترك فضول الدنيا للتنبيه على أن غير الفضول وهو القدر الضروري ليس من الدنيا في شيء ، لأن المقصود منه حفظ النفس والاستعانة به على العمل للآخرة في طلب عبادة كما روي «الكاذب» على عياله كالمجاهد في سبيل الله (١) ، والعبادة لا تعد من الدنيا . (١)

(يا هشام إن العاقل نظر) بعين البصر والبصيرة (إلى الدنيا و إلى أهلها) الطالبين لزهراتها ، الغارقين في شهواتها ، المائلين إلى أدائها (فعلم أنها لا تنال إلا بالمشقة) لما رأى من أهلها في تحصيلها من خوض اللجج و سفك المهج و قطع البحار و طي القفار في التجارات و صرف الأعمار و قصر الأفكار في الزراعات

(١) الكافي ج ٥ ص ٨٨ رقم تحت ١ .

(٢) جميع ما عدهنا من مناقضات العقل هي من آثار الوهم وما عده من علائم العقل هو من مناقضات الوهم عليك بالنال فيها بعد ما تنبه عليه أنموذجا ومثالا فحب المال والجاه والنجم والرياسة و امثال ذلك مما يسمى بالدنيا إنما هو من الوهم والوهم حس يدرك به المعاني الجزئية كما يدرك الغنم وحشة من الذئب وعداوة فيه يبعثه على الفرار منه والام تدرك محبة المولود تبعثها على ارضاعه و حضنته و اهل الدنيا يدركون في انفسهم محبة للمال والجاه يبعثهم على الخيانة والفساد والسعي في جمع المال من أي وجه كشهوة تجرهم من غير اختيارهم إلى شئ يضرهم (ش) .

إلى غير ذلك من أنحاء الأسباب و أنواع الاكتساب ، و في حفظها من دوام السهر ليلاً و نهاراً و جعلها نصب العين سرّاً و جهراً إلى أن يموتوا أو يقتلوا ذلاً و صفاراً (و نظر) بعين البصيرة (إلى الآخرة) و مقاماتها الرفيعة ، و منازلها الشريفة ، و مثوباتها الجزيلة ، و منافعها الجميلة و إنما لم يقل هنا «و أهلها» كما قال في قرينته للتنبيه على قلتهم بل على عدم وجودهم (فعلم أنها لا تنال إلا بالمشقة) الحاصلة من صرف الفكر في المعارف الإلهية و الأحكام الربانية في جميع الأوقات و حبس النفس و الجوارح على الطاعات في آنا، الليل و أطراف النهار و أشرف الساعات ، و علم مع ذلك أن الدنيا و الآخرة كضرتي إنسان في أن محبة أحديهما إسقاط للأخرى ، أو مثل كفتي ميزان في أن رفع أحديهما وضع للأخرى (فطلب بالمشقة أبقاهما) لما جبلت النفوس عليه من عدم تحمل المشاق إلا لأجل المنافع و المنافع الآخروية أجل قدر أو أعظم شأناً و أدوم زماناً من المنافع الدنيوية بل لانسبة بينهما إذا المتناهي لا يقاس بغير المتناهي كما قل عز شأنه حكاية عن قوم حين شاهدوا أهوال القيمة و علموا طول زمانها و سئلوا عن كمية زمان تلبسهم في الدنيا « قالوا لبئسنا يوماً أو بعض يوم فاسأل العادين » و قال أمير المؤمنين عليه السلام « لو كانت الدنيا من ذهب و الآخرة من خرف لاختر العاقل الخرف الباقي على الذهب الفاني » كيف و الأمر على العكس هذا حال العاقل ، و أمّا الجاهل فلكونه ضريباً يرى أمر الدنيا عظيماً و أمر الآخرة حقيراً ، و ربّما يخطر من تدليس إبليس بباله القاصر و ذهنه الغائر أن النقد خير من النسبة فيختار الدنيا على الآخرة و لا يعلم لعميان قلبه (١) و نقصان بصيرته أن النقد خير من النسبة

(١) عميان القلب و نقصان البصيرة من غلبة الوهم على العقل و مثل لذلك المنطقيون بأن العقل يركب مقدمات صحيحة يعترف بها الوهم فإذا اراد الاستنتاج نكس الوهم على عقبيه كالشيطان ، مثلاً يقول العقل الميت جماد و هو حق و الجماد لا يخاف عنه و هو أيضاً حق يعترف به الوهم و النتيجة الميت لا يخاف عنه يعترف به العقل دون الوهم فإن كان الإنسان تابعاً لوهمه خاف ، و إن كان تابعاً لعقله لم يخف ، و الوهم هو السلطان المطلق

إذا كان مماثلاً لها في الكمية والكيفية وليس الأمر ههنا كذلك إذ هذا النقد لا قدر له أصلاً ولا وزن له قطعاً عند هذه النسبة على أن أصحاب الإيمان وأرباب العرفان لكثرة عبادتهم وشدة رياضتهم يجدون نقداً من الفيوضات الإلهية والإشرافات الربانية ما لا يرضون بعوض واحد منها أخذ الدنيا وما فيها .

(يا هشام إن المقلا زهدوا في الدنيا) وأعرضوا عن حطامها وزهراتها الفانية وطهروا ساحة قلوبهم عن طول الأمل و لوث العوائق وقطعوا عن رقاب نفوسهم زمام التمثني وحبل العلائق (و رغبوا في الآخرة) وطلبوا ثوابها باستعمال العبادات واستكمال الطاعات واجتهدوا في الوصول إلى أشرف المنازل وأرفع المقامات فتاهت أرواحهم في مطالعة الملك والملوكوت ، وكشفت لهم حجب العز والجبوت ، وخاضوا في بحر اليقين ، وتنزهوا في رياض المنقين ، وركبوا سفينة التوكّل وأقلعوا بشراع التوسل ، و ساروا بريح المحبة في جداول قرب الغرة وحطوا بشاطئ الإخلاص (١) حتى نزلوا في ساحة الجلال ومنزل الاختصاص (لأنهم علموا أن الدنيا طالبة لمن فيها لتوصل إليه ما عندها من رزقه المقدّر وقوته المقرّر (مطلوبة) يطلبها أهلها حرصاً في جميع ما لا يحتاج إليه و ذخراً ما

هو والعالم في الحيوان ويمر في زمانها في لسان العوام بالفرجة والفطرة وقد يطلق عليه المواطن في الإنسان والوهم مع تلبطه ومعارضته العقل له شأن كبير ومصالح عظيمة خلق الله تعالى تلك المصالح فلمولا الخوف والوهم لم يرض الناس بدفن اعزتهم واحبتهم في الزراب ولما تحمل احد مشقه تربية الاولاد ولما دافع الناس عن اعراضهم واموالهم واقاربهم ولما خاطروا بانفسهم في سبيل جمع المال وتحصيل الجاه فان ذلك كله ناش من تصور معنى جزئى كالمحبة والعداوة ينبعث منه الغضب والشهوة لكن الانسان مأمور بتسخير وهمه لعقله وأن يستعمله حيث يجوزه العقل وسائر الحيوان مجبولة بمتابعة اوهاهم ولا عقل يردعهم عما يامر به وهمهم (ش).

(١) و حطوا أى انزلوا رحالهم والدنيا لا تطلب الا بالوهم فانها مال و جاه و رياسة و غلبة و تلذذ و امثال ذلك من القوة الواهمة والعقل معارض لها (ش).

يكون نفعه لغيره و ضرره عليه (والآخرة طالبة) لمن في الدنيا لنوئيه ما عندها من وقته المقرّر وأجله المقدّر، إذ الأجل مثل الرزق مكتوب مقدّر (ومطلوبة) يطلبها أهلها للوصول إلى أشرف درجاتها و أرفع طبقاتها بالأعمال الصالحة والأخلاق انفاضة، وفي ترك عطف «مطلوبة» على «طالبة» في الأول وعطفها في الثاني تنبيه على أن المتحقق من نسبة الطالبيّة و المطلوبة إلى الدنيا والواقع منهما في نفس الأمر هو المطلوبة بناء على أن النفي والإثبات في الكلام راجعان إلى القيد كما هو المقرّر في العربيّة و وجهه ظاهر اظهور أن الناس كلّهم إلا من شذّ طالبون للدنيا بخلاف نسبتها إلى الآخرة ، فإنّ طالبيتها أيضاً متحققة في نفس الأمر هذا إن جعلت «مطلوبة» صفة «لطالبة» و قيداً لها و إن جعلت خبراً بعد خبر كما هو الأنسب بانقرينة الثانية فالوجه في ترك العطف هو الإيما، إلى كمال اتصال مطلوبيّة الدنيا بطالبيّتها ، و نهاية ربطها بها ، وعدم افتراقها عنها باعتبار أن الدنيا في الواقع مطلوبة لكلّ فلاحاجة هنا إلى رابطة مستفادة من العطف بخلاف مطلوبيّة الآخرة فإنّه لا اتصال بينها و بين طالبيّتها لوقوع الافتراق بينهما باعتبار قلّة طالب الآخرة فاحتيج في ربط إحديهما بالآخرى إلى العطف هكذا فافهم ، ثمّ الطالبيّة والمطلوبيّة في كلّ واحدة من الدنيا و الآخرة يمكن أن تتصور على وجهين أحدهما أن كلّ واحدة من الدنيا والآخرة متصفة بهما مع قطع النظر عن الأخرى ، و ثانيهما أن كلّ واحدة منهما طالبة عند كون الأخرى مطلوبة ومطلوبة عند كون الأخرى طالبة ، والوجه الثاني هو المراد هنا كما يرشد إليه قوله عليه السلام (فمن طلب الآخرة) و سعى لها سعيها طلباً لمقاماتها العالية ، و إنّما قدّم هنا طلبها على طلب الدنيا للاهتمام به ، والتنبيه على أنّه هو الذي يجب رعايته، وعكس في السابق باعتبار تقدّم الدنيا على الآخرة و ملاحظة وقوع طلبها في نفس الأمر (طلبته الدنيا حتّى يستوفي منها رزقه) كما قال الله سبحانه « و في السّماء رزقكم و ما توعدون . فو ربّ السّماء والأرض إنّّه لحقّ مثل ما أنتم تنطقون » و قال : « و ما من دابة في الأرض إلا على الله

رزقها ، وقال رسول الله ﷺ : « إن الروح الأمين نفث في روعي أنه لا يموت نفس حتى تستكمل رزقها (١) » وقال الصادق عليه السلام : « لو كان العبد في جحر لا تاه الله برزقه (٢) » وقال أمير المؤمنين عليه السلام : « الرزق رزقان رزق تطلبه ورزق يطلبك فإن أنت لم تأت به أنك » وقال : « يا ابن آدم لا تحمل هم يومك الذي لم يأتك على يومك الذي أتاك فإنه إن يك من عمرك يأتي الله فيه برزقك (٣) » وقيل لبعض الأكابر : قد غلّا السعر ، فقال : لو كان وزن حبة من الطعام بمثقال من ذهب ما باليتُ فإن عايينا أن نعبد كما أمرنا ، وعليه أن يرزقنا كما وعدنا . ومن ثم قيل : أترك الدنيا وخذها فإن تركها في أخذها وأخذها في تركها (و من طلب الدنيا) وسعى لها سعيها و صرف عمره الذي هو رأس ماله في أدخار متقنيات (طلبته الآخرة) حتى يستوفي منها أجله (فيأتيه الموت فتفسد عليه دنياه و آخرته) أما فساد دنياه فلا نقطاعها عنه وعدم وفائها وزوال تصرفه فيها وعود ما جمعه إلى غيره حتى كأنه كان عبداً لذلك الغير ، و أما فساد آخرته فلأن صلاح الآخرة إنما هو باكتساب الأعمال المرضية و صرف المكروفي الأحكام النافعة الشرعية ، و هما إنما يكونان قبل الموت و في دار الدنيا ، و هو قد كان في الدنيا عاملاً للدنيا ، و مكتسباً لآخارها ، و متفكراً في منافعها ، و عبداً لغيره ، فقد ظهر من هذا الحديث أن طالب الآخرة له الدنيا و الآخرة و طالب الدنيا خاسر فيهما ونظيره قول أمير المؤمنين عليه السلام : « الناس في الدنيا عاملان عامل في الدنيا للدنيا قد شغلته دنياه عن آخرته ، يخشى على من يخلفه الفقر و يأمنه على نفسه ، فيفنى عمره في متعة غيره ، و عامل عمل في الدنيا لما بيدها فجاءه الذي له من الدنيا بغير عمل ، فأحرز الحظين معاً ، و ملك الدارين جميعاً فأصبح وجيهاً عند الله تعالى

(١ و ٢) رواه الكليني في الكافي ج ٥ ص ٨٠ باب الاجمال في الطلب من

كتاب المعيشة.

(٣) النهج ابواب الحكم تحت رقم ٣٢٩ بأدنى اختلاف .

لا يسئل الله حاجة فيمنعه (١) وفيه ترغيب في تفويض الرزق إلى الله تعالى والتوكل عليه وتنبيه على أنه لا يبلغ هذه المرتبة إلا العقلاء لأنهم الذين إذا تأملوا بعقولهم الصحيحة ونظروا إلى لطف الله تعالى في باب الرزاق وتفكروا في رزق الطيور والجنّة في بطون الأمّهات و رزق المجانين وسائر الحيوانات بلا تكلف ولا حيلة علموا أن وصول الرزق منوط بالمشيئة الإلهية وما قدر للشخص فهو يأتيه قطعاً ويطلبه جزماً ، فيكون طلبه عبثاً لا فائدة فيه و تضييعاً للعمر فيما لا يعنيه ، وصرفوا عنان الهمّة نحو الآخرة ساعين عابدين خاشعين متضرّعين لعلمهم بأن الآخرة و درجاتها لا تناول إلا بالأعمال الصالحة، فنسأل الله تعالى الاقتفاء بآثارهم والتمسك باطوارهم إنّه على ذلك قديرٌ و بالاجابة جدير .

(يا هشام من أراد الغنى بالمال) (٢) الغنى الدنيوي على وجهين أحدهما ما يدفع ضرورة الحاجة بحسب الاقتصاد والقناعة، وثانيهما المفهوم المتعارف بين أرباب الدنيا من جمع المال و ادخاره و الاتساع به فوق الحاجة و الغنى على الوجه الاول ممدوح عقلاً ونقلاً، و على الوجه الثاني مذموم والغنى الدني - وهو ما يدفع النزول في عذاب الجحيم ويوجب الوصول إلى جنات النعيم - مع تفاوت مراتبه كلّه ممدوح و الأنسب هنا هو الوجه الأول بقرينة التفريع الآتي و التنكير في قوله « بالمال » حينئذ للتكثير لأن الاقتصاد والقناعة يحتاج إلى قليل من المال وحمله على المعنى الأخير محتمل لكنّه بعيد جداً (وراحة القلب من الحسد) تارة بأنّه تمنى الرجل زوال النعمة من ذوى النعمة وعودها إليه ، و أخرى بأنه اغتمامه بخير يناله غيره من حيث لا مضرة عليه، و اتفق أرباب القلوب على أنّه من أعظم

(١) أورده الشريف الرضى في النهج أبواب الحكم تحت ٨ قم ٢٦٩.

(٢) الغنى بالمال هو القناعة و مقابله الطمع و توهم الحاجة إلى التجميل وادخار المال وهو من القوة الواهمة المعارضة للمعاذلة فإذا غلب العقل ذهب الوهم وكذلك الحسد من حب الغلبة والاستكثار وتصور العداوة وهى معانى جزئية تدركه الواهمة تبعث به الانسان على الاضرار و تمنى زوال النعمة والوساوس والافات النفسانية المضرة بالدين كلها من الواهمة ودافعه العقل . (ش)

أبواب الشيطان التي يدخل بها على القلب ، وعلى أنه من أقبح العوارض الرديئة للقلب و يتوارد من البخل والشر و يراد بالشر النذاذ الطبع بما يضر الناس و اغتمامه بما يوافقهم ، وعلى أنه مضر بالقلب . والحسد إما بالقلب فلا أنه يصرف فكره إلى الاهتمام بأمر المحسود والاعتماد بشأنه حتى لا يفرغ المنصرف فيما يعود نفعه إليه وينسى ما حصل له من الملكات الخيرية التي هي الحسنات المنقوشة في جوهره فتضمحل تلك الملكات على طول الحسد و اشتغال الفكر في المحسود و طول الحزن و الهم في أمره و يتضيّق وقته و يتوقى عقله من تحصيل الحسنات والخيرات ، ولذلك قال أمير المؤمنين عليه السلام « لا تحاسدوا فإن الحسد يأكل الإيمان كما تأكل النار الحطب » (١) وإما بالحسد فلا أنه يعرض له عند حدوث هذه الأعراض الشنيعة و الأمراض الرديئة طول السهر و سوء الاعتناء ، ويعقب ذلك رداءة اللون و سوء السحنة و فساد المزاج والقوى (والسلامة في الدين) من الآفات النفسانية و الوسواس الشيطانية (فليتضرع إلى الله عز وجل في مسئلته بأن يكمل عقله) أى علمه أو جوهره المجرد القابل (٢) له و فيه دلالة على أن العقل موهبة الهيّة و عطية ربانية لا يزداد ولا يكمل إلا بعنايته ، وعلى أنه سبب للأمور الثلاثة المذكورة أمّا للثاني فلأن العاقل الكامل يعلم أن الحسد لا ينفعه بل يضره و أنه صفة موجبة للمقت من الله جل شأنه لعلمه بأن الحاسد مضاد لأرادته لأنه تعالى هو المتفضل للكلّ و هو المفيض للخير إلى كل أحد بما يليق به و يصلح له فيعلم أن كلاً من الإعطاء والمنع وقع على وفق الحكمة والمصلحة فيطمئن قلبه بقسمة ربه ، و أما للثالث فلأن العاقل يعلم بنور عقله طريق الحق و كيفية سلوكه إلى حضرة

(١) رواه الكليني في الكافي كتاب الايمان والكفر باب الحسد .

(٢) يعنى نفسه والنفس الناطقة جوهر مجرد قابل للعلم كما سبق و القول المقابل لذلك هو ان النفس والعقل قوة جسمانية حالة في الدماغ ويلزمه ان يضمحل بالموت وفساد الدماغ كالنور يفتنى بفناء الدهن وهو قول الملاحدة والزنادقة وربما يتفوه به غير البصير من المنتحلين الى الاسلام والملحد المتظاهر بالدين . (ش)

القدس ويعلم آفات الدين و كيفيته اجتنابه عن تلك الآفات و يعمل بمقتضى عقله الصريح و ذهنه الصحيح فيتم له بهذين العلمين مع العمل نظام الدين و كمالاته ، ويسلم عن مفسده و آفاته ، وأما للأول فلما أشار إليه بقوله (فمن عقل قنع بما يكفيه) لأن العاقل إذا نظر إلى جلال الله و آثار ملكه وملكوته و إلى أحوال الآخرة و ما فيها من المقامات العالية و اللذات الروحانية و إلى ما حصل له عجالة من الأنوار العقلية و الفيوضات القلبية و إلى أن كماله فطام النفس عن الشهوات و نزاع القلب عن الأماني و الشبهات و ترك ما يمنعه من التوجه إلى الآخرة من الزهرات و خلوا السر عن النظر إلى الدنيا و ما فيها من المقتنيات استحق الدنيا و ما فيها و رجع بالكلفة إلى حضرة الحق و ما في الآخرة من المقامات فيقنع من الدنيا بقدر الكفاف و بما يقيم به بدنه و قواه و يقدره على الإقامة بالطاعات إذ التعرض للزائد على ذلك لقصور العقل و ضعف اليقين و فتور النيات و خلوا النفس عن المعارف النورانية و إلغها بالمحسوسات و انفتاح عينها إلى الأمور الدنيوية و الصور الوهمية و احتباسها في الظلمات و غفلها أن الدنيا كسراب بقيعة يحسبه الظلمآن ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً فيضيع سعيه و يزداد عليه الندامة و الحسرات (ومن قنع بما يكفيه استغنى) بما يكفيه عن الزائد أو بالآخرة عن الدنيا أو بالحق عن الخلق فإن من رضي بالقوت و توكل على الحي الذي لا يموت لم يفتقر إلى غيره لأجل المسكنة (ومن لم يقنع بما يكفيه لم يدرك الغنى أبداً) لأن الغنى هو الكفاف فمن لم يكفه الكفاف فجميع ما في الأرض لا يكفيه ، ولأن طلب الزيادة منوط بالحرص ، و مراتب الحرص غير محصورة ، فإذا حصلت له مرتبة من تلك المراتب طلب ما فوقها فلذلك قال عيسى عليه السلام لأصحابه : يا معشر الحوارين لأنتم أغنى من الملوك ، قالوا : وكيف يا روح الله؟ وليس نملك شيئاً ، قال : أنتم ليس عندكم شيء ولا تريدونه وهم عندهم أشياء ولا يكفهم .

((الاصل)):

« يا هشام إن الله حكى عن قوم صالحين أنهم قالوا : «ربنا لاتزغ قلوبنا بعد
 « إذهديتنا وهب لنا من لدنك رحمة . إنك أنت الوهاب » حين علموا أن القلوب
 « تزيع وتعود إلى عماها ورداها ، إنه لم يخف الله من لم يعقل عن الله ومن لم يعقل
 « عن الله لم يعقد قلبه على معرفة ثابتة يبصرها ويجد حقيقتها في قلبه ولا يكون أحد
 « كذلك إلا من كان قوله لمفعله مصداقاً وسراً لعلانيته موافقاً . لأن الله تبارك
 « اسمه لم يدُل على الباطن الخفي من العقل إلا بظاهر منه وناطق عنه .
 « يا هشام كان أمير المؤمنين عليه السلام يقول : ما عبد الله بشيء أفضل من العقل وما
 « تم عقل امرء حتى يكون فيه خصال شتى : الكفر والشر منه مأمونان ، والرشد
 « والخير منه مأمولان ، وفضل ماله مبذول ، وفضل قوله مكفوف ، ونصيبه من الدنيا
 « القوت ، لا يشبع من العلم دهره ، الذل أحب إليه مع الله من العز مع غيره ، والتواضع
 « أحب إليه من الشرف ، يستكثر قليل المعروف من غيره ويستقل كثير المعروف من
 « نفسه ، ويرى الناس كلهم خيراً منه وأنه شرهم في نفسه وهو تمام الأمر .
 « يا هشام إن العاقل لا يكذب وإن كان فيه هواه .
 « يا هشام لا دين لمن لا مروءة له ولا دين لمن لا عقل له ، وإن أعظم الناس قدراً الذي
 « لا يرى الدنيا لنفسه خطراً ، أما إن أبداً نكم ليس لها ثمن إلا الجنة فلا تبيعوها بغيرها .
 « يا هشام إن أمير المؤمنين عليه السلام كان يقول : إن من علامة العاقل أن يكون
 « فيه ثلاث خصال : يجيب إذا سئل وينطق إذا عجز القوم عن الكلام ويشير بالرأي الذي
 « يكون فيه صلاح أهلله ، فمن لم يكن فيه من هذه الخصال الثلاث شيء فهو أحمق
 « إن أمير المؤمنين عليه السلام قال : لا يجلس في صدر المجلس إلا رجل فيه هذه الخصال
 « الثلاث أو واحدة منهن فمن لم يكن فيه شيء منهن فجلس فهو أحمق .
 « وقال الحسن بن علي عليه السلام : إذا طلبتم الحوائج فاطلبوها من أهلها ، قيل : يا ابن
 « رسول الله ومن أهلها ؟ قال : الذين قص الله في كتابه وذكرهم ، فقال : إنما يتذكّر

« أولوا لألباب قال: هم أولوا العقول. »

« و قال علي بن الحسين عليه السلام : مجالسة الصالحين داعية إلى الصلاح »
« وآداب العلماء زيادة في العقل ، وطاعة ولاية العدل تمام العز ، واستثمار المال »
« تمام المروءة ، وإرشاد المستشير قضاء لحق النعمة ، وكف الأذى من كمال العقل »
« وفيه راحة البدن عاجلاً وآجلاً. »

« ياهشام إن العاقل لا يحدث من يخاف تكذيبه ، ولا يسأل من يخاف منعه ، ولا يعد »
« ما لا يقدر عليه ، ولا يرجو ما يعنف برجائه ، ولا يقدم على ما يخاف فوته بالعجز عنه. »

((الشرح)) :

(ياهشام إن الله حكى عن قوم صالحين أنهم قالوا ربنا لا تزغ) أى لا تمل من
الازغاة وهي الامالة (قلوبنا) من الحق إلى الباطل أو من الايمان إلى الكفر أو من اليقظة
إلى الغفلة أو من العلم والهداية إلى الجهل والغواية ، وقال صاحب الكشف لا تبتلنا
ببلايا تزيع فيها قلوبنا (بعد إزهديتنا) إلى الخيرات المذكورة و«بعد» نصب على
الظرف و«إذه» فى موضع الجر بالاضافة ، وقيل : «إذه» ههنا بمعنى أن ولما كان بين
الرغبة والرغبة تلازم وقد صدر منهم الدعاء بالنظر إلى الأولى أو لا صدر منهم
الدعاء بالنظر إلى الثانية ثانياً طلباً لزيادة الإفضال والإحسان و رجاء لمزيد النعمة
والامتنان (فقالوا : وهب لنا من لدنك رحمة) أى كرامة توجب قربنا منك والزلزلى
إليك والفوز بالفلاح لديك أو توفيقاً للمثبت على الحق أو الايمان أو مغفرة
للدنوب ، ثم قالوا لتأكيد رجائهم في إجابة دعائهم (إنك أنت الوهاب) فى
النهاية: الهبة العطية الخالية عن الأعواض فإذا كثرت سمى صاحبها وهاباً ، وهو من
أبنية المبالغة ، يعنى أنت الوهاب لكل طلبة و مسئلة أو اوجود كل شيء ، و حقيقة هو
ماهيته و خواصه وآثاره و كماله من غير عوض ، وفيه دلالة على أن السلامة من
آفات الدنيا والهداية إلى المولى والنجاة من الضلالة والعمى و الاستقامة على
سبيل الرشاد من الله المتفضل برحمته على العباد (حين علموا) ظرف لقالوا (أن)

القلوب تزيف) بفتح التاء من زاغ بمعنى مال ، أي تميل عن طريق الصواب (و تعود إلى عماها) (١) أي جهلها يقال : رجل عمى القلب أي جاهل ، و أصل العمى ذهاب البصر وإذا أضيف إلى القلب يراد به ذهاب البصيرة ، وقد يجعل كناية عن الجهل (وردأها) أي هلاكها من ردى الدابة في البئر إذ اسقط فيها ، أو من ردى فلان في الأرض إذا ذهب و تاه فيها ، أو من ردى فلان بالكسر يردى ردياً إذا هلك ، وفيه إشارة إلى شيئين أحدهما أن القلوب يعني النفوس البشرية كانت في مبدئ الفطرة جاهلة للمعارف الإلهية ، غافلة عن الأنوار الربانية ، هالكة ساكنة في تيه الجهالة قابلة لنور الهداية و ظلمة الغواية ، كما يظهر ذلك لمن تفكّر في أطوار الإيجاد والتكوين فإنه يعلم أنها كانت صوراً جمادية ، ثم صارت صوراً نباتية ، ثم صارت صوراً حيوانية ، ثم صارت بتلك الاستحالات صوراً إنسانية مستعدة للخير والشر قابلة للهداية والضلالة ، ثم حصلت لها بالترقيات الإلهية والتوفيقات الربانية كما يرشد إليه قوله بعد إذ هديتنا جملة من العلوم و زمرة من المعارف و نبذة من الأحوال والأعمال فخرجت بذلك من حجب النقص على الإطلاق في قوتها العلم والعمل إلى مرتبة الكمال الثاني أن هذه المرتبة ليست لازمة للنفس ثابتة لها غير منفكة عنها لأن النفس الحرون قد تقف من الجرى في ميدان العلم والعمل ، بل ترجع القهقري إلى حالتها الأولى ، وسر ذلك أنها ما دامت في الدنيا متعلقة بهذا البدن مائلة إلى الهوى ودواعي الشيطان ذاكرة لأصناف الباطل وأنواع العصيان فربما تأخذ يد الشقاوة زمامها و تسوقها إلى ما هو مطلبها و مرامها ، وتجذبها عما

(١) « تزيف وتعود إلى عماها » ربما غلب العقل على الوهم و دفعه إلى تسليم

الحقيقة و ربما يقوى الهوى فيرجع الوهم إلى ما كان و يزيف عن الهدى مثلاً في الشبهات الاعتقادية ، ربما يدخل على الوهم شبهة أن الموجود محسوس فيشكك في المبدء بعد أن كان معتقداً و ربما يشتغل بالعبادة ويمضي على ذلك مدة ثم يغلب عليه الهوى وحب الشهوات فيرجع عما كان عليه و يشتغل باللذات و هذا أيضاً من القوة الواهمة المدركة للمعاني الجزئية في غير تدبير العقل. (ش)

هي عليه من العلوم والأعمال الصالحة وتوردها في تبه الجهالة والضلالة ، وقدرى أبو بصير وغيره قال : قال الصادق عليه السلام : « إن القلب ليكون الساعة من الليل والنهار ما فيه كفر ولا إيمان كالثوب الخلق ، قال ثم قال لي : أما تجد ذلك من نفسك ، قال : ثم تكون المنكته من الله في القلب بما شاء من كفر ولا إيمان » (١) ولذلك خاف الصالحون وجل المتقون وطلبوا بالنضج والابتغال حسن العاقبة بقواهم « ربنا لاتزغ قلوبنا بعد إزهديتنا » والأدعية الماثورة في هذا الباب أكثر من أن تحصى ، ولما بين أن بقاء النفس على كمالها العملى والعلمى مادامت في الدنيا ومسكن الشياطين غير لازم ، بل ربما تعود إلى عماها ورداها وترك العمل وتنسى العلم والآخرة أراد أن يبين ذلك فيمن لم يكن قلبه مستضيئاً بنور الله وعقله مهتدياً بهداية الله و لم يأخذ علمه من الله تعالى إمّا بلا واسطة كالأنبياء والرسل أو بواسطة كالمتمسكين بذيل عصمتهم والراجعين في كيفية العمل والعلم إلى معدن طهارتهم فأشار إلى الأول بقوله (إنه) أم يخف الله من لم يعقل عن الله) لأن من لم يكن علمه بذات الله وصفاته وشرائعه وأركان الأعمال وشرائطها وأحوال الآخرة مستنداً إلى الله تعالى بأحد الوجهين المذكورين كان علمه إمّا تقليداً محضاً كما في أكثر العوام وإمّا رأياً وقياساً كما في أكثر الناس وإمّا ظناً وتخميناً وجدلياً كما في أكثر المتكلمين (٢) الذين وضعوا أنفسهم دلائل على هذه الأمور واستحسنوها وكل ذلك لا يوجب الخوف من الله سبحانه والخشية من عذابه، أمّا التقليد فظاهر لأنه لم يحصل لهم من الحقيقة الإلهية إلا الاسم ومن حقيقة الأحكام الشرعية وأركانها وشرائطها إلا الرسم ، ومن أحوال الآخرة و شدايد أهوالها إلا اللفظ، والخوف منوط بأدراك حقيقة هذه الأمور ، وأمّا القياس فهو أيضاً ظاهر وكذا تخمين المتكلمين على أن أكثرهم القائلين بالفاعل المختار

(١) رواه الكليني في الكافي في كتاب الإيمان والكفر باب سهو القلب تحت رقم ١

(٢) ذم التقليد وهو الاخذ من غير دليل وذم الكلام ايضاً وهو الاخذ بدليل جدلي

او ظنى فبقى أن يكون الدين مستنداً الى دليل برهاني او كشف عرفاني . (ش)

ينكرون السببية في الممكنات (١) ويجوزون مغفرة الكافر الشقي ومعاقبة المؤمن السعيد فلا يحصل لهم خوفٌ وخشية ، وإذا انتفى الخوف انتفى العمل وكماله والجدُّ فيه ، وأمّا العلماء الراسخون الآخذون علومهم من مشكوة النبوة فهم يعلمون الحقائق كما هي وصفات الواجب وما يجوز له وما يمتنع عليه وأحكام الدّين وأركانها وشرائطها وأحوال الآخرة وشدائد أحوالها كأنهم يشاهدونها ويعلمون أن الله تعالى لا يظلم أحداً مثقال ذرة وأن ما يرجع إليهم من الخير والشر فهو من نتائج تقوسهم ولوازم أخلاقهم وتبعات أعمالهم (٢) وأفعالهم فيخافون من الله عزّ شأنه غاية الخوف

(١) هذا مذهب أكثر المتكلمين وهم الاشاعرة واتباعهم من غيرهم فانهم ينكرون التسبب يقولون مثلاً ليس البارقة للحرارة ولا الماء للمبرودة ولا الشمس للنمو ولا السموم للقتل وهكذا ولكن عادة الله جارية بالاحراق عند ملامسة النار وغير ذلك . وهذا مذهب باطل بل جعل الله لكل شيء سبباً لا يجاوز والفاعل المختار بالارادة الجزافية غير حكيم والله تعالى حكيم فلا يفعل شيئاً بالارادة الجزائية فان قيل قد صرح صاحب التجريد نصير الدين الطوسي رحمه العلامة وغيرهما بأنه تعالى فاعل مختار فكيف يخطئه الشارح مع انه مذهبنا قلت الفاعل المختار عند متكلمي الشيعة ومن يمتد بقوله منهم و يؤخذ الملم عنه ويقول ما يقول عن تدبير وبصيرة هو ما يكون مقابل الفاعل المضطر والفاعل بلا شعور فان صدور الفعل عن الله تعالى ليس كصدور النور عن الشمس بلا شعور مضطراً ولا يريدون أن فعله تعالى كعمل الانسان المختار بفكر ورؤية تارة يختار هذا وتارة يختار ذلك في ظرف و أمد ولا يخفى أن مثل هذا الكلام من الشارح وغيره من الحكماء صادر من شأن أن ينسب إليهم القول بأن الله فاعل موجب وهذا من قلة الأمل والشارح مع تصريحه هنا بالقدح في الفاعل المختار صرح في كلامه كثيراً بالقادر المختار كما مر وكل بمعنى (ش) (٢) هذا أيضاً متفرع على ما سبق من التسبب فلا يفعل الله تعالى شيئاً في الدنيا والآخرة إلا بأسبابها ولا يكون إرادته إرادة جزافية و ليس فاعلاً مختاراً بالمعنى السني يفهمه بعض المتكلمين فكما أن سبب نمو النبات في الدنيا البذر والماء والحر والشمس ولا يثبت الحنطة من بذر الشعير كذلك ثواب الآخرة مسبب عن ملكات النفوس وأخلاقها وما رسمت فيها من الصفات بالأعمال الصالحة والسببية (ش)

كما قال سبحانه «إنما يخشى الله من عباده العلماء فلا جرم يعملون في الدنيا لآخره ويسعون لها غاية السعي ويحصلون ما يوجب نجاتهم من النار وفوزهم بالجنة وأشار إلى الثاني (١) بقوله :

(ومن لم يعقل عن الله لم يعقد قلبه على معرفة ثابتة يبصرها و يجد حقيقتها في قلبه) يعنى من لم يأخذ علمه من الله سبحانه بأحد الوجهين المذكورين لم يكن إيمانه ثابتاً ولا علمه باقياً لأنهما يزولان بأدنى شبهة بخلاف من أخذ علمه منه تعالى فإن إيمانه ثابت وعلمه راسخ لا يزول بوجه من الوجوه كما قال العالم عليه السلام من : «أخذ دينه من كتاب الله وسنة نبيه صلوات الله عليه وآله زالت الجبال قبل أن يزول ومن أخذ دينه من أفواه الرجال ردته الرجال» (٢) وقال عليه السلام «من لم يعرف أمرنا من القرآن لم يتكسب الفتن» (٣) (ولا يكون أحد كذلك) أى يعقل عن الله ويعقد قلبه على معرفة ثابتة ويبصرها و يجد حقيقتها في قلبه (إلا من كان قوله لفعله مصداقاً) بأن يكون عاملاً بالمعروف آمراً به وتاركاً للمنكر ناهياً عنه، فإن العلم الحقيقى والإيمان الكامل يحكمان بالتألم بينهما وحمل القول هنا على الاعتقاد بعيد (وسرّه لعلايته موافقاً) بأن يكون صفاته وكمالاته الباطنة موافقة لصفاته وكمالاته الظاهرة مثل الأعمال الحسنة وحسن الخلق وطلاقة الوجه وإكرام المؤمن وأمثال ذلك (لأن الله تبارك اسمه لم يدل على الباطن الخفى من العقل إلا بظاهر منه وناطق عنه) أى مخبر عنه ومشعر به هذا دليل على ما يفيد الاستثناء من أن من كان قوله لفعله مصداقاً وسرّه لعلايته موافقاً تجده عاقلاً عن الله ثابتاً على معرفته راسخاً في إيمانه وعرفانه ووجد حقيقة ذلك في قلبه بيان ذلك أن العلم بخفيات الأمور وصفات القلوب ليس إلا لعالم الغيوب لأنه العليم بذات الصدور وأما غيره فقد يعلم الباطن من الظاهر، فكما يعلم من حمرة الوجه وانتفاخ العروق وغلظ الصوت شدة الغضب

(١) أى نسيان العلم و الآخرة ان لم يكن علمه مستنداً إلى الله باحد

الوجهين (منه) .

(٢) و(٣) تقدمافى مقدمة الكتاب .

وإرادة الانتقام، ومن اصفرار الوجه وتضائل البدن وتحرك الفرائص شدة الخوف كل ذلك للمتناسب بين الروح والبدن بحيث يصل أثر أحدهما إلى الآخر كذلك يعلم الصفات النفسانية والكمالات الروحانية والعلوم والعقائد الراسخة القلبية من الأعمال والأفعال الصادرة من الأعضاء، الظاهرة مثلاً يقول فلان عليم مؤمن راسخ في علمه وإيمانه وكريم حلیم رحيم إذا صدر منه الأفعال التابعة للمعلم والإيمان وأفعال الكريم والحليم والرحيم مراراً كررة بعد أخرى، والسر في ذلك أن تلك الصفات أسباب لهذه الأفعال والأعمال لأنه ينبعث منها الشوق والإرادة والعزم ويتحرك بسبب هذه الأمور الأعضاء نحو المنشوق والمراد، فيظهر منها الأفعال والأعمال، ودلالة هذه الأعمال والأفعال على تلك الصفات كدلالة الأثر على المؤثر وبالجمله ظاهر الرجل عنوان لباطنه ومعرفة باطنه تابعة لمعرفة ظاهره، فإن كان جميع أفعاله الظاهرة دائماً مستقيمة واقعة على القوانين الشرعية دل ذلك على ثبوت معرفته وإيمانه وكمالهما ورسوخهما وإن كان جميعها غير مستقيمة أو كان القول مستقيماً وغيره من الأفعال غير مستقيم أو كان عكس ذلك دل ذلك على عدم ثبوت معرفته وإيمانه وعدم كمالهما ومثل هذه المعرفة والإيمان في معرض الزوال.

(يا هشام كان أمير المؤمنين عليه السلام يقول : ما عبد الله بشيء، أفضل من العقل) المقصود أن العقل أفضل ما يتقرب به العبد إلى الله تعالى وكل ما يتقرب به سواء دونه في الفضل وهذا كمال المدح له ولأهله وأعلم أن للعقل اطلاقات والمشهور منها أمران : الأول القوة المهمة للعلوم الكلية ضرورية كانت أو نظرية تصورية كانت أو تصديقية ولا نعني مجرد القوة والاستعداد بل نعني بها القوة الحاصلة معها كمالاتها بالفعل، والثاني العلم والحكمة التي هي ثمرته ويمكن حملها هنا على كل واحد منهما لأن كل واحد منهما أصل يتوقف عليه غيره مما يتقرب به العبد إلى الله تعالى مثل الصلوة والصيام والحج والزكاة ونحوها فكل واحد منهما أفضل مما عداه وهو المشار إليه بقوله صلى الله عليه وآله لعلي عليه السلام : يا علي إذا تقرب الناس إلى خالقهم بأبواب البر فتقرب أنت بعقلك تسبقهم بالدرجات

والزلفى عند الناس في الدنيا وعند الله في الآخرة (١) (وما تمّ عقل امرء حتى تكون فيه خصال شتى) الخصال بالكسر جمع الخصلة بالفتح وهي المرة من الخصل وهو الغلبة في النضال، والخصلة أيضاً الخاة وهي المراد هنا وكأنّها منقولة عن الأولى لجامع الغلبة والفضيلة بينهما، وشتى جمع شتيت وهو التفرّق، يقال ثغر شتيت أى مفالج (٢) وقوم شتى وأشياء شتى وجاءوا أشناتاً أى متفرّقين واحدهم شت وقد ذكر ههنا اثنتى عشر خصلة :

(الكفر والشر منه مأمونان) والناس آمنون من كفره وشره (٣) والكفر يطلق على خمسة معان كما يأتى فى باب الكفر: الأول إنكار الرب، الثانى إنكار الحق مع العلم بأنّه حق، الثالث ترك ما أمر الله تعالى به، الرابع كفران النعم قال: هذا من فضل ربّي ليبلونيء أشكر أم أكفره الخامس كفر البراءة قال: «كفرنا بكم وبادينا و بينكم المداوة والبغضاء» يعنى تبرأنا منكم، والشر يطلق على كلّ خبيث ومنقصة كما يرشد إليه قول أمير المؤمنين (عليه السلام) والشر جامع مساوي العيوب والحاصل أنّه امرٌ كافيٌ تحته أفراد كثيرة كلّها من العيوب والخبائث وقديقسم إلى شر مطلق كعدم العقل مثلاً وإلى شر مقيد كعدم كلّ واحدةٍ من الصفات

(١) رواه أبو نعيم فى الحلية من حديث على عليه السلام هكذا «إذا اكتسب الناس من أنواع البر ليتقربوا بها إلى ربنا عز وجل فاكتسب أنت من أنواع العقل تسبقهم بالزلفة والقرب» وأورده الشيخ أبو على سينا فى الرسالة المعراجية ص ١٥. ونقله المحقق الداماد فى كتاب الصراط المستقيم بهذا اللفظ «يا على إذا عنى الناس أنفسهم فى تكثير العبادات والخيرات فانت عن نفسك فى ادراك المعقولات حتى تسبقهم».

(٢) الانفراج بين الاسنان .

(٣) الكفر باى معنى فرض لا يجتمع مع العقل فإن انكار الرب مبنى على قاعدة وهمية وهى أن كل موجود محسوس ولا يعرف بشىء لا يحس به وانكار الحق مع العلم بأنّه حق وظيفة الواهمة كما عرفت من المثال المتقدم من أن الميت لا يخاف لانه جماد، وكذلك ساير المعانى الذى ذكره كما يظهر بالتأمل . (ش)

المرضية والشرائع النبوية ووجود أضدادها.

(والرشد والخير منه مأمولان) يعني العقلاء آملون صدورهما منه ،
والرشد الهداية وخلاف الغي ، والخير لفظ جامع لجميع الأمور الحسنة كما أن
الشر جامع لجميع الأمور القبيحة فهو أيضاً مفهوم كأي تحته أفراد كثيرة ويقسم
إلى خير مطلق كوجود العقل وإلى خير مقيد كوجود كل واحدة من الصفات
المرضية والشرائع النبوية. ولعل المقصود أن من اتصف بالخير والرشد والهداية
واجتنب سبيل الشر والغى والضلالة ، وكان جميع أفعاله وأعماله بالفعل على
الوجه المستقيم بحيث يأمل العقلاء منه خيراً ورشداً في غابر عمره ويستنبطون منه
ذلك في بقية دهره ، فهو تام العقل ويجعل ذلك دليلاً على كماله ، وإنما
قلنا المقصد ذلك لأن كونه قابلاً لمطلق الرشد والخير في حيز الاستعداد و
كونهما مأمولين منه بالقوة من جميع الوجوه لا يدل على تمام عقله وكمال له لأن
عقله حينئذ في المرتبة الهيولانية.

(و فضل ماله مبذول) يحتمل أن يراد بالفضل ما زاد على القوت والكفاف
و إنما خص بالفضل لأن بذل الكفاف قد لا تطيب به نفس أكثر العقلاء بل قد
ورد النهي عنه في بعض الروايات ، ويدل عليه أيضاً قوله تعالى ولا تجعل يدك
مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل السط فتفقد ملوماً محسوراً ، ويحتمل أن يراد به
الصدقات المفروضة مثلاً الزكوة وغيرها وفي الخبر «أن السخي هو من أدى فرائض
ماله» (١) واعلم أن لبذل المال ومنعه غايات و بين غاياتهما تفاوت والفضل لغايات
البذل والحاكم بذلك هو العقل الصحيح والنص الصريح ، أما غايات البذل فمنها
الذكر الجميل بين الناس وهو مطلوب عقلاً و شرعاً لقوله تعالى حكاية عن
إبراهيم عليه السلام «و اجعل لي لسان صدق في الآخرين» (٢) وقول أمير المؤمنين عليه السلام

(١) راجع الكافي كتاب الزكاة باب معرفة الجود والسخاء .

(٢) و ذلك ان الناس لا يذكرون احداً بخير الا لملكاته الفاضلة وصفاته الحسنة
او لانه افادهم فائدة اودفع عنهم ضراً و جميع ذلك مطلوب في الشرع ، فان كان فاعله
مؤمناً يستحق الثواب ولا يدفع اليه اعوان كتحفيف عذاب ان كان يستحق العقاب (ش).

« ولسان صدق يجعله الله للمروء في الناس خيراً له من المال يورثه غيره (١) » ،
ومنها رعاية حال الفقراء الذين هم ودائع الله و عيال رسوله و جبر كسر قلوبهم و
مواساتهم وقد وقع الحث عليها في روايات متكثرة ، ومنها جلب قلوب الناس إلى
المحبة والمودة ، و منها تحصيل رضوان الله تعالى و طلب الدرجات العالية في
الآخرة ، و منها أنه يأخذ بدل واحد أصغافاً كثيرة قال الله تعالى : « من ذا
الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أصغافاً كثيرة » وقال أمير المؤمنين عليه السلام :
« من يعط باليد القصيرة يعط باليد الطويلة (٢) » يعني من يعطي يسيراً يجزي به
كثيراً واليدان عبارتان عن النعمتين ، و في طرق العامة قال أبوذر : « يا نبي الله
أرأيت الصدقة ماذا هي ؟ قال : أصغاف مضاعفة وعند الله المزيد » قوله : « و عند الله
المزيد » هي الزيادة على الثواب لمن يشاء بما يشاء كما قال سبحانه : « للذين
أحسنوا الحسنى و زيادة » وأما غايات المنع وترك البذل فيعرف ممّا ذكرنا بالتضادّ
و أيضاً المنع يورث البخل والشغل عن ذكر الله تعالى و محبة الدنيا إلى غير ذلك
من المفساد فمن أثر البذل على الجمع مع أن من مقتضى النفوس البشريّة و
الأوامر الشيطانيّة ، فإنّ الشيطان دائماً يأمر الإنسان بالمنع و الجمع و يعدم
بالفقر بسبب الاحسان و البذل علم أن ذلك من تمام عقله و متانته و كمال رأيه
ورزاقته .

(و فضل قوله مكفوف) لأنّ العاقل هو الذي يضع الأشياء في مواضعها
و من جملة ذلك أن يتكلّم بما يحتاج إليه و يترك ما زاد عليه (٣) و هو المراد
بالفضل ، ولأنّه يعلم أن الاكثار يوجب الابهجار ، و من ثمة قال رسول الله ﷺ :

(١) اورده الشريف الرضى فى النهج أبواب الخطب تحت رقم ٢٣ .

(٢) النهج أبواب الحكم تحت رقم ٢٣٢ .

(٣) الكلام اما ان يكون حكمة ولا فضل فيه والفضل هو الزيادة التى لا يحتاج

اليه و ان كان غير الحكمة فهو محصول الوهم ولا يحوم حوله العاقل . (ش)

« من كثر كلامه كثر سقطه ومن كثر سقطه كثر ذنوبه ومن كثر ذنوبه فالنار أولى به (١) »
 و إن الكلام في وثاقه ما لم يتكلم به فإذا تكلم صار هو في وثاق الكلام فلا يتكلم
 إلا بالاحتياط . ولذلك قيل : لا تتكلم بلسانك ما تكسر به أسنانك و أن الجوارح
 مسؤولة يوم القيمة فلا تتكلم إلا بالحكمة والموعظة الحسنة . وقال أمير المؤمنين
 عليه السلام : « من علم أن كلامه من عمله قل كلامه إلا فيما يعنيه (٢) » .

(ونصيبه من الدنيا القوت) لأن العاقل الكامل يعلم عين الاعتبار والبصيرة أن
 المال مادة الشهوات و حبال الشيطان فلا يطلبه حذراً من الدخول فيها وأن من
 اقتصر على القوت لا يفتقر أبداً و أن من رضى به كان مستريحاً في الدنيا ناجياً
 في الآخرة و إلى الوجهين الأخيرين أشار أمير المؤمنين عليه السلام بقوله : « لا مال
 أذهب للمفارقة من الرضا بالقوت ، ومن اقتصر على بلغة الكفاف فقد انتظم الراحة ،
 و تبوأ خفض الدعة (٣) » يعني من قنع فقد ألزم الراحة فلهذه الوجوه و غيرها
 رضي العاقل بالقوت و كف نفسه عن طلب الزائد عليه .

(لا يشبع من العلم دهره) دهره منصوب بمنزوع الخافض أي في دهره يعني
 تمام عمره ، والمراد بالعلم العلم المتعلق بأحوال المبدء والمعاد و غير ذلك من
 الأمور الدينية والأحكام الشرعية ، و هذا العلم هو الذي يكسب به الإنسان
 الطاعة في حياته والذي كر الجميل والثواب الجزيل بعد وفاته ، و إلى مدح هذا
 العلم و أهله أشار أمير المؤمنين عليه السلام بقوله : « هلك خز أن الأموال والعلماء باقون
 ما بقي الدهر (٤) » يعني لتنور قلوبهم بأنوار الهيّة وفيوضات ربّانية أولاً شتبار صيتهم

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث ابن عمر كما في الجامع الصغير .

(٢) رواه الكليني في كتاب الإيمان والكفر من الكافي باب الصمت و حفظ

اللسان تحت رقم ١٩ من حديث أبي عبد الله عليه السلام عن النبي صلى الله عليه و آله

لكن في النهج من كلامه عليه السلام في أبواب الحكم تحت رقم ٣٦٩ .

(٣) أورده الشريف الرضي في النهج أبواب الحكم تحت رقم ٣٧١ .

(٤) النهج أبواب الحكم تحت رقم ١٤٧ .

و انتشار فضلهم فيما بين فرق الأنام إلى يوم القيمة ، و في قوله « لا يشبع » إشارة إلى أن العلم غذاء القلب و حيوته و به يتعذى و يتقوى و يكمل كما أن الطعام غذاء البدن و حيوته و قوامه ، و بالجملة شبه العلم بالغذاء إذ كما أن الغذاء سبب لبقاء البدن و حياته في مدة العمر كذلك العلم سبب لبقاء النفس و سعادته في الدارين ، و لذلك يقال : الجاهل ميت . و السرفي أن جوع العاقل في تحصيل العلم لا يسكن هو أن مراتب شوقه غير متناهية و كذا مراتب العلم كما قال سبحانه « فوق كل ذي علم عليم » فكلما وصل إلى مرتبة من مراتب العلم و استضاء قلبه بنور تلك المرتبة و كمل به و استشرق ، رأى فوقها مرتبة أخرى أكمل منها و أنور فيسوقه الشوق إليها و يستضيء بنورها و هكذا إلى ما شاء الله و من ههنا ظهر أن العاقل في كل آن ترقّيات و في كل زمان انتقالات و ابتهاجات و تلك الترقّيات حقيق بأن تسمى معارج النفوس .

(الذّل أحب إليه مع الله من العز مع غيره) لعل المراد أن ذل نفسه و هو مع الله بأخذ زمامها كيلا تنجاوز عن حدود الشريعة أحب إليه من عز نفسه و هو مع غيره بإرسال زمامها لكي تجري في ميدان مرامها ، فلا يرد أنه إذا كان مع الله كان عزيزاً لا ذليلاً لقوله تعالى : « والله العزة و لرسوله و للمؤمنين ، ولكن المنافقين لا يعلمون » و يحتمل أن يراد بالعزّ و الذّل ما هو المتعارف عند الناس أعني الرّفعة فيما بينهم و عدمها يعني إذا كان المماشاة مع الناس موجباً لرفع الرّعة القدر فيما بينهم و السير في سبيل الله و التمسك بحبل الله موجباً للذلّ و وضع القدر عندهم فالعاقل هو الذي يحبّ هذا الذّل و يختاره على ذلك العزّ لعلّه بأن في هذه الرّعة مفاسد غير محصورة ، و أنّها رّعة دنيويّة و ذلك الذّل رّعة أخرويّة ، و الرّعة الدنيويّة مثل الدنيا دائرة داحضة ، بخلاف الرّعة الأخرويّة ، فإنّها باقية أبداً .

(و التواضع أحب إليه من الشرف) التواضع التذلل من الوضع و هو خلاف الرّفع . و الشرف الترفع بالنسب أو بالحسب . و المعنى أن العاقل هو الذي يؤثر

التواضع لله على الشرف والرفعة (١) لأنه لما عرف عظمة الله ونظر إلى جلال قدره وكمال قدرته على جميع المقدورات وشدة استيلائه على جميع الممكنات بالابحار والافناء وغاص في بحار وجوده وكماله وقدرته وتفكر في قهره ومنه وجوده احتقر نفسه ووجوده وكماله وقدرته بل لا يرى لنفسه وجوداً وكمالاً وقدره، وإنما يرى هذه الأمور الجاهل الذي لم يخطر بباله ذات الباري وصفاته فيرى لنفسه وجوداً ووجوده آثاراً نظير ذلك أن من لم يرمأ أبداً ثم رأى جدولاً صغيراً فإنه يستعظمه فإذا وقف هناك بقي له ذلك الاستعظام، وأما إذا جاوزه ورأى نهراً عظيماً فإنه يزول عنه ذلك الاستعظام ويستعظم هذا النهر، ثم إذا جاوزه ورأى بحراً زاحراً زال عنه استعظامه ماسواً قطعاً. وإلى ما ذكرنا أشار أمير المؤمنين عليه السلام بقوله: «إنه لا ينبغي لمن عرف عظمة الله أن يتعظم (٢)» فإن رفعة الذين يعلمون ما عظمتهم أن يتواضعوا له في هذا التعليل إشارة إلى أن التواضع له سبحانه عين الرفعة وذلك لأن الله سبحانه هو العظيم المطلق وكل عظمة ورفعة فمستفادة من وجوده والقرب منه فكما كانت العادة جارية من الملوك في حق من يتواضع لهم ويوفقيهم حقهم من الاجلال والاكرام وحسن الانقياد أن يرفعوه ويعظموه كذلك عادة مالك الملوك جل شأنه، يرشد إلى ذلك رفعة حال الأنبياء والأوصياء والصالحين عليهم صلوات الله أجمعين، ويدل عليه قول الصادق عليه السلام «إن

(١) الشرف والرفعة معنى جزئى يدركه الوهم ويحبه الانسان بهذه القوة الغيبية والعقل لا يصدق بحسن ذلك الا أن يكون وسيلة الى دفع ظلم عن مظلوم أو ترويح حق كما قال سليمان (ع) «رب هبلى ملكا لا ينبغي لاحد من بعدى» أراد ذلك لانفاذ الحق و ترويح التوحيد وحينئذ فلا يكون الشرف مطلوباً لذاته بل اذا علم ان مقصوده الدينى يحصل بالتواضع والخمول والضعفة كان طالباً له دون الشرف وبالجملة فطلب الرفعة من علامات ضعف العقل وغلبة الوهم (ش).

(٢) النهج أبواب الخطب تحت رقم ١٤٥ - اوله «فبعث محمد صلى الله عليه و

آله بالحق».

في السماء ملكين موكلين بالعباد فمن تواضع لله رفعاه و من تكبر وضعاه (١) وقول أمير المؤمنين (عليه السلام): «لا حسب كالتواضع (٢)» يعنى في إيجاب الرفعة هذا حال التواضع لله سبحانه وأما التواضع للفقراء والصالحين فمن شعب تواضعه لله تعالى شأنه لأن من أحب أحداً و تواضع له فإنه يجب أن يحب محبوبه و يتواضع لهم على أن التواضع لهم يوجب ازدياد المودة . وقال أمير المؤمنين عليه السلام «التودد نصف العقل (٣)» و وجه ذلك أن العقل نصفان نصف عقل المعاد و نصف عقل المعاش ، و قال الصادق عليه السلام : «من التواضع أن ترضى بالمجلس دون المجلس ، و أن تسلم على من تلقى ، و أن تترك المراء و إن كنت محققاً ولا تحب أن تحمد على التقوى (٤)» و في حديث آخر: «التواضع درجات منها أن يعرف المرء قدر نفسه فينزل منزلتها بقلب سليم لا يحب أن يأتي إلى أحد الآ مثل ما يؤتى إليه ، إن رأى سيئة درأها بالحسنة، كاظم الغيظ عاف عن الناس والله يحب المحسنين (٥)» و ينبغي أن يعلم أن الأولى والأحسن بحال الفقراء أن يتركوا تواضع الأغنياء و يعتزلوا عنهم و يتكلموا على الله سبحانه كما قال أمير المؤمنين (عليه السلام) : «ما أحسن تواضع الأغنياء للفقراء طلباً لما عند الله ، و أحسن منه تيه الفقراء على الأغنياء اتكلاً على الله (٦)» والنيه التكبر ، و لعل المراد به ما ذكرناه من الاعتزال عنهم و ترك التواضع لهم وإلا فالتكبر قبيح من كل أحد لأن الكبرياء إنما يليق بالحق عز شأنه إذ الخلق محل النقص، فإذا تكبر تكلف أن يتصف بما لا يليق به ، ومن ثم قيل : هتك ستره من جاوز قدره.

(يستكثر قليل المعروف من غيره) العاقل يؤثر ذلك من وجوه : الأول

(١) الكافي كتاب الايمان والكفر باب النواضع تحت رقم ٢ .

(٢) النهج أبواب الحكم تحت رقم ١١٣ .

(٣) النهج أبواب الحكم تحت رقم ١٤٢ .

(٤ و ٥) الكافي كتاب الايمان والكفر باب النواضع تحت رقم ١٣ و ٦ .

(٦) النهج أبواب الحكم تحت رقم ٤٠٦ .

التشبه بالباري، جلّ شأنه فإنه يقبل قليل الحسنات من عباده و يضاعفه أضعافاً كثيرة و في الأدعية الماثورة «يا من يقبل القليل و يعفو عن الكثير». الثاني استكثاره تعظيم للنعمة والمنعم، و كلاهما مطلوب و استقلاله تحقير لهما و هو مذموم جداً. الثالث استكثاره نوع من الشكر و هو يوجب الزيادة لقوله تعالى: «ولئن شكرتم لأزيدنكم» و لما رواه مسمع بن عبد الملك قال: كنا عند أبي عبد الله عليه السلام بمنى و بين أيدينا عنب نأكله فجاء سائل فسأله فأمر بعنقود فأعطيته فقال السائل: لا حاجة لي في هذا إن كان درهم، قال: يسع الله عليك، فذهب ثم رجع فقال ردّوا العنقود فقال: يسع الله لك و لم يعطه شيئاً، ثم جاء سائل آخر فأخذ أبو عبد الله عليه السلام ثلاث حبّات عنب فناولها، إياها فأخذ السائل من يده ثم قال: الحمد لله ربّ العالمين الذي رزقني، فقال أبو عبد الله عليه السلام: مكانك فحنا ملاء كفيّ به عنباً فناولها إياها، فأخذها السائل من يده، ثم قال: الحمد لله ربّ العالمين. فقال أبو عبد الله عليه السلام: مكانك، يا غلام أي شيء معك من الدراهم فاذا معه نحو من عشرين درهما فيما حرزناه (١) أو نحوها فناوله إياها، فأخذها ثم قال: الحمد لله هذا منك وحدك لا شريك لك فقال أبو عبد الله عليه السلام: مكانك فخلع قميصاً كان عليه فقال: البس هذا، فلبسه، ثم قال: الحمد لله الذي كساني و سترني يا أبا عبد الله أو قال: جزاك الله خيراً، لم يدع لأبي عبد الله عليه السلام إلا بذاً ثم انصرف، فذهب فظننا أنّه لو لم يدع له لم يزل يعطيه لأنّه كلّما كان يعطيه حمد الله أعطاه (٢).

(و يستقل كثير المعروف من نفسه) لأنّ العاقل يعلم أنّ في استعظام ما أعطاه من المعروف مفسد شتى منها أنّه يؤذي الآخذ و أذاه يحبطه لا جرّ لقوله تعالى «قول معروف و مغفرة خير من صدقة يتبعها أذى و الله غنيّ حلیم» و منها أنّه

(١) الحرز تعيين مقدار شيء بالتعمين. (ش)

(٢) رواه الكليني في الفروع كتاب الزكاة أبواب الصدقة باب النوادر تحت

يوجب منّا عليه والمنّ يهدم أجره لقول الصادق عليه السلام «المنّ يهدم الصدقة (١)» ومنها أنه يستلزم البخل لأنّه لا يستعظم إلا ما عظم في عينه وكثر في نظره فيشق عليه إخراجها ، ومن ثمّ قيل : الجواد لا يستعظم ولو أعطى الدنيا بحذاقها ، ومنها أنّه يوجب العجب والفخر وهما من الصفات الرذيلة التي لا يرتكها العاقل وأيضاً العاقل إذا شاهد نعم الله تعالى على الفقراء ظاهرة وباطنة ممّا لا يعد ولا يحصى ، و علم أنّه تعالى مع ذلك يستصغرها ويخاطبهم يوم القيمة بالاعتذار ويقول : يا عبادي ما معكم في الدنيا وأنا بكم بل لا كرامي لكم في هذا اليوم» (٢) وقاس معروفه على نعماء الله تعالى يجده شيئاً قليلاً بل لا شيئاً محضاً ، فلا يخطر بباله استعظام ذلك قطعاً ، ثمّ الاستعظام بأن يقول مثلاً : لي عليك نعمة عظيمة ، أو أعطيتك مالاً كثيراً ، أو أحييتك باعطاء كذا وكذا ، أو أخذ هذا المال الكثير ، أو يعدّ نعماءه ويكرّر ها عليه ، أو نحو ذلك ممّا يدلّ عليه صريحاً أو ضمناً أو كناية.

(ويرى الناس كلّهم خير آمنه) لحسن الظن بهم وعدم علمه بخفيات أمورهم ولاجتنابه عن رذيلة العجب المانع من الترقّي في الكمالات والنود في الالتيام ولأنّ هذا نوع من التواضع لله تعالى ولعباده والتواضع يوجب السعادة في الدارين والرفعة في النشأتين ومحبتهم إيّاه ، ولأنّ الخيرية الحقيقية لكلّ أحد باعتبار قربها بالمبدء ولطف المبدء به ولا يعلم ذلك إلا الله سبحانه ، ومراعاتهما مختلفة متفاوتة في الزيادة والنقصان ، والعاقل يجوّر أن يكون القرب واللطف في غيره أكمل فلذلك يراه خير آمنه وحكاية موسى عليه السلام : مع الكلب مشهورة وفي الكتب مذكورة.

(وأنّه شرّهم في نفسه) لما فيه من التواضع والتذلل وإهانة نفسه وعدم إكرامها وقال أمير المؤمنين عليه السلام : «طوبى لمن ذلّ نفسه (٣)» ولأنّ العاقل عارف بعيوبه وعجزه وقصوره لابيوب غيره (وهو تمام الأمر) أي هذا الأخير وهو

(١) الفروع من الكافي كتاب الزكاة باب المن وفيه «المن يهدم الصنيعة».

(٢) الكافي كتاب الايمان والكفر باب فضل فقراء المسلمين تحت رقم ٩٠.

(٣) النهج أبواب الحكم تحت رقم ١٢٣.

أن يرى العاقل أنه شر الناس في نفسه تمام العقل و كماله إذ به يحصل الاستكانة والتضرع والخضوع لله تعالى والرّجوع إليه بالكلية، والتعري عن جلبات الوجود والهوية المجازية والتوصل إلى الفناء في الله والهوية الحقيقية، ويحتمل أن يكون الضمير راجعاً إلى جميع ما تقدّم من الخصال المذكورة فهو حينئذ بمنزلة إعادة ما أفاده عليه السلام بقوله: «وما تمّ عقل امرء حتى يكون فيه خصال شتى».

(يا هشام إن العاقل لا يكذب وإن كان فيه هواه) قريب منه قول أمير المؤمنين عليه السلام: «علامة الايمان أن تؤثر الصدق حيث يضرك على الكذب حيث ينفعك (١)» قال في المغرب: الهوى مصدر هويه إذا أحبه واشتهاه ثم سمي به الهوى المشتهى، محموداً كان أو مذموماً، ثم غلب على غير المحمود ف قيل: فلان اتبع هواه إذا أريد ذمّه، وفي التنزيل «ولا تتبع الهوى» ولا تتبع أهواء قوم، ومنه فلان من أهل الأهواء، إذا زاع عن الطريقة المثلى من أهل القبلة كالجبرية والحشوية والخوارج. والمعنى أن العاقل لا يكذب فيما فيه هواه ونفعه تحرّراً من الفضيحة وقوع الناس في أعراضه عند ظهور خلافه أو من عقوبة الله والبعد من رحمته فكيف إذا لم ينفعه الكذب ولا يهويه وفيه ترغيب في إثبات الصدق على الكذب ومبالغة في أن العاقل لا يكذب أصلاً، وقال بعض الحكماء: الكذاب والميت سواء لأن فضيلة الحي النطق فإذا لم يوثق بكلامه فقد بطلت حياته.

(يا هشام لا دين لمن لا مروءة له) في المغرب المروءة كمال الرّجاء و جوايئة ومنها تجافوا عن عقوبة ذي المروءة وقد مرّ الرّجل مروءة وفي الصحاح المروءة الإنسانية (ولا مروءة لمن لا عقل له) الظاهر أن النفي في المواضع الأربعة وارد على الحقيقة كما يقتضيه وقوع النكرة في سياق النفي، والمعنى لا تتحقّق حقيقة الدين ولا توجد لمن ليس له حقيقة المروءة، ولا تتحقّق حقيقة المروءة لمن ليس له حقيقة العقل

ينتج لا يتحقق حقيقة الدين لمن ليس له حقيقة العقل، والمقدمتان ظاهرتان ضرورة أن من كان له مروءة في الجملة كان له دين في الجملة ومن كان له عقل في الجملة كان له مروءة في الجملة، ويحتمل أن يكون النقي فيها وارداً على الكمال كما هو الشائع في استعمال نحو هذا الكلام، والمعنى لا يتحقق كمال الدين لمن ليس له كمال المروءة ولا يتحقق كمال المروءة لمن ليس له كمال العقل، ينتج لا يتحقق كمال الدين لمن ليس له كمال العقل، والمقدمتان أيضاً ظاهرتان ولا يجوز أن يراد في الأولى نقي الحقيقة وفي الثانية نقي الكمال أو بالعكس لفقد الارتباط حينئذ بين الفقرتين وعدم الانتاج لعدم تكرر الأوسط. والأول أظهر لما مر، والثاني أنسب بما بعده، ولما بين عليه السلام أن المروءة والانسانية بالعقل و كان كل واحد منهما مستوراً لا يدركه الحواس وكانت الظواهر أدلة على البواطن كما مرّ أشار إلى أنه يعرف ذلك بترك الدنيا وعدم الركون إليها، وإلى أن مراتبه متفاوتة في الشدة والضعف بقوله:

(وإن أعظم الناس قدراً الذي لا يرى الدنيا لنفسه خطراً) الخطر: الحظ والنصيب والقدر والمنزلة والسبق الذي يتراهن عليه، وقد أخطر المال أي جعله خطراً بين المتراهنين، ويجوز إرادة كل واحد من هذه المعاني هنا، أما الأول لأن فظاهران لأن أقدار الناس عند الله سبحانه في الدنيا والآخرة متفاوتة في الفضل والكمال والقرب والبعد وأعظمهم قدراً من لا يرى الدنيا خطراً ونصيباً وقدرًا ومنزلةً لنفسه ولا يلتفت إليها أصلاً لمنوّر قلبه بضوء عقله وإشراق قلبه بنور ربه؛ فعاد بحيث لا ينظر إلا إليه ولا يرغب إلا فيما لديه ولعلمه بأن الدنيا والآخرة عدوان متفاوتتان وسبيلان مختلفان وهما بمنزلة المشرق والمغرب، وأن من أحب الدنيا وتوّلّاها أبغض الآخرة وعادها، وأن من مشى إلى أحدهما بعد عن الأخرى، وأن مرارة الدنيا حلاوة الآخرة، وحلاوة الدنيا مرارة الآخرة. وأن الدنيا موبقة زهراتها مهلكة شهواتها، باقية آفاتنا، دائمة كدوراتها، حائلة بين المرء والطاعة لذاتها، فلذلك ترك الدنيا من وراء ظهره وسار إلى حضرة المولى فصار عنده أعظم قدراً

و أرفع مكاتأ و أعلى شأنأ و وجبها في الدنيا والآخرة ، و من المقر بين الذين
 لأخوف عليهم ولا هم يحزنون ، و أمأ الا خير فلأن الناس في هذه النشأة بمنزلة
 أهل السباق والترهان ينسابقون لأغراض مطلوبة و غايات مقصودة و أعظمهم قدراً
 عند الله تعالى من شرق عقله و كمل علمه فصار بحيث لا يرى الدنيا و زهراتها الغائلة (١)
 و لذاتها الزائلة و مقتنيات الباطلة خطراً و سبقاً لنفسه أصلاً بل غرضه من
 السباق و غايته من الاستباق هو الفلاح بالسعادات الأخروية و الفوز بالمكاشفات
 الربوبية و الدخول في زمرة الأبرار و في جنات تجري من تحتها الأنهار ، و
 بالجملة ترك الدنيا دل على كمال العقل والعلم ، و ظاهر أن العالم الكامل العقل
 أعظم قدراً عند الله تعالى من غيره (أما إن أبدانكم ليس لها ثمن إلا الجنة) فيه
 تنبيه المغافلين و إيقاظ لهم عن نوم غفلتهم و ترغيب للمساكين في الزهادة عن الدنيا
 و تحريض للعاملين على تحمل المشقة والفناء ، بتوقع رفع المنزلة و عظيم الجزاء بنوع
 من التشبيه و التمثيل ، و تلميح إلى قوله تعالى **وإن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم**
و أموالهم بأن لهم الجنة أي استبدل من المؤمنين أنفسهم و أموالهم بأن لهم الجنة
حيوتها السرمدية بالأففس و نعيمها الأبدية بالأموال فالشترى هو الله تعالى ،
 و البائع هو النفوس البشرية ، و المبيع هو الأبدان ، و الثمن هو الجنة العالية ،
 الباقية ، و الدنيا أو ان التسليم ، فارتضوا بهذا البيع و استبشروا ببيعكم الذي بايعتم
 به و سلموا المبيع ، إلى المشتري لتستفيدوا الربح العظيم فإن البائع إذا قصر في تسليم
 المبيع حتى هلك انفسه البيع و بطل الربح ، قيل : و في جعل الجنة ثمن الأبدان إشارة
 إلى أن ثمن النفوس المجردة هو الله تعالى فكانت الجنة **ثمنها** قال : أما أن أبدانكم ثمنها
 الجنة فلا تبيعوها بغيرها و أمأ نفوسكم المجردة و أرواحكم القدسية فإنما
 ثمنها هو الله سبحانه و الفناء المطلق فيه (٢) و في مشاهدة الوجه الكريم فلا تبيعوها

(١) في بعض النسخ [زهراتها الغائبة] .

(٢) الفناء شيء لا يعرفه الا الراسخون في العلم فمن تفوه به ولا يعرف معناه خيف

عليه الضلال ولا يعرف احد بعدم المعرفة و اما من عرف معنى الفناء فهو غاية مقصوده

بغيرها ولما كان البيع منوطاً بالرضا و كان ﷺ هو الناصح الأمين رغبهم في هذا البيع لما فيه من المصالح الدنيوية والمنافع الأخروية و نهاهم عن بيع أبدانهم بالدنيا الفانية الزائلة الخاسرة الغدارة المكثرة بقوله (فلا تتبعوها بغيرها) يعني يجب عليكم أن لاتعاملوا الشيطان ولا تتبعوها الأبدان بالدنيا وشهواتها فإن من أثر مبايعة الرّحمن على مبايعة الشيطان فأولئك هم الرّابحون ، ومن عكس فما ربحت تجارتهم وأولئك هم الخاسرون . و ينبغي أن يعلم أن العبد في الدنيا ناجرٌ وهو في محلّ الخطر بنفسه و ماله فلا بدّ أن لا يغفل لحظة من حاله ، فإن الشيطان قاطع الطريق ، مترصد في اغتياله ، منتهم للمفرصة في إضلاله ، و المشتري و هو الله تعالى عالم بأحواله ولا يقبل إلاّ السليم والجيد من أعماله و أقواله و أفعاله فيجب عليه أن يبتهل أن لا يكون من الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم و ما كانوا مهتدين .

(يا هشام إن أمير المؤمنين ﷺ كان يقول : إن من علامة العاقل) علامة الشيء ما يعرف به ذلك الشيء ، و للعاقل علامات كثيرة كما يظهر لمن تصفح أحاديث هذا الكتاب و غيرها والمذكور هنا ثلاثة كلّها لتكميل الغير اثنان منها لتكميل العلم و الآخر لتكميل العمل أو لتكميل العلم والعمل جميعاً (أن يكون فيه ثلاث خصال)

العارفين ففي الحديث « يتقرب العبد الى بالنوافل حتى احبه فاذا احببته كنت سمعه الذي يسمع به و يبصره الذي يبصر به و لسانه الذي ينطق به و يده التي يبطش بها » نقلناه من كتاب عين الحيوّة للمجلسي عليه الرحمة مترجماً ثم بعد نقله هذا الحديث تكلف التأويل الفناء بما يوافق مذاقه وأطال الكلام فيه جداً ويمكن تلخيص كلامه في جملتين الأولى ان المراد كنت مسموعاً ومبصره فقال السمع و اراد المسموع ، الثانية ان الله تعالى يده التي يبطش اى يفعل الشيء في زمان يريد العبد فعل ذلك الشيء ولا يسمع المقام البحث في ذلك ولعل الله يوفقنا في مكان أليق ، واما على اصول الشارح فلا يحتاج الى التأويل لان وجود الممكنات بالنسبة الى وجود الواجب كالفيء من الشيء وجود تعلقى صرف فاذا وصل العارف الى ادراك ذلك بالوجدان لا بالقول فقط فقد وجد فناءه (ش).

يريد أن كل واحدة منها علامة بدليل ما بعده (يجيب إذا سئل) لأنّ الجواب على نهج الصواب عقيب السؤال دلّ على كمال المجيب وإنارة عقله ونضارة ذهنه ومهارة طبعه في العلوم ولذلك قال أمير المؤمنين عليه السلام: «تكلّموا تعرفوا فإنّ المرء مخبوء تحت لسانه (١)» وقال أيضاً «قدر كل امرء ما يحسنه فتكلّموا في العلم تبيين أقداركم (٢)» ولأنّ هذا الجواب ينفع السائل لأنّه ينور قلبه بالحكمة ويصل النفع من الصفات الجليّة والسمات العلميّة للعاقل كما يرشد إليه قول أمير المؤمنين عليه السلام: «خير القول ما نفع (٣)» وقوله: أيضاً «لا خير في علم لا ينفع (٤)» قيل يعني لا ينفع صاحبه غيره بل فيه مضرة لقول النبي صلى الله عليه وآله: «من سئل عن علم علمه ثمّ كتبه ألجم يوم القيمة بلجام من نار (٥)» وهذا يفيد وجوب الجواب عقيب السؤال ويستثنى من ذلك ما إذا كان الجواب موجباً لمضرة والترك مشتملاً على المصلحة كالتيقن ونحوها يدلّ على ذلك ما رواه المصنّف (٦) عن الحسين بن محمد عن معلى بن عماد عن الوشاء قال: سألت الرضا عليه السلام فقلت له: جعلت فداك «فاسألوا أهل الذّكر إن كنتم لا تعلمون؟» فقال: نحن أهل الذّكر ونحن المسؤولون، قلت: فأنتم المسؤولون ونحن السائلون؟ قال: نعم، قلت: حقّاً علينا أن نسئلكم؟ قال: نعم، قلت: حقّاً عليكم أن تجيبونا؟ قال: لا، ذاك إلينا إن شئنا فعلنا وإن شئنا لم نفعل أما تسمع قول الله تعالى: «هذا عطاؤنا فامنن أوأمسك بغير حساب» وبالجملّة العاقل حكيم يجيب إن رأى الجواب خيراً ويترك الجواب إن رأى تركه خيراً، وترك الجواب والصمت لمصلحة أيضاً من علامات العاقل، وقد نقل بعض أرباب السّير أن رجلاً

(١) النهج أبواب الحكم تحت رقم ٣٩٢.

(٢) الاختصاص للشيخ المفيد - رحمه الله - ص ٢.

(٣) و (٤) النهج جزء من كتاب له عليه السلام إلى ولده الحسن بن علي (ع).

(٥) أخرجه البهقي في المعايين ج ١ ص ٢٢ بسند ضعيف عن أبي هريرة .

(٦) كتاب الحجّة باب أن أهل الذّكر الذين أمر الله الخلق بسؤالهم هم الائمة «ع»

من أهل العراق حج بيت الله الحرام و غلبه النوم ليلة في المسجد الحرام فاعطى في المنام تعبير الرؤيا ، فلما رجع إلى بلده اشتهر بذلك حتى كان الناس ينتقلون إليه من البلدان البعيدة لاستعلام رؤياهم وكان يجيبهم و يعبر لهم ولا يخطئ أصلاً و نقل من جملة تعبيراته حكايات عجيبة غريبة فبلغ ذلك إلى الوالي فطلبه وأجلسه بين يديه و شرع بذكر حكايات من مزخرفات و منامات مفتريات على سبيل السخرية والاستهزاء ، وكان ذلك الرجل ساكناً في كل ما يقول ولم يجبه أصلاً فقال له الأمير بعدما أطال الكلام لا يش ما تتكلم؟ فقال: أيها الأمير نحن نتكلم إذا كان السائل مستفهماً لا ما إذا كان مستهزئاً ومتعنتاً . فاستحسن عقله وتدبيره فعزيزه و قر به .

(وينطق إذا عجز القوم عن الكلام) بالحكمة الالهية ، والاسرار الربوبية والقوانين الشرعية والأخلاق النبوية والسياسات المدنية ، و غيرها لشدة خوضه في العلوم والحقائق و كثرة غوصه في بحار المعاني والدقائق إما بتعلم ومناظرة مع الخلان في مدة طويلة و آونة من الزمان أو بمكاشفات و الهامات لكثرة أفكار و رياضات فحصل له بذلك كمالات لازمة و سعادات دائمة وملكات ثابتة و أحوالات راسخة حتى عرج بذلك إلى رتبة التعليم بعبارات لائقة، و درجة التفهم بكلمات رائقة ، ومنزل التقويم بتقريرات واضحة ، كما هو شأن العلماء و دأب الحكماء ، و طرز العقلاء ، فدل ذلك على كماله في عقله و تفوقه في فضله وتقدمه في جلال قدره و كمال نيته و من ههنا يظهر أن أمير المؤمنين عليه السلام مقدم على الثلاثة المنحلقين للمخالفة لعجزهم عن معرفة كثير من الأحكام و رجوعهم إليه في كثير من مسائل الحلال والحرام (و يشير بالرأي الذي يكون فيه صلاح أهله) لأن ذلك يتوقف على التميز بين الحق و الباطل و الحسن و القبيح و الصحيح والسقيم والخير والشر في الأقوال والأعمال والأخلاق كلها ، ثم اختيار أفضل هذه الأمور للاخوان والاشارة إليه شفقة عليهم ، و كل ذلك من آثار الفضل

وعلامات العقل و لذلك قيل : من أشار إلى أخيه بأمر يعلم أن الرشد فيه فقد كمل عقله وفاق فضله وظهر عدله . وهذه الفقرة من الكلمات الجامعة لشمولها جميع أنواع الخير مثل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والأمر بالأخلاق المرضية والترغيب في أمر الآخرة والتزهيد عن الدنيا ، وغير ذلك مما يتم به نظام الدارين وتكمل به سعادة الكونين ، وقيل الفقرة الأولى ناظرة إلى الفتاوى في النقليات والشرعيات والثانية إلى تحقيق المعارف والعقليات والثالثة إلى معرفة التدبيرات والسياسات في العمليات (١) (فمن لم يكن فيه من هذه الخصال الثلاث شيء) يعنى لم يقدر على الجواب عند سؤال ، وعلى النطق عند عجز القوم . وعلى الإشارة بما فيه صلاح أهله فهو أحق ناقص العقل لفساد قوته النظرية والعملية المعبرتين بالعقل النظري والعملية . قال في المغرب : الحمق نقصان العقل عن ابن فارس ، وعن الأزهري فساد فيه و كساد ، ومنه انحمق الثوب إذا بلي ، انجمت السقوق إذا كسدت ، وقد حمق حمقا فهو أحمق ، وحمق حماقة فهو أحمق

(إن أمير المؤمنين عليه السلام) تأكيد للمسبق وتقرير له و لذلك ترك العاطف (قال لايجلس في صدر المجلس إلا رجل فيه هذه الخصال الثلاث) التي هي من أعظم أصول حاجات الناس (أو واحدة منها) لأن صدر المجلس لأصحاب العلوم الراسخة و أرباب العقول الكاملة في قوتي العلم والعمل ليرجع

(١) لان قوله في الفقرة الثالثة «صلاح أهله» صريح في السياسة وتدبير المنزل والاخلاق

وأما الفقرة الثانية فوجه اختصاصها بالمعارف والعقليات ان الناس لا يسئلون عنها حتى ينحصر التعليم في مورد السؤال بل على العالم ان يعلم الناس التوحيد و يوجههم الى الآخرة و يبين لهم النبوة والامامة قبل أن يلتفتوا ويسئلوا واما الفروع فيسئل عنها المؤمن بالله والآخرة فيجيب العالم كما في الفقرة الأولى (ش) .

إليهم الضعفاء و يلوذ بهم الفقراء في تحصيل الكمال و تكميل الأحوال ويعظموهم
لحقّ التعليم والإرشاد و يوقّروهم لحقّ التقدم في المعرفة والعلم بأحوال المبدء
والمعاد، وهذا صريح في أنّ تفاوت الرّجال في المجالس باعتبار تفاوتهم في الفضل
والكمال لا باعتبار تفاوتهم في النسب والمال ، يدلّ على ذلك قوله عليه السلام أيضاً قيمة
كلّ امرء ما يحسنه (١) و قول الصادق عليه السلام «أعرفوا منازل الناس على قدر رواياتهم
عنا (٢)» و بالجملة التقدّم على الإطلاق لرسول الله صلى الله عليه وآله ثم بعده لعلي بن أبي طالب
و أولاده الطاهرين عليهم السلام ثمّ بمدّهم لشيعتهم على تفاوت مراتبهم في العلم والعمل
(فمن لم يكن فيه شيء منهنّ فجلس فهو أحمق) لأنّه وضع لنفسه في غير موضعها
وموضعها موضع أراذل النّاس لأنّه رذل وإن كان ذاك منسب لقول النبي صلى الله عليه وآله «ما استرذل الله
عبداً إلّا حظر عليه العلم والأدب (٣)» و قول أمير المؤمنين : «إذا أرذل الله عبداً
حظر عليه العلم (٤)».

(وقال الحسن بن علي عليه السلام إذا طلبتم الحوائج فاطلبوها من أهلها) يمكن
أن يراد بالحوائج الحوائج الدنيويّة أعني أصول المعارف والأحكام وفروعها و
أن يراد بها الحوائج الدنيويّة وقد دلّ العقل والنقل على قبح الطلب وذنم السؤال
في أمور دنيويّة لأنّ فيه خساسة ودلاً و انكساراً وذنبة وإراقة ماء الوجه وهي
أشدّ وأصعب من منيئته، ولذلك قال أمير المؤمنين عليه السلام : «أكرم نفسك عن كلّ
دنيّة وإن ساقنك إلى الرّغائب (٥)» هي جمع الرّغبة يعنى العطاء الكثير وفي
الخبر أيضاً «لأنّ يأتي أحدكم جبلاً فيأتي بحزمة حطب على ظهره فيبيعها فيكفّ

(١) تقدم آتياً (٢) سيأتي في كتاب العلم ان شاء الله .

(٣) أخرجه ابن النجار من حديث أبي هريرة بسند ضعيف كافى الجامع الصغير .

(٤) النهج أبواب الحكم تحت رقم ٢٨٨ .

(٥) جملة من كتاب له (ع) الى الحسن بن علي (ع) في النهج تحت رقم ٣١ .

الله بها وجهه خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه (١) ، وإن اضطررتهم وليس الاضطرار إلا لقلّة البصيرة وضعف اليقين بالله ، لأن من توكل على الله فهو حسبه فاطلبوها من أهلها لأنّه إن قضاها قضاها بالامنة ولا استهانة وعلى وجه جزيل وإن ردّها ردّها بوجه حسن وعلى وجه جميل ، ولا تطلبوها من غير أهلها لأنّ تلك دنيّة حاضرة ومذلّة ظاهرة ، وفوت الحوائج أحسن وأهون منها (قيل يا ابن رسول الله ومن أهلها ؟ قال : الذين قص الله في كتابه وذكرهم فقال : « إنما يتذكر أولو الألباب » قال : هم أولو العقول الخالصة) عن شوائب النقص والأوهام (٢) إن أريد بالحوائج الحوائج الدنيّة فالرجوع فيها إلى أولى الألباب وطلبها منهم ظاهر لأنّهم العارفون بالمعارف والأحكام وسائر الناس فقراء يحتاجون إلى السؤال منهم والأخذ من خزائن عقولهم ، وكذا إن أريد بها الحوائج الدنيّة لأنّهم بسبب كمال عقولهم وعلوّ طبعهم وشدة محبتهم ومودّتهم بخلق الله إمّا يقضون حوائجهم على الوجه الأحسن كما روي أنّ سائلاً سأل الرضا عليه السلام فقال اجلس رحمك الله فدخل الحجر وبقي ساعة ثم خرج وردّ الباب وأخرج يده من أعلى الباب وقال للمسائل : خذ هذا المائتي دينار واستعن بها على مؤوّنك ونفقتك

(١) أخرجه البغوي في المصابيح ج ١ ص ١٢٣ .

(٢) العقل الخالص عن شوائب الأوهام لفظ يتفوه جميع الناس و يظنون أنفسهم واجدين له متصفين به ولكن الحق ان الخالص المعص ليس الا في قليل و يعرف ذلك من عرض نفسه على العلامات المذكورة في هذا الحديث الشريف للمعقل كما مر و بينا في بعض مامر كيفية ارتباط منافيات العقل للوهم انموذجا يقاس به الباقي فاذا رأيت أحداً يصدق بشيء لم يقم عليه دليل ولا يدرك بالبدئية كالفضاء الغير المتناهي و الجزء الذي لا يتجزى وأن كل موجود محسوس فاعلم ان عقله مشوب بالوهم فهو بهينه نظيره من بمترف بان الميت جماد ومعدلك بخاف عنه ولكن ليس جميع الاصول العقلية مما يعارضه الوهم في التصديق بل في العمل ولولا ذلك لم يكن العقل حجة اذا لم يميز الانسان مدركات و همه من مدركات عقله . (ش)

و تبرك بهائم خرج بعد ذهاب السائل ؛ فقبل له: جعلت فداك لقد أجزلت ورحمت فلماذا سترت وجهك عنه؟ فقال مخافة أن أرى ذل السؤال في وجهه لقضائي حاجته (١) ، وإما يردونهم على الوجه الأحسن و يرشدونهم إلى ما يتحصل به قضاء حوائجهم كما روي «أن رجلاً اشتد فاقته فقالت له امرأته لو أتيت رسول الله فسأله فجاءه ليسأله فلمّا رآه النبي ﷺ قال : من سألتنا أعطيناك ومن استغنى أغناه الله فقال الرجل ما يعنى غيرى فرجع إلى امرأته فأعلمها فقالت: إن رسول الله بشر فأعلمه ، فأناؤه فلمّا رآه قال : من سألتنا أعطيناك ومن استغنى أغناه الله حتى فعل ذلك ثلاثاً ثم ذهب الرجل واستعار معولاً واشتغل بالاحتطاب و ابتاعه حتى اشترى بكرين و غلاماً ثم أثرى حتى أيسر فجاء إليه ﷺ فأعلمه كيف جاء يسأله و كيف سمع منه ، فقال ﷺ قلت لك : من سألتنا أعطيناك ومن استغنى أغناه الله (٢) ، فانظر رحمك الله إلى جلالة قدر العقاد و نبالة حالهم و عظمة شأنهم حيث جعلهم الله سبحانه مناراً في بلاده بهم يعرفون معالم الدين و يصعدون إلى أعلى معارج اليقين ، وما إذا لعباده بهم يتوسلون في تحصيل المطالب و يتمسكون في تيسير المآرب، تلك نعمة يمن بها على من يشاء من عباده وهو الحكيم العليم . (وقال علي بن الحسين عليه السلام : مجالسة الصالحين داعية إلى الصلاح) لأن كلامهم يعمر قلب الأنيس و يلين طبع الجليس (٣) و يخرجهم من الغفلة والنسيان و يذكّرهم ثواب الأبد ونعيم الجنان ، و يحببهم بالموعظة العليا والسعادة العظمى والزّهادة عن الدّنيا حتى يصير تكوّنهم كتكوّنهم و تلوّنهم كتلوّنهم فيرتقى بذلك

(١) رواه الكليني في الكافي كتاب الزكاة باب من أعطى بعد المسألة تحت رقم ٣.

(٢) الكافي كتاب الايمان والكفر باب القناعة تحت رقم ٧ .

(٣) ما نقل عن زين العابدين (ع) هنا راجع الى عقل المعاش والمعايشة مع الناس

بعد ما كان مارواه سابقاً عليه من عقل المعاد ونهذيب النفس اشار الى ذلك استناداً للحكماء المتألهين صدر الدين قدس سره وذلك لان المعايشة مع الصالحاء والمدايرة مع الاعداء من كمال العقل والشرعة الكاملة المحمدية (س) تدعوا الى التعاون والمعايشة . (ش)

إلى معارج القدس ، ويرتفع في رياض الأنس ، ألا يرى أن من عقد خدمة النبي في وسط روحه كيف فتح الله عليه أبواب فتوحه ومن قارن بيضاً سماء الولاية ولازم نير فلک الإمامة و أخذ جواهر المعاني من زواهر كلماته و اقتبس أنوار الحقائق من ضوء مشكوته كيف نور الله بذلك مهجته وزاد بهاءه . بهجته ، وقد يرشد إلى ذلك قول أمير المؤمنين عليه السلام : « قارن أهل الخير تكن منهم و باين أهل الشر تبين عنهم (١) » أي تتميز عنهم . وفيه حث عظيم على وجوب مفارقة الفاسقين والاحتجاب عن الظالمين و الفرار عن أولياء الشياطين حتى كان تقارنهم موجباً للاتحاد بين الاثنين و ذلك لأن جلس أهل الشر يأخذ منهم أعمال الشر بداراً كما أن الحديد بمجاورة النار يصير ناراً ، إذ قد اجتمع على تلك الأعمال بواعث من الطبع و وسوس من الشيطان و تدليسات من مرده الأنس ، و تدليسات عن أهل الخذلان ، فيوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً ، يزيّن كل صاحب به باطلاً وزوراً

(و آداب العلماء زيادة في العقل) الآداب جمع الأدب (٢) قال في المغرب الأدب أدب النفس والدّرس - وقد أدب فهو أدب و أدبه غيره فتأدّب و استأدّب وتر كيبه يدل على الجمع - والدعاء ومنه الأدب لأنه يأدب الناس إلى المحامد أي يدعوهم إليها عن الأزهرى ، و عن أبي يزيد الأدب اسم يقع على كل رياضة

(١) النهج كتاب له «ع» إلى ابنه الحسن بن علي «ع» .

(٢) المبتدا في تلك الجملة مصدر و اسم مصدر مثل مجالسة الصالحين وطاعة ولاة

الامر واستثمار المال وارشاد المستشير وكف الاذى فلا بد أن يكون آداب أيضاً مصدراً حتى يتناسق الالفاظ و يتناسب المعنى اذ ليس آداب العلماء زيادة في العقل بل المعاشرة معهم و الاختلاف اليهم و مصاحبتهم و ملازمة خدمتهم . والانسب عندي بعد فرض صحة الكلمة ان يقرأ رادآب العلماء مصدر باب الافعال من دأب بمعنى الإلحاح والسؤال المتتابع والاصرار في ملازمتهم والتشرف بخدمتهم واستنباط المعارف منهم والآداب المتتابع و التكرار قال تعالى « تزرعون سبع سنين دأباً أي متتابعاً وفي نسخة لنا مصححة مقروءة على المحدث الجزائري «أدب العلماء» وهو أحسن من «آداب» (ش) .

محمودة يتخرج به الإنسان في فضيلة من الفضائل والمقصود أن آداب العلماء موجبة لزيادة عقل من جالسهم و عروجه من حضيض النقص إلى أوج الكمال ، والوجه في ذلك مع ظهوره أن عقول العلماء مشرقة مضيئة في سماء الأبدان كالشمس فانقشعت عنهم سحائب الحجب وظلمات الغشاوة إلى أن شاهدوا العلوم الإلهية والحكمة الربانية وإذا قابلت العقول الناقصة القابلة عقولهم استعدت بذلك لأن يتنور بنورها وتستضيء بضوئها كما أن القمر المقابل للشمس يتنور بنورها ويستضيء بضوئها وعلى حسب ذلك ينكشف عنها الحجاب والعوائق ويحصل لها الترقية إلى عالم العلوم والحقائق ولذلك قال أبو الحسن موسى بن جعفر عليه السلام «محادثة العالم على المزابل خير من محادثة الجاهل على الزرابي» (١)

(وطاعة ولاية العدل تمام العز) (٢) لما كان الإنسان أسيراً لنفسه الأمارّة

(١) سيأتي في كتاب العلم ان شاء الله تعالى .

(٢) قوله و طاعة ولاية العدل «الظاهر المتبادر الى الذهن في كلام الائمة «ع» وشيعتهم من ولاية العدل الامام المعصوم وأما ما يربط الولاية وان اتسموا بالعدالة فهم جاثرون لا يجب اطاعتهم اذ لا يخلو غير المعصوم من أمر بالغيب ولو خطأ وهذا مذهبنا في الحكومة والسياسة ونقول: يجب في حكمة الله تعالى ولطفه أن ينصب في كل زمان اماماً معصوماً حجة ويوجب طاعته على العباد والمدينة الفاضلة التي يقول به الحكماء هي التي يكون الامير فيه بصفة العلم والحكمة والعدل و تزيد فيه العصمة ، وقال الفارابي في بعض كتبه ما حاصله أن أفضل أنحاء المدينة بعد المدينة الفاضلة مدينة الجماعة وعرفها بما يطابق الحكومة الديمقراطية في عهدنا وقال هذه المدينة بعد الناس و يهيئهم لقبول المدينة الفاضلة ومدينة الجماعة هي التي قبلها أكثر بلاد النصارى ولم يعهد الي زماننا هذا حكومة اعدل منها اذ عزلوا الامراء والولاة والجنود بل الوزراء مع كمال قدرتهم ان ينفذوا شيئاً بأوامرهم و يستبدوا بشيء من الاحكام الا اذا رضى به الناس وصوبه الرعايا ومع ذلك فليس اطاعة ولاية مثل تلك الحكومات أيضاً واجبة على الناس ان فرض محالاً وجودها بين المسلمين الانقية وتحرزاً عن الفتنة وأمثال ذلك (ش) .

بالشهوات والقوى الداعية إلى اللذات وكانت أهواؤهم لذلك مختلفة وآراؤهم متباينة وقلوبهم متفرقة كانت استقامة نظام أحوالهم في أمر معاشهم ومعادهم محوجة إلى سلطان قاهر وحاكم زاجر تأتلف برهمنه النفوس والأهواء وتجتمع بهيئته القلوب والاراء وتنكف بسطوته الأيدي العادية إذ في طباعهم من حب الغلبة على ما أثروه والقهر لمن عاندوه ما لا ينكفون عنه إلا بمانع قوي و رادع ملي و زاجر جلي و قد أفصح المتنبي عنه حيث قال :

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى ❦ حتى يراق على جوانبه الدم
والظلم من شيم النفوس فإن تكن ❦ ذاعفة فلعلمة لا يظلم
والعلة المانعة من الظلم عند الاستقراء ترجع إلى أمور أربعة إما عقل
زاجر أو دين حاجر ، أو عجز مانع ، أو سلطان رادع ، والسلطان القاهر
أبلغها نفعاً وأعظمها ردعاً لأن العقل والدين ربهما كانا مغلوبين بدواعي الهوى و
العجز قدينتي كما هو المشاهد في الأكثر فيكون رهبة السلطان أقوى ردعاً و
أعم نفعاً ، ثم السلطان الجائر وإن كان دافعاً للمفتنة من بعض الجوانب لكنه
جالب لها من جوانب آخر فلاخير فيه من جهة ما هو جابر فلا بد من أن يكون
السلطان عادلاً ليكون دافعاً للمفتنة بالكلية مانعاً من وقوع الهرج والمرج والذل
والخسران في الخلق ولكن دفعه لها منوط بطاعتهم و متابعتهم له فوجب عليهم الوفاء
بذمائه والاستماع إلى كلامه ، والاتباع لأفعاله وأعماله ، واللتزم للألفة والتحاض
عليها والتواصي بها ، و الاجتناب عن الفرقة وغيرها مما يكسر فقرتهم ويوهن
قوتهم من تضاعن القلوب و تشاحن الصدور و تدابر النفوس و تخاذل الأيدي
ليحصل له قوة لدفع كيد المعاندين و شر الظالمين و مكر الحاسدين و طعن
الملحدين عن حوزة المسلمين و عرض المؤمنين ، فتحصل لهم العافية و تكمل لهم
النعمة و تجري عليهم العزة والكرامة ، و يكونون حينئذ أنصاراً معززين و أرباباً
في الأرضين ملوكاً على رقاب العالمين ، ولو تر كوا طاعته واختاروا فرقة وجانبوا
الفتنه و هدموا كلمته و كسروا شو كنه و تشعبوا مختلفين و تفرقوا متحاربين

خلع الله تعالى عنهم لباس كرامته ورداء عزته و غضارة نعمته فيستولي عليهم الاعداء و يتخذونهم عبيداً ويسومونهم سوء العذاب وهم متحيرون في ذل الهلكة وقهر الغلبة لا يجدون حيلة في امتناع ولا سبيلاً إلى دفاع (١).

(واستثمار المال تمام المروءة) أي استثمار المال واستنماؤه بالتجارة وغيرها من أنواع الاكتساب تمام الانسانية وكمال الرجولية (٢) لما فيه من الاستغفار عن الناس والسعي للتوسعة على الأهل و التعطف على الجار والاقتدار على قضاء الحوائج والإتيان بسائر أبواب البر من مصالح الدنيا والآخرة. قال الصادق عليه السلام: «إصلاح المال من الإيمان (٣)» وقال أيضاً: «عليك بإصلاح المال فإن فيه منبهة للكريم واستغناء عن اللئيم (٤)» والاعخبار المرغوبة في كسب الحلال والاستغناء عن الناس وجعله وسيلة إلى السعادات الآخروية والتقرب بالقربات الإلهية و صرفه في وجوه البر أكثر من أن تعد و تحصى و إنما المذموم من جعل الدنيا لنفسه استقراراً و رضي بها داراً و اطمأن بها و ركن إليها و جعلها آلة للشهوات الباطلة

(١) من قوله: «واللزوم للآفة» التي هنا مقتبس من النهج الخطبة المعروفة بالفاصحة.

(٢) المروءة مصدر مرء الرجل و ارادوا به شيئاً غير كون الانسان مرءاً أي رجلاً فان هذا المعنى ثابت لكل رجل وليس كل رجل ذا مروءة وذلك لان الناس على ضربين منهم من يعتنى بنفسه وبتعاهده و يجب ان يحفظه مما يبدسه و يعبيه ومنهم من لا يبالي بنفسه ولا يمتد بما يقول وما يقال فيه، و نظير ذلك اختلاف الناس في سائر اموالهم وما يتعلق بهم مثلاً بعضهم يعتنى بداره واثاثه واولاده، وبعضهم يهمل كل شيء له والعالم يعتنى بكتبه و يحفظها من التلف ويضن بها من الضياع وغير العالم لا يعتنى بما يقع في يده من الكتب والزارع كذلك بالنسبة الى البذور والحقول والبساتين يعتنى بامور لا يعتنى به غيره وصاحب المروءة هو المعتنى بنفسه والمروءة ممدوحة في الشرع والعرف وعندها الفقهاء من شرائط العدالة لان البدن الوقيع الذي لا يبالي بما يقال فيه ولا يمد نفسه مما يجب ان يتعاهد لا يجتنب القبائح البتة. واما استثمار المال فعده من تمام المروءة فان من يعتنى بنفسه يعتنى بماله من حيث ان ماله يقي عرقه و يحفظه من السوال و يسهل عليه البذل واعانة المضطرين و اغاثة الملهمين فحفظ المال كمال لحفظ النفس (ش).

(٣) و (٤) الكافي كتاب المعيشة باب اصلاح المال وتقدير المعيشة تحت رقم ٦٥٢.

واللذات الزائلة والسبب في الحائلة بينه وبين السعادة الأبدية. وقد روى «ان الدنيا دنيا، ان دنيا ممدوحة وهي ما يوجب زيادة القرب من الله تعالى، ودنيا ملعونة وهي ما يوجب البعد عن رحمته ويحتمل أن يكون استثمار المال كناية عن إخراج الزكاة لأن إخراج الزكاة يوجب نمو المال و لذلك سمّي المخرج من المال زكاة و يدل عليه قول أمير المؤمنين عليه السلام : « ان الله وضع الزكاة قوتاً للفقراء وتوفيراً لأموالكم » (١).

(و إرشاد المستشار قضاء لحقّ النعمة) الاستشارة أمر مرغوب فيه شرعاً و عقلاً و الروايات المرغبة فيها متظافرة و قد أمر الله تعالى بها سيّد المرسلين و هو أعقل العاقلين فقال : « و شاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله » فمن اهتم بأمر يعلم أن الخيرة في فعله أو في تركه فعليه أن يستشير بذی الرأي المتين فانه سبحانه يلهمه الخير و الشر و على المستشار أن لا يخونه فإن من خان مسلماً فقد خان رسول الله ﷺ و من خان رسول الله فقد خان الله و من خان الله أخزاه الله في الدنيا والآخرة و جلب عنه نعمة و رحمته و عليه هدايته و إرشاده إلى ما هو خير له « قضاء لحقّ النعمة » أي نعمة المستشار عليه لأن تفويض المسلم أمره إلى أخيه و اتكاله على رأيه فيه نعمة عليه، أو المراد بالنعمة عقل المستشار لأن العقل من أفضل نعماء الله تعالى على عباده و المراد بها أعم من ذلك و على التقادير إرشاده سبب لمقتضى حقها و استبقائها لها و إضلاله سبب لفسادها و يرشد إليه قول أمير المؤمنين عليه السلام « إن الله عباداً يختصهم بالنعم لمنافع العباد فيقرّها في أيديهم ما بذلوها فإذا منعوها نزعتها ثم حوّلها إلى غيرهم » (٢)

(و كفى الأذى من كمال العقل) قال: في المغرب: الأذى ما يؤذيك وأصله المصدر و قوله في المحيض « هو أذى » أي شيء، يستقذر كأنه يؤذي من يقربه نفرة و كراهة، والتأذي أن يؤثر فيه الأذى. أقول: الأذى لفظ شامل لجميع أنواع الخصال المذمومة مثل الضرب والشتم والهجو والغيبة والنهمة وغيرها وإنما كان

(١) في المحاسن ص ٣١٩ والفقيه و الكافي و العلل من حديث المقر قوفى عن

موسى بن جعفر عليهما السلام .

(٢) النهج أبواب الحكم تحت رقم ٤٢٥ .

كف الأذى من كمال العقل لأن العاقل يعلم أن الغرض الأصلي من الخلق هو الوصول إلى جناب عزته والطيران في حظائر قدسه بأجنحة الكمال مع الملائكة المقرئين وأن ذلك كما يتوقف على عبادة الرحمن كذلك ينوقف على كف الأذى من الإخوان ، فكما أن صرف الهمّة في العبادة من كمال العقل كذلك صرف النفس عن الأذى ، وأما المؤذي فهو بمنزلة البهائم والسباع ، عار عن حلية العقل و يعلم أيضاً أن ترك الأذى يوجب التعاون والتعاطف والتراحم والتواصل والتظاهر والتواخي والتآلف والتودد والاجتماع ، وكل ذلك مما يقتضيه كمال العقل و يعلم أيضاً أن ترك الأذى يدل على حلمه وأناته ورفقه وإشفاقه وعلمه بعواقب الأمور وهي من آثار العقل ، و يعلم أيضاً أن إيذاء المسلم نقصان في الدين أو خروج منه لقوله ﷺ : «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده (١)» فلذلك يتركه طلباً لكماله وأنه من كمال العقل ولا تفاوت في هذا الحكم بين كف نفسه عن أذى الغير أو كف غيره عن أذى أحد (وفيه راحة البدن عاجلاً و آجلاً) لأن الدنيا والآخرة دار المكافاة فمن ترك الأذى سلم عن الآفات أما الآخرة فلقوله تعالى : «فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره و من يعمل مثقال ذرة شراً يره» وقوله تعالى : «سيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون» وقول أمير المؤمنين عليه السلام «بئس الزّاد إلى المعاد العدوان على العباد (٢)» وقوله «يوم المظلوم على الظالم أشدّ من يوم الظالم على المظلوم (٣)» إلى غير ذلك من الآيات والروايات ، وأما الدنيا فلقوله ﷺ «من سلّ سيف البغي قتل به ، و من حفر بئراً لأخيه وقع فيها» (٤) ولأن المظلوم إن كان ذا قوة فقد ألقى المؤذي نفسه إلى التهلكة وإن لم يكن ذا قوة أضمر العداوة ويستنز الفرصة لا يتقاع المكروه به كما هو المعلوم من أحوال أبناء الزّمان ، وأيضاً قدير فعه الدهر وليس ذلك من الدهر بهيعد فالمؤذي دائماً في معرض الهلاك وقد يقال : الناس إما كاملون أو ناقصون والناقص

(١) النهج أبواب الخطب تحت رقم ١٦٥ أولها «إن الله تعالى أنزل كتاب هادياً».

(٢) و (٣) و (٤) النهج أبواب الحكم تحت رقم ٢٢١ و ٢٤١ و ٣٤٩ .

نقصانه إما بحسب الدنيا أو بحسب الآخرة والنقصان بحسب الآخرة إما بحسب العمل أو بحسب العلم، والنقصان بحسب الدنيا إما في الجاه والعزّة أو في المال والثروة، والكامل من حقّه أن ينفع غيره أو يدفع الضرر عنه فصارت الأقسام ستة أربعة من جهة النقص وإثنان من جهة الكمال فقوله عليه السلام «مجالسة الصالحين داعية إلى الصلاح» إشارة إلى الناقص من جهة العمل المفتقر إلى من يدعو به إلى الصلاح وقوله : «وآداب العلماء، زيادة في العقل» إشارة إلى الناقص في العلم المفتقر إلى التعلم وقوله : «وطاعة ولاية الأمر تمام العزّة» إشارة إلى الناقص بحسب الدنيا من جهة العزّة. وقوله : «واستثمار المال تمام المروءة» إشارة إلى الناقص بحسب الدنيا من جهة المال، فهذه أقسام الناقصين وعلاج جميعهم بالمعاشرة والصحبة. وقوله : «وإرشاد المستشير قضاء لحقّ النعمة» إلى الكامل النافع لغيره. وقوله : «وكفّ الأذى تمام العقل» إشارة إلى الكامل الدافع للضرر عن الغير.

(يا هشام إنّ العاقل لا يحدث من يخاف تكذيبه) لأنّ العاقل لا يعين غيره بالإثم والعدوان ولا يسعى على نفسه بالاستهانة والخذلان، بل يحفظ قدره و شرفه على قدر الامكان و يجتنب من تحديث من يكذب به كما يجتنب من الذنوب والعصيان أو أشدّ اجتناباً لقول أمير المؤمنين عليه السلام : «أشدّ الذنوب ما استهان به صاحبه (١)» ولأنّ المكذّب للعاقل جاهل ورؤية الجاهل و مجالسته شوم فكيف تحديثه ومجاورته و لأنّ تحديثه مع احتمال تكذيبه ربّما ينجرّ إلى الخصومة و الجدال و قد ورد النهي عنها.

(ولا يسأل من يخاف منه) لأنّ أصل السؤال - والطمع - عمّا في أيدي الناس ذلّ والخيبة بالمنع وعدم الانجاح ذلّ آخر فالعاقل لا يسأل غيره ما استطاع لقول أمير المؤمنين عليه السلام : «إن استطعت أن لا يكون بينك وبين الله ذو نعمة فافعل فإنّك مدرك قسمك و آخذ سهمك، وإنّ اليسير من الله سبحانه أكرم و أعظم من الكثير

من خلقه وإن كان كل منه (١) ، وإن اضطر إليه و نظر إلى أن المال في أيدي
العباد مال الله في الحقيقة قد ملكهم النصر في فيه وأن هذا العالم عالم الأسباب فلا
يسأل قطعاً من يخاف منه تحاشياً عن ذل في ذل و انكسار في انكسار و إراقه
ماء الوجه بالامتنعة أصلاً و تماسكاً بقوله عليه السلام « ماء وجهك جامد فانظر عند من
تقطره (٢) » و بقوله : لقلع ضرس ، وضنك حبس و نزع نفس ، ورد أمس
وحمل عار ، و نفخ نار و بيع دار بعشر فلس و قود قرد ، و نسج برد
ودبغ جلد بغير شمس و قتل عم ، و شرب دم و حمل غم ، و نقل رمس
أهون من وقفة بباب تلقاك حجائبها بعبس

(ولا يعد ما لا يقدر عليه) لأن خلف الوعد من صفة التفاق وصنع اللثام و
فيه مذلة حاضرة وخساسة ظاهرة يستنكفها أصحاب العقول الخالصة وقدروي عن
أبي عبد الله عليه السلام قال : قال رسول الله ﷺ « ثلاث من كن فيه كان منافقاً وعد منها
خلف الوعد (٣) » ولاظهار شرف الوفاء به و سمو رتبته و علو درجته ذكر الله
سبحانه في القرآن العزيز وقد مده على وصف الرسالة والنسبة وغيرهما من الصفات
العالية مثل الأمر بالصلوة والزكاة فقال « و اذكر في الكتاب إسماعيل إنه كان
صادق الوعد و كان رسولاً نبياً » و قيل ، معناه إن العاقل لا يعد أمراً من الأمور
حتى يعلم أنه قادر على إتمامه والبلوغ إلى غايته . و كأنه قرأ يعد بشد الدال
من الإعداد والظاهر أنه تصحيف (ولا يرجو ما يعنف برجائه) التعنيف اللوم و
التعيير والرجاء هي الصورة الحاصلة في النفس من تقدير شيء و تصويره فيها و
أكثره ينشأ من تخمين بالروية ، وفي النهاية الرجاء هي التوقع والأمل والمراد

(١) النهج من كتاب له «ع» إلى ابنه الحسن «ع» .

(٢) النهج أبواب الحكم تحت رقم ٣٤٦ .

(٣) بحد الانوار المجلد الخامس عشر الجزء الثالث من كتاب الايمان والكفر باب

صفات المنافق والمرائي عن هرون بن مسلم عن مسعدة بن زياد عنه عن آبائه «ع» عن النبي

«ص» «للمنافق ثلاث علامات اذا حدث كذب واذا وعد أخلف واذا اتمن خان» .

به هنا طلب رجل ما لا يستحقه ولا يليق بحاله كما هو من بضائع النوكى (١) وشرايع الحمقى مثل أن يطلب الفقير الخمول السلطنة والجاهل الغنى التطلع بالأسرار اللاهوتية ويدعى المبتدئ فى العلم رتبة الاستادين الكاملين ورجاء أمثال ذلك من لوازم الجهالة ولو احق الغباوة لامن صفة العلماء وسمت العقلاء فان العاقل العالم لا نارة قلبه وإضاءة ذهنه وانفتاح عين بصيرته له حاجز عن ذلك ونور يستبين به العواقب ويترك به القبايح ويجتنب عن رجاء ما لا يليق به وينزل نفسه فى مكانها ويطلب الأشياء فى مظانها . رحم الله عبداً عرف قدره فلم يجاوز طوره ، (لا يتقدم على ما يخاف فوته بالعجز عنه) قرء بعض العلماء قوته بالقاف المضمومة وتشديد الواو ، و قال : أي على قوته فالنصب على نزع الخافض ، والنسخ التي رأيناها بالفاء المفتوحة والواو الساكنة يعنى أن العاقل لا يقدم على فعل ليس فى وسعه ولا يرتكبه تجرؤاً عن ابحوق اللوم بسبب العجز عنه رأساً أو بسبب العجز عن الاتيان به على وجه الكمال وكذا لا يقدم على قول وفعل فى غير وقتيهما لأنّه يعلم أن الأشياء مرهونة بأوقاتها ومن أقدم عليهما فى غيرهما عجز عنهما (٢) وأذل نفسه ، و قال

(١) بضايح جمع البضاعة. النوك - بالضم والفتح - جمع نو كى كسرى (القاموس)

(٢) ادب المعاشرة مع الناس ينقسم بانقسام الناس وهم طوائف فمنهم العلماء والمعاشرة

معهم لتحصيل الاداب و زيادة العقل، ومنهم ولاة العدل وادب الناس معهم الطاعة لحفظ المزة ، ومنهم من تعرفه وبمرفك وله حق نعمة عليك بوجه من الوجوه وأدبك معه بذل النصيحة وترك الخيانة فى رأى و مراعاة مصلحته ، ومنهم من ليس بينك وبينه معارفة و أدبك معه الكف عن اذاه و الامتناع من الاضرار به ، و اما ادب النفس بحيث يحفظ بكرامته عند الناس فأوله استثمار المال، ذكره بعد ذكر طاعة الولاة لما بينهما من الارتباط ثم أن لا يحدث من يخاف تكذيبه فان ذلك يشهره بالكذب ، ولا يسأل من يخاف منعه فانه يوجب الذلة ، ولا بعدما لا يقدر عليه فان هذا أيضاً يوجب مهاتته وعدم اعتماد الناس عليه ، ولا يتعرض لطلب ما لا يناله فان هذا يستلزم رمية بالسفاهة و يستهزئ به و يذهب بكرامته ولا يستعمل فى ادراك شىء يظن أنه لا يدركه لعجزه فان ذلك أيضاً سفاهة «ش» .

الصادق عليه السلام : « لا ينبغي للمؤمن أن يذل نفسه ، قيل له : وكيف يذل نفسه ؟ قال :
يتعرض لما لا يطيق » (١) ، وفي رواية أخرى (٢) عنه عليه السلام قال : « يدخل فيما
يعتذر منه » . (٣)

((الاصل)) :

١٣- « علي بن محمد ، عن سهل بن زياد رفعه قال : قال أمير المؤمنين عليه السلام :
« العقل غطاء ستير ، والفضل جمال ظاهر ، فاستر خلل خلقك بفضلك ، وقاتل هواك »
« بعقلك ، تسلم لك المودة » ، وتظهر لك المحبة » .

((الشرح)) :

(علي بن محمد عن سهل بن زياد رفعه قال : قال أمير المؤمنين عليه السلام : العقل

(١) و (٢) الكافي في كتاب الجهاد باب كراهة التعرض لما لا يطيق تحت رقم ٤ و ٥ .
(٣) هذا خبر طويل راويه الحسين بن محمد بن عمران وهو ثقة ، عن بعض أصحابنا
وهو مجهول عن هشام بن الحكم مرسل فروايته غير معتبرة من جهة الاسناد ، والاعتماد
على متنه اذ يتضمن مدح العقل مع الاستشهاد بالقرآن الكريم و التأييد بالدلة العقلية
فإن شمل بعض ألفاظه على ما يحتاج الى تكلف في تفسيرها أو ينقل آية على خلاف ما في
المصنف الشريف لا يستغرب ذلك فإن حفظ جميع ألفاظ الامام «ع» في الروايات الطويلة
خرق للعادة ولا يبعد سهو الراوي ونقله بعض الكلمات بتحريف و تصحيف ولا يجعل
مثله دليلاً على تحريف القرآن كما هو دأب الاخباريين فإن احتمال تطرق الوهم والتحريف
الى الخبر قريب و الى القرآن ممتنع . و قال صاحب الوافي قدس سره : و لهذا الحديث
ذيل في غير الكافي نذكره في كتاب الروضة ان شاء الله تعالى وفي الوافي ايضاً شرح وتحقيق
كثير اقتبس بعضه من السيد الداماد واستاده صدر المتألهين قدس سرهما ونقل منه كثيراً
في هذا الشرح بالفاظهم من غير ان ينسبه اليهم وله عذر في ذلك نشير اليه في موضعه ان شاء الله
تعالى (ش) .

غطاء، ستر) العقل جوهر مجرد له مراتب متفاوتة في النقص والكمال باعتبار التفاوت في العلم والعمل والكشف حتى يبلغ غاية الكمال التي تختص بعقول الأنبياء والأوصياء عليهم السلام ، والمراد بالعقل هنا نوعه في ضمن أي صنف وجد غير الصنف الذي هو في غاية الكمال سواء كان من جهة المكاشفة أو من جهة الاكتساب بقرينة أن هذا الصنف لا يحصل إلا بعد قتل مشتهيات النفس و هواها . و الغطاء كالكساء ما يغطي ويستر به مثل الثوب ونحوه وسمي العقل غطاء على سبيل التشبيه لأنه يستر المقابح الظاهرة و المفاصد الفاضحة و العيوب الباطنة بالمدافعة و الممانعة ، ووصفه بستر بمعنى ساتر على سبيل الكشف والإيضاح أو بمعنى مستور لأن العقل جوهر مجرد مستور عن الحواس لا يدرك إلا بشيء من آثاره وأحواله كما أشار إليه بقوله (والفضل جمال ظاهر) والمراد بالفضل إما جنوده الآتية مثل الرأفة والرحمة والعفة وأمثالها ووجه ظهورها ظاهر، وإما ما حصل له من العلوم الحقيقية والمعارف اليقينية والأخلاق النفسانية و ظهوره إما لأنه يظهر في بعض الأوقات بالتعليم و التفهيم أو لأن أكثره حصل من طرق الحواس وإما كان مقتضى العقل هو القرب من الخالق و تحصيل المحبة والإلف بالمخلوق و تكميل المودة ليتم له سمادة الدارين و نظام النشاطين و مقتضى النفس ضدّه أعنى الميل إلى أنواع المشتهيات وأنواع المستلذات ولو بالغلبة الموجبة لعداوة الخالق و المخلوق و كان بينهما تدافع و تعارض و كان لكل منهما ممد و معين أمّا معين العقل فهو العلوم والمعارف وما أعطى له من الأخلاق والأعمال المرضية وهي جنوده الآتية وأمّا معين النفس فهو ما قدر لها من الأخلاق الرذيلة وهي جنودها الآتية ، و اشتغال الحواس والقوى بتحصيل منمسياتها و تكميل مهيئاتها أراد عليه السلام أن يبين لنا طريقاً به يقطع التنازع بينهما و يحصل القوة على النفس ويصل إلى مقصوده فقال : (فاستر خلل خلقك بفضلك) إن كان «خلقك» بضم الخاء فالمراد بخلله رذائل الأخلاق النفسانية كالغضب والحسد والجور و نحوها ، وإن كان بفتحها فالمراد بها هذه والطرق الموصلة للصورة الشهية المحسوسة إلى النفس

أعني الجواس" أيضاً يعني استر رذائل أخلاقك النفسانية و صور المحسوسات الشهوانية بعلمك و فضائل صفاتك العقلية والمراد بسترها دفعها بلطايف السياسات و طرائف التدبيرات فيتقوى العقل حينئذ بالفضل و تبقى النفس مع المتمنيات و ميلها إلى اللذات بلامعين من خارج و داخل فتصير ضعيفة مغلوبة بحيث تقدر على قتلها بسيف العقل ولذلك أمر ﷺ به حيث قال: (وقاتل) بعد ما صيرت عقلك قوياً و نفسك ضعيفة (هواك بعقلك) أي متمنياتا ومهوياتا تهاوذلك إنما ينحقق بقتل النفس و يمكن أن يراد بالهوى النفس مجازاً من باب تسمية السبب باسم المسبب (تسلم لك المودة و تظهر لك المحبة) الفعالان مجزومان بالشرط المقدر بعد الأمر أي إن سترت و قتلتم تسلم لك المودة تك المخلق أو مودته الخلق لك لخلوصك عما يوجب التباغض والتحاسد والتفارق و غيرها من منافرات التودد والالتيام، وتظهر لك محبة الله تعالى إيتاك أو محبتك إيتاه لعروجك بالعقل والفضل بالامعاض من النفس وهواها و من رذائل الأخلاق و رداها إلى ساحة قدسه و مقام أنسه و في بعض النسخ وتظهر لك الحجّة يعني و تظهر لك الحجّة والغلبة بذلك على الخلائق فهم يقتفون آثارك و أطوارك لحق رباستك و يتبعون أفعالك و أقوالك لحسن سياستك فيكمل لك منقبة الدنيا و سعادة الآخرة، هذا ما وصل إليه الفكر الفاتر و الله أعلم بحقيقة كلام وليه .

((الاصل)):

« ١٤ - عدة من أصحابنا، عن أحمد بن محمد، عن علي بن حديد، عن سماعة بن مهران قال : كنت عند أبي عبد الله عليه السلام وعنده جماعة من مواليه فجرى ذكر العقل و »
« الجهل فقال أبو عبد الله عليه السلام: اعرفوا العقل وجنده والجهل وجنده تهتدوا قال سماعة: »
« فقلت : جعلت فداك لانعرف إلا ما عرفتنا، فقال أبو عبد الله عليه السلام: إن الله عز »
« وجل خلق العقل وهو أول خلق من الروحانيين عن يمين العرش من نوره »
« فقال له أدبر فأدبر، ثم قال له : أقبل فأقبل ، فقال الله تبارك و تعالى : خلقتك، »

« خلقتاً عظيماً وكرمتك على جميع خلقي قال : ثم خلق الجهل من البحر ،
 « الأجاج ظلماتياً فقال له : أدبر فأدبر ، ثم قال : له أقبل فلم يقبل فقال له :
 « استكبرت فلعنه ، ثم جعل للعقل خمسة وسبعين جنداً فلمّا رأى الجهل ما
 « اكرم الله به العقل وما أعطاه أضمر له العداوة فقال الجهل : يا رب هذا خلق
 « مثلي خلقتة وكرّمته وقوّيته وأنا ضده ولاقوة لي به فأعطني من الجندمثل
 « ما أعطيته فقال : نعم فإن عصيت بمثل ذلك أخرجتك وجندك من رحمتي قال :
 « قد رضيت فأعطاه خمسة وسبعين جنداً فكان ممّا أعطى العقل من الخمسة
 والسبعين الجند :

« الخير وهو وزير العقل وجعل ضده الشر وهو وزير الجهل ، والايمان
 « وضده الكفر ، والتصديق وضده الجحود ، والرجاء وضده القنوط ، والعدل
 « وضده الجور ، والرضا وضده السخط ، والشكر وضده الكفران ، والطمع وضده
 « اليأس ، والنوكتل وضده الحرص ، والرافة وضدها القسوة ، والرحمة ،
 « وضدها الغضب ، والعلم وضده الجهل ، والفهم وضده الحمق ، والعفة و
 « ضدها التهنّك ، والزهد وضده الرغبة ، والرفق وضده الخرق ، والرهبة
 « وضدها الجرأة ، والتواضع وضده الكبر ، والنوذة وضدها التسرع ، و
 « الحلم وضده السفه ، والصمت وضده الهذر ، والاستسلام وضده الاستكبار ،
 « والتسليم وضده الشك ، والصبر وضده الجزع ، والصفح وضده الانتقام ،
 « والغنى وضده الفقر ، والتذكّر وضده السهو ، والحفظ وضده النسيان ،
 « والتعطّف وضده القطيعة ، والقنوع وضده الحرص ، والمؤاساة وضدها
 « المنع ، والمودة وضدها العداوة ، والوفاء وضده الغدر ، والطاعة وضدها
 « المعصية ، والخضوع وضده التطاول ، والسلامة وضدها البلا ، والحب و
 « ضده البغض ، والصدق وضده الكذب ، والحق وضده الباطل ، والأمانة
 « وضدها الخيانة ، والاخلاص وضده الشوب ، والشهامة وضدها البلادة ، و
 « الفهم وضده الغباوه ، والمعرفة وضدها الانكار والمداراة وضدها المكاشفة

«وسلامة الغيب وضدّها المماكرة ، والكتمان وضدّه الافشاء ، والصلاة وضدّها
 «الاضاعة» والصوم وضدّها الافطار ، والجهاد وضدّه النكول ، والحج وضدّه نبذ
 «الميثاق ، وصون الحديث وضدّه النميمة ، وبرّ الوالدين وضدّه العقوق ، والحقيقة
 وضدّها الرياء ، والمعروف وضدّه المنكر ، والستر وضدّه التبرّج ، والنقيّة
 « وضدّها الاذاعة ، والانصاف وضدّه الحميّة ، والتهبئة وضدّها البغي ، و
 « النظافة وضدّها القذر ، والحياء وضدّها الجلع ، والقصد وضدّه العدوان ،
 « والراحة وضدّها التعب ، والسهولة وضدّها الصعوبة ، والبركة وضدّها
 « المحق ، [والعافية وضدّها البلاء] ، والقوام وضدّه المكاثرة ، والحكمة
 « وضدّها الهوان ، والوقار وضدّه الخفة ، والسعادة وضدّها الشقاوة ؛
 « والتوبة وضدّها الاصرار ، والاستغفار وضدّه الاغترار ، والمحافظة وضدّها
 « التهاون ، والدعاء وضدّه الاستنكاف ، والنشاط وضدّه الكسل ، والفرح
 « وضدّه الحزن ، والألفة وضدّها الفرقة ، والسخاوة وضدّه البخل
 « فلا تجتمع هذه الخصال كلّها من أجناد العقل إلّا في نبيّ أو وصي نبيّ
 « أو مؤمن قد امتحن الله قلبه للايمان ، وأمّا سائر ذلك من موالينا فإنّ أحدهم لا يخلو
 « من أن يكون فيه بعض هذه الجنود حتّى يستكمل وينقى من جنود الجهل
 « فعند ذلك يكون في الدرجة العليا مع الأنبياء والأوصياء ، إنّما يدرك ذلك
 « بمعرفة العقل و جنوده و بمجانبة الجهل و جنوده ، وفقنا الله وإيّاكم لطاعته
 « و مرضاته».

((الشرح)) :

(عدد من أصحابنا ، عن أحمد بن محمد ؛ عن علي بن حديد) ضعفه الشيخ
 في كتابي الحديث و قال : لا يعول على ما ينقرد بنقنه و قال المكشي : قال نصر بن
 الصباح ، إنّّه فطحى من أهل الكوفة و كان أدرك الرضا عليه السلام و روى عن أبي
 جعفر و أبي الحسن عليه السلام ما دلّ على مدحه و جواز الصلاة خلفه و الأخذ بقوله

ولكن حكم بعض أصحابنا بضعف هذه الرواية (عن سماعة بن مهران) فطحى ثقة روى عن أبي عبد الله عليه السلام و أبي الحسن عليه السلام و ما قيل : من أنه مات في حياة أبي عبد الله عليه السلام فهو غلط لأنه يروى كثيراً عن أبي الحسن عليه السلام (قال : كنت عند أبي عبد الله عليه السلام و عنده جماعة من مواليه فجرى ذكر العقل و الجهل فقال أبو عبد الله عليه السلام اعرفوا العقل و جنده) أي أعوانه و أنصاره و فيه مكنية و تخيلية (و الجهل و جنده تهتدوا) مجزوم بالشرط المقدّر ولعل المراد بالمعرفة المعرفة مع اختيار جنود العقل لأن الهداية لا تحصل إلا بهما (قال سماعة : فقلت جعلت فداك) الفداء إذا كسر أو له يمدّ و يقصر و إذا فتح فهو مقصور ، و عن المبرّد المفاداة أن تدفع رجلاً و تأخذ رجلاً و الفداء أن تشتريه و قيل : هما بمعنى . (لا نعرف إلا ما عرفنا فقال أبو عبد الله عليه السلام : إن الله خلق العقل و هو أول خلق من الرّوحانيين) الجار والمجرور إن كان خبراً بعد خبر أي هو أول خلق وهو من الرّوحانيين فأفاد الكلام أن العقل يعني الجوهر المجرد (١) أول المبدعات

(١) « الجوهر المجرد الانساني » أعلم أن الموجود أما روحاني ليس له مقدار بالذات واما جسماني له طول وعرض وعمق والقسم حاصرة دائرة بين النفي والاثبات و اصطلاحوا على تسمية الأول بالمجرد وهو المراد بالروحاني اذ هو المقابل للجسماني في الاصطلاح واختلف الناس في تقدم الروحاني على الجسماني أو العكس فذهب الملاحدة وأصحاب الطبائع والدمرية الى الثاني وقالوا أن ما يسمى روحاً ليس الا فرعاً على الجسم متأخراً عنه واثراً من آثاره كالحرارة والبرودة ؛ فان بطل الجسم بطل الروح ولبس هنا موجود مدرك عاقل مستقل بنفسه غير حال في الجسم وعلى قول هؤلاء فلا عقل ولا نفس ولا ملائكة ولا جن ومن مات فمات وبطل وفتى وذهب الالهيون والروحانيون الى أن المجرد مقدم على الجسم وليس الروح العاقل المدرك أثراً وفرعاً على الجسم بل هو مستقل بنفسه ومقدم في الوجود عليه لان الجسم الجامد محتاج الى الموجود المجرد وليس الموجود المجرد محتاجاً الى الجسم ، و الجسم مركب من المادة والصورة وحفظ المادة بالصورة وحفظ الصورة بالموجود المجرد الروحاني و فتح الله على عقول

و مقدم على غيره من الممكنات كآها في الفطرة والابجاد ، و يؤيده قوله عليه السلام : « أول ما خلق الله العقل » وإن كان بياناً لخلق أو صفة أو حالاً عنه أفاد أنه أول خلق بالنسبة إلى الروحانيين وأما أنه أول خلق بالنسبة إلى غيره من الممكنات كلها فلا إلاً إذ اثبت تقدم الروحانيين على سائر الممكنات في الابداج و ثبوت ذلك خارج عن مفاد هذا الكلام ، فما قيل : من أن فيه دلالة على أن العقل هو المبدع الأول بالحقيقة و على الاطلاق دون غيره من الممكنات لأنها بنوسطه فمدفوعٌ أما أولاً فلا لأنه لا دلالة فيه على تقدم العقل على غيره على الاطلاق إلا في بعض الاحتمال الذي هو أبعد الاحتمالات فلا يتم بذلك ما ادعاه ، و أما ثانياً فلا لأنه لا دلالة فيه على أن غير العقل من الممكنات صدر منه تعالى بنوسط العقل و هو ظاهر بل لا يبعد القول ببطلان ظاهر هذا الحكم لأن بناء ظاهره (١) على

بأن الناس وهم في هذا العالم الأدنى باباً إلى عالم النجود وهو الرؤيا الصادقة والالهامات فإذا رأى شيئاً من الامور الغائبة المستقبلة مما لا يمكن ان يستنبطه الانسان بعقله ولم يوجد بعد ثم وقع كما رأى دل ذلك على وجود عالم عقلي مدرك يعلم ما سيقع في المستقبل و يتصل روح الانسان في المنام بموجودات ذلك العالم نحواً من الاتصال ويدرك بعض الامور والعقل الذي هو أول خلق من الروحانيين ليس الا الموجود العاقل في ذلك العالم والحديث يدل على أن العقل أول خلق من الروحانيين ، و الروحانيون مقدمون على الجسمانيين فالعقل أول الخلق مطلقاً . ولا يتصور أن يعتقد أحد أن الجمادات أقرب إلى الله تعالى من الروحانيين كما سيصرح به الشارح (ش) .

(١) قال ببطلان ظاهر هذا الحكم لاحقيقته لان الذي يتبادر الى ذهن أكثر الناس من أمثال هذه العبارات التفويض أى تفويض الله تعالى امر الخلق الى العقل الاول نظير تفويض المولى تدبير ملكه الى بعض خدامه وهذا باطل جدا وليس مراد من قال به ذلك قطعاً وليس توسط العقل الا كتوسط الاسباب كما يشفى الله المريض بالدواء ويرسل الرياح فتثير السحاب بها ويمطر من السحاب فيحيى به أرضاً ميتة ومثله الملائكة الموكلون على كل شىء في العالم بل ليس المراد من العقل الا الملائكة ولكل اصطلاح فظاهر الحكم

تخليط الفلاسفة وهو أن أرسطو ومن تابعه من فلاسفة الاسلام كالفارابي وابن سينا قالوا: إن الباري تعالى من حيث أنه واجب الوجود يجب أن يكون واحداً ومن حيث أنه واحد يجب أن لا يخلق إلا واحداً إذ لو خلق اثنين لكان ذلك باعتبار أمرين مختلفين في ذاته و تلك كثرة تنافي ماوجب له من الوحدة و ذلك الواحد الصادر هو العقل ثم صدر عن ذلك العقل أربعة جواهر عقل و نفس وفلك مركب من جوهرين مادة و صورة ثم صدر عن العقل الثاني أربعة جواهر أيضاً ، ثم هكذا على الترتيب إلى أن كملت عشرة عقول تسع أنفس و تسعة أفلاك ، ثم تحركت الأفلاك فحدثت العناصر الأربعة التي هي الماء والهواء والنار والتراب ثم تمازجت هذه العناصر فحدث العالم السفلى و هو ما تحت الفلك القمر عالم الكون والفساد و سمّوه بذلك لأن الأجسام العلوية أعني الأفلاك العرية عن العناصر تركبت من المادة والصورة تركيباً لا يقبل الخرق والانحلال ، والعالم السفلى تركبت من العناصر الأربعة تركيباً يقبل الانحلال فسمّوا ذلك التركيب والانحلال كوناً وفساداً ثم تركبت الموجودات في عالم الكون والفساد من آثار طبائع العناصر و آثار عالم الكون والفساد قابلة لاختلاف الأشكال والصور والآثار التي في العالم العاوي متناسبة غير قابلة لاختلاف الصور ، فالشمس مثلاً لا تقبل أن تكون على غير تلك الصورة و ما يجري في العالم السفلى هو من آثار نفوس الأفلاك و عقولها (١) و

و هو التفويض باطل و حقيقة صحبة . ويجوز أن يقال في العقل بنظير ما يقال في سائر الاسباب (ش) .

(١) الى هنا تقرير مذهب أرسطو و من تابعه ولم يحكم فيه بشيء تفصيلاً الا أنه تخليط أي مزوج حقه بباطله وبما لم يبين حقه من باطله لعدم تعلق الفرض به و رجع بعد تقرير كلامهم الى ابطال الاصل الذي يبنى عليه أكثرهم وهو لا يوافق مذهب المسلمين وهو أن الله تعالى فاعل الاختيار لان تحقيق ذلك هو الفرض الاصلى . واعلم أن الحكماء المتأخرين كصدر المتألهين و أتباعه لا يرتضون مذهب المشائين في حصر العقول في المشرة الطولية وتكثير الجهات على ما ذكره مع أنهم أيضاً لم يريدوا الحصر ، والتفصيل في محله (ش) .

كان أصل أكثرهم في الوجود الأول أن لا يخلق شيئاً بالاختيار، فأيجاد العقل الأول إنما هو بحسب الذات إيجاب العلة معلولها فإن العالم العلوي والسفلي لا مفتتح لوجودهما عندهم لأن العلة والمعلول موجودان معاً و تقدم العلة على المعلول إنما هو بالذات لا بالوجود إلى غير ذلك من المزخرفات التي ليس هذا موضع استيفائها (١) ولا مستند لهم على طريق البرهان فإذا صوبقوا في المطالبة به قالوا : لا تدرك هذه الأمور بالبرهان وإنما تدرك بالرياضات أو بالرياضيات فمن أحكمها علم ذلك ضرورة ، ولا يخفى فساد هذا القول أمّا الرياضات فإن الأنبياء والأوصياء وهم الأقدمون في باب الرياضة والمكاشفة لم يخبروا بذلك (٢) وأمّا

(١) المزخرف المموء بالذهب، شبه الكلام الباطل المشبهه بالحق بالنحاس الملبس بالذهب وقال ان أكثر أتباع أرسطو لهم أصل في الوجود الاول تعالى وأنه لا يفعل شيئاً باختياره بل هو فاعل موجب وخص القول بأكثرهم لان بعضهم قائلون بالاختيار ولم ينقل من اصولهم الفاسدة هنا الا واحداً فقط لعدم تعلق غرضه بالنقل ، ثم رجع الى ما سبق ذكره من بيان مذهب أرسطو في مبدء الخليقة وكيفية صدور الممكنات منه تعالى وقال لا مستند لهم على طريق البرهان - الى آخر ما نقل . والحاصل من كلامه بطوله أن ما قالوا من أن العقل هو أول صادر من الواجب تعالى لا يستفاد من لفظ هذا الحديث وهو حق الا أنه يستفاد من حديث آخر نقله وهو أول ما خلق الله العقل أقول : ومن هذا الحديث ايضاً بضميمة ما ذكرنا من أن الروحانيين مقدمون على الجسمانيين . (ش)

(٢) لا أظن أن أرسطو و أتباعه تمسكوا في أثبات مطلوبهم بالرياضة وهذا بعيد عن طريقتهم الا أن يكون المراد الاشرائيين وليس مذهبهم في صدور الممكنات ما ذكره هنا بل لهم طريقة اخرى مذكورة في محله وأما أن الانبياء لم يخبروا بذلك فهو لا يدل على بطلانه فانهم (ع) يخبرون بما علم الله فيه مصلحة الخلق باخبارهم لا بجميع ما هو حق يعلمه الله تعالى مثلاً لم يخبر الانبياء بأن زوايا المثلث مساوية لقائمتين وان الجزء الذي لا يتجزى محال، وأن دواء السل ما هو، وبم يعالج مرض السرطان، وقين الله لذلك غير الانبياء عليهم السلام (ش) .

الرياضيات فقال المحققون : هذا أسخف لأن الرياضيات كالمهندسة و الحساب والهيئة والموسيقى لا ارتباط بينها وبين المطلوب فإن الهندسة تنظر في هيئة الجسم المتصل، والحساب ينظر في الكم المنفصل، والهيئة تنظر في كيفية الأجسام (١) والموسيقى ينظر في ترتيب الألحان و تقطيعها على وجه معروف مخصوص ، ثم إنهم رضوا في القطعيات بما لا يفيد علماً ولا ظناً (٢) والحق أن كل هذا

(١) غرض القائل ان عدد السموات يستفاد من علم الهيئة لما يرى من اختلاف حركات الكواكب في الطول والعرض ولا يمكن أن ينسب الحركات المختلفة الى قوة واحدة فاذا رأيت عربة تمشي الى جانب بسرعة واخرى الى جانب آخر يبطؤه علمت أن محرك أحدهما غير الآخر ولم يكن الشارح جاهلاً بمسائل الهيئة كما يدل عليه ماضى منه في تفسير بعض الآيات ولا يحتمل ان ينقل العبارة هناك من غير علم بمعناه ولكن ما ذكره هنا ظنيان من القلم (ش). (٢) قوله « لا يفيد علماً ولا ظناً » ذكر الفلاسفة قدماؤهم ومتأخروهم حتى أهل عصرنا في مبدء الخليقة اموراً لا تستند الى برهان قطعي ولا ظني قوى بل يستحسنون اموراً بذهنهم ويذكرون امارات عليه ويسمية أهل عصرنا نظرية او فرضاً مثل ما نقل عن ثاليس الملطي من القدماء ان أصل الكون هو الماء وقول هرقلاطيس انه النار وفيثاغورث انه العدد وقول ذي مقراطيس انه الذرات المتحركة في الفضاء فتلاقت بالبحث والاتفاق وقول أصحاب الخليط والكمون والبروز على ما هو مفصل في موضعه و في عصرنا من فلاسفة الافرنج من يقول أن العالم مركب من ذرات روحية تركبت على نظام عقلي وهو قول لبنيز ومنهم من يقول كانت الشمس والسيارات والاقمار جميعاً كتلة واحدة من الاجسام المحترقة المتحركة على نفسها بسرعة فتطابر منها قطعات كما ينطابر من الشملة الجواله ذرات النار فبردت القطعات وكل سيارة قطعة منها وقال بعضهم في تسلسل المواليد بالنشوء والارتقاء كما هو معروف وقال بعض أهل عصرنا منهم أنه لا جسم ولا مادة بل قوى مختلفة نظير القوة الكهربائية يمنع بسرعة انتقالها و دورانها عن ان ينفذ فيها شيء فيظن صلابه ويتصور جسم ولا يعتقد أحد من أصحاب هذه الأقوال في مبدء اظهار ارائهم صحتها بل يبدون رأياً وينظرون حتى يقضى الادلة والبراهين بعد ذلك على صحتها أو بطلانها وغالباً لا يثبت النظريات والفروض بجميع تفاصيلها، وما نقل عن المشائين نظير تلك الا أن هذه الأقوال طبيعية محضة وقول المشائين تخليط من الطبيعي والالهي وللشارقين طريقة اخرى (ش) .

باطل (١) والموجود الأول قديم وحده وفاعل المقول والاجسام والجواهر والأعراض و لو ازمها كلها بالاختيار على سبيل الحدوث لا بالايجاب و إلى قدرته ينسب الجميع خالق كل شي، لا إله إلا هو الواحد القهار، والروح يذكّر ويؤنث و يجمع على الأرواح وقد تكرر ذكره في القرآن والحديث على معان منها جبرئيل عليه السلام في قوله تعالى: روح الأمين و روح القدس و منها سائر الملائكة ومنها القوة التي تقوم بهذا الجسد و تكون به الحيوية و منها القوة الناطقة الانسانية التي يعبر عنها الانسان بقوله: أنا. و اختلف المتكلمون والحكماء و غيرهما في حقيقته و قالوا فيه أقوالاً كثيرة وظنوا فيه ظنوناً متقاربة صدرت عنهم من غير بصيرة فانه لا يعلم حقيقته إلا الله سبحانه و من علمه من عباده كما قال جل شأنه «ويسئلونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً» (٢) وهو مذهب أكثر المتكلمين وأرباب المعاني وأهل الباطن. وتقول في نسبة الواحد: الروحاني وفي نسبة الجمع: الروحانيين بضم الراء فيهما والألف والنون من زيادات النسب و زعم أبو عبيدة أن العرب تقول لكل شي، فيه روح و مكان روحاني بالفتح أي طيب، ثم الروحانيون يطلق عليهم عالم المجردات وعالم الغيب وعالم الملكوت و عالم الأمر كما يطلق على هذا العالم المحسوس عالم الماديّات وعالم الشهود و عالم الملك وعالم الخلق، وقد يقال أن الروحانيين جواهر مجردة نورانية غير مفتقرة في وجودها إلى جسم و جسمانيّات فان كان في فعلها و تصرفها مفتقرة

(١) لكن بطلانه راجع الى شيء واحد وهو كون صدور الاشياء عنه تعالى بالاضطرار والايجاب وبالتفويض الى العقل (ش).

(٢) لم يقل الله تعالى ان الناس لا يعلمون شيئاً ثم ما يعلمونه باطل بل قال تعالى انهم يعلمون وان الله آتاهم علمه لكن ما يعلمون قليل بالنسبة الى ما لا يعلمون وغاية ما يعلمون ان الروح جواهر مجرد باق بعد فناء البدن وله في عالمه لذات وآلام اقوى مما في هذا العالم مثل ما نعلم أن في بلاد الصين رجالا ونساء ولهم مكاسب ومعاش ولا نعلم منهم ما نعلم من بلادنا (ش).

إليها فهي نفس وإلا فهي عقل أو غيره (١) و أن الأنوار كلها حقيقة واحدة لا تفاوت بينها في المهيبة و عوارضها بل في الشدة والضعف والكمال والمقص في أصل النورية والوجود والله أعلم بحقيقة الحال (عن يمين العرش) متعلق بخلق أو حال عن الرُّوحانيين واليمين الجانب الأقوى والأشرف خلاف الشمال، والعرش في اللغة سرير الملك و كونهم على يمين العرش كناية عن كرامتهم و علو منزلتهم و رفعة شأنهم من بين المخلوقات لأن من عظمت منزلته تبوأ عن يمين الملك و في عرف المتشرعة يطلق على ثلاثة أمور أحدها الملك ، وثانيها الجسم المحيط بسائر الأجسام و هو الفلك التاسع، وثالثها العلم المحيط بجميع الأشياء و كل ذلك على سبيل التشبيه بسرير الملك ، ويمكن إرادة كل واحد منها هنا أمّا الأول فلأن الملك وهو عبارة عن جميع الكائنات له يمين وشمال و يمينه أي جانب أقواه وأشرفه هو يلي المبدأ الأول في ترتيب الابداد و تقدّمه (٢) فكل ما هو أقرب منه جل شأنه في الابداد فهو أيمن بالقياس إلى ما بعده لكونه أقوى و أشرف و أمّا الثاني فلأن ذلك الجسم المحيط إذا سمّي بالعرش كان له يمين و شمال كما كان لسرير الملك ثم الكاين على يمينه من أهل الكرامة و المنزلة كالكاين عن يمين سرير الملك ، و أمّا الثالث فلمثل ما ذكرناه في الثاني أو في الأول باعتبار المعلومات لأن العلم المتعلق باليمين يمين بالنسبة إلى العلم المتعلق بما بعده و إن كان علمه بالأشياء بسيطاً والتكثّر إنّما هو في المعلومات ، ولا يبعد أن يقال : يجوز أيضاً إطلاق العرش على عالمين : أحدهما عالم الجسمانيات كلها ويسمّى بالعرش الجسماني، وثانيهما عالم المجرّيات كلها ويسمّى بالعرش العقلائي والعرش الرُّوحاني . ويجوز أن يراد بالعرش هنا العرش الرُّوحاني وبيمينه أشرف جانبيه و هو ما يقرب من الحق في سلسلة الابداد (٣) و أن يقال ، يجوز أيضاً أن

(١) أو غيره مثل نورية أو ملك تفصيلاً اصطلاحاً . (ش)

(٢) هذا تصريح بأن الروحانيين مقدمون في الابداد على الأجسام . (ش)

(٣) هذا أيضاً تصريح بتقديم العقل في الوجود على غيره . (ش)

يراد بالعرش القلب الانساني لأنّه عرش الرّحمن ، و يمينه الجانب المائل إلى الحقّ ، وشماله الجانب البعيد عنه لأنّه قابل لسلوك الطريقين : طريق الحقّ وطريق الباطل هذا . وقيل : المراد بالعرش هنا الجوهر المجرّد الانساني المسمّى بالعقل و بالعرش العقلاني و هو بازاء الفلك التاسع المسمّى بالعرش الجسماني و كلّ منهما في جانب مقابل لجانب آخر ، والمراد بيمينه مطلق جانبه وسمي يميناً للتشريف والتعظيم، وقيل : العرش جوهر متوسط بين العالم العاقل الثابت و بين العالم المتغيّر المتجدد نفوساً كانت المتغيّرات أو أجساماً والله سبحانه أوجد الثابتات بنفس ذاته بلا واسطة و أوجد المتغيّرات بواسطة العرش و الثابت هو اليمين في سلسلة اليجاد لأنّه أقرب منه تعالى (من نوره) متعلّق بخلق العقل أي خلقه من ذاته بلا واسطة شيء ، ولا اعتبار مادّة (١) أحوال عن العقل والاضافة للتشريف والتكريم

(١) فان قيل كيف أنكر أولاً كون العقل الاول خلقه الله بلا واسطة ثم اعترف هنا بما أنكره أولاً قلنا : انما أنكر سابقاً دلالة قوله (ع) و هو أول خلق من الروحانيين على كون العقل أول مخلوق ولم ينكر أصل المعنى بل استدل عليه بحديث آخر و هو «اول ما خلق الله العقل» والذي زيفه هو قول المشائين في كيفية صدور الكثير عن الواحد من أن العقل الاول صدر منه شيان الفلك التاسع والعقل الثاني ثم من كل عقل فلك وعقل الى العاشر ولم يريدوا الحصر في العشرة كما صرحوا به والمتأخرون من الحكماء يزيفون قول المشائين و قال الحكيم السبزوادي مشيراً الى قولهم :

اذ ذا لدى الشرق بلا وناق اسس اساً شيخنا الاشراقي

ثم قال بعد ابيات :

وليس في الثاني من الجهات ما يفى بشامن كثير أنجما

و اعلم ان المجلسي رحمه الله أخا زوجة الشارح أنكر وجود العقل المجرد مطلقاً بل أنكر المجردات و قال كل شيء غير الله تعالى جسم وقد مضى في الصفحة ٦٩ و ٧٠ و كرد في مرآة العقول انكاره لوجود مجرد غيره تعالى و قال في شرح أربعينه اثبات العقل المجرد بوجوب انكار كثير من ضروريات الدين ولكن الشارح كرر ذكر عالمه

كما في عيسى روح الله ، أوحال عن الرُّوحانيين بناءً على أن الرُّوحانيين كلهم نورانيون والعقل أولهم وأفضلهم وعلى التقادير فيه إشارة إلى أن العقل نور رباني لأنه يظهر به الحق عن الباطل والصواب عن الخطأ كما يظهر بالنور الأشياء المتحجبة بالظلام وإن نوريته مستفادة من نور ذاته سبحانه بلا توسط شيء نوراني غيره (١) ولا تكدره كدرة المواد الظلمانية ولذلك إذا عرى عن العوائق وانتزع عن العلائق اتصل بالخالق اتصالاً تاماً ، ومن ثم قيل : لامسافة في العالم الرُّوحاني ، و يحتمل أن يراد بالنور العدل و إطلاق النور على العدل سايع شائع كما صرح به القاضي وغيره في تفسيره قوله تعالى « وأشرق الأرض بنور ربها » والمعنى أن الله سبحانه خلق العقل خلقاً ناشياً من عدله إذ لولا العقل لبطل الغرض من إيجاد الإنسان فعدله اقتضى خلق هذا النوع من المخلوق لتلايفوت الغرض (فقال له : أدبر) عن المنهيات وأنزل إلى عالم السفلى والمنازل الجسميّة التي هي في غاية البعد عن العوالم الربوبيّة (فأدبر) وأطاع أمره عزّ شأنه و انتقاد لحكمه من غير أن يفارق نوريته و تجرّده وإنّما كان إدهاره بمجرّد إشراقات نوره في العالم الجسماني .

بالمجردات وأن العقول جواهر مجردة وأنها لا تنفقر في فعلها إلى مادة والنفوس تنفقر إليها ، وقال أيضاً : ان النفس الانسانية جوهر مجرد والانوار العقلية حقيقة واحدة تختلف في الشدة والضمف والنقص في أصل النورية والوجود و غير ذلك مما مضى و سيأتي ان شاء الله ولا يتعجب من اختلاف الطريقتين فان الناس لا يزالون مختلفين (ش).

(١) لما كان خلق العقل من ذاته سبحانه بلا واسطة شيء نوراني ولا مادي . أمّا انه لا واسطة نورانية بينه وبين الله تعالى فلانه لاشيء أشرف من العقل ولا أقرب اليه تعالى ولا واسطة مادية اذ ليس وجود العقل متوقفاً على الاستعداد كالنفوس الانسانية فانها تتوقف على أن يستعد البدن بالنطفة والملقة والصفعة والعظام واللحم لان ينشأ خلقاً آخر فيكون المادة واسطة بين المبدء وبين النفوس والعقل لا تكدره كدرة المواد الظلمانية فيكون خلق العقل من نور الله سبحانه لذلك يتصل به آخر (ش).

(ثم قال له : أقبل) إلى الطاعات و ما يوجب النزول في ساحة كرامته تعالى من القربات أو أقبل من مكان من المواد الجسميّة و منازل الظلمات البشريّة و مظاهر الجهالات الطبيعيّة إلى عالم المجرّدات النوريّة و منازل الشواهد الربوبيّة (فأقبل) مطيعاً لأمره منقاداً لحكمه تار كالمعصيته متدرّجاً في الصعود من طور إلى طور حتّى صار عقلاً فعّالاً و ترقى حتّى مرتبة عين اليقين و هناك رجع إلى ما نزل منه و انتهى إلى ما بدأ منه وقد مرّ مثل هذا الحديث و شرحه في صدر كتاب العقل إلّا أنّ بينهما مغايرة في الجملة لأنّ الأمر بالاقبال في السابق مقدّم على الأمر بالادبار ، و هنا بالعكس فإن كانت القضية في الخطاب متعدّدة فالأمر واضح والافقيه إشكال اللهم إلّا أن يقال : كان في الواقع أمر بالاقبال ثمّ أمر بالادبار ثمّ أمر بالاقبال ففي الحديث السابق لم يذكر الأمر بالاقبال بعد الأمر بالادبار و في هذا الحديث ثمّ يذكر الأمر بالاقبال قبل الأمر بالادبار و من مجموعهما يستفاد ما كان في الواقع فليتنامل (فقال الله تعالى) تعظيماً و تكريماً له و حثاً له على أداء شكر هذه النعمة الجليّة (خلقتك خلقاً عظيماً) العظيم الحقيقي ليس إلّا الله سبحانه و أمّا غيره فعظمته باعتبار قربه منه و إطااعته لأمره وقد تحقّق هذان الوجهان في العقل (و كرّمك) أي شرّفك و فضّلتك ومنه « إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم » (على جميع خلقي) فيه أنّ العظمة و الشرافة و الفضيلة من باب التفضل منه تعالى من غير اشتراط القابليّة والاستعداد وإنّ العقل أشرف من الملائكة المقرّبين (قال ثمّ خلق الجهل) ليس المراد بالجهل هنا الجهل المركب أعنى الصور العلميّة الغير المطابقة للواقع ولا الجهل البسيط أعنى عدم العلم عمّا من شأنه العلم لأنّ إطااعته وعصيانه غير متصوّرة فلا يلائم قوله : « فإن عصيت بعد ذلك أخرجتك و جندك من رحمتي » ولأنّ الجهل بهذين المعنيين من جنود الجهل المذكور هنا وجند الشبيّ غيره ، ولأنّ الجهل بالمعنى الثاني أمر عديم والاعدام غير مخلوقه سواء كانت سلوباً محضة أو ملكات بل المراد به مبدء الشرور والمقابح كما أنّ المراد بالعقل مبدء الخيرات والمحاسن و يمكن أن يراد بهذين

المبدأ بن صفة النفس المسمّاة بالقوّة الجاهلة وصفتها المسمّاة بالقوّة العاقلة و أن يراد بهما ذات النفس أي الجوهر المجرد المدبّر للبدن المحتاج في فعله و تصرفه إليه وذات الجوهر المستغنى عن البدن في وجوده و فعله (١) الذي إذا حصل لغيره و أشرق نوره فيه كان ذلك الغير عاقلاً به و إذالم يحصل له وقسام بذاته كان عقلاً و معقولاً و تسمية النفس بالجهل من باب المجاز لأنّها محلّ للجهل المركّب والبسيط، بل يمكن أن يقال : إنّها من باب الحقيقة لأنّ النفس و إن كانت مبدءاً للجهالات و منشأً للشُرور كلّها ومصدراً للمصور الوهميّة الكاذبة الباطلة ومقتضيات القوى الشهويّة والغضبّيّة والبهيميّة وسائر القوى البدنيّة لكن إذا تمكنت فيها هذه الأباطيل ورسخت فيها صارت جهلاً محضاً و شيطاناً صرفاً بعيداً عن الحقّ جلّ شأنه و كلّما ازداد التمكّن والرسوخ ازدادت جهالتها و شيطنتها و احتجابها عن الحقّ حتّى بلغت النهاية في الجهالة والغاية في الضلالة و صارت

(١) ذات الجوهر المستغنى عن البدن عبارة عن العقل المفارق الذي يقول :-

الحكماء و انه الموجود الاول و هو مستغن عن البدن في ذاته و فعله و هو الذي يشرق نوره على النفوس فتصير عاقلة باسراقه و اذا نظر اليه من حيث هو كان جوهرأ قائماً بذاته و كان عقلاً و معقولاً و هذا مبدء الخيرات و اما مبدء الشرور فهو النفس أي الجوهر المجرد المدبّر للبدن المستغنى عن البدن ذاتاً والمحتاج اليه في أفعاله و مثل امير المؤمنين (ع) اشراق العقل على النفوس و تسلطه عليها و اتصالها به في حديث رواه الصدوق في علل الشرايع عنه (ع) عن رسول الله (ص) قال خلقه ملك له رؤس بعدد الغلائق من خلق و من يخلق الى يوم القيمة ولكل رأس وجه و لكل آدمي رأس من رؤس العقل و اسم ذلك الانسان على وجه ذلك الرأس مكتوب و على كل وجه ستر ملقى لا يكشف ذلك الستر من ذلك الوجه حتى يولد هذا المولود و يبلغ حد الرجال أو حد النساء فاذا بلغ كشف ذلك الستر فيقع في قلب هذا الانسان نور فيفهم الفريضة والسنة والجيد والردى الا و مثل العقل في القلب كمثل السراج في وسط البيت انتهى (ش).

قدوة المتمردين وإمام المتكبرين (١) (من البحر الاجاج ظلماً نبياً) ما، أجاج أي ملح مرّ و «ظلماً نبياً» حال عن الجهل أو عن البحر الاجاج والمراد به الغضب (٢) الالهى لأنه مرّ كريحه الطعم والرائحة على مذاق الشاربين ومشام العارفين أو المراد به مجموع الصفات النفسانية التي بعضها حسن و بعضها قبيح لتخمير النفس بها و هذا المجموع من حيث هو بمنزلة ما، كدر مرّ ممزوج بغبار الملكات الدنيّة و مرارة الصفات الشنيعة و ملوحة قبائح الآثار و خشونة قضايع الأطوار و عبّر عنه بالبحر للدلالة على تراكم تلك الصفات و كثرتها و وصفه بالظلمة لسترها أنوار العقول حايلاً بينها و بين بصيرتها، أو المراد به المواد البدنيّة الهولائيّة التي هي محض الاستعداد وعلّة قابليّة لتعلّق النفس بها و تشخصها و عبّر عنها بالبحر الظلماني لتراكم مياه الشرور والصفات المتغايرة المتضادة فيها و نسبتها إليها كنسبة البحر إلى الأمواج (فقال له: أدبر فأدبر) أمره بالهبوط من عالم الملكوت والنور إلى عالم الظلمات والشرور والتوجّه إلى ما يلايمه من المشتبهات والنظر إلى ما فيه هواء من المستلذّات فهبط لما في ذلك من مصلحة و هي ابتلاء العباد و نظام البلاد و عمارة الأرض إذ لو لا ذلك لكان الناس بمنزلة الملائكة عارين عن حلية التناكح والتناسل والزراعة وتعمير الأرض وبطل الغرض المطلوب من هذا النوع من الخلق و بطل خلافة الأرض، ولزم من ذلك بطلان الثواب و العقاب وعدم انكشاف صفات الباري و انجلاء حقايقها و آثارها مثل العدالة والانتقام والجبريّة والقهاريّة والعفو والغفران وغيرها (ثمّ قال له: أقبل فلم يقبل) أمره بعد الادبار بالاقبال إليه تعالى والرجوع إلى مآلديه من المقامات العليّة والكرامات الرفيعة التي لا يتيسّر الوصول إليها إلّا بالانتقال من طور أخسّ إلى طور أشرف

(١) و لعله لا يريد ان الشيطان بعينه هو النفوس الراسغة في الضلالة و الشرور

بل يريد انها مثله في صفاته الخبيثة. (ش)

(٢) لامناس عن الاستعارة والتمثيل في هذه العبارات و كلما كان العالم ظاهرياً

حاملًا للالفاظ على المعاني الجسمانية لم يمكنه في هذا الحديث كما لا يمكن في مثل

يدالله و عين الله. (ش)

و من حالة أدنى إلى حالة أعلى و من نشأة فانية إلى نشأة باقية و هكذا من حال إلى حال و من كمال إلى كمال حتى يبلغ إلى غاية مشاهدة جلال الله و نهاية ملاحظة أنوار الله و يرتفع في جنّة عالية قطوفها دانية فأبى السلوك في سبيل الرشاد و التقيد برتبة الانقياد و التمسك بلوازم الوعظ و النصيحة و الانتقال عن الأفعال القبيحة كل ذلك لشدة احتجابه بحجاب الظلمات و انغماسه في بحار ذمائم الصفات لتوهمه أن تلك الذمائم الخاسرة و الصفات الظاهرة و المشتبهات الحاضرة كمال له فاغتر بها أو افتخر وأخذها بضاعة له و استكبر (فقال له : استكبرت فلعنه) الاستفهام للتوبيخ و التعبير و اللعن الطرد و الإبعاد من الخير يعني تركت أمري بما يصلح في النشاطين استكباراً و جعلت الامتثال به مذلة و افتقاراً أو استبدلت الذي هو أدنى بالذي هو خير لجهلك بما يوجب قرارة العين و السرور و احتباسك بقيد الجهالة و الشرور فلا جرم أنت بعيد من الرحمة و السلامة ، مطرود عن مقام العزة و الكرامة فإن قلت : من لعنه الله تعالى فهو مقيّد بقيد العصيان ، مقيم مقام الخذلان ، محروم عن الرحمة و الجنان أبداً فما وجه قوله : فإن عصيت بعد ذلك أخرجتك و جندك من رحمتي قلت : اللعنة مشروطة بالاستكبار ، فإن دام دامت وإن زال بالتوبة و الانابة زالت لأن الله تعالى يحب المفتن الثواب (ثم جعل للعقل خمسة و سبعين جنداً) في المغرب الجند جمع معدّ للحرب و جمعه أجناد و جنود . و في الصباح الجند الأعوان و الأناصر و في عدّ كل واحد من الأمور المذكورة جنداً باعتبار تكثير أفراد و شعبه ، ولما كان الطريق إلى الله مخوفاً و في كل قدم منه شعبة و على كل شعبة منه عدوّ مقاتل و خصم مجادل يقود سالكه إلى مهاوي الضلالة و مساوي الجهالة احتاج سلطان العقل في قطع هذا الطريق إلى أعوان و أنصار يستعين بهم في دفع الأعداء و المحاربة مع الخصماء ، فأعطاها الله سبحانه بفضل رحمته و كمال رأفته جنوداً تعينه في مواضع الجدال و مواطن القتال و توصله على السلامة إلى منازل القرب و الكرامة ، و هذه الجنود خمسة و سبعون على ما في العنوان و المذكور في التفصيل ثمانية و سبعون و لا منافاة بينهما إذ ليس في

العنوان ما يفيد الحصر (١) إلا مفهوم العدد وهو ليس بمعتبر كما بينناه في أصول الفقه . و قال الشيخ بهاء الملة و الدين رحمه الله على ما نقل عنه : اعلّ الثلاثة الزائدة إحدى فقرتي الرجاء و الطمع و إحدى فقرتي الفهم و إحدى فقرتي السلامة والعافية . فجمع الناسخون بين البديلين غافلين عن البدلية و سنشير إلى توضيح ذلك في مواضعه إن شاء الله تعالى

(فلما رأى الجهل ما أكرم الله به العقل) من تصفينه بنورانية الذات و تقويته بكثرة الجنود و شرائف الصفات التي بنضارتها تشرق قلوب العارفين ، و وبانارتها تضيء صدور السالكين ، وباضاعتها يسرون إلى أعلى المقامات وينالون أشرف الكرامات (أضمر له العداوة) بين العقل والجهل تضاد بحسب الذات لأن العقل جوهر نوراني والجهل كدر ظلماني (٢) وهذا يصلح أن يكون منشأ لعداوته . و لذلك كانت العداوة بين العاقل والجاهل والمؤمن والكافر قائمة إلى قيام الساعة كما قال سبحانه «وبدا بيننا و بينكم العداوة والبغضاء إلى يوم القيمة» ولكن لما كان النور والظلمة متساويين في الغلبة والتدافع كأنّه لم يحصل للجهل من هذه الجهة عداوة ، وإنما حصلت العداوة على من جهة إكرام العقل بالجنود و تقويته بالفضائل و الكمالات الموجبة لغلبته على الجهل فلذلك أضمر الجهل عداوة له حسداً و لم يظهرها لعدم القدرة على إضمار آثارها بل طلب لنفسه مثل جنوده في القوة والعدد كما أشار إليه بقوله (فقال الجهل يارب هذا خلق مثلي) أي مثلي في كونه مخلوقاً أو مثالي بحسب الذات ولازمية له على في المحاسن الذاتية وهذا القول منه على الأخير تمويه و اغترار بنفسه كما هو شأن الجاهل حيث يعدّ نفسه مماثلاً للعاقل وهو إمّا غافل عن التفاوت الفاحش بين النور والظلمة أو عالم به لكنه قال ذلك إدعاء واستنكافاً لانحطاط ذاته عن ذات العقل وإلا فأين المماثلة بحسب الذات

(١) فان الجنود أكثر وذكر منها الاله .

(٢) بناء على ما ذكره الشارح من ان الجهل هو النفس باعتبار عدم تنوره بنور

العقل فلا يستبعد نسبة اضمار العداوة والقول وخطاب الله تعالى له اليه ولا يجوز أن يتوهم أن الجهل عدم وعدم لا ينسب اليه هذه الامور (ش).

بين المخلوق من ماء الرحمة والنور الرباني وبين المخلوق من نار الغضب و البحر الأجاج الظلماني و لعدم الفرق بينهما استكبر الشيطان لعنه الله و أبى أن يسجد لآدم عليه السلام و تمسك بقوله «خلقني من نار و خلقته من طين» وهو لقصر نظره لاحظ طينبة آدم و غفل عن نورانيته و لو علم ذلك لعلم بطلان قياسه (خلقته و كرمته و قوته) يعني خلقته من نورك و كرمته على جميع خلقك و قوته بجنود يتقوى بها في الحركة إلى عالم الأنا و الانتقال إلى عالم القدس (وأنا ضده و لا قوة لي به) في المضادة والمقابلة و الانتقال إلى ما هو غاية مرامي و نهاية مقامي في اللذات التي عاينتها والحركة إلى أقصى مدارجها (فأعطني من الجنود مثل ما أعطيتني) في العدد والقوة ، طلب ذلك ليحصل له قوة بسبب جنوده على معارضة العقل و جنوده فيتمسك به الوصول إلى غاية منيته و نهاية بغيته (فقال : نعم) أعطيك مثل جنود العقل اختباراً و امتحاناً لك و تكميلاً للحجة عليك (١) بأعطاء سؤالك و انتظاراً لرجعتك إلى درجة رفيعة و منزلة شريفة ، فإن المطيع مع العجز و فقد الآلات ليس مثل المطيع مع القدرة على المخالفة ، بل أولئك أعظم درجة و أرفع

(١) جنود العقل تساعد في الخيرات و جنود الجهل في الشرور ، والحقيقة ان الجنود من حيث هم جنود نسبتهم الى الخير والشر سواء فجنود الملك قد تعينه في الجهاد و فتح بلاد الكفار وقد تعينه في الظلم والاضرار بالمسلمين و سلب الاموال و قتل النفوس ، و جنود الجهل اذا اغتبرت من حيث وجودها في انفسها لا شرية فيها بل هي خير من جهة وجودها الصادر عن الله تعالى فان قيل معنى قوله : اختباراً و امتحاناً و تكميلاً للحجة أن تلك الجنود تعين الجهل في الخيرات لا في الشرور اذ باسباب الخير والسعادة يتم الحجة على المكلف لا باسباب الضلال والعصيان . قلنا يندفع السؤال بما ذكر من ان الجنود من حيث هم جنود لا شرفهم وان الجهل اذا استعملهم في الشر صاروا اشراراً و أعطاه الله جنوداً يستعين بها في الخيرات ولم تكن اسماءها شرّاً كالحرص والرياء فاستعملها في الشرور و هذه الاسامي التي تدل على الشرور انما صارت لها بعد استعمال الجهل والا فليس الوجود الصادر عن المبدء الا الخير المحض (ش) .

منزلة ، و لذلك كانت عباده الشبان و إنابتهم و إخبارتهم أحسن و أشرف من عبادة الشيوخ و إنابتهم و إخبارتهم (فإن عصيت بعد ذلك) أي بعد ذلك العصيان بترك الاقبال أو بعد أن أعطيتك جنوداً و أنصاراً مقابلة لجنود العقل و أنصاره (أخرجتك و جندك من رحمتي) المعدة للمطيعين فتشقى بذلك و تدخل في زمرة الأشرار تستحق الدخول في الدرك الأسفل من النار ، والوجه لكون معصية النفس مع الجنود موجباً للخروج من الرحمة دون معصيتها لأمعها أن النفس إذا كانت ضعيفة فاقدة للأنصار كانت أفعالها ناقصة فلم تكن شقاوتها شديدة موجبة للخروج من الرحمة بخلاف ما إذا كانت قوية واجدة لأنصارها وآلاتها فإن سلوكها في طريق الشقاوة و سيرها في منهج الضلالة أفخم ، واكتسابها الأخلاق الذميمة والذليل وإنهما كها في ظلمات الغي والغوائل أعظم فيكون تباعدها عن الرحمة الإلهية و الألفاف الربانية أكثر و أقوى ودخولها في درجات الجحيم و استحقاقها للعذاب الأليم أقرب و أولى (قال رضي) رضي عن الحق بأجابة سؤاله أو رضي بالخروج عن الرحمة على تقدير معصيته و النفس و إن كانت مائلة إلى الفساد علميلة بأمراض تلك الصفات والأجناد لكن ذلك لا يسلب عنها الاختيار ولا يوجب صدور القبايح عنها على سبيل الاضطرار بل يمكن لها تحصيل الصحة والسلامة عن الوسوس الشيطانية بالأدوية والعلاج المقررة لدفع الأمراض النفسانية و بالجمللة النفس بعد تقويتها بالجنود والصفات التي هي بمنزلة العلل والأمراض لها اختيار في أعمالها و قدرة على أفعالها و ليس صدور تلك الأعمال والأفعال عنها على سبيل الإلجاء و الاضطرار فلها أن تترك مقتضيات تلك الصفات ، و ترتقي إلى أعلى مدارج الكمالات الأبدية حتى تستحق أن يقال لها يا أيُّتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية و لها أن تمضي تلك المقتضيات وتسرح في مراعي هذه الصفات حتى ترتد إلى أسفل السافلين و تبعد عن رحمة رب العالمين (فأعطاه خمسة و سبعين جنداً) في مقابلة ما أعطا العقل و كما أنهما متقابلان كذلك جنودهما متقابلان

فحصل التكافؤ في الابداد وتحقق التعاند والنضاد وبقيت العداوة بينهما إلى يوم النناد (١) وذلك لمصلحة ظاهرة يعلمها أولوالباب وخفية لا يعلمها إلا تلام الغيوب ، وينبغي أن يعلم أن اجناس الفضائل باتفاق الحكماء أربعة الأول الحكمة، الثاني الشجاعة، الثالث العفة، الرابع العدالة وذلك لأن الإنسان قوى ثلاثة متباينة هي مبادي الآثار مختلفة مع مشاركة الارادة وإذا غلبت أحدها على البواقي صارت البواقي مغلوبة أو مفقودة وتلك القوى أولها قوة ناطقة وتسمى نفساً ملكية وهي مبدء الفكر في المعقولات والنظر في حقائق الأمور وثانيها القوة الغضبية وتسمى نفساً سبعة وهي مبدء الغضب والإقدام على الأهوال والتسلط والترفع على الغير ، وثالثها القوة الشهوية وتسمى نفساً بهيمية هي مبدء الشهوة وطلب الغذاء وشهق الانداز بالمأكل والمشرب والمناكح ، وإذا تحررت القوة الناطقة بالاعتدال في ذاتها واكتسب المعارف القيمة حصلت فضيلة العلم والحكمة وإذا تحررت القوة الغضبية بالاعتدال وانقادت للقوة العاقلة فيما تعدى حفظاً ونصيهاً لها ولم تتجاوز عن حكمها حصلت فضيلة الحلم والشجاعة وإذا تحررت القوة الشهوية بالاعتدال وانقادت للقوة العاقلة واقتضرت على ما تعدى العاقلة نصيباً لها

(١) و زعم بعض اهل عصرنا ممن له المام بالنقلات من غير نظر ان الجهل الذي يضاد العقل هو الجنون لان العاقل ضد المجنون وجنود الجهل على ما هو مذكور في الحديث احساسات وعواطف باصطلاح اهل العصر والجنون عبارة عن متابعة احساسات والعواطف كالغضب وعدم ادراك الفجح والعفة والطيش والحزن والغم وغير ذلك فتري المجانين بعضهم يضحك وبعضهم يبكي وبعضهم يبطش على من يقربه وهكذا. واقول هذا خبط وخروج عن اصول المذهب وطريقة اهل العلم فان المجنون غير مكلف ولا يؤخذ بشيء مما يرتكبه في الدنيا والاخرة والجاهل في هذا الحديث مؤخذ بفعله شقي معدود من الاشرار مستحق للنار فما ذكره باطل جداً، وليس المراد بالجهل الجنون ولا ما يقرب من الجنون و ليس في عدل الله وحكمته ان يجن احداً و يعاقبه على أعمال المجانين. (ش)

ولم تخالفها في حكمها حصلت فضيلة العفة والسخاء وإذا تر كبت هذه الفضائل الثلاثة و تمازجت حصلت حالة متشابهة هي فضيلة العدالة ثم إنه يندرج تحت هذه الأجناس الأربعة أنواع غير محصورة من الفضائل اما الحكمة فالمشهور من أنواعها سبعة: الذكاء وسرعة الفهم وصفاء الذهن وسهولة التعلم وحسن التعلل والتحفظ والتذكير، وأما الشجاعة فالمشهور من أنواعها أحد عشر: كبر النفس والنجدة والهمة والثبات والحلم والسكون والشهامة والتحمل والتواضع والحمية والرقية . وأما العفة فالمشهور من أنواعها اثني عشر: الحياء والرفق وحسن الهدى والمسالمة والدعة والصبر والقناعة والوقار والورع والانظام والحرية والسخاء، ثم السخاء نوع يندرج تحته أصناف كثيرة من الفضائل والمشهور منها ثمانية: الكرم والابتناء والعفو والمروءة والنبيل والمواساة والسماحة والمسامحة، وأما العدالة فالمشهور من أنواعها اثني عشر: الصداقة والألفة والوفاء والشفقة وصلة الرحم والمكافاة وحسن الشركة وحسن القضاء والتودد والتسليم والتواضع والعبادة . وكذا ينبغي أن يعلم أن أجناس الرذائل أيضاً أربعة بازاء كل جنس من الفضيلة جنس من الرذيلة، الأول الجهل وهو ضد الحكمة، الثاني الجبن وهو ضد الشجاعة، الثالث الشره وهو ضد العفة، الرابع الجور وهو ضد العدالة هذا بحسب بادي النظر . وأما بعد التأمل فأجناس الرذائل ثمانية لأن كل فضيلة لها حد معين إذا جاوزته في طرف الإفراط أو في التفريط تنهى إلى رذيلة، فالفضيلة بمثابة الوسط والرذيلة بمثابة الأطراف فيكون أجناس الرذائل ثمانية: السفه والبله وهما في طرف الحكمة السفه في طرف الإفراط والبله في طرف التفريط، والتهور والجبن - وهما في طرفي الشجاعة - والشره وخمود الشهوة - وهما في طرفي العفة - والظلم والاضلام - وهما في طرفي العدالة - وكما أن لكل جنس من الفضائل جنسين من الرذائل كذلك لكل نوع من الفضائل نوعان من الرذائل، أحدهما في جانب الإفراط والآخر في جانب التفريط، ولبعض تلك الأنواع اسم خاص دون بعضها وقد عرفت أن أنواع الحكمة سبعة فأنواع ضدّها أربعة عشر: الخمت والبلادة

- وهما في طرفي الذكاء الخبت في طرف الافراط والبلادة في طرف التفريط - وسرعة التخييل والابطاء - وهما في طرفي سرعة الفهم - وظلمة الذهن المانعة من إدراك المطالب والتهابه المانع من الاقامة على المطلوب - وهما في طرفي صفاء الذهن - والمبادرة المانعة من استنبات الصور والنصب المؤدي إلى التعذر - وهما في طرفي سهولة التعلم - وصرف الفكر في إدراك ما هو زائد على تعقل المطلوب - وصرفه في إدراك ما هو ناقص عنه - وهما في طرفي حسن التعقل - وضبط ما لا فائدة فيه وترك ضبط ما هو مهم - وهما في طرفي التحفظ - وتذكر ما يوجب تضيق الأوقات والنسيان الموجب لاهمال مراعاة الواجبات - وهما في طرفي التذكر - وقس عليه أنواع بواقى الأجناس ، وربما يكون لبعض الأنواع اسم مشهور كالوقاحة والخرق وهما في طرفي الحياء - والاسراف - البخل - وهما في طرفي السخاء - والتكبر والتذلل - وهما في طرفي التواضع - والفسق والتحرش - وهما في طرفي العباداة - إذا عرفت هذا فنقول : ما ذكره عليه السلام في هذا الحديث من الفضائل والذائل بعضها من الأجناس وبعضها من الأنواع وبعضها من الأصناف وبعضها من الجزئيات كما لا يخفى على المتأمل و سيجيء تفسير بعض هذه الأمور إن شاء الله تعالى .

(فكان ممّا أعطى العقل من الخمسة والسبعين الجند : الخير) «من» الاولى للتبعية و«ما» موصولة ، و«من» الثانية للبيان والظرف خبر كان قدّم على اسمه وهو الجند أو الخير للتشويق إلى ذكره . قال القرطبي : قيل الخير شيء من أعمال القلب نوراني زائد على الايمان وغيره من الصفات المرضية يدل على ذلك ما في حديث أنس « يخرج من النار من قال لا إله إلا الله و كان في قلبه من الخير ما يزن مثقال ذرة » انتهى . وقيل : الخير هو الوجود وإطلافه على غيره إنما هو بالعرض و هو ينقسم إلى خير مطلق كوجود العقل لأنه خير محض لا يشوبه شر ونقص (١) و إلى خير مقيد كوجود غيره من الذوات والصفات . أقول : الحق

(١) لا ريب أنه لا بدخل في العقل من حيث هو عقل احتمال الشر و انما الشر في

التزاحمات و التصادفات التي يمنع بعض الاشياء بعضها من بلوغ غاياتها ومقاصدها *

إن الخير كليّ يندرج تحته جميع الأعمال الصالحة كما يدل عليه قول أمير المؤمنين عليه السلام : « افعلوا الخير ولا تحة - روا منه شيئاً فإن صغيره كبيرٌ و قليله كثيرٌ » (١) ، و يؤيده ما في طرق العامة ، يخرج منها (أي من جهنم) قوم لم يعملوا خيراً قط (٢) ، وهؤلاء الذين ليس معهم إلاّ الايمان (و هو وزير العقل) الوزير الحمل الثقيل يقال : وزره إذا حمّله و منه الوزير لأنّه يحمل عن الأمير وزره أي ثقله والوزارة على قسمين تفويض و تنفيذ و الأول يستورزه الأمير بتفويض تدبير الأمور إلى رأيّه و إمضاءها إلى اجتهداده بدين مراجعة إليه في كل قضية والثاني أن يكون النظر في الأمور مقصوداً على رأي الأمير و تدبيره و الوزير يتوسط بينه و بين رعيته و يرشده إلى المصالح و يؤدّي عنه ما أمر و ينقذ له ما ذكر و يعينه في الأمور ، و هذا المراد هنا لأنّ الخير إن كان عبارة عن الكلّي المندرج تحته المصالح كلّها فحكمه يجري في جزئياته و هو يتوسط بينها و بين العقل في جريان حكم العقل و نفاذ تدبيره فيها و إن كان عبارة عن العمل القلبي النوراني الذي ذكره القرطبي أو عن وجود العقل فهو يتوسط بين العقل و بين سائر ما يصدر عنه من الأعمال المرضية التي هي في الحقيقة أنوار الهيبة تستضيء بها القلوب و الجوارح و يرشده إليها كما يرشد الوزير الأمير إلى الأمور الملكية و مصالحها .

(و جعل ضدّه الشرّ و هو وزير الجهل) لما كان الشرّ ضدّ الخير كان مقابلاً له في المعاني الثلاثة المذكورة فهو إمّا شيء ظلماني من أعمال القلب زايد على الكفر وغيره من الصفات الذميمة أو عدم منقسم إلى شرّ مطلق كعدم العقل ،

ولكن هنا لا يجوز حمل الخير على العقل إذ ليس هو جنساً لنفسه بل المراد منه شيء آخر باعتبار ما يؤل العقل إليه (ش).

(١) النهج أبواب الحكم تحت رقم ٤٢٢ .

(٢) أخرجه أبوداود الطيالسي في الجزء التاسع من مسنده تحت رقم ٢١٧٩ في

خبر طويل عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد الخدري .

وإلى شرّ مقبّد كعدم غيره من الصفات الكمالية أو كملّيّ يُندرج تحته جمع القبايح ويؤيده قول أمير المؤمنين عليه السلام «الشرّ جامع لمساوي العيوب» (١) ووزارته للجهل تظهر بالتأمل فيما ذكرناه في وزارة الخير للعقل، ويمكن أن يراد بالخير نورية العقل وضياء ذاته إذ كلّ ما يصدر عنه بتوسطها من الأفعال كان على نهج الصواب فهي وزير له في الدلالة على المحاسن والمصالح وبالشرّ ظلمة الجهل وكدورة ذاته إذ كلّ ما يصدر عنه بتوسطها من الآثار والأفعال كان على نهج الخطأ فهي وزير له في الدلالة على المفاسد والمقايح.

(والإيمان وضده الكفر) الإيمان هو الاعتقاد الثابت الجازم بأحوال المبدء والمعاد (٢) و ملائكته وكتبه ورسله و ما جاء به رسوله الذي من جملته الوصاية والامامة على سبيل الاجمال و هو روح العلوم الحقيقية والتصديق بالمسائل اليقينية على سبيل التفصيل كما يرشد إليه قول أمير المؤمنين عليه السلام «و بالإيمان يعمر العلم» (٣) ، والحق أن الأعمال غير داخلية في حقيقته لقوله عليه السلام «بالإيمان يستدل على الصالحات وبالصالحات يستدل على الإيمان» (٤) ، يريد بالأول الاستدلال من المؤثر على الأثر و بالثاني عكس ذلك (٥) ، وأما قوله عليه السلام «الإيمان معرفة بالقلب

(١) النهج أبواب الحكم تحت رقم ٣٧١ .

(٢) ليس الافرار باللسان جزء من الإيمان بل هو دليل عليه و ليس العمل بالاركان

أيضاً جزء من الإيمان بل هو من آثاره و فوائده. و يعتبر في الإيمان الجزم فلا يكفي الظن، والثبات فلا يكفي التقليد (ش).

(٣) و (٤) النهج أبواب الخطب تحت رقم ١٥٤ .

(٥) تارة يكون الفرض بيان المذهب الحق من بين المذاهب الموجودة و هذا وظيفة العلماء يعرّدون محل النزاع ويبينون القول الحق بالبرهان والادلة وتارة يكون الفرض بيان مفاهيم الاحاديث و بيان ما هو يوهم التناقض فيها و هو وظيفة المحدثين والشارح سلك المسلك الاول اما بيان كلام الشارح فهو أن المسلمين اختلفوا في حقيقة الإيمان اى الفرق بين المؤمن والكافر فان لكل منهما أحكاماً في الشرع فالكافر نجس و

و إقرار باللسان و عمل بالأركان (١)؛ و مثله قول علي بن موسى الرضا عليه السلام فالجمع يقتضى أنه تعريف للإيمان الكامل وقد شاع في لسان الشرع إطلاق اسم الايمان عليه، والكفر الذي هو ضده عدم الاعتقاد بالأُمور المذكورة أو إنكار شيء منها وهو روح الجهالات والدّاعى إلى ذمائم الصفات. وقيل: الايمان نور من أنوار الله فائض منه على قلب من يشاء من عباده به يرى الأشياء كما هي وهو المسمّى تارة بالحكمة النظرية يعنى ملكة يقتدر بها الانسان على إحضار المعلومات الحقيقة متى شاء من غير تجشّم كسب جديد و تارة بكمال العقل النظري أو القوة النظرية و تارة بالعقل بالفعل و تارة بالعقل البسيط الاجمالي. والكفر الذي ضده ملكة ظلماتية حاصلة في النفس من كثرة الاغلوطات و تراكم الشبهات وتزاحم الوهميات و رسوخها فتصير تلك الملكة الظلماتية حجاً بآ عن إدراك حق وعمى في عين قلب عن كل مستتر وصمّأ في أذن عقل عن سماع كل كلام صادق والذي يدل على أن الايمان نور و الكفر ظلمة قوله تعالى: «الله وليّ الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات» وفيه أولاً أن تفسير الايمان بما ذكره غير معروف وثانياً أن الآية لا تدل على ما قل بل تدل على أن الايمان سبب للنور ووسيلة إليه و الكفر سبب للظلمة وذريعة إليها فليتأمل.

(والتصديق و ضده الجحود) أي تصديق الصادقين فيما قالوه ، أو التصديق بالمسائل اليقينية والمعارف الحقيقية على سبيل التفصيل والركون إليها بايراد

*لا يدفن في مقبرة المسلمين ولا يرث من المورث المسلم ولا ينكح في المسلمات الى غير ذلك بخلاف المؤمن والحق ما ذكره الشارح من أن عمل الجوارح لا يدخل في الايمان والمخالف فيه الوعيدية من الخوارج حيث قالوا ان مرتكب الكبائر كافر وبعض المحدثين مال الى تفسير الفاظ الاحاديث فطول الكلام و قسم الايمان الى درجات و ذكر له معاني كثيرة ولم يقطع بذهبننا من ان العمل ليس من الايمان (ش).

(١) الكافي كتاب الايمان والكفر باب أن الايمان قبل الاسلام.

الدلائل والبراهين عليها والتفاوت بين الايمان والتصديق على ما ذكرنا مثل
التفاوت بين العلم الاجمالي والتفصيلي والوجود الذي هو ضده إنكار الصادقين أو إنكار
تلك المسائل والمعارف والرُّكون إلى الشهوات والشبهات والميل إلى الجهالات
والرجوع في المعضلات إلى نفسه والتعويل في المبهمات على رأيه فما أنكرته النفس
كان هو المنكر، وما عرفته كان هو المعروف فهي تاركة لرواسم الشريعة، تابعة
لأهوائها مائلة إلى آرائها.

(والرجاء، و ضده القنوط) الرجاء بالمد مصدر بمعنى التوقع والأمل
تقول: رجوته أرجوه رجواً ورجاءً ورجاوة وهمزته منقلبة عن واو بدليل ظهورها
في رجاة وقد جاء فيها رجاة، و مبدأ الرجاء، يعني توقع ثواب الله وإحسانه و
إكرامه وإنعامه معرفته تعالى وملاحظة غناه عن العالمين واعتبار أسباب نعمة
ظاهرة وباطنة، جليلة وخفية، ضرورة كآلات التغذية والتنمية وغير ضرورة
كتقوس الحاجبين واختلاف ألوان العينين إلى غير ذلك من الألفاظ الالهية و
الفيوضات الربانية التي صدرت منه قبل الاستحقاق والأعمال و بعد الاستحقاق و
الاستيهال فانه إذا تفكر العقل في هذه الأمور وتأمل فيها وفي غيرها استكمل
رجاءه بالله سبحانه. والقنوط هو اليأس من رحمته وعفوه وهو من صفات الخاسرين
الجاهلين و سمات الضالين الغافلين عن سعة رحمته وإحاطة مغفرته قال سبحانه :
« ورحمتي وسعت كل شيء » « ولا تيأسوا من روح الله إنه لا ييأس من روح الله إلا
القوم الخاسرون » و قال : « لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو
غفور الرحيم » وقال : « من يقنط من رحمة ربه إلا الضالون » فمن وقع في شر
وقنط من رحمته ازداد جهلاً على جهل و ترقى من باطل إلى باطل و هو جاهل
بالله العظيم، وأما العاقل فيستغفره و يرجع إليه ويتضرع بين يديه ويكون عقله
برجاء غفرانه أوثق وقلبه بشمول العناية له أعلق فانه لا ييأس من روح الله إلا الذين
عميت أبصار بصائرهم عن أسرار الله تعالى فهم في طغيانهم يعمهون، فاولئك هم الخاسرون،
واعلم أن الرجاء بثواب الله والفوز بالسعادات الآخروية مقام شريف مستلزم لمقامات

عالية لأنه يستلزم الصبر على المكاره وفعل الطاعات وترك المنهيات لعلمه بأن الجنة محفوفة بالمكاره ومقام الصبر يؤدي إلى مقام المجاهدة والتجرد لذكر الله و دوام الفكر فيه ومقام المجاهدة يؤدي إلى مقام كمال المعرفة المؤدي إلى مقام الأنس المؤدي إلى مقام المحبة المستلزم لمقام الرضا والنوكل إذ من ضرورة المحبة الرضا بفعل المحبوب و تفويض نفسه وأمره إليه ، والوثوق بعنايته ، ولذلك قيل: الرجاء لا ينفك عن الأعمال الصالحة ، و قيل : الرجاء مادة الاستهتار بلزوم الطاعة ، و يدل عليه ما روي عن الصادق عليه السلام قيل له : «إن قوماً من مواليك يلمون بالمعاصي ويقولون: نرجوا؟ فقال: كذبوا ليسوالنا بموال أولئك قوم ترجحت بهم الأمانى من رجاشئاً عمل لهو من خاف من شيء هرب منه» (١) و من ثم قالوا : الرجاء من الفضائل إذا قارنه خوف لأن كل واحد منهما بدون الآخر من الملكات الرديئة المهلكة كما يرشد إليه أيضاً قوله تعالى «يدعون ربهم خوفاً وطمعاً» وقول الباقر عليه السلام «إنه ليس من عبد مؤمن إلا وفي قلبه نوران : نور خيفة و نور رجاء لو وزن هذا لم يزد على هذا ولو وزن هذا لم تزد على هذا (٢) » و من ههنا ظهر أن الخوف غير القنوط فإن القنوط ضد الرجاء لا يجامعه بخلاف الخوف ، ثم قيل : إن بين الخوف و الرجاء تفاوتاً في الدوام و عدمه و ذلك لأن الخوف ليس من الفضائل العقلية الباقية في النشأة الآخرة وإنما هو من الأمور النافعة للنفس في فعل الطاعات والهرب عن المعاصي مادامت في دار الدنيا التي هي دار العمل و أمّا عند حلول الأجل و الخروج منها فلا فائدة فيه بخلاف الرجاء فإنه باق أبداً إلى النشأة الآخرة لا ينقطع لأنه كلما نال العبد من رحمة الله أكثر كان رجاءه فيما عند الله أشد و أوفر ، لأن خزائن رحمته غير منتهية .

(و العدل و ضدّه الجور) و هى الملكة الحاصلة من التحلى بالأوساط الفاصلة في باب العقائد كالتمحيص والتعطيل والتشبيه والتعويل على الأمر المتوسط

بين الجبر والتفويض، وفي باب الأعمال كأداء الواجبات والسنن بين الكسالة والترهيب التام والاعطاء المتوسط بين القبض بالكليّة والبسط التام، وفي باب الأخلاق كالحكمة بين السفاهة والبلاهة في القوة العقلية، والشجاعة بين التهور والجبين في القوة الغضبية، والعفة بين الشره وخمود الشهوة في القوة الشهوية وإذا حصلت هذه الاوساط وصارت ملكات حصلت حالة أخرى متشابهة من تمازجها واختلاطها وهي المسمّاة بالعدل (١)، وكما أن كل واحدة من تلك الأوساط محيطة بأنواع متكثّرة من الفضائل إحاطة الجنس بأنواعها ومحاطة بجنسين من الرذائل كذلك ملكة العدالة محيطة بأنواع متكثّرة من الفضائل ومحاطة بجنسين من الرذائل أعني الظلم والانظلام والظلم في طرف الافراط والانظلام في طرف التفريط ويعبر عنهما بالجور لأن جور الجائر أعم من أن يكون ظلماً على نفسه وعلى غيره ومن ههنا ظهر أن العدل أمر وسيط يتوقف حصوله على الأوساط المذكورة، ورئيس شريف يتذلل لحكمه كثير من الفضائل العقلية، وأمير كبير ينتظم به سلطنة العقل في ملكوت القلب، بل هو طريق قويم و صراط مستقيم يسير فيه العقل من العالم الجسماني إلى العالم الروحاني فيشاهد عجائب الملك و الملكوت في هذه النشأة ويدخل جنّات النعيم مع مرافقة الأخيار في النشأة الآخرة كما أن الجور الذي هو الفرار عن هذه الأوساط والاستقرار في طرف التفريط والافراط وهو من أعظم أمراء الجهل وأكابر رؤسائه، ويندرج في حكمه كثير

(١) لا ريب أن هذا الحديث أصل يبتنى عليه جميع ما ذكره علماء الاخلاق في كتبهم كاحياء العلوم و جامع السماعات والمحجة البيضاء و امثالها خصوصاً ما ذكره في المنجيات والمهلكات وهي بمنزلة شرح لهذا الحديث الشريف و علماء الاخلاق بنوا على ان العدل المتوسط في كل شيء و فسر بعضهم العدل بعدل السلاطين وربما يترجم بالفارسية (دادو دهش) اي العدل والعطاء والمطاء زايد و عدل الحكم داخل في تفسير الشارح . و بالجملة العدل هو الجامع للفضائل كما في قوله تعالى : « و اشهدوا ذوى عدل منكم » (ش).

من جنوده طريق سقيم و صراط غير مستقيم يبعد سالكه في هذه الغمّة عن حضرة
الجبار و يدخل في النشأة الآخرة في عذاب النار وقد شبهوا تلك الصورة الباطنة
الواقعة في الوسط المسماة بالعدالة لزيادة الايضاح والتقرير تارة بالصورة الظاهرة
المحسوسة فكما أن لنلك الصورة الظاهرة أركاناً مثل العين والأنف والفم والخذ
واليد والرجل إلى غير ذلك من الأعضاء الظاهرة، ولا توصف تلك الصورة بالحسن
فالمرحسّن جميع تلك الأعضاء، ولم يتوسط بين الإفراط والتفريط كمتوسط العين بين
زيادة غورها وزيادة بروزها و بين زيادة الصغر وزيادة الكبر و توسط الأنف بين
زيادة الطول و زيادة القصر و بين صغر الحجم و كبره و على هذا القياس في سائر
الأعضاء كذلك لنلك الصورة الباطنة التي هي صورة القلب أركان مثل القوة الناطقة
والقوة الغضبية والقوة الشهوية ولا يوصف تلك الصورة بالحسن والقبول ما لم
يحسن جميع هذه الأركان ولم يتوسط بين الإفراط والتفريط على ما ذكرنا، وتارة
أخرى بالمزاج، فإن تلك الصورة الباطنة بالنسبة إلى القلب كالمزاج بالنسبة إلى
البدن فكما أن اعتدال المزاج واستقامته أعنى الصحة والسلامة تتوقف على زوال
الأمراض البدنية كلّها كذلك اعتدال تلك الصورة و استقامتها يتوقف على زوال
الأمراض القلبية التي هي الأَخلاق الذميمة الواقعة في طرفي الإفراط والتفريط
لأن الأَخلاق الذميمة علّة مسرية ينجس بعضها إلى بعض والنجاسة في النشأتين و
حسن القبول في الدارين والتعشّق عند الباري جلّ شأنه و تسخير عالم الملك
و المملوكوت لا تحصل إلّا بزوال جميعها، ومن ههنا ظهر سرّ قولهم: «خير
الأُمور أوسطها».

(والرّضا وضده السخط) في باب الرّضا بقضاء الله تعالى أخبار كثيرة فعن
أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال: «نعم القرين الرّضا بقضاء الله (١)» وعن ابن عباس
عن النبي ﷺ أنّه قال: «أوحى الله إلى موسى صلوات الله عليه إنّك لن تتقرّب

إلى بشي، أحب إلى من الرضا بقضائي (١)، في الحديث القدسي « من لم يرض بقضائي ولم يصبر على بلائي ولم يشكر على نعمائي فليعبد رباً سوائى ، وليخرج من أرضى وسمائى » و اختلفوا في تفسيره ف قيل : هو رفع الاختيار ، و قيل : هو سكون النفس تحت مجارى القدر، و قيل : هو السرور بمر القضاء . وقال الأرجواني : عرفت طرفاً من الرضا لو أدخلنى النار كنت به راضياً . و قيل : هو سكون القلب إلى أحكام الله تعالى، و موافقة الضمير بما رضى و اختار . و قيل : هو فرح القلب و سروره بنزول الأحكام في الحلو والمر : قال عياض : الأولان تعريف لمبدئه و الثالث تعريف لمنتهاه ، و فى الرابع نظر ، والخامس قريب من الثانى ، والسادس قريب من الثالث . وقال ذوالمفاخر صاحب العدة رحمه الله : سأل النبى ﷺ جبرئيل عليه السلام عن تفسير الرضا فقال، الرضى هو الذى لا يسهط على سيده أصاب من الدنيا أولم يصب ، ولا يرضى من نفسه باليسير ، و أعلم أيتها اللبيب أن الرضا من أعلى منازل المقر بين و أفصى مراتب السالكين فانه ثمرة المحبة و هى ثمرة الأنس بالله تعالى شأنه و هو ثمرة كمال معرفته و هو ثمرة دوام المجاهدة مع النفس الأمارة والتجرد لذكر الله و دوام الفكر فيه و هو ثمرة الصبر على فعل الطاعات وترك المنهيات و تحمّل المشاق والمكاره و هو ثمرة الخوف من الله تعالى والرّجاء بثوابه و إكرامه و إنعامه . والخوف له تأثير فى الأعضاء الباطنة فيمنعها عن الرذائل النفسانية مثل الكبر والحسد والحقد والعداوة والبخل و غيرها وفي الأعضاء الظاهرة فيكفها عن المنهيات و يقيدها بالطاعات ولعلو منزلة الرضا رقه الله سبحانه فوق جنات عدن و جعله أكبر من نعمها فقال عز من قائل : و وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة من جنات عدن ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم ، فهو فوق نعيم الجنات و غاية مطلب سكانها و إذا رضى العبد عن الله تعالى رضى الله عنه كما قال « رضى

(١) لم أجده من حديث ابن عباس و رواه الكليني فى الكافى كتاب الايمان و

الكفر باب الرضا بالقضاء تحت رقم ٧ من حديث أبى عبد الله (ع) بنحو أبسط .

الله عنهم ورضوانه». وإذا عرفت حال الرضا وشرف منزلته فاعرف حال ضده الذي هو السخط بالتضاد فإن كل ما ذكرنا في الرضا يجري ضده في السخط وأورد عليه بأن المستفاد من هذا الحديث وغيره أن العبد يجب عليه أن يرضى بقضاء الله سبحانه خيراً كان كالأيمان والطاعة أو شراً كالكفر والمعصية لكن الرضا بالكفر كفر والمعصية فسق كما ورد في الحديث فكيف التوفيق؟ والجواب المشهور هو أنه فرق بين القضاء والمقضى وأنه يجب الرضا بالقضاء دون المقضى والكفر ونحوه من جملة المقضى، وردّه بعض المحققين بأن القضاء عبارة عن الحكم بوقوع شيء في الخارج وهو أمر نسبي إضافي فحسنه وقبحه وخيره وشره إنما هو بحسب ما أضاف إليه لأن نفس الإضافة لا توصف بشيء إلا باعتبار المضاف إليه فالتناقض بحاله ثم أجاب عن أصل الإشكال بأن المقضى بالذات لا يكون إلا خيراً والشر مقضى بالعرض لا بالذات والذي يجب الرضا به هو القضاء أو المقضى بالذات والذي يجب عدم الرضا به هو القضاء أو المقضى بالعرض كالكفر والظلم ونحوهما، وقال بعض الأفاضل لدفع الرد المذكور عن الجواب المشهور: القضاء كالعلم ليس مجرد إضافة ونسبة بل هو صورة عقلية ذات إضافة فإن القضاء الإلهي كما حقق عبارة عن وجود صور جميع الموجودات الخارجية وجوداً عقلياً إجمالياً على وجه أشرف وأعلى فكل ما كان أو سيكون له وجود في عالم علمه تعالى علماً مقدساً منزهاً من التغير والقصور والنقص والشر وأما المقضى فهو الصور الكائنة والمواد الخارجية على وفق ما جرى في القضاء، فللقضاء نحو من الوجود والمقضى نحو آخر من الوجود وقد ينطبق إليه النقص والآفة والشر والفساد والصورة العقلية للكفر والمعاصي ليست كفراً ولا معصية وإنما هي كذلك بحسب وقوعها في الخارج فمن قال: القضاء لا يكون إلا خيراً يجب الرضا به دون المقضى لعلّه أراد بالقضاء صور ما في علم الله سبحانه لا مجرد النسبة والمقضى وجود الأكوان الخارجية التي قد يكون شراً وكفراً فظهر الفرق ورفع التناقض (١)

(١) لا ريب أن المقصود الرضا بالمقضى لا بالقضاء مثلاً الرضا بالفقر ليس معناه*

(والشكر و ضده الكفر) إن الشكر حالة نفسانية تنشأ من العلم بالمشكور و صفاته و إنعامه ، و تتمر العمل بالقلب واللسان والأركان ، وهم بالنظر إلى تلك الشجرة عرفوه بأنه فعل دال على تعظيم المنعم سواء كان بالجنان أو باللسان أو بالأركان وتوضيحه أن الشكر على النعمة لا يتحقق إلا بأن تعرف المنعم الحقيقي و صفاته و نعمه و أن تعرف أن النعم كلها منه و أن الأوساط الموصلة لنعمه نعمة أو التي لها مدخل في إيصالها أو تكميلها مثل السماء والأرض والشمس والقمر و النجوم والسحاب والعباد وغيرها كلها بقيادة لا مره مضطرة لحكمه كاتقياد تبعه الملك له في إنفاذ أمره (١) وإيصال عطاياه فتعرف أن لا منعم في الحقيقة إلا هو و هذه المعرفة تورث حالة نفسانية هي التذلل والانقياد للمنعم والسرور بنعمه لا من حيث أنها موافقة لغرض نفسك إذ في ذلك متابعة في هواها و اقتصار همة في رضاها ، بل من حيث أنها دالة على عنايته بك بمجرّد إحسانه وإفضاله من غير

* الرضا بوجود معناه في علم الله بل بوجوده خارجاً و حصوله للراضى والحق في الجواب ان ينكر قضاء الله تعالى بكفر احد بمعنى حكمه بكفره بحيث يعد كراهة الكفر كراهة حكم الله بل قضائه بمعنى علمه بكفر الكافر عن اختيار ولا يرضى الله لعباده الكفر و كذلك ينبغي أن لا يرضى به العبد ومعنى الرضا بالفضاء الرضا بالحكم الذي حكم به الله و الزمه على العباد ولا يقدر العبد على دفعه عن نفسه كالمرض والموت لا ما يقدر على دفعه كالكفر و الفسق فان قضاء الله بهما اعنى علمه ليس ملزماً والذي علم الله تعالى صيرورته كافراً

باختياره يصير كافراً باختياره لا مجبوراً والرضايه في معنى رضاه بكونه مختاراً. (ش)

(١) بل اشد انقياداً فان تبعه الملك مستقلون في وجودهم و ليس وجودهم معلولاً لوجود الملك بخلاف الاوساط الموصلة لنعمه تعالى الى عباده فانهم معلولون و بقوهم و فناؤهم بمشية الله تعالى ولا فرق في ذلك بين مراتب الوسائط فان العقول المجردة اى الملائكة المقربين والنفوس الكلية فضلا عن السماء والارض والشمس والقمر وغيرها هم بامرهم يعملون ولا استقلال لهم في وجودهم فضلا عن فعلهم وليست وساطة العقول بمعنى تفويض الامر اليهم كما يتوهمه من لا خبرة له. (ش)

سبق استحقاق واستئصال وسيلة إلى التقرب به برعاية حقوقه وعلامة ذلك أن لا تفرح من الدنيا إلا بما يوجب القرب منه في الدنيا والآخرة ، وهذه الحالة شكر في الحقيقة وهي تورث العمل لأنها إذا حصلت في النفس وتمكنت فيها حصل لها نشاط للعمل الموجب للقرب منه وهذا العمل أيضاً شكر وهو يتعلق بالقلب واللسان والأركان أما عمل القلب فهو القصد إلى تعظيمه وتحميده وتمجيده وتهليله والتفكير في مصنوعاته وأفعاله وآثار إنعامه وإكرامه وإبصال الخير إلى كافة خلقه إلى غير ذلك من الأعمال القلبية .

وأما عمل اللسان فهو إظهار ذلك المقصود بالتحميد والتمجيد والتسبيح والتهليل والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وغيرها . وأما عمل الأركان فهو استعمال نعمه الظاهرة والباطنة في طاعته وعبادته والتوقي من الاستعانة بهافي معصيته ومخالفته كاستعمال العين في مطالعة مصنوعاته ، واستعمال الأذن في استماع براهينه وآياته ، وهكذا حكم سائر الجوارح ، وإذا عرفت الشكر فقد عرفت الكفران الذي هو ضده بالمقايضة فإنه أيضاً حالة نفسانية هي العتو وسوء الظن بالمنعم والتباعد منه والسرور بالنعمة من حيث أنها موافقة للأغراض الفاسدة النفسانية ، وهذه الحالة تنشأ من عدم معرفة المنعم الحقيقي على ما ينبغي وتورث العمل بالقلب كالقصد إلى معصيته والعزم على مخالفته ، وباللسان كالافتراء والشكاية والمذمة وغيرها من الأقاويل الباطلة والجوارح كترك النظر فيما يعنيه وصرفه فيما لا يعنيه ، وبالجملية صرف الجوارح في غير ما خلقت لأجله .

(والطمع وضده اليأس) هذا تكرار للرجاء وضده ، ولذلك قال الشيخ بهاء الملة والدين رحمه الله : اعل أحدهما كان بدلاً عن الآخر فجمع بينهما لئلا يسخ غافلاً عن البدلية ، ويمكن أن يقال التكرار إنما يلزم لو أريد بهما أريد بالرجاء أعني الطمع في ثواب الله والأمور الأخروية مطلقاً أما إن أريد به توقع الأمور الأخروية من غير سبق استحقاق وخص الرجاء بتوقعها مع سبق أو مطلقاً أو أريد به توقع الأمور الدنيوية مما يحتاج إليه من الضروريات وغيرها أو أريد به توقع ما في

أيدي الناس وجعل الطمع من جنود الجهل واليأس من جنود العقل على خلاف ما وقع في سائر النظائر من تقدم جنود العقل فلا تكرر وهذه الوجوه وإن كانت بعيدة لكن القول بالتكرار و تخطئة الناسخ أبعد منها:

(والنوكتل و ضدّه الحرص) معنى تو كّل العبد على الله تعالى هو صرف أموره إليه والاعتماد فيها عليه يقال : و كّل فلانٌ فلاناً إذا استكفاه أمره ثقة بكفايته أو عجزاً عن القيام بأمر نفسه و من أسماؤه تعالى الوكيل و هو القيم بأرزاق العباد ، و بالجملة النوكتل حالة فاضلة للقلب توجب تفويض الأمور إلى الحق والانقطاع عما سواه وله مبدء وأثر مترتب عليه ومبدء العلم بأنّه تعالى واحد لا شريك له وأنّه عالم بجميع الأشياء بحيث لا يعزب عنه تعالى مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ، وأنه قادر على جميع المقدورات وأنه حكيم لا يجوز في حكمه و أنّه رؤف بعباده ولا بدّ بعد ذلك من الرضا بقضاء الله إذ بالعلم الأول يعلم أنّه لا كفيل لمهمّاته إلّا هو ، و بالعلم الثاني يعلم أنّه لا يخفى عليه شيء من مهمّاته وبالعلم الثالث يعلم أنّ السماوات والأرضين وما بينهما وما فيهما من الرّوحانيات والحيوانات والنباتات والجمادات والأُمور الكائنة مستخترات بأمره ، فيعلم أنّه لا يعجز عن إمضاء مهمّاته وإنجاح مطالبه و مراداته ، و بالعلم الرابع يعلم أنّه لا يكون ظالماً في نفاذ أموره ، و بالعلم الخامس يعلم أنّه يفعل كلّ ما يصلح له و بالسادس يسهل عليه جريان صعاب الأمور فإذا أيقن هذه الأمور و استنار قلبه بأنوار تلك المعارف ولم يعارضه الوهم والجهن و ضعف البصيرة و مع ذلك تأمّل في حال بعض الحيوانات الذي لاحيلة له في تحصيل أموره و ادّخار قوته كالطيور وأمثالها بل في حال نفسه حين كان جنيناً في بطن أمّه و كان مضطراً إلى الرزق و كان رزقه يأتيه بغير حيلة له من حيث لا يدري وقتاً فوقتاً حصلت له حالة شريفة هي وثوقه في أموره بالله سبحانه و انقطاعه عن غيره من الأسباب و الوسائط بل عن نفسه أيضاً لأنّه يسلب الحول والقوة عنها و يحكم بأنّه لا حول ولا قوّة إلّا بالله و يرى حاله معه ، مثل حال الموكّل مع وكيله في الثقة به والاتكال

عليه أو مثل حال الطفل مع أمه في الركون إليها، أو مثل حال الشمعة مع المصور في أنها مقهورة تحت يده و قدرته يصورها ويشكلها كيف يشاء وهذه الحالة هي المسمّاة بالتوكّل وهي مقام عالٍ من مقامات السالكين و درجة عظيمة من درجات المقرّبين و منزلة رفيعة من منازل المتّقين لا يصل إليها إلا من اطمأن قلبه بالإيمان بالله القاهر فوق عباده ، ثم إن هذه الحالة تتفاوت كمالاتها ونقصانها بحسب تفاوت العلوم المذكورة و صفاء القلب و نورانيته فلها أقسام : أولها الثقة بالله و بكفالاته و كفايته و عنايته مع ملاحظة أن العادة جرت على ربط المسببات بأسبابها فيتمسك بالأسباب على قدر الحاجة والأثر المترتب عليه هو الاعتقاد بأن حصول المطلوب وسببه من توفيق الله تعالى وعنايته فيكنسب ويغلق الباب من السارق و يتحصن من العدو مثلاً و يثق بأن الرزق والحفظ منه تعالى ، ولا يتكل على السبب و إنما اتخذ جرياً على العادة و هو راض عن ربه و شاكر له إن لم يحصل المسبب ، بناء على أنه لا يندري في أي شيء الخير و حافظ مع اشتغاله بالسبب لأوقات الصلوات وغيرها من العبادات وبالجملة يكون مقصوده هو الكفيل الحق وخيرته ومنظوره هو التشبث بذيل عنايته وإرادته، والاكتساب على هذا الوجه لا ينافي التوكّل لأن رسول الله ﷺ كان رأس المتوكّلين وقد توارى من العدو و خندق على نفسه و ظاهر بين درعين وأدّ خر قوت عياله سنة ، ولتواتر الروايات عن الأئمة الطاهرين عليه السلام على هذا المعنى ولقوله تعالى : «رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله» ولذا قيل : من طعن في الكسب طعن في السنة ومن طعن في تركه طعن في التوحيد، والكسب الغير المنافي ما كان على قدر الحاجة، و حدّه بعض للمتقرب دون الأربعين، و اختلف في إدّ خار قوت الأربعين فقيل : يخرج عن التوكّل، وقيل : لا يخرج بما زاد على الأربعين و هذا كله ما لم يتشوش خاطره فإن تشوش فلا بدّ خار في حقّه أفضل ، بل قيل : لو حبس ضيعة يكفيه دخلها كان أرجح لأن المقصود تفريغ القلب للعبادة حدّه للمعيل بقوت عام تطميناً لقلبه و قلب عياله لفعل النبي ﷺ ذلك ولم يفعله لطيب

قلبه و إنما فعله ليدل على الجواز و قيل : ادّخار قوت عامين في مقام يتوهّم غلبة العدو لا ينافيه لعدم الأمن بالغلبة والأظهر أن ادّخار القوت مطلقاً لا ينافيه إذا كان اعتماداً على الله تعالى لاعلى القوت المدّخر وبالجملة التمسك بالأسباب مع الاعتماد على الله لا عليها لا ينافيه، وثانيتها الثقة بالله و بكفالته مع احتراق حجاب الأسباب والمسببات عنده ولكن لم يعوّد نفسه بالصبر على الجوع والعطش أسبوعاً أو أكثر أو أقل ولا راض نفسه على أكل غير المأنوس من الأطعمة والأشربة و الأثر المترتب عليه لأنه لا يجوز له ترك الاكتساب ولا الخروج من المعمورة والسكون في البادية ولا السفر بلا زاد ولا ماء لأن إلقاء النفس إلى التهلكة لا يجوز عقلاً و نقلاً والمقام في المعمورة مظنة إتيان الرزق ، وثالثها مثل الثاني إلا أنه عوّد نفسه على ما ذكر ، والأثر المترتب عليه أنه يجوز له ترك الاكتساب والسكون في البادية والسفر بلا زاد ولا ماء في مدّة يعلم أنه يتحمّل الرضا ولا يجوز له ولا للثاني ترك الأسباب الضرورية كمدّ اليد للطعام و ابتلاعه ولا انقطاعهما في شعب لا ماء فيه ولا كلاء ولا إقامتهما في مسيل ماء أو تحت جدار مائل ولا عدم دفاعهما عنهما سبعا ولو قالوا في جميع ذلك : توكلنا فهما جاهلان في معنى التوكل و في اعتقادهما أن الأسباب الضرورية تنافيه ، و كان بعض المتوكلين لا يفارق الإبرة والمقراض والركوة والحبيل لملاحظة أنه قد ينخرق ثوبه وقد لا يوجد الماء بوجه الأرض ثم إنهم إن تفارغا للعبادة ولم يطعما ما في أيدي الناس و لم ينشوش بالهما في العبادة و راضا نفسيهما على الجوع وصبرا صبراً جميلاً في كل حال يأتيهما الرزق لامحالة لأن أصل وجودهما يجلب الرزق وغيره من ضروريات الوجود ، وقد قيل لأُمير المؤمنين عليه السلام : لو سدّ على رجل باب بيته و ترك فيه فمن أين كان يأتيه رزقه فقال عليه السلام : من حيث يأتيه أجله ، و هذا التوكل ، و ترك الكسب إنما هو للمنفرد ، وأمّا المعيل فالمناسب له هو القسم الأول لأنه ليس له أن يكلف عياله بالصبر على الجوع وقد رجّح جماعة القسم الأول على بواقي الأقسام مطلقاً لما مرّ و لغيره من الأخبار الواردة في الحث على طلب المعيشة ويمكن أن

يقال : إن ذلك باعتبار أن القسم الأول أسهل والأخيرين في غاية الصعوبة وهم عليه السلام حكماء يحملون الناس على ما لا يصعب عليهم كثيراً ، وأما ضد التوكّل فالمشهور في السنة العلماء المضبوط في النسخ والمعتبرة هو الحرص بالصاد المهملة و قال سيد الحكماء الإلهيين هو الحرص بالحاء المهملة أو لا والصاد المعجمة أخيراً والراء في الوسط وبالتحريك و أما الحرص بالصاد المهملة فتصحيح لا نه ضد القناعة كما سيحییء فلو جعل ضد التوكّل أيضاً لزم أن يكون جند الجهل أقل من ثلاثة و سبعين و على خلاف عدد جند العقل و أنه باطل لأنه خلاف قول الامام عليه السلام بل هو وهم فاسد في نفسه لأنه ضد القناعة في نفس الأمر لا ضد التوكّل لأن ضد التوكّل هو الهم بالشئ والحزن له والوجد عليه وصرف الفكر في التوسّل إليه والنبالغ في تحصيل البغية وتهيج الأسباب المؤدية إليها وتحريكها و تحريضها و تحريضها والغم في إبطاء بلها و بطوء نجاحها و ذلك كله معنى الحرص بالصاد المعجمة و هو الحرب بمعنى هذا محصل كلامه و يمكن دفعه بأن الحرص بالصاد المهملة حالة نفسانية تنشأ من الجهل بالأمور المذكورة المعتبرة في تحقيق التوكّل أو من ضعف القلب لاستيلاء مرض الوهم عليه فإن الوهم كثيراً ما يعارض اليقين كمن تراه لا يبيت وحده مع ميتة و هو يبيت مع جماد مع علمه بأن الميت أيضاً جماد و تبعث تلك الحالة على السعي التام في الاكتساب و شدة الاهتمام بجميع الأسباب و صرف العمر والفكر في جمع المال في جميع الأوان كما هو دأب أهل العصر و شأن أبناء الزمان ولاشبهة في أن ذلك اقوة الاعتماد على الكسب والطلب و عدم الاعتماد على الله سبحانه ، فالحرص متضمن

لأمرين أحدهما المبالغة في الاكتساب والثاني عدم الاعتماد والوثوق بالله سبحانه ، فباعتبار الأمر الأول جعل ضداً للقنوع و باعتبار الأمر الثاني جعل ضداً للتوكّل فلا يكون جند الجهل أقل من جند العقل إذ الحرص في الموضعين ليس بمعنى واحد ولا يلزم خلاف قول الامام عليه السلام ، ولا يرد أنه ليس ضد التوكّل في نفس الأمر .

(والرافة و ضدّها القسوة) قل المازري القسوة ضدّ اللين ؛ والغلظة ضدّ الرأفة وكأنّه غفل عن معنى القسوة ، قال الجوهري : قسى قلبه قسوة وقساوة وقساء بالفتح والمدّ وهو غلظة القلب و شدّته ، والرافة حالة نورانية للقلب داعية إلى الخير و حسن الخلق ورقّة الوجه وطهارة اللسان و كثرة الحياء ، والتلطّف بالخلق والاجتناب عن المناهي ، و ضدّها حالة ظلمانية له داعية إلى الشرّ و سوء الخلق و غلظة الوجه و خباثة اللسان و قلّة الحياء ، و ايذاء الخلق و ركوب المحارم و كشف الاستار والوثوب على الناس في الخصومات ، و كلّ واحدة منهما إمّا طبيعية و إمّا كسبيّة تحصل الأولى بممارسة العلوم و الأعمال الصالحة ، والثانية بمزاولة الجهل والأعمال انقبیحة والمراد هنا هو القسم الثاني .

(والرحمة و ضدّها الغضب) الرحمة حالة للقلب يثمرها العلم بقباحة الطغيان و شناعة العدوان و سوء عاقبتهم و ثمرتها الشفقة على الخلق والتلطّف بهم والترحم عليهم والفرق بينها و بين الرأفة كالفرق بين المسبّب و السبب فانّ الرأفة لينة القلب الموجهة لميله إلى التلطّف والشفقة والرحمة نفس هذا الميل وقد خفي هذا الفرق على بعضهم فحكم بأنّ هاتين الفقرتين متحدثتان في المعنى ولم يدرأن الرأفة ليست نفس الرحمة والقسوة ليست نفس الغضب و أنّ الأولى منهما بمنزلة السبب والثاني و أنّ الأصل عدم التكرار عند الجمع بينهما مثل : إنّ الله لرؤوفٌ رحيمٌ ، وإطلاقهما على الله سبحانه باعتبار الآثار وهي الطافه وإحسانه تعالى بمن أطاعه وإنكاره على من عصاه و سخطه عليه إعراضه عنه ومعاقبته له ، والغضب من المخلوقين قد يكون ممدوحاً ، وقد يكون مذموماً ، فالمحمود ما كان في جانب الدّين والحقّ ، والمذموم ما كان في خلافه ، وهذا هو المراد هنا و هو أيضاً حالة للقلب يثمر الجهل بما ذكر و تسويل النفس الامّارة والافراط في المؤاخذه و تزيينه ، وثمرتها الطغيان على الخلق باليد واللسان والتعدّي عليهم بالظلم والعدوان و من علاماته أحمرار الوجه والعين وانتفاخ العروق وسرّ ذلك أنّ القوّة الغضبيّة إذا تحرّك نحو الانتقام و اشتعلت نارها في الباطن يغلي به دم القلب كغلي الحميم

فينبعث منه الدخان ويرتفع إلى أعالي البدن كما يرتفع في القدر و يصب في الوجه والعين والعروق فيحمر الوجه والعين وينفخ العروق ، و يختل الدماغ الذي هو معدن الفكر في المحسوسات و ينطفي نور عقله كما ينطفي ضوء السراج في البيت باستيلاء الدخان عليه ، فيظلم بصره و بصيرته بحيث لا يرى شيئاً ويسود عليه الدنيا وما فيها ولا يميز بين الحق والباطل والحسن والقبح ، ولا يؤثر فيه وعظ و نصيحة ، بل قد يبلغ إلى حد يحرق جميع ما يقبل الاحتراق ويفنى الرطوبة التي بها بقاء الحياة فيموت صاحبه غيظاً وهذه الخصلة من أعظم الخصال الذميمة وإذا قال أمير المؤمنين عليه السلام : «أحذر الغضب فإنه جند عظيم من جنود إبليس (١)» وقال الباقر عليه السلام : «إن الرجل ليغضب فما يرضى أبداً حتى يدخل النار ، فأيما رجل غضب على قوم و هو قائم فليجلس من فوره ذلك فإنه سيذهب عنه رجز الشيطان، وأيما رجل غضب على ذي رحم فليدن منه فليمسّه فإن الرجل حم إذا مسّت سكنت (٢)» وقال الصادق عليه السلام : «الغضب مفتاح كل شر» (٣).

(والعلم و ضده الجهل) هما وصفان متقابلان و نعمتان متضادتان إن للعقل و الجهل اللذين كلاًهما في جنودهما لأنك قد عرفت أن المراد بالعقل إما القوة العاقلة أو النفس من حيث استعدادها لسلوك طريق الحق و كل واحدة منهما مبدء للعلوم، و بالجهل إما القوة الجاهلة أو النفس من حيث استعدادها لسلوك طريق الباطل و كل واحدة منهما مبدء للجهل المقابل للمعلم أعني عدمه ثم للعلم مراتب: الأول الاعتبار فاعتبروا يا أولي الأبصار و إليه أشار أمير المؤمنين عليه السلام بقوله «ومن اعتبر أبصر» الثاني النجلى والانكشاف التام، الثالث الإدراك مطلقاً، الرابع الإدراك المطابق لما في نفس الأمر، كالاكتفاء بالمعارف الإلهية والأحكام الشرعية و هذا القسم قد يجب على الجميع وقد يختلف باختلاف الأشخاص فالذي يجب على

(١) النهج في أبواب كتمته و رسائله تحت رقم ٦٩ في آخر كتاب له «دع» إلى

الحادث الهمداني رضي الله عنه .

(٢) و (٣) الكافي كتاب الإيمان والكفر باب الغضب تحت رقم ٣٠٢.

الجميع هو العلم بأن الله تعالى واحد حيٌ قديمٌ أزليٌّ إلى غير ذلك من أصول العقائد والعلم بالصلاة والصوم والوضوء والغسل و شرايطها و مفايدها إلى غير ذلك مما يشترك فيه جميع المتكلمين والذي يجب على البعض هو العلم بأحكام الحج و والزكاة للغني والعلم بأحكام العقود للتاجر، و كذا كل من عمل عملاً وجب عليه العلم بذلك العمل والعلم من حيث أنه علم و متعلق بالحق طريق واحد والجهل المقابل له طرق متعددة وإذا وقعت المحاربة بين العقل والجهل في ساحة القلوب و استظهر الجهل بهذا الجهل الذي من جنوده استظهر العقل بالعلم فيغلبه و يهزمه كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين .

(والفهم ضد الحمق) الفهم هنا بمعنى العقل كما قيل . أوصفة فاضلة للذهن وهي ملكة الانتقال من الملزومات إلى اللوازم بحيث لا يحتاج في ذلك إلى فضل مكث و تأمل كذا عرفه المحقق الطوسي وعدّه نوعاً من الفضائل مندرجاً تحت جنس الحكمة و إنما قلنا هنا لأن الفهم فيما سيأتي من قوله **فهم** هو الفهم ضد الغباوة بمعنى الفطنة وهي شدة الحدس وجودة الذهن وقوته المعدة لاكتساب العلوم أو بمعنى الذكاء، و هو نوع آخر من جنس الحكمة فوق النوع المذكور و عرفه المحقق بأنه ملكة حاصلة من كثرة مزاولة المقدمات المنتجة وممارستها موجبة لسرعة انتاج القضايا و سهولة استخراج النتائج على سبيل البرق الخاطف و منهم من لم يفرق بين الفهمين و ظن أنهما بمعنى واحد فحكم بأن إحدى الفقرتين كانت بدلاً عن الأخرى فجمع بينهما الناسخ غافلاً عن البدلية و منهم من جوز أن يكون الفهم هنا بالقاف دفعاً للتكرار من فهم بالقاف كفرح قل شهوته للطعام و أقهم في الشيء أغمض، و عنه كرهه، و عن الطعام لم يشتهه . وهذا الأخير نقله سيد الحكماء عن بعض و أم يصرح باسم القائل ثم قال : هذا أعجوبة التعاجيب فأين أنتم يا معشر المتعجبين . وإذا عرفت الفهم فقد عرفت الحمق بالمقابلة فهو إمّا ضد العقل على ما قيل أو بطؤ الانتقال من الملزومات إلى اللوازم و يسمى ذلك بالبلادة المفرطة و هو نوع من جنس رذيلة الجهل المقابلة لفضيلة الحكمة و منشأ ذلك

نقصان الذهن (١) وكسادة من انحمق الثوب إذا بلى وانحمت السوق إذا كسدت وانحمق القمر إذا زال نوره وقد عدّ الحماق أعظم الفقر وأكبره لكونه أشدّ بلاء وأكثر ابتلاء من الفقر المعروف بين الناس إذا لحق يفقد الدين والكمال الذي هو أشرف من المال والدليل عليه قول أمير المؤمنين عليه السلام: «وأكبر الفقر هو الحمق» ويعلم منه بحكم المقابلة إن أعظم الغنى الفهم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

(والعفة ضدّها الهتك) أمّا كان بقاء النوع والشخص مفتقرًا إلى التناكح والتناسل وتناول الغذاء والتلذّذ بها لمّا كل والمشارب لأن الحرارة الغريبة الخارجة والغريزية الداخلة أعدى عدو للطوبى والغريزية التي في طينة الإنسان فلا تزال تلك الحرارة تحلل الرطوبة وتجففها وتبخّرّها وتقضيها فلم يتصل بالرطوبة مدد من الغذاء جبر المأكل يتحلل لفسد المزاج و بطن التركيب في أسرع زمان، خلق الله سبحانه بمقتضى الحكمة البالغة قوة شهوية هي مبدئ الشوق إلى طلب الغذاء والالتذاذ بالمأكل والمشارب والمناكح، والناس في تلك القوة على ثلاث درجات لأن تلك القوة كما بيّنا آتقاً إن تحرّكت بالاعتدال واستقرت في الوسط مثل المر كزبان لا تتعدى عمّا أذن له العقل والشرع من الأغذية والأشربة ولا نكحة وغيرها بل طوعته فيما عدّاه (٢) حظاً ونصيباً لها واقتصر عليه وتركت هواها حصلت فضيلة العفة وهي جند عظيم من جنود العقل متقادة لحكمه تابعة لأمره ونهيه، وإن تحرّكت

(١) نقصان الذهن إذا كان فطرة لا يعاب صاحبه عليه إذ ليس اختيارياً فلا بد أن يحمل الحمق هنا على التحماق الاختياري وعدم التوجه والنظر والفهم والدقة كما ذم الله تعالى قوماً بالعفلة في قوله «يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون» وقال تعالى «لهم قلوب لا يفقهون بها» ويمكن أن يتكلف ويقال ليس المراد هنا الذم الذي يستتبع العتاب والعذاب بل التنقيص مطلقاً كما يفهم من قوله «فمثل كمثل الكلب إن عمل عليه يلهث أو تتركه يلهث» فإن الذم بالنسبة إلى الكلب لا يستلزم عقاباً كما يستلزم بالنسبة إلى المشبه به. (ش)

(٢) ضمير التثنية للعقل والشرع (ش).

نحو الإفراط و جاوزت عن حكم العقل و الشرع ، و ارتكبت من اللذات ما لم يأذن لها حصلت رذيلة الهتك و خرق الأستار و هي مسمّاة بالشره و الفجور أيضاً و معدودة من جند الجهل لانقياد حكمه و اتباع أمره و نهيّه و خروجه على سلطان العقل ، و إن تحرّكت نحو التفريط و أثرت ترك طلب اللذات الضرورية التي أذن لها العقل و الشرع و اختارت البليّة و المشقة التي تورث الهلاك حصلت رذيلة خمود الشهوة و هي أيضاً من أضداد العفة و إنما اقتصر على الهتك الذي هو في طرف الإفراط لأن رذالته أشهر و ضدّيته أظهر .

(والزهد و ضدّه الرّغبة) الزهد جعل القلب حياً بمشاهدة أحـ وال الآخرة و عدم الغفلة عنها و ميّناً عن طمع الدّنيا و زخارفها ، و بعبارة أخرى هو إعراض النفس عن الدّنيا و زهراتها و قطع الالتفات إلى ما سوى الله تعالى و بعبارة أقصر هو حذف موانع الالتفات إليه سبحانه و لا يتحقّق ذلك إلاّ بحذف الموانع الدّاخلية النفسية عن النفس مثل محبة غير الله تعالى و الميل إلى ما سواه و حذف الموانع الخارجيّة مثل متاع الدّنيا و زهراتها و إليه يشير قول بعض الأكابر الزّهد ثلاثة أحرف زاء و هاء و دالّ فالزّاء ترك الرّغبة ، و الهاء ترك الهوى ، و الدالّ ترك الدّنيا ، و ممّا يبعث على سلوك هذه الطريقة هو تلاوة القرآن الكريم و التدبّر في آياته فإنّها تثمر محبة الحقّ و التوجّه إلى الآخرة و تغسل عن لوح القلب درن الوسوس و خبث الرّذائل و رين الميل إلى الدّنيا ، ثمّ مطالعة أحوال الماضين و رفضهم ما كانوا عليه من الدّنيا و زخارفها و انقطاع أيديهم عنها و استقرارهم في القبور ، ثمّ التأمّل في أحوال الأنبياء و الأوصياء عليهم السلام مع كمال تمكّنهم من الاستمتاع من الدّنيا و تركهم لها طوعاً و رغبة في ثواب الله و مقام القرب منه و ذلك دليل على ذمّ الدّنيا و عيبها و كثرة مساوئها و فانظر إلى حال كليم الله موسى بن عمران عليه السلام (١) إذ يقول : ربّ إنّني لما

(١) ماخوذ من النهج ص ١٥٨ اولها دأمره قضاء ، و الدّنيا المذمومة هي أن يكون النّافية و

الغرض والشّيء المطلوب لذاته فانه اصل كل خطيئة و رأس كل معصية فان الانسان

أنزلت إلي من خير فقير، وما سأله إلا خبزاً يا كله لا، أنه كان يأكل بقلة الأرض حتى كانت خضرة البقل ترى من شفيف صفاق بطنه (١)، وإلى حال داود عليه السلام فإنه كان يعمل سفايف الخوص بيده ويقول لجلسائه أيتكم يكفيني بيعها ويا كن قرص الشعير من ثمنها، وإلى حال عيسى ابن مريم عليه السلام فإنه كان يتوسد الحجر ويلبس الخشن وكان إدامه الجوع، وسراحه بالليل القمر، وظلاله في الشتاء مشارق الأرض و مغاربها، وفا كهدما تنبت الأرض للبهائم، و أم تكن له زوجة تفتنه، ولولدي حزنه، ولأمال يلفته، ولا طمع يذله، دابته رجلاه، وخارمه يده، وإلى حال نبيك الأطيب الأطهر ﷺ فيه أسوة لمن تأسى وعزاء لمن تعزى وأحب الأعمال إلى الله تعالى التأسى به والاقتفاء لأثره فإنه قضم الدنيا قضمًا وأما يعرها طرفاً (٢) وأهضم أهل الدنيا كشحاً، وأخمصهم بطناً، وعرضت عليه الدنيا وخزائنها فأبى أن يقبلها، وقد كان عليه السلام يأكل على الأرض، ويجلس جلسة العبد، ويخسف بيده نعله، ويرقع بيده ثوبه، ويركب الحمار العاري ويردف خلفه، ويكون السمر على باب بعض زوجاته ويكون فيه النساوير فيقول: لها غيبية عنِّي فإنني

لا يرتكب معصية من المعاصي من أكبر كبائرها كالظلم والقتل إلى أصغر صغائرها إلا لان الدنيا مطلوبة عنده لذاته ولو عقل أن في الوجود عالماً آخر روحانياً باقياً ببقاء الله وأن الإنسان من ذلك العالم و يرجع إليه البنة وأن اللذة فيه أضعاف أضعاف الذات التي يحصل له ههنا وأن الآلام هناك أضعاف أشد الآلام كالنار الدنيوية لم ينظر إلى الدنيا وذخارفها ولم يلتفت إلى لذاتها ولا بأسف على فوات شيء منها ولا يرتكب معصية توجب لذة عاجلة فنية وآلاماً آجلة باقية (ش).

(١) شف الثوب أي رق، والصفاق الجلد الأسفل تحت الجلد الذي عليه الشعر، وقيل جلد البطن كله.

(٢) الطرف نظر العين أي لم يعطها نظرة على وجه العارية فكيف بان يجعلها مطمح نظره. والهضم محركة انضمام الجنبين وخمس البطن. وطوى عنه كشحاً أي أعرض عنه وقاطعه. والكشع: ما بين الخصرة إلى الضلع.

إذا نظرت إليه ذكرت الدنيا و زخارفها فأعرض عن الدنيا بقلبه ، وأما تذكرها من نفسه وأحب أن تغيب زينتها عن عينه لكي لا يتخذ منها ريشاً وتجملاً (١) ولا يعتقدها قراراً ولا يرجو فيها مقاماً ، فأخرجها عن النفس ، وأشخصها عن القلب و غيبها عن البصر و كذلك من أبغض شيئاً أبغض أن ينظر إليه و أن يذكر عنده ، وقد كان فيه ^{من الشبه} ما يدل على مساوي الدنيا و عيوبها إذ جاع فيها مع خاصته و زويت عنها زخارفها مع عظيم زلفته ، فانظر بنور عقلك أكرمه الله تعالى بذلك أم أهانه ، فإن قلت : أهانه فقد كذبت وأتيت بالافك العظيم ، و إن قلت : أكرمه فاعلم أنه تعالى قد أهان غيره حيث بسط الدنيا له و زواها عن أقرب الناس منه . و إلى حال وصي نبيك أمير المؤمنين ^{عليه السلام} فإنه قال : رقت مدرعتي هذه حتى استحييت من راقعها ولقد قال لي قائل : ألا تنبذها ؟ فقلت : أعزب عني فعند الصباح يحمد القوم السرى . قوله ^{عليه السلام} : « فعند الصباح - إلى آخره - » مثل يضرب محتمل المشقة ليصل إلى الراحة وأصله أن القوم يسرون بالليل فيحمدون عاقبة ذلك لقرب المنزل إذا أصبحوا و مطابقة الصباح لمفارقة النفس البدن أو لاعتراضها و اتصالها بالعالم الأعلى بسبب تلك الرياضة الكاملة و الزهد عن الدنيا و إشراق أنوار العالم العلوي عليها التي عندها يحمد عواقب الصبر على مكازة الدنيا وترك لذاتها و معاناة الزهد عنها مطابقة ظاهرة واقعة موقعها ، وقد روى أنه سئل ^{عليه السلام} لم رقت قميصك ؟ فقال : يخشع لها القلب و يقتدي بي المؤمنون (٢) و مما نقل في زهده ^{عليه السلام} ما رواه أحمد في مسنده (٣) عن أبي الثور بالكوفة قال : جاءني علي بن أبي طالب ^{عليه السلام} إلى السوق و معه غلام له و هو خليفة فاشترى مني قميصين و قال لغلामه اختر أيهما شئت فأخذ علي ^{عليه السلام} الآخر ثم لبسه و مد يده فوجد كمنه فاضلاً

(١) الرباش اللباس الفاخر.

(٢) النهج أبواب الحكم تحت رقم ١٠٣.

(٣) ما عثرت عليه في المسند لعنه رواه في الفضائل ورواه أبو نعيم في الحلية

و نقل عنه علي بن عيسى الاربلي في كشف الغمة أبواب زهده وورعه (ع).

فقال أقطع الفاضل فقطعته ثم كفه وذهب. وقريب من هذا موجود في روايات أصحابنا رضوان الله عليهم فتأس بهم و اقتف أثرهم و لج مولجهم لنأمن من الهلكة فان الله سبحانه جعلهم أعلاماً للعباد و اطلعهم على قبايح الدنيا و أحوال الآخرة. فاذا علمت معنى الرّ هـد فقس عليه الرّ غبة التي ضدّه وهي الرّ كون إلى الدنيا والميل إلى أسبابها المانعة من خلوص ذكر الله و مشاهدة أحوال الآخرة، و قال بعض العارفين الرّ غبة في الدنيا تجرّ إلى مساوي الأخلق و ارتكاب المنكرات الحاجة للمروءات إذا الغريق في بحر الدنيا فلما ينفك عن الكبر والفخر والخيلاء والظلم و سوء الخلق و استصغار النعم و كفرانها إلى غير ذلك من الصفات الرّ ذيلة المملّكة، و لو فرض خلوه عن جميع تلك الصفات و اتّصافه بجميع الصفات الحميدة كما يفرض المحال و الممتنع لكان في غاية الخطر من منزلة القدم في كلّ حركة و تصرف بخلاف أهل الكشف الذين اقتصروا من الدنيا على مقدار الضرورة والله ولي التوفيق .

(والرفق و ضدّه الخرق) قال سيّد الحكماء: الخرق بالخاء المعجمة و الفاف من حاشيتي الرأء بالتحريك مصدر الأخرق وهو ضدّ الرّفق، و قد خرق يخرق خرقاً والاسم الخرق بالضم. أقول: هذا هو المستفاد من الصحاح حيث قال الخرق بالتحريك الدّهش من الخوف أو الحياء والخرق أيضاً مصدر الأخرق وهو ضدّ الرفق وقد خرق بالكسر يخرق خرقاً والاسم الخرق وأمّا المستفاد من المغرب حيث قال: الخرق بالضم خلاف الرّفق ورجل أخرق أي أحمق وامرأة خرقاء، ومن النهاية الأثيريّة حيث قال: فيه -يعني في الحديث- الرّفق بمنّ والخرق شؤم الخرق بالضم الجهل والحمق وقد خرق يخرق خرقاً فهو أخرق والاسم الخرق بالضم أن ضدّ الرّفق هو الخرق بالضم. والمستفاد من القاموس جواز الأمرين أعني التحريك والضمّ فيه حيث قال: والخرق بالضمّ و بالتحريك ضدّ الرّفق و أن لا يحسن الرّ جلّ العمل والتصرف في الأمور. إذا عرفت هذا فنقول: الرفق اللين واللطّف والخرق العنف والعجلة والخشونة و ترك اللطّف، لأن هذه الأمور من آثار

الحمق والجهل ومن الرِّفق رفق الرَّجل بصديقه و عدوّه لأنّ ذلك يوجب ازدياد الصداقة و رفع العداوة و منه قوله رفقه لجلسائه بالمساواة بينهم في اللحظة والنظرة والإشارة والنحيبة والنكلم كيلا يورث العداوة بينهم و منه رفق الأمير برعيته لأنّه أدخل لجلب قلوبهم و انقيادهم لحكمه و إطاعتهم لأمره و نهيه كما قال أمير المؤمنين عليه السلام لبعض عمّاه له : « و اخفض للرعيّة جناحك و ألن لهم جانبك (١) » و في الخبر « انّ أفضل العباد عند الله منزلة يوم القيمة إمام عادل رفيق ، و إنّ شرّ الناس منزلة يوم القيمة إمام جائر خرق (٢) » و فيه « أنّ الرِّفق لا يوضع في شيء إلّا زانه ولا نزع من شيء إلّا شانه (٣) » ثمّ الرِّفق إنّما يكون من جنود العقل إذا علم أنّه أصلح و أصوب عن الخرق و إلّا فالرِّفق حينئذ خرق كما قال أمير المؤمنين عليه السلام « إذا كان الرِّفق خرقاً كان الخرق رفقاً (٤) » يعني إذا كان الرِّفق في أمر غير نافع فعليك بالخرق و هو العنف والعجلة وإذا كان الخرق غير نافع فعليك بالرِّفق ، والمراد به الحثّ على استعمال كلّ واحد منهما في موضعه كما هو شأن العاقل الحكيم فإنّ الرِّفق إذا استعمل في غير موضعه كان خرقاً والخرق إذا استعمل في غير موضعه كان رفقاً و قريب من هذا المعنى قوله عليه السلام « ربّما كان الداء دواءً والدواء داءً (٥) » وقوله عليه السلام « و ارفق ما كان الرفق أرفق (٦) » يعني أصلح و أصوب و اعتزم بالشدة حين لا يغني عنك يعني إلّا

(١) النهج أبواب الكتب من كتاب له «ع» الى محمد بن أبي بكر.

(٢) ما عثرت على لفظه نعم أخرج أحمد في مسنده ج ٣ ص ٢٢ و ٥٥ و الترمذي في سننه

ج ٦ ص ٧٠ من حديث أبي سعيد الخدري «ان احب الناس الى الله يوم القيامة و أدناهم منه مجلساً

امام عادل و أبغض الناس الى الله و أبعدهم منه مجلساً امام جائر».

(٣) أخرجه مسلم في الصحيح ج ٨ ص ٢٢ من حديث عائشة عن النبي (ص).

(٤) النهج من كتاب له (ع) الى ابنه الحسن (ع) تحت رقم ٣١٠.

(٦) النهج أبواب الكتب والرسائل تحت رقم ٤٦.

الشدة و قوله عليه السلام « ردوا الحجر من حيث جاء فإن الشر لا يدفعه إلا الشر » (١)
فقد رخص عليه السلام لمن أراد الغير بالضرب و الرمي و القتل أن يدافع به بمثل ذلك
إذا علم أن لا دفع إلا به فإن ذلك جائز حسن عقلاً و نقلاً فإن أدنى إلى هلاك
الظالم فلا شيء على الدافع إذا لم يتعد .

(والرهبة و ضدّها الجرأة) الرهبة وهي الخوف على ثلاثة أضرب خوف
من الحق و خوف من الخلق و خوف من النفس كل ذلك من ثمرة الحكمة و
العلم بالله و آياته و صفاته و مخاطرات النفس و تسويلاتها و محاسن أمور الدنيا
والآخرة و مقابحها و مضار أخلاق الخلائق و منافعها أمّا الخوف من الحق فيورث
القرب منه كما ورد في الخبر « إذا اقشعر جسد العبد من خشية الله تعالى تنحات
عنه ذنوبه كما تنحات من الشجرة ورقها (٢) » و من البيّن أن ذلك يوجب القرب
منه . و أمّا الخوف من الخلق فيورث البعد عنهم كما ورد في الخبر « خالط الناس
تخبرهم و متى تخبرهم تقلهم » و من البيّن أن من يخاف لصاً أو سباعاً يفر منه ،
و أمّا الخوف من النفس فيورث تهذيبها لأن العبد إذا خاف منها يحارستها في جميع
حرركاتها و سكناتها فيدفع عنها سنان مكرها و سيف مخادعتها ، و ذلك يوجب
تهذيب الظاهر و الباطن ، و من ثم قال بعض أهل العرفان : الخوف نار تحرق
الرساوس و الهوا جس في القلب و الظاهر المتبادر هنا هو الخوف من الله تعالى و هو قد يكون
لأمور مكرهة لذاتها و قد يكون لأمور مكرهة لإدائها إلى ما هو مكره لذاته ، و الثاني
له أقسام كثيرة كخوف الموت قبل التوبة أو خوف نقض التوبة أو خوف عدم قبولها ، أو
خوف الانحراف عن الفضل في عبادة الله تعالى أو خوف ابتلاء القوة الغضبية أو القوة
الشهوية بحسب مجرى العادة في ارتكاب الانتقام و استعمال الشهوات المألوفة أو خوف
سوء الخاتمة أو خوف الشقاوة في العلم الأزلي و أعلى هذه الأقسام بحسب الرتبة عند

(١) النهج أبواب الحكم و المواعظ تحت رقم ٣١٤ .

(٢) أخرجه الطبراني من حديث العباس بن عبد المطلب بسند ضعيف كما في

الجامع الصغير .

الخائفين خوف الخاتمة فإن الأمر فيها خطير بل أعلاها وأدناها على كمال المعرفة خوف الشقاوة السابقة في العلم الأزلي لكون الخاتمة تابعة لها ومظهرة لما سبق في الألواح المحفوظة وقد مثل من له خوف السابقة ومن له خوف الخاتمة برجلين وقع لهما ملك بتوقيع يحتمل أن يكون لهما فيه عناء أو هلاك فيتملّق قلب أحدهما بحال نشر التوقيع وما يظهر فيه من خير أو شر ويتعلق قلب الآخر بما حضر للملك حال التوقيع وما ظهر له من رحمة أو غضب وهذا التفات إلى السبب فكسان أولى وأعلى فكذلك الالتفات إلى القضاء الأزلي الذي جرى بتوقيعه القلم الأزلي في الألواح المحفوظة أعلى من الالتفات إلى الأبد وإليه يشير ما في الحديث «السعيد سعيد في بطن أمه والشقي شقي في بطن أمه» (١) ومن طرق العامة «السعيد من سعد بقضاء الله والشقي من شقي بقضاء الله» (٢) وكذا للاول أقسام كثيرة كالخوف من سكرات الموت وشدايده أو من سؤال منكر ونكير أو من عذاب القبر أو من أهوال الموقف بين يدي الله عز وجل أو من كشف الستار أو من السؤال عن النقيير والقطمير أو من الصراط وحدته وكيفية العبور عليه أو من النار وأغلالها وسلاسلها أو من حرمان الجنة أو من نقصان الدرجات فيها أو من الحجاب من الله سبحانه ، وكل هذه الأمور مكروهة لذاتها ويختلف حال السالكين إلى الله فيها وأعلاها رتبة هو الأخير أعني خوف الفراق والحجاب وهو خوف العارفين الماظرين لأنوار عظمتهم وجلالهم ، الغائمين في بحار لطفه وفضله وكماله ، الذين أضاعوا ساحتهم بقلوبهم بمصباح الهداية الرثائية وأشرقت مرآة ضمائرهم بأنوار المعارف الإلهية كما قال الله سبحانه «إنما يخشى الله من عباده العلماء» وأما ما قبله فهو خوف العابدين والصالحين والزاهدين ومن لم يكمل معرفته بعد وإذا عرفت الخوف ودرجاته ففس عليه ضد وهو الجرأة ودرجاتها لأن ضد كل درجة من الخوف درجة من الجرأة

(١) رواه الصدوق في كتاب التوحيد .

(٢) ويجب أن يكون ذلك بحيث لا يوجب الجبر فإن ذلك يوجب اليأس والياس يجرى ،

على المعصية (ش) والخبر رواه الطبراني في مسنده الصغير بسند صحيح عن أبي هريرة .

والأول من أعوان العقل وجنوده، والثاني من أعوان الجهل وجنوده فاذا وقع المطاردة بينهما في ساحة القلوب وميدان الأبدان واستظهر الجهل بالجرأة استظهر العقل بالخوف فيغلبه و يهزمه باذن الله تعالى ألا إن حزب الله هم الغالبون . لا يقال : المعروف في مقابل الرهبة اعني الخوف هو الرجا، دون الجرأة لأن الرجا ليس ضداً حقيقياً للخوف ولا الخوف ضداً حقيقياً للرجا، لأنهما قد يجتمعان في قلب المؤمن بل افتراق أحدهما عن الآخر مذموم واجتماعهما ممدوح كما يدل عليه قوله تعالى في وصف العابدين «ويدعوننا رغباً ورهباً» وإنما الضد الحقيقي للرغبة هو الجرأة وال ضد الحقيقي للرجا هو القنوط كما مر لعدم إمكان اجتماعهما في قلب واحد .

(والنواضع وضده الكبر) من أعظم جنود العقل ومكارم الأخلاق الانسانية

و محاسن الأوصاف النفسانية التي يرتقي بها الانسان إلى أعلى مدارج القرب والكمال ويصعد إلى أقصى معارج العز والجلال التواضع لله ولعباده المؤمنين كما أن من أفاخم جنود الجهل ومساوي الأخلاق ومذام الأوصاف التي يبعد بها الانسان عن قرب رب العالمين ولا ينتهي قهقراه إلا إلى أسفل السافلين التكبر على الله وعلى عباده المسلمين ولكل واحد من المتواضع والمتكبر وتعز زوتدائل والتعز ز للمتواضع من عند الله تعالى والتدليل من عند نفسه، وللمتكبر بالعكس. ولا بد هنا من التكلّم أولاً في حقيقتهما و ثانياً فيما هو سبب لحصول تلك الحقيقة، وثالثاً فيما يلزمها ورابعاً في المدايح والمذام الواردة فيهما أمّا حقيقة التواضع فهي هيئة نفسانية تحصل من تصوّر الإنسان نفسه أدل من غيره وأخس رتبة منه ، ثمّ الاذعان به إذعائاً جازماً لا يشوبه شيء من الشكوك والأوهام ، و أمّا أسبابه فهي معرفة عظمة الله و جلاله و كبريائه و قهره و غلبته على جميع الممكنات و معرفة نفسه و شدة احتياجه و كمال افتقاره إليه في جميع الأحوال و يكفي في حصول تلك المعرفة التأمل في قوله تعالى : « ولقد خلقنا الانسان من سالة من طين ثمّ جعلناه نطفة في قرار مكين ، ثمّ خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا

المضغة عظماً ، فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين ، ثم انكم بعد ذلك لميِّتُونَ ثم إنَّكم يوم القيمة تبعثُونَ ، ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق وما كنا عن الخلق غافلين ، فأنه إذا تفكَّر فيه علم أنَّه كان في الأصل عدماً صرفاً ولم يكن له في الوجود خبرٌ ولا في العين أثرٌ ولم يكن شيئاً مذكوراً ، ثم خلقه الله سبحانه من أكثف الأشياء وهو التراب ثم من أخبثها وهو النطفة كما كان في الكتاب مسطوراً ، ثم بدَّلَه من حال إلى حال ، ومن طور إلى طور ، ومن نشأة إلى نشأة حتَّى جعله ذا صورة محصَّلة وقوَّة ناطقة وروح باصرة وآلات سامعة ولامسة إلى غير ذلك ممَّا له دخل في استكمال تلك الصورة ثم نقله من رحم الأم إلى رحم الدنيا وربَّاه صغيراً وكبيراً وجعله سقيماً وصحيحاً وغنياً وفقيراً وقويّاً وضعيفاً إلى غير ذلك من الأحوال المتبادلة والصفات المتضادَّة التي هي خارجة عن قدرة البشر ، ثم يميتُه ويقبِّره ويصيرُه جيفةً منتنةً ، يهرب منه الحيوان ، و ينفصر منه أوثق الإخوان ، فتبلى أعضاؤه و تنفرك أجزاءه حتَّى يصير تراباً كما كان أوَّل امره ثم إذا شاء أنشره فيقوم من مرقدِه ناظراً إلى أحوال موحشة وأرض مبدَّلة و نجوم منكدره و شمس منكسفة و جبال سايرة و كتب طائيرة و صراط و ميزان و حساب و ملائكة غلاظ شداد إلى غير ذلك من أحوال القيمة و عقباتها و عقوباتها التي يطير من هو لها قلوب العارفين و إذا عرف هذه الأمور حق المعرفة علم أنَّه لا يملك لنفسه نقعاً ولا ضراً ولا موتاً ولا حيوةً ولا نشوراً و أنَّه مضطرٌّ ذليلٌ عبدٌ مملوكٌ لا يقدر على شيء ، و أنَّه متلبسٌ بالعجز والانكسار و متَّصفٌ بالمسكنة والافتقار و أنَّه بعيدٌ عن الاتِّصاف بالبطر والكبرياء والفخر والخيلاء لعلمه بأنَّ الكبرياء لا يليق إلاَّ بذاته تعالى لأنَّ الكبرياء تابع لكمال الذات و كمال صفاتها و أفعالها و جميع ذلك حاصل له تعالى أمَّا الأوَّل فلا نَّ كمال الذات عبارة عن كمال وجودها و وجوده تعالى أتمُّ الوجودات و أشرفها لاقتضاء الذات إياه و أمَّا الثاني فلأنَّ جميع صفاته حاصلة له بالفعل بحيث لا يكون له وصف منتظر أزلاً وأبداً ، و أمَّا الثالث فلا نَّه يصدر عنه تعالى وجود

كل موجود عداه بالمشقة ولا حر كة ولا آلة فاذن علم أن المستحق للعظمة والكبرياء ليس إلا هو وهذا معنى التواضع وحقيقته وأما لوازمها فهي كثيرة جداً لأن تلك الحقيقة إذ انبعث من القلب و جرى في جداول الأعضاء والجوارح رشحاتها تنبت منها أنواع أشجار الفضائل منها العبادات القلبية والبدنية كالذكر والصوم والصلوة ونحوها ومنها مجالسة الفقراء و محبتهم و مؤاكلتهم و تقديمهم في الطرق والمجالس ومنها لين القول و حسن المعاشرة والرفق بذوي الحاجات ، و منها الشكر عند حدوث النعمة و دفع النقمة، و منها الابتداء بالسلام وترك المراء .

و أما المدايح الواردة فيه فهي كثيرة في القرآن والسنة كقوله تعالى لسيد المرسلين و أشرف الأولين والآخرين: « و اخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين » و قوله تعالى: « تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين » وقول النبي ﷺ : « إن التواضع يزيد صاحبه رفعة فتواضعوا يرفعكم الله (١) » وأما حقيقة الكبر فهي هيئة نفسانية تنشأ من تصوّر الانسان نفسه أكمل من غيره وأعلى رتبة منه ، و تلك الهيئة تعود إلى ما يحصل للنفس من ذلك تصوّر ، من النخ والهنّة والتعزّز والتعظيم والرّكون إلى ما يتصوره من كمالها و شرفها على الغير و لذلك قال رسول الله ﷺ : « أعوذ بك من نفخة الكبر (٢) » وهي رذيلة تحت الفجور تقابل التواضع و إن تصوّر الانسان فضيلته على الغير مع قطع النظر عن قياس نفسه إلى متكبر عليه و عن إضافة تلك الفضيلة إلى الله تعالى باعتبار أنها منه و لم يكن خائفاً من زوالها بل كان

(١) الكافي كتاب الايمان والكفر باب التواضع تحت رقم ١.

(٢) ما عثرت على اصل له الاعلى ما اخرجه ابن ماجه في كتاب (اقامة الصلاة باب الاستعاذة في الصلاة) رقم ٨٠٧ في حديث : « اللهم اني أعوذ بك من الشيطان الرجيم من همزه و نفخه و نفثه » و قال عمرو : همزه الموتة ؛ و نفثه الشعر ، و نفخه الكبر ، انتهى ، والموتة نوع من الجنون والصرع يمتري الانسان ، فاذا أفاق عاد اليه كمال العقل كالسكران .

ساكناً إليها مطمئناً فذلك هو العجب فاذن العجب هيئة نفسانية تنشؤ عن تصوّر الانسان فضله و استقطاعه عن المنعم به والرُّكون إليه والفرح به مع الغفلة عن قياس نفسه إلى الغير بكونه أفضل منه ، و بهذا القيد يمتاز عن الكبر إذ لا بدّ في الكبر إن يرى الانسان لنفسه مرتبة و للغير مرتبة ثم يرى مرتبته فوق مرتبة غيره و إن تصوّر فضيلته على الغير و أضافها إلى الله سبحانه باعتبار أنها منه فهو نوعٌ من الحمد كما يدلّ عليه قوله تعالى « ولقد آتينا داود و سليمان علماً » و قالوا الحمد لله الذي فضّلنا على كثير من عباده المؤمنين « و أمّا أسباب الكبر فهي أضداد أسباب التواضع أعني عدم العلم بعظمة الله تعالى و جلاله و كبريائه وقهره على جميع الممكنات ، و عدم معرفة نفسه و شدة احتياجه و افتقاره إليه سبحانه في جميع الأحوال ، و لست أعني بعدم العلم بهذه الأمور عدم تصوّرها و الغفلة عنها بالمرّة فإن كثيراً من الجبابرة والمتكبرين ينسبون أنفسهم إلى العلم بها ، بل أعني عدم استقراره وتمكّنه في قلوبهم و عدم لصوقه بها كعدم لصوق الماء بريش الأوز والبط . و أمّا لوازمه و آفاته و ثمراته من الأعمال و التروك فهي أيضاً كثيرة جداً فإنّ هذا الخلق الأجاج اذا نبع في القلب و جرى في الأعضاء والجوارح ينبت منها أعمال رديّة و تروكٌ مردية . أمّا الأعمال فمنها باطنة كتحقير الغير و ازدرائه و اعتقاده أنّه لا يصلح للمجالسة والمجانسة والمؤانسة والمؤاكلة واعتقاده أنّه ينبغي أن يكون هائلاً بين يديه أو ماشياً من خلقه إلى غير ذلك من العقائد الفاسدة الموجبة لاستخفاف الغير ، ومنها ظاهرة كالنقدّم عليه في الطرق والارتفاع عليه في المجالس و إبعاده عن مجالسته وزجره عن مؤاكلته والعنف عن ردّ قوله والغلظة على المتعلّمين و ذوي الحاجات و إذلالهم و غيبتهم والنطاول عليهم في القول ، و أمّا التروك فكترك النواضع و ترك معاشرة الفقراء و ترك الرُّفق بالناس ونحوها و أمّا المذامّ الواردة فيه فهي أيضاً كثيرة من القرآن والسنة كقوله تعالى : « يطبع الله على كلّ قلب متكبّر جبار » و قوله ﷺ « يقول الله عز وجل الكبرياء ردائي

والعظمة إزاري فمن ناز عني في واحد منهما ألقينه في جهنم (١) ، وقول الباقر والصادق عليهما السلام لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من كبر (٢) ، قيل وإنما صار الكبر حجاباً من دخول الجنة لأنه يحول بين العبد والفضائل العني هي أبواب الجنة إذ الكبر يغلق تلك الأبواب كلها فلا يقدر العبد ومعه شيء من الكبر أن يحب للمؤمن ما يحب لنفسه ولا يتمكن من ترك الرذائل التي توجب الدخول في النار وفعل أضرارها من الفضائل كالنواضع وكظم الغيظ وحب الفقراء والمساكين وحب معاشرتهم ومجالستهم وقبول الحق والرّفق وبالعجالة ما من خلق ذميم إلا وصاحب العز والكبر مضطرب إليه ليحفظ به عزه وعظمته وما من خلق فاضل إلا وهو عاجز عنه خوفاً عن أن يفوته عزه وعظمته لأن الأخلاق الذميمة علة مسرية (٣) يستلزم بعضها بعضاً فلذلك لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من كبر .

(والتؤدة و ضد التسرع) التؤدة بضم التاء و فتح الهمزة و سكونها الرزاة والتأني والتثبت في الأمر وقد اتأد فيه و يؤد أي يتأنى و يتثبت وهو افتعل و يفعل والتأد في اتأد بدل من الواو والتؤدة صفة تابعة للسكون والحلم اللذين هما من أنواع

(١) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٤١٧٤ ، ورواه صاحب الكافي كتاب الايمان والكفر

تحت رقم ٣ و ٤ باختلاف في اللفظ من حديث ابي جعفر (ع) .

(٢) الكافي باب الكبر تحت رقم ٥ ، ورواه مسلم من حديث عبدالله بن مسعود

ج ١ ص ٦٥ .

(٣) معنى علة سارية كالوباء أو مسرية لغيرها كالسل يستلزم الحمى ، فان قيل بعض

أهل التكبر و طالبى الجاه والعزة يتكلمون فضائل ليحسن سمعتهم فيتواضعون ويبدلون الاموال و يرفقون بالناس و يتظاهرون بأكثر الفضائل كمعوية . قلنا انما الاعمال بالنيات والذي يبذل المال لحفظ الجاه لا يضع احسانه موضع الاحسان بل يبذل للشعراء والفساق حتى يمدحوهم بما ليس فيهم ولمن يروج امرهم و يصفهم فى المجالس بالصفات الحسنة كالعلم والتقوى و يمنعون من لا يتقرب اليهم و ان كانوا أحوج و احق و ليس هذا البذل من الفضائل المأمور بها فى الشرع و كذلك النواضع و التحاليم و غيرها (ش) .

الاعتدال في القوة الغضبية فإن حصولها يتوقف عليهما أمّا على السكون فلاّ نه عبارة عن ثقل النفس و عدم خفتها في الخصومات و أمّا على الحلم فلاّ نه عبارة عن الطمأنينة الحاصلة للنفس باعتبار ثقلها و عدم خفتها بحيث لا يحرّكها الغضب بسرعة و سهولة و إذا حصلت للنفس هاتان الصفتان أمكن لها التثبت والتأني و عدم العجلة في البطش والضرب والشتم إلى غير ذلك من أنحاء المؤاخذة و ضدّ التؤدة التسرّع بالسین المهمة في النسخ التي رأيناها ، و قال سيد الحكماء عضدّها التترّع بتأين مثناتين من فوق و تشديد الرؤا قال في الصّحاح : تترّع إليه بالشرّ أي تسرّع و هو رجل ترع أي سريع إلى الشرّ والغضب انتهى والتسرّع يعني العجلة في الأمور و عدم التأني في الأخذ من فروع النهو الذي في جانب الإفراط من القوة الغضبية ومنشؤه الجهل بحسن السياسة و خفة النفس المقتضية لحرّكتها واضطرابها بأدنى سبب.

(و الحلم و ضدّه السفه) الحلم هيئة حاصلة للنفس من اعتدال القوة الغضبية المستمارة بالنفس السبعية التي من شأنها الاقدام على الأهوال وشوق التسلط والنرفّع والغلبة على الأقران ، و اعتدال تلك القوة إنّما يحصل بانقيادها للعقل فيما عدّه حظاً و نصيباً لها ، و عدم تجاوزها عن حكمه ، و يعتبر في حصول تلك الهيئة عدم انفعال النفس عن الواردات المكروهة المؤذية هذا في حقّ الانسان أمّا في حقّ الله سبحانه فالجلم عبارة عن عدم انفعاله عن مخالفة عبيده لأوامره و نواهيّه و عدم استفزاز الغضب له عند مشاهدة المنكرات ، و عدم حمل قدرته الكاملة له على المسارعة إلى الانتقام والفرق بينه تعالى و بين العبد في هذا الوصف إن سلب الانفعال عنه تعالى سلب مطلق و سلبه عن العبد سلب عمّا من شأنه أن يكون له ذلك الانفعال و يكون عدم الانفعال عنه تعالى أتمّ و أبلغ من عدمه عن العبد و بذات الاعتبار يكون حلمه أعظم، ثمّ للجلم آثار غير محصورة منها كبر النفس و يعرف ذلك بتحملها للأمر الغير الملايمة لها، و منها نجدتها و يعرف ذلك بعدم صدور حرّكات غير منظمة منها ، و منها علوّ هممتها و يعرف ذلك بعدم جزعها عند الأمور الهائلة حتّى لا يبالى من أهوال الموت و شدايده، و منها سكونها

و يعرف ذلك بعدم طيشها في المؤاخذة ، ومنها تواضعها و يعرف ذلك بالتخضع و التذلل للغير و عدم إظهار مزيّتها عليه ، ومنها حميتها و يعرف ذلك بعدم تهاونها في محافظة ما يجب حفظه شرعاً و عقلاً ، و منها رقتها و يعرف ذلك بظهور تألمها عند تألم أحد من المؤمنين و كذاله منافع غير معدودة في الدنيا والآخرة أمّا في الآخرة فيكفي في الدلالة ما روي « أن الرجل ليذكر بالحلم درجة الصائم القائم (١) ، و أمّا في الدنيا فيكفي قول أمير المؤمنين عليه السلام « الحلم عشرة (٢) » يعني أن الرجل كما يتمتع بالعشرة يتمتع بالحلم و يتوقّر لأجله ، و من ثم قيل الحلم اكتساب المدح من الملوك و الشناء من المملوك ، و السفه الذي ضده ، و طرف الافراط من القوة المذكورة عبارة عن خفة النفس و حركتها إلى ما لا يليق من الأمور التي يقضيها طغيان تلك القوة مثل الضرب و القتل و الشتم و البطش و الترفع و التسلّط و الغابة و الظلم و مفاسده كثيرة وقد يطلق السفه على الجهل و سخافة رأي و نقصان عقل منه قوله تعالى حكاية عن الكفار « أنؤمن كما آمن السفهاء » و هذا المعنى ليس بمراد هنا لأنّه ضدّ العلم و الحكمة النابعين لحركة القوة الناطقة بالاعتدال في العلوم و المعارف .

(و الصمت و ضده الهذر) صمت صمتاً و صموتاً و صماتاً أطل السكوت ، و منه الصامت خلاف الناطق . و هذر في نطقه يهذر هذراً و الاسم الهذر بالتحريك و هو الهذيان ، و الهذر من خواصّ الجاهلين و أفعال الناقصين كما أن الصمت عمّا يضرّ و مالا يهيمّ من خصال المرسلين و آداب العاقلين و أخلاق الكاملين و منافعه كثيرة جداً فأنّه يورث القلب فكراً في المعارف العقلية و النقلية و يزيّنه بالحكمة النظرية و العملية لأنّ الصمت دليل التفكير و قائد الحكمة و يورث السلامة عن الآفات و المعاصي لأنّ آفات الكلام و معاصي اللسان كثيرة ، فعن معاذ بن جبل قال : قلت : يا رسول الله أتؤاخذ بما نقول؟ فقال : تكلتك أمّك و هل يكبّ الناس

(١) رواه ابن حبان في كتاب الثواب . (٢) النهج أبواب الحكم تحت رقم ٤١٨ .

على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم (١)» و يورث الهيبة لصاحبه فان من رآه يخيل إليه أن له شأناً فيهيّب منه ويوقره بخلاف النطق بما لا يعني فأنه يهين مكارم العاقل و يبدي مساوي الجاهل ويصغّرهما في أعين الناس كما قال أمير المؤمنين عليه السلام : «بكثرة الصمت تكون الهيبة (٢)» وقال المرء مخبوء تحت لسانه (٣)» يعني أن الرجل إذا تكلم يظهر كونه فصيحاً أو معجباً ، عالماً أو جاهلاً ، خيراً أو شراً ، وإن لم ينطق كان جميع ذلك مستوراً عليه عند العامة ثم المظاهر أن السكوت عملاً يشعر بفساد الرأي وقبح العقائد من شعب الاعتدال في القوة الفكرية وعملاً يشعر بالهتك والترفع والغلبة والذم في أعراض الناس من شعب الاعتدال في القوة الغضبية وعملاً يشعر بالميل إلى المستلذات والمشتهيات من شعب الاعتدال في القوة الشهوية والهنر المتقابل له من شعب الانحراف في هذه القوى.

(والاستسلام و ضده الاستكبار) الظاهر أن الاستسلام و هو الطاعة و الانقياد على سبيل المبالغة في متابعة الحق من فروع الحكمة الواقعة في حاق الوسط من القوة الناطقة ، و يحتمل أن يكون من فروع العدالة الحاصلة من توسط هذه القوة والقوة الغضبية والشهوية جميعاً لأن الاستسلام كما يكون في مقتضى القوة الناطقة كذلك يكون في مقتضى هاتين القوتين ، والاستكبار وهو النمرّد عن الحق وترك الطاعة والانقياد له من فروع الجهل المقابل للحكمة أو من فروع الجور المقابل للعدالة ، والفرق بينه وبين الكبر أن الكبر كما ذكرناه هيئة نفسانية

(١) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٣٩٧٣ في حديث طويل من حديث معاذ و قوله

(ص) « يكب » من كبه ، اذا صرعه . « حصائد ألسنتهم » اي محصوداتهم ، على تشبيه ما يتكلم به الانسان بالزروع المحصود بالمنجل فكما ان المنجل يقطع من غير تمييز بين رطب و يابس وجيد و ردي كذلك المكثار في الكلام بكل فن من الكلام من غير تمييز بين ما يحسن و ما يقيج .

(٢) النهج أبواب الحكم تحت رقم ٢٢٤ .

(٣) النهج أبواب الحكم تحت رقم ١٤٧ .

ناشئة من تصور الانسان نفسه أكمل و أشرف من غيره، والاستكبار عبارة عن إظهار تلك الهيئة فهو كبر مع زيادة كما يدل عليه زيادة البناء .

(والتسليم و ضد الشك) التسليم بذل الرضا بقبول قول الله تعالى و فعله و قول الرسول و أوصيائه و أفعالهم عليهم السلام و تلقيها بالبشر و طلاقة الوجه وإن لم يكن موافقاً للطبع و لم يعلم وجه المصلحة و هو من فروغ العدالة و علامة الإيمان قال الصادق عليه السلام: لو أن قوماً عبدوا الله وحده لا شريك له و أقاموا الصلاة و آتوا الزكاة و حجوا البيت و صاموا شهر رمضان . ثم قالوا لشيء صنع الله أو صنع رسول الله صلى الله عليه وآله الأصنع خلاف الذي صنع أو وجدوا ذلك في قلوبهم لكانوا بذلك مشركين (١) ثم تلا هذه الآية: فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً (٢) والشك هو عدم قبول ما ذكر و سمائه شكاً لأنه من آثار الشك في الله وصفاته و في الرسول و أوصيائه و أقوالهم و أفعالهم ، وقيل : المراد بالتسليم هنا الإذعان والتصديق

(١) فإن من يعتقد عصمة الرسول (ص) من الخطأ والغلط لا يشك في صحة أفعاله

و أقواله ولا يرجح فعلاً آخر على فعله ولا قولاً على قوله و اما ان لم يعتقد عصمته عن الخطأ فلا يبعد ان يرجح فعل غيره على فعله ، وانكار العصمة مساوق لانكار النبوة و انكار النبوة شعبة من الشرك . فإن قيل فكيف عبدوا الله و أقاموا الصلوة و آتوا الزكاة مع عدم اعتقادهم عصمة الرسول (ص) عن الخطأ في فهم الوحي و تبليغه و الالتزام بان النبي لا يخطئ في شيء و يخطئ في آخر بشيع فظيع قلنا بعض الناس لغلبة الاوهام على عقولهم يعتقدون شيئاً و ينكرون لوازمه بل ينكرون عين ذلك الشيء اذا اتى به بنفط آخر كما قيل لبعض الخلفاء: يموت جميع اقربائك فساءه . فقيل عمرك اطول منهم فسره . و يقال لاهل الظاهر: سمع الله وبصره بمعنى علمه بالبصيرات والمسموعات كعلمه بالمذوقات والمشمومات فيقبلون و يستحسنون و ان قيل لهم لا علم له تعالى بالجزئيات الا بوجه كلي فيستنكرون و كلاهما بمعنى واحد و كلاهما غير صحيح (ش).

(٤) الكافي كتاب الايمان والكفر باب الشرك تحت رقم ٦.

القلبي و فيه أن التسليم بهذا المعنى هو العلم وقد مر ذكره سابقاً وعلى ما ذكرنا لا قصور فيه أصلاً لأن هنا ثلاثة أشياء مترتبة الأول العلم بصدق قول الله و قول الرسول ، الثاني ما ينشئ من هذا العلم و هو الرضا بقولهما ، الثالث ما ينشئ من الرضا وهو قبول قولهما .

(والصبر و ضده الجزع) الإنسان مادام في هذه النشأة كان مورداً للمصائب والآفات ومحلاً للنوائب والعاهات ومكلفاً بفعل الطاعات وترك المنهيات والمشتبهات وكل ذلك ثقل على النفس بشع في مذاقها وهي تنفر منه نفاراً و تتباعد منه فراراً فلا بد من أن يكون فيه قوة ثابتة و ملكة راسخة بها يقدر على حبس النفس على هذه الأمور الشاقة والوقوف معها بحسن الأدب وعدم الاعتراض على المقدّر بإظهار الشكوى و تلك القوة أو ما يترتب عليها أعني حبس النفس على تلك الأمور و مقاومتها لهواها هي المسمّاة بالصبر و هو نوع من أنواع العفة و باب من أبواب الجنة و مقام عال من مقامات السالك إلى الله تعالى ، و بناؤه على أربع قواعد الشوق والاشفاق والزهد والترقب للموت فمن اشتاق إلى الجنة سلا عن الشهوات وطيب نفسه عن ترك جميع المشتبهات ، ومن أشفق من النار اجتنب المحرمات ، و من زهد في الدنيا استخف بالمصيبات ، ومن ارتقب الموت سارع في الخيرات ، والآيات والروايات الواردة في مدحه كثيرة جداً و يكفي في معرفة علو قدره قوله تعالى «والله مع الصابرين» و قوله تعالى «إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب» والجزع و هو حمل النفس على الشكاية وفعل ما يدل على عدم رضاها بصنع الله تعالى و هو نقيض الصبر ، وجند الجهل ومنشؤه عمى البصيرة و تكدر السريرة فيتوهم عند نزول البلاء أن الجزع والاضطراب ينفعه فيتمسك به و يتمسك العقل حينئذ بالصبر و يقع بينهما قتال و جدال و معركة هذا القتال قلب العبد و ساحته الجوارح ، و الله يؤيد بنصره من يشاء و هو على كل شيء قدير .

(والصفح و ضده الانتقام) صفح فلان عن فلان إذا أعرض عن ذنبه و غفى

عن عقوبته وحقيقته أولاً صفحة وجهه وهو من فروع الحلم وشعب الاعتدال في القوة الغضبية وهو من صفات الأنبياء والأوصياء ومناقب الحكماء والعقلاء ومفاخر العلماء والكرماء إذاً الحكيم يتغافل ويتدبر والعاقل يتسامح ويتفكر : والكريم يغفر إذا قدر وقد وقع الترغيب فيه في مواضع عديدة من القرآن والسنة قال الله تعالى : « والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين » وقال النبي ﷺ : « من كظم غيظاً وهو يقدر على إنفاذه ملأ الله قلبه أمناً وإيماناً (١) » وفوائده غير محصورة منها أنه يوجب زيادة الأنصار والأعوان ، ومنها أنه يوجب الذكر الجميل بين الإخوان والصيت الحسن في غابر الزمان كما قيل :

فغفوك في الأيام كالمسك فايع ۞ وصفحك في الإسلام كالنجم زاهر

والانتقام وهو المعاقبة بالذنوب والمآثم والمواخذة بالزلل والجرائم من فروع التهور وشعب الانحراف في القوة المذكورة ومن خصايل الجهلاء وذائل السفهاء ومنشؤه عدم سكون النفس وثباتها ، فإن تلك القوة تحرر كها حينئذ بسهولة إلى الشغب وإرادة الانتقام ويحدث بحر كتهما حرارة في القلب فيثور دمه ويغلي وينتشر إلى الجوارح فتتحرر هذه الجوارح بعضها إلى الشتم وبعضها إلى الضرب وبعضها إلى غير ذلك من أنحاء المؤاخذة ، ومضاره غير معدودة لأنه ينجر إلى استمرار العداوة وغلظتها واستيناف الخصومة وشدتها ، وقد يؤدي إلى الظلم والعدوان ويبعث على الجور والطغيان لتجاوزه عن القدر الجائز ولذلك كان الصفح أحسن من الانتقام هذا إذا علم أن الصفح لا يضره ولا يؤدي إلى جرأة الخصم وإلا فالانتقام بالقدر الجائز أحسن وعلى هذا يحمل قول أمير المؤمنين (عليه السلام) والشر يدفعه الشر (٢) وقوله : رد والحجر من حيث جاء (٣).

(والفنى و ضدّه الفقر) في القاموس الغنى كإلى ضدّ الفقر وإذا فتح مدّ

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في ذم الغضب من حديث ابن عمر عنه (ص) و فنى

الكافي كتاب الإيمان الكفر باب كظم الغيظ من حديث أبي عبد الله الصادق (ع).

(٢) و (٣) تقدما سابقا .

والاسم الغنية بالضم والكسر والغنوة والغنيان مضمومتين، والغناء ككساع من الصوت ما طرب به وكسما، رمل، وهذه الفقرة يحتمل وجوها الأول الغنى والفقر الأخر وبيان وهو الذي أشار إليه عليه السلام بقوله: «أتدرون ما المفلس؟ قالوا: المفلس فينا من لادرهم له ولا مناع؟ فقال: إن المفلس من أمتي من يأتى يوم القيمة بصلوة وصيام وزكوة ويأتى قد شتم هذا واكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيعطي هذا من حسناته، وهذا من حسناته: فان فئت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه، ثم طرح في النار (١)» وهذا حقيقة الفقر، والافلاس وأما من ليس له مال ومن قلّ ماله فالتاس يسمونه فقيراً ومفلساً وليس هو حقيقة الفقير والمفلس لأن هذا امر يزول وينقطع بموته وربما ينقطع بغنى و يسار يحصل له بعد ذلك في حياته، بخلاف ذلك الفقير المفلس فإنه يملك بالهلاك الأبدى وأشار إليه سيد الوصيين بقوله: «الغنى والفقر بعد العرض على الله سبحانه (٢)» الثاني غنى القلب بالأخلاق وفقره بعمدها وهذا قريب من قوله عليه السلام:

ليس البليّة في أيّامنا عجباً إن السلامة فيها أعجب العجب
ليس الجمال بأثواب تزيّنها إن الجمال جمال العلم والأدب
ليس اليتيم الذي قد مات والده إن اليتيم يتيم العقل والحسب

الثالث اظهر الغنى مع كمال المسكنة ورياضة النفس والقناعة بما قضى له والرضا بالموجود والصبر على المفقود والاعراض عن الدنيا والعقبى والافبال على المولى وقطع الآمال وترك القيل والقال كما يرشد إليه قوله تعالى «يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسئلون الناس الحافاً» وإظهار الفقر والطمع ممّا في أيدي الناس وهذا قريب من قوله عليه السلام حين قيل له: ما الغنى؟ قال:

(١) روى نحوه مسلم و احمد في مسنده ج ٢ ص ٣٠٣ وغيره من حديث أبي

هريرة راجع الترغيب والترهيب للمنذرى ج ٤ ص ٤٠٥ .

(٢) النهج أبواب الحكم تحت ٤٥٢ .

«اليأس ممّا في أيدي الناس (١)» ومن قول بعض الأكابر :

عليك باليأس من الناس إن غنى نفسك في اليأس

الرابع الغنى بالحقّ جلّ شأنه عمّا سواه من الأسباب والوسائل والفقر التمسك بما سواه والاستعانة به والغنى بهذه المعاني من جنود العقل وأعرانه إذ به يترقّي العقل من حضيض المذلّة إلى أوج الكمال في الإنسان كما أن الفقر الذّي هو ضدّه من جنود الجهل وأنصاره إذ به يستولى الجهل على ممالك القلب بالجور والطغيان.

(والتذكر و ضدّه السهو) التذكّر من أنواع العلم وفروع الاعتدال في القوة العاقلة والسهو من أنواع الجهل المقابل للعلم وفروع الانحراف في هذه القوة وهذه الفقرة أيضاً يحتمل وجوهاً الأوّل أن يكون المراد بالتذكّر تذكّر أحوال القيمة وعقباتها وشدائدها فإنّ من تذكّرها ورآها بعين البصيرة يسعى في مرضات الربّ ويأخذ عنان الطبيعة عن يد النفس الأمّارة ويعدّل نفسه ما ينجيه من الهلاك الأبدي ، الثاني تذكّر الموت وسكراته وما يتبعه من أحوال البرزخ وكيفية النجاة وأسبابها ، الثالث تذكّر الصّور المخزونة في القوة الحافظة بعد زوالها عن القوة المدركة واستحضارها ثانياً ، الرابع الصّور العقلية المخزونة في المبادي العالية باقبال النفس إليها وارتباطها بها ، الخامس تذكّر حالاته من بدو الوجود إلى كمال نشوئه وكيفية انتقاله من حال إلى حال وارتحاله من طور إلى طور وانقلابه من وضع إلى وضع على ما يقتضيه القدرة القاهرة والسهو مقابل للتذكّر بهذه المعاني وكون التذكّر من جنود العقل والسهو من جنود الجهل ظاهر لأنّ التذكّر نوع من العلم والسهو نوع من الجهل فالأوّل يعين العقل في السير إلى الله ، والثاني يعين الجهل في الميل إلى الضلالة.

(والحفظ و ضدّه النسيان) الحفظ أيضاً من أنواع العلم والنسيان من أنواع الجهل المقابل للعلم ، ولعلّ المراد بالأوّل حفظ الميثاق الذّي أخذه الله تعالى من العباد حين كونهم في صورة الذرّ أو حفظ ما يجب حفظه مطلقاً أو حفظ

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية والقضاة في مسند الشهاب عن ابن مسعود .

صور الحسّية في خزانها أو حفظ الصور العقلية بأن يحصل للذهن ملكة يشاهد بها تلك الصور من المبادي العالية من غير حاجة إلى تجشّم كسب ، والنسيان عبارة عن نبذ الميثاق والغفلة عنه بالمرّة أو عن زوال صور ما وجب حفظه عن القوّة المدركة أو زوال الصور الحسّية عن الخزانة والقوّة المدركة جميعاً أو عن زوال الصورة العقلية بفقد ملكة المشاهدة .

(والتعطف وضده القطيعة) العطف الميل ومنه عطف عليه بمعنى أشفقت عليه ورحمته لأنّ في الإشفاق والرّحمة ميلاً و انعطافاً إلى المرحوم، والعطاف الرّداء و تعطف بالعطاف أي ارتديته و المتعطف بأحد كأنّه ضمّه إلى نفسه بمنزلة الرّداء ، والقطيعة مصدر يقال : قطع رحمه قطعاً وقطيعة فهو قطع كصردو همزة هجرها وعقّبها و بينهما رحم قطعاً إذا لم توصل، والتعطف من أنواع العدالة وضده من أنواع الظلم وعليكم أيّها الاخوان أن تكونوا إخواناً متعاطفين متبازلين متواصلين متآلفين بالنسبة إلى كلّ أحد من المسلمين وأن لا تفرقوا بين الغنيّ والفقر والقويّ والضعيف والكبير والصغير وقد صدر الترغيب فيه من القرآن والسنة قال الله تعالى « إنّما المؤمنون إخوة » و قال « واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرّقوا » و قال رسول الله ﷺ : « لا يحلّ لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث (١) » وهذه الفضيلة فضيلة شريفة من فضائل الأخلاق لا يتّصف بها إلا من امتحن الله قلبه بالتقوى وطهره من الكبر والرّين و نزّهه من الحقد والغين و يندرج تحتها كثير من المكارم مثل خفض الجناح و لين الجانب والرفق في الأقوال والأفعال وعدم الغلظة والجفاوة في جميع الأحوال وبسط الوجه وطلاقة من غير تقطير وتقطيب وعبوس والمواساة بينهم في جليل الأمور و حقيرها و قليلها و كثيرها بقدر الإمكان فإنّ جميع ذلك من توابع الشفقة والرّحمة و لوازمها ، و لها منافع غير محصورة و يكفي في هذا المقام قول أمير المؤمنين عليه السلام « من لان جانبه كثر أعوانه (٢) » و

(١) أخرجه البخاري ج ٨ ص ٢٣ و في الكافي باب الهجرة نحوه .

(٢) ما عثرت على لفظه وفي خطبة له عليه السلام تحت رقم ٢٣ نحوه .

قوله: « من رفع عن الناس يداً واحدة رفعت عنه أيد كثيرة (١) » ثم إن التعاطف و التواصل من حقوق العشرة والصحبة إذا كانا في جانب الدين وإلا فهجرة أهل الأهواء والبدع دائمية على مرّ الأوقات ما لم يظهر منهم التوبة والرجوع إلى الحق و لذلك لما خاف عليه السلام على كعب بن مالك وأصحابه النفاق لتخلفهم عن غزوة تبوك أمر بهجرانهم خمسين يوماً .

(والقنوع وضده الحرص) القنوع بالضم هنا مصدر بمعنى القناعة بالكسرو هي الرضى باليسير من متاع الدنيا والاقنار على قدر الكفاف بل على ما دونه لو تعزز عليه وقد روي عن النبي ﷺ قال : « قلت : يا جبرئيل ما تفسير القناعة؟ قال : يقنع بما يصيب من الدنيا يقنع بالقليل ويشكر باليسير (٢) » و فسرها المحقق الطوسي بعد ما عدها من الأنواع المندرجة تحت العفة الحاصلة من الاعتدال في القوة الشهوية بأنها رضا النفس في المآكل والمشرب والملابس وغيرها بما يسد الخلل من أي جنس اتفق وقد وقع الحث عليها في القرآن والسنة ويكفي في ذلك قوله تعالى لنبي ﷺ « ولا تعجبك أموالهم ولا أولادهم » وقوله تعالى « ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا » وقول الباقر والصادق عليهما السلام : « من قنع بما رزقه الله فهو أغنى الناس (٣) » وقول أمير المؤمنين عليه السلام « القناعة مال لا ينفد ولا يفتنى (٤) » ومن طرق العامة « القناعة كنز لا ينفد (٥) » يعني بذلك أن الإنفاق منها لا ينقطع كلما تعزز عليه شيء من أمور

(١) النهج من كتاب له (ع) إلى ابنه الحسن (ع) تحت رقم ٣١ .

(٢) راجع سفينة البحار ج ٢ ص ٤٥٢ .

(٣) الكافي كتاب الإيمان والكفر باب القناعة تحت رقم ٩ .

(٤) النهج أبواب الحكم تحت رقم ٤٧٥٥٧ .

(٥) أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث جابر كما في مجمع الزوائد ج ١٠

ص ٢٥٦ . والقضاعي في مسند الشهاب من حديث أنس بسند ضعيف كما في الجامع الصغير .

الدنيا فنع بما دونها ورضي وقوله عليه السلام : « كفى بالقناعة ملكاً (١) »، يعني أن القناعة منجية عن مهلكة الالتماس كالملك وإن دخلك من ذلك شيء فانظر إلى عيبه ش الأنبياء والأوصياء والأولياء والصلحاء من قبلك وقد بلغك حال نبيك الأظهر أنه إنما كان قوته الشعير وام يشبع منه و حلواه التمر وثوبه الخشن ووقوده السعف إذا وجده ، وأما ضدها وهو الحرص في طلب زهرات الدنيا والانهماك في لذاتها و جمع مشتبهاتها زائداً على القدر الضروري الذي يجوزه العقل والنقل فهو من شعب الانحراف في القوة الشهوية وطرف الافراط فيها وصاحبه مع عدم خلوه من المشقات لا يأمن من الوقوع في الشبهات و ارتكابه للمحرمات ولذلك قال أمير المؤمنين عليه السلام : « والرغبة مفتاح النصب ومطيبة النعب (٢) » وقال : الحرص داع إلى التقصم في الذنوب (٣) » وقال « ابن آدم : إن كنت تريد من الدنيا ما يكفيك فإن أيسر ما فيها يكفيك وإن كنت تريد ما لا يكفيك فإن كل ما فيها لا يكفيك (٤) » و وجه ذلك ظاهر لأن الحرص في جمع الدنيا و زخارفها يقدم رضاء على الرضا بما قدر الله له و يتبع حرصه وأمله و مراتب الحرص غير محصورة و درجات الأمل غير معدودة فلو فرض أنه جمع له تسعة أعشار الدنيا طلب العشر الباقي ، ثم بعده يطلب الدنيا مرتين و على هذا حتى يموت هذا حكم طلب القدر الزائد ، وأما طلب القدر الضروري له و لعياله فليس من الحرص في شيء بل هو من العبادة قال رسول الله ﷺ : « الكاد على عياله كالمجاهد في سبيل الله (٥) » فلو ترك ذلك كان مذموماً و ينشؤ ذلك من خمود الشهوة الذي

(١) النهج أبواب الحكم تحت رقم ٢٢٩ .

(٢) المصدر أبواب الحكم تحت رقم ٣٧١

(٣) المصدر الباب تحت رقم ٣٧١ وفيه « الحرص والكبر والعمد دواع إلى التقصم

في الذنوب » .

(٤) الكافي كتاب الايمان والكفر باب القناعة تحت رقم ٦

(٥) الكافي ج ٥ ص ٨٨ كتاب المعيشة باب من كد على عياله .

هو طرف التفريط من القوة المذكورة .

(والمواساة ضد المنع) في المغرب آسيته بمالي أي جعلته أسوة اقتدي به ويقتدى هوبي وواسيته لغة ضعيفة، وفي النهاية الأسوة بكسر الهمزة وضمها القدرة والمواساة المشاركة والمساهمة في المعاش والرّزق وأصلها الهمزة فقلبت واوا تخفيفاً، واعلم أن المواساة بمعنى معاونة ذوي الأرحام والأقربين وسائر الناس من الفقراء والمساكين في المعيشة وإشراكهم في القوت والمال من شعب السخاء المعدود من أنواع العفة ومن كمال الصالحين وخصال العاقلين، إذ العاقل الكامل يعلم بنور عقله أن سدّ خلّة الفقراء ومواساة الضعفاء وإعطائهم ما ينتظم به أحوالهم من فضل المال يوجب ذكراً جميلاً في الدنيا كما قال أمير المؤمنين عليه السلام «وإسان الصدق يجعله الله للمرء في الناس خير له من المال يورثه غيره (١)» و ثواباً جزيلاً في الآخرة كما وعد الله سبحانه أهل الإنفاق بقوله الذين ينفقون أهوالهم في سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا مثلاً ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون، وبقوله «من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له وله أجر كريم» ويعلم أن الفضل الزائد في ماله على القدر الذي يدفع ضرورته ليست زيادته معتبرة - في صلاح حاله ولا نقصانه معتبر في فسادها فلا يزيده إذن إن أبقاه ولا ينقصه إن أنفقه وأعطاه، فيسهل عليه إنفاقه على ذوي الحاجات توقّعاً لما يترتب عليه من رفع الدرجات، وأما المنع يعني عدم إعطاء الفقراء ترك مشاركتهم ومساهمتهم في فضل المال فهو من شعب البخل ومن صفات الجاهلين وعلامات الغافلين، إذ الجاهل الغافل مع جهله بما يترتب على الإنفاق من الثناء الجميل عاجلاً والثواب الجزيل آجلاً يظن أنه إن أنفقه يصير فقيراً فيمسكه لنفسه وذلك لسوء ظنه بمالك الأرزاق وعدم إيمانه برب الأرباب وضعف إدعائه بيوم الحساب فيستحق بذلك الشقاء العظيم والعذاب الأليم كما قال العزيز العليم: «والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم».

(والمودة وضدها العداوة) المودة المحبة تقول: وددت الرّجل أوده وداً إذا أحببته والود بالحر كات الثلاث المودة ولما كان الانسان محتاجاً في تغيّشه إلى التمدّن وهو اجتماعه مع بني نوعه للتعاون والتشارك في تحصيل الملايم والحاجات إذ لا يمكن للانسان الواحد القيام بجميع ما يحتاج إليه من المصالح والضروريات التي لا بقاء له بدونها وذلك التعاون والتشارك لا يتم إلاّ بائتلاف ومعاملة واختلاط ومصاحبة ولا ينتظم ذلك إلاّ بتحقيق الرّوابط بينهم احتاجوا إلى تلك الرّوابط وأعطى المودة التي هي من فروع الاعتدال في القوة الغضبية وهي من جملة نعوت الكاملين وصفات العاقلين إذ العاقل الكامل يعلم أن مودّة للناس مستلزمة لمودّتهم ومودّة أتباعهم وخدمهم وحواشيهم له ويجلب لنفسه من مودّة واحد مودة أشخاص كثيرين له وذلك مستلزم لتفهمهم له وعدم مضرّتهم إيّاه وميل قلوبهم إليه وأنسهم به ومعاونتهم له ومدافعتهم عنه وبذلك يتم نظامهم وصلاح حالهم في الدنيا والآخرة ولذلك قال أمير المؤمنين عليه السلام: «النود نصف العقل (١)» وأما ضدّها أعني العداوة التي من فروع الإفراط في القوة المذكورة فهو من جملة نعوت الناقصين وصفات الجاهلين إذ الجاهل لغفلته عن سوء العاقبة وخامتها يظنّ أن عداوة الناس خير له ويغفل عن حصولها فيهم بالنسبة إليه أيضاً وعن بعدهم منه ونفارهم عنه المستلزمين لفساد نظامه وعدم حصول مرامه وتضييق ماله وتغير حاله في الدنيا والآخرة.

(والوفاء وضده الغدر) وفي بعده وأوفى به وفاء وهو وفي إذا قام به و أتمّه وهو فضيلة مندرجة تحت العدالة كما أن الغدر الذي هو ضده يعنى نقض العهد رذيلة مندرجة تحت النجور وبه يشعر قول أمير المؤمنين عليه السلام: «كل غدرة فجرة وكل فجرة كفرة (٢)» هذا أشرف الضروب من الشكل الأول ينتج كل غدرة كفرة والوجه في لزوم الكفر للغادر إن استحلّ الغدر ظاهر وإلا فالمراد

(١) النهج أبواب الحكم رقم ١٤٢.

(٢) النهج أبواب الخطب تحت رقم ١٩٨.

بالكفر كفر نعم الله تعالى وسترها بإظهار المعصية والمخالفة كما هو المفهوم
 المغوي من لفظ الكفر ثم للموفاء مراتب: الأولى الوفاء بكلمتي الشهادة وثمرته حفظ
 النفس والمال ، والثانية الوفاء بالعبادات المفروضة والمندوبة وثمرته الثواب
 الجزيل والأجر الجميل في الآخرة ، والثالثة الوفاء بترك الكبائر والاجتناب
 عن الصغائر وثمرته النجاة من الجحيم والتخلص من العذاب الأليم ، والرابعة
 الوفاء بالفضائل النفسانية والاجتناب عن رذائلها وثمرته الترقّي إلى عالم الرّوحانيين
 والتشبه بالملائكة المقرّبين (١) والخامسة الوفاء بعهود الناس ومواثيقهم الموافقة
 للقوانين الشرعيّة وثمرته استبقاء نظامهم واستكمال مقاصدهم وسراهم والسادسة
 وهي أعلى المراتب وأسناها التعرّي عن الأغذية البشريّة بالتجريد والاستضاء
 بالأنوار الرّبّوبية والاستغراق في بحر التوحيد بحيث يغفل عن نفسه فضلاً عن
 غيره (٢) وثمرته الفوز بالكرامة في دار المقامة والاستبشار باللقاء الدائم كما قال

(١) هذا أعلى من الثواب الجميل حيث جمعه في المرتبة . (ش)

(٢) هذا يسمى بالفناء في اصطلاح العرفاء ويصرح بذلك عن قريب ومرفى الصفحة
 ٢٣٥ نقل حديث وكلام عن المجلسي (ره) في الفناء ثم نقول الفناء ثابت قهر الكل وجود
 ممكن سواء اعترف به الانسان ووجده في نفسه أم لا لان الممكن لاستقلال له في الوجود
 وليس بشيء ينظر اليه بل هو معنى حرفي كما قال الشاعر «الاكل شئ ما خلا الله باطل» و
 استحسنة النبي (ص) وانما ينكره الانسان الطبيعي لانه يتوهم نفسه وامثاله شيئاً فـ اذا
 عرف الوجود حق المعرفة ووجد نفسه وكل شئ فاناً في الحق كما هو الواقع وغلب
 سره على وهمه وعقله على طبعه واستغرق في التوحيد وغفل عن نفسه لانه لا شئ في
 الحقيقة فقد بلغ أعلى المراتب واسناها اذ عرف الوجود على ما هو عليه وقال العاقل
 المجلسي (ره) في اوائل كتاب عين الحيرة بعد نقل معنى علم اليقين وعين اليقين وحق
 اليقين من المحقق الطوسي هذا أعلى مراتب المعرفة ويعبرون عنه بالفناء في الله واستشهد بالرواية
 المشهورة «لا يزال يتقرب الى العبد بالنوازل» ويقول تعالى «وما تشاؤون الا ان يشاء الله» *

سبحانه « وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة » ولعل حذف مفعول الوفاء للدلالة على تعميمه وشموله لهذه المراتب كلها وللغدر أيضاً مراتب تعلم بالمقايسة و المرتبة الخامسة من الوفاء إنَّما تطلب وتمدح إذا كان المعاهد عليه باقياً على عهده و شرطه وإلا فالوفاء حينئذ غير مدح بل هو مذموم كما أشار إليه أمير المؤمنين عليه السلام بقوله : « الوفاء لأهل الغدر غدر عند الله والغدر بأهل الغدر وفاء عند الله (١) » يعني أن إيفاء العهد والعمل بمقتضاه لأهل الغدر ترك العهد و نقضه في حكم الله تعالى و يترتب عليه أثره ، والغدر في حقهم وفاء وذلك إذا كان الغادر على الحق لأنَّ الموفي حينئذ يمدحهم على المعصية والغادر لا .

(والطاعة و ضدّها المعصية) الطوع والطاعة : الاذعان والانقياد ، يقال : طاع له يطوع إذا انقاد ، والعصيان والمعصية خلاف الطاعة ، يقال : عصاه يعصيه عصياً ومعصية و عصياناً إذا خالفه والمراد أن طاعة الله تعالى وطاعة الرسول ﷺ و طاعة أُولى الأمر من جنود العقل إذا العقل بها يصعد إلى منازل الأبرار ويستعد لمرافقة الأخيار كما قال الله تعالى « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ » وقال : « وَمَنْ يَطْعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَاوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ

﴿ و بالحدیث « اتفقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله » وما روى في احادیث العامة « بى يسمع وبى يبصرو بى يمشى وبى ينطق » ثم تناول في الاحادیث بما كان متقدراً في ذهنه من تتبع اقوالهم و لكنّه لم يفرق بين الفناء الذى هو حاصل لكل ممكن والفناء الحاصل للمكمل في منتهى سلوكهم وقال معترضاً عليهم : ان الفناء لجميع الممكنات عندهم فكيف يخصون به المقربين والجواب ان الفناء حاصل للجميع لكن وجدانه والاعتراف به حاصل للكاملين فقط الا ترى ان تحقق الشئ غير الاعتراف به و قد اتفق له قدس سره ذلك مثلاً ما كنا نعلم ان الشيخ صفى الدين جد السلاطين الصفوية كان له مقام عظيم في العرفان والعلم ونظنه كبعض المدعين اذا لم نرمه اثر يبدل على ذلك حتى رأينا في كتاب عين الحیوة المجلد سى - دم وصفه بسلطان العلماء والمحققين وبرهان الاصفیاء والكاملين الشيخ صفى الدين فعلمنا فضله وفضل الشيخ واقفاً لا بالازم الاعتراف به من كل احد .

عليهم من النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً» ولم يذكر طاعة أُولى الأمر في هذه الآية لأن طاعتهم طاعة الرسول كما يرشد إليه عطفهم على الرسول في الآية السابقة من غير إعادة الأمر بطاعتهم ثم إن النافع مجموع هذه الطاعات دون بعضها كما يرشد إليه قول الصادق عليه السلام «وصل الله طاعة ولي أمره بطاعة رسوله وطاعة رسوله بطاعته فمن ترك طاعة ولاية الأمر لم يطع الله ولا رسوله (١)» فالمعصية المقابلة للطاعة هي ترك هذه المجموع سواء كان تركه بترك جميع أجزائه أو بترك بعضها وهي دزيلة مندرجة تحت الجور موجبة المدخول في النار كما قال سبحانه «و من يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله ناراً خالداً فيها وله عذاب مهين».

(والخضوع وضدّ النطاوّل) في الصحاح الخضوع النظام والنواضع وفي الكشف الخضوع اللين والانقياد والنطاوّل إظهار حصول الطول بالفتح يعني الفضل والعلو، و سرّ كون الأول من صفات العاقل والثاني من صفات الجاهل أن العاقل يعرف بنور بصيرته، أن له تعالى شأنه العلو المطلق لافتقار كلّ شيء إليه وله اعلام الوجود لدلالة كلّ شيء عليه وله العزة لكون كلّ موجود سواء مقهوراً في تصريف قدرته، وموصوفاً بالعجز في جريان حكمه ومشيته، وله خشوع جميع الممكنات وخضوعها في رقّ الحاجة والامكان لانفعالها عن سطوته، وله قوام جميع الموجودات وقيامها بالتدالّل من عظمتها ويعرف أن إليه فزع كلّ ملهوف ومنه غنى كلّ فقير وعزّ كلّ ذليل وقوّة كلّ ضعيف فيوصله تلك المعارف والكمالات إلى أعلى الفضائل وأشرف المقامات وهو مقام الفزع إلى الله بالتخشّع والتخضّع والتدالّل والنواضع وتطيب القلب وتلين السرّ فيحصل له حينئذ قلب خاضع وذهن واله ودمع منهمل وعقل مرتحل، ويؤثر ذلك في جوارحه إذ هي تابعة للقلب ومنه يظهر سرّ ما روي من أن لسان المؤمن من وراء قلبه، فيصدر حينئذ من جميع أعضائه الظاهرة والباطنة أفعال مناسبة في الخشوع وأعمال متناسقة في

الخضوع و في ذلك مراتب متفاوتة و درجات متصاعدة أرفعها الوصول إلى ساحة الحق والفناء المطلق (١) والطيران في حظائر القدس بأجنحة الكمال مع الملائكة المقرئين ، بخلاف الجاهل فإنه لخلوه عن تلك الحالات و غفلته عن تلك المعارف والكمالات محبوس في ظلمات الطبيعة بعيد عن النشرف بشرف تلك الفضيلة إذ قلبه في وادٍ و جوارحه في وادٍ آخر فلذلك أعماله غير منتظمة بروابط الخضوع و أفعاله غير متعلقة بعلائق الخضوع و هو مع ذلك يعتقد لنفسه فضيلة كاملة و رفعة بالغة و رتبة فايدة (٢) وهذا معنى التناول و حقيقة التفاضل كما هو المشاهد من

(١) الفناء المطلق في اصطلاح العرفاء و هو اعلى مدارج السالكين و قد سبق اشارة اليه في بعض الحواشي و اوردنا فيه حديثاً من كتاب عين الحجة للمجلسي رحمه الله تعالى و ذكرنا تأويله للحديث بما يوافق مذاقه و لا يوافق مذاق الشارح رحمه الله (ش)
(٢) هؤلاء جماعة من الناس محبوسون في ظلمات الطبيعة لا يعترفون بغير الموجود الجسماني و لاحقية عندهم غير الجسم و ادراك الجسم انما هو بالحواس فلا يعتمدون على غير الحس و يأولون جميع السماعات الحقيقية بالذات الروحانية الى الجسمانيات حتى تكون شيئاً يدرك بالحواس و اذا تصدوا لتعلم العلوم اختاروا شيئاً يدرك بالسمع والبصر لا بالعقل والفقه والاصول والكلام صعب عليهم لتوقفها على مقدمات تدرك بغير السمع والبصر كالاجماع والتواتر والقواعد العقلية التي تستعمل لاستفادة المعنى من اللفظ وانما يسهل عليهم الحفظ والضبط فيدركون نقش الكتابة بالبصر واصوات الكلمات بالسمع يحفظونها و يضبطون ادق و اكمل من العلماء المدققين والكاظمين لعدم توجه نفوسهم و اذهانهم الى غير النقوش والاصوات وهذا عندهم فضيلة وليس لهم هم بتهديب النفس والكمالات بل يختارون في العمل أيضاً شيئاً محسوساً مثلاً اسباغ الوضوء و طول الركوع و تكثير الاذكار والنزط في اخراج الحروف من مقاطعها من امور محسوسة و اما النية وحضور القلب و تغليظه من المعجب والرياء فامور غير محسوسة لا يهتمون بها كثيراً ومع ذلك فلبس هذا عيباً و مذمة الا اذا نظاوا على العلماء و زعموا انفسهم اعلى درجة منهم ونسبوه الى الضلال و ترك طريقة اهل البيت عليهم السلام كما كان دأب كثير من معاصري الشارح ره . (ش)

الجهلة والمعلم من السفلة و ينبغي أن يعلم أن الخضوع والخشوع والتواضع وإن كانت متقاربة في المعنى لكن بينهما فرقاً ما لأنّ الادّعاء واللين إذا حصل في القلب فمن حيث إنهما يوجبان انكساراً و افتقاراً و تذللاً خضوع و من حيث إنهما يوجبان الخوف والخشية والعمل خشوع و من حيث أنهما يوجبان انحطاط رتبته عن الغير و تعظيم ذلك الغير تواضع وقد يفرق بين الخضوع والخشوع بأن الخضوع بالقلب والخشوع بالجوارح ، و بين الخضوع والتواضع بأن التواضع عدم اعتقاد المزية بالنسبة إلى الأدنى في الجاه والمنزلة و الخضوع أعمّ أو مختصّ بالنسبة إلى الأعلى .

(والسلامة و ضدّها البلاء) ليس المراد السلامة من الأمراض البدنيّة و الابتلاء بها لما روي عن الصادق عليه السلام : « إن أشدّ الناس ابتلاء الأنبياء ، ثمّ الذين يلونهم ثمّ الأمثل فالأمثل (١) » و لا السلامة من الفقر والابتلاء به لما روي عنه عليه السلام : « قال الله تعالى يا موسى إذا رأيت الفقر مقبلاً فقل مرحباً بشعار الصالحين وإذا رأيت الغنى مقبلاً فقل ذنب عجبت عقوبته (٢) » إلّا أن يخصّص الأمراض والفقر بما يوجب كسر الظهر والفنّة في الدّين فانه قد نقل الاستعادة منهما عن أهل العصمة عليهم السلام ، بل المراد السلامة عن إيذاء المسلمين والابتلاء به كما روي « المسلم من سلم المسلمون من يده و لسانه (٣) » أو السلامة من الأمراض النفسانيّة والآراء الفاسدة والعقائد الباطلة مثل الكفر والكبر والحقد والحسد والنفاق و غيرها والابتلاء بها ، فإنّ الأوّل من جنود العقل وأنصاره لكونه من شعب العدالة الواقعة في حاق الوسط ، والثاني من جنود الجهل لكونه من فروع الجور الواقع في طرف الافراط .

(١) الكافي كتاب الايمان والكفر باب شدة ابتلاء المؤمن .

(٢) المصدر باب فضل فقراء المسلمين تحت رقم ١٢ .

(٣) أخرجه احمد والحاكم والنسائي وابن حبان والترمذي والبيهقي وابوداود

ومسلم كما في الجامع الصغير .

(والحبّ و ضدّه البغض) الحبّ بالضم والكسر والمحبة ميل القلب إلى ما يلائمه ، والبغض المقت وقد بغض الرّجل بغاضه أى صار بغيضاً ، وبغضه الله إلى الناس تبغيضاً فأبغضوه أى مقتوه ، ولعلّ المراد أن حبّ الخلق بعضهم بعضاً من جنود العقل و بغضهم من جنود الجهل ، لأنّ العاقل يعلم أن نظام الدّنيا والدّين لا يتمّ إلّا بالمحبة فلهذا يختارها تحرّزاً عمّا يلزم البغض من التقاطع المستلزم لتطاول الحاسدين و تسلّط المعاندين ، ومن التنازع المستتبع لعدم الثبات والقرار والمؤدّي بالأخيرة إلى الهلاك والبوار ، وإن أردت أن تعرف أنّك تحبّ أحداً فاجعل نفسك ميزاناً فيما بينه وبينك فإن كنت تحبّ له ما تحبّ لنفسك و تكره له ما تكره لنفسك فأنت تحبّه وهو حبيبك وإلّا فلا ، بخلاف الجاهل فإنّه لظلمة بصيرته غافل عن حسن عاقبة المحبة وسوء عاقبة البغض فيظنّ أنّ البغض خير له في تحصيل مقاصده فيختاره ويسوق سفينة البغاضة في بحر الغواية بريح الغباوة إلى أن يدركه الغرق من حيث لا يعلم ، و ينبغي أن يكون أعظم محبّتنا لعباد الله تعالى محبّتنا لرسول الله ﷺ و عترته الطاهرين صلوات الله عليهم أجمعين لشرافة ذاتهم و جريان نعمائهم ظاهراً و باطناً علينا و وصول إحسانهم جليّاً و خفياً إلينا وبالجملة محبة الشئى ، إمّا لحسنه في الظاهر كالصور الجميلة أو في الباطن كحسن بواطن الصالحين و شرافة نفوسهم ، أو لإحسانه بجلب نفع و دفع ضرر كما إحسان الناس بعضهم بعضاً ، أو لإعظامه كأعظام الولد والدّه ، أو لترحمه وشفقته بحسب الجملة و المشاكلة كترحمّ الوالد على ولده وقد اجتمع الجميع فيهم ﷺ لما فيهم من جمال الظاهر والباطن و إحسانهم إلينا بالهداية والشفاعة و عظمة شأنهم وإنافة قدرهم على كلّ والد وولد و محسن فلذلك وجب علينا محبتهم على أكمل الوجوه و أتمّها و من محبتهم الذّب عن سنتهم و نصر شريعتهم والتمسك بطريقتهم وبذل النفس والمال دون مهجتهم والوقوف عند حدودهم و إعانة أهل ملّتهم ، أو المراد أن حبّ العباد لله من جنود العقل و بغضه من جنود الجهل لأنّ محبة العبد لله تعالى شأنه إنما هي على قدر معرفته بجلاله سبحانه و كمال أوصافه و تنزيهه عن النقص ، والعاقل هو

الذي يعرف جماله و جلاله و كماله و قدرته و عظمته و إحسانه فعند شروق أنوار هذه المعارف على مرآة سرّه و بروق آثار الأعمال الصالحة في مشارق قلبه يمطر الله عليه أسباب الحبّ و يكشف عنه الحجاب و تجذبه العناية الأزليّة إلى بساط القرب و تسقيه من ماء المحبّة و تنجيه من هذا السراب ، و أمّا الجاهل فأنّه لا يعرف من هذه المعارف اسماً و لا من هذه الأسماء رسماً و لا من هذه الأعمال حدّاً فكيف له الوصول إلى مرتبة المحبّة التي هي المرتبة العليا للمساكين ، والدرجة العظمى للعاقليين ، والمنزلة الكبرى للزّاهدين ، بل هو بطبعه هارب عن عالم النور مستقبل إلى دار الغرور و هذا معنى بغض العبد له تعالى أعاذنا الله من ذلك ، و اعلم أن الفرق بين الحبّ و المودّة و بين البغض و العداوة دقيق جدّاً حتّى أنّه قد ظنّ رجوع هذه الفقرة إلى قوله عَلَيْكُمْ و المودّة و ضدّ العداوة و إنّ إحداهما كانت بدلا عن الأخرى جمع بينهما في الكتابة قلم الناسخ ولكن ظاهر قوله تعالى « و ألقينا بينهم العداوة و البغضاء » يفيد المغايرة ، و يمكن القول بتحقيق المغايرة بأنّ المودّة ميل ظاهر القلب و المحبّة ميل ظاهره و باطنه و به يشعر قوله تعالى « قد شغلها حبّاً » فالمحبّة أعظم من المودّة أو بأنّ المودّة و العداوة من الأمور القلبية و الكيفيات النفسانية مع قطع النظر عن ظهور آثارهما من الجوارح و المحبّة و البغض من هذه الأمور و الكيفيات مع اعتبار ظهور آثارهما منها و يؤيّد قول القاضي في تفسير الآية المذكورة فلا تنوافق قلوبهم و لا تتطابق أقوالهم فليتأمل .

(والصدق و ضدّ الكذب) صدق الخبر بمطابقة حكمه للواقع و كذبه بعدم مطابقته له لا بمطابقته لاعتقاد المخبر و عدمها ، كما ذهب إليه النظام و لا بمطابقته لها و عدمها كما ذهب إليه الجاحظ لأنّ العقلاء يصفون كلّ خبر علموا أنّه ليس مطابقاً للواقع بأنّه كاذب ، وإن لم يعلموا اعتقاد المخبر ، والمسلمين يصفون اليهود والنصارى بالكذب على الله و إن كان أكثرهم لا يعلم أنّه كاذب بل يعتقد أنّه صادق و أورد عليه أولاً بأنّ قول القائل عَلَيْكُمْ و مسيلمه صادقان خبر وليس مطابقاً للواقع ولا غير مطابق له و أوجب بأنّه كاذب باعتبار إضافة الصدق إليهما لأنّه غير

مطابق ، وقد يجاب بأنه كاذب لأنه يفيد صدق أحدهما في حال صدق الآخر ، وردّ بأنّ الثمنية لا تفيد المصاحبة و ثانياً بأنّ قول القائل كلّ كلامي في هذا اليوم كاذب ولم يوجد منه سوى هذا الكلام ليس مطابقاً للواقع وإلاّ لكان غير مطابق فيجتمع النقيضان وليس غير مطابق وإلاّ لكان بعض أفراد مطابقاً وليس إلاّ هذا الفرد فيجتمع النقيضان ، وأجيب بأنّ الصدق والكذب إسماء يعرضان لخبر مغاير للمخبر عنه حتى يتصور فيه المطابقة فيحكم بصدقه وعدمها فيحكم بكذبه وهناك قد اتحدّا فلا يدخله الصدق والكذب وللبحث فيه مجال واسع واستدل النظام بقوله تعالى وإذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون ، فأنّه تعالى شأنه أخبر بأنّهم كاذبون في قولهم إنك لرسول الله مع أنّه مطابق للواقع فلو كان الصدق عبارة عن المطابقة للواقع لما صحّ فالتكذيب ليس باعتبار أنّه غير مطابق للواقع بل باعتبار أنّه غير مطابق لاعتقادهم ، وأجيب بأنّ المعنى والله يشهد أنّهم لكاذبون في قولهم إنك لرسول الله ، من عند أنفسهم لأنّ هذا الخبر كاذب غير مطابق للواقع عندهم أو أنّهم لكاذبون في لازم فائدة هذا الخبر وهو كونهم عالمين بمضمونه أو أنّهم لكاذبون في « تشهد » باعتبار تضمّنه خبراً كاذباً ، وهو أنّ شهادتنا هذه من صميم القلب و خلوص الاعتقاد بحيث و اطأت فيه قلوبنا ألسنتنا كما يشعر به « أن » واللام واسميّة الجملة ، فكذبهم الله تعالى لعلمه بعدم المواظاة بين قولهم و قلبهم . أو أنّهم لكاذبون في دعوى الاستمرار المستفاد من تشهد ، أو أنّهم لكاذبون في حلفهم على عدم النسي عن الاتفاق على فقراء المهاجرين أو أنّهم لكاذبون يعنى إنّ شأنهم الكذب فالتكذيب ليس في هذا الخبر بل مطلق فكأنّه قيل : إنّهم وأن صدقوا في هذا الخبر لكن صدقهم فيه لا يخرجهم من زمرة الكاذبين فإنّ الكذب قد يصدق ، واستدل الجاحظ بقوله تعالى حكاية عن المشركين « افترى على الله كذباً أم به جنة » فاتّهم حصروا خبر النبيّ بالحشر والنشر والتوحيد في كونه كاذباً أو كلام مجنون ولا شك أنّ المراد بالثاني غير الكذب لأنّه قسيمه وقسيم الشيء يجب أن يكون

مبايناً له و غير الصدق لاعتقادهم عدمه ولعدم دلالة الثاني عليه فقد أثبتوا بين الصدق والكذب واسطتين إحداهما عدم مطابقة خبر النبي ﷺ للواقع مع شكّه في المطابقة والأخرى عدم مطابقته له مع اعتقاده المطابقة بأن يكون اعتقادهم العاسد أن عدم مطابقة هذا الخبر بلغ بمرتبة لا يخفى على من له شايبة عقل فالشك في المطابقة لا يكون إلا من مجنون فكيف اعتقاد المطابقة ، ولا شك أن الواسطة إنمّا يكون إذا اعتبر في الصدق والكذب مطابقة الخبر للواقع والاعتقاد جميعاً وعدمها لهما إذ لا واسطة عند اعتبار المطابقة للواقع وعدمها ولا عند اعتبار المطابقة للاعتقاد وعدمها ، و أجب بأن ترديدهم لخبره ﷺ ليس بين الكذب المطلق والاختبار حالة الجنون ، بل إنمّا هو بين الافتراء وهو الكذب عن عمد وعدمه فمعنى قوله « أم به جنّة » أم لم يفتر فعبروا عن عمد الافتراء بالجنّة كناية عن أن المجنون لا يفترى فقد جعلوا قسم الكذب عن عمد الكذب لاعتقاد عمد فيكون مقصودهم حصر خبره الكاذب في نوعيه ولمّا كان هنا فوائد جمّة و فروع متكثّرة لا ينيسر القول بها إلا بتحقيق معنى الصدق والكذب أطبنا القول فيه ومن تلك الفوائد لو أخبرك أحد بشيء فقلت: إن كنت صادقاً فلله عليّ كذا فإن كان مطابقاً للواقع فقط لزمك الوفاء به على الأوّل دون الآخرين وإن كان مطابقاً للاعتقاد فقط لزمك الوفاء به على الثاني دون الآخرين وإن كان مطابقاً لهما لزمك الوفاء عند الجميع ومنها لو شهد عليك رجل فقلت هو صادق فهو إقرار على الأوّل والآخر دون الثاني ، ومنها لو حلف رجل أن لا يكذب ثم أخبر بما لم يكن مطابقاً للواقع فقط أو للاعتقاد فقط أولهما فإنّه في الأوّل يحث على المذهب الأوّل دون الآخرين ، وفي الثاني يحث على المذهب الثاني دون الباقيين ، وفي الثالث عند الجميع ، ومنها لو حلف أن لا يتكلّم اليوم بكلام صادق وكاذب فإنّه يحث إذا تكلم على الأوّلين دون الأخير فإنّ فيه مفرّاً عن الصدق والكذب ومنها لو حلف أن لا يعطي كاذباً فإنّه يختلف فيه الحكم أيضاً كما لا يخفى وأمثال ذلك كثيرة ، واعلم أن الصدق فضيلة عظيمة داخلة تحت فضيلة العفة وقد وقع مدحه و مدح

المتصف به في مواضع من القرآن والأخبار و يكفي في ذلك قوله تعالى « هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم » والكذب رذيلة داخلية تحت الفجور وقد نطقت الآيات والأخبار على ذمّه و ذمّ المتصف به ، قال رسول الله ﷺ : « الكذب رأس النفاق وهو مفسدة عظيمة في الدنيا والآخرة » (١) والوجدان شاهد عدل بأن الكذب يسود لوح النفس ويمنعه أن ينتقش بصورة الحق ويفسد المنامات والألهامات ويؤدي إلى خراب الدنيا و قتل النفوس و أنواع الظلم والفساد ولذلك اتفق أهل العلم من أرباب الملل وغيرهم على تحريمه وادّعى المعتزلة قبحه بالضرورة .

(والحقّ و ضدّه الباطل) هذا والسابق عليه متقاربان لأنّ الخبر والاعتقاد إذا طابقا الواقع كان الواقع أيضاً مطابقاً لهما لأنّ المفاعلة من الطرفين فمن حيث أنّهما مطابقان أو غير مطابقين له بالكسر يسميان صدقاً و كذباً و من حيث أنّهما مطابقان أو غير مطابقين له بالفتح يسميان حقاً و باطلاً المقصود أنّ اختيارهما من جنود العقل والجهل، ويحتمل أن يراد بالحقّ الدّين الحقّ المسمّى بالصراط المستقيم وبالباطل الدّين الباطل الدّاعي إلى سواء الجحيم وأن يراد بالحقّ الاقبال على الله و بالباطل الادبار عنه ولا واسطة بينهما ، فوجود كلّ واحد مستلزم لعدم الآخر و عدم كلّ واحد مستلزم لوجود الآخر .

(والامانة و ضدّه الخيانة) الأمانة مصدر أمن الرّجل أمانة فهو أمين إذا صار كذلك برعاية مائتة عليه من حقوق الحقّ أو الخلق و أدائه في وقته كما هو و هي تدخل في أفعال الأعضاء والجوارح كلّها لأنّ القلب إذا استضاء بنور البصيرة يهتدى كلّ عضو إلى أمانته و يسعى في حمايتها و حفظها و أدائها على ما ينبغي كما تدخل الخيانة وهي مصدر خانه إذا ترك الحفظ في تلك الأفعال ومنه قوله تعالى « يعلم خائنة الأعين » أي مسارقتها و كثيراً ما تطلق الأمانة على ما تأتمن به صاحبك مجازاً على سبيل المبالغة و منه قوله تعالى « والذين هم لأماناتهم و عهدهم راعون » أي لما يؤتمنون عليه من جهة الحقّ أو الخلق و قوله تعالى « إنّ الله يأمركم

(١) أخرجه ابن عدى في الكامل هكذا « الكذب باب من أبواب النفاق - الحديث » .

أن تؤدّ أو الأمانات إلى أهلها ، وفي روايات متكثّرة (١) تصريح بأن المراد بأهل الأمانة في هذه الآية الامام عليه السلام وأن الله تعالى أمر الامام الأول أن يدفع إلى الامام الذي بعده كل شيء عنده من أمر الامامة وقوله تعالى وإنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان ، إنّه كان ظلوماً جهولاً ، روي عن الصادق عليه السلام أن المراد بالأمانة ولاية أمير المؤمنين عليه السلام (٢) ، وقيل : المراد بها العبادة والطاعة المطلوبة من الانسان وسمّاها أمانة من حيث أنّها يجب حفظها وأداؤها في وقتها . وإباء الأجرام المذكورة يعود إلى امتناع قبولها خوفاً وإشفاقاً بلسان الحال لقصورها وعدم صلاحيتها لها بحسب الطبع أو إلى الفرض والتقدير كأنّه قيل : لو كانت هذه الأجرام عاقلة ثم عرضنا عليها لآبين أن يحملنها خوفاً وإشفاقاً من وخامة عاقبتها وإنما جئنا بلفظ الواقع لأنّه أبلغ أو إلى أنّه تعالى خلق فيها عقلاً وفهماً ثم عرض عليها على سبيل التخيير ، فأبين إباء عجزوا واحتقار وخوف وانكسار لإباء استكبار لخضوعها تحت ذلّ الحاجة ثم خلق الانسان وعرضها عليه فقبله وحمله مع ضعف بنيته ورخاوة قوّته إنّه كان ظلوماً لنفسه بعدم محافظته لها وتقصيره في أداء حقوقها جهولاً بأسرارها وبما يستلزم حفظها وفعلها وتركها من المثوبات والعقوبات .

(والخلوص ضدّ الشوب) الشوب الخلط وهو مصدر شبت الشيء أشوبه شوباً فهو مشوب إذا خلط بغيره والخلوص مصدر خلص الشيء بالفتح - يخلص خلوصاً أي صار خالصاً صافياً غير ممزوج بغيره ، والعمل الخالص في العرف ما يجرّد قصد التقرب فيه عن جميع الشوائب وهذا التجريد يسمّى إخلاصاً وقد عرفه بعض أصحاب القلوب بتعريفات أخر فقليل : هو تنزيه العمل عن أن يكون لغير الله فيه نصيب ، وقيل : هو إخراج الخلق عن معاملة الحق ، وقيل : هو ستر العمل عن الخلايق وتصفيته عن العلايق ، وقيل : أن لا يريد عامله عوضاً في الدارين . و

(١) سيأتي في كتاب الحجة أخباره .

(٢) الكافي كتاب الحجة باب فيه نكت وتنف من التنزيل في الولاية تمت رقم ٢٠٢

هذه درجة عليّة قلّ من يبلغها وقد أشار إليها أمير المؤمنين عليه السلام بقوله : «ما عبدتك خوفاً من نارك ولا طمعاً في جنتك ولكن وجدتك أهلاً للمعبادة فعبدتك» ولو قصد العبد في عبادته مجرد وجه الله سبحانه وإطاعة أمره والتقرب إليه يرتقى بأجنحة القبول إلى منازل القرب وحظاير القدس قطعاً ولو قصد مجرد غيره ألبس الله لباس الذلّ وأبعده عن ساحة رحمته وبساط قربه جزماً وأما لو قصده سبحانه وقصد غيره أيضاً فهو خطر عظيم ، و للمسلمين فيه كلام طويل تر كناه خوفاً للأطنا ب و نذكر ما أظنّه حقّاً والله تعالى هو المستعان فنقول : الضميمة إمّا قصد الثواب أو التحرّز عن العقاب أو قصد الرّياء ، أو قصد الأمور اللازمة للعبادة كقصد التخلّص من النفقة بعثق العبد في الكفّارة وغيرها وقصد التبرّد (١) بالوضوء ، أمّا الأول فالظاهر صحّة العبادة لقول الصادق عليه السلام «العباد ثلاثة قوم عبدوا الله عزّ وجلّ خوفاً فتلك عبادة العبيد ، و قوم عبدوا الله تبارك وتعالى طلباً للثواب فتلك عبادة الأجراء ، و قوم عبدوا الله عزّ وجلّ حبّاً لتلك عبادة الأحرار وهي أفضل العبادة (٢) فانّ صيغة أفضل تفيد وجود الفضل في الأولين وهو المطلوب . وقول الباقر عليه السلام «من بلغه ثواب من الله تعالى على عمل فعمل ذلك العمل التماس ذلك الثواب أوتيّه وإن لم يكن الحديث كما بلغه (٣)» ولغير ذلك من ظواهر الآيات والأخبار ، و أما الثاني فالظاهر بطلانها لقوله تعالى «فمن كان يرجو لقاء ربّه فليعمل عملاً

(١) قال بعض شراح الشرائع : ان قصد التبرّد مبطل بعدان حكم المحقق بصحّته و لعله أراد أن يكون الداعي الى الفعل التقرب بحيث لو لم يكن التقرب لم يتوضأ ، و ان ضم التبرّد اليه . (ش)

(٢) الكافي كتاب الايمان والكفر باب العبادة .

(٣) يعني ما اذا كان العمل مسنوناً في الكتاب والسنة من دون تقدير الثواب العاجل أو الاجل ، واما اذا كان العمل غير مسنون فلا أجر له أبداً ان لم يكن عليه وذّر لقول النبي (ص) «لا قول الا بعمل ، ولا قول ولا عمل الابنية ؛ ولا قول ولا عمل ولا نية الابصا بة السنة» والخبر في الكافي كتاب الايمان والكفر باب (من بلغه ثواب من الله على عمل) .

صالحاً ولا يشرك بعبادة ربّه أحداً ، و قول الصادق عليه السلام لعباد البصري : « يا عباد إياك والرياء فانه من عمل لغير الله و كله الله إلى من عمل له (٤) » و لغير ذلك من الآيات والآيات . وأمّا الثالث فالقول بالتفصيل - وهو أن العباد صالحة إن كانت هي المقصودة بالذات والضميمة مقصودة تبعاً ، و باطلّة إن انعكس الأمر أو تساوى - غير بعيد (٢) وإن لم نجد عليه دليلاً نقلياً و الاحتياط في الجميع ظاهر و بعض الأفاضل حكم بالتفصيل في الأقسام الثلاثة و هو بعيد جدّاً سيما في الرياء لدلالة الآيات والأخبار على بطلان العبادة لأجل انضمام الرياء إليها و الظاهر أنه لا خلاف فيه بين أصحابنا قال المحقق الشيخ علي (٣) ضمّ الرياء إلى القربة يبطل العبادة قولاً واحداً إلا ما يحكى عن المرتضى أنه يسقط الطلب عن المكلف ولا يستحق بها ثواباً و ليس بشيء ، والخلوص من جنود العقل و أنصاره والشوب من جنود الجهل و أعوانه و ميدان مجادلتهم و معارضتهم ساحة القلب وذلك لأنّ العقل ميله الصعود إلى عالم القدس وقصده تسخير عالم الملك والملكوت و خلوص العمل يعينه على ذلك ، و الجهل ميله الهبوط إلى عالم الحسّ و منازل النسيان و قصده النزول في محلّ البعد و بساط الخذلان و شوب العمل بالرياء و غيره من التدليسات النفسانيّة والتلبيسات الشيطانيّة و المخاطرات الوهميّة يعينه على ذلك .

(والشهامة وضدها البلادة) عدّ المحقق الطوسي الشهامة من أنواع الشجاعة

(١) الكافي كتاب الايمان والكفر باب الرياء تحت رقم ١٠

(٢) خبر لقوله « فالقول بالتفصيل » ولا يحتاج الى تصريح به في خبر بل يكفي الادلة

الدالة على وجوب الاخلاص وابطال تشريك غير الله معه في النية فيقال : اذا كان المقصود بالذات التقرب لم يقدح في الاخلاص ضم غيره تبعاً والعلامة على ذلك أن يعرض العابد على نفسه هل كان يصدر هذا العمل منه ان لم تكن الضميمة فان أحسن من نفسه أنه يصدر منه كان العمل صحيحاً (ش) .

(٣) يعني الشيخ علي بن عبد العالي الكركي - قدس سره - .

الحاصلة من الاعتدال في القوة الغضبية وفسرها بأنها حرص النفس على اقتناء الأمور العظام توقّعاً للذكر الجميل وهذه ليست بمرادة هنا لأنّ البلادة ليست بضدّها و ليس لضدّها أيضاً اسم مشهور ، بل المراد بها ذكاء الفؤاد يقال : شهم - بالضم - شهامة فهو شهم أي جلد ذكيّ الفؤاد فهي من توابع الاعتدال في القوة العاقلة. والبلادة وهي ضدّ الذكاء يقال : بلد بالضم فهو بليد و تبلد أي تردد متحيراً ، من فروع التفريط والتقصان في القوة المذكورة ، و نعني بهذه البلادة ما كان من سوء الاختيار لاما كان من أصل الخلقة لأنّ المقصود هو الترغيب في تحصيل الأوّل وترك الثاني و ذلك لا يتصور إلّا فيما كان فعله و تركه مقدوراً ، ثمّ كون الأوّل من جنود العقل والثاني من جنود الجهل ظاهر لأنّ الذكاء سبب لعروج العقل إلى أقصى المدارج من مدارج المعارف الرّبّانية وضدّه سبب لنزول النفس في أسفل الدّركات من مهالك الشبهات الظلماتيّة.

(والفهم وضدّه الغباوة) قال بعض المحقّقين : لعلّ هذه الفقرة كانت في الأصل بدلاً عن قوله عليه السلام فيما مضى « والفهم ضدّه الحمق » والناسخون جمعوا بينهما في الكتابة غافلين عن البدليّة والمعنى واحد . ويمكن أن يقال : المراد بالفهم هنا الفطنة وهي جودة تهيّأ الذّهن لاكتساب العلوم و بعبارة الأخرى هي إدراك المقصود من الخطاب بسهولة . والغباوة « كودن شدن و درنيافتن » كما في كنز اللّغة يعني عدم فهم المقصود من الخطاب بسهولة و هذا المعنى غير المعنى المقصود من الفهم والحمق كما أشرنا إليه سابقاً ، وأمّا حمل الفهم هنا على الذكاء الذي هو فوق الفهم المذكور سابقاً كما أشرنا إليه هناك و إن كان ممكناً ويحصل به المغايرة بين الفهمين لكن معنى هذه الفقرة حينئذ يرجع إلى الفقرة السابقة عليها أعني قوله : « والشهامة و ضدّها البلادة » إذ مآلهما واحد.

(والمعرفة و ضدّها الإنكار) المعرفة سراج القلب يرى بها خيره و شرّه و منافعه و مضارّه ، وكلّ قلب لا معرفّة له فهو مظلم ، والمراد بها إمّا معرفة الأئمة و فضلهم و علوّ منزلاتهم وهي أكمل فضائل العاقل لأنّه يعرف بنور معرفته أنّهم

دعائم الاسلام وولايج الاعتصام والهداة إلى نور الدين وأن طلب العلم و الفضيلة والوصول إلى أنوار الحكمة و أسرار الشريعة لا يتيسر إلا بوساطتهم ولا يتحصل إلا بعنايتهم ، و أنهم الذين عقلوا الدين عقل وعاية و رعاية لاعقل سماع ورواية (١) ولا يخالفون الحق أبداً ولا يتجاوزونه إلى رذيلة الإفراط والتفريط قطعاً و إنكار شيء من ذلك أو عدم معرفته من أخس رذائل الجاهل المغرور برأيه السقيم الراجع عن الصراط المستقيم ، أو المعراض بها معرفة الرب بصفاته و آثاره و أفعاله و كلاله.

(١) فان قيل أليس الدين لجميع الناس والشريعة لعامةهم ؟ وهل ورد الكتاب والسنة إلا لفهم جميع الأمة وهل يتعبدون إلا بظواهر الألفاظ على ما يفهمون فان كان هذا حقاً فمن سمع وروى لا بد أن يعرف معنى الكلام وظاهره اذ ليس الغرض من الرواية ان يحفظ اللفظ العربي من لا يعرف العربية كفاً سوى يحفظ كلمة تركية لا يعرف معناها بل معنى الرواية أن يحفظ لفظاً يعرف معناه وهو حجة عليه فما معنى قولهم «عقل وعاية» وقد ورد في الحديث مكرراً الترغيب في الوعاية وعدم الاكتفاء بالرواية ؟ قلنا نعم ورد الشريعة لجميع الناس وكلهم متعبدون بظواهرها على ما يفهم الكلام العربي ويشترك فيه كل من يعرف هذا اللسان و مع ذلك الناس مختلفون في فهم امور زائدة على المشترك بين الكل فمنها ما لم يأت وقت الحاجة اليه ولا يمنع تأخير البيان فيها فيكون مجعلاً كاحوال القيمة حيث قال «فيم أنت من ذكر يها» اذ ليس في الدنيا حاجة الى معرفة تفاصيلها ويجوز تأخير البيان عن وقت الخطاب ولعل مثل ذلك كثير في غير الاعمال البدنية واهل الرواية يكتفون بظواهر الألفاظ واهل الوعاية بتفاصيلها في فهم ما لا يدل ظاهر اللفظ عليه وفي الألفاظ ما يتبادر المعنى منها الى الذهن بحسب العادات كما يتبادر من البيت الى الذهن البدوي الخيمة ومن مجيء الملائكة و خروج الروح التجسم .

وهذا كثير مثل «الله نور السماوات والارض» و «انا عرضنا الامانة على السموات والارض» و «هو الاول والاخر والظاهر والباطن» و «الملائكة باسطوا أيديهم» و مثله اختلافهم في معنى العرش والكرسي وانهما العلم أو القدرة أو جسمان عظيمان واختلافهم في معنى السموات وانهما اجسام لطيفة أو المراد منها عالم المجردات أو أريد به كل منها بحسب المواضع ، واختلافهم في يد الله و وجه الله و آيات الجبر والتفويض (ش) .

المعينين يناسب ما اشتهر من أن المعرفة إدراك شيء، ثانياً بعد الغفلة عن إدراكه أولاً وذلك أن الله سبحانه أخذ الميثاق على عباده بأنه ربهم وعباداً لله عبده ورسوله وعلياً عليه السلام أمير المؤمنين وأوصيائه من بعده ولاية أمره و خزان علمه ثم نسوا بعد رقودهم في مراقد أصلاب الآباء ومهاد أرحام الأمهات وانغمارهم في بحار العوائق الجسمانية واستثمارهم بحجب العلايق البشرية تلك الموائيق القديمة والعمود الوكيدة فمن أيقظته صحيحة المواعظ الإلهية عن نوم الغفلة وجذبتة أيدي الهداية الربانية عن تيه الظلمة وتنور قلبه بنور الهداية والارشاد واستشرق ذهنه بضوء الطاعة والانقياد توجهه إلى مولاه ومقتداه بعد النسيان وحصل له بعد الغفلة فضيلة المعرفة وشرف الترقى إلى مقام أهل العرفان ومن غرق في بحار الشهوات ونام في مراقد الغفلات حتى صار بمنزلة الجمادات أو آل إلى التشابه بالأموات ولم يؤثر فيه تلك المواعظ والنصائح ، ولم يحصل له التمييز بين المحاسن والمقابح فهو غريق الغفلة والنسيان وأسير الغي والطغيان لا ينزجر عن الباطل انزجاراً ولا يتوجه إلى الحق إلا جهلاً وإنكاراً ويترك عنان الطبيعة في يد الهوى ويعرض عن ذكر المولى وهو غافل عن قوله تعالى : ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيمة أعمى قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى .

(والمدارة و ضده المكاشفة) المدارة في حسن الخلق التي من فروع الاعتدال في القوة الغضبية تهمز ولا تهمز يقال دارأته وداريته إذا اتقىته وداجيته ولاينته ، والمقصود أن مداراة الخلق وترك مجادلهم ومناقشتهم صديقاً كان أو عدواً ، عاقلاً كان أو جاهلاً ، من صفات العاقل كما يظهر ذلك بالاعتبار في حال الأنبياء والأوصياء والأولياء ثم الأمثل فالأمثل على تفاوت مقاماتهم وتفاضل درجاتهم ، هذا إذا اقتصروا في حقوقه وأما إذا اقتصروا في حقوق الله تعالى فوجب تقويهم واسترجاعهم بالحكمة والموعظة الحسنة من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإن افتقر إلى الغلظة جاز عن قدر الضرورة من المواعظ

الحسنة في استجلاب طبائع الجهال إلى الحق و تأنيسهم به أن لا يحملوه عليهم دفعة فان ذلك ممّا يوجب نفارهم عنه و فساد نظام أحوالهم بل ينبغي أن يحملوه وياً أنيسهم به على التدريج قليلاً قليلاً و ربّما لم يمكنه تأنيسهم به إمّا لغموضه بالنسبة إلى أفهامهم أو لقوّة اعتقادهم في ضده فينبغي أن يخدعهم عن ذلك و يميلهم إليه بحسب ما يقتضيه الحكمة و ربّما يحتاج إلى إظهار الحق بصورة الباطل كاستدلال إبراهيم عليه السلام بأفول الكوكب بعد قوله : « هذا ربّي » على نقصها المنافي لاهيئتها والمكاشفة من رذائل الأخلاق للجاهل و من فروع الإفراط في القوّة المذكورة وهي الخشونة و المناقشة و إظهار العداوة و إعلانها المؤدي إلى المخاصمة و المجادلة و المقابلة إلى غير ذلك من المفاسد والشدائد الموجهة لفساد أحوالهم و بطلان نظامهم .

(و سلامة الغيب و ضدها المماكرة) الغيب ما غاب عن العيون و إن كان محصّلاً في نفسه و كان المراد به هنا القلب أو رجل غائب ، و المنكر الاحتيال والخديعة والمقصود أن سلامة القلب و خلوصه من الغش والاحتيال و الخدعة في المعاملة مع الإخوان والمعاشرة مع الخلان وغيرهم أو سلامة كلّ غائب من صفات العاقل لصفاء طبيئته و خلوص عقيدته و علمه بأن المؤمنين كنفس واحدة فلا يرضى لهم إلا ما يرضى لنفسه و بأن المكر بهم مكر بنفسه حقيقة كما قال سبحانه « ولا يحق المكر السيّء إلا بأهله » بخلاف الجاهل المنغمس ذهنه الكثيف في ظلمة الجهالة فإنّه لكدره طبيئته و فساد عقيدته يتخذ المكر منهجاً لمطالبه و مسلماً لمآربه و هو غافل عن سوء مآله عاجلاً و آجلاً و عن اختلال حاله ظاهراً و باطناً . (والكتمان و ضده الإفشاء) من شأن العاقل كتمان سرّه بوضعه في صندوق جنانه و عدم فتحه مفتاح لسانه و تحرّيم إبرازه على أوثق إخوانه فإنّك إذا لم تكن سرّاً فكيف تنوّع ذلك من غيرك و لذلك قال أمير المؤمنين عليه السلام : « المرء احفظ لسرّه (١) » و قال أيضاً « من كتم سرّه كان الخيرة بيده (٢) » وقال أبو الحسن

(١) النهج أبواب الكتب والرسائل تحت رقم ٣١.

(٢) المصدر أبواب الحكم تحت رقم ١٦٢.

عَلَيْهِ السَّلَامُ: إِنْ كَانَ فِي يَدِكَ هَذِهِ شَيْءٌ فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ لَا يَعْلَمَ هَذِهِ فَاذْعُفْ، وَكَانَ عَنْدهُ
أُنَاسٌ فَتَذَكَّرُوا الْأَذَاعَةَ فَقَالَ: احْفَظْ لِسَانَكَ تَعَزَّ وَلَا تُمْكِّنِ النَّاسَ مِنْ قِيَادِ رَقَبَتِكَ
فَتَذَلَّ (١) وَإِنْ كُنْتَ فَاعِلًا فَعَلَيْكَ بِصَدِيقٍ قَدْ جَرَّبَتْهُ مَرَارًا وَعَامَّتْ حِفْظَ لِسَانِهِ
سِرًّا وَجَهَارًا كَمَا قَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «الطَّمَأْنِينَةُ إِلَى كُلِّ أَحَدٍ قَبْلَ الْاِخْتِبَارِ
عِجْزٌ» (٢) وَمِنْ أَشْعَارِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ:

لَا تُودِعِ السِّرَّ إِلَّا عِنْدَ ذِي كَرَمٍ وَالسِّرُّ عِنْدَ كِرَامِ النَّاسِ مَكْنُومٌ
وَالسِّرُّ عِنْدِي فِي بَيْتٍ لَهُ غَلَقٌ قَدْ ضَاعَ مِفْتَاحُهُ وَالبَابُ مَخْتُومٌ
وَيَنْدَرُجُ فِيهِ كِتْمَانُ عَيْبِهِ وَمَعَاصِيهِ وَالْكَرَامَاتُ الَّتِي أَوْدَعَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِ فَإِنْ
إِفْشَاءُهَا قَدْ يُوْجِبُ زَوَالَهَا وَكِتْمَانُ دِينِهِ إِذَا تَوَهَّمُ الضَّرْرَ بِإِظْهَارِهِ قَالَ الصَّادِقُ عَلَيْهِ السَّلَامُ
لِسُلَيْمَانَ بْنِ خَالِدٍ: «يَا سُلَيْمَانُ إِنَّكُمْ عَلَى دِينٍ مِنْ كِتْمَنِ أَعَزَّ اللَّهُ وَمَنْ أَذَاعَهُ أَذَلَّهُ
اللَّهُ» (٣) أَمْرُهُ بِكِتْمَانِ دِينِهِ مِنْ غَيْرِ أَهْلِهِ وَمِمَّنْ لَا يَعْرِفُ حَالَهُ. وَكِتْمَانُ عَيْبِ أَخِيهِ وَ
سِرِّهِ لِأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ إِخْوَةٌ بَلْ هُمْ مَعْدَنٌ وَاحِدٌ كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمَنْ أَذَاعَ مِنْهُمْ سِرًّا
أَحَدَهُمْ أَوْ عَيْبَهُ كَانَ كَمَنْ أَذَاعَ سِرَّ نَفْسِهِ أَوْ عَيْبِهِ وَقَدْ وَرَدَتْ الْآيَاتُ وَالرُّوَايَاتُ
الْمُتَكَثِّرَةُ عَلَى الْحَثِّ بِهِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: «وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ
يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا» وَقَالَ: «إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ
آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ» وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ
ﷺ: «مَنْ أَذَاعَ فَاخْشَةَ كَانَ كَمُبْتَدِيهَا» (٤) وَإِنْ أَوْدَعَكَ أَخُوكَ سِرًّا فَعَلَيْكَ أَنْ لَا
تُخْبِرَ بِهِ أَحَدًا وَإِنْ كَانَ صَدِيقُكَ لَا نَّ لِلصَّدِيقِ أَيْضًا صَدِيقًا وَقَالَ عُمَرَار: قَالَ لِي
أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «أَخْبِرْتَ بِمَا أَخْبَرْتُكَ بِهِ أَحَدًا؟ قُلْتُ لَا إِلَّا سُلَيْمَانَ بْنَ خَالِدٍ. قَالَ:

أَحْسَنْتَ أَمَّا سَمِعْتَ قَوْلَ الشَّاعِرِ:

(١) الكافي كتاب الإيمان والكفر باب الكتمان تحت رقم ١٤.

(٢) النهج أبواب الحكم تحت رقم ٣٨٤.

(٣) الكافي كتاب الإيمان والكفر باب الكتمان تحت رقم ٣.

(٤) رواه الكليني في الكافي باب التعمير من كتاب الإيمان والكفر.

فلا يعدون سرّي وسرك ثالثاً ألاكل سرّ جاوز اثنين شايع (١)
 قوله ﷺ «أحسنتم» للتقريع كما هو الشايع في استعمال هذا الكلام في
 المحاورات و يدل عليه ما بعده و قيل لرجل : كيف تحفظ السرّ؟ فقال : أجد
 للمخبر واحلف للمستخير. وجحدّه و إن كان كذباً لكن الكذب مطلوب في بعض
 المواضع و كذا الحلف و التورية فيها أحسن ، و نقل أن رجلاً أفشى سرّه إلى
 أخيه فقال له أحفظت؟ فقال : بل نسيت، و من شأن الجاهل إفشاء السرّ و العيب
 لعدم علمه بوخامة عاقبته و سوء خاتمته و إنّما ذلك لظلمة جنانه و ضعف إيمانه و
 رخاوة لسانه و اعتياده بالأيذاء والاضرار فدائماً نفسه منه في تعب و بلاء و غيره
 منه في نصب وعناء .

(و الصلوة و ضدّها الاضاعة) إقامة الصلوة بحدودها و شرايطها من أكمل
 فضائل العقل و ملكاته ، و إضاعته من أعظم رذائل الجهل و صفاته و ذلك لأنّ
 الصلوة الكاملة الموجبة للمجوع عن الهويّات البشريّة والانّصاف بالصفات الملكيّة
 والعروج إلى المقامات اللاهوتيّة كما يعتبر في تحقّقها أعمال بدنيّة مثل الطهارة
 و ستر العورة والاستقبال إلى بيس الله والتكبير والقراءة والأذكار والرّكوع والسجود
 والنشيد والتسليم كذلك يعتبر في تحقّقها أفعال قلبيّة بازاء تلك الأعمال وتلك
 الأعمال بمثابة الجسد وهذه الأفعال بمنزلة الرّوح أمّا طهارة القلب فتخليصه عمّا
 سواه تعالى و تنزيهه عمّا عداه و أمّا ستره فستر عيوبه عن الرّوحانيين بالانابة
 و الانابة طلباً لقبليّة مجاورة الله و مناجاته والدّخول في ساحة عزّه و مشاهدة
 كمالاته و أمّا استقباله إلى الله فمطالعة جلاله و جماله و قدرته و كماله ، و أمّا
 قيامه بين يديه فازعانه بأنّه عبد ذليل عاجز فقير مائل بين يدي ربّ جليل ، و أمّا
 تكبيره فبأن يعتقد أنّه تعالى أكبر من أن يصفه الواصفون و ينعته الناعتون و
 يأتي بحقّ عبادته العابدون ، و أمّا قرأته فبأن يتعمّق في الباطن ما نطق به اللسان
 الظاهر ويتذكّر أنّه تعالى هو المستحقّ للحمد والثناء والجامع للكمالات كلّها

في ضمن أحسن الأسماء وأنه رب كل شيء، يعطيه ما يليق به من حاله آنافاً
و يبلغه إلى غاية كماله شيئاً فشيئاً فكل شيء سواء في رقبته الحاجة إليه مفتقر
إلى فيضه مقهور بين يديه وأنه المنعم في الدنيا والآخرة ينعم كل أحد بما يليق
بحاله وأنه المالك في يوم الجزاء بالاستحقاق ولأمالك فيه غيره على الإطلاق، و
أنه المعبود المستحق للعبادة وغاية الخضوع دون غيره، وأنه المستعان في جميع
المهمات وفي أداء العبادات، وأنه الهادي إلى الدين القويم والصراط المستقيم صراط
أمير المؤمنين والأئمة المعصومين عليهم السلام، وأنه الموفق للميل عن صراط الضالين
المضلين، وأما ركوعه فبان يتواضع وينخشع ويعترف بأنه تعالى متصف
بالعظمة والكبرياء، ومستحق بأن يتدلل له الأشياء بالانحناء، وأما سجوده فبان
يرى كل شيء عند كمال عظمته موضوعاً وكل قدر عند جلال رفعة مخفوضاً و
يتواضع له زائداً على ما سبق ويلقى نفسه على تراب المسكنة والافتقار ويضع جبهته
على غبار العجز والانكسار، وأما تشهده فبان يشاهد بعين البصيرة تفرده بالهيبة
وتوحيده بالربوبية وتنزهه على أن يشاركه في العبادة، وأما تسليمه فبان
يقصد أنه قطع المراحل الناسوتية وبلغ المنازل اللاهوتية ورأى عند أبوابها
الملائكة المقرئين والأنبياء والمرسلين وعباد الله الصالحين خاشعين لهيبته فيسلم
عليهم تحية لهم وتأنيساً بهم، وبالجملية المقصود الأصلي من الصلاة تطويع النفس
الأمارة للعقل وتمريضها على موافقته وهو لا يحصل بدون حضور القلب وأفعاله
المذكورة والتفاتته إلى مشارق أنوار الحق ومطالع أسرارهِ وتجردهِ عن جلابيب
العوايق البشرية وسيره في عالم النوحيد والصلوة بهذا الوجه أعني المشتملة
على الأعمال البدنية والأفعال القلبية من أكمل فضائل العاقل العارف بالله و
آياته، وهي التي ورد في وصفها والحث عليها قوله تعالى «إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى
عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ» وقد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون» وقوله

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «الصلوة عمود الدين» (١) و قوله «الصلوة مفتاح الجنة» (٢) و قوله «من صَلَّى ركعتين ولم يحدث نفسه فيهما بشيء من الدنيا غفر الله ذنوبه» (٣) و قوله «قرءة عيني في الصلوة» (٤) و قوله: «الصلوة قربان كل تقى» (٥) و إضاعتها من جنود الجهل وصفات الجاهل وهي عبارة عن تركها بالمرّة أو الإتيان بالأعمال البدنية «جرّدة عن الأفعال القلبية» لأن الإضاعة تختلف باختلاف حال الجهل و رسوخه فربّ جاهل يبلغ جهله إلى حدّ يتركها بالكليّة لسواد قلبه و زوال بصيرته واعتقاده و ربّ جاهل يصلي ولا يخطر بباله أنه يصلي إلى آخر الصلوة لتسلط النفس و الشيطان عليه و اشتغال قلبه بغير الله والتفاتة إلى ما سواه و يشملها الذم في قوله تعالى «فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلوة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيّا» و ربّ جاهل يصلي وهو أنّه يصلي في بعض الأوقات دون بعض و يحضر قلبه في بعض الأفعال دون بعض وهذا فعلة مختلط وعمله ممتزج بقرب من الحق تارة و يبعداً أخرى والمذي يقتضيه النظر أنّه في خطر عظيم ولكن دلّ بعض الروايات المعتمدة أنّه يقبل من صلواته بقدر ما يعقله وهذا دلّ على صحّة صلواته و خروجه عن عهدة التكليف (٦)

(١) أخرجه أبو نعيم الفضل بن دكين في كتاب الصلاة وابن منيع أيضاً . كما في الجامع الصغير وكنوز الحقائق للمناوي .

(٢) لم أجده هكذا وللدارمي في سننه من حديث جابر بن عبد الله الأنصاري «مفتاح الجنة الصلاة» .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده ج ٤ ص ١١٢ و ١١٧ . ورواه ابن المبارك في الزهد و الرقائق والراوندي في لب اللباب كما في المستدرک الوسائل كلهم بزيادة «من توضأ وصلى ركعتين- الحديث» وبادنى اختلاف في لفظه .

(٤) أخرجه النسائي ج ٧ ص ٦٧ في حديث عن انس . ورواه الصدوق في الخصال أبواب الثلاثة ج ١ ص ٧٩ .

(٥) رواه الكليني في الكافي كتاب الصلاة باب فضل الصلاة تحت رقم ٦ .

(٦) قد يقع في كلام بعضهم ان قبول العمل شيء وصحته شيء آخر ويمكن ان يكون العمل صحيحاً غير مقبول وربما ترى في كلام اهل التحقيق انكار هذا المعنى و نسبته الى *

ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

(والصوم و ضده الإفطار) ليس المراد بالصوم هنا مجرد الإمساك عن الطعام والشراب وغيرهما من الأمور المذكورة في كتب الفقهاء بل المراد به الإمساك عنها وعن جميع ما يوجب البعد عنه تعالى ولا يتحقق ذلك إلا بصوم جميع الجوارح والأعضاء الظاهرة والباطنة وإمساكها عما يكره أو يحرم وذلك بأن يجتنب عن أذى الخادم وغيره وعن ضربه وشتمه ، و يحفظ البصر عن النظر إلى ما لا ينبغي النظر إليه والقلب عن ذكر غير الله والسمع عن استماع ما لا يجوز واللسان عن الكذب والهذيان والغيبة والبهتان والحلف والمراء وإنشاد الشعر في الليل والنهار ويعف البطن والفرج عن تناول الشبهات والمحرّمات وإكثار الحلال من الأطعمة والأشربة وتناول أنواع المسنّذات وقت الإفطار ، وقس على ذلك سائر الأعضاء وهو مع ذلك يقوم بين الخوف والرجاء في رده لتجويز التقصير فيه وقبوله لملاحظة لطف الله وكرمه ولا يرب في أن الصوم بهذا المعنى من أفضل خصال العقل وأعظم جنوده التي يستعين بها في جهاد النفس الأمّارة بالسوء وكسرها وتهوئ شهواتها وإن الإفطار يعني ترك الإمساك عن جميع ما ذكر أو عن بعضه من أكمل رذائل الجهل وأعوانه في إطاعة المهوريات النفسانية وتناول الشهوات الشيطانية والملذّذات الجسمانية الموجبة للبعد عن نيل رحمة رب العالمين والقرب من أسفل السافلين نعوذ بالله من مخاطرات الجهل و همزات الشياطين

(والجهاد و ضده النكول) الجهاد بالكسر مصدر جاهدت العدو إذا قابلته في

* العشوية أي جهال أهل الحديث و حجة هؤلاء أن الله تعالى أمر بشيء اتى به المكلف على ما أمر به فيستحق الثواب عليه عقلا ونفلاحيث قال « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره » ومن يدعى أن الله تعالى ربما لا يقبل العمل الصحيح أن أراد به أنه لا يعطيه ثواباً أصلاً فهو قبيح لا يجوز نسبته إلى الله تعالى وإن أراد أنه يعطى ثواباً أقل من أمثاله لقلة شرائط الكمال فهو ممكن ولكنه غير متبادر من لفظ القبول والحق أن كل عمل صحيح مجزئ يثاب عليه وإن اختلفت الاعمال باختلاف شرائط الكمال ولا يرب في صحة ما ذكر الشارح من استفادة صحة العمل من الرواية ولا بد أن يعمل القبول في الروايات على زيادة الثواب لأصل الثواب (ش) .

تحمّل الجهد إذ كل واحد من المتخاصمين يبذل طاقته و يتحمّل مشقته في دفع صاحبه ، والنكول الجبن يقال : نكل عن العدو ينكل بالضم أي جبن ، والناكل الجبان ، الضعيف ، ثمّ الجهاد على خمسة أصناف جهاد مع العدو الظاهر وهو الكافر قال الله تعالى « انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم و أنفسكم في سبيل الله » و جهاد مع العدو الخفي قال الله تعالى « إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا » و جهاد مع أصحاب الباطل بالعلم والحجة قال الله تعالى « وجاهد لهم بالتي هي أحسن » و جهاد مع الفاسق من أهل الايمان بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قال الله تعالى « والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر » و جهاد مع النفس الأمّارة بالسوء قال الله تعالى « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سلبنا » وهذا الصنف أشق وأعظم من الجميع كما دلّت عليه التجربة ودلّ عليه ما روي عن أبي عبد الله عليه السلام أن النبي ﷺ بعث بسريّة فلما رجعوا قال : «مرحباً بقوم قضوا الجهاد الأصغر و بقي الجهاد الأكبر ، قيل : يا رسول الله ما الجهاد الأكبر؟ قال: جهاد النفس (١)» و من نظر في هذا الخبر الذي نحن في صدد شرحه حقّ النظر وتأمّل في كثرة جنود الجهل وكثرة شوكتها وغلبتها في الأكابر حقّ التأمل عرف سرّ كون هذا الجهاد أعظم وأكبر و نحن نذكر حقيقته وكيفيته و وجه كونه أعظم في كتاب الجهاد إن شاء الله تعالى ولا يبعد أن يراد بالجهاد هنا جميع هذه الأصناف لأنّ كلّ واحد منها من صفات العقلاء و خواص الأولياء و الصّابرين في البأساء والضراء الذين غاية مناهم تخليص نفوسهم و نفوس عباد الله عن قيود الهلكات ، و أغلال الشبهات و سلاسل الزّلات وأنزاعها من أيدي هذه الدّنيا الغدّارة والأبالسة المكاراة و سياقها إلى بساط الحقّ و ساحة رحمته ومحلّ كرامته و فناء جنّته فيدخلون فيها إخواناً على سرر متقابلين لا يمسّهم فيها نصب وما هم منها بمخرجين و أمّا النكول عن الجهاد والتقاعد منه فهم من سمات الغافلين و صفات الجاهلين الذين يسلكون مسالك النفوس الأمّارة و يختارون راحتها على مشاقها

و هم عن شناعة العقوبة جاهلون و يؤثرون الحياة الدنيا على الآخرة و هم عنها غافلون.

(والحجّ وضده نبذ الميثاق) و الحجّ بالفتح القصد وقد غلب على قصد الكعبة للنسك المعروف، وبالكسر الاسم، والميثاق العهد ونبذه نقضه من نبذ الشيء من يده طرحه و رمى به لأنّ نقض العهد طرح له والمقصود أنّ حجّ بيت الله تعالى من صفات العاقل الذي شأنه الوفاء بالعهد والميثاق و تركه من صفات الجاهل الذي شأنه نقض العهد والميثاق و ذلك لأنّ الله تعالى لمّا أراد أن يأخذ الموائيق من العباد أخذها في ذلك المكان و أمر الحجر و هو ملك بهذه الصورة يسمع و يرى فالتقمها فمن أتاه وجدّ له الاقرار يشهد له بالموافاة يوم القيمة ومن لم يأتها فهو ناقض العهد وناسيه ويشهد عليه بالكفر والانكار و نقض العهد يدلّ على ذلك روايات متكررة ويحتمل أن يراد بالميثاق ما أجابوا عند نداء إبراهيم عليه السلام بوطئته إياهم إلى الحجّ وهم في أصلاب الآباء وأرحام الأمهات بقولهم لبيك اللهم لبيك و يحتمل أيضاً أن يراد بالحجّ القصد إلى الأئمة الطاهرين عليهم السلام والعكوف في أبواب علومهم و معارفهم والسؤال عنهم لأنّ الله تعالى أخذ ميثاق ذلك على العباد و نبذ الميثاق تركهم والرّجوع إلى أصحاب الأهواء الباطلة و أرباب الآراء الفاسدة و من الأفاضل لما رأى أنّ عدد الجنود زائد على الخمسة و السبعين بثلاثة حكم بأن هذه الفقرات الأربع أعني الصلوة وضدّها الاضاعة إلى آخر الأربع ترجع إلى فقرة واحدة أعني العبادة وضدّها الاضاعة (١) والله أعلم

(١) قد مر في شرح أول الحديث في الصفحة ٢٧٠ أن مفهوم العدد غير معتبر و ليس المراد الحصر في خمسة وسبعين بل الجنود أكثر من ذلك بكثير و إنما ذكر الأهم و الاعرف و مر أيضاً كلام الشيخ بهاء الدين و قال في الوافي: المذكور في النسخ الستة رايها عند التفصيل ثمانية و سبعون و لعل الثلاثة الزائدة الطمع والمافية والفهم لانحداد الاولين مع الرجاء والسلامة المذكورين و ذكر الفهم مرتين في مقابلة اثنين متقاربين و لعل الوجه في ذلك أنه لما كان كل منها غير صاحبه في دقيق النظر ذكر عليه حدة و لما كان الفرق دقيقاً خفياً والمعنى قريباً كما يأتي ذكره لم يحسب من العدد و قال المجلسي - ره - وفي الغصال وغيره زيادات أخر برتقى منها إلى إحدى وثمانين (ش) .

(وصون الحديث و ضده النميمة) نمّ الحديث ينمّه و ينمّه بالضم و الكسر
نمّا أي قتمّه و الاسم النميمة والرّجل نامّ و نمّ و نمّام أي قتمّات للمبالغة والقتمّات
من قتمّ الحديث إذا سمعته وجمعه و كذلك فعل النمّام، وقال في النهاية: النميمة
نقل الحديث من قوم إلى قوم على جهة الفساد والشرّ، ومثله قال المازري وعلى
هذا هذه الفقرة أخصّ من الكتمان والافشاء لأنّ الكتمان أعمّ من صون الحديث
و غيره والافشاء أعمّ من نقل الحديث وغيره، وقال الغزالي: النميمة كشف ما
يكبره كشفه من قول أو فعل كرهه المنقول عنه أو إليه أو ثالث و على المنقول
إليه أن لا يصدق الناقل لأنّه فاسق و أن ينهيه لأنّ نهيه من النصيحة وأن يبغضه
لأنّه مبغض عند الله و يجب بغض من يبغضه الله سبحانه وأن لا يظنّ بالمنقول عنه شرّاً وأن
لا يجسّس عليه ولا يحكي ما نقل عنه لأنّه يصير نمّاماً، و حكمها الحرمة لتضمّنها
مفسدة عظيمة من التباعد والتفارق و كسر عرض المؤمن و قد يؤدّي
إلى سفك الدّماء و نهب الأموال ونحوها إلا أن تتضمّن مصلحة شرعيّة فلا تمنع
كإخبار الامام عمّن يريد أن يوقع فساداً و إخبار الرّجل عمّن يريد أن يفتك به
أو بأهله أو بماله وقد يجب ذلك بحسب المواطن إلا أنّها حينئذ ليست بنميمة وقد
ورد الرّوايات على ذمّ النمّام منها ما روي عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: «محرمّة الجنّة
على القتاتين (١) المشائين بالنميمة» (٢).

(و برّ الوالدين و ضده العقوق) قال في النهاية: البرّ بالكسر الاحسان
منه الحديث في برّ الوالدين و هو في حقّهما و حقّ الأقربين من الأهل ضدّ
العقوق وهو الاساءة والتضييع لحقّهم يقال: برّ يبرّ فهو بارّ وجمعه بررة وجمع البرّ
أبرار و هو كثيراً ما يخصّ بالأولياء والزّهاد والعباد، وعقّ والده يعقّه عقوقاً
فهو عاقّ إذا آذاه وعصاه و خرج عليه وأصله من العقّ و هو الشقّ والقطع و قد

(١) قتلوه سخن چینی (ش).

(٢) الكافي كتاب الايمان والكفر باب النميمة تحت رقم ٢.

ورد من طرق الخاصة والعامة أن عقوق الوالدين من كباير الذنوب فالبر بحكم
التضاد من عظام الحسنات ، و من برّك بهما أن تحسن صحبتهما وتقضى ديونهما ،
و تعينهما على فعل الخيرات ، وتفعل ما يسرّهما وتترحم عليهما ، و توصل ما
أمكن من الخيرات إليهما ، ولا تكلفهما سؤال شيء مما يحتاجان إليه ، ولا تقسول
لهما : أفّ إن أضجراك ، ولا تنهرهما إن ضرباك ، ولا تملأ البظر إليهما إن أغضباك
ولا ترفع صوتك فوق أصواتهما ولا يدك فوق أيديهما ، ولا نقدّمهما ولا تستسيبهما بأن
تسبّ أبا غيرك و أمّه فيسبّ أباك و أمّك ولا تفعل ما يؤذى نفسك أو صديقتهما
فإن ذلك يؤذيهما ، ولا تعنهما على الظلم فإنّ الاعانة عليه خلاف البرّ ، ولا تسافر
إلاّ باذنهما و إن كان إلى الجهاد لأنّ أنسهما بك يوماً و ليلة خير من جهاد سنة ،
ثم لا فرق في وجوب برّهما بين أن يكونا حيّين أو ميتين لرواية محمد بن عمران عن
الصادق عليه السلام ورواية محمد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام قال : «إنّ العبد ليكون بارّاً
بوالديه في حيوتهما ثم يموتان فلا يقضى عنهما دينهما ولا يستغفر لهما فيكتبه الله عزّ
وجلّ عاقباً ، و إنّه ليكون عاقباً لهما في حيوتهما غير بارّ بهما فإذا ماتا قضى دينهما و
استغفر لهما فيكتبه عزّ وجلّ بارّاً (١) » ، و كذا لا فرق بين أن يكونا برّين أو فاجرين
لما رواه عنبة بن مصعب عن أبي جعفر عليه السلام قال : «ثلاث لم يجعل الله عزّ وجلّ لأحد
فيهنّ رخصة أداء الأمانة إلى البرّ والفاجر . والوفاء للعهد للبرّ والفاجر و برّ
الوالدين برّين كانا أو فاجرين (٢) » ، ولا بين أن يكونا مؤمنين أو مخالفين أو كافرين
لروايات متكرّرة منها رواية جابر عن أبي عبد الله عليه السلام (٣) ورواية زكريا بن
ابراهيم عنه عليه السلام (٤) .

(والحققة و ضدّها الرياء) لكلّ شيء حقيقة و حقيقة العمل هي الاخلاص

(١) و (٢) الكافي كتاب الايمان والكفر باب البرّ بالوالدين تحت رقم ٢١ و ١٥٠ .

(٣) و (٤) المصدر تحت رقم ١٠ و ١١ .

يعنى، صرفه إلى الله طلباً لرضاه والرياء، وهو القصد بالطاعة إلى التقرب بالمخلوقين و طلب المنزلة في قلوبهم والميل إلى إعظامهم له و توقيهم إيّاه و تسخيرهم لقضاء حوائجه و القيام بمهماته إلى غير ذلك من الأغراض الفاسدة النفسانية والتسويات الكاسدة الشيطانية مناف لتلك الحقيقة وضدّها لا يجمعها أصلاً كما أشرنا إليه سابقاً بخلاف الشوب في قوله عَلَيْهِ السَّلَام «والاخلاص ضدّه الشوب» فإن بعض أفرادهِ وهو ما إذا ضمّ إلى العبادة قصد تحصيل الثواب والتحرّز عن العقاب أو قصد التبرّد والتسخّن غير مناف لحقيقة الاخلاص وإنّما هو مناف لكماله فلذلك لم يجعل الشوب ضدّ الحقيقة مثل الرياء إذا عرفت هذا فنقول : إن خصّصنا الرياء في هذه الفقرة بالرياء الخالص وعمّمنا الشوب في الفقرة السابقة بشوب الرياء وغيره أو خصّصنا الشوب بشوب غير الرياء وعمّمنا الرياء هنا بالرياء الخالص والرياء المنضمّ كان بينهما تباين في التحقيق قطعاً وفي الحكم أيضاً على الثانى دون الأوّل لأنّ الرياء مبطل للحقيقة مطلقاً والشوب على الثانى غير مبطل للحقيقة بل لكمالها عند بعض وعلى الأوّل أعمّ من أن يكون مبطلاً أو غير مبطل وإن عمّمنا الشوب والرياء كليهما كان بينهما عموم من وجه في التحقيق وعموم مطلق في الحكم .

(والمعروف و ضدّه المنكر) أي الاتيان بهما والكلام هنا في سبعة أشياء الأوّل في حدّ المعروف وهو في اللغة اسم لكلّ ما اتّصف بحال يوجب كونه معلوماً ومنه يقال : فلان معروف إذا اتّصف بوصف يوجب شهرته بين الناس وفي الشرع اسم لجميع ما ينقرب به العبد إلى الله تعالى واجباً كان أو ندباً مثل الصلوة والزّكوة والاحسان إلى الناس و إعطاء فضل المال إلى غير ذلك من مكارم الأعمال ومحاسن الأفعال ولا يبعد تخصيصه هنا بما سوى الواجبات ممّا يتعلّق بالحقوق المالية لقول الصادق عَلَيْهِ السَّلَام « المعروف شيء سوى الزكوة فتقرّبوا إلى الله عزّ وجل

بالبرّ وصلة الأرحام (١)، والمنكر الشيء المتغيّر عن حاله ووصفه حتّى ينكرو
 يجهل ومنه النكرة ضد المعرفة فإن المعرفة إذا غيرت عن وصف التعريف تصير نكرة
 مجهولة. الثاني في باعته وعلمته قال الصادق عليه السلام «وليس كل من يحب أن يصنع المعروف
 إلى الناس يصنعه و ليس كل من يرغب فيه يقدر عليه ولا كل من يقدر عليه يؤذن
 له فيه فإذا اجتمعت الرغبة والقدر والاذن فهناك تمت السعادة للمطالب والمطلوب
 إليه (٢)». الثالث في ثمرته وفوائده ، وفوائده غير محصورة منها ما أشار إليه الباقر
 عليه السلام قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وآله : أول من يدخل الجنة المعروف وأهله ، و
 أول من يرد عليّ الحوض (٣) » وما أشار إليه الصادق عليه السلام بقوله «صنائع المعروف
 تقى مصارع السوء (٤)». الرابع في خصال أهله قال الصادق عليه السلام « رأيت المعروف
 لا يصلح إلا بثلاث خصال تصغيره وتسنيره وتعجيله فإنك إذا صغرت عظمته عند
 من تصنعه إليه ، وإذا سترته تمتته ، وإذا عجلته هتأته وإن كان غير ذلك سخفته
 ونكدته (٥) ». الخامس في وضعه وموضعه قال الصادق عليه السلام لمفضل بن عمر : «إذا
 أردت أن تعرف إلى خير يصير الرّجل أم إلى شرّ فانظر إلى أين يضع معروفه
 فإن كان يضع معروفه عند أهله فاعلم أنّه يصير إلى خير وإن كان يضع معروفه عند
 غير أهله فاعلم أنّه ليس له في الآخرة من خلاق (٦) » وقال جابر : سمعت أبا
 عبد الله عليه السلام يقول : «لو أن الناس أخذوا ما أمرهم الله به فأنفقوه فيما نهاهم الله عنه
 ما قبله منهم ولو أخذوا ما نهاهم الله عنه فأنفقوه فيما أمرهم الله به ما قبله منهم حتّى
 يأخذوه من حقّ ويتفقوه في حق (٧) ». السادس في آدابه وهي اختيار المتوسط
 بين الإفراط والتفريط قال الله تعالى «ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها
 كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً » وقال أبو الحسن عليه السلام « لا تبذل لآخوانك من

(١) و (٢) و (٣) الكافي كتاب الزكاة باب فضل المعروف تحت رقم ٥ و ٣ و ١١.

(٤) المصدر باب أن صنائع المعروف تدفع مصارع السوء تحت رقم ١.

(٥) المصدر باب تمام المعروف تحت رقم ١.

(٦) و (٧) المصدر باب وضع المعروف موضعه تحت رقم ٢ و ٤ .

نفسك ما ضره عليك أكثر من منفعتيه لهم» (١) السابع عدم كفران الطالب للمعروف قال أبو عبد الله عليه السلام: «لعن الله قاطعي سبيل المعروف، قيل: وما قاطعوا سبيل المعروف قال: الرجل يصنع إليه المعروف فيكفره فيمتنع صاحبه من أن يصنع ذلك إلى غيره» (٢) وقال عليه السلام: «قال رسول الله ﷺ: من أتى إليه معروف فليكاف به، فإن عجز فليثن عليه فإن لم يفعل فقد كفر النعمة» (٣) وإذا عرفت المعروف وأقسامه وأحكامه عرفت المنكر وأقسامه وأحكامه بالتضاد، والأول من صفات العاقل العارف المستيقن بالله وبالיום الآخر، المشفق بعباد الله، والثاني من صفات الجاهل المغرور بالدنيا المفتون بزهراتها.

(والستر ضد التبرج) الستر بالفتح مصدر سترت الشيء، أستره إذا غطيته فاستتر هو وتستر أي تغطى والرجل ستر أي عفيف، والجارية ستيرة، وأمّا الستر بالكسر فهو ما يستر به كالسترة بالضم يعني أن من جنود العقل و صفات العاقل ستر الذنوب بالتوبة أو سترها عن الناس لقوله ﷺ: «المذيع بالسيئة مخذول والمستتر بها مغفور له» (٤) أو ستر زلات المؤمنين وعوراتهم ومعايبهم أو ستر الحلي والزينة ومواضعها عن الأجانب مثل السوار للزند والخلخال للساق والدملج للمعد والقلادة للعنق والقرط للأذن والوشاح للعاتق والكشح، وهذا أظهر الاحتمالات بقرينة ضده إذا ظاهر هو أن التبرج إظهار المرأة زينتها ومحاسنها للأجانب وهو حرام عليها قال الله تعالى: «ولا يبدن زينتهن» الآية وقال: «ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى» وإذا حرم إظهارها حرم إظهار مواضعها بالطريق الأولى وهو متفق عليه بين العامة والخاصة ومن التبرج تطييبها وتجميل ثوبها وتزيينها بأثواب فاخرة وخروجها من بيتها وتعرضها نفسها للرجال فيطمع منهم من كان في قلبه مرض قال رسول الله ﷺ: «أبينة امرأة تطيبت وخرجت من

(١) الكافي باب آداب المعروف تحت رقم ٢.

(٢) و (٣) الكافي باب الكفر المعروف تحت رقم ٢٠١.

(٤) الكافي كتاب الإيمان والكفر باب ستر الذنوب تحت رقم ١.

بينها فهي تلعن حتى ترجع إلى بيتها متى رجعت» (١) و قال أبو عبد الله عليه السلام « لا ينبغي للمرأة أن تجمّر ثوبها إذا خرجت من بيتها» (٢) ومنه إظهار صوت حليتها للأجانب قال الله تعالى: «ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن».

(والتقية وضدّها الاذاعة) في الصحاح اتقى يتقى أصله اتقى على افتعل قلبت الواو ياء لانكسار ما قبلها وأبدلت منها التاء و ادغمت، فلمّا كثر استعماله في لفظ الافتعال توهّموا أن التاء من نفس الحروف يعني من نفس حروف الكلمة و أصولها فجعلوه إتقى يتقى بفتح التاء فيهما مخففة ثم لم يجدوا له مثلاً في كلامهم يلحقونه به فقالوا تقى يتقى مثل قضى يقضى. وفي المغرب الوقاية والوقا، كل ما وقيت به شيئاً والتقية اسم من الاتقاء وتأوها بدل من الواو لأنّها فعيلة من وقيت وهي أن يقى نفسه من اللأئمة أو من العقوبة وإن كان على خلاف ما يضرر و في القاموس اتقى الشيء، وتقيته وأتقىه وتقى وتقىة وتقاء ككساء: حذرته، والاذاعة إفعال من الذيع يقال: ذاع الخير يذيع ذيعاً إذا انتشر وأذاعه غيره أي أفشاه والمذيع الذي لا يكتُم السرّ إذا عرفت هذا فنقول التقية جائزة إلى يوم القيمة نقله المغرب عن الحسن أيضاً وهي دين الله في عباده وسنة الله في بلاده (٣)

(١) و (٢) الكافي كتاب النكاح باب التّهتر نحت رقم ٣٥٢.

(٣) التقية دين الله في عباده فانه تعالى امر بذلك وسنة الله في بلاده لان الناس مجبولون

عليها ولا يخالفون الجبارين في سلطانهم الا اذا علموا من انفسهم قوة وقدرة على دفعه .
واعلم ان التقية من السلطان اعنى الحكومة والحكومة لا يهتم بشيء الا بملكه وقدرته فاذا احتل من جماعة خروجاً عليه دفعهم ونكل بهم سواء كانوا موافقين له في المذهب أو مخالفين وان لم يعتقد فيهم خلافاً خلاهم ومذهبهم ولذلك امر الائمة عليهم السلام شيعتهم باستعمال التقية وإظهار الطاعة حتى يأمن الامراء من بوائقهم ويخلوهم وهذا اكثر تأثيراً في بيان الاحكام و ترويج الشرع وانما بقى مذهب التشيع وانتشر هذا الانتشار السريع العظيم بشيئين بأمن الامراء من طغيانهم وبانقيادهم في بلاد المخالفين وبتنزه علماءهم من تهدي مناصب الحكومة واستقلالهم في امرهم بحيث لا يحتمل العزل والنصب في حقهم كما في علماء اهل الخلاف «ش».

و جنة المؤمن يدفع بها سيوف مكر الماكرين وترسه يرد بها سهام كيد الكائدين و حصنه يأوي إليه لدفع تعدى الظالمين و من صفات العاقل الفاضل الذي يعلم حقيقتها و حقيقتها و مواضع استعمالها و موارد الحاجة إليها فيقول و يفعل عند الضرورة و الحاجة بخلاف ما يعتقد حفاً لنفسه و ماله و غيره من المسلمين عن التورط في الممالك و يحسن صحبة الأشرار تحرراً من عقوبتهم و تفرّجاً من مؤاخذتهم و قدروي « أن رجلاً استأذن على رسول الله ﷺ فقال : بشئ أخو العشرة فأذن له فلمّا دخل عليه أقبل عليه رسول الله ﷺ بوجهه و بشره يحدثه حتى فرغ و خرج من عنده فقيل له : يا رسول الله أنت تذكر هذا الرجل بما ذكرته و أقبلت عليه بوجهك و بشرك فقال ﷺ : إن من شرّ عباد الله من يكره مجالسته لفحشه (١) و تقيّة الأئمة عليهم السلام من أهل الجور مشهورة في الكتب مسطورة و في الآيات و الروايات الكثيرة دلالة على جوازها بل على وجوبها قال الله تعالى : « إلا من أكره و قلبه مطمئن بالإيمان » نزل في عمار بن ياسر حين (٢) أكرهه أهل مكّة و قال : « أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا » قال الصادق عليه السلام : بما صبروا على النقيّة و قال : « ويدرون بالحسنة السيئة » قال الشيخ الحسنة النقيّة و السيئة الإذاعة (٣) »

- (١) الكافي كتاب الإيمان والكفر باب من يتقى شره و أخرجه مسلم ج ٨ ص ٢١ .
 (٢) و يجب مغالفتنا على مذهبي النقيّة و عمدتهم في ذلك أن النبي «ص» و الأئمة عليهم السلام في اعتقادكم نصب و البيان الشرايع و الأحكام فلو اتقوا من الأعداء و لم يبينوا بقيت الأحكام مستورة غير معلومة و انتفتت الفائدة من نصبهم و أيضاً لم يبق اعتماد على أقوالهم و أحكامهم اذ يحتمل النقيّة بيان خلاف الواقع و انتم تقولون الإمام يجب أن يكون معصوماً من الخطأ ليكون قوله حجة و النقيّة مثل الخطأ أو اشنع اذ يوجب عدم الاعتماد عليهم و الجواب أن فرض النقيّة إنما هو فيما لا يوجب خفاء الأحكام ولا ينتفي به الاعتماد على قول الإمام و فرق بين النقيّة و عدم العصمة لأن النقيّة عمد فاذ افنى بالنقيّة و كان عالماً به لم يمنع من بيان الحقيقة في وقت آخر بحيث يزيل الشبهة و أما عدم العصمة فربما يغطي في الحكم أو في الفعل ولا يعلم به ولا يلتفت اليه فيمضي الأمر على خطائهم و ان أراد الاستدراك احتمل خطائهم في الثاني دون الأول «ش» .

(٣) راجع الكافي كتاب الإيمان والكفر باب النقيّة .

و بالجملّة النقيّة ترس العاقل و حرزه و جنده ، و أمّا ضدّها و هي الاذاعة فمن صفات الجاهل الذي يقصر نظره عن ملاحظة سوء عاقبتها و قبح مآلها فأنّه قد يفعل شيئاً أو يتكلّم بكلام أو يروي حديثاً يورث قتله أو ضربه أو حبسه أو شتمه أو نهب أمواله أو سبي ذراريه أو نكال غيره من المسلمين وقد دلّت الآيات و الروايات المتكثّرة على ذمّها قال الله تعالى : «فاذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به» و قد عيّرهم بالاذاعة فأيّاً كم و الاذاعة و قال الصادق عليه السلام : «ما قتلنا من أذاع حديثنا خطأً ولكن قتلنا قتل عمد (١)»

(و الانصاف و ضدّه الحميّة) الانصاف العدل و التسوية ، يقال : القاضي أنصف بين الخصمين إذا عدل و سوّى بينهما في المجلس ، و فلان أنصف الناس من نفسه إذا رضي لهم ما رضي لنفسه و كره لهم ما كره لنفسه و حكم على نفسه لو كان الحقّ لهم و عن الصادق عليه السلام : «سيّد الأعمال ثلاثة وعدّها انصاف الناس من نفسك حتّى لا ترضى لك بشيء إلاّ رضيت لهم مثله (٢)» و منه الانصاف في المعاملة و هو أن لا يأخذ من صاحبه من المنافع إلاّ مثل ما يعطيه و لا يناله من المضارّ ما يناله منه و هو من أكمل فضائل العقل لأنّ العاقل يعلم أنّ من أنصف زاده الله تعالى عزّاً في الدنيا و الآخرة و هو في ظلّ عرشه يوم لا ظلّ إلاّ ظله . و الحميّة الأثقة يعني استنكاف الرّجل من دخول العار عليه و هي سبب لحميّة و حمايته و غايتها أن يدفع عن قومه ظلماً و جوراً أو إنّ أدّى دفعه إلى ظلم و جور أشنع و أقبح من ذلك أو يرتكب لدفع ما هو خلاف الأولى عن نفسه أو عن قومه ضرراً عظيماً لغيره أو يرى شرار قومه خيراً من خيار قوم آخرين أو نحوها ممّا هو شريعة الجهلاء ، و طريق السفهاء ، لقسوة قلوبهم و غلظة طبائعهم حتّى أنّهم يستعملون لسوط واحد سيوفاً و يحدثون لحتف واحد حتوفاً و يقيمون حميّة الجاهليّة الأولى و يظنّون أنّ ذلك مماثل للانصاف بل هو أفضل وأولى فلا يجدون إلى الانصاف دليلاً أو وائك كالأنعام بل هم أضلّ سبيلاً

(١) الكافي كتاب الايمان والكفر باب الاذاعة تحت رقم ٤.

(٢) المصدر باب الانصاف والعدل تحت رقم ٧.

قال رسول الله ﷺ: «من تعصب أو تعصب له فقد خلع ربة الإيمان من عنقه» (١) وقال: من كان في قلبه حبة من خردل من عصبية بعنه الله تعالى يوم القيمة مع أعراب الجاهلية» (٢) و ينبغي أن يعلم أن تعصب الرّجل وحميته في الدّين ومحبة لقومه وإعانتهم لهم لأعلى الظلم ليست من الحميّة المذمومة قال علي بن الحسين عليه السلام: «لم تدخل الجنة حميّة غير حميّة حمزة بن عبدالمطلب وذلك حين أسلم غضباً للنبي ﷺ في حديث السلا الذي ألقى على النبي ﷺ» (٣) وقال عليه السلام: «ليس من العصبية أن يحب الرّجل قومه و لكن من العصبية أن يعين قومه على الظلم» (٤) (والتهبئة و ضدّها البغي) التهبئة إمّا بمعنى الموافقة يقال: تهايتوا أي توافقوا أو بمعنى الإصلاح تقول: هيأت الشيء إذا أصلحته، أو بمعنى تهبئة النفس واستعدادها للحركة نحو الفضايل والأعراض عن الرّذائل أو بمعنى ما يتبع ذلك الاستعداد من هيئة حسنة راسخة موجبة لعدم ظهور ريبة منها و لبقائها على حالة واحدة واستمرارها عليها وهي في الحقيقة مبدء لتحصيل الكمالات. قال في المغرب: الهيئة هي الحالة الظاهرة المتهبئة للشيء و قوله عليه السلام: «أقبلوا ذوى الهيئات عثراتهم» (٥) قال الشافعي ذوا الهيئة من لم يظهر منه ريبة والبغي بمعنى طلب الشر يقال: بغى أحدهما صاحبه في شيء أي طلب له شراً أو أراد له و بمعنى التعدي والاستطالة والظلم وكلّ مجاوزة المحلّ و إفراط على المقدار الذي هو حدّ الشرع ولعلّ المتصوّد والله يعلم أن الموافقة بين الناس أو بين الامام والرعية أو إصلاح النفس من رينها وصقلها من كدرة شرارتها أو استعدادها نحو الكمال أو الهيئة التابعة لذلك الاستعداد الموجبة لعدم ظهور ريبة منها و لبقائها على حالة واحدة مع استمرارها على تلك الحالة وعدم خروجها منها من صفات العقل و جنوده و البغي بالمعنى الثاني

(١) و (٢) و (٣) و (٤) رواه الكليني في كتاب الإيمان والكفر باب العصبية تحت

رقم ٢ و ٣ و ٥ و ٧.

(٥) أخرجه أبو داود في السنن ج ٢ ص ٤٤٦ هكذا «أقبلوا ذوى الهيئات عثراتهم

الالحدود».

المذكورة من صفات الجهل ، هذا وقرأها سيّد الحكماء بالبهشة ، و قال : البهشة بالباء الموحدة قبل الهاء وقبل الشين المعجمة الارتياح لذي فضل و للمعروف و أحبابه والميل إليه وضدها البغي عليه .

(و النظافة و ضدها القذر) في الصحاح النظافة النقاوة وقد نظف الشيء بالضم فهو نظيف ونظفته أنا تطييفاً نفّيته والتنظف تكلف النظافة وفي النهاية فيه أن الله تعالى نظيف يحب النظافة . نظافة الله كناية عن تنزّهه من سمات الحدوث في صفاته و تعاليه في ذاته عن كلّ نقص و حجب النظافة من غيره كناية عن خلوص العقيدة ونفي الشرك و مجازبة الأهواء ثمّ نظافة القلب عن الغلّ والحقد والحسد و أمثالها ثمّ نظافة المطعم والملبس عن الحرام والشبهة ، ثمّ نظافة الظاهر بملازمة العبادات ومنه الحديث «نظّفوا أفواهكم فإنّها طرق القرآن (١)» أي صوّنوا عن اللغو والفحش والغيبة والنميمة والكذب و أمثالها و عن أكل الحرام والقاذورات والحثّ على تطهيرها من النجاسات والسواك ، والحاصل أن طهارة الباطن والظاهر و نزاهتهما عن جميع ما لا ينبغي اتصاف الناس به ظاهراً وباطناً من أنصار العقل في الترقّي إلى عالم القدس كما يرشد إليه قوله تعالى : «وثيابك فطهر» والرجز فاهجر ، و قذارتهما من أعوان الجهل في التباعّد عن ذلك العالم لأنّ عالم القدس طاهر لا يسكن فيه إلّا الطاهرون ، وينبغي (ان يعلم) أن طهارة الباطن يستلزم طهارة الظاهر وكذا نجاسة الباطن يستلزم نجاسة الظاهر لأنّ ما في الباطن يترشّح إلى الظاهر فلا جرم الحالة الباطنة مبدئ للجمالة الظاهرة ومن ثمّ يستدلّون بالظواهر على البواطن .

(والحياء و ضده الخلع) قيل : الحياء انكسار يصيب الحياة ، و قيل : هو تغيير يلحق من فعل أو ترك ما يذمّ به ، و قيل : هو خلق يمنع من القبيح و من التقصير في الحقوق وهو غريزة في الأكثر وقد يتخلّق به بالاكتساب لأنّ من لم يجبل عليه ربّما يلتزم الحقوق و يتمسك بالشرائع و يمارسها في كلّ الدّهور

(١) أخرجه الديلمي في الفردوس كما في كنوز الحقائق للمناوي .

ومرّ الأزمان فيحصل له ملكة الانزجار عن القبائح ومبدء الانتقباض عن المحارم و هي الحياء و له مراتب متفاوتة و أفراد متفاضلة أكملها و أفضلها ما ينزجر به الجوارح الظاهرة والباطنة كلّها عن ارتكاب ما لا ينبغي و دون ذلك درجات ، فإن قلت قديكون في الانسان ما يمنعه من حقوق الله تعالى فهل هو حياء حقيقة أم لا ؟ قلت : لا و إنما هو خور ومهانة وحق - و إطلاق الحياء عليه أحيانا وتقسيمه إليهما في قوله عليه السلام « الحياء حياءان حياء عقل و حياء حمق فحياء العقل هو العلم و حياء الحمق هو الجهل (١) » و فيما نقل عن الحكماء أن الحياء منه سكرينة ووقار و منه ضعف و فيما نقل عنهم في باب الا'خلاق أن كل فضيلة نفسانية وسط بين طرفيها المذمومين طرف الإفراط وطرف التفريط فالحياء الممدوح وسط بين طرف إفراطه و هو الخور أعنى الاستحياء من كل شيء و هذا مذموم لأنّه يؤدي إلى ترك الواجبات كالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وغيره وطرف تفريطه و هو الخلاعة أعنى عدم الاستحياء من بعض الوجوه و هذا أيضاً مذموم لأنّه يؤدي إلى ارتكاب بعض المحظورات - لا يدلّ على أن إطلاق الحياء على ما يمنع من حقوقه تعالى على سبيل الحقيقة لأن الاستعمال أعظم من الحقيقة والمقسم لا يجب أن يكون محمولاً على معناه الحقيقي ويؤيد ما قلنا ما رواه مسلم عن عمران بن حصين أن رسول الله ﷺ قال : « الحياء لا يأتي إلا بخير (٢) » والحياء كلّه خير (٣) ، وحمل هذا على الإيجاب الجزئي لوجه له على أن اصطلاح الحكماء ليس حجة علينا و لذلك أمّا سمع بشر بن كعب عن عمران ما نقله عارضه بقول الحكماء ، فقال عمران أحدثك عن رسول الله ﷺ وتحدثني عن صحيفة الحكماء فانكار عمران دلّ على أن لوجه لمعارضة السنة بقول الحكماء ، ويؤيد أيضاً قول المحقق الطوسي - ره - حيث عدّ الحياء من أنواع العفة الحاصلة من الاعتدال في القوة الشهوية وعرفه

(١) رواه الكليني في كتاب الايمان والكفر باب الحياء ٨ .

(٢) أخرجه في صحيحه ج ١ ص ٤٧ والبخاري ج ٨ ص ٣٥ من حديث عمران بن حصين .

(٣) أخرجه مسلم ج ١ ص ٤٨ وأبو داود في السنن ج ٢ ص ٥٥٢ .

بأنه انحصار النفس عن ارتكاب القبائح احتراماً عن استحقاق المذمّة فأنّه صريح في أن انحصار النفس عن ارتكاب المحاسن لغرض ما ليس بحياء ، فإن قلت : قد ينسب الحياء إلى الله تعالى فيقال : إنّه حيّ فما معناه ؟ قلت : معناه إنّه سبحانه يعامل معاملته من له حياء يعني لا يصدر عنه القبائح وذلك لأنّه إذا نسب إليه تعالى مبادي الآثار ولا يصح عقلاً أو شرعاً إرادة تلك المبادي يراد منها تلك الآثار مجازاً أو الجلع الذي هو ضده إمّا بالجيم وهو قلة الحياء قال في الصحاح: جلعت المرأة بالكسر فهي جلعة و جلالة أيضاً قليلة الحياء تنكلم بالفحش وكذلك الرجل جل جلعة و جلالة و جلالة القوم مجاوبتهم بالفحش و تنازعهم عند الشرب والقمار ، و إمّا بالحاء المعجمة و هو النزاع يقال : خلع ثوبه عن بدنه إذا نزع و وجه كونه ضدّ الحياء ظاهر لأنّ الحياء بمنزلة اللباس يستر جميع الأعضاء و يمنع ظهور معايبها و صدور قبايحها و ضده هو خلع ذلك اللباس و كشف تلك المعايب والقبايح وإنّما كان الحياء من جنود العقل و ضده من جنود الجهل لأنّ الإنسان متوسط بين العالمين عالم الهداية و عالم الغواية و عالم القدس و عالم الطبيعة . والعقل يدعوه إلى الأوّل والجهل يدعوه إلى الثاني فإذا لبس الحياء الزّاجر له عن ارتكاب القبايح يجذبه العقل إلى غاية مناه بسهولة لأنّ الجذب بالامانع أشدّ وأسهل من الجذب معه ، وإذا خلع منه ذلك اللباس و ظهر منه أنواع القبايح و أصناف المعايب يجذبه الجهل إلى نهاية مناه بسهولة لمعرفت ، فمن له حياء كامل قريب من الحقّ بالغ إلى أقصى مدارج الهداية ومن له خلع كامل بعيد عن الحقّ بالغ إلى أعلى معارج الغواية والمتوسط بين الأمرين متوسط بين العالمين متردد يقرب من كلّ منهما تارة ويبعد أخرى حتّى يؤل أمره إلى ما شاء الله . والله يهدي من يشاء إلى سواء السبيل .

(والقصد و ضدّ العدوان) القصد بالشيء إرادة الاتيان به ، والقصد أيضاً

العدل و هو المتوسط في الأمور بين الإفراط والتفريط و لعلّ المقصود أن من

جنود العقل إرادة الخيرات كما روي «نية المؤمن خير من عمله» (١) وإن قصد برأ ولم يقدر عليه كتب الله له من الأجر مثل ما يكتب له لو عمله أو المقصود أن من جنوده التوسط بين الطرفين في الأقوال والأفعال والعقائد كالتوسط في المشي بين الدبيب والاسراع قال الله تعالى «واقصد في مشيك» وروي أن سرعة المشي يذهب ببهاء المؤمن (٢) والتوسط في الانفاق بين التبذير والتقتير قال الله تعالى: «والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا» والتوسط في العبادة بحيث لا يلحق البدن مشقة شديدة ينتفّر الطبع عنها ولا يتركها قال رسول الله ﷺ «يا علي إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق ولا تبغض إلى نفسك عبادة ربك فإن المنبت» (يعني المفرط) لا ظهراً أبقي ولا أرضاً قطع ، فاعمل عمل من يرجو أن يموت هراماً ، واحذر حذر من يخاف أن يموت غداً (٣) [والتوسط في جميع الأخلاق بين الإفراط والتفريط] والتوسط في معرفته تعالى بين التعطيل والتشبيه والتوسط في معرفة الرسول والأئمة عليهم السلام بين الرُبوبيّة والكذيب لكمال فضلهم والتوسط في الكسب بين الكسالة والجِدُّ المانع من الراحة البدنيّة أو الحقوق الدنيّة ، وبالجملة التوسط في جميع الأمور إلا الذنوب المطلوب ممدوح والعدوان بمعنى التجاوز عن الأوساط إلى طرف التفريط والإفراط كما هو شأن الجاهل [الهارب] عن الصراط المستقيم مذموم.

(والراحة : ضدها التعب) يعني أن الراحة الرُّوحانيّة والجسمانيّة و

(١) أخرجه الطبراني في الكبير من حديث سهل بن سهل.

(٢) رواه الحسن بن علي بن الحسين بن شعبة العراني في تحف العقول ص ٣٦ عن النبي «من»

مرسلاً، وأخرجه أبو نعيم في الحلية من حديث أبي هريرة والخطيب في الجامع والديلمي في الفردوس من حديث ابن عمر ، وابن النجار عن ابن عباس بسند ضعيف كما في الجامع الصغير.

(٣) الكافي كتاب الايمان والكفر باب الاقتصاد في العبادة تحت رقم ٦ . ورواه

احمد في مسنده من حديث انس ، والبزار من حديث جابر.

اختيار ما يوجبها من فضائل العقل و جنوده لعلمه بحقارة الدنيا و زهراتها وانصرام زخارفها و لذاتها و انقضاء مصائبها و آفاتنا فيرفض الشواغل الدنياوية و ينقض الوساوس النفسانية و يترك اللذات الجسمانية فلا يغتم بفوات الأموال و الأسباب ولا يهتم بتحصيل المقتنيات و الاكتساب؛ ولا يغتم بغيرة التزلزل و الاضطراب، ولا يحسد ولا يبغض ولا يغضب ولا يجادل ولا يمارى فهو دائماً فارغ البال مرفق الحال، لا نفسه منه في تعب ولا روحه منه في نصب، و أمّا الجاهل فهو دائماً في تعب و مشقة و أبدأ في محنة و بليّة لا اهتمامه بتحصيل المقتنيات و حفظه للرسوم و العادات، و اغتمامه بفوات المشتهيات من المطاعم و الملبوسات، و ارتكابه لأمر شديدة صعوبة من المعاملات و احتماله من الاشغال الدنياوية و الأثقال الزائلة الفانية ما يتعب نفسه من تحملها أو يعجز، والتجائه في ذلك إلى التحاسد و التباعد مع بني نوعه من أبناء الزمان إلى غير ذلك من الأمور المورثة للحزن و الغم و الهم و التعب كما هو المعروف من جملة أفراد الانسان و منشؤ ذلك استعظام الدنيا و استحقار الآخرة و هم لا يعلمون «يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا و هم الآخرة غافلون» فقد ظهر ممّا ذكرنا أن الراحة من صفات العقل و التعب من صفات الجهل. و أمّا إغاثة كل صاحبها فظاهرة لأنّه نجى المخفون و هلك المثقلون.

(و السهولة و ضدّها الصعوبة) السهولة اللينة و اليسر و الذلّ بالكسر يعني سرعة الانقياد يعني سهولة الطبع في قبول الحقّ و يسره في قبول الصفات المرضية و الأخلاق الحسنة و الأطوار الصحيحة و ذلك و انقياده في الدين من صفات العاقل و علامات الإيمان كما ورد من طرق العامة و الخاصة «المؤمنون هينون لينون» (١) و صعوبة الطبع يعني أزداد هذه الأمور من صفات الجاهل الحائر الذي ينبو ذهنه من الحقّ الزاهر، و يمرق طبعه من عرض الصدق إلى الجانب الآخر، ولا يطيع

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان من حديث ابن عمر كما في الجامع الصغير.

ورواه الكليني في الكافي كتاب الإيمان و الكفر (باب المؤمن و علاماته و صفاته)

لقائده إلى منازل العرفان والكمال بل يغلبه مثل الجموح عن دين الحق مسرعاً في سبل الضلال و كذا شأنه دائماً في سرعة المسير إلى أن يقع في أسفل السافلين و بئس المصير .

(والبركة و ضدّها المحق) البركة النماء و الزيادة و يحتمل أن يراد بها الدوام والثبات من برك البعير إذا استناخ و لزم و ثبت في موضع واحد، والمحق النقصان و ذهاب البركة ، و قيل : هو أن يذهب الشيء كله حتى لا يرى منه أثر، ومنه « يحق الله الربا » أي يستأصله و يذهب ببركته و يهلك المال الذي يدخل فيه و لعل المقصود أن الزيادة في فعل الخيرات والمبالغة في المبررات والثبات والدوام عليها من صفات العقل و كمال العقلاء كما روي « من استوى يوماء فهو مغبون (١) » و روي أيضاً « ما من شيء أحب إلى الله عز وجل من عمل يداوم عليه وإن قل » (٢) والنقصان في العمل أو عدم الدوام والثبات عليه من صفات الجاهل لجهله بمنافع العمل و غفلته عن جزيل الثواب و نسيانه حفظه و نصيبه في يوم الحساب ، و قيل : المراد أن العاقل يحصل المال من الوجه الذي يصلح له و يصرف فيما ينبغي الصرف فيه فينمو و يزيد و يبقى و يدوم له ، والجاهل يحصل من غير وجهه و يصرف في غير المصرف فيبطل ماله و يذهب بركته ، وقيل : المراد أن البركة من صفات العقل لارتفاعه عن العالم التغير والآفة والدثور والنقص من صفات الجهل لتعلقه بعالم الفساد والزوال و الشرور .

(والعافية و ضدّها البلاء) يقال : عافاه الله معافاة و عافية إذا سلمه من الآفات وبلاء و أبلاه بلاءً، إذا جرّ به و اختبره و امتحنه و يمكن أن يراد بالسّلامة والبلاء فيما

(١) رواه الصدوق - رحمه الله - في معاني الاخبار ص ٣٤٢ باب معنى المغبون باسناده

عن الصادق «ع» « من استوى يوماء فهو مغبون، و من كان آخر يوميه خيراً فهو مغبوط و من كان آخر يوميه شراً فهو ملعون ، و من لم ير الزيادة في نفسه فهو إلى النقصان . و من كان إلى النقصان فالموت خير له من الحياة . »

(٢) الكافي كتاب الايمان والكفر باب استواء العمل والمداومة عليه تحت رقم ٣.

مرّ السلامة من إيذاء المسلمين أو من الأمراض النفسانيّة كما أشرنا إليه أو من العيوب والآفات البدنيّة كما قيل فإنّ السلامة من هذه الأمور من صفات العاقل إذا العاقل لا يؤذى مسلماً ويتخلّص من الأمراض النفسانيّة مهما أمكن من العيوب والآفات حيث يعرفها ويعرف طريق النخلّص ، والجاهل يختارها ويقع فيها من حيث لا يدري وأن يراد بالعافية والبلاء هنا العافية والسلامة من الأعمال الظاهرة الفاسدة أو من العقوبات الأخرويّة وأحوالها بالتحرز عن موجباتها أو ممّا يوجب سقوط المنزلة عند الله تعالى أو من المكارم الناشئة من الإخوان، أو من زوال النعمة فإنّ السلامة من هذه الأمور من صفات العاقل لأنّه يفرّ عمّا يوجب فساد العمل و ثبوت العقوبة وسقوط المنزلة ويعفو عن بني نوعه ويسامحهم فيتخلّص بهذه الحيلة عن مكارهم ويشكر النعم فيجلب النعمة ويأمن زوالها والابتلاء بهذه الأمور من صفات الجاهل . وعلى ما ذكرنا يتحقّق الفرق المعنوي بين الفقرتين وإن كان تكلفاً ، ونقل عن الشيخ بهاء الملة والدين أنّهما بمعنى واحد وإنّ إحداهما كانت بدلاً عن الأخرى جمع بينهما الناسخ غافلاً عن البدليّة ، وقال سيّد الحكماء: البلاء ضدّ العافية بمعنى البلوى والبليّة والبلاء ضدّ السلامة بمعنى الامتحان و الاختبار و من توهم أنّهما بمعنى واحد يلزمه أن يكون جند الجهل ثلاثة وسبعين و هو على خلاف قول الإمام عليه السلام وعلى خلاف جند العقل و فيه أوّل أن الامتحان والاختبار أيضاً بليّة وثانياً أنّ من توهم اتحاد البلاء في الموضعين توهم اتحاد العافية والسلامة أيضاً فلا يلزمه أن يكون جند الجهل على خلاف جند العقل وأقلّ منه ، ولا يلزمه أيضاً أن يكون الجهل أقلّ من ثلاثة وسبعين لأنّ تفصيل الجنود زايد على ثلاثة وسبعين بثلاثة و غرض المتوهم أن يرجع بعضها إلى بعض حتّى يعود الجميع إلى ثلاثة وسبعين كما أشرنا إليه في أوّل الحديث.

(والقوام ضدّه المكاثرة) القوام بالفتح العدل قال الله تعالى : « وكان بين

ذلك قواماً » و قوام الأمر بالكسر ما يقوم به أمره ويتمّ به نظامه، يقال : لفلان

قوامٌ من العيش أى ما يقوم بحاجته الضروريّة ، والمكاثرة من الكثرة وهي تقيض

القلة و كثيراً ما تسعمل للمغالبة يقال: كثرناهم فكثرتناهم أى غلبناهم بالكثرة في المال أو العدة. يعني من صفات العاقل التوسط في تحصيل المعاش والاقتصار بقدر الكفاف وهو القدر الذي يحتاج إليه في بقاء شخصه و يتقوى به في عبادة ربه غير متجاوز عن ذلك الحد لعلمه بحقارة الدنيا ومفارقة لها إلى دار القرار و وقوفه للحساب بين يدي الملك الجبار فيبعثه ذلك إلى إعداد زاد الآخرة والانتقطاع عن حبل العلائق و صرف العمر في طلب الحقائق والاجتناب عن زوائد الدنيا و الاختيار في طريق المعاش أحسن الطرائق و هو طريق التوسط ومن صفات الجاهل صرف العمر في تحصيل ما لا يحتاج إليه من زهرات الدنيا و زخارفها الموجبة للخسران و في استكثار الأموال والأسباب للغلبة على غيره من أبناء الزمان و ذلك يوجب فرار طبعه السقيم عن إدراك معالم الدين حتى يأتيه الموت بغتة وهو من الهالكين .

(والحكمة و ضدّها الهوى) الحكمة ما يمنع من الجهل والحكيم من منعه عقله منه أخذت من حكمة الدابة وهي حديدة اللجام لأنها تمنع الدابة عن الجموح والمراد بها العلم والعمل النافعين في الآخرة واتباع ما هو الأصلاح والأ نفع فيها لاما اشتهر من العلم بحقائق الأشياء والتصديق بأحوالها والعمل بما يقصده العمل إذ هو شامل للحكمة النظرية بأقسامها أعني علم ما بعد الطبيعة و علم الرياضي و علم الطبيعي وللحكمة العملية بأقسامها أعني تهذيب الاخلاق و تدبير المنازل وسياسات المدن والظواهر أنه لا مدخل لأصول الرياضي في الدين والشارع لا يرغب فيها، و هي علم الهندسة الباحث عن المقادير و أحكامها ولواحقها و علم الحساب الباحث عن أحوال العدد و خواصه، و علم النجوم الباحث عن اختلاف أوضاع الأجرام العلوية بنسبة بعضها إلى بعض و بالنسبة إلى الأجرام السفلية وعن مقادير تلك الأجرام و أبعادها (١). و علم التأليف الباحث عن أحوال المؤلفات، و علم الموسيقى

(١) ليس المراد بالحكمة المذكورة في هذا الموضع من الحديث علم الحكمة

الاصطلاحي لانه (ع) جعلها في مقابل الهوى ولو كان المراد العلم الاصطلاحي لجعله في

الباحث عن تناسب الأصوات بعضها ببعض و كمية زمان سكناها و حر كاتها و كيفية إخراجها عن مواضعها، و كذا لامدخل لفروعها فيه ، مثل علم المناظر والمرايا و علم الجبر والمقابلة و علم جرّ الأثقال ، و كذا لامدخل فيه لاصول الطبيعى الباحثة عن الزّمان والمكان والحركة والسكون والنهاية واللاّنهاية و عن الأجسام البسيطة والمركّبة و كيفية حدوث الحوادث الهوائية والأرضية و عللها مثل الصاعقة و المطر والرّعد والبرق والزّلزلة وأمثالها، و كذا لامدخل لفروعها فيه مثل الطبّ و الفلاحة وغيرهما. والهوى مصدرهواه إذا أحبّه واشتهاه ثمّ سمّي به الهوى المشتبه بمحموداً كان أو مذموماً، ثمّ غلب على المذموم والمراد به هنا المعنى المصدري أعنى اتباع المهوريات الذّميّة واقتفاء المشتبهات القبيحة. ووجه كون الحكمة من جنود العقل و أعوانه والهوى من جنود الجهل و أنصاره ظاهر إذ بالحكمة (١) يتنوّر قلب العاقل

مقابل الجهل أو السفاهة والغباوة وأمثالها وهذا هو الصحيح في الاحتجاج لا ما ذكره الشارح رحمه الله من أن الشارع لا يرغب في العلوم الرياضية كالنجوم إذ فيه مؤخذان الأولي أن الشارع رغب في علم النجوم وأمثاله بقوله «ان في خلق السموات والارض و اختلاف الليل والنهار - الى قوله - لايات لقوم يعقلون» لان فيها دلائل على التوحيد كما رغب في العلوم الطبيعية في آيات كثيرة وفي الطب والتشريح والجماع لذلك كله «سنريهم آياتنا في الافاق وفي انفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق» والمؤخذة الثانية أن كل شيء رغب فيه الشارع لايجب حمل كل كلام عليه وظاهر كلام الشارح أن ما يتعلق من علم الحكمة الاصطلاحي بالالهيّات و علم النفس و تهذيبها و بالجملة ما رغب فيها وهي غير العلوم الرياضية و الطبيعية داخل في المراد (ش).

(١) يعنى به علم الحكمة الالهية فان صاحب هذا العلم يعرف المشروع والمحظور بالحكمة العملية عرفاناً جيداً مأخوذاً من وجهه ودليله ويعرف المعقول من المستحيل بالحكمة النظرية مثل أن يدالله وعين الله بالمعنى الجسماني محال و أنه ليس في جهة و مكان و أن الكلام النفساني محال و أنه لايجوز القبيح عليه تعالى كتقديم المفضول على الفاضل و يبصر المقاصد الشرعية اى يعرفها على بصيرة مثل أن الغرض من العبادة تهذيب النفس فيجتنب الرياء (ش).

حتى يفهم المشروعات والمحظورات والمستحيلات و يبصر المقاصد الشرعية و يهتدي إلى وجوه المصالح الدنيوية والأخروية ويحصل له بذلك من القول والفعل والعقل حالة وثيقة وملكة شريفة لا يرد عليها الانتقاض ولا يعترضه الانتقاص (١) إلى أن يرد في ساحة الحق والجاهل لما كان قلبه مظلماً بحيث لا يجد إلى معارف الحق دليلاً ولا إلى منازل القدس سبيلاً إذ اتبع الهوى و ارتكب المحظورات واستمر على المحرمات وانهمك في المشتميات زادت ظلمته و غلبت كدبرته فهو في بقاء الجهالة طائر ، و في ظلمات بعضها فوق بعض حائر ، حتى يطلع صبح يوم القيمة عن أفق الموت و أي يوم و يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً و ما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً و سيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون .

(والوقار و ضده الخفة) الوقار بالفتح الرزاة، والمثانة ، وقد وقر الرجل وقاراً فهو وقور أي رزين متين إذا كانت نفسه مطمئنة في تحصيل المطالب مستقيمة في الوصول إلى المآرب بحيث لا يحركها الغضب ولا يهزها المكاره بسهولة ولا يتجاوز عن الحد اللائق به عقلاً و شرعاً و هو من جنود العقل في تصاعده من المنازل السافلة وعروجه إلى المقامات العالية في الدنيا والآخرة لأن عدم انفعال النفس بمرور المكاره و عدم اضطرابها بنزول المصائب و عدم تزلزلها بمشاهدة النوائب راحة حاضرة و منفعة ظاهرة والعفو عن جرائم الناس والصفح عنها و عدم الغلظة عليهم بتسكين ثوران الغضب و إطفاء نيران الغيظ والتعب و ترك ما يوجب الفرقة من التصاغر والتشاجر والتقاطع والتخاذل والتنازع والنشائم والطيش والعجلة من مكارم الأخلاق و محاسن الأفعال و محامد الأمور التي يوصف بها أهل المجد والشرف والنجدة والرزاة ، و يوجب الرفعة عند الخالق و الخلايق ، و يجلب

(١) لأنه علم كل مسألة اعتقادية بدليل لا تعترضه شبهة فاستقام بخلاف أهل التقليد والجهال و ربما ترى في كلام أصحاب الحديث أن إيمان الجاهل اتقن وأحكم من كثير من العلماء و هو بمنزل عن الصواب مردود على قائمه . (ش)

محببتهم ومودتهم. والخفة وهي الطيش والعجلة والجزع لفوات قليل والفرح لطلب كثير والاضطراب لأمر يسير والتزلزل لشيء حقير من صفات الجاهل لأن قلبه سخيّف وعقله خفيف ولبّه في تيه الجهالة حائر كأنّه موضوع على جناح طائر فيتحرّك و يضطرب دائماً وذلك يثير الفتنة العظمى والبليّة الكبرى، و يسومه سوء العذاب، ويورده في مورد العتاب، ويخلع عنه لباس الكرامة، ويجرّه إلى ذلّ المهانة في الدنيا والآخرة.

(والسعادة و ضدّها الشقاوة) قال الله تعالى « فمنهم شقيّ وسعيدٌ فأما الذين شقوا ففي النار لهم فيها زفيرٌ وشهيقٌ خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك وأما الذين سعدوا ففي الجنة خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك عطاء غير مجدوذ» والسعيد الحقيقي من آمن وصدق بالله وملائكته و رسله إيماناً لا يفوته عمل ولا يشوبه دغل ولا ينوبه زلل ولا يعرضه خلل و تصديقاً يقوى به عقله على التحرّز من المكائد الشيطانية والوساوس النفسانية واللذات الجسمانية ويستعدّ بهذه لشرور أنوار المعارف الإلهية وبروق مكارم الأخلاق الربّانية بحيث ينظر بعين التفكير في ملك الأرضين و ملكوت السموات ؛ ويرى الحقّ بعين البصيرة في عجائب المخلوقات و بدايع المصنوعات و يرتوي من زلال عيون الكمالات و يخلع عن نفسه لباس الشهوات ويجتنب من هموم الدنيا والعلائق حالاتها و يتوجّه إلى أمر الآخرة و شواهد مقاماتها فيصير نوراً في نفسه ومصابحاً لغيره ذلك فضل الله سبحانه على عباده المرسلين والأئمة الطاهرين ومن اقتفى آثارهم من العباد الصالحين والشقيّ الحقيقي من كفر بالأمر المذكورة ووقع في مهاوي الضلالة و مهالك الغواية و بينهما مراتب متفاوتة و منازل متباعدة يجتمع فيها اسم السعادة و الشقاوة بالإضافة فربّ سعيد من وجه شقي من وجه آخر و من غلبت سعادته فهو في جنّات النعيم و من غلبت شقاوته فهو في عذاب الجحيم ومن استوى فيه الأمران فهو في خطر عظيم و رحمة الله قدّامه وهو الغفور الرحيم.

(والتوبة و ضدّها الإصرار) التوبة في الشرع ترك الذنب لقبحه و منعه من الوصول إلى الحقّ والندم على ما فرط والعزم على ترك المعاودة و درك ما أمكنه أن يتدارك من الأعمال وردّ المظلمة إلى صاحبها أو تحصيل البراءة منه فمتى اجتمعت هذه الأمور تحققت حقيقة التوبة و كملت شرايطها و تاب الله تعالى وهي من أهمّ قواعد الإسلام و أوّل مقامات سالكي الآخرة، و قد اتفق أهل الإسلام على وجوبها فوراً و منافعها كثيرة منها أنّها تخلع ثوب الدّنس و تقطع عرق النجس، و منها أنّها تورث محبة الرّبّ و رضوانه والدّخول في جنانه قال الله تعالى « إن الله يحبّ التوابين ويحبّ المنطهرين » وفيه فضل عظيم و شرف جسيم للنائب حيث ينال محبة الحقّ النّبويّ هي أعلي مقاصد السالكين بعد ما كان في زمرة الهالكين، و قال الباقر (عليه السلام) « إن الله أشدّ فرحاً بتوبة عبده من رجل أضلّ راحلته و مزاده في ليلة ظلماء فوجدها قاله أشدّ فرحاً بتوبة عبده من ذلك الرجل براحلته حين وجدها (١) » فانظر أيّها اللّبيب إلى هذا الحديث الشريف و علوّ مضمونه تجده كافياً في التّروغيب إلى التوبة و التحريض عليها لو لم يكن غيره و لكن الآيات الكريمة والروايات الشريفة في باب التوبة و بيان فضلها أكثر من أن تحصى وهي من صفات العاقل و أجناده لأنّ العاقل قصده لقاء الله تعالى دائماً وهمّه النزول في ساحة عزّه و هو يجوز ذلك في كلّ آن و يترقبه في كلّ زمان فأكبر مقاصده وأعظم مطالبه أن يطهر نفسه بالتوبة والندامة على ما يوجب البعد عنه من رجس الآثام قبل انتهاء وقت التكاليف بالموت و انقضاء مدّة العمل بالقوت بخلاف الجاهل فإنّ وصفه الإصرار على الذّنوب والمعاصي والاقامة على الآثام والمناهي إذ هو لعميان بصيرته و فقدان سريره و نقصان عقيدته محجوب عن درك الآخرة و حالاتها و عن نيل عناية الحقّ و مقاماتها فيظنّ أنّ غاية خلق الإنسان هي وصوله إلى هذه اللذات الحاضرة والمنافع الدّائرة فيستمرّ عليها و يستبشر بها، و هو من الغافلين أو يظنّ بالآخرة ظناً ضعيفاً يستعدّ به لقبول ما يتلو عليه الشياطين من

تسوية التوبة غداً بعد غدٍ إلى أن يموت و هو من الخاسرين، ثم الإصرار بالذنب أعم من فعله على الاستمرار و فعله مرة مع عدم عزمه بالتوبة والاستغفار وما روي عن أبي جعفر عليه السلام في قول الله عز وجل « ولم يصرُّوا على ما فعلوا وهم يعلمون » قال « الإصرار هو أن يذنب الذنب فلا يستغفر الله ولا يحدث نفسه بتوبة فذلك الإصرار (١) » يحتمل الأمرين والظاهر منه هو الثاني ومن فسّر الإصرار بتكرار ذنب واحد أو بإيجاد حقيقة الذنب في ضمن أنواع مختلفة من الذنوب بحيث يشعر بقلّة المبالاة فقد غفل عن تحقيق معنى الإصرار في ذنب واحد مع عدم التوبة.

(والاستغفار و ضده الاعتذار) الاستغفار من الغفر و هو الستر، والاعتذار من الغرة بالكسر وهي الغفلة والجرأة، واعلم أن والي البدن كثيراً ما يطغى في الإمارة ويخون في الولاية و يعصي السلطان الأعظم في إرادته فيستعمل الجوارح الظاهرة والباطنة كلها أو بعضها في غير طاعته ثم إنّه قد يستشعر بتقصيره و عصيانه و خيانتته و طغيانه فيخاف أن يعاقب في الدنيا والدن و ينكشف مساويه عند المقرّين فيقبل بالطوع والاختيار ويتمسك بذيل الأقالمة والاستغفار طالباً لغفران الذنوب و سترها على الكرام لئلا يفضح بها عندهم يوم القيمة، ولمحوها باللطف العظيم والكرم العميم لئلا يعذب بسلاسل و أغلال في الجحيم، ويمحوها من لوح نفسه و صفحة الجنان لئلا يخجل بتذكّرها بعد دخول الجنة و روضة الجنان و مستكملاً لاستعداد الفوز بالرحمة في الدنيا بانزال البركات و في الآخرة برفع الدرجات والشاهد العدل على ذلك قوله تعالى : « فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفاراً يرسل السماء عليكم مدراراً » وقد يرفع الله تعالى باستغفار مؤمن العذاب الدنيوي عن جماعة من العصاة كما روي « أن الله تعالى يقول: إنني لأهبط بأهل الأرض عذاباً فإذا نظرت إلى عمار بيوتي وإلى المتحابين والمستغفرين بالأسحار صرفته عنهم (٢) » ثم الاستغفار لا يتحقق معناه بمجرد هذا اللفظ بل لابد في تحقيقه من أمور

(١) الكافي كتاب الايمان والكفر باب الاصرار على الذنب تحت رقم ٢ .

(٢) أخرجه البيهقي في شعب الايمان من حديث أنس بن مالك بسند ضعيف .

لا يتلقاها إلا الصابرون المجاهدون كما يرشد إليها قول أمير المؤمنين عليه السلام لقائل
قال بحضرته أستغفر الله فقال عليه السلام: « شكلك أُمك أتدري ما الاستغفار إن الاستغفار
درجة العليين و هو اسم واقع على ستة معان أولها الندم على ما مضى ، والثاني العزم
على ترك العود أبداً ، والثالث أن تؤدّي إلي المخلوقين حقوقهم حتى تلقى الله
أملس و ليس عليك تبعه ، والرابع أن تعتمد إلى كل فريضة ضيعتها فتؤدّي حقها
والخامس أن تعتمد إلى اللحم الذي نبت على السحت فتذيبه بالأحزان حتى
يلصق الجلد بالعظم و ينشأ بينهما لحم جديد ، والسادس أن تذيب الجسم ألم الطاعة
كما أذقته حلاوة المعصية فعند ذلك تقول أستغفر الله (١) » وإذا عرفت هذا عرفت
أن الاستغفار من جنود العقل و أعوانه في العود إلى الحق و القرب منه والاعتذار
يعني الغفلة عن الحق والجراءة عليه و الانخداع من النفس و الشيطان الموجب
للإصرار على المعاصي والاستمرار على الطغيان من جنود الجهل و أعوانه في البعد
عنه والاستحقاق بمزيد الخذلان وأنا أستغفر الله و أقول كما قال الشاعر:

لوم تردنيل ما أرجو وأطلبه من جود كفتيك ما علمتني الطلب
أراد بذلك قوله تعالى « استغفروا ربكم إنه كان غفاراً ».

(والمحافظة و ضدها التهاون) الحفظ الحراسة ، و التحفظ التيقظ ، و
المحافظة المراقبة ، والاستيهان والتهاون الاستحقار والاستخفاف ، يقال : استهان به
و تهاون به إذا استحقره و استحفظه ولم يبال ، أراد أن حراسة النفس و تيقظها و
مراقبتها في السير إلى الله سبحانه أو حراسة ما فعله من الصالحات و ما أتى به
من الخيرات و مراقبتها من أن تنطرق إليها الشبهات المبطلة والعقائد الفاسدة
كالرياء والسمعة ونحوهما أو حراسة الطاعات والعبادات بالالتيان بها في أوقاتها مع شرايطها
أو حراسة المؤمنين و مراقبة أحوالهم و محافظة حقوقهم بالأمر بالمعروف والنهي
عن المنكر من خصائص العاقل لأنه يعلم بنور عقله أن له في كل قدم يرفعها
لله تعالى قريناً من الشيطان مترصداً لاغوائه وفي كل منزل عدواً من الغي لان منتظراً

لاضلاله وإن الله سبحانه لا يقبل من الأعمال إلا ما هو خالص من المفاسد مقرون مع الشرايط واقع في أوقاتها ، وأن المؤمنين كنفس واحدة ، وهو لكماله في العقل بمنزلة راعيهم وحافظهم ، فلا يغفل عن المحارسة ولا يغمض من المراقبة أبداً بخلاف الجاهل فإنه دائماً غافل عن الحراس ، بعيد عن الحفاظ مستحقر لذلك العدو ، غير مهبال به مع كمال قوته وكثرة مكيدته ، مستخف بالطاعات متهاون بالعبادات ، مضيع الأوقات حتى يرد الشياطين إلى أسفل السافلين ألا ذلك هو هو الخسران المبين .

(والدعاء و ضده الاستنكاف) الدعاء في اللغة النداء والصيحة تقول دعوت فلاناً إذا ناديته وصحته به ، وفي العرف طلب الرحمة والفيض من الله سبحانه على وجه الخضوع والاستكانة وهو من أجل مقامات الموحدين وأفضل درجات السالكين لكونه مشعراً بالذل والانكسار ، وإقراراً بصفة العجز والافتقار ، ومظهراً لتعلق ربة الحاجة بربة الامكان ، واعترافاً بانغماس الممكن في غمرة المسكنة والنقصان ، وقد وردت الآيات المتكاثرة والآيات المتواترة من طريقة الخاصة والعامّة في الترغيب فيه والحث عليه حتى صار شرعه من ضروريات الدين وهو من شعار الصالحين والصدّيقين وآداب الأنبياء والمرسلين فإن حكاية آدم ونوح و ذينون وموسى وأيوب وداود وسليمان وعيسى وغيرهم عليهم السلام ودعاء خاتم النبيين صلى الله عليه وآله وسيد الوصيين وأولاده الطاهرين عليهم السلام وكمال تضرّعهم وخشوعهم في القرآن العظيم مذكورة وفي كتب السير مسطورة وفي دفاتر المتقدمين والمتأخرين من بورة وفي السنة الخواص والعوام مشهورة بحيث لا مساغ للرد والانكار ولا مجال للعناد والاستنكار ، وما خالج بعض الأذهان من أن المطلوب بالدعاء إما أن يكون معلوم الوقوع لله تعالى أو معلوم التلاوقوع وعلى التقديرين لا فائدة لأن الأول واجب والثاني ممتنع ، وبعبارة أخرى إما أن يكون وقوعه مصلحة للداعي أولاً يكون فعلى الأول يقع وإن لم يطلب لأن الله يفعل ما هو مصالح العباد قطعاً ، وعلى الثاني لا يقع وإن طلب فطلبه على التقديرين عبث ، وأيضاً أعظم مقامات العارفين

الرَّضَا بالقضاء والدُّعَاءُ ينافي ذلك ، فالجواب عن الأولين أن كلَّ كائن و فاسد موقوف في كونه وفساده على شرائط وأسباب كما علم من موضعه و دلُّ عليه أيضاً ما روي من أن الله تعالى يأبى إلا أن يجري الأشياء بأسبابها (١) . إذا كان كذلك فلعلَّ الدُّعَاءَ من شرائط وجود المطلوب و مصلحته كما أن شرب الدُّوَاءِ من شرائط صحَّة المريض و أسبابه فال المطلوب مع الدُّعَاءِ معلوم الوقوع و مصلحته و بدونه معلوم الالاقوع و غير مصلحة ، وبالجمله هذا العالم عالم الأسباب والأشياء تجري بأسبابها والعبد لعدم كونه عالماً بكيفية علم الله تعالى بالأشياء وقضائه إيَّاهما يكون دائماً بين الخوف والرَّجاء و يجوز كون المعلوم و المقتضى مقيداً بالدُّعَاءِ ويتأكَّد ذلك بقوله تعالى: «أدعوني أستجب لكم» فلذلك لا يترك الدُّعَاءُ في البأساء والضراء ، على أن لنا أن نقول الدُّعَاءُ لا يخلو من فائدة عظيمة ومنفعة جليلة لأنَّه إن كان من شرائط وجود المطالب و أسبابه ففائدته ظاهرة ، و إن لم يكن كذلك سواء كان المطلوب مصلحة في نفسه من غير شرطية الدُّعَاءِ وسببته أو لم يكن مصلحة أصلاً كان الدُّعَاءُ عبادة مستقلة بل هو من أفضل العبادات كما دلُّ عليه الرُّوايات المعتبرة فيورث ثواباً جزيلاً وأجرأً جميلاً في الآخرة ، والجواب عن الأخير أن العبد إذا دعا كان دعاؤه من جملة القضاء فكيف يكون منافياً له . و الحاصل أن المنافي للقضاء ما لا يجامعه والقضاء إذا تعلَّق بشيء مقيد بشرط أو سبب لا يكون ذلك السبب والشرط منافيين له ، و ما روي « أن الدُّعَاءَ يردُّ القضاء وقد أبرم إبراهيم (٢) » فمعناه والله أعلم أن الدُّعَاءَ يوجب اختياراً أحد الفردين من القضاء التخيري مثلاً إذا تعلَّق القضاء بموت هذا المريض بشرط عدم طلب صحته و ببقائه بشرط طلبها كان هذا القضاء متعلّقاً بأمرين متضادين مشروطين بشرطين متقابلين و اختيار أحدهما هو كقول إلى العبد فأيهما اختار فقد رضي بالقضاء ، و إذا عرفت أن الدُّعَاءَ من أشرف مقامات السالكين عرفت أن ضده وهو الاستنكاف يعني الأتفة

(١) الكافي كتاب الحجة باب معرفة الامام والرد إليه تحت رقم ٧.

(٢) الكافي كتاب الدعاء باب (أن الدعاء يرد البلاء والقضاء) .

والكراهة والترفع والعدول عن الدُّعاء الموجب للبعد عن الحق من أخس صفات الجاهلين الهالكين قال الله تعالى « إنَّ الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين » والعبادة هي الدُّعاء .

(والنشاط ضد الكسل) النشاط في العبادة من كمال المراتب الانسانية وهو ينبعث من عدم التقص اللأحق للنفس بسبب كلال بعض القوى الطبيعية عن أفعالها و عدم وقوف الأعضاء و فتورها عن أعمالها بسبب تحلل الروح و ضعفه و رجوعه إلى الاستراحة ولا شبهة في أنَّ ذلك من صفات العاقل الذي فكَّ عنه بالهمة الصادقة قيود الأغلال البشرية و دفع عنه بالنية الخالصة أو زار الأثقال البدنية ، و أنار بنور عقله أعضاءه الظاهرة حتَّى يرى شخصه في هذا العالم و روحه لخبثته و نورانيته في عالم الروحانيين ، يطير مع الملائكة المقربين ، فله من النشاط في العبادة ما لا يدخله سامة من جدو و دؤوب ، ولا إعياء من كد و لغوب ، ولا نقصان من تطرُّق قصور ، ولا استحسار من طريان فتور كما قال سبحانه في وصف الملائكة « و له من في السموات و الأرض و من عنده لا يستكبرون عن عبادته و لا يستحسرون بسبحون الليل و النهار و لا يفترون » و الكسل يعني التناقل في العبادة من صفات الجاهل و المحبوس في سجن الطبيعة البشرية و المغلول بأغلال لواحق القوة الشهوية و المصفود بصفاد عوارض القوى البدنية فهو ثقیل لا يحركه ریح النشاط عن مركزه إلى الدَّرَجَة العليا ، ولا شوق العبادة عن موضعه إلى المرتبة القصوى ، فيرضى - و هو كسلان - بالدُّون من الحياة الدنيا .

(و الفرح ضد الحزن) الفرح السرور يقال : فرح به أي سرَّ ، و أفرحه و فرحه تفريحا إذا سرَّه ، و الفرح أيضاً البطور و الأشر و هذا ليس بمراد هنا لأنَّه من صفات الجاهل لقوله تعالى « إنَّ الله لا يحبُّ الفرحين » و الحزن خلاف السرور يقال حزن الرجل بالكسر فهو حزن و حزين و أحزنه غيره و حزنه ، و هذه الفقرة تحتمل معنيين الأوَّل أن يكون الفرح كناية عن البشاشة و طلاقة الوجه للاخوان ، و

الحزن كناية عن الكلوح والعبوس، والثاني - وهو الأظهر - أن العاقل لكونه عارفاً بالمعارف الإلهية وعالماً بالحكم الربانية ومستشرقاً لأنوار الحق تابعاً لهدها ومقبلاً على عبادة ربه معرضاً عما سواه، مسروراً مبتهجاً فرحاً أبداً في الدنيا والآخرة بما آتاه الله من الفضيلتين العلمية والعملية إذ لا لذّة أعظم منهما ولو نظر إلى ما يوجب الشرور في دار الغرور والتفت التفاتاً مّا إلى خسائس هذه الأمور بسبب شيطان قاده إليها أو ميل نفس حرّضه عليها أخذت بضبعيه الأنوار العقلية (١) وتوقظه من رقدة الغفلة في المراقدة الطبيعية، وحذبه العناية الإلهية من ورطة الهلكة الأبدية وأيدته على إبليس وجنوده فيجتهد في مقاومته ويتخلص من مصائده و يترصد لدفع حيله ويثبت في رفع مكائده، فيحصل بذلك ابتهاج و سرور أيضاً لغلبته على عدوّه، وأمّا الجاهل الفافداهاتين الفضيلتين والمقهور في أسر ذلك العدو فهو حزين في الدارين إذ لا ألم أعظم من ذلك في الدنيا والآخرة أمّا في الآخرة فظا هر لان الآلام الأخروية التي توجب لهم والغم والحزن عند مشاهدة السلاسل والأغلال ومعاناة الشدايد والأهوال، ظاهرة غير محتاجة إلى البيان. وأمّا في الدنيا فلا أن الاعراض عنه سبحانه والاشتغال بما سواه كما هو وصف الجاهل ألم نفساني ومرض روحاني يوجب همّاً وغمّاً وحزناً في نفس الأمر ولا يقدر فيه غفلته وتوهمه أن ذلك أنفع له كما أن السم [الم] مهلك وإن توهم شاربه أنه أنفع له على أنه قد يصدق على مقتضى عقله الفطري بأن الأولى به والأ نفع له هو متاع الآخرة سيما عند معاناة الموت فيحصل له ألم شديد وحزن طويل ولكن لا ينفعه ذلك ما بقي على حاله كما أن الخائن المعذب بسبب الخيانة يصدق بأنّه كان الأولى به ترك الخيانة و يحزن ويتأسّف ولا ينفعه ذلك.

(والألفة و ضدّها الفرقة) الألفة توافق الآراء والعقائد في تدبير المعاش

والمعاد وهي فضيلة مندرجة تحت العدالة التي هي الاستقامة في القوى الفكرية و

(١) الأنوار العقلية هم الملائكة الموكلون بتسديد عباد الله وهدايتهم الى التقوى والاخذ بالضبعين كناية عن هذا التسديد والتأييد والضبع تحت العضد (ش).

الغضبِيَّة والشَّهْوِيَّة والمتوقِّفة على كثير من الفضائل النفسانيَّة مثل التَّحَمُّل و
التَّواضع والرَّقَّة والحَياء والرِّفْق والصبر والوقار والورع والعفو والمروءة والسَّماحة
والمسامحة والصدقة والوفاء والشفقة والتَّوَدُّد إلى غير ذلك من الأمور المعلومَة
لأنَّ تأمُّل في فضائل النَّفس، وكونها من صفات العاقل ظاهر لأنَّ هذه الأمور المذكورة
لا يتَّصف بها إلاَّ عاقل راضٍ بنفسه في ميدان المِجَاهِدَة، ولأنَّه يعلم بشروق عقله
أنَّه يحتاج في غذائه ولباسه ومسكنه ودفع أعدائه وتحصيل أمر الآخرة و
ترويج الشريعة إلى التناصر والنعاون والتعاقد و كلُّ ذلك متوقَّف على الألفة،
والفرقة من أحسنِّ صفات الجاهل لا تتَّصف به زوايل نفسانيَّة مؤدِّيَّة إليها أولاً أنَّه
لظلمة قلبه لأبراعي عواقب الأمور، ومدى نظره إنَّما هو جلب منفعة حاضرة و
دفع كلِّ ما هو عائق عنها ولو بسفك الدِّماء كما هو المشاهد من أبناء الزَّمان
ولارِيب في أنَّ ذلك موجب للمعاندة والمفارقة، ويحتَّم أن يراد بالألفة الألفة
بأهل البيت (عليه السلام)، وبالفرقة التَّباعَد عنهم، وقيل: الوجه في كون الألفة من
صفات العقل أنَّ العقل جوهر مرتفع الذات عن الجسم والجسمانيَّات وعالمه
عالم الوحدة والجمعيَّة، والجهل صفة النفوس المتعلِّقة بالأجسام وصورها التي
وجودها عين قبول الانقسام والافتراق و وحدتها عين كثرة وصلتها عين انفصال
ومباينة فكلُّ واحد من ذوي النفوس الجزئيَّة قبل أن يستكمل ذاته عقلاً بالفعل
لا يحبُّ إلاَّ نفسه بل يعادي غيره ويحسده على ما آتاه الله من فضله فاذا أحبَّ
بعضهم بعضاً فإنَّما أحبه ليتوسَّل به إلى هواه وشهوته فما أحبَّ إلاَّ نفسه ولذلك
إذا ارتفعت الأغراض والأغراض بينهم كما في الآخرة رجعوا إلى ما كانوا
عليه من الفرقة والعداوة كما في قوله تعالى: «الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض
عدوٌّ إلاَّ المتقين».

(والسخا و ضدُّه البخل) السخا في اللُّغة الجود يقال: سخا يسخو إذا جاد
بماله، وسخو الرجل بالضم يسخو سخاوة أي صار سخياً، وفي الاصطلاح ملكة
توجب إنفاق الأموال وسائر المقتنيات في موضعه على قدر لابدِّ منه بسهولة ومن

شرايطه أن يأخذ الشيء من موضعه ويضعه في موضعه فلو صرف الحرام في المستحقين أو صرف الحلال في غيرهم لا يكون سخياً ولا يستحق بذلك ثواباً و تلك الملكة خلقية في الأكثر و قد تكون كسبية حاصلة بكثرة الإعطاء و مزاولة الجود ، فإن غير الطبيعي قد يصير طبيعياً بالممارسة و هي فضيلة نفسانية مندرجة تحت العفة التي هي الاعتدال في القوة الشهوية ، و يندرج تحت السخا كثير من الملكات والفضائل ، منها الكرم و هو أن يسهل على النفس إنفاق الكثير فيما نفعه عام على وجه يقتضيه المصلحة ، ومنها الإيثار و هو أن يسهل عليها صرف ما يحتاج إليه في الفقراء والمساكين ، ومنها المواساة و هي أن يسهل عليها تشريك المستحقين في ماله و أسبابه ، ومنها المسامحة و هي أن يسهل عليها ترك ما لا يجب عليها تركه ، و منها العفو و هو أن يسهل عليها ترك المجازاة بالظلم مع القدرة ، و منها المروءة و هي أن يكون لها رغبة صادقة على التحلي بحلمية البذل و إعطاء ما ينبغي ، و منها النيل و هو أن يكون لها ابتهاج بمداومة الأفعال الحسنة والخصال المرضية ؛ و منها الصداقة و هي أن يكون لها اهتمام على تحصيل أسباب صديقه بقدر الامكان ، و منها الألفة و هي أن يكون لها اعتناء بتدبير معاش الخلطاء ، و منها الوفاء و هو أن تلتزم طريق المواساة والمعاونة ، و منها الشفقة و هي أن يكون لها همّة صادقة على إزالة المكروهات عن الغير ، و منها المكافات و هي أن تقابل الإحسان بمثل له أو زائد عليه ، و منها حسن الشركة و هو أن تراعي الاعتدال في المعاملات ، و منها النود و هو إظهار المحبة للأقران و أهل الفضل وتلقّيهم بطلاقة الوجه و حسن البشر ، و منها صلة الرحم و هي أن تراعي حقوق الأقرباء وتشاركهم في الخيرات الدنيوية والأخروية ، و منها التوكّل و هو تفويض أمرها إلى الله سبحانه ، و منها الصبر و هو أن لا ينجزع من فوات المال و غيره ، و منها القناعة و هي أن لا تحرص على جمع ما لا يحتاج إليه ، و منها الوقار و هو أن تكون ساكنة في تحصيل المطالب غير مضطربة ، و منها الورع و هو أن تجتنب عن الأفعال القبيحة ؛ و منها الحرّية و هي أن تقتصر على اكتساب المال من الطرق الجميلة و لذلك كانت السخاوة

والجود من صفات الأنبياء والمرسلين والصدّيقين ومن اقتفى آثارهم من الصالحين الذين آمنوا بالله وكتبه ورسله ووعده ووعيده في الحشر والنشر والثواب والعقاب وراعوا بصدق الهمة في أحوال الفقراء والمساكين واليتام والأرامل والمستحقين وقصدوا بخلوص النية رفع الحوائج عنهم لا يريدون منهم جزاء ولا شكوراً، وقد دلّ العقل والنقل على شرافة تلك الفضيلة وعلو منزلتها، أمّا العقل فإنّ عباد الله عياله ومن قام لقضاء حوائج عيال أحد في حال حضوره وغيبته ووطن نفسه على رعاية حقوقهم ونظر بعين التلطف والشفقة إليهم كان عند صاحب العيال مكرماً معزّزاً محبوباً سيّماً إذا كان كريماً قادراً على جميع أنحاء الإكرام والله سبحانه لم يجعل أحداً فقيراً لأجل الهوان ولا غنياً لأجل استحقاقه بالفضل والإحسان بل إنّما فعل ذلك لأجل المصلحة والامتحان فمن نظر إلى الفقراء والمحتاجين بعين الحقارة وخطر بباله أنّهم لا يستحقّون الكرامة من الله سبحانه وإلاّ لأعطاهم ورفع حاجتهم فهو جاهل بالمصالح الإلهيّة وكافر بالحكم الربّانيّة ويتوجّه إليه الذمّ في قوله تعالى : « وإذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله قال الذين كفروا للذين آمنوا أنطعم من لو يشاء الله أطعمه إن أنتم إلاّ في ضلال مبين » و أمّا النقل فلقوله تعالى « ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً إنّما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً إنّنا نخاف من ربنا يوماً عبوساً قمطريراً فوقاهم الله شرّ ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسروراً و جزاهم بما صبروا جنة وحريراً و قول أبي الحسن (عليه السلام) السخي قريب من الله قريب من الجنة قريب من الناس والسخاء شجرة في الجنة من تعلّق بغصن من أغصانها دخل الجنة (١) » إلى غير ذلك من الآيات الكريمة والآيات الصحيحة وهي أكثر من أن تحصى ، والبخل وعدم بذل المال سيّماً فضله في وجوه الفقراء والأقرباء من صفات الجاهل ومبدؤه حبّ الدّنيا والرغبة عن الآخرة وخوف الفقر وسوء الظنّ بالله وبمواعيده الصادقة و بعده عن التوكّل والزهد والشفقة والرّقة والرّحمة والتعطّف لغلظة طبعه و

رداءة نفسه و سوء خلقه و شرارة ذاته ، فيبعثه ذلك على استمساك المال عن نفسه فضلاً عن غيره فلذا قال سيد الوصيين عليه السلام : « عجبنا للبخل الذي يستعجل الفقر الذي منه هرب و يفوته الغنى الذي إيّاه طلب فيعيش في الدنيا عيش الفقراء و يحاسب في الآخرة حساب الأغنياء (١) » و سبب التعجب أنّه اختار البخل خوفاً من الفقر و ضنك العيش يوماً ما مع أنّه يدخل في الفقر و ضنك العيش باعتباره أنّه لا ينفق على نفسه و لا على عياله و لا على غيره و بالجملّة البخل عار في نفسه جامع لمساوي العيوب و هو زمام يقادبه إلى كل سوء و كفاك شاهداً قوله تعالى في قصّة قارون و أمثاله و قوله تعالى « و من يبخل فانّما يبخل عن نفسه » و قول أمير المؤمنين عليه السلام « إذا لم يكن لله في عبد حاجة ابتلاه بالبخل (٢) » و أمثال ذلك من الآيات و الرّوايات أكثر من أن تحصى (و لا تجتمع هذه الخصال كلّها من أجناد العقل) التي بها يقاتل الجهل و جنوده في ملك الأبدان و ساحة القلوب و هذه الخصال من حيث أنّ بها يتحقّق التناسل و التسابق إلى الخيرات تسمّى خصالاً ؛ و من حيث عروضها تسمّى صفات ، و من حيث عدم رسوخها بعد تسمّى أحوالاً ، و من حيث رسوخها بالنمرّث و النذر تسمّى أخلاقاً و ملكات و من حيث إطاعتها للعقل و عدم خروجها عن حكمه تسمّى خوادم . و من حيث كونها محفوظة بحفظ العقل و حراسته عن الآفات تسمّى رعايا ؛ و ما ورد في بعض الأخبار من أنّ ما مراعاة الرّاعي لرعيته يندرج فيه هذا أيضاً و من حيث أنّها أعوان للعقل في محاربتها للجهل تسمّى أجناداً (إلّا في نبيّ أو وصيّ نبيّ أو مؤمن قد امتحن الله قلبه للإيمان) أي اختبره بالشدائد و المحن و الرّياضات و الفتن لنحقّق الإيمان (٣) له أو ليتحقّق له الإيمان الكامل

(١) النهج ابواب الحكم تحت رقم ١٢٦ .

(٢) الكافي كتاب الزكاة باب البخل و الشح تحت رقم ٣ .

(٣) يقول اهل العصر ممن له استهتار باصحاب الطبائع ان عبادة رب لا يرى ينافي الامر بمناجاة العقل و تعظيم شأنه و هذا كلام شيطاني نقل من الملاحدة واصحاب الدهر و اجاب بعضهم بان الادراك بالوجدان كالادراك بالعيان . و الاعتراض ساقط من اصله اذ

أو صقله و جلاّه من كدر الأرجاس و طهره و نقّاه من دنس الأخبار من محنت
البئر محناً إذا أخرجت ترابها و طينها (و أمّا سائر ذلك) المذكور (من موالينا)
جمع الموالى و هو يطلق على المعتق بالكسر و الفتح و على ابن العمّ و العصابة
كلّها و منه قوله تعالى «وإنّسى خفت الموالى» و على الرّبّ و المالك و منه قوله تعالى
«تمّ ردّوا إلى الله موليتهم الحقّ» و قوله ﷺ «أيّما امرأة نكحت بغير إذن ولاها»
و على الناصر و المحبّ و منه قوله تعالى «ذلك بأنّ الله مولىّ الذين آمنوا» و المراد
به هنا الأخيران (فإنّ أحدهم لا يخلو من أن يكون فيه بعض هذه الجنود) و
ذلك ظاهر فإنّ شيعة أهل البيت ﷺ هم الذين آمنوا بالله و ملائكته و كتبه
و رسله و اليوم الآخر ففيهم بعض الخصال المذكورة من جنود العقل قطعاً (١)

* الإنسان العاقل اذا قامت الأدلة على وجود واجب الوجود عبده و ان لم يره و لم يجده و
لم يعرف حقيقته و اما ان كل موجود محسوس فمن اغلاط الواهمة سيأتى ابطاله ففى
فى مباحث التوحيد ان شاء الله . (ش)

(١) و اعلم ان كون العقل حجة و دليلاً لا ينافى ماورد فى ذم القياس من ان دين
الله لا يصاب بالعقول و ليس شىء ابعد من عقول الرجال من احكام الله تعالى لان العقل
حجة فيما افاد اليقين و انتهى انما هو عن الظن اذ لا يستفاد من القياس اكثر من الظن و
الاحكام الشرعية الفرعية مما لا طريق للعقل اليه غالباً كوجوب صوم شهر رمضان و حرمة
صوم العيد و قد يكون للعقل اليه طريق فيكون حجة كحرمة القتل و السرقة و غصب اموال
الناس و قال بعض من لا خبرة له ان العقل لا يحتاج به فى الاصول و المقررات الاولى و
يحتاج به فى التجزية و التحليل و تطبيق الاحكام على مقتضيات الازمان و الحق عدم الفرق
بينهما فما حصل من العقل اليقين فهو حجة فى الاصول الاولى و غيرها و ما لم يحصل لم
يكن حجة مطلقاً و التجزية و التحليل و التطبيق الفاظ مبهمة لا يحصل لها و ان كان
للتجزية و التحليل معنى معقول فهو القياس بعينه و تطبيق الاحكام على مقتضى الازمان
غلط لان الاحكام الالهية لا تتغير بتغير الازمان و الشرع المحمدي (ص) ناسخ لجميع الشرايع
و حلاله حلال الى يوم القيمة و حرامه حرام الى يوم القيامة و الله و رسوله اعلم بمقتضى
كل زمان و مصالحها حيث حكما ببقاء هذا الدين الى الابد. ثم انه مثل هذا لا يغير احكامه

و بحسب ما وجد منها فيهم يتنور قلوبهم و يصفو أذهانهم و يرتفع درجاتهم و ذلك متفاوت في الكم والكيف والعدد على تفاوت أنحاء التركيبات الغير المحصورة المتصورة فيها و لذلك لا تجد اثنين منهم متفقين في خصلة واحدة لا توجد فيها تفاوت . وإنما قال : ه من موالينا ه فان غيرهم قد يخلو من جميع هذه الخصال

❦ الاسلام بمقتضى الزمان و هو ان عبد الملك بن مروان اراد هدم دار فى جوار المسجد الحرام و جعلها فيه فلم يرض صاحب الدار بكل قيمة و تحرير عبد الملك ولم يدر ما يفعل لان غصب اموال الناس حرام فى الشريعة ولا يجوز بناء المسجد و الصلوة فى المكان المنصوب فدلوه على زين العابدين (ع) فافتاه بهدم الدار و عدم استحقاق صاحبها القيمة لان بناء المسجد كان سابقاً على بناء الدور . وهذا غير صحيح وعلى فرض صحته اجنبى عن المقام لان الكلام فى ان غير المعصوم امثالننا لا يجوز لنا تغيير حكم الله تعالى الذى ورد من النبى و الائمة المعصومين ، واما الائمة انفسهم فقولهم حجة مأخوذ من الله تعالى بالوحى والالهام فحكمهم حكم الله تعالى وهو حكم الشرع بعينه وهذا مثل ما حكموا بقطع يد السارق مع حرمة قطع اليد وبيع اموال المديون قهراً عليه لاداء حق الدين مع عدم جواز التصرف فى مال احد الا باذنه ولا يلزم من جواز التخصيص والتقييد بل النسخ من الله تعالى فى احكامه أن يجوز لنا أيضاً و لعل زين العابدين (ع) علم باخبار غيبى الهى أن تلك الدار كانت غصباً من المسجد وقد روى فى الكافى والتهذيب و نقل فى الوسائل عنهما فى ابواب مكان المصلى ما يؤيده عن أبى عبدالله (ع) حيث سئل عما زيد فى المسجد الحرام قال انهم لم يبلغوا بعد مسجد ابراهيم و اسماعيل عليهما السلام و قال ان ابراهيم و اسماعيل حدا المسجد ما بين الصفا والمروة و فى رواية اخرى بين الحزورة والمسى . ثم ان ما نقله عن زين العابدين (ع) نقلوه عن الخليفة الثانى ولا نعرف معنى كلامه ولا حجة فى قوله و لم يحكم احد من ائمة المسلمين ان من سبق الى عمارة ارض له حق فيما يجاوره كلما احتاج اليه بحيث يجوز له هدم بناء من لحقه فى العمارة . وروى عن عبد الصمد بن سعد وهو مجهول لا يعرف و نكرة لا نتعرف عن أبى جعفر المنصور و أبى عبدالله (ع) نظير ما نقل هذا القائل عن عبد الملك و زين العابدين (ع) و كذا عن رجل اخر مرسل عن المهدي ولا حجة فى هذه ❦

و يكون قلبه معسكر الجهل وجنوده كلها و في أطرافه و ثغوره حراً أس بحيث لا يجد العقل إليه دليلاً ولا إلى استطلاع حاله سبيلاً كما قال الله تعالى: «ختم الله على قلوبهم و على سمعهم و على أبصارهم غشاوة و لهم عذابٌ أليم» وقد يوجد في بعضهم بعض جنود العقل كالسخاء و نحوه ولكن لا ينفعه لفقده ما هو أعظم منه وأصل للجميع أعني الايمان الذي هو موجب للمرحمة والدخول في الجنة فهو دائماً في الدرجة السفلى محشورة مع الشياطين.

(حتّى يستكمل و ينقى من جنود الجهل) و ذلك الاستكمال أمرٌ ممكن لأنّه لما بنى دينه على أصل متين و أمر يقين و حصل له بعض الخصال المرضية والأ نوار العقلية أمكن له تكميل ذاته بسائر الخصال النورانية والعروج إلى أعلى مدارج الكمال بجذبة من الجذبات الربانية وتنقيته بهمة صادقة ونية خالصة و قدم ثابتة من جنود العقل و أعوانه و ذلك بأن يكون منبسطاً في جميع الأوقات و مراعيّاً لحاله في جميع الحالات و يختار من الأعمال والعقائد والصفات ما هو في الشرع أحكم و أتقن، وعند العقل أفضل وأحسن فينظر مثلاً إلى الصلة والسخاء و منافعهما و إلى القطيعة والبخل و مضارهما و يختار الأ ولين على الأ خيرين و كذا دائماً (فعند ذلك يكون في الدرجة العليا مع الأ نبياء والأ وصياء) و حسن أولئك رفيقاً و إنّما لم يذكر المؤمن الممنحن، إمّا للاقتصار أو للإشارة إلى أنّ هذا المستكمل هو ذلك المؤمن (و إنّما يدرك ذلك) أي الاستكمال بجميع تلك الخصال أو الكون في الدرجة العليا مع الأ نبياء والأ وصياء والأ ول أولى لفظاً

❦ أصلاً و اما عبد الملك بن مروان فلم يزد في المسجد الحرام شيئاً على ما صرح به المؤرخون كالطبري والكمال والمعتنون بتاريخ مكة والكعبة كالازرقى والفاكهي و الفاسي في شفاء الغرام و صاحب كتاب الاعلام باعلام بيت الله الحرام ولاريب ان جميع حوادث مكة المشرفة مضبوطة حتى انهم ذكروا عدد السيول التي جرت و السنين التي وقعت فيها و القحط والغلا في كل سنة حدثت فضلاً عن ولائها و عمارة المسجد و غير ذلك و اصل الحكاية فرية بلامرية. نظير ما ادعاه من ترويح المتوكل من مذهب الاشعري وكان متأخراً عنه بماء سنة (ش)

و معنى (بمعرفة العقل و جنوده و مجانبة الجهل و جنوده) وجه الحصر ظاهر لأن العمل بشي، متوقف على العلم به ، ولأن التمييز بين الحق والباطل متوقف على العلم بكون هذا حقاً و ذاك باطلاً ، و إنما لم يقل و بمعرفة الجهل و جنوده كما قال في الأوّل لأمرين أحدهما أنّه إذا حصلت معرفة العقل و جنوده حصلت معرفة الجهل و جنوده بالمقابلة لأنّ كلّ ما ليس عقلاً و جنوده فهو جهل و جنوده في حالات الانسان و ثانيهما أنّ المقصود الاهم هو مجانبة الجهل و جنوده لأنّه الغالب في الّا كثر و الموافق للنفوس البشريّة (وفقنا الله وإياكم لطاعته و مرضاته) الرّضوان بالضمّ والكسر والرّضى والمرضاة بمعنى واحد وهذا من كلام الصادق عليه السلام ودعاء لنفسه وللمن كان حاضراً عنده من مواليه ، ولمن غاب عنه ولمن يوجد إلى يوم القيمة من باب تغليب الحاضر على الغائب ، و فيه تنبيه على أنّه لا بدّ لطالب الخير من الالتجاء إليه سبحانه و طلب التوفيق منه إذ بيده الخير و هو على كلّ شي، قدير ولا حول ولا قوة إلاّ بالله العلي العظيم.

((الاصل))

مرکز تحقیق کتب و نشر علوم اسلامی

١٥- « جماعة من أصحابنا ، عن أحمد بن محمد بن عيسى ، عن الحسن بن عليّ ، ابن فضال ، عن بعض أصحابنا ، عن أبي عبد الله عليه السلام قال : ما كلّم رسول الله ﷺ العباد بكنه عقله قطّ ، و قال : قال رسول الله ﷺ : إنّنا معاشر الأنبياء ، أمرنا أن نكلّم الناس على قدر عقولهم . »

((الشرح))

(جماعة من أصحابنا عن أحمد بن محمد بن عيسى عن الحسن بن عليّ بن فضال عن بعض أصحابنا ، عن أبي عبد الله عليه السلام قال : ما كلّم رسول الله ﷺ العباد بكنه عقله قطّ) كنه الشيء نهايته يقال « أعرفه كنه المعرفة أي نهايتها ولا يشتمل منه فعل و قولهم لا يكتننها الوصف بمعنى لا يبلغ كنهه كلام مولد وقد يكون كنه الشيء حقيقته

التي هو بها هو ، وفيه إشارة إلى كمال عقله ﷺ فإنه نور رباني لا يدانيه شيء من العقول إذ كما أن النوار متفاوتة فنور الشمس والقمر والكواكب والمصباح والمراة بعضها فوق بعض لا يكون إلا حق مثل السابق ، فكذلك العقول متفاوتة في الدرجات والمراتب وعقله ﷺ أعلى الدرجات الممكنة وأقصى المراتب المتصورة و هو مظهر للحقايق والمعارف الالهية ومعدن للأسرار والعلوم الربانية ومدرک لما يعجز عن إدراكه عقول البشر ويقف دون الوصول إليه الفكر والنظر فلذلك ما كلّم العباد أبداً بحقيقة ما عرفه ونهاية ما بلغه و كيفية ما عقله لئلا يقعوا في الحيرة وقد بعث لأزاحتها و ارسل لأزالتها ، ولأن الغرض من الكلام إنما هو الافهام والمخاطب إذا لم يفهم كان ذلك عبثاً والحكيم لا يعيثر . و لذلك كانت الحكماء يوصون بضئ الحكمة عن غير أهلها (١) و من هذا القبيل ما روي عن أبي عبد الله عليه السلام قال «قام عيسى ابن مريم خطيباً فقال : يا بني إسرائيل لا تحذثوا الجهال بالحكمة فتظلموها ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم (٢) » و ينبغي أن يعلم أن المراد بالعباد أكثرهم فانا نعلم قطعاً أن علياً عليه السلام نفسه المقدسة كما دلّت عليه آية المباهلة وغيرها من الروايات و أنه كلّمه و علّمه بكنه ما عقله ممّا هو كائن ويكون في الدنيا والآخرة.

(و قال قال رسول الله ﷺ إنّا معاشر الأنبياء) أي جماعاتهم جمع معشر وهي الجماعة (أمرنا أن نكلّم الناس على قدر عقولهم) أي على قدر ما يدركه عقولهم من

(١) قال الشيخ الرئيس أبو علي بن سينا في أول كتاب الاشارات : و أنا أعيد وصيتي و أكرّر التماسي أن يضمن بما يشتمل عليه هذه الاجزاء كل الضن على من لا يوجد فيه ما اشترطه في آخر هذه الاشارات ، و منع في آخر الكتاب من تعليم الحكمة لطائفتين الأولى الجاهلين المبتدلين و من لم يرزق الفطنة والوقادة - الى آخر ما قال - و الثانية ملحدة هذه المتفلسفة و مهجهم - الى ان قال - فان ادعت هذا العلم أو أضعته فانه بيني وبينك و كفى بالله وكيلا (ش).

(٢) سيأتي في كتاب العلم باب فضل العلم تحت رقم ٤ .

المعارف والحقايق وغيرها لأن الحكيم التحرير يراعي في تعليم العقول الناقصة المنحيرة في تيه الضلالة والنقوس المنكدرة برين الغواية وغين الجهالة وتأديبها بمحاسن الآداب ومكارم الأخلاق والنضائل وتخليصها عن غواشي الأوهام ومساوي العيوب والرتايل ما يناسبها و يبلغ إليه فهمها وينتهي إليه دركها (١) وقد يلبس

(١) يدرك أرباب العقول الكاملة فضلا عن الانبياء أموراً لا يمكن تعليمها لعامة الناس بوجه أصلا لعدم استعدادهم لفهمها فيجب عليهم تخصيص تعليمها بمن يجدون فيه استعداداً تاماً و يدركون أيضاً أموراً يمكن تعليمه للناس في صورة مثل و تعبير قريب الى اذهانهم و أعظم الافات للعامة تمكن العادات و مغالطة الاوهام و عدم تدربهم في فك العقل عن الوهم ولكل شيء في ذهنهم لوازم غير مترتبة عليه واقعاً ولا يتوقع منهم ما يمسر على المتدربين في العقلية مثلاً الفرق بين الحدوث الزماني والحدوث الذاتي والفاعل بالاختيار والعلة النامة فانهم رأوا كل علة نامة فاعلا غير مختار كالنار للحرق والشمس للنور ورأوا كل فاعل مختار علة ناقصة كالإنسان وإذا قيل لهم ان الله فاعل مختار ذهب ذهنهم الى انه تعالى علة ناقصة وإذا قيل انه تعالى علة نامة ذهب ذهنهم الى انه فاعل لا بالاختيار ويشتمزون من كمال الحكمين ولا يسهل عليهم الجمع بينهما ولا يمكن أيضاً ان يفهم العامة معنى قول العلامة الحلي رحمه الله في شرح التجربة بان إعادة المعدوم ممتنعة ويذهب ذهنهم الى انكار المعاد وكذلك قوله ان احتياج الممكن الى الواجب لا مكانه للاحدونه وقولهم المحال غير مقدور ولا يعرف الناس معنى المحال ولا يفرقون بين المحال العادي والعقلي بل ولا بين النادر الوقوع والمحال العادي أيضاً ويظنون مثل شق القمر والمعراج محالاً وقد ورد أن المرأة تحتلم ولكن لا تحدثوهن ولو كان احتلامهن عادة كالرجال وجب تعليمهن لوجوب الفضل والصلوة عليهن ولكن منعوا عليهن السلام من تعليمهن لان ذلك أمر نادر فاذا حدثن بذلك ذهبت أوهامهن الى أن ذلك عادة مستمرة لهن فينتسطن لكل رطوبة لزجة في مفاصلهن و كثير من مسائل الفقه مما يذهب ذهنهم من جوابها الى امور باطلة و ان كان الجواب صحيحاً وان افتيت بولاية الجائر ذهبت أوهامهم الى تجويز كل ظلم او تجويز الصفق ذهبت الى كل منكر وفحشاء وهكذا. (ش)

المطالب بكسوة الأمثال لعلمهم يفهمون كما قال سبحانه «و تلك الأمثال نضربها للناس لعلهم ينتفكرون» وبالجملة الناس أطفال وعقولهم غير بالغه وهو عَلَيْهِ السَّلَام معلم والمعلم الرباني لا يعلم الأطفال إلا بما يناسب حالهم و تبلغ إليه عقولهم و ينتهي إليه ذهنهم.

((الاصل))

١٦- «علي بن محمد ، عن سهل بن زياد ، عن النوفلي ، عن السكوني ، عن جعفر ، عن أبيه عَلَيْهِ السَّلَام قال : قال أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَام : إن قلوب الجهال تستفرها ، الأطماع وترتها المنى وتستعلقها الخدائع».

((الشرح))

(علي بن محمد ، عن سهل بن زياد ، عن النوفلي عن السكوني ، عن جعفر ، عن أبيه قال : قال أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَام : إن قلوب الجهال تستفرها الأطماع) أي تستخفها ويفزعها وتزعجها وتطيرها وتسلب طمأنينتها ، والأطماع جمع طمع وهو معروف وقد يجىء بمعنى الرزق يقال : أمر لهم الأمير بأطماعهم أي بأرزاقهم وينشؤ ذلك من تموج القوة الشهوية واضطرابها حتى تستولى على ساحة القلب فيصير مظلماً إذا خرج يده لم يكديرها ، وعند ذلك يعدل عن الصراط المستقيم و هو الوثوق بالله العظيم إلى ما هو من أخس مكائد الشيطان وأضر أحوال الإنسان وهو الطمع فيما في أيدي الناس فيقع في وثاق الدّل و عبودية العباد ويحرم عما سبق له من الميعاد في دار المعاد و هو أصم لا يسمع نصيح الناصح الأمين قال أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَام : «لا تخضعن لمخلوق على طمع فإن ذلك وهن منك في الدين ، و استرزق الله ممّا في خزائنه فإن ذلك بين الكاف والنون ، إن الذي أنت ترجوه وتأمله من البرية مسكين بن مسكين وأمّا العاقل فهو مع علمه بأن مورد الطامع قد لا يكون باعثاً لتحصيل المراد ولا سبباً لاصدار ما أراد بل يتخلف عنه المرام و يصير ذلك

موجباً لتضييع الأيَّام يرى في صفاء مرآة قلبه وخامة مآل تلك الأحوال فيفرُّ منها فرار الجبان من مشبل معها الأولاد والأشبال (وترتهنها المنى) المرتهن الذي يأخذ الرهن و المنية والامنية واحد والجمع المنى والأمانى فتشبيه المنى بالمرتهن مكنية وإثبات الارتهان لها تخيلية ، و الراهن هو النفس الأمارة بالسوء ، و فيه مبالغة بليغة على كمال إفلاسها حيث رهنّت لغاية اضطرارها وعدم اهتدائها إلى المظلوم ما هو أشرف منافع البيت و هو القلب و ينشؤ ذلك من الإفراط في القوة الشهوية و مرضها الذي يسرى إلى البصائر و يوهنها و يطمس نورها ويمنعها عن إدراك المعارف و ما يتفح في اليوم الآخر فلامحالة يتوجّه إلى الشهوات الزائلة و الزهرات الحاضرة و الأمانى الباطلة و ينظر إليها بعين الظاهرة فيتمنّى دائماً حصول ما لا يبلغه و بناء ما لا يسكنه و جمع ما يتركه لانتفاء الزجر فلا يبالى من باطل جمعه و من حقّ منعه و من حرام حمّله و أمّا العاقل فيعلم بنور بصيرته أنّ أشرف الغنى ترك المنى والاعتماد على الموالى ، وبخلوص سريره أنّ الأمانى آفة تعمى أعين البصائر التي في الصدور حتّى لا ترى وخامة عواقب الأمور فيحصل له همّة صادقة تبعثه على فطام النفس عن الشهوات و نزع القلب عن أيدي الأمانى والشبهات و صرف النظر عن الخلق والرّجوع بالكلية إلى الحقّ (و تستعلقها الخدایع) بالعین المهملة والقاف يقال : علّق الشيء بالشيء ، تعلّقاً فتعلّق به و علّق باباً على داره إذا نصبه و ركبه و علّق بالشيء بكسر اللام بمعنى تعلّق واستعلّق هنا بمعنى علّق بالكسر لا المجرّد الطلب إلّا أنّ فيه مبالغة لأنّ الواقع مع الطلب أشدّ و أقوى ، و خدعه و يخدعه خدعاً أي ختله وأراد به المكره والضرر من حيث لا يعلم والاسم منه الخديعة وجمعها الخدایع و معناه بالفارسية (ميجسبد بقلب جاهل خديعه و مكر) وهذا يحتمل وجهين أحدهما أنّ الجاهل شأنه أن يخدع غيره و يمكر به و يزيد إيصال المكره والضرر إليه لغرض من الأغراض الفاسدة كما قال سبحانه في وصف المنافقين « يخادعون الله أي يخادعون أوليائه و ثانيهما أنّ شأنه الانخداع وقبول الخديعة والمكر من الخادعين الماكرين كثيراً سريعاً لقلّة عقله

و ضعف بصيرته و سوء تدبيره في عاقبة أمره، و أمّا العاقل فله عينان في الظاهر و عينان في الباطن و بذلك ينتظم حاله ظاهراً و باطناً لا يخدع غيره تحرّزاً عن صفات المنافقين ولا يخدع من غيره كثيراً كما هو شأن المؤمنين قال ﷺ « المؤمن لا يلدغ من جحر مرتين (١) » قيل في بعض النسخ « تستقلقها » بالقافين أى تجعلها الخدایع منزعة منقطعة عن مكانها. وفي بعضها بالغين المعجمة من استغلقتني في بيعه أي لم يجعل لي خياراً في ردّه.

((الاصل))

١٧- « عليّ بن إبراهيم ، عن أبيه ؛ عن جعفر بن محمد الأشعري » ، عن « عبيد الله الدّهقان » عن درست ، عن إبراهيم بن عبد الحميد قال : قال أبو عبد الله ﷺ : « أكمل الناس عقلاً أحسنهم خلقاً ».



((الشرح))

(عليّ بن إبراهيم ، عن أبيه ، عن جعفر بن محمد الأشعري . عن عبيد الله الدّهقان ، عن درست عن إبراهيم بن عبد الحميد) مشترك بين رجلين أحدهما مستقيم من رجال الصادق عليه السلام والآخر واقفي من رجال الكاظم عليه السلام (قال : قال أبو عبد الله ﷺ : « أكمل الناس عقلاً أحسنهم خلقاً ») العقل نور ربّاني يفرّق بين الحقّ والباطل ويستبان به المعارف والعواقب ويترك به الدّمايم والقبايح ، ويتبعه قوّة اللغات إلى جميع المحاسن والفضائل التي منها حسن الخلق ، و اختلف العلماء في تعريفه فقيل هو بسط الوجه و كفّ الأذى و بذل الندي و قيل : هو أن لا يظلم صاحبه ولا يمنع ولا يجهنوا أحداً و إن ظلم غفراً ، و إن منع شكراً ، و إن ابتلي صبراً ، وقيل : هو صدق التّحمل و ترك التّجمل ، و حبّ الآخرة و بغض الدّنيا و الحقّ أن كلّ هذا تعريف له بالآثار والأفعال التابعة له الدّالة عليه و أنّه هيئة راسخة

(١) رواه احمد والبخارى و مسلم و أبو داود و ابن ماجه في سننه تحت رقم ٣٩٨٣.

حاصلة للنفس بصفات اللآيقة بها ، و ذلك النور كما يتنور به الباطن و يهتدي به كل عضو منه إلى ما يليق به كذلك يتنور به الظاهر و يهتدي به كل عضو منه إلى ما خلق لأجله لما بين الظاهر و الباطن من مناسبة بها يتعدى حكم كل واحد منهما إلى الآخر ، و عند ذلك يستقيم الظاهر والباطن و يتوجه كل واحد منهما إلى ما هو مطلوب منه ، و ممّا هو مطلوب منه هو حسن الخلق فحسن الخلق تابع لذلك النور المسمّى بالعقل ، ولا شبهة في أنّ العقول متفاوتة في النور و الضياء تفاوتاً فاحشاً لا تكاد تنحصر في عدد وبتفاوتها يتفاوت الأخلق النابعة عنها تفاوتاً عظيماً ، فقد ظهر أنّ العقل كلما كان أكمل و أنقى كان الخلق أكمل وأحسن ، وأيضاً العقل محلّ للحكمة الإلهية والمعارف الربّانية وهي توجب محبته تعالى ومحبته توجب محبة عباده من حيث أنّهم عباده وصنابعه لأنّ من أحبّ أحداً أحبّ جميع أفعاله من حيث أنّها أفعاله و كما يقتضى محبة الله تعالى تعظيمه ظاهراً و باطناً كذلك يقتضى محبة عباده تعظيمهم و تكريمهم و تلطّفهم ظاهراً و باطناً وهي حسن الخلق ولكن لما كانت درجات معرفته متفاوتة و مراتب محبته مختلفة كانت مراتب محبتهم أيضاً كذلك ومن ههنا أيضاً يتبيّن أنّ العقل كلما كان أكمل كان الخلق أحسن و لذلك قال تعالى الله لنبيه ﷺ « إِنَّكَ لَعَلَىٰ خَلْقٍ عَظِيمٍ » لأنّ عقله فوق جميع العقول وأسناها ، ومعرفته فوق جميع المراتب وأعلاها ، ومحبته فوق جميع الدرجات وأقصاها ، فخلقته فوق جميع الأخلق وأقواها و لذلك اتّصف بالعظمة البالغة التي لا تبلغ العقول إلى منتهائها .

((الاصل))

١٨- « عليّ » [عن أبيه] عن أبي هاشم الجعفري قال: كنّا عند الرضا عليه السلام «فتذاكرنا العقل والأدب فقال: يا أبا هاشم العقل حياء من الله ، والأدب كلفة » « فمن تكلف الأدب قدر عليه ، و من تكلف العقل لم يزد بذلك إلا جهلاً » .

((الشرح))

(١)

(عليٌّ عن أبي هاشم الجعفري) اسمه داود بن القاسم بن إسحاق بن عبد الله ابن جعفر بن أبي طالب ثقة جليل القدر عظيم المنزلة عند الأئمة عليهم السلام شاهدًا بأبا جعفر وأبا الحسن وأبا محمد عليهم السلام و كان شريفًا عندهم وله موقع جليل عندهم وروى أبوه عن الصادق عليه السلام (صه) (١) و نقل سيد الحكماء هذا العنوان هكذا عليٌّ عن أبيه، عن أبي هاشم الجعفري ، ثم قال و أمّا ما يروى في عدة من النسخ عني عن أبي هاشم الجعفري فغلط من إسقاط الناسخ فإنّ أحدًا من العلويين الذين يعينهم الكليني في صدور الأسانيد وهم علي بن محمد المعروف بعلاء و علي بن محمد المعروف بأبوه بما جيلويه، و علي بن إبراهيم بن هاشم لم يرووا عن أبي هاشم الجعفري من غير واسطة (قال: كنّا عند الرضا عليه السلام فتذاكرنا العقل والأدب فقال: يا أبا هاشم العقل حياء من الله والأدب كلفة فمن تكلف الأدب قدر عليه . و من تكلف العقل لم يزد بذلك إلّا جهلًا) الحياء بالكسر العطاء، يقال: حياء حيوة أي أعطاه وفي المغرب الأدب أدب النفس والدرس وقد أدب فهو أديب، وأدبه غيره فأدب و تركيبه يدلّ على الجمع ، والدعاء و منه الأدب لأنّه يأدب الناس إلى المحامد أي يدعوهم إليها (٢) و قيل: الأدب اسم يقع على كلّ رياضة محمودة يخرج بها الإنسان في فضيلة من الفضائل ، وقال أمير المؤمنين عليه السلام : «الأدب حلل مجددة» (٣) يعني كما أنّ الشخص يتزّين بالحلل كذلك يتزّين بالأدب مثل العلم و ما يتبعه من حسن المجاورة والمعاشرة و أمثالها ، و قال بعض أهل المعرفة: للأدب شعب كثيرة فلذا قال بعضهم: هو ما يتولّد من صفاء القلب و حضوره ، و قال بعضهم: هو مجالسة الخلق على بساط الصدق و مطالعة الحقائق بقطع العلايق، و قال بعضهم: هو وضع

(١) رمز الى كتاب خلاصة الاقوال للعلامة الحلي (ره).

(٢) تقدم تحقيقه ص ٢٤٣ .

(٣) النهج ابواب الحكم تحت رقم ٤.

الأشياء موضعها ، و قال بعضهم : أدب اللسان ترك ما لا يعنيه ، و إن كان صدقاً فكيف الكذب ، و أدب النفس معرفة الخير والحرص عليه و معرفة الشر و الانزجار عنه ، و أدب القلب معرفة حقوق الله تعالى و الأعراض عن الخطرات المذمومة ، و الكلفة ما يتكلفه الانسان من المشاق و يتجشّمه بمعنى أن العقل عطيّة من الله تعالى و غريزة في الانسان و جوهر ربّاني خلقه و جعل نوره في القلب الهداية إلى خير الدنيا والآخرة وليس للعبد قدرة على اكتساب ذلك الجوهر لنفسه كما أنّه ليس ذلك في وسع المجانين و سائر الحيوانات الفاقدة له فمن تكلف في تحصيله و تجشّم في اكتسابه كان سعيه عبثاً ، و مع ذلك يزداد به جهله حيث اعتقد أنّه فاعل لما لا يليق به و لا يقدر على فعله و ارتكب ما يفضي إلى الدّور، نعم الآداب التي يرشده العقل إليها و يدلّه عليها وهي من توابع حرّكاته و سكناته الموافقة لقانون الشرع والعرف داخلّة تحت قدرته فله السعي في اقتنائها والاجتهاد في اكتسابها ليرتقى من حضيض النقص إلى أوج الكمال ، فان قلت لاشبهة في أن أصل العقل منه تعالى فهل درجاته السّلبية و مراتبه العليّة التي تحصل بكثرة التجارب والمعارف و اقتراف العلوم والحقايق و اكتساب الآداب والفضائل منه تعالى أو من العبد (١) ؟ قلت : النظر إلى ظاهر هذا الحديث و ظاهر مأمّر « ولا أكملنك إلّا فيمن أحب » و ظاهر قوله « إنّما يداق الله العباد في الحساب يوم القيمة على قدر ما آتاهم من العقول في الدنيا » إلى غير ذلك من الأخبار المتكثّرة يفتضى أنّها منه تعالى و تلك العلوم والآداب و إن كان لها مدخل في حصولها لكنّها ليست عللاً فاعليّة لها بل هي شرائط لتحقيقها و صدورها من المبدء الفيّاض كما أن الدّهن شرط أو معدّ لزيادة ضوء المصباح وأصل الضوء وزيادته و

(١) احتمال كونه من العبد ساقط من أصله مبني على اعتقاد العوام من أن بعض الأشياء

بفعل الله و بعضها بفعل غيره وينسبون إلى الله ما لا يجدون له سبباً (ش).

كماله منه تعالى (١).

((الاصل))

١٩- «علي بن إبراهيم، عن أبيه . عن يحيى بن المبارك، عن عبد الله بن جبلة، عن إسحاق بن عمار، عن أبي عبد الله عليه السلام قال : قلت له : جعلت فداك، «إن لي جاراً كثير الصلاة، كثير الصدقة، كثير الحج لا بأس به قال : فقال : «يا إسحاق كيف عقله ؟ قال : قلت له : جعلت فداك ليس له عقل، قال : فقال : «لا يرتفع بذلك منه».

((الشرح))

(علي بن إبراهيم، عن أبيه، عن يحيى بن مبارك) في بعض كتب الرجال أنه من أصحاب الرضا عليه السلام ومارأيت اسمه في الخلاصة (عن عبد الله بن جبلة عن إسحاق بن عمار، عن أبي عبد الله عليه السلام قال : قلت له : جعلت فداك إن لي جاراً كثير الصلاة كثير الصدقة كثير الحج) لفظ الكثير منصوب على أنه صفة لأن الإضافة اللفظية لا يكتسب تعريفاً، أو مرفوع على أنه خبر مبتدأ محذوف وهو والصفة حينئذ جملة (لا بأس به) لعل المراد من نفي البأس هو أنه من أهل الولاية أو أنه من أهل الصلاح لا يؤدي أحداً (قال : فقال : يا إسحاق كيف عقله؟) لمّا بالغ إسحاق في وصفه بالأعمال الصالحة سأل عليه السلام عن أصل تلك الأعمال وهو العقل الذي يميز بين الحق والباطل ويوجب الإقرار بالحق تنبيهاً على أنه هو الحري بالانصاف به لأنّه نور يبصر به خير الدنيا والآخرة (قال : قلت : جعلت فداك

(١) وكذلك كل شيء في العالم ليس له علة فاعلية غير الله تعالى لأن غيره لا يقدر على إيجاد شيء والسحاب والرياح والأمطار علة معدة للنبات لفاعلة والحرارة والقوة المصورة في الرحم كذلك معدة للجنين والوجود من الله تعالى ولا ينور الشمس شيئاً ولا النار يحرق إلا بالأعداد ولا مؤثر في الوجود إلا الله تعالى (ش).

ليس له عقل ، قال : فقال لا يرتفع بذلك منه (١) أي لا يرتفع عمله بسبب أنه ليس له عقل منه ، و في بعض النسخ « لا ينتفع بذلك منه » أي لا ينتفع ذلك الرجل بسبب أنه ليس عقل من عمله وهنا شيء و هو أنه إن أريد بقوله : « ليس له عقل » نفي العقل عنه مطلقاً حتى ما هو مناط التكليف كما هو الظاهر أو نفي كونه من أهل الولاية كناية كان عدم ارتفاع عمله محمولاً على الظاهر لأن عمل غير المكلف و عمل غير الإمامي ليس مرتفعاً ، ولكن تلك الإرادة ينافي ظاهر ما تقدم ، و إن أريد به نفي الكمال يعني نفي العقل المستتبع للعلوم الدينية والمعارف اليقينية كان عدم الارتفاع مأولاً بأنه لا يرتفع عمله كاملاً ولا يبلغ درجة عمل ذوي العقول الكاملة ، فإن رفعة العمل والثواب عليه على قدر العقل كما مر في عابد بني إسرائيل ، أو بأن هذا الحكم أعني عدم رفع العمل بالكلفة في خصوص الجار المذكور كما يشعر به لفظة منه لعلامة (عليه السلام) بفساد عمله في الواقع

((الاصل))

٢٠- « الحسين بن محمد ، عن أحمد بن محمد السمراري عن أبي يعقوب البغدادي » قال : قال ابن السكيت لأبي الحسن (عليه السلام) : أما ما بعث الله موسى بن عمران (عليه السلام) « بالعصا و يده البيضاء و آلة السحر ، و بعث عيسى (عليه السلام) بألة الطب ، و بعث محمداً صلى الله عليه وآله و على جميع الأنبياء بالكلام و الخطب فقال أبو الحسن (عليه السلام) : « إن الله لما بعث موسى (عليه السلام) كان الغالب على أهل عصره السحر فأتاهم من عند الله بما لم يكن في وسعهم مثله و ما أبطل به سحرهم و أثبت به الحجّة عليهم و إن الله بعث عيسى (عليه السلام) في وقت قد ظهرت فيه الزمانات و احتاج الناس إلى الطب فأتاهم من عند الله بما لم يكن عندهم مثله و بما أحياهم الموتى و أبرأ الأكمه و الأبرص باذن الله و أثبت به الحجّة عليهم و إن الله بعث محمداً صلى الله عليه وآله في وقت كان الغالب على أهل عصره الخطب و الكلام - و أظنه قال : الشعر - فأتاهم من عند الله من مواعظه و حكمه ما أبطل به قولهم و أثبت به الحجّة عليهم ، قال : فقال ابن السكيت : بالله ما رأيت مثلك

« قَطَّ فَمَا الْحِجَّةُ عَلَى الْخَلْقِ الْيَوْمَ ؟ قَالَ : فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : الْعَقْلُ يَعْرِفُ بِهِ الصَّادِقَ ،
« عَلَى اللَّهِ فَيَصْدِّقُهُ وَالكَاذِبَ عَلَى اللَّهِ فَيَكْذِبُهُ ، قَالَ : فَقَالَ ابْنُ السَّكَيْتِ : هَذَا وَاللَّهِ »
« هُوَ الْجَوَابُ » :

((الشرح))

(الحسين بن محمد) بن عمران بن أبي بكر الأشعري الثقة (عن أحمد بن محمد السبّاري) ضعف و نسب إلى النّاسخ (عن أبي يعقوب البغدادي) اسمه يزيد ابن حماد بن الأنباري السلمي ثقة (قال : قال ابن السكيت) اسمه يعقوب بن إسحاق ثقة ثبت عالم بالعربية واللغة مصدّق لا يطعن عليه و كان متقدماً عند أبي جعفر الثاني و أبي الحسن الثالث عليهما السلام قتله المتوكل لأجل التشيع (لأبي الحسن (١) عليه السلام لماذا بعث الله موسى بن عمران) في « ماذا » ثلاثة أوجه الأول أن يكون مجموعته بمعنى أي شيء والثاني أن يكون « ما » بمعنى أي شيء ، « وذا » زائدة ، و الثالث أن يكون « ما » بمعنى أي شيء و « ذا » موصولة بمعنى الذي ، وهو على جميع هذه التقادير سؤال عن سبب اختصاص كل نبي من الأنبياء عليهم السلام بأعجاز مخصوص (بالعصا ويده البيضاء) « فألقى عصاه فاذا هي ثعبان مبین و نزع يده فاذا هي بيضاء للمناظرين » (وآلة السحر) من باب عطف العام على الخاص ، والمراد بهما يناسب السحر و يشبهه عند القاصرين مثل الفلق و الطوفان و الجراد والقمل و الضفادع والدم والطمسة والجذب في واديهم والنقصان في مزارعهم ، والسحر في اللغة مادي مأخذه و لطف سواه ، كان مذموماً شرعاً أو عقلاً أو ممدوحاً ومنه قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ : « إن من البيان لسحراً » قيل : هذا يحتمل المدح والذم ، المدح من حيث

(١) ذكرنا في حواشي كتاب الوافي (صفحة ٢٣ وما بعده) ان المسؤول هو أبو الحسن الثالث أعني الهادي (ع) وذكرنا هناك وجهه ومن الناس من نسب الحديث إلى الرضا (ع) وهو خطأ ورأيت بعد ذلك من نسبته إلى الكاظم وهو خطأ لعدم علم قائله بالرجال وعدم تدبره (ش).

أنَّ صاحبه قادراً على استمالة القلوب بحسن عبادته و لطف دلالته و إفصاح مرامه و إبلاغ كلامه ، والذم من حيث أنَّه قادر على تحسين القبيح و تقبيح الحسن و في الاصطلاح قيل : هو أمر خارق مسبب عن سبب يعتاد كونه عنه فيخرج المعجزة والكرامة لأنَّهما لا يحتاجان إلى تقديم أسباب وآلات و زيادة اعتماد بل إنَّما تحصلان بمجرد توجُّه النفوس الكاملة إلى المبدء جلَّ شأنه ، و أيضاً الإعجاز يتحقَّق عند التحدُّى دون السحر ، و قيل : هو كلام يتكلَّم به أو يكتبه أوريقة أو عمل شيء يؤثّر في بدن المسحور أو عقله أو قلبه من غير مباشرة ، و منه عقد الرّجل عن زوجته وإلقاء العداوة والبغضاء والفرقة بينهما وذهب أكثر الأصحاب و بعض العامة إلى أنَّه لاحقيقة له وإنَّما هو تخيّل محض و توهم صرف ولا تأثير له أصلاً ولا مستند لهم يعتدُّ به على أنَّ التأثير بالوهم يتمّ لو سبق للمسحور علم بوقوعه وقد يجد أثره من لا يشعر به أصلاً ، والظاهر أنَّ له حقيقة في نفس الأمر كما دلَّ عليه ظواهر القرآن والأخبار وذهب إليه أكثر العامة و بعض الأصحاب و إليه ميل الشهيد الثاني و من شاهد من الأجسام ما هو قتال كالسموم و ما هو مسقم كالأدوية الحارة مثلاً و ما هو مصحح كالأدوية المضادة للمرض لا يبعد في عقله أن يكون تركيب مخصوص في الكلام و تلفيق معين في الكلمات و هيئة مخصوصة في العقود و نحوه مما يؤدِّي إلى الهلاك والفرقة أو السقم أو اختلال الحال إلخ غير ذلك من المفسد و أن ينفرد الساحر بعلم ذلك كما ينفرد صاحب التجربة بخواصِّ الدَّواء (و بعث عيسى عليه السلام بآلة الطب) أي بما يشبه بها من إبراء الأكمه والأبرص و أنواع الأمراض المزمنة وإحياء الموتى . والطب بالحركات الثلاث والكسر أشهر و هو في اللّغة الحذاقة و كلُّ حاذق طبيب عند العرب وفي الاصطلاح علم تعرف به أحوال بدن الانسان من حيث الصحة و الفساد والغرض منه حفظ الصحة وإزالة المرض

(وبعث محمد صلى الله عليه وآله و على جميع الأنبياء بالكلام والخطب) يحتمل أن يراد بالكلام القرآن الكريم البالغ في الفصاحة والبلاغة حدَّ الإعجاز الخارج عن

قدرة البشر و بالخطب الكلام النبوي المشتمل على غاية الفصاحة و البلاغة بحيث لا يدانيه كلام أحد من البلغاء ولا تر كيب أحد من الخطباء والفصحاء، و يحتمل أن يكون المطف لتفسير الكلام و يراد به الجنس (فقال أبو الحسن عليه السلام: إن الله لما بعث موسى عليه السلام كان الغالب على أهل عصره السحر) كما قالوا أرجه و أخاه و ابعث في المداين حاشرين يا أتوك بكل سحار عليهم فجمع السحرة لميفات يوم معلوم و قيل للناس هل أنتم مجتمعون لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالين (فأتاهم من عند الله لم يأميكن في وسعهم مثله و ما أبطل به سحرهم و أثبت به الحجة عليهم) كما قال سبحانه فألقى موسى عصاه فإذا هي تلقف ما يأفكون فألقى السحرة ساجدين قالوا آمنا برب العالمين رب موسى وهرون لعلمهم بأن ما جاءوا به من التمويزات النفسانية والتدليسات الشيطانية والصناعات الانسانية و ما جاء به موسى عليه السلام من المعجزات الربوبية والبراهين الملكوتية والعنايات الإلهية فوق الحق في قلوبهم و ثبت الايمان في صدورهم و تقرر الايمان في نفوسهم حتى لم يبالوا بلومة اللائمين و وعيد الظالمين بالقتل والصلب و قالوا لا خير لنا إلى ربنا منقلبون و إذا وقعت الغلبة على الماهرين في جنس ما كانوا عليه قادرين وهم أذعنوا بها و جب على ضعفاء العقول اتباعهم على أننا نعلم قطعاً أن الله سبحانه يلقي في قلوبهم عند ذلك أنه إعجاز تكميلة للحجة عليهم وليهلك من هلك عن بينة و يحبى من حي عن بينة كما يرشد إليه قول الصادق عليه السلام ما من أحد إلا وقد يرد عليه الحق حتى يصدع قلبه قبله أم تركه وذلك أن الله يقول في كتابه و بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون. (١)

(و إن الله تعالى بعث عيسى عليه السلام في وقت قد ظهرت فيه الزمانات) جمع الزمانات وهي آفة في الحيوانات ، و رجل زمن أي مبتلى بين الزمانات وفي المغرب الزمان الذي طال مرضه زماناً (و احتاج الناس إلى الطب فأتاهم من عند الله بما لم يكن عندهم مثله) أي بما عجزوا عن الاتيان بمثله فان ما جاء به عليه السلام هو إزاحة الزمانات و إزالة الأمراض والآفات بمجرد القوة الروحانية و توجه نفسه

القدسيّة ، و طلب ذلك من الله تعالى من غير فتح أسباب الأمراض و استعـمال الأدوية المناسبة لها وهم قد عجزوا عن ذلك إذ غاية سعيهم هي المعالجة بمقتضى القوانين الطبيّة والعمل بأحكامها و استعمال الأدوية المناسبة بزعمهم بعد تفتيش الاسباب والخطأ في أمثال ذلك كثير (و بما أحيا لهم الموتى و أبرء الأكمه) وهو الذي ولد أعمى أو الممسوح العينين (والأبرص بأذن الله البرص بياض براق أملس في الجلد و اللحم معاً و لموضعه غور لقلّة نفوذ الغذاء فيه فيضمّر و يغور ، و قلّة النفوذ إنّما يكون لبرد العضو و تكاثفه و انسداد مساماته بالمادّة الفجة و من علاماته بياض الشعر و عدم خروج الدّم بغرز الابرة ، و من أسبابه انصباب أخلاط رديّة باردة رطبة في العضو غير قابلة لفعل القوّة المغيّرة الثانية (١) في التشبيه و إن لم يكن تلك القوّة ضعيفة في نفسها أو ضعف تلك القوّة في نفسها عن التأثير والتشبيه و على التقديرين يتولّد الباغم الأبيض لأنّ سوء الهضم يوجب تولّده و إذا تمكّنت هذه المادّة أحوالت كلّ غذاء ورد عليه إلى مزاجها فيصير شبيهاً بها ، و قد يكون البرص سواداً و سببه مادّة سوداويّة كثيرة تنراكم في الجلد و ما يقرب منه ، فيزاد بذلك حجم ذلك الموضع ويتكاثف جداً و يتمدّد و يتقشّر ويسقط منه فلوس كفلوس

(١) القوّة المغيّرة اثنتان الاولى ما يفصل المعنى إلى مزاجات مختلفة لكل عضو و لان مزاج اللحم غير مزاج العظم و هكذا ؛ ولا بد من هذه القوّة اذ لو فرض بطلانها صار الجنين قطعة من اللحم من غير تقسيم ، والمغيرة الثانية وتسمى المصورة أيضاً هي التي توجب تخطيط الاعضاء و تشكيلها و هذه القوّة أو قوّة مثلها موجودة في كل عضو من بدن الانسان إلى آخر زمان حياته لان الغذاء اذا تحول إلى الاخلاط و خصوصاً الدم كان له مزاج واحد متشابه و اذا وصل إلى العين مثلاً تبدل صورته إلى شيء و اذا وصل إلى العظم تحول إلى شيء آخر ، والجلد واللحم كذلك و هذا التبدل والتغير متوقف على تأثير القوّة الفاعلة و استعداد المواد القابلة حتى يتشبه الغذاء في كل عضو بسائر اجزائه ولولا هذه القوّة حدثت أمراض منها البرص ، وهذا الكلام يدل على تبهر الشارح في علم الطب (ش).

السّمك و قوله « بأذن الله » دفعاً لتوهم الألوهيّة فإنّ أمثال الأفعال المذكورة ليست من جنس الأفعال البشريّة (و أثبت به الحجّة) عليهم لأنّه ادّعى النبوة و أتى بيّنة من جنس ما هو المعروف بينهم وهم قد عجزوا عن الاتيان بمثلها . و علموا لأجل مهارتهم في صناعتهم أنّها ليست من جنس أفعال البشر ، بل هي من جنس أفعال خالق القوى والقدر ، قد أظهرها على يده تصديقاً لدعواه ولو أتى بيّنة أخرى غير ما هو المعروف عندهم لأمكن لهم التوهم بأنّه ما هو في صناعته لو اجتهد غيره أيضاً فيها صار مثله .

(و إنّ الله بعث محمداً ﷺ في وقت كان الغالب على أهل عصره الخطب و الكلام - وأظنّه قال : الشعر -) بدلاً من الكلام لأعلى الجمع والانضمام وإلّا يقال والشعر والظن من أبي يعقوب و قد ذكروا في السير والآثار ونقلوا عن ثقة الرواة أنّهم كانوا يلبسون كلامهم ما قدروا عليه من حلية الفصاحة والبلاغة ، و يزبنونه ما يوجب النفوq والبراعة ، و يعمدون فيه ما يوجب طباقه بمقتضى الحال و ارتقاؤه إلى أعلى مدارج الكمال ، و يقصدون فيه أنواع المحسنات اللقظيّة و المعنويّة و أنحاء بدايع النكت العربيّة و تناسب العبارات و الاستعارات و لطائف التخيّلات والمجازات و محاسن الكنايات و التشبيهات إلى غير ذلك من الأمور التي تزيد في الكلام دقّة و سحرأ و في القلب ابتهاجأ و انبساطأ و سرورأ - و يجعلونه كالعروس العارية عن مقابح العيوب التي يفتتح إليها عيون الظواهر و بصائر القلوب و كانوا يجتهدون و يتناشدون و يتفاخرون و يطلبون المعارضة بالمثل و يعتقدون الفضل لمن جاء بالأحسن منه .

(فأتاهم من عند الله من مواعظه و حكمه) أي من مواعظه القرآنية و حكمه الفرقانية (ما أبطل به قولهم و أثبت به الحجّة عليهم) لأنّه أتاهاهم بالقرآن يشفي رمد بضائر أهل العرفان فإنّ الاكتحال بكحل حقايقه يسقى كبد العطشان بالورود على زلال دقايقه ولا يحول فؤاد الأفكار إلى أقصى معارج عجايبه ولا يجول جواد الأنظار إلى أعلى مدارج غرايبه وهو نير مضيء لا يضل من ضوئه عقول المسافرين

وعلم رفيع لا يعنى منه أبصار السائرين ، و بحر زاخر لا يصل إلى قعره غوص العارفين ، و منهج واضح لا يزل فيه قدم السالكين ، و شجرة نصوص لا يتحرك بهبوب صرصر الشبهات أوراقه وأغصانه ، و بنيان مرصوص لا ينهدم بحوادث الخطرات حيطانه و أركانه ، و ناطق فصيح لا ينقطع بشبه المخالفين دلاليه و برهانه ، و ناصر معين لا يخذل بهجوم المعاندين أنصاره و أعوانه ، و نور ساطع في قلوب أرباب العرفان ، و شعاع لامع في صدور أصحاب الايمان ، و معدن الفضل و التوحيد والعدل والايمان ، و منبع العلم والجود والكرم والاحسان ، و قد جعله الله سبحانه رياً لعطش العلماء ، و ربيعاً لقلوب الفقهاء ، معراجاً لعقول الصالحاء ، و دواء ليس بعده داء ، فمن أراد معارضة أقصر سورة من سورة حلت به الندامة وظهرت فيه الجهالة والسفاهة إذ هو مصادر لا طوار الفصاحة ، و مظاهر لا سرار البلاغة التي يعجز عن فهمها عقول الفصحاء و يقصر عن دركها فحول البلغاء ، و يتحير فيها أذهان مصاقع الخطباء و لذلك بعد ما خيروا بين المعارضة باللسان والمقابلة بالسيف و السنان أعرضوا عن الأول مع طول المدة و كثرة العدة و شدة القوة و غاية العصبية و نهاية الأنانية و كمال الحرص في الغلبة والرسوخ في إظهار المفخرة لعلمهم بأن ذلك خارج عن قدرتهم وفاق على صنعتهم و بعيد عن طريقهم فعلم أن ذلك وحي أنزله لهداية العباد من ظلم الضلالة و نور أظهره لارشادهم فسي بيضاء الجهالة اللهم اجعله وسيلة لنا إلى أشرف منازل الكرامة ، وسبباً لنجاتنا في عرصه القيمة و ذريعة نقدم بها على نعيم دار المقامة ، و فيه دلالة واضحة على أن إعجاز القرآن لاشتماله على أمور غريبة و ألفاظ رشيقة و معان دقيقة و نكات لطيفة ، إلى غير ذلك من الأمور الخارجة عن قدرة البشر ، و سر ذلك أن الله تعالى عالم الغيب والشهادة لا يعزب عنه مثقال ذرة فاذا رتب لفظاً فلاحظته علماً بكل شيء يعلم الكلمة التي تصلح أن تليه و يعلم وجوه المعاني و مواضع استعمالات الكلام و حسن ابتدائها و اختتامها حتى لو أريد تغيير شيء منها بأحسن من ذلك لم يمكن ولم يوجد و ليس في قدرة البشر أن يحيطوا علماً بكل شيء ، فلذلك تجد الفصيح منّا قد يصنع الخطبة

ثم لا يزال ينقح ويبدل . وما ذلك إلا لأنه ظهر له الآن ما لم يكن له ظاهراً قبل فلذلك صار القرآن حجة على الناس إلى يوم الدين لأنه لما نزل قوله تعالى «فأتوا بسورة من مثله» قال كل فصيح من الفصحاء: ما بال هذا الكلام لا يؤتى بمثله فلمّا تأمله تبين له ما تبين وصحّ عنده لا قدرة له على مثله وأنه من الله العزيز العليم فمنهم من آمن ومنهم من أبي حسداً ، وقامت بهم الحجة على أهل العالم لأنهم كانوا من أرباب الفصاحة فإذا عجزوا فغيرهم أعجز وإلا فليأتوا بسورة من مثله ، وذهب الأشعري إلى أن إعجازه بالصرقة (١) ومعناها أن الفصحاء كانوا قادرين على الإتيان بمثله إلا أن الله سبحانه صرف الهمّة عنهم ، وهو بهذا الوجه أيضاً وإن كان آية من آيات الرسالة إلا أنه تحكم محض وقول بلا حجة ، والوجه هو الأول . وله مع ذلك فضل على غيره من المعجزات لأن كل معجزة غيره لا تقراضها لم يشاهد وجه إعجازها إلا من حضرها وهو باق إلى قيام الساعة ففي كل زمان يحدث من يشاهد وجه إعجازه وينجد إيمانه ولأن فائدة غيره إنما هي إثبات الرسالة فقط ، وفائدته إثباتها مع اشتماله على علم الأولين والآخرين ، وعلم ما كان وما يكون ، وعلم ما جاء به الرسول ﷺ من الوعد

(١) ولاريب ان التعق في البحث عن وجه اعجاز القرآن وسوسة فانه اذا ثبت أن احداً لم يأت بمثله من صدر الاسلام الى الان فهو معجز قامت به الحجة سواء كان سببه فصاحته او اشتماله على الدقائق والنكات التي تقصر عن فهمها اذهان العرب واحتوائه على الاخبار الغيبية أو الصرفة التي يقول بها السيد المرتضى - رحمه الله تعالى - أو لغير ذلك فان توجيه الذهن الى ذلك يوجب صرف الفكر عن نفس الاعجاز وهذا كما نعلم أن سحرة فرعون عجزوا عن معارضة موسى (ع) ولا نعلم أنه كان لنقصانهم علماً أو لتصرفه أو لان طبيعة عملهم غير طبيعة عمل موسى (ع) و نعلم بالاجمال أنهم عجزوا ، و اجراء خوارق العادات من الله تعالى على بدل الكاذب قبيح على الله تعالى والا لا يعرف اكثر الناس حقيقة السحر بل يزعمون أنه مغير للحقائق كالمعجزة كما قال فرعون « انه لكبيركم الذي عملكم السحر » (ش).

والوعيد والمواعظ والنصائح وجميع ما يحتاج إليه الأمة إلى يوم القيمة.

(قال : فقال ابن السكيت : بالله ما رأيت مثلك قط) بالله بدون ألف قبل الجلالة على ما هو المصحح من النسخ و لفظة «باء» تحتمل وجهين الأول أن يكون باء القسم أو تأوّه ، والثاني أن يكون حرف النداء للتعجب ولما وقف ابن السكيت على سبب اختصاص كل نبي بأعجاز مخصوص من كلام معدن الرّسالة مدحه بقوله « ما رأيت مثلك قط » يعنى في العلوم و حضور الجواب، مصدرأ بالقسم ترويحاً للمدح و تنبيهاً على أنهم من صميم القلب لا من باب الإطراء وظاهر اللسان كما هو شأن أكثر المادحين ، أو بكلمة التعجب إشعاراً بأن نفوذه ^{فوقه} ^{فوقه} على غيره بلغ حدّاً يعجز العقول عن الوصول إليه و عن إدراك كميته و سببه ، و يحتمل أن يقرأ يا الله بالالف وهو حينئذ للتعجب مثل لا إله إلا الله وسبحان الله فإن هذه الكلمات الشريفة كثيراً ما تستعمل للتعجب و فيه جواز مدح الرّجل مواجهة بالفضائل الموجودة فيه ولكن جوازه مشروط بما إذا لم يكن موجباً لفخر الممدوح وتكبره ولما علم ابن السكيت أن كل عصر لا يخلو من داع إلى الله تعالى إما نبي أو وصي نبي ، و علم أن القرآن حجة على الخلق و دليل على صدق نبيينا ^{عليه السلام} ^{عليه السلام} سأل عن الحجة على الخلق والدليل على صدق الدّاعي بعده بقوله (فما الحجة على الخلق اليوم) إذا الدّعاة متكررة والآراء مختلفة والقرآن غير رافع للاختلاف إلا بتفسير صادق مؤيد من عند الله تعالى فلا بدّ اليوم من حجة يتميّن بها الدّاعي الصادق عن غيره (قال : فقال ^{عليه السلام} : العقل) و هو خبر مبتدأ محذوف أي الحجة في هذا اليوم العقل أو مبتدأ خبره قوله (يعرف به الصادق على الله في صدقه و الكاذب على الله في كذبه) لأنّ العقل يحكم بامتناع أن يمضي ^{عليه السلام} ^{عليه السلام} و يضيع أمته ولا ينصب لهم خليفة، فمن نصبه فهو الصادق و غيره ممن يدعى خلافته فهو الكاذب ولأنّ العقل العاري عن شوائب الأهام يعرف بعد نزول الكتاب و تقرير الدّين و تكميل السنّة أن الصادق على الله (١) هو الذي يعلم أحكام الكتاب و السنّة و

(١) تناول الشارح هنا تأويلاً حسناً حتى يدفع ما يختلج في ذهن من فساده ظاهره

شرايع الدّين و يحكم بها و يحفظ لها و أنّ الكاذب على الله هو الذي لا يعلمها ولا يحكم بها و بالعقل تمت الحجّة على الخلق فإن عملوا بمقتضاه من تصديق الصادق والعمل بما يأمره والانهاء عمّا ينهاه و تكذيب الكاذب و الاجتناب عن متابعتة انتظم حالهم في الدّارين و إن عملوا بالعكس ماتت قلوبهم و مرضت صدورهم حتّى لا يؤثّر فيهم البرهان و يستولى عليهم الشيطان و على هذا الوصف يموتون و ينزل بهم ما كانوا يوعدون (قال : فقال ابن السكيت هذا والله هو الجواب) فيه مبالغة من وجوه أحدها اسميّة الجملة لأنّها من المؤكّدات ، و ثانيها الابتداء باسم الإشارة الدّال على كمال الظهور ، و ثالثها تأكيد مضمون الجملة بالقسم لترويجه و تقريره ، و رابعها تعريف الخبر باللام المفيد للحصر ، و خامسها التوسط بضمير الفصل الدّال على تأكيد الحصر و وجه ظاهر لأنّ التمييز بين الصادق والكاذب لا يتحقّق إلّا بالعقل العادي عن شبهات الأوهام والخيالي عن بليّات الأقسام فإنّه ميزان يوزن به مكائيل الأقوال فيميز بين الرّاجح والناقص و بين الصادق و الكاذب فيصدق الصادق توقّعا لنظام حاله و يكذب الكاذب تحرّزا عن وخامة مآله

فهذا الكلام لأن ما يتبادر الى ذهن أن ابن السكيت سأل الامام عن دليل النبوة في هذه الامة المتأخرة لأن معجزات الانبياء خاصة بزمانهم فأحال الامام (ع) على العقل وهو أن يعرف صدق النبي الصادق و كذب الكاذب بالعقل فإن العاقل بعد تتبع سيرة الرجال يعرف دخلة امورهم و هذا باطل جداً لأن النبوة سر باطنى بين النبى و بين الله تعالى ولا يعرف الا بالاعجاز و خوارق العادات ولا طريق للعقل الى معرفة هذا السر .

والسيادى راوى هذا الحديث منهم بالجهل والالحاد وكان يزعم كسائر الملاحدة أن الانبياء كسائر نوابغ العالم فاقوا بعقريتهم وفطنتهم و قوة ذكائهم والشارح تأول الكلام على وجه يستلزم كون معجزات نبينا (ص) خصوصاً القرآن حجة على اهل زمانه وعلى من بعده الى يوم القيمة ، وبالجملة ظاهر الكلام يدل على ان ابن السكيت سأل عن الحجّة على النبوة و الدليل على صحة دعواه (ص) وصرّفه الشارح الى السؤال عن الحجّة اى الامام فى زمانه والدليل عليه (ش).

ثم كون العقل حجة ليس مختصاً بهذا اليوم ولا بهذه الأمة ولادلالة في الجواب على ذلك ، وإثما المقصود منه هو التنبيه على أن العقل حجة الله على عباده وعلى كمال تفتن العقلاء و لطافة قرايهم حتى تمكنوا على تحصيل الايمان بالله و باليوم الآخر و بالصادق الأمين من غير مشاهدة معجزات و ملاحظة كرامات ، بل لا يبعد القول بأن تأثير العقل بالاذعان أقوى و أشد من تأثير المعجزات فيه لأن تأثيره يوجب انقياد القلب و انشراح الصدر و انكشاف البصيرة بخلاف تأثيرها فإنه يوجب الانقياد فقط من غير تثبيت و رسوخ ولذلك كثير ممن آمن بنبيتنا عليها السلام بمشاهدة الآيات والمعجزات ارتدوا بعده و كثير ممن آمن بموسى على نبينا وعليه الصلوة والسلام بمشاهدة معجزاته طلبوا منه بعد الخروج من البحر أن يجعل لهم أصناماً آلهة و عبدوا عجلاً جسداً له خوار ، كل ذلك لضعف عقولهم و قلة بصيرتهم و عدم تثبيتهم و رسوخهم في الايمان و أمّا المؤمن بنور العقل و المدعى بمقتضاه فهو أثبت من الجبال الراسي . و من هم - لما يظهر التفاوت بين الحجةين والبول بينهما بعد المشرقين .

((الاصل))

٢١- « الحسين بن محمد ، عن معلى بن محمد ، عن الوشاء ، عن المثنى الحنط »
 « عن قتيبة الأعشى ، عن ابن أبي يعفور ، عن مولى لبني شيبان ، عن أبي جعفر »
 « عليه السلام قال : إذا قام قائمنا وضع الله يده على رؤوس العباد فجمع بها عقولهم و »
 « كملت به أحلامهم » .

((الشرح))

(الحسين بن محمد ، عن معلى بن محمد) مضطرب الحديث والمذهب (عن الوشاء) الحسن بن علي بن زياد الوشاء من أصحاب الرضا عليه السلام و كان من وجوه هذه الطائفة (عن المثنى الحنط) الظاهر أنه ابن الوليد و له كتاب (عن قتيبة

(الأعشى) بن محمد المؤدب ثقة (عن ابن أبي يعفور) اسمه عبد الله ثقة جليل في أصحابنا (عن مولى لبني هاشم عن أبي جعفر عليه السلام قال : إذا قام) أي خرج بعد الغيبة المقدرة و ظهر لظهار دين الحق وإعلاء كلمته (قائماً) المهدي المنتظر الموعود بالنصر والظفر وهذا القيام كإين قطعاً لروايات متواترة من طريق العامة والخاصة إلا أن العامة يقولون : إنه يولد في آخر الزمان من نسل علي وفاطمة و جدّه الحسين عليه السلام كما صرح به الآبي في كتاب إكمال الأكمال ونحن نقول : هو حي موجود قامت السموات بوجوده ولولا وجوده لساخت الأرض بأهلها طرفة عين (وضع الله يده) أي قدرته أو شفقته أو نعمته أو إحسانه أو ولايته أو حقه - ظه ، والضمير عائد إلى الله أو إلى القايمة عليها السلام (على رؤوس العباد فجمع بهاء قولهم) ضمير التأنيث إما عائد إلى البد والباء للسببية أو إلى الرؤوس والباء بمعنى «في» وهذا الأخير يناسبه ما قيل من أن العقل جوهر مضي خلقه الله تعالى في الدماغ و جعل نوره في القلب يدرك الغايات بالوسائط والمجسوسات بالمشاهدة (و كملت به أحلامهم) أي عقولهم جمع حلم بالكسر وهو الاناة والتثبت في الأمور و ذلك من شعار العقلاء ، والمراد بجمع عقولهم رفع الانتشار والاختلاف بينهم و جمعهم على دين الحق و بكمال أحلامهم كمال عقل كل واحد واحد بحيث ينقاد له القوة الشهوية والغضبية و يحصل فضيلة العدل في جوهر البدن ، والأمران يتحققان في عهد صاحبنا عليه السلام لأنه إذ خرج ينفخ الرُّوح في الإسلام ويدعو إلى الله بالسيف فمن أبي قتله ومن نازع قهره حتى يرفع المذاهب من الأرض فلا يبقى في وجهها إلا دين الحق فيملأها عدلاً وأمناً وإيماناً كما ملئت ظلماً وجوراً وطغياناً فشهداءؤه خير الشهداء و أمناءؤه خير الأمناء وأصحابه العارفون بالله والقائمون بأمره والمشفقون على عباده والحافظون لبلاده والعاملون الكاملون العابدون الناصحون له فيعود الخلائق بعد التفرقة إلى الجمعية و بعد التشنت إلى المعية و بعد الكثرة إلى الوحدة و بعد التفارق إلى التوافق و بعد الجهل إلى العلم وينظرون إلى الحق بأعين سالمة من الرّماد و يسلكون إليه بأقدام ثابتة في سبيل الرّشاد

وهذا معنى جمع عقولهم وكمال أحلامهم لأن كمالها بحسب ميلها ورجوعها إلى الحق^١ فإن ذات حقيق الرُّجوع ثبت الكمال قطعاً ، هذا و قيل : المراد باليد هنا الملك الموكل بالقلب الذي بتوسطه يرد الجود الإلهي والفيض الرباني عليه كما في قوله ﷺ « قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرُّحمن يقلبه كيف يشاء (١) ، والمراد برؤوس العباد نفوسهم الناطقة و عقولهم الهيولانية ، والمراد بجمع الله عقولهم جمع الله بواسطة ذلك الملك القدسي والجوهر العقلي (٢) عقولهم من جهة التعليم والإلهام فإنَّ العقول الإنسانية في أول نشأتها منغمرة في طبائع الأبدان ، متفرقة في الحواس ، منشوقة إلى الأغراض والشهوات ، محبوسة في سجون الأمانى وشعب الرغبات . ثم إذا ساعده التوفيق وتنبه بأن وراء هذه النشأة نشأة أخرى علم ذاته وعرف نفسه واستكمل بالعلم والحال ، وارتقى إلى معدنه الأصلي ، و عاد من مقام التفرقة والكثرة إلى مقام الجمعية والوحدة ، ولما ثبت و تقرر أن النفوس الإنسانية من زمن آدم عليه السلام إلى الخاتم ﷺ كانت متدرجة في التلطف و مترقية في الاستعداد ، وكذلك كلما جاء رسول كانت معجزة المتأخر أقرب إلى المعقول من المحسوس من معجزة المتقدم . لا جل ذلك كانت معجزة نبيتنا ﷺ القرآن و هو أمر عقلي إنما يعرف كونه إعجازاً أصحاب العقول الذكيّة ولو كان منزلاً على الأمم السابقة لم يكن حجة عليهم لعدم استعدادهم لدركه ثم من بعثته ﷺ إلى آخر الزمان كانت الاستعدادات في الترقى والنفوس في التلطف

(١) أخرجه الحاكم في المستدرک ج ٤ ش ٣٢١ هكذا « القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن - الحديث ».

(٢) سبق أن الملك في اصطلاح أهل الشرع هو العقل الجوهرى في اصطلاح الحكماء ، وهذا الكلام تصريح به من قائله ولم يعترض عليه الشارح فيما اعترض عليه والفائل هو صدر الحكماء المتألهين - قدس الله سره - (ش).

والتذكى و لهذا لا يحتاجون إلى رسول آخر (١) يكون حجة الله عليهم لأنّ الحجة عليهم هي العقل الذي هو الرّسول الداخلى ففي آخر الزّمان يترقى الاستعدادات من النفوس إلى حدّ لا يحتاجون إلى معلّم من خارج على الرّسم المعهود بين الناس لأنّهم مكثفون بالالهام النفسى عن التّأدّب الوضعى و بالمسدّد الداخلى عن المؤدّب الخارجى ، و بالمكمل العقلى عن المعلم الحسى كما السائر الأولياء ، فيد الله و هو ملك روحانى يجمع عقولهم و يكمل أحلامهم (٢) هذا كلامه و فيه نظر أمّا أوّلاً فلأنّ ترقى العقول على الوجه المذكور غير مسلم و لو كان كذلك لكان الاختلاف بعد نبينا ﷺ أقلّ من الاختلاف فى الأمم السالفة و قد دلّت الأخبار المتكاثرة على عكس ذلك (٣) و أمّا ثانياً فلأنّ المقصود من هذا الحديث أنّ تكميل العقول فى آخر الزّمان بواسطة معلّم حسّى وهو الصّاحب عليه السلام (٤) و ما ذكره يدلّ على أنّهم لا يحتاجون إلى معلّم حسّى أصلاً ، و أمّا ثالثاً فلأنّه وإنّ أمكن حمل اليد هنا على الملك لكنّ لا حاجة لنا تدعو إليه لأنّ إعانة أيّ ملك و

(١) غير رسول الله (ص) لأن العقل يدعو إلى متابعة رسول الله (ص) لما يراه من الأدلة على صحة نبوته (ش).

(٢) فيعرفون بالعقل المكمل صحة الدين وإمامة القائم (ع) فيتبعونه ولم يكونوا كذلك فى صدر الإسلام . (ش)

(٣) كثرة الاختلاف لا يدل على ضعف العقول نعم لو كانت العقول فى أعلى مدارج الكمال لم يختلفوا كما أن الأمم الذين فى أدنى درجات التقليد قد لا يختلفون أيضاً ولكن أهل التوسط يختلفون جداً والمسلمون فى عصر النبى (ص) لم يكونوا فى أعلى درجات الكمال حتى لا يختلفوا (ش)

(٤) الحديث صريح فى خلاف هذا الكلام لأن يد الله فى الحديث غير الإمام قطعاً و إنما يجمع الله عقول الناس بتوفيقه وتسديده و إعانة الملك الذى عبر عنه باليد حتى يتبعوا صاحب الامر (ع) بعقولهم و لو اظهر فى زماننا هذا أوقبله ولم يكمل عقول الناس بعد لنفروا وأعرضوا أو قتلوه . (ش)

تسديدة أقوى و أحسن من إعانة الصاحب و تسديده عليه السلام (١) .

((الاصل))

٢٢- « علي بن محمد ، عن سهل بن زياد ، عن محمد بن سليمان ، عن علي بن إبراهيم ، عن عبد الله بن سنان ، عن أبي عبد الله عليه السلام قال : حجة الله على العباد « النبي ، والحجة فيما بين العباد و بين الله العقل » .

((الشرح))

(علي بن محمد عن سهل بن زياد عن محمد بن سليمان) مشترك بين الضعفاء (عن علي بن إبراهيم) الظاهر أنه علي بن إبراهيم بن محمد بن الحسن بن محمد بن عبيد الله بن الحسين بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب أبو الحسن الجوّاني بفتح الجيم وتشديد الواو ثقة صحيح الحديث (عن عبد الله بن سنان عن أبي عبد الله عليه السلام قال حجة الله على العباد النبي والحجة فيما بين العباد و بين الله العقل) هذا الحديث والله أعلم يحتمل وجوهاً الأول ما أشار إليه بعض الأفاضل و هو أن الحجة الموصلة للعباد إلى السعادة والنجاة بعد الاعتقاد بالله تعالى وهو النبي عليه السلام ، والحجة فيما بينه و بين العباد الموصلة لهم إلى معرفته تعالى والتصديق به هو العقل ، وفيه أن تخصيص حجة العقل بمعرفته تعالى و حجة النبي بما عداها ممّا لا يدل عليه دليل ولا يتحصل له معنى إذ النبي حجة أيضاً في معرفته تعالى و صفاته والعقل حجة فيما عداها أيضاً الثاني أن النبي حجة الله الموصلة لعباده إلى طريق الحق والباطل وطريق

(١) اعانة الملك ليس أقوى من اعانة الامام (ع) لكن لابد من العقل الكامل في متابعة الناس أجمعين له (ع) كما كانوا محتاجين اليه على عهد رسول الله (ص) و بالجملة لا يريد القائل أن الناس في آخر الزمان لا يحتاجون الى الحجة (ع) بل يريد أنهم بسبب كمال عقولهم يستعدون لظهوره و قبول قوله و حكمه و يبقون على الحق مستعدين قائلين الى يوم القيامة وما كانوا كذا في العصر الاول والاوسط (ش).

الخير والشر كملها يعنى يهديهم إليها والعقل هو الحجّة بينه تعالى و بين العباد الموصلة لهم إلي تصديق نبيّه والاذعان لكلّ ما أخبر به وفي تغيير الأسلوب إشارة إلى ما بينهما من التفاوت في الظهور والخفاء ، الثالث أن النبي حجّة الله على عباده على سبيل التفضل لقطع أعذارهم كما يشعر به لفظة «على» والعقل هو الحجّة الكافية في الحقيقة بينه وبين العباد ولو أبى عن الحقّ فإنّما هو لسوء تدبيرهم وبطلان استعدادهم لأمر عرض له بمجاورة الأبدان لالنقصان في ذاته ، الرابع أن حجّة النبي مختصة بالله سبحانه ومن صنعه تعالى وليس للعباد مدخل فيها كما يشعر به الإضافة وحجّة العقل غير مختصة به تعالى بينه وبين عباده ولهم مدخل فيها وذلك لأنّ الله تعالى خلق العقل قابلاً لجميع الكمالات البشريّة ومن الظاهر أنّه لا يتّصف بالحجّة حتّى يتّصف بالكمال في الجملة إذ هو في حيّز القوة المحضة ليس حجّة و اتّصافه بالكمال بسعى العباد و طلبهم و حسن تدبيرهم فلم يدخل في حجّيته . الخامس بيان الاحتياج إلى الحجّتين والتغيير في الأسلوب إنّما هو لمجرّد التفتّن والمقصود أن حركة العبد نحو المقصود لا تحصل إلاّ بدليل خارجي هو النبيّ و دليل داخلي هو العقل أمّا الثاني فلأنّ الوصول إلى منازل القرب لا يتصور إلاّ بالاتّصاف بالفضائل والتجرّد عن الرذائل وذلك لا يمكن إلاّ بعد معرفة الفرق بينهما ومبدئ تلك المعرفة هو العقل و أمّا الأوّل فلأنّ العقل وإن كان مستقلاً في بعض المعارف لكنّه غير مستقلّ في بعضها كأحوال المعاد و الشرايع الإلهيّة مع تحقّق خطائه فيما يستقل كثيراً فاحتاجوا إلى النبيّ المؤيّد من عند الله تعالى ليهديهم إلى المطالب والمحسن و يزجر عن الرذائل والقبايح ليكونوا معه أقرب من الخير و أبعد من الشرّ .

((الاصل))

٢٣- « عدة من أصحابنا، عن أحمد بن محمد مرسلًا قال : قال أبو عبد الله عليه السلام ،

« دعامة الانسان العقل والعقل منه الفطنة والفهم والحفظ والعلم ، وبالعقل يكمل »

« و هو دليله ومبصره و مفتاح أمره ، فإذا كان تأييد عقله من النور كان عالماً ، »
 « حافظاً ، ذا كراً ، فطناً ، فهماً فعلم بذلك كيف ولم وحيث ، و عرف من نصحه و »
 « من غشه ، فإذا عرف ذلك عرف مجراه و موصوله و مفصولة ، و أخلص الوجدانية »
 « لله و الاقرار بالطاعة فإذا فعل ذلك كان مستدر كاً لما فات ، و وارداً على ما هو آت »
 « يعرف ما هو فيه ولأي شيء هو ههنا ، و من أين يأتيه ، وإلى ما هو صائر ، وذلك »
 « كله من تأييد العقل ».

((الشرح))

(عدة من أصحابنا عن أحمد بن محمد مرسلًا قال : قال أبو عبد الله عليه السلام دعامة
 الانسان العقل) الدعامة بالكسر عماد البيت و دعامة السقف الأسطوانة التي
 يقوم عليها السقف ، و دعامة الحائط المائل العماد الذي يسند إليه ليستمسك به فتشبيه
 الانسان بالبناء مكنية ، و إثبات الدعامة له تخيلية ، و حمل العقل عليها تشبيه
 بليغ و تعريف العقل باللام للحصر يعني أن إثبات الإنسانية للإنسان وتحققها
 و قيام معناها إنما هو بالعقل كما أن إثبات السقف و قيامه بالعماد لظهور أن
 الانسان ليس مجرد هذا الهيكل المخصوص وإلا لما كان بينه و بين الصور المنقوشة
 على الجدار أو المصنوعة من الحجر والخشب فرق بل الانسان إنسان بما وجد
 فيه من العقل الذي هو منشؤ المعارف والكمالات و مبدء العلوم و ملكات وأما من
 لم يوجد فيه العقل كالجاهل الفاقد لتلك المعارف والملكات الواحد لأضادهما من
 الشرور والآفات فهو نسناس في صورة الناس (والعقل منه الفطنة والفهم) أي
 ينشؤ من العقل الفطنة والفهم و هذا الكلام و ما بعده بيان و تفسير لذلك المصراع
 أعني كون العقل دعامة الانسان ، والفطنة الذكاء و لها مراتب أعلاها أن يحصل
 للذهن ملكة الانتقال من المبادي إلى المطالب بسهولة بحيث لا يحتاج إلى فضل
 مكث وتأمل ، والفهم جودة تهيتؤ الذهن لقبول ما يرد عليه وله أيضاً مراتب في القوة
 والضعف و أعلاها أن يحصل للذهن من كثره مزاوله المقدمات المنتجة ملكة

سرعة انتاج المطالب وسهولة استخراج النتائج على سبيل البرق الخاطف (والحفظ والعلم) لعل المراد بالحفظ حفظ الميثاق أو حفظ الصور الحسية بضبطها في خزانة الخيال أو حفظ الصور العقلية بأن يحصل للذهن ملكة الارتباط بالمبادئ العالية بحيث يقدر أن يشاهد تلك الصور فيها متى شاء من غير حاجة إلى تجشّم كسب جديد (١) أو الأعم من الجميع ، والمراد بالعلم الادراك مطلقاً أو إدراك المعارف الالهية و الأحكام النبوية و التصديق بهما على التفصيل، ثم ذكر هذه الأربعة كأنه على سبيل التمثيل والاقتصار وإلا فأحوالات العقل وفضايله الناشئة منه غير منحصرة فيها كما يظهر لمن تأمل في الآثار سيما الخبر الوارد في ذكر جنوده (وبالعقل يكمل) أي يكمل الانسان لأن العقل مبدء لجميع الخبرات و منشؤ لجميع الكمالات التي بها يصير الانسان كاملاً في الدارين و تمام العيار في النشأتين و ممدوحاً عند الخالق و محبوباً عند الخلاق ، و تقديم الظرف لقصد الحصر أو الاهتمام وإنّما لم يقل : و به يكمل مع تقدّم المرجع لئلا يتوهّم عود الضمير إلى العلم ، وهذا وإن كان أيضاً صحيحاً لكن الكلام في العقل و بيان أحوالاته (و هو دليله و مبصره و مفتاح أمره) أي العقل دليل الانسان إلى سبيل النجاة و و مبصره للخيرات اسم فاعل من بصره و يجوز أن يقرأ بفتح الميم والصاد و يكون الباء ، وقيل : المبصر والمبصرة على هيئة اسم المكان : الحجّة. و مفتاح أمره ينفتح

(١) قالوا ان الحافظة للقوة العاقلة هي العقل الفعال و عبر عنه الشارح بالمبادئ العالية اذ قد يعبر بذلك عن العقول أولانا لانعلم انحصار الموجودات المجردة التي يرتبط بها أفراد الانسان في عقل واحد مسمى بالعقل الفعال ، و بالجملة لكل مدرك حافظ وحافظ المحسوسات قوة الخيال و حافظ المعاني الجزئية يسمى حافظة و حافظ المدركات الكلية هو المبادئ العالية و نسيانها بزوال ملكة الارتباط بين عقل الانسان و العقل الفعال و الذكريات تلك الملكة ولم يقولوا بكون حافظة المدركات العقلية في الانسان نفسه بل أثبتوه في خارج لان مدرك الكلى مجرد لا يتبعض والمدرك موجود مجرد والحافظ موجود آخر و بينهما ربط (ش).

به أبواب العلوم والكمالات كل ذلك لأن العقل في عالم الأبدان كالشمس يتلأأ نوره ويلمع ضوءه في الحواس الباطنة والظاهرة و يتنور به القلب ويستضيء به الصدر ، فمن حيث أنه يهتدي به كل عضو من أعضاء الانسان إلى ما هو المطلوب منه فهو دليله ، ومن حيث أنه ينظر القلب به أوفيه إلى الحقائق والمعارف و يبصرها بعين البصيرة فهو مبصره ، ومن حيث أنه ينكشف به تلك الحقائق و المعارف للقلب وينتقش فيه صورها فهو مفتاح أمره (فإذا كان تأييد عقله) أي تقويته (من النور) أي بالفضائل العقلية والكمالات النفسانية التي هي من جنود العقل مثل العلم والحفظ والدكر والفطنة والفهم ، و سمّاها نوراً على سبيل الاستعارة و التشبيه به في الهداية كما يسمى أصدادها أعنى الجهل والنسيان والسهو والغاوة والحمق ظلمة ، أو على ملاحظة أنها فايضة من عالم نوراني يعني عالم الملكوت على قلب إنساني ليستعدّ بها للترقي إلى الله ، والفاء حينئذٍ للتفريع إذ هذا الشرط مع الجزاء بمنزلة نتيجة للكلام السابق كما يظهر بأدنى تأمل ، ويحتمل أن يراد بالنور الحجة الظاهرة يعني النبي لأنه نور إلهي في ظلمات الأرض به يتقوى العقول في ثباتها على صراط الحق و اتصافها بالفواضل والفضائل و اهتدائها إلى حضرة القدس ، و أن يراد به بصيرة قلبية أو عناية ربّانية أو جوهر مجرد مخلوق من نور ذاته (١) و هو الذي دلّ عليه بعض الأحاديث المذكورة والمراد بتقوية العقل به ارتباطه و استشراقه من نوره والله أعلم بحقائق كلام وليّه (كان عالماً بالله) و اليوم الآخر و عواقب الأمور في الباطن والظاهر (حافظاً لنفسه) في المسير إلى الله من الخطأ والزّل ، و للمصور العلمية و المكتسبات العملية من الفساد و الخلل (ذاكرأ) لما يفضيه إلى جنات النعيم و ينجيه من عذاب الجحيم (فطناً) في اكتساب الحقائق و اقتراف الدقائق (فهماً) المقابح الدنيا و مكائد زهراتها و

(١) سبق أن العقل جوهر مجرد مخلوق قبل عالم الاجسام ولم يخلقه الله تعالى من مواد هذا العالم الجسماني و عناصره بل خلقه من نور ذاته بلا واسطة ، كما ورد أن العقل أول خلق من الروحانيين (ش).

و منافع الآخرة و شدايد خطراتها .

(فعلم بذلك كيف ولم وحيث) كيف اسم مبهم غير متمكن وإنما حرك آخره لالتقاء الساكنين و بنى على الفتح دون الكسر لمكان الياء و هو للاستفهام عن الأحوال و «ما» للاستفهام و تحذف منها الألف للتخفيف إذا ضم إليها حرف مثل بم و عم يتساءلون ولم وهي سؤال عن علّة الشيء و سبب وجوده ، و حيث كلمة تدلّ على المكان لأنّه ظرف في الامكنة بمنزلة حين في الأزمنة وهو اسم مبنيّ حرك آخره لالتقاء الساكنين ، فمن العرب من يبنّيها على الضمّ تشبيها لها بالغايات لأنّها لم تجىء إلا مضافة إلى جملة كقولك أقوم حيث يقوم زيد، ومنهم من يبنّيها على الفتح مثل كيف استثقلاً للكسر مع الياء ، و لعلّ المراد فعلم بسبب كون تأييد عقله من النور أو بسبب كونه عالماً إلى آخر أحواله و كيفيّتها (١) من كونها خيراً أو شراً نافعاً أو ضاراً أو كيفية سلوكه فيها وجعله وسيلة للسير إلى منازل الآخرة و علم علّة تلك الأحوال (٢) و الباعث لسلوكه فيها وهي الخروج من حضيض النقص إلى أوج الكمال و من الشقاوة إلى السعادة و علّة إيجاده و باعث إنشائه و تحريكه من عالم القدس إلى هذا العالم (٣) وهي كونه عبداً خالصاً راعياً لحقوق عبوديته بقدر الامكان ناصحاً لعباده بالقلب واللسان و علم مقاماته من أول الإيجاد إلى ما شاء الله فانّ العقل المؤيّد من النور (٤) يعلم بالمشاهدة والعيان أنّ له من

(١) تفسير لكلمة «كيف» يعنى يعلم كيف حاله و منازل و سيره فيها (ش) .

(٢) تفسير لكلمة «لم» لأنها سؤال عن العلّة الغائية أو الفاعلية . (ش)

(٣) تفسير لقوله «حيث» وهي السؤال عن المكان أين كان وإلى ما يصير (ش) .

(٤) فهم هذه الامور بالعقل لان أصعب الحس و اهل الدنيا لا يعرفون هذه المعاني أصلاً و يزعمون أنّ وظيفة الانسان والمقصود من خلقه عمارة الدنيا و تسهيل أمر المعاش و جميع امورهم يدور حول ذلك حتى أنّ الملكات الفاضلة والغصائل الذميمة عندهم ما تتعلق بنظام هذا العالم ولا يعرفون ما ذكره الشارح من منازل الآخرة والسلوك فيها أصلاً و يعدّون ذلك أوهاماً و خرافات (ش) .

بدء وجوده إلي ما شاء الله مقامات متفاوتة و درجات مختلفة متباعدة ويعلم التفاوت فيما بين تلك المقامات والتفاضل فيما بين تلك الدرجات ؛ وبالجملة له بصيرة كاملة يعلم بها حالاته و صفاته المطلوبة منه عقلاً و نقلاً و أسباب تلك الحالات و الباعث لوجوده في نفسه و مقاماته المندرجة و منازل المتفاوتة في السير إلى الله تعالى ، و يحتمل أن يكون المراد أنه إذا كان تأييد عقله من النور علم كيفية الأشياء في نفس الأمر و لم يتبناها و حبسيتها و إنيتها والله أعلم (و عرف من نصحه و من غشيه) لأنه يميز بين الأقوال الصادقة والكاذبة و يفرق بين الأحوال الصحيحة والسقيمة فمن أتاه بشيء منها يتلقاه بوجه قلبه و يزنه بميزان عقله ، فيعلم صرفه من ممزوجه و خالصه من مغموشه و صرينه من صرفاته و بذلك يميز بين الناصح الأمين والغاشميون . و بين أئمة الهدى و أئمة الضلال .

(فإذا عرف ذلك) أي كيف ولم و حيث و من نصحه و من غشيه (عرف مجراء) اسم مكان أو مصدر ميمي فبضم الميم من الاجراء و بفتحها من الجري و بالوجهين قرئ ، قوله تعالى « بسم الله مجريها ومرسيها » يعني إذا عرف الأحوال والصفات و ميز بين رديتها و جيدتها و عرف أغراضها و أسبابها والغرض من إيجادها و مقامات وجوده و عرف من نصحه و من غشيه معرفة صحيحة خالصة من شوائب الوهم و عرف مسلكه الذي يسلكه و سمته الذي يتوجه إليه أو عرف جريه و سيره إلى حضرة القدس و سلوكه إلى مقام الأنس إذ السير على أي وجه اتفق ليس موجباً للوصول إليه والقيام بين يديه بل الموجب لذلك سير مخصوص وجري معلوم لأرباب العقول المنوثة (و موصوله ومفصوله) أي من ينبغي الوصل معه و الفصل عنه من أئمة الهدى و أئمة الضلال أو ما ينبغي من الأحوال والصفات (و أخلص الوجدانية لله والإقرار بالطاعة) إخلاص هذين الأمرين الذي هو الأصل في التقرب إليه و الفوز بالمزيد من لديه إنما يتيسر لمن له معرفة بالأمور المذكورة لأنه العارف بأنه تعالى هو المستحق للعبادة والإقرار له بالعبودية و الطاعة لكون بدنه منخرطاً في سلك خدمته ، و قلبه مستغرقاً في بحر معرفته ،

و سرّه طالباً إياه ، و عقله معرضاً عما سواه ، و أمّا غيره فلا يخلو قطعاً من الشرك الخفيّ أو الجليّ (فإذا فعل ذلك كان مستدر كاً لمافات و وارداً على ما هوآت) ينبغي الوقف في آخر الكلمتين ، ولا شكّ أنّ الاخلاص المذكور غاية المراتب العليّة في العقائد البشريّة و أنّه متوقّف على المعارف المذكورة آنفاً بحكم الشرط المذكور و أنّ تلك المعارف كلّها غير متحصّلة في أوّل التكليف إلّا لمن خصّه الله تعالى بكمال العقل من الأنبياء والأوصياء عليهم السلام و من هذه المقدمات يعلم أنّ الانسان لا يخلو من تقصير ما فيما مضى إلى أو ان كماله ، و إذا بلغ حدّ الكمال و اتّصف بتلك المعارف و حمل له ذلك الاخلاص و وجد لذّة العبوديّة و تحلّى بغاية الخضوع و تزيّن بلباس الخوف ، كان مستدر كاً قطعاً لمافات عنه فيقضى بعضه ممّا ينبغي فعله و يستغفر ربّه فيما لا يمكن تداركه إلّا به ، و يعترف بالتقصير فيما يعجز عنه ، و وارداً على ما هوآت من الأعمال الصالحة و الأفعال الفاضلة ، فاعلاً لها على وجه الاخلاص الموجب لكمال القرب والاختصاص ، ويحتمل أن يراد وارداً على ما هوآت من الثواب الجزيل والأجر الجميل والنعيم المقيم والسرور الدائم في رياض الجنان (يعرف ما هو فيه) حال عن المستتر في «مستدر كاً» و تأكيداً للكلام السابق (١) وما للاستفهام أو للخبر بمعنى الذي والضمير المرفوع يعود إلى الانسان والضمير المجرور إلى «ما» يعني أنّ الانسان إذا بلغ حدّ الكمال و اتّصف بالأمور المذكورة مستدر كاً لمافات و هو يعرف حقيقة الفعل الذي اشتغل به و وجوه اعتباراته وجهات حسنه و طريق الاتيان به على وجه يوافق قانون العقل والنقل ، ويحتمل أن يكون المراد «بما هو فيه» المكان الذي هو فيه ، يعني يعرف حقيقة هذا المكان و مهية هذه النشأة و سرعة انتقال أهلها منها و كثرة ابتلائهم فيها بالتكليف وغيرها (ولاي شيء هو ههنا) كلمة أيّ معرب يستفهم بها عما يميز الشيء سواء كان ذاتياً له أو عرضياً يعني يعرف أنّه لأيّ شيء هو في هذه الدار

(١) و ناظر الى قوله «كيف» كما ان «لاي شيء هو ههنا» ناظر الى قوله «ولم»

و «من أين يأتيه» والى ما هو صائر» ناظر الى قوله «حيث» (ش).

الفانية وأن الغرض من كونه فيها تكميل النفس بالقوة النظرية والعملية و
تحريرها من المنازل السفلية الظلمانية إلى أقصى المعارج الملكوتية النورانية
واكتسابها للقربات واجتنابها عن المنهيات ليستأهل النزول في بساط الحق و
القيود عليه وفيه إشارة إجمالية إلى معرفة مقامات النفس ومراتب درجاتها (ومن
أين يأتيه) أين سؤال عن المكان يعنى يعرف من أي عالم يأتي هذا العالم الدائر
الذي فيه اليوم و يعرف ما بينهما من التفاوت فإن الأول عالم روحاني ومكان
نوراني (١) والثاني عالم جسماني ومكان ظلماني حبس فيه الروح ماشاء الله
ليتكبر قدر تلك النعمة ويسلك منهج النجاة ويعترف بالعجز والافتقار و يقر
لربه بالقهر والغلبة. وفيه إشارة إلى علمه بأحوال مبدئه ومنازل انتقالاته في المنشأة
الكونية التي يتحير فيها عقول العقلاء وفحول العلماء وقد أشار جل شأنه إلى
هذه المراتب بقوله: « وما لكم لا ترجون لله وقاراً وقد خلقكم أطواراً » ومن
تأمل فيه اضطر إلى معرفة خالقه والانقياد له وإلى علمه بأن الغرض من اجرائه
من جداول أصلاب الآباء وأرحام الأمهات عهداً بعيداً إلى أن جرى على وجه
الأرض أن يحصل منه زرع صالح و نبات حسن وهي الأعمال التي يوجب أجراً
جميلاً وثواباً جزيلاً بعد العود (و إلى ما هو صائر) يعنى يعرف أنه بعد استقراره
في الدنيا في أجل معدود و زمان محدود يصير إلى مقام آخر فيه « تجد كل نفس
ما عملت من خير محضراً و ما عملت من سوء تود لو أن بينهما وبينه أمداً بعيداً »
وفي إشارة إلى علمه بأحوال المعاد ومنازله وعقباته من القبر والبرزخ والحشر
والنشر والميزان والصراط والحساب والعرض والجنة والنار (و ذلك كله من تأييد
العقل) يعنى ذلك المذكور من قوله: الفطنة والفهم والحفظ والعلم إلى آخر ما
ذكر من تأييد العقل وتقويته بالنور المذكور إذ الإنسان بذلك النور يخرج من
حد النقص والقصور و يهتدي إلى الأمور المذكورة وينظر في ظلمة الطبيعة

(١) مبناه على مذهب صدر المتألهين - قدس سره - ان النفس روحانية البقاء و

جسمانية العدوث . (ش)

البشريّة إلى فضاء القدس و عالم الأُنس و يطير بجناح الهمة إلى مقامات رفيعة في جنة عالية .

((الاصل))

٢٤- « عليّ بن محمد ، عن سهل بن زياد ، عن أسماعيل بن مهران ، عن بعض رجاله عن أبي عبد الله عليه السلام قال : العقل دليل المؤمن . »

((الشرح))

(عليّ بن محمد ، عن سهل بن زياد ، عن إسماعيل بن مهران ، عن بعض رجاله ، عن أبي عبد الله عليه السلام قال : العقل دليل المؤمن) إذ بدلالة نوره يخرج المؤمن من المرتبة الهبولانية إلى استكمال القوة النظرية والعملية و من مرقد الطبيعة البشرية إلى التفتن بالمقاصد اللاهوتية والمواعظ الربانية و من مهد الغفلة الناسوتية إلى استماع نداء الحق إلى منهج السداد في كل آن ودعاء الرب إلى مسلك الرشاد في كل زمان ، فلا يزل بعد هذه الدلالة أقدام بصيرته ولا يضل بعد هذه الهداية أنظار فكرته وهكذا يسير ويسعى نور العقل بين يديه إلى أن يصل إلى أقصى منازل العرفان وأعلى مراتب الايقان فيتخلص عند ذلك من ألم الفراق وينظر إلى جمال الحق نظر الحبيب المشتاق .

((الاصل))

٢٥- « الحسين بن محمد ، عن مغلى بن محمد ، عن الوشاء ، عن حماد بن عثمان ، عن السري بن خالد ، عن أبي عبد الله عليه السلام قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : يا عليّ ، « لا فقر أشد من الجهل ولا مال أعود من العقل . »

((الشرح))

(الحسين بن محمد ، عن معلى بن محمد ، عن الوشاء ، عن حماد بن عثمان ، عن السري بن خالد ، عن أبي عبد الله عليه السلام قال : قال رسول الله ﷺ : يا علي لا فقر أشد من الجهل) الفقر في عرف الناس فقد المال وإطلاقه على الجهل مجاز لا اشتراكهما في انتفاء اللذات والمنافع إذ ينفي في الأول اللذات والمنافع الجسمانية وفي الثاني اللذات والمنافع الروحية ، وفي عرف الخواص فقد ما يوجب الانتفاع به مالا كان أو علما وإطلاقه على الجهل عندهم على سبيل الحقيقة . ثم المقصود أن الجهل أشد أفراد الفقر فإن أهل العرف يفهمون من قولنا ليس في البلد أفضل من زيد أن زيدا أفضل من غيره ، وكون الجهل أشد من فقد المال ظاهر لأن انتفاء اللذات والفضائل الروحية في الدنيا والآخرة أشد وأصعب من انتفاء اللذات الجسمانية المتعلقة بالحياة الدنيا بل لانسبة بينهما عند ذوي البصائر الثاقبة (ولا مال أعود من العقل) يقال : هذا الشيء أعود عليك من كذا أي أنفع ، والعائدة المنفعة ، وكون العقل أعظم أفراد المال و أنفعها ظاهر بالقياس إلى ما ذكرناه على أن المال بدون العقل لا ينفع بل يضر لكثرة مفسده بخلاف العقل فإنه ينجي صاحبه من هلاكة الدنيا وندامة العقبي لوضعه الأشياء في موضعها وقد يقال : العقل أنفع من المال لأن المال كالألة لطالب الخير والمنافع في وصوله إليهما والعقل دليل موصل له إليهما وبه معرفتهما واختيارهما فتأمل .

((الاصل))

٢٦- « محمد بن الحسن ، عن سهل بن زياد ، عن ابن أبي نجران ، عن العلاء ، « ابن رزين ، عن محمد بن مسلم ، عن أبي جعفر عليه السلام قال : لما خلق الله العقل قال له : أقبل فأقبل ، ثم قال له : أدبر فأدبر ، فقال : وعزتي وجلالي ما خلقت خلقا « أحسن منك ، إياك أمر وإياك أنهى وإياك أثيب وإياك أعاقب . »

((الشرح))

(محمد بن الحسن) كأنه الصفار الثقة واحتمال ابن الوليد الثقة بعيد (عن سهل بن زياد) عن ابن أبي نجران) عبد الله الثقة (عن العلاء بن زرين، عن محمد بن مسلم، عن أبي جعفر عليه السلام) قال: لما خلق الله العقل قال له: أقبل) إلى مقاماتك (١) أو إلى مرضاتي بالامثال أو إلى مشاهدة جلالتي و كبريائي أو إلى تكميل ذاتك بفضائل صفاتك (فأقبل) إلى ما ذكر والمستحفظون لهذا الخطاب. والهون في شواهد الملكوت، حائرون من آثار الجبروت طالبون للمقرر ب بحضرة الباري، هاربون عمّا عداه أشدّ هرباً من الأسد الضاري (ثم قال له: أدبر) من عالم النور والمقامات البرّ وحانيّة أو من مرضاتي بالطاعات إلى مسا خطي بالسيئات، أو من تكميل ذاتك إلى تكميل غيرك كما هو شأن أصحاب الخلافة الكاملين في أنفسهم المستكملين لغيرهم (فأدبر) إلى ما ذكر امتثالاً لأمره، والعقل شأنه الامتثال دائماً وإن يصدر منه خلاف فأنّما يصدر لغفلة في مراقب الطبيعة البشرية و سجون الأبدان و أنسه بالزّهرات الدنيوية و صفات النقصان (فقال: و عزتي و جلالتي ما خلقت خلقاً أحسن منك) أكد مضمون الجملة بالقسم مع أنّه أصدق الفائلين إمّا لأنّ المقصود منه صورة القسم ترويحاً لمضمونها أو لأنّ العقل لما شاهد إداره المؤدّي إلى الشقاوة والبعد توهم أنّه أحسن الخلاق أكد دفعاً لتوهمته و بشارة له و في التفريع دلالة على أن إقباله مع كونه قابلاً للإدبار سبب لكونه أحسن المخلوقات و سرّ ذلك يظهر ممّا ذكرنا آنفاً (إياك أمر وإياك أنهي وإياك أثيب) بطاعتك و انقيادك فيما ينبغي (و إياك أعاقب) بمخالفتك و عصيانك فيما لا ينبغي.

(١) هذا هو الحديث الأول بعينه عن العلاء عن محمد بن مسلم مع تغيير يسير في

العبارة لا يخلو منه الروايات باختلاف الرواة (ش).

((الاصل))

٢٧- « عدة من أصحابنا ، عن أحمد بن محمد ، عن الهيثم بن أبي مسروق النهدي ، عن الحسين بن خالد ، عن إسحاق بن عمار قال : قلت : لأبي عبد الله عليه السلام : « الرجل آتبه وأكلمه ببعض كلامي فيعرفه كَلِمَةً ، ومنهم من آتبه فأكلمه ، بالكلام فيستوفي كلامي كَلِمَةً ثُمَّ يردُّ عليّ كما كَلِمَتُهُ ، ومنهم من آتبه ، فأكلمه فيقول : أعد عليّ ؟ فقال : يا إسحاق وما تدري لم هذا ؟ قلت : لا ، قال : الذي ، وتكلمه ببعض كلامك فيعرفه كَلِمَةً ، فذاك من عَجَنَتْ نطقه بعقله ، وأما الذي ، وتكلمه فيستوفي كلامك ثُمَّ يجيبك على كلامك فذاك الذي ركب عقله فيه ، وفي بطن أمه ، وأما الذي تكلمه بالكلام فيقول : أعد عليّ الذي فذاك ركب عقله فيه بعد ما كبر فهو يقول لك : أعد عليّ . »

((الشرح))

(عدة من أصحابنا ، عن أحمد بن محمد ، عن الهيثم بن أبي مسروق النهدي ، عن الحسين بن خالد ، عن إسحاق بن عمار قال : قلت لأبي عبد الله عليه السلام : « الرجل آتبه وأكلمه ببعض كلامي فيعرفه كَلِمَةً) يعني ينتقل من البعض إلى الكلّ و يفهم معناه المقصود منه (و منهم من آتبه فأكلمه بالكلام) على التمام (فيستوفي كلامي كَلِمَةً) ويسمعه من أوله إلى آخره ويفهم معناه بعد تمامه لافبله (ثم يردُّ عليّ كما كَلِمَتُهُ) من غير نقص و زيادة حافظاً لألفاظه ومعناه (و منهم من آتبه فأكلمه بالكلام كَلِمَةً) و يسمعه من أوله إلى آخره ولا يضبط لفظه ولا معناه (فيقول أعد عليّ) طالباً لتكريره لينتقل منه إلى المقصود ، والغرض من هذا السؤال الاستكشاف عن سبب تفاوتهم في العقل والإدراك ، و ينبغي أن يكون الكلام من نوع واحد في الدقّة والخفاء وإلا فقد يكون المحتاج إلى إعادة أقوى إدراكاً من الأولين (قال : فقال : يا إسحاق وما تدري لم هذا) الظاهر أنّه استفهام على حقيقة أو للتقرير

والواو المعطف على محذوف أي أقول ذلك وما تدري ، و يحتمل أن يكون خبراً عطفاً على كلام السائل وإظهاراً لما هو المقصود من ذلك الكلام (قلت : لا) هذا على الأول تعيين لما هو المقصود من الاستفهام ، أو إقرار للنفي ، و على الأخير تصديق لقوله ﷺ (قال الذي تكلمه ببعض كلامك فيعرفه كله فذاك من عجنت نطقه بعقله ، و أمّا الذي تكلمه فيستوفي كلامك ، ثم يجيبك على كلامك فذاك الذي ركب عقله فيه في بطن أمه ، وأمّا الذي تكلمه في الكلام فيقول : أعد علي فذاك الذي ركب عقله فيه بعدما كبر فهو يقول لك : أعد علي) المواد الإدراكية كلها موجودة في النطفة الإنسانية على سبيل الاستعداد ولكنها مختلفة في القوة والضعف واللطافة والكثافة والنفوس الإنسانية العاقلة القابلة للإدراكات الكلية والجزئية متفاوتة في الكدرة والصفاء والظلمة والضياء و بحسب تفاوتها وتفاوت المواد يتفاوت التعلقات والإدراكات فكلما كانت النفس الناطقة أشرف وأنور كان تعلّقها بالمواد التي هي ألطف وأقوى أقدم وأسرع ، وكان إدراكها أتمّ و أكمل لتمام الاستعداد والمناسبة و كمال الصفاء والنورانية فيصل الجذب والإدراك بسهولة ، فمن عجنت نطقه بزالال العقل وخمّرت به واستضاءت موادها بنوره لغاية لطافتها وقوة استعدادها كان بعد انتهاء الاستعداد وحصول بقية شرايط الإدراك بالفعل عاقلاً فاضلاً مدركاً كاملاً عارفاً للآخر من الأول والفرع من الأصل لأنه وقت كونه نطفة إلى أن إدراك كان يمشق الإدراك وينمّرّن عليه والفعل بعد المشق والتمرّن في غاية السهولة والكمال كما لا يخفى على المتدرب ولا يجوز أن ينكر تعلّق العقل بالنطفة حين كونها نطفة باعتبار عدم حصول العلم بذلك التعلّق وإلاّ لجاز أن ينكر تعلّقه بعد تسوية البدن و تكميله لاشتراك العلّة مع أنّه قد يحصل لبعض العارفين المجرّدين عن العلايق الجسميّة والعوايق البدنيّة الناظرين إلى جمال المطلوب بعين المشاهدة علم بتعلقات عقله في الأكوان البشريّة وتصرّفاتة في المواد الجسميّة بل ربّما كان في آن تعلّقه عالماً كاملاً فاضلاً عارفاً بالله وملائكته و كتبه و رسله كما روي في شأن أئمتنا صلوات الله عليهم أجمعين و عدم حركة النطفة و

انقلابها لا يوجب إنكار تعلقه بها كما يشاهد ذلك من النائم و أصحاب السكنة وقد ذهب جماعة إلى إن الأرض والجبال وغيرهما من الجمادات نفوساً متعلقة بها مع أنها ساكنة على أن الحركة الإرادية في الماديات من خواص النفس الحيوانية و امتناع تعلق القوة العاقلة قبلها ممنوع (١).

و بالجملة تعلق العقل بالنطفة أمر ممكن عقلاً وقد أخبر به الصادق عليه السلام فوجب الاعتراف به و من ركب عقله في بطن أمه فهو دون الأول في الإدراك لقلة تمر نه و تدربه و ضعف امتزاج مادته و تعجينها بخميرة العقل بالنسبة إلى الأول فله الدرجة الوسطى من الإدراك يفهم معنى الكلام بعد تمامه لا قبله مثل الأول و من ركب عقله فيه بعد الوضع إلى زمان التكليف و هذا هو المراد بقوله بعد ما كبر فهو دون الثاني في الإدراك لقلة تمر نه قطعاً و عدم امتزاج مادته بالعقل و ضعف استضاءة سائر قوا الإدراك كقوة بنوره و هو بمنزلة بيت وضع المصباح في خارجه فله الدرجة الأدنى من الفهم والمرتبة الدنيا من الإدراك لا يفهم معنى الكلام بعد تمامه ، بل يحتاج إلى تكريره فلذلك يقول أعد علي ثم هذه المراتب هي الأمتهات في مراتب الإدراك و اختلافاتها وإلا فلذلك درجة مراتب متفاوتة

(١) ماهية التعلق ليست واحدة مثلاً تعلق المعقول بالعلّة نحو من التعلق لا يستحيل بين الممكن والواجب و اثر هذا التعلق انعدام الممكن على فرض عدم تعلق الممكن به تعالى و تعلق النفس بالبدن تعلق بنحو آخر و أثره زوال الحياة بزوال التعلق و تعلق الملائكة بالموجودات بنحو التدبير و التصرف و تعلق العقل الفعال بالنفوس الناطقة على مذهب الحكماء او بجميع الموجودات في عالم الكون والفساد نحو من التعلق معقول و تعلق النفوس الفلكية بالافلاك أيضاً أمر معقول سواء كان واقعاً أو لا وليس في جميع الآثار نظير تعلق النفس الحيوانية بأبدانها و احتمال تعلق النفس بالأرض و الجبال نظير تعلقها بالافلاك اذ لا يستلزم التعلق سمعاً و بصرأ و لمسأ و عصبأ و دماغأ وغيره باعتبار استلزامه حركة ارادية في الافلاك و هكذا «ش».

في القوة والضعف يدلُّ على ذلك ما رواه يحيى بن أبان عن شهاب قال : سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول : « لو علم الناس كيف خلق الله تعالى هذا الخلق لم يلم أحدٌ أحداً فقلت : أصلحك الله و كيف ذلك ؟ فقال : إن الله تبارك و تعالى خلق اجزاء بلغ بها تسعة و أربعين جزءاً ، ثم جعل الأجزاء أعشاراً فجعل الجزء عشرة أعشار ثم قسمه بين الخلق فجعل في رجل عشر جزء ، و في آخر عشري جزء ، حتى بلغ به جزءاً تاماً ، و في آخر جزءاً و عشر جزء و في آخر جزء و عشري جزء و آخر جزء و ثلاثة أعشار جزء ، حتى بلغ به جزءين تامين ثم بحساب ذلك حتى بلغ بأرفعهم تسعة و أربعين جزءاً ، فمن لم يجعل فيه إلا عشر جزء لم يقدر على أن يكون مثل صاحب العشرين ، و كذلك صاحب العشرين لا يكون مثل صاحب الثلاثة الأعشار ، و كذلك من تم له جزء لا يقدر على أن يكون مثل صاحب الجزءين ، و لو علم الناس أن الله عز وجل خلق هذا الخلق على هذا لم يلم أحدٌ أحداً (١) و يحتمل أن يكون قوله « من عجننت نطفته بعقله » معناه من خلقت نفسه قبل التعلق بالبدن على وصف كماله مناسب للعقل و ارتباطها به ثم تعلقت بالبدن و قوله « فذلك الذي ركب عقله فيه في بطن أمه » معناه هو الذي اتصفت نفسه بالوصف الكمال الموجب لقوة ارتباطها بالعقل بعد تعلقها بالبدن و قوله « فذلك الذي ركب عقله فيه بعد ما كبر » معناه هو الذي اتصفت نفسه بذلك الوصف و حصل لها الارتباط بالعقل بعد استعمال الحواس و حصول الضروريات التي هي مبادي النظريات و الله أعلم بحقايق الأمور .

((الاصل))

٢٨ - « عدة من أصحابنا ، عن أحمد بن محمد ، عن بعض من رفعه ، عن أبي »
« عبد الله عليه السلام قال - قال رسول الله ﷺ : إذا رأيت الرجل كثير الصلاة ، كثير ،
« الصيام فلا تباهاوا به حتى تنظروا كيف عقله » .

(١) الكافي كتاب الايمان والكفر باب آخر من باب درجات الايمان .

((الشرح))

(عدة من أصحابنا، عن أحمد بن محمد، عن بعض من رفعه عن أبي عبد الله عليه السلام قال : قال رسول الله ﷺ : إذا رأيتم الرجل كثير الصلاة كثير الصيام فلا تباهاوا به) أي فلا تفاخروا به من المباهاة وهي المفاخرة أو فلا تؤانسوا به من البهاء بالفتح والمدّ وهو الأُنس يقال : بهأت بالرجل بهاء آنست به وحينئذ يقرأ، تباهاؤوا بالهمزة بعد الهاء (حتى تنظروا كيف عقله) فإن وجدتم عقله كاملاً باعتبار ظهور آثار العقلاء عنه و اشتغال أعماله وأفعاله على المحسنات العقلية والنقلية وجودة رأيه في الأمور الدنيوية والأخروية وحسن تصرفه في الفضائل العلمية والعملية ، و رعاية آداب المعاشرة مع بني نوعه فهو أهل للمباهاة و المفاخرة و المؤانسة ، إذ هو مظهر للألطف الإلهية ومورد للكمالات النفسانية ومعدن للفضائل الرُّوحانية ونور في نفسه و منور مرشد لغيره ، وإن وجدتم عقله بخلاف ذلك فعمله بعيد عن الاعتبار والافتخار ، وفيه دلالة على جواز مدح العلماء والثناء بالعقلاء سرّاً وعلانية كيف لا والآيات القرآنية والآيات النبوية مشحونة بذكر كمالاتهم ونشر فضائلهم زادهم الله شرفاً وتعظيماً.

((الاصل))

٢٩- « بعض أصحابنا، رفعه ، عن مفضل بن عمر : عن أبي عبد الله عليه السلام قال : « يا مفضل لا يفlech من لا يعقل ، ولا يعقل من لا يعلم ، و سوف ينجب من يفهم . ويظفر » « من يحلم ، والعلم جنّة والصدق عزّ ، والجهل ذلّ ، والفهم مجدّ ، والجهل نجيح » « حسن الخلق مجلبة للمودة ، والعالم بزمانه لاتهجم عليه اللوايس . والحزم » « مساءة الظن ، و بين المرء والحكمة نعمة العالم والجاهل شقي بينهما : الله » « وليّ من عرفه ، و عدوّ من تكلفه ، والعاقل غفور والجاهل ختور ، و إن شئت » « أن تكرم فلن ، و إن شئت أن تهان فاختن ، و من كرّم أصله لان قلبه ، ومن »

« خشن عنصره غلظ كبده ، و من فرط تورط ، و من خاف العاقبة تثبتت عن »
 « التوغل فيما لا يعلم ، و من هجم على أمر بغير علم جدع أنف نفسه ، و من لم »
 « يعلم لم يفهم ، و من لم يفهم لم يسلم ، و من لم يسلم لم يكرم ، و من لم يكرم »
 « يهضم ، و من يهضم كان ألوم ، و من كان كذلك كان أحرى أن يندم ».

((الشرح))

(بعض أصحابنا رفعه عن مفضل بن عمر عن أبي عبد الله عليه السلام قال : يا مفضل)
 صدر الحديث بنداؤه لطلب احضار قلبه و استعداد له لما سيتلو عليه من فضائل العقل و
 رذائل ضدّه (لا يفلح من لا يعقل) لأنّ الفوز بالسعادات الدنيوية و الآخروية
 لا يتصور بدون العقل البدي هو مبدأ لجميع الخيرات و منشؤ لجميع الكمالات ،
 و بدون استيلائه على القوة الغضبية و الشهوية (ولا يعقل من لا يعلم) أى من
 انتفت عنه حقيقة العلم انتفت عنه حقيقة العقل لأنّ تحقق حقيقة العقل وقوامها
 و مراتبها إنّما هو بالعلم فإذا انتفى انتفى ، أو من انتفى عنه العلم بقوى النفس و
 محاسنها و مقابحها فلا يعقل يعنى لا يستولى عقله على قواه النفسانية ضرورة أنّ
 استيلاءه عليها متوقف على العلم بها فاللازم من المقدّمين إمّا انتفاء حقيقة الفلاح
 و النجاة عند انتفاء حقيقة العلم : أو انتفاء الفلاح و النجاة من مقابح القوى النفسانية
 عند انتفاء العلم بها والله أعلم (وسوف ينجب من يفهم) رجل نجيب أى كريم
 بين النجابة و قد نجب ككرم نجابة إذا كان فاضلاً متادّباً بالآداب العقلية و العقلية ،
 و وجه ذلك ظاهر لأنّ الفهم بنور فهمه يميز بين الحقّ و الباطل و بين الصفات الحسنة
 و القبيحة فهو بمرور الأيام يكتسب المحاسن و يجتنب عن الرذائل و يصير عالماً
 فاضلاً غالباً على النفس و قواها و هواها حتّى يصير نجيباً في الدنيا و الآخرة
 (و يظفر من يحلم) الظفر النجاة و الفوز بالخيرات و الحلم بالكسر الاناة تقول
 منه حلم الرّجل يحلم بضمّ اللام فهما إذا تأنّى ولم يستعجل و ذلك ظاهر لأنّ من
 تأنّى في العقوبة ولم يستعجل فيها ولم يستخفّ سوء الأدب ولم يستفزّه الغضب يظفر

عن قريب بالمطالب و يفوز بالمآرب لأن ذلك سبب لكثرة المعاون والاصدقاء و
ازدياد الناصر والإخلاء بخلاف المستعجل فإنه يضيق عليه أمره (والعلمجنة)
يقي من سهام مكاييد الشيطان و سنان مخاطرات النفوس وصوله القوى الشهوية و
الغضبية والدواعي النفسانية بل من جميع الآفات الدنيوية والعقوبات الأخروية
(والصدق عز) المراد بالصدق استقامة اللسان في القول والخطاب و ثباته على
منهج العدل والصواب في الصغير و الكبير والقليل والكثير سواء كان على نفسه
أو على الله تعالى أو على رسوله أو على الأئمة الطاهرين أو على المؤمنين وهو سبب للمعزة و
القوة والغلبة أو المراد به الاعتقاد الصادق و يؤيده المقابلة بالجهل لأنه الاعتقاد
الكاذب (والجهل ذل) غاية العزة هي التقرب بالله والارتواء بزلال لطفه والتمتع
برياض قدسه والتمكن في قلوب العارفين و ذلك لا يحصل إلا بالعلم والعمل فإذا
انتفى العلم و حصل الجهل بسيطاً كان أو مركباً ثبت الدل والبعد عن الحق و
إنما قابل الصدق بالجهل دون الكذب لئلا يصير الثاني تأكيداً لمضمون الأول و
التأسيس خير من التأكيد (والفهم مجد) المجد الكرم والشرف الواسع يعني أن
الفهم من الصفات الكريمة الشريفة الموجبة لشرافة الذات ورفعة الحسب و
جلالة القدر (والجود نجح) النجاح و النجاح الظفر بالحوائج يعني أن
الجود بالمال وبذله في وجوه الغير و صرفه في مصارف الخير يوجب الظفر بالمطالب
الأخروية لأن الله تعالى يقابل القليل بالجزيل و يورث الفوز بالمآرب الدنيوية
لأنه يجذب قلوب الناس إلى التودد لصاحبه ويصرف هممتهم إلى الذب عنه و
تحصيل مطالبه قال أمير المؤمنين (عليه السلام) : « الجود حارس الأعراض (١) » (و حسن
الخلق مجلبة للمودة) حسن الخلق هو الاعتدال بين طرفي الإفراط والتفريط
في القوة الغضبية و الشهوية ، و مجلبة اسم آلة أو مصدر ميمي ، و الحمل هنا
للمبالغة كما في السوابق . يعني أن حسن الخلق مع الناس ومخاطبتهم على الوجه

الحسن الجميل والتودد لهم والاحتمال منهم والاشفاق عليهم والحلم والصبر وغير ذلك من محاسن الصفات الخلقية يجلب إلى صاحبه محبتهم وودادتهم وصداقتهم وغير ذلك من خير الدنيا والآخرة حتى أن العدو يصير بذلك صديقاً شقيقاً وقد رغب فيه أمير المؤمنين عليه السلام بقوله : « خالطوا الناس مخالطة إن متم معها بكوا عليكم وإن عشتم حنوا إليكم » (١) (والعالم بزمانه لا تهجم عليه اللوابس) في المغرب الهجوم الاتيان بغتة والدخول من غير استئذان من باب طلب ، يقال : هجم عليه . يعني يتعدى على . واللوابس جمع اللابس على غير قياس كالقوارس جمع فارس من اللبس بالضم مصدر لبست الثوب ألبسه أو بالفتح مصدر لبست عليه الأمر ألبسه أي خلطته ومنه قوله تعالى « و للبسنا عليهم ما يلبسون » والتبس عليه الأمر أي اخلط و اشتبه أو جمع لبسة : يقال : في الأمر لبسة بالضم أي شبهة ليس بواضح ، والمقصود أن العالم بأحوال أبناء زمانه وعاداتهم الفاسدة ورسومهم الكسدة من إنكار الحقوق واتباع أهواء النفوس وترويج الشرور وإعلان قول الزور لا تهجم عليه اللوابس أي الذين يلبسون الحق بالباطل والنور بالظلمة والأمر الواضح بالشبهة . ولا يدخلون عليه بغتة وعلى سبيل الغلبة بالتدليسات والتلبيسات ولا يغلبونه بالتخليط وإلقاء الشبهات لعلمه بفساد أقوالهم وأفعالهم وإدراكه بالفراسق والتجربة سوء صنائعهم وقبايح أعمالهم أو المقصود أنه لا يدخل عليه الشبهات ، فيه تنبيه على أن الغالب في كل عصر هو إنكار الحق وترويج الكفران ، وإفشاء الظلم ونشر الجور والطغيان كما يعرفه أصحاب القلوب وأرباب العرفان وإذا تحقق ذلك مع طول مدة الاسلام واستقراره في القلوب فلا ينكر تحققه بعد فوت النبي صلى الله عليه وآله وسلم ولا يستبعد وقوع ما وقع بعده من خروج أكثر الأمة عن الدين ، ولما كان هنا مظنة أن يقال عدم هجوم اللوابس على العالم بأهل زمانه لسوء ظنه بهم وعدم استماعه لأقوالهم ولا اتباعه لأثارهم وأطوارهم إلا بعد الاستظهار فيها والأخذ بالحزم لئلا ينخدع وسوء الظن لا يجوز قال دفعاً لذلك (و الحزم مساءة الظن) حزم الرجل جل جودة رأيه وإحكام أمره وضبطه له وأخذه بالثقة والحذر من فواته ، والمساءة مصدر

ميمى ساءه يسوءه سوءاً بالفتح ومساءة نقيض سرته والحمل للمبالغة والإضافة إلى الفاعل على الظاهر. يعنى جودة الرأي وإحكام الأمر وأخذه بالثقة على وجه لا يقع في الباطل والشبهة يقتضى سوء الظن بهم يعنى تجويز السوء منهم والتثبت فيما يأتون به حتى يتبين الحق من الباطل والصدق من الكذب والعلم من الشبهة ولو وجب القبول منهم من غير حزم ولم يجز نسبة السوء إليهم لوقع الهرج والمرج وبطل الدين ورجع كما كان قبل البعثة ، ولذلك قال الله تعالى « إن جاءكم فاسق ببناء فنبهوا » وقال « لو يطيعكم في كبير من الأمر لعنتهم » وبالجملة الحزم يوجب أن يبنى الحال أولاً على جواز السوء منهم حتى يتبين له الحق ويحصل الإذعان به ، وفيه تنبيه على أنه لا ينبغي متابعة الغير في أمر من الأمور مع تجويز كون ذلك الأمر خطأ، بل لابد من كمال الاحتياط فيه ، وإنما قلنا على جواز السوء منهم لأنه الذي يقتضيه الحزم والاحتياط فلا ينافي ما ورد من النهي عن مساءة الظن بالخلق لأن ما ذكرناه من باب التجويز العقلي المناسب للحزم وما ورد النهي عنه من باب الاعتقاد الفاسد والقول بالشيء رجماً بالغيب.

(و بين المرء والحكمة نعمة العالم) « نعمة » بالتنوين والعالم بيان لها أو بالإضافة للبيان أو بتقدير اللأم ، ولعل المقصود أن بين المرء العاقل والحكمة نعمة العالم هي إرشاده وهدايته الموصلة إليها وتخليصه من ظلمات الأهام وتثبيته من مزال الأقدام وتسديده في مواضع أغاليط الأفهام وتعليمه كيفية السلوك في طرق المطالب وتقويته للوصول إلى دقایق الحكمة في أعلى المراتب (والجاهل شقي بينهما) أي بين الحكمة ونعمة العالم يعنى لا ينفعه سعي العالم وإرشاده وهدايته وتعليمه وتفهمه وتسديده كل ذلك لشقاوته الذآتية ودناءته الطبيعية وظلمته النفسية وكدورته الذهنية ، واحتمال عود ضمير التثنية إلى الجاهل والحكمة يعنى كما أن بين العاقل والحكمة عالم ربانى يهديه إليها كذلك بين الجاهل والحكمة شقي يضلّه عنها بعيداً ، وفيه دلالة على أن العقول البشرية وإن كانت قابلة لإدراك الحكمة والعلوم فهي تحتاج إلى توسط استاد هو عقل العالم وإرشاده

لأنّها مع هذا الوسط تصير نوراً على نور فتدرك الحقائق كما هي و تأمن من الغلط ثم إنّ هذا العالم يحتاج إلى عالم ربّاني إلى أن ينتهي إلى عالم بالذات لا يحتاج في علمه إلى غيره أصلاً وهو الله تعالى شأنه و نظير ذلك أن نور البصر في إدراكه يحتاج إلى توسط نور الشمس أو نور المصباح أو غيرهما فأنه حينئذ يصير نوراً على نور يدرك المبصرات على ما ينبغي، والرّوايات الدّالة على اعتبار ذلك الوسط كثيرة جداً منها « من أعجب برأيه ضلّ ومن استغنى بعقله زلّ » (١) و على أن الجاهل الفاقد للبصيرة لا يتفقه توسط العالم و إرشاده أو على أن له قريناً شقيّاً يضلّه عن طريق الحكمة « و من يعيش عن ذكر الرّحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين » .

و لشرح هذه العبارة أقوال آخر نحن نشير إلى بعضها إجمالاً ليحصل لك الإحاطة بجهات الكلام فنقول : قال بعض الأفاضل : المقصود منها أن المرء من لدن عقله و تمييزه إلى بلوغه حدّ الحكمة متنعم بنعمة العلم ونعيم العلماء فأنه لا يزال في نعمة من أغذية العلوم و فواكه المعارف فإن معرفة الحضرة الالهية لروضة فيها عين جارية و أشجار مثمرة قطوفها دانية والجاهل بين مبدئ أمره و منتهى عمره في شقاوة عريضة و طول أمل طويل و معيشة ضنكة و ضيق صدر و ظلمة قلب إلى قيام ساعته و كشف غطاءه و في الآخرة عذاب شديد . و قال بعضهم : المراد أن ما أنعم الله تعالى به على العالم من العلم والفهم والصدق على الله واسطة للمرء يوصله إلى الحكمة فإن المرء إذا عرف العالم أتبعه و أخذ منه فيحصل له الحكمة و معرفة الحقّ والاقرار به والعمل على وفقه ، و كذا إذا عرف حال الجاهل وأنّه غير عالم فهم صادق على الله يترك متابعتة والأخذ منه و يسعى في طلب العالم فيطلع عليه فيأخذ منه فالجاهل باعتبار سوء حاله باعث بعيد لوصول المرء إلى الحكمة فهو شقيّ محروم يوصل معرفة حالة المرء إلى سعادة الحكمة (والله وليّ من عرفه) يعني محبته وناصره والمتكفل لأمره في الدنيا بهدأيته إلى الطاعات والخيرات وتثبيت ذهنه على الفضائل والملكات و في الآخرة بتشريفه بمنازل القرب في أعلى درجات (١) في الاختصاص ص ٢٢١ هكذا « من أعجب بنفسه هلك ومن أعجب برأيه هلك » .

الجنان والاقبال عليه بالاكرام والافضال والاحسان (و عدوٌ من تكلفه) أي تكلف العرفان وتصنع به وهو غير عارف وهو أحقُّ بالعداوة من الجاهل الخامل، و من ثم قيل : النفاق أسوأ من الكفر والمراد بعداوته له إبعاده عن الرحمة وترك الافضال عليه و كوله إلى نفسه حتى تورده مورد الهلاك والخذلان (والعاقل غفور) أي مصلح لأمره من قولهم غفروا هذا الأمر أي أصلحوه بما ينبغي أن يصلح، أو سائر الذنوب إخوانه و عيوبهم و متجاوز من خطاياهم و إساءتهم من الغفر بمعنى التغطية ، و ذلك لعلمه بما في الغفران من الأجر الجميل والثواب الجزيل ، و لأنه قريب من الله تعالى ومتخلق بأخلاقه ومن أخلاقه الكريمة غفران الذنوب وسر العيوب والتجاوز عن السيئات وإن صدر عنه المؤاخظة والكشف في بعض الأحيان لمصلحة لا يسلب عنه هذا الاسم كما في الواجب (والجاهل ختور) أي خبيث النفس كثير الغدر والخدعة بالناس لأنه فاقد للبصائر الذهنية و عادم للفضائل العقلية وحامل للمرذائل الشيطانية فيظن أن الغدو والحيل والمكر والختل و كشف العيوب والذنوب وسوء المعاملة مع الناس خيرٌ له في تحصيل منفعته و مطالبته و تيسير مقاصده ومآربه و إنما أتى بصيغة المبالغة للاشعار بأن الفعل مع وجود دواعيه و عدم موانعه يصدر على وجه الكمال (و إن شئت أن تكرم فلن) تكرم على البناء للمفعول أي إن شئت أن تكون كريماً و شريفاً حسناً خياراً عند الخالق و الخلايق فلن للناس في الكلام والسلام و اخفض لهم جناحك عند اللقاء فان من لان جانبه كثر أعوانه و أنصاره ، ومن كثر أنصاره كان مكرماً شريفاً (و إن شئت أن تهان فاخشن) تهان على البناء للمفعول من الاهانة وهي الاستخفاف والاستحقار ، و اخشن بضم الشين من الخشونة وهي ضد اللين وقد خشن الرجل بالضم فهو خشن يعني إن شئت استخفافك و استحقارك و انحطاط منزلتك فصر ذا خشونة عند ملاقات الناس و محاوراتهم و مقاولاتهم فإن الخشونة جالبة لهذه الأمور (و من كرم أصله لان قلبه ومن خشن عنصره غلظ كبده) بين السبب الأصلي لحسن الخلق و لين القلب و رحمته و لطافته والسبب الأصلي لسوء الخلق و غلظة القلب و قساوته بأن من كرم أصله

و لطف عنصره الذي ينحل إليه البدن و شرفت طينته التي منها خلق شرف قلبه يعني نفسه الناطقة لأن الشريف إنما يتعلّق بالشريف ، و من شرف قلبه شرفت صفاته من اللينة والرأفة وحسن الخلق وغيرها لأن فعل الشريف و صفاته لا يكون إلا شريفاً ، و من خشن عنصره و كثفت طينته غلظ كبده و خس قلبه لأن الخسيس إنما يتعلّق بالخسيس و من خس قلبه قبحت صفاته من الخشونة والغلظة و سوء الخلق و غيرها ، وأوردلفظ الكبد بدل القلب التنبيه على عدم استحقاقه (١) لهذا الاسم و بالجملة الأخلاق والصفات مترتبة على اجتماع النفوس والأبدان فأشرف الأخلاق يتعلّق بأشرف النفوس و أشرف النفوس يتعلّق بأشرف الأبدان و أطفها وأخس الأخلاق يتعلّق بأخس النفوس و أخس النفوس يتعلّق بأخس الأبدان و أكثفها ، فالتفاوت إنما نشأ من كرم الأصل و خسسته ، كل ذلك ظاهر إلا التفاوت في الأصل فإنه دقيق جداً ، و معرفة ذلك يتوقف على التأمل الدقيق في الروايات المذكورة في كتاب الكفر والإيمان.

وقيل المراد بكرم الأصل كون النفس فاضلة شريفة ذات ارتباط شديد وتأيد بالنور من كان كذلك لأن قلبه الذي هو مبدء الآثار العقلانية لأن النفس أو لا يتعلّق بالروح (٢)

(١) معنى ليس المراد بالكبد هذا العضو الجسماني الواقع في الجانب الأيمن من البطن لطبخ الغذاء و تبديل الكيلوس إلى الكيوس بل المراد منه النفس وكذا القلب و إنما يعبر عن النفس تارة بالكبد وتارة بالقلب والكبد عند الأطباء مبدء القوة الطبيعية أي النفس النباتية والقلب محل القوة النفسانية أي الحيوانية ، والقلب أقرب إلى النفس الناطقة من الكبد ، وأشار دج بهذه العبارة إلى أن من خشن عنصره فالمناسب أن يعبر عن نفسه بالكبد لبعده عما خلق له و ميلانه إلى الطليفة (ش).

(٢) المراد بالروح هنا الروح الطبيعي الحيواني في اصطلاح الأطباء و هي عندهم بخار له مزاج سار في المروق و مسام البدن و بطون الدماغ وهو أكثر في الشرائين من الأوردة ، النفس يتعلّق أولاً به وبتوسطه بالبدن و ليس المراد بالروح هنا النفس الناطقة (ش)

الحاصلة فيه فلأن عناصره باستمداد من الروح الذي يجيب، إليها من القلب هو من خشن عنصره غلظ كبده أي و من لم يكن كريم الأصل و هو من خشن عنصره و خبث طينته غلظ منه ما هو المناط في قوام البدن و قوته و هو المكبد فيستولي القوى البدنية فيه على القوى العقلانية (و من فرط تورط) يقال : فرط في الأمر فرطاً أي قصر فيه و ضيعه حتى فات و كذلك التفريط و فرط أيضاً فهو فارط إذا سبق و تقدّم و جاوز الحد، و تورط في الورطة أي وقع في الهلكة، ولعل المراد من فرط في الحق و قصر فيه وقع في الهلكة لأن أصل التقصير في الحق ورطة و هلكة أولاً لأنه مستلزم لوقوعه في ضد الحق أعني الباطل أو المراد من سبق إلى دواعي النفوس و جاوز الحد في متابعة القوى النفسانية فقد وقع في الهلكة .

(و من خاف العاقبة تثبت عن التوغل فيما لا يعلم) تثبت ماض من التثبت أو مضارع من الثبات، والوغل الدخول و أوغل في السير و توغل إذا أسرع فيه و أمعن، يعني من خاف سوء العاقبة ولومها تثبت عن الدخول فيما لا يعلمه و عن الإسراع في التكلم فيه والاعتقاد به، و من علامة العاقل السكوت في الشبهات فإن مفسد النطق بها كثيرة جداً و في الحديث «من تورط في الأمور غير ناظر للعواقب فقد تعرض لمفضحات النوائب» (و من هجم على أمر بغير علم فقد جددع أنف نفسه) الجددع بالجيم والدال المهملة قطع الأنف و قطع اليد و قطع الشفه تقول منه جدعته فهو أجددع، وجدع أنف النفس المجردة إما كناية عن إزالة سعادتها الأبدية بالجهل أو كناية عن تحقيرها و إذلالها يعني من دخل في أمر بغير علم بذلك فقد استحققر نفسه و استصغرها و وسماها بسمة الحقارة و الرذالة و الهلاك عند الخالق والخلق جميعاً، و مثله مثل الفرائس تتساقط من جهلها في نار المصباح ينوهم أنها كوة يستضيء منها النور فيقصدن الخروج منها فيحترقن، ثم بين عليه السلام فضل العلم و شرفه بقياس مفصول النتائج بقوله (ومن لم يعلم لم يفهم، ومن لم يفهم لم يسلم) أي من لم يعلم الحسن والقبح لم يفهما و لم يميز بينهما ومن لم يميز بينهما لم يسلم من ارتكاب القبيح والنعرض له (و من لم يسلم لم يكرم)

معلوم من كرم أي من لم يسلم عن القبيح لم يكن شريفاً نجيباً فاضلاً، أو مجهولاً من أكرم أي لم يكن معزّزاً مكرماً معدوداً من كرام الناس بل مخذولاً مهاناً (و من لم يكرم يهضم) في أكثر النسخ يهضم من الثلاثي المجرد وفي بعضها تهضم من باب النفعّل وفي القاموس هضم فلاناً ظلمه و غصبه كاهتضمه و تهضمه، وفي الصحاح هضمت الشيء كسرتة يقال: هضمته حقّه واهتضمه و تهضمته إذا ظلمه و كسر عليه حقّه و رجل هضم و منهضم أي مظلوم، ثمّ الفعل الأول إن كان مبنياً للفاعل كان الثاني أيضاً كذلك على الظاهر في النسختين جميعاً لأنّ الموصول هو الذي يكسر نفسه ويذلّها و يظلمها بسبب عدم اكتساب كرامتها و شرافتها و إن كان مبنياً للمفعول كان الثاني أيضاً كذلك لأنّ المكسر عزّه والمذلّ له حينئذ غيره (و من يهضم كان ألوم) أي أكثر استحقاقاً و لوماً ممّا تقدّم (و من كان ذلك) أي ألوم (كان أخرى أن يندم) على ما ساقه إلى الملوّميّة من التوغّل فيما لا يعلم أو من الهجوم على أمر بغير علم أو من جميع ما تقدّم. و اعلم أنّ هذه المقدّمات إذا اعتبرت انتاجها تنتج «فمن لم يعلم كان أخرى أن يندم» أمّا المقدّمة الأولى فلانّ الفهم و هو ملكة الانتقال كما عرفت مراراً مستلزم للعلم و متوقف عليه و انتفاء اللازم مستلزم لانتفاء الملزوم، وأمّا الثانية فلانّ السلامة عن الرذائل النفسانيّة متوقّفة على الفهم والتمييز بينها و بين فضائلها فيستفي بانتفاءه، و أمّا الثالثة فلانّ كرامة النفس و شرافتها و علوّ منزلتها فرع لسلامتها عن الرذائل والمقايح و انتفاء الأصل مستلزم لانتفاء الفرع، وأمّا الرابعة فلانّ عدم إكرام أحد و تعظيمه سبب لهضمه و كسره و احتقاره و إذلاله، وأمّا الخامسة فلانّ هضم أحد و إذلاله مستلزم لرداءته و لومه و عذله، و ألوم بمعنى اسم المفعول و سبب الزيادة ظاهر إذ الإذلال لا يساوقه شيء من الأضرار، وأمّا السادسة فلانّ ألوم أحد بجهالته وعذله برداءته على وجه المبالغة من أقوى الأسباب لندامته على سوء أحواله وقبح أوضاعه و أفعاله.

((الاصل))

٣٠- «محمد بن يحيى رفعه قال : قال أمير المؤمنين عليه السلام : من استحكمت لي فيه خصلة من خصال الخير احتملته عليها و اغتفرت فقد ما سواها ولا أغتفر فقد عقل ولادين ، لأن مفارقة الدين مفارقة الأمن فلا يتهمناً بحياة مع مخافة ، ووفقد العقل فقد الحياة ولا يقاس إلا بالأموال».

((الشرح))

(محمد بن يحيى رفعه قال : قال أمير المؤمنين عليه السلام : من استحكمت لي فيه خصلة من خصال الخير) أى صارت محكمة يعنى ملكة راسخة ، والمراد من خصال الخير فضائل النفس و أخلاقها مثل العفة والسخاوة والحلم و غيرها مما عرفته آنفاً و ستعرفه فيما بعد ومما هو مذكور في كتاب الأخلاق و قوله « لي » على تضمين معنى الثبوت أو الظهور أى ثابناً لي ذلك ، أو ظاهراً عندي ، أو على معناه لأجلني يعنى لأجل إعانتني في إنجائه من العقوبات وهذا نظير ما قيل لرسول الله صلى الله عليه وآله : « اضمن لي الجنة فقال : أعنتني بكثرة السجود » (١) (احتملته عليها و اغتفرت فقد ما سواها) أى أعنته على تلك الخصلة و رضيت باحتماله و قبلتها منه و رفعت بها قدره في الآخرة و تجاوزت عن فقد ما سواها و سترته ولم آخذه به (ولا اغتفر فقد عقل ولادين) ليس المراد بالعقل هنا العقل الهولاني الذي به يفارق الانسان ساير الحيوانات لأنه موجود في الجميع ولو فقد في البعض ففقدته ليس باختياره بل المراد به العقل الذي له ملكة إدراك المعارف الإلهية وهو الذي يسمونه عقلاً بالفعل ، والمراد بالدين معرفة الشرايع الصادرة بواسطة الرسول و إطاعته في الأمر والنهي و غيرهما ، يعنى لا أغتفر فقد عقل فقط ولا أتجاوز عن التقصير فيه و إن كان له دين ولا فقد دين فقط وإن كان له عقل سواء كان الفاقد لهما موصوفاً بجميع خصال الخير أولاً (لأن مفارقة الأمن) لأن الأمن من العذاب و الوقوع في الباطل إنما يحصل باتتباع الرسول و إطاعته لأن قوله قول الله وأمره أمر الله وقد بعثهم على الناس ليجذبهم عما يميلون إليه من اتتباع الشهوات الباطلة و اقتناء

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ج ٢ ص ٥٢ باب فضل السجود والحث عليه.

اللذات الزائلة بتذكيرهم لما أعطاهم الله من نعمه الجسيمة ومنه العظيمة وترغيبهم فيما أعدّه لأوليائه وتحريضهم على ما قرّره لأصفيائه وإشارتهم إلى الدرجات الرفيعة وإرشادهم إلى المقامات العلية بالمقدمات اللامعة والبراهين الساطعة ، فمن تبعه أمن من الكفر والعذاب وخلص من البطالة والعقاب ، ومن فارقوه ولم يتمسك بدينه ولم يعمل بقوانينه واتّبع رأيه الفاسد المستند إلى النفس الأمّارة أوجاهلاً يتكلّم في الدّين بغير بصيرة ولا يقين فقد فارق الأمن وصدّى للبطالة والغواية و أورد نفسه مورد الضلالة والمخافة لعدم علمه باصابة رأيه ورأي ذلك الجاهل المتبوع فلا يأمن من الكفر والخروج من الدّين في هذه النشأة ولا من العقاب في النشأة الآخرة (فلا يتنبأ بحياة مع مخافة) في المصادر المنتهية كوارنده شدن ، وفي الصحاح والنهاية هنائي الطعام يهنئني ويهنئني و هنتت الطعام أي تهنأت به فالفعل على الأوّل مبني للمفاعل و حياة فاعله والباء زائدة وكذا على الثاني و فاعله ضمير لفاقد الدّين والباء للمعدية و لعلّ المراد بالحياة الحيوة الدّنيوية و تكدرها بالمخافة الناشئة من مفارقة الدّين و من العقل والعلم في الجملة ظاهر و كيف يكون فاقد الدّين و هو عالم آمناً سعيداً و متى يكون عيشه و حيوته طيباً رغيداً مع علمه بأنّ له في كلّ قدم خطراً عظيماً و في الآخرة عذاباً أليماً وأمّا الجاهل الفاقد له فإنّه و إن كان أيضاً هالكاً ضالاً لكن لجهله لا يشعر بالخوف النابع للعلم و مثلهما مثل رجلين مسافرين في مفازة مخوفة عميقة إلى شقّة بعيدة و تركا طريق الأمن الموصل إليها و سلكا طريقاً آخر فيه أنحاء من الفساد والضرر و أنواع من الخوف والخطر ، و يعلم أحدهما أحوال هذا الطريق دون الآخر فإنّ العالم بها حيوته مكدّرة و عيشه منغصة و ربّما يضطرّ به مخافة الهلاك إلى ترك الشراب والطعام و اعتزاله عن فراش الاستراحة والنام ، و أمّا الجاهل بها فإنّه فارغ عن هذا الخوف والاضطراب و إن كان مشاركاً له في الهلاك عند نزول العذاب ، أو المراد بالحياة الحيوة المعنوية القلبية وهي العلم الإجمالي بالله تعالى و بكتابه وبرسوله و حقّية شرايعه و دينه إلّا أنّه رجع في تفصيله إلى رأيه أو

إلى جاهل متصنع بالعلم التفصيلي ولم يسمعه من الرسول أو ممن يقوم مقامه كما هو شأن مخالفينا ولاريب في أن حيوته هذه مكدرّة ناقصة لاتنفعه مع مخافة أن يخرج في أصول القواعد الشرعيّة أو فروعها عن منهج الدين أو مع مخافة أن تزول عنه هذه الحيوية بتسويلات الشياطين.

(وفقد العقل فقد الحيوية) لأنّ الحيوية التي يجب صرف العمر في حفظها وتكميلها ووردت الشرايع والكتب الإلهيّة بالأمر بتحصيلها هي استكمال النفس بالحقايق والمعارف والعلوم النافعة في الآخرة فمن تخلّى نفسه بها وصار عقله عاقلاً بالفعل فهو حيّ حقيقة في الدنيا والآخرة ومن تخلّى نفسه عن هذه المعارف والكمالات وغطّى عقله بأغطية الرذائل والجهالات فهو معدود بلسان الشرع من الجمادات (ولا يقاس) أي لا يقدر ولا يشبه (إلاّ بالموات) لعدم اطلاعه على وجوه مفاسده ومصالحه وعدم اهتدائه إلى رفع مضارّه وجلب منافعه كالأموات بل هو أدنى حالاً وأقبح مآلاً لا ضطجاءه بين الشبهات.

مركز تحقيقات كميّ برتر علمي

((الاصل))

٣١- « عليّ بن إبراهيم بن هاشم ، عن موسى بن إبراهيم المحاربي ، عن الحسن بن موسى ، عن موسى بن عبدالله ، عن ميمون بن عليّ ، عن أبي عبدالله »
« قال : قال أمير المؤمنين (عليه السلام) : إعجاب المرء بنفسه دليل على ضعف عقله ،

((الشرح))

(عليّ بن إبراهيم بن هاشم ، عن موسى بن إبراهيم المحاربي) لم أعرف حاله (عن الحسن بن موسى) شريف معظم من وجوه أصحابنا كثير العلم والحديث (عن موسى بن عبدالله ، عن ميمون بن عليّ) لم أعرف حاله أيضاً (عن أبي عبدالله (عليه السلام) قال : قال أمير المؤمنين (عليه السلام) : إعجاب المرء بنفسه) أي استعظامه إيّاهالاتصافها بفضيلة دنيويّة مثل المال والجاه و كثرة الأولاد والأنصار أو بفضيلة أخرويّة مثل

العلم والعمل و سائر الكمالات و استكثاره لتلك الفضيلة والابتهاج بها والرُّكون إليها والرِّضا بها حتَّى يظنَّ أنَّه قد فاق العابدين وجاوز عن حدِّ التقصير ويستبعد انحطاط رتبته عند الله تعالى و له مثل هذا العمل والفضيلة عن رتبة العابدين و يعتقد أنَّه لا يعدُّ به أبداً لأجله (دليل على ضعف عقله) و قلة علمه وقصور معرفته بالصانع و صفاته التامة الكاملة إذاً كان له عقلٌ كاملٌ وعلمٌ تامٌ ومعرفة بما له جلَّ شأنه من القوَّة والقُدرة والغلبة والعظمة والجلال علم أنَّ كلَّ شيءٍ سواه مقهور تحت قدرته مغلوب عند عزِّته ذليل في ساحة عظمته ، **لأنَّ** لامانع لسلطانه ولا نهاية لعرفانه ولادافع لامضاء أمره و جريان برهانه وإنَّ السماوات والأرضين و ما فيهما و ما بينهما ما يرى و ما لا يرى من الرُّوحانيين والملائكة المقرَّبين والأنبياء المرسلين خاشعون خاضعون متذللون لحكمه معترفون بالعجز والتقصير ، فإذا عرف هذه الأمور و تفكَّر فيها تفكُّراً صحيحاً خالياً عن الشبهات و تأمَّل فيها تأمُّلاً سليماً عن الآفات وجد نفسه و إنَّ كان لها جميع الكمالات مدعنة بالعجز والانكسار، معترفة بالذلِّ والافتقار، مربوطة برقعة العبودية والخذلان، موصوفة بصفة المسكنة والنقصان ، بعيدة عن الإعجاب ، قريبة من الخوف والاضطراب . وسيجىء تحقيق العجب و لوازمه و مفاسده و علاجه في بابه إن شاء الله تعالى.

((الاصل))

٣٢. « أبو عبد الله العاصمي ، عن عليِّ بن الحسن ، عن عليِّ بن أسباط ، «
« عن الحسن بن الجهم ، عن أبي الحسن الرضا عليه السلام قال : ذكر عنده أصحابنا «
« و ذكر العقل قال : فقال عليه السلام : لا يعبؤ بأهل الدِّين ممَّن لا عقل له قلت : جعلت «
« فذاك إنَّ ممَّن يصف هذا الأمر قوماً لا بأس بهم عندنا و ليست لهم تلك العقول ، «
« فقال : ليس هؤلاء ممَّن خاطب الله إنَّ الله خلق العقل فقال له : أقبل فأقبل ، «
« و قال له أدبر فأدبر ، فقال : و عزَّتي و جلالتي ما خلقت شيئاً أحسن منك أو ، «
« أحبَّ إليَّ منك ، بك آخذ و بك اعطي . »

((الشرح))

(أبو عبد الله العاصمي) هو أحمد بن محمد بن عاصم ثقة (عن علي بن الحسن)
يعني ابن فضال (عن علي بن أسباط) فطحى ثقة رجع إلى الحق عند النجاشي
ولم يرجع عند الكشي ، وقال العلامة أنا أعتمد على روايته (عن الحسن بن
الجهم عن أبي الحسن الرضا عليه السلام) قال : يعني الحسن بن الجهم (ذكر عنده أصحابنا
و ذكر العقل) « ذكر » في الموضعين على البناء للمفعول و أصحابنا والعقل في موقع
الفاعل يعني ذكر عند أبي الحسن الرضا عليه السلام أصحابنا الإمامية و أحوالاتهم و
ذكر عنده العقل و تفاوت مراتبه (قال : فقال : لا يعبؤ بأهل الدين بمن لا عقل له)
بدل لقوله بأهل الدين و في بعض النسخ « ممن لا عقل له » ولا يعبؤ على البناء للمفعول
والظرف قائم مقام الفاعل والعبء بفتح العين و سكون الباء المبالاة يقال : ما عبأت
بفلان عبأ أي ما باليت به ، والمراد بالعقل العقل بالفعل والعقل المستفاد أو ملكة
الانتقال إلى العلوم والادراكات الحقيقة أو نفس تلك العلوم و سميت تلك العلوم
بالعقل لأن العقل مأخوذ من عقل دابة والعلوم تمنع صاحبها من الهلاك كالعقال
للدابة يعني لا يبالي بأهل الدين بحسب الظاهر ممن لا عقل له ، ولا يلتفت إليه ،
ولا يعد شريفاً مكرماً ، ولا يثاب ثواباً جزيلاً ، ولا يعطى أجراً جميلاً ، و إنما قلنا
بحسب الظاهر لأن أهل الدين بحسب الحقيقة من كان له مناط التمييز بين الحق
والباطل و استضاء ذهنه بأنوار المعارف الإلهية و استنار قلبه بشموس الحقائق
الربانية فصار بحيث لا يحجبه ظلمة الهيئات البدنية والمعارضات الوهمية و
الخيالية عن ملاحظة أسرار عالم الغيب و أنوار عالم الشهادة ، و أمّا الذي ليس
له تلك الفضائل و إن كان من أهل الدين فهو مستغرق بعد في بحر الرذائل
يفشاه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض أعنى موج الشهوات الداعية
إلى الصفات البهيمية وموج الغفلات الداعية إلى الصفات السبعية كالغضب والعداوة
شرح اصول الكافي - ٢٧ -

والحقد والحسد والمباهات والمفاخرة و أمثالها و سحاب العقائد الفاسدة التي صارت حجاباً لنور البصائر عن إدراك نور الحق و من كانت هذه صفاته كثرت على جوارحه و قلبه زلّاته فلا اعتناء بعقائده و عاداته ولا مبالاة في أعماله من صومه و صلاته و سائر عباداته.

(قلت جعلت فداك إن ممّن يصف هذا الأمر) أي أمر الإمامة و يقول بها و ينسب نفسه إليها و في قوله « يصف » دون أن يقول يتّصف إيماء إلى أن ذلك بمجرد القول الخالي عن العقد اليقيني والإذعان القلبي الحاصل بالبرهان القطعي (قوماً لا بأس بهم عندنا) معاشر الإماميّة في أفعالهم و أعمالهم الظاهرة الموافقة لمذهبنا و ليست لهم تلك العقول التي هي مشكوة الهداية في ظلمات الطبائع البشرية و مصباح الدّراية في شبهات الأوهام الطبيعية (فقال ليس هؤلاء ممّن خاطب الله تبارك و تعالى) بالارتفاع إلى المعارج العليّة (١) والاهتداء إلى المعارف الرّبّوبية والقيام بالسياسة المدنية والرّياسة العقلية والشرعية وإنّما هم جماعة يجري عليهم أحكام صاحب السياسة و مالك زمام الرّياسة بأنحاء التعذيب وأنواع التأديب ليتمّ صلاحهم و صلاح بني نوعهم و يحصل لهم بذلك حيوة الدّنيا ونجاة.

(١) والعجب ان البلهاء من المتدينين يعدون طريقهم و مذهبهم أسلم و آمن من طريقة العقلاء يقولون ان الفكر مثار الشبهة والعقول ليست مما يعتمد عليها و من انكل على عقله ضل الطريق و يحملون قولهم عليهم السلام « ان دين الله لا يصاب بالعقول » على هذا وهو غير معناه والمعلوم أن في كل زمان حتى في عصر الائمة عليهم السلام كان جماعة من هؤلاء ونحن نقول فائدة العقل أن يميز بين الدليل الصحيح والفاقد والحديث الصحيح والسقيم بالقرائن و يعرف الممنى المراد من الكتاب الكريم و غير المراد منه كيد الله ووجه الله وآيات الجبر والتفويض و ما يجب أن يختاره عند تراحم الامارات و تمازج الادلة كالتقية في مورد وجوبها عن مورد حرمتها و غير ذلك مما لا يحصى و ذا كثر أهل الجنة البلهاء مثال لذلك فيعمله الجاهل على فضل الجاهل و يعمله العاقل على معناه المراد أعني فاقد النكراء والشبظنة . (ش)

الآخرة و بما ذكرنا لا يرد أن قول السائل « لا بأس بهم عندنا » دل على أن لهم العقل الذي هو مناط التكليف والخطاب بالأحكام و قوله عنه « ليس هؤلاء ممن خاطب الله » دل على أن ليس لهم هذا العقل فبين السؤال والجواب منافاة في الجملة و وجه عدم الورود أن للعقل مراتب متفاوتة و أدنى مراتبه و ما هو مناط التكليف بظواهر الأعمال والأفعال الشرعية النبي يحصل به صلاح الخلق في الدنيا و نجاتهم في الآخرة . و أعلاها ما هو مناط الفوز بأعلى المقامات الممكنة للقوة البشرية والمتصف به هو خاص الخاص والمتوسطات متوسطات ، والثابت لهم هو أدنى المراتب ، والمنفى عنهم ما سواها و يرشد إليه أيضاً قول السائل : « و ليست لهم تلك العقول » فإن « تلك » للإشارة إلى البعيد و فيها دلالة على أن العقل المسلوب عنهم هو الواقع في الدرجات العالية ، والغرض من هذا السؤال هو استعلام حالهم أيعبؤ بهم أم لا فأشار عنه بقوله « ليس هؤلاء ممن خاطب الله » إلى أنه لا يعبؤ بهم إلا أنه أقام السبب موقع السبب (إن الله خلق العقل) و هو نور محض وضو ، صرف ما شابه أرجاس الأوهام و أخبات الظلام ، و هذا تعليل للسابق و بيان له و لذا ترك العاطف (فقال له أقبل فأقبل ، و قال له : أدبر فأدبر ، فقال و عزت ما خلقت شيئاً أحسن منك ، أو أحب إلي منك) الترديد من الرأوي لعدم ضبط اللفظ المسموع بخصوصه (بك آخذ) أي بسببك أعاقب بالبعد عن مقام القرب والاحسان و بالحبس في سجون الطبايع والنسيان ، و هذه المرتبة سمّاها مرتبة المسخ بعض أهل العرفان ، أو بسببك أقبل الأعمال الموجهة للقرب (و بك أعطي) أجراً جميلاً و ثواباً جزيلاً و مقاماً محموداً فيه أنواع من الافضال والاكرام و و أنحاء من الاحسان والانعام ، و لدينا مزيد ، و في حذف مفعول الفعلين دلالة على التعميم ولا يبعد تنزيلهما منزلة اللازم وجعلهما كنايةتين عنهما حال كونهما متعلّقين بمفعول معلوم بقرينة المقام وقد مر شرح هذا الكلام مستوفى (١) مراراً

(١) سبق مفاد هذا الحديث مرتين و مضى شرحه مراراً و ذكرنا شيئاً يتعلق بأولية

خلق العقل في التعليقات والحاصل ان وجود جزئيات الاجسام يدل على وجود عالم*

و ملخص القول فيه أن الأخذ والاعطاء بسبب العقل فان زاد زادا وإن نقص نقصا حتى يبلغ إلى عقول أقوام لا يبالي بهم ولا يشدد عليهم وهم قريب المنزلة بالبهائم والله أعلم

((الاصل))

٣٣- «علي بن محمد ، عن أحمد بن محمد بن خالد ، عن أبيه ، عن بعض أصحابنا»
«عن أبي عبد الله عليه السلام قال : ليس بين الإيمان والكفر إلا قلة العقل قيل : وكيف»
«ذاك يا ابن رسول الله؟ قال : إن العبد يرفع رغبته إلى مخلوق فلو أخلص نيته»
«لله لآتاه الذي يريد في أسرع من ذلك» .

((الشرح))

(علي بن محمد عن أحمد بن محمد بن خالد عن أبيه عن بعض أصحابنا عن أبي عبد الله عليه السلام)
قال: ليس بين الإيمان والكفر لعل المراد بالإيمان هنا الإيمان الكامل (١) وهو الذي
يوجب القرب التام إليه سبحانه و جلب رحمته على وجه الكمال ، و بالكفر
الكفر المحض وهو الذي يوجب غاية البعد عنه تعالى وسلب استحقاق رحمته بالكلية

* جسماني أصله ومبدؤه المادة وتتشكل المادة تارة في صورة وتارة في صورة أخرى كذلك العقول
الجزئية في أفراد الإنسان تدل على وجود عالم عقلي مجرد عن المادة وشأنه العلم والادراك
ومبدؤه موجود مجرد و هو للعالم الروحاني بمنزلة المادة للعالم الجسماني وهو العقل
الكلّي الذي له اشراق على العقول الجزئية فالعقل مبدء ما لا يرى ، والمادة مبدء ما يرى
والفرق بينهما أن ما يتولد من المادة أفضل و أكمل من نفس المادة و ما يتولد من
العقل انقص منه والعقل الكلّي المجرد اول ما خلق الله والعقول الجزئية اشراقات منه
و بهذا الاعتبار هو مناط انكليف. (ش)

(١) انما احتاج الى هذا التأويل لانه لا واسطة بين الإيمان والكفر عند المسلمين
الا عند طائفة شاذة من المعتزلة قد افترضت من ثبوت المنزلة بين المنزلتين . (ش)

(إِلَّا قَلَّةُ الْعَقْلِ) يعنى قليل العقل متوسط بين المؤمن والكافر ليس مؤمناً حقيقياً كاملاً لما فيه من قصور العقل الموجب لبعده عنه تعالى في الجملة ولا كافراً حقيقياً محضاً لما فيه شيء من نور العقل الموجب لقربه تعالى في الجملة.

(قيل كيف ذاك) أي توسط قلة العقل بين الايمان والكفر (يا ابن رسول

الله) لعل منشؤ السؤال استبعاد الوساطة نظراً إلى ظاهر قوله تعالى «هو الذي خلقكم فمنكم كافر و منكم مؤمن» وذلك الاستبعاد مدفوع إذ لا نسلم أن في الآية الكريمة دلالة على الحصر لجواز أن يكون ذكراً لوساطة مسكوتاً عنه ولو سلم، فلعل المراد بالايمان والكفر في الآية أصلهما ولا واسطة بينهما لا كمالهما و

ثبوت الوساطة بين كمالهما ظاهر (قال: إن العبد) أراد به العبد العارف بالله في

الجملة بقرينة قوله «فلو أخلص نيته لله» (يرفع رغبته) أي حاجته و مراده

وما يرغب فيه من أمور الدنيا (إلى مخلوق) لظنه بقصور عقله أن

المخلوق يرفع حاجته ويحصل بغيته فيتذلل له و يتخشع (فلو أخلص

نيته لله) و رفع رغبته و حاجته بالقصد الخالص عن شوائب الأوهام إليه

سبحانه (لأنه الذي يريد) أنه من أتى يأتي بمعنى جاءه، أو من أتى يؤتى

بمعنى أعطاه و الموصول على الاول فاعله و على الثانى مفعوله (في أسرع من

ذلك) أي من إتيانه عند ذلك المخلوق أو من وقت الرفع إلى المخلوق، أو

من الوقت الذي يتوقع حصول مطلوبه عند المخلوق و ذلك لشمول قدرته

تعالى على جميع المقدورات وإحاطته بجميع الممكنات فيتحقق ما أراد بمحض

الارادة من غير حاجة إلى استعمال آلة و انتظار رويّة فهذا العبد ليس مؤمناً حقيقياً

لقصور نيته بالله تعالى ولا كافراً محضاً لعلمه بالصانع فقد أفهم عليه السلام ثبوت الوساطة

بمثال جزئي و أزال وهم السائل كما هو شأن المعلم الشفيق، و ممّا يدل على

ثبوت الوساطة ما روي عن موسى بن جعفر عليه السلام قال: «إنّ علياً بابٌ من أبواب

الهدى فمن دخل من باب علي كان مؤمناً و من خرج منه كان كافراً و من لم يدخل

فيه ولم يخرج منه كان في طبقة الذين فيهم المشيئة» (١) ويحتمل أن يكون معنى

الحديث أن السبب للخروج من الايمان الفطري إلى الكفر ليس إلا قلة العقل و ما ذكرناه أولاً أوفق و أنسب .

((الاصل))

٣٤- « عدة من أصحابنا ، عن سهل بن زياد ، عن عبيدالله الدهقان ، عن « أحمد بن عمر الحلبي » ، عن يحيى بن عمران ، عن أبي عبدالله عليه السلام قال : كان « أمير المؤمنين عليه السلام » يقول : بالعقل استخرج غور الحكمة وبالحكمة استخرج « غور العقل ، و بحسن السياسة يكون الأدب الصالح قال : و كان يقول : التفكير ، « حياة قلب البصير ، كما يمشي الماشي في الظلمات بالنور بحسن التخلص و ، « قلة الترتيب »

((الشرح))

(عدة من أصحابنا ، عن سهل بن زياد ، عن عبيدالله الدهقان ، عن أحمد بن عمر الحلبي) ثقة (عن يحيى بن عمران) ثقة (عن أبي عبدالله عليه السلام قال : كان أمير المؤمنين عليه السلام يقول : بالعقل استخرج غور الحكمة وبالحكمة استخرج غور العقل) غور كل شيء عمقه و بعده و غاية خفاء و هذا الكلام يمكن أن يكون إشارة إلى تفاوت مراتب العقل والعلم في باب معرفة الصانع و ازدياد كل واحد منها بسبب الآخر إذ للعقل في السير من العالم السفلي إلى العالم الذي هو عالم القدس و عالم التوحيد منازل غير محصورة و له في كل منزل نور معين و كمال معلوم و بصيرة مخصوصة يستعد بها لقبول علم فوق ما يكون له في هذا المنزل و استخراجها من القوة إلى الفعل (١) فإذا استخرجه فقد انتقل من هذا المنزل

(١) في عبارة الشارح نكات يجب التنبيه عليها حتى ينظر إليها بعناية خاصة ولا يمر عليها مروراً؛ الاول سير العقل من العالم الادنى الى العالم الاعلى يسمى في اصطلاح عرفاء بالسلوك والسائر فيه السالك وقد يقال له السفر و ينقسم الى أربعة اسفار من

إلى منزل آخر فوقه ؛ وهذا العلم يوجب زيادة نوره و كماله و بصيرته على ما كان له في هذا المنزل السابق فيستخرجه هذا العلم من النقص إلى الكمال و هكذا يتدرّج في الكمال و يتبدّلان في السبيبة إلى ما شاء الله فقد تبين أن بكل واحد منهما يستخرج غور الآخر و نهاية كماله ، ويمكن أن يكون إشارة إلى مراتب العقل والحكمة النظرية فإنّ العقل الهولاني يستخرج العلوم الأولية باستعمال الآلات أعني الحواس الظاهرة والباطنة و بهذه العلوم يستخرج العقل من الهولانية إلى الملكة و هكذا إلى العقل بالفعل الذي حصل له ملكة الاستحضار متى شاء من غير تجشّم كسب جديد بل إلى ما فوق ذلك ممّا تعلّق به المشيئة الإلهية ، و بالجملة العقل بنور بصيرته يستخرج المعارف الإلهية و الحكمة الربّانية وتلك الحكمة بعد حصولها توجب كمال العقل و زيادة بصيرته فكلّ منهما يوجب خروج الآخر من حدّ النقص إلى حدّ الكمال على وجه لا يكون دوراً ، و كما أن للعقل قوّة نظريّة بهيئات من المبدء الأعلى و يستفيض منه العلوم (١) و كما لها باكتساب تلك العلوم وقد أشار إليها بعبارة و جيزه فكذاك

في الخلق إلى الحق و في الحق بالحق و من الحق إلى الخلق وفي الخلق كل ذلك بالحق و على ذلك بنى صدر المتألهين (قده) كتابه المعروف بالاسفار الاربعة. الثانية أن الترقى في كمال العقل متوقف على الاستعداد كانتقال المادة من صورة إلى صورة و فعلية السابقة معدة للاهتة. الثالثة ان الحكمة هي معرفة الله و ما يتعلق بتلك المعرفة وهي تحصل للعقل بالسير والمجاهدة كمال قاله والذين جاهدوا فيما لنهدينهم سلبناهم فبتعلم الحكمة يترقى العقل و يترقى العقل يتعلم حكمة جديدة لم يكن مستعدة لها ولا ، أو يقال المراد الحكمة العملية اى اطاعة الله في كل ما خلق الانسان لاجله و ليس المراد بالحكمة النظرية او العملية تقليد جماعة معينة من الحكماء بل متابعة العقل والدليل ، وقد ألف الانصارى الهروي كتاباً ممتعاً في منازل السائرين. (ش)

(١) هذا مذهب الحكماء في كيفية افادة المقدمات للنتائج و مذهب الاشاعرة في مطلق الاسباب ان عادة الله جرت بخلق المسبب عند وجود السبب و قالت المعتزلة بالتوليد من غير تأثير لله - تعالى الله عن ذلك - و مذهب الحكماء في هذه الاسباب انها معدات يستعده العقل والهولي للافاضة من المبدء الاعلى. (ش)

له قيمة عملية بها يؤثر فيما تحته و كمالها باكتساب الأعمال الصالحة والأخلاق
 الفضيلة وقد أشار إليها بقوله (و بحسن السياسة) في البدن والمنزل والمدينة
 (يكون الأدب الصالح) أي العمل المندرج تحت القواعد النبوية و الخلق
 الموافق للقوانين الشرعية وذلك لأن العقل سلطان في عالم الكون فيجب عليه
 أن ينظر أولاً في أحوال البدن و مشاغل قواه و حواسه و جوارحه بالأمر والنهي
 و تهذيب الظاهر باستعمال الشرايع النبوية والنواميس الإلهية (١) وتهذيب الباطن
 عن الشواغل الدنيئة والملكات الرديئة وتحليلها بالملكات والأخلاق المرضية وإلى
 هذه المرتبة أشار جل شأنه بقوله « يا أيها المدثر قم فأنذر و ربك فكبير و
 ثيابك فطهر والرجز فاهجر » فإنه تعالى أمر رسوله ﷺ بهذه الخصال المرضية
 والاجتناب عن الرجز الشامل لجميع الملكات الرديئة و أن ينظر ثانياً في أحوال
 جماعة معه في النسب والمنزل من الخدم والحشم و يأمرهم بمثل ذلك و بمافيه
 صلاحهم في الدارين من التآلف و التوافق و التعاون إلى غير ذلك مما يوجب
 تكميل نظامهم ، و إلى هذه المرتبة أشار جل وعز بقوله : « و أنذر عشيرتك
 الأقرين » و إليها و إلى الأولى أيضاً بقوله « قوا أنفسكم و أهليكم ناراً و قودها
 الناس و الحجارة » و أن ينظر ثالثاً إلى أحوال جماعة مشاركة في المدينة و
 مندرجة في سلك رعيته و يأمرهم بمثل ما أمر ، و إلى هذه المرتبة أشار عز
 سلطانه بقوله : « وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً و نذيراً » فإذا فعل ذلك وحملهم
 على تلك الأعمال و الأخلاق بأسواط حسن السياسة والتدبير حصل لهم الآداب
 الصالحة و صاروا حزب الله سائرين إلى الله ، ناظرين إلى جماله و كماله ؛ نازلين في
 منازل عزه و جلاله ألا إن حزب الله هم المفلحون (و كان يقول التفكر حياة

(١) يعني أن الشريعة الإلهية النازلة بالوحي على الأنبياء عليهم السلام مطابق لما

ذكره الحكماء في تقسيم الحكمة العملية التي ما يتعلق بالإنسان وحده بينه وبين ربه، و
 ما يتعلق بتدبير المنزل، و ما يتعلق بسياسة المدن. (ش)

قلب البصير) لما أشار عليه السلام إلى أن أثر العقل هو الوصول إلى غور الحكمة و
البلوغ إلى نهاية كمالها ، و أن أثر الحكمة هو الوصول إلى غور العقل والبلوغ
إلى غايته ، وأن أثر حسن السياسة هو التخلق بالآداب الصالحة والتجلي بالآخلاق
الفاضلة ، من البين أن الغرض الأصلي من هذه الآثار هو الوصول إلى قرب
الحق والنزول في ساحة عزه . وهناك اتحدت الغايتان و تقاربت المسافتان أشار
هنا إلى أن مبدأ تلك الآثار و منشأ هذه الأطوار هو تفكير قلب البصير ، الفهم
الذكي ، والتفكير هو حركة الذهن في مقدمات المطلوب و الانتقال عنها إليه و
القلب في عرف العارفين هي النفس الإنسانية . و استعار الحياة للتفكير إيضاحاً
للمقصود و تنزيلاً للمعقول بمنزلة المحسوس و تنبيهاً على أن الحيوان كما يتحرك
بحياة الأبدان في عالم المحسوسات إلى تحصيل مقاصده كذلك القلب بالتفكير
يتحرك في عالم المعقولات والمصنوعات لينتقل منها إلى عالم النظريات و عالم
التوحيد ليحصل له المطالب النظرية و معرفة الصانع و صفاته و أحوال المبدء و
المعاد أو على أن وجود الحيوان و بقاءه و كماله كما يكون بحياة الأبدان
كذلك وجود القلب و بقاءه و كماله في الدارين و سعادته في النشأتين يكون بالتفكير
و إنما أضاف القلب إلى البصير ولم يقل حياة القلب لأن حياة القلب حقيقة عند
العامّة بحياة الجسد المعروفة و قد يراد بها معنى آخر مجازي و هو حيوته بالعلم
و الحكمة سواء كانت مع حياة الجسد أو لا فيكون ذكر البصير كالقرينة المعينة
لأرادته بتلك الحياة معناها المجازي و دلالة نسبتها إلى التفكير على ذلك لا ينافيه
ويحتمل أن يراد بالبصير البصير بذلك التفكير أو البصير بنور العلم أو الفهم الذكي وفيه
على الأخيرين تنبيه على أن التفكير مع وجود شيء من العلم أو مع وجود الفهم
والذكاء هو النافع في الوصول إلى غاية الحكمة و نهايتها و تحصيل المطالب
العالية والمقصود أن التفكير نور إلهي و روح رباني لقلب البصير الفهم الذكي
به يصير قلبه حياً عالماً عارفاً يلبس رداء الحياة و يستيقظ من نوم النسيان و سهو
الغفلات و يتخلص من مكررة الموت بأسقام الجهالات و يهتدي إلى وجوه المصالح

الدينيوية والأخروية وما يليق به من الكمالات العقلية والنقلية والمطالب العالية. وينظر بعين اليقين إلى منزل التوحيد والمعارف الإلهية وينتقل إليها من المبادي الموصلة إليها فيسافر في ظلام بيداء الطبيعة البشرية إليها سريعاً ويمشي في ليالي إيفاء العلايق البدنية إليها حثيثاً ونور التفكير بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله يستضيء به حوله مع حزم واحتياط وحسن تخلص ونجاة من الوقوع في الباطل في مواضع يستزل فيها قدم الأفكار ويتوهم وجود قطاع الطريق من الأشرار (كما يمشي الماشي في الظلمات بالنور) يعني أن الذي قلبه حي بنور التفكير والعلم يمشي في المطالب التي هي صراط الحق ومنازل العرفان في ضباب الطبيعة وظلمات الأبدان كما يمشي الإنسان في ظلمات الليالي بنور المشاعل وضوء المصابيح وهذه استعارة على وجه التمثيل لتوضيح المقصود بنزول المعقول منزلة المحسوس ومتضمن لنشبيه الحركات الفكرية في مبادي المطلوب عند الجهل به بمشي الماشي في الظلمات بالنور (بحسن التخلص) الظرف إماتة تلقى بيمشي أو بالتفكير أو بكليهما أو حال عن الماشي أو عن التفكير أو عنهما أي حال كون ذلك الماشي أو المتفكر متلبساً بحسن التخلص والنجاة من مواضع الخوف وموارد الباطل باستعمال التدابير اللاحقة والآراء الصحيحة الراقية و يحتمل أن يكون الظرف صفة لمفعول مطلق محذوف أي شيئاً أو تفكراً مقروناً بحسن التخلص.

(وقلة التربص) يعني قلة التوقف في الانتقال من المقدمات إلى المطالب كما هو شأن الذكي الفهم وفي سبيل المجاز في حال الجواز لأن التوقف والاستبطاء في وسط الصراط مع توهم الخوف بهجوم الأوباش واللئام وزوال النور بصرصر الرياح واستيلاء الظلام بعيد عن الحزم والاحتياط نعم ما قيل : « من سلك سبيل الاحتياط فليس بناكب عن الصراط » هذا حال من تفكر وأمان لم يتفكر في دقائق المصنوعات وعجائب المخلوقات ولم ينتقل منها إلى مقام التوحيد و صفات الصانع و كماله وكذا لم يتفكر في مبادي المطالب العالية والمقاصد النظرية

ولم ينحرك إلّا إليها فهو مثل الحشرات لا يرى أنّ له وراءه بدنه كاملاً آخر فكان أعظم محبوباً به بقاء جسده بهذه الحيوة الزائلة ، وأهمّ مهروباً به هو بقائها وموتها فهو - حيّ ظاهراً وميت باطناً و ماش في ظلمات شديدة بعضها فوق بعض ، خائراً وإيراً تائهاً وهكذا حاله إلى أن يموت فإذا مات وقع في ظلمة دائمة وحسرة ثابتة وحشة باقية أبداً .

(هذا آخر كتاب العقل (١) والحمد لله وحده وصلى الله على محمد وآله وسلم)
اللهم اجعلنا من الذين تاهت أرواحهم في مطالعة الملك و الملكوت .
و كشفت لهم بنور العقل و الفهم حجب العظمة و الجبروت ، و خاضوا بغوص التفكير في بحر اليقين ، وتمتزهوا بعلوم الهمة في زهر رياض المتقين برحمتك يا أرحم الراحمين .



(١) انظر - وفقك الله لمرضاته - الى كثرة الاحاديث الواردة من طرقنا في العقل ومدحه مع تأييده بالقرآن الكريم ثم انظر الى كتب محدثي اهل السنة والجماعة و نقدتهم فقد عدوا من الموضوعات جميع الاحاديث في العقل قال المقدسي في كتاب الموضوعات «ومنها احاديث العقل كلها كذب» وأقول : العقل يدل على عدم جواز متابعة الفاضل للمفضول والعالم للجاهل و لعلمهم لذلك أنكروا صحة احاديث العقل ، و قلنا في غير هذا المقام ان رواية خلق العقل و أنه قال له : أقبل فاقبل الى آخره ، رواها ابو نعيم والطبراني في المعجم الكبير و عبدالله بن الامام أحمد بن حنبل في كتاب الزهد . (ش)

جدول الخطأ والصواب

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٩	١٢ و ١٠	الابتداء	الابتداء
٢٣	١٢	تدعوا	تدعو
٢٤	١٥	دينيا	دنيا
٤١	١٨	يخلوا	يخلو
٥٢	١٣	الاختصار	الاختصار
٥٢	١٧	الاخر	الآخرة
٦٥	١٨	لطاوة	لطاوة
٦٩	٢١	تنكر	ننكر
٧٥	٢٤	المذكور	المذكورة
٧٦	١٢	أيقاظا	أيقاظا
٨٤	١	أخرى	أخرى
٩٢	٦	الخالية	الخالية
٩٥	١	أن	أن
١١٠	٣	لا يستحق	لا يستحق
١١٠	٤	أن مستحق	أن مستحق
١٤٤	٧	درعا	درعا
١٦٦	٣	تحليتها	تحليتها
١٦٧	٢٠	ما	ما

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٨٠	٩	لا قدر	لا قدر
٢٠٥	١٨	عمله	عمله
٢٠٥	١٩	عمله	عمله
٢٠٩	٢٣	نجرم	نجرم
٢٣٦	٢٠	يطبش	يطبش
٢٤٠	٢٠	اخرحه أبين	اخرجه ابن
٢٤١	١١	هذا	هذه
٢٤٩	٢٠	الانجاج	الانجاج
٢٥٩	٢١	اطال	ابطال
٢٩٤	١	كساده	كساده
٣٣٥	١٧	ضده	ضدها
٣٧٩	٢١	ام مبتذلين	المبتذلين
٣٩٤	١٣	كثرة العدة	كثرة العدة